

موسوعة
روائع الكتب الإسلامية
الجزء الرابع

فهرسة أثناء النشر / إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، إدارة الشئون الفنية

عمارة، محمد
موسوعة روائع الكتب الإسلامية
روابط للنشر وتقنية المعلومات
17 × 24 سم
تدمك: 9789776543782
رقم الإيداع: 21016/2018
1 - الكتب - موسوعات
أ - العنوان

دار النشر: روابط للنشر وتقنية المعلومات
عنوان الكتاب: موسوعة روائع الكتب الإسلامية
الكاتب: محمد عمارة
رقم الطبعة: الأولى
تاريخ الطبع: 2019

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر



ويحذر طبع، أو تصوير، أو ترجمة، أو إعادة تنضيد للكتاب كاملاً أو جزئياً، أو تسجيله على أشرطة كاسيت، أو إدخاله على الكمبيوتر، أو برمجته على أسطوانات ضوئية، إلا بموافقة الناشر الخطية الموثقة

روابط للنشر وتقنية المعلومات

19 حسن أفلاطون - بجوار مستشفى عبد القادر فهمي

أرض الجولف - مصر الجديدة

تليفون: 20224178673

info@rawabtonline.com

www.rawabtonline.com

موسوعة روائع الكتب الإسلامية

دكتور
محمد عمارة

الجزء الرابع

المحتويات

الحدائثة الغربية والقرآن الكريم	١٥٥١
الإعجاز فى التدوين والجمع للقرآن الكريم	١٥٧٩
عن مناهج التفسير للقرآن الكريم	١٦٠١
الدكتور طه جابر العلوانى	١٦٠٧
أدب الاختلاف فى الإسلام للدكتور طه جابر العلوانى	١٦١٥
أمريكا: هل هى شعب الله المختار؟!	١٦٢١
خطة أمريكية لتحديث الإسلام	١٦٢٧
الإسلام فى عيون غربية	١٦٤٣
ويسألونك عن صراع الغرب والشرق	١٦٤٩
الجدور العميقة لظاهرة الإسلاموفوبيا	١٦٦٣
والآن	١٦٦٧
الاستراتيجية الغربية لتنصير المسلمين	١٦٧٣
الاستغلال الأمريكى للأقليات	١٦٨٥
صليبية حتى النهاية	١٦٨٩
الحرية أولاً.. مسار الحرية فى الحضارة الإسلامية	١٦٩٥
الحرية روح الإسلام	١٧١١

- ١٧١٩..... ثقافة الاستشهاد
- ١٧٢٩..... الأعمال الكاملة للشيخ عبد الجليل عيسى
- ندوة «التبيان» فقه الواقع الإسلامى عند الأستاذ الدكتور الشيخ
- ١٧٣٥..... محمد المختار المهدي
- ١٧٦٧..... الإصلاح بواسطة البيان
- ١٧٧٥..... دور الوقف فى صياغة الحضارة الإسلامية
- ١٧٨٧..... القدس بين اليهودية والإسلام
- ١٧٩١..... تقديم
- ١٧٩٧..... القدس: رمز الصراع.. وبوابة الانتصار
- ١٨١٥..... حقائق القضية الفلسطينية
- ١٨١٩..... أنا مارى شيمل
- ١٨٢٣..... الإعلام والإسلام
- ١٨٣٣..... رؤية نقدية للحركات الإسلامية
- ١٨٤٣..... سيد قطب.. والعنف
- ١٨٥٣..... فرعون الخروج.. التفسير المادى للمعجزات
- ١٨٦٥..... فى نقد المنهجية الاجتماعية الغربية
- ١٨٧١..... أهى حرب على الإرهاب.. أم على الإسلام؟!
- ١٨٨٥..... مَرَكْسَةُ الإسلام
- ١٨٨٩..... العلمانيون والحرام العلمى
- ١٨٩٧..... المسلمون الأوائل.. أم القتلة الأوائل؟!
- ١٩٠٧..... امتياز الإناث على الذكور فى الميراث والنفقة

المحتويات

- المسلمون الأوائل؟ .. أم القتلة الأوائل؟! ١٨٩٧
- امتياز الإناث على الذكور فى الميراث والنفقة ١٩٠٧
- العلامة الدكتور موريس بوكاي ١٩١٣
- كتاب القرآن والتوراة والإنجيل والعلم ١٩٢١
- العلامة الشيخ محمد بخيت المطيعي ١٩٦٥
- كتاب حقيقة الإسلام وأصول الحكم ١٩٧٣
- كتاب الإلحاد للمبتدئين ٢٠١٧
- إسلاميات الدكتور نظمي لوقا ٢٠٣٣
- ابن تيمية والسنن الربانية ٢٠٥٥
- السيرة الذاتية للأستاذ الدكتور / محمد عمارة ٢٠٦٥

الحدثاء الغربفة والقراء الكرفم

هل تصحّ قراءة القرآن بعبون الحدثاء الغربفة؟!

فى أواخر سبعفنيات القرن المفلادى الماضى دعبت إلى لقاء إسلامى مسفحى فى قبرص، وكانت الدعوة من قبل الكنائس المصرفة.. ولقد انعقد اللقاء فى قلعة من القلاع التى بناها الصلففبون إبان الحروب الصلفففة!.. وكان القائمون على الخدمة والاستضافة فىه مجموعة من الرهبان والمنصرّين الأمريكان! وكان أغلب حضور هذا اللقاء من شباب المسفحفّفن اللبناففن.. وكان التوقت مصاحباً لقيام الحرب الأهلفة اللبنافة [١٩٧٥ - ١٩٨٩م] - التى كان الدين واحداً من أبعادها.. ولقد اقتصر الحضور الإسلامى فى هذا اللقاء على أربعة من المفكرفن هم: الدكتور محمد أحمد خلف الله.. والدكتور محمد أركون.. والدكتور رضوان السفد.. وكاتب هذه السطور..

ولما تقدم الدكتور أركون لإلقاء كلمته قال كلاماً أشاع السرور فى الجمهور المسفحى عندما تحدث عن القرآن الكرفم فقال: لقد أجرفت دراسة للقرآن، بمنهاج الألسلفة - (اللسانفیات Linguistics) - فاكشفف أنه لا مقام للعقل فى القرآن؛ لأن كلمة العقل لم ترد فى القرآن.

وفى التعليق على كلام أركون هذا قلت له وللحضور: صحفح أن كلمة «العقل» - بصفغة الاسم - لم ترد فى القرآن الكرفم، لا لتجاهل القرآن للعقل والعقلانفة؛ وإنما لأنه لفس هناك عضو فى الإنسان اسمه «العقل»؛ لأن العقل فى الرؤفة القرآلفة والإسلامفة ملكة تقوم بفعل التعقل - وفى العربفة: عقلُ الناقة هو فعلُ ربطها وتقفدها - ولذلك جاء مصطلح التّعقل - ولفس اسم العقل - بالقرآن الكرفم فى تسع وأربعفن آفة.. كما جاء الحديث فىه عن «القلب» كموضع للتعقل فى مائة واثنفن وثلاثفن

موضوعاً.. وعن «اللب» فى ست عشرة آية.. وعن «النهى» فى آيتين.. وعن «الفقه» فى عشرين موضعاً.. وعن «التدبير» فى أربع آيات.. وعن «الاعتبار» فى سبع آيات، وعن «الحكمة» فى تسع عشرة آية.. وعن «التفكر» فى ثمانية عشر موضعاً.. أى أن القرآن الكريم قد تحدث عن فعل التعقل وما فى معناه فيما يقرب من ثلاثمائة آية.. وذلك غير عشرات المواضع التى استخدم فيها القرآن الكريم الاستدلالات العقلية والمنطقية من مثل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١]، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨ - ٧٩].. وغيرها وغيرها كثير^(١).

وقلت للدكتور أركون، وللحضور أيضاً: إن مقام أمر من الأمور فى نص من النصوص لا يقاس بعدد مرات ورود لفظه فيه، وإلا لكان مقام الشيطان - إبليس - أعلى من مقام محمد ﷺ؛ فلقد جاء ذكر الشيطان وإبليس بالقرآن فى تسعة وتسعين موضعاً.. بينما جاء ذكر محمد وأحمد - فقط - فى خمس آيات!..

ثم.. ألم تر.. أيها العزيز أركون - أن القرآن الكريم الذى جعل القتال مشروعاً - بل وفريضة - فى الدفاع عن الدين والوطن، وشرع الجهاد طريقاً لتحقيق العزة - حتى اتهمه خصومه ظلماً بأنه قد انتشر بالسيف - لم ترد فيه كلمة «السيف» ولو مرة واحدة؟!.. بينما النصرانية التى قال مسيحها عليه السلام إن مملكته ليست فى هذا العالم، والتى دعا أهلها إلى أن يديروا خدعهم الأيسر لمن يضربهم على خدعهم الأيمن، وإلى أن يحبوا أعداءهم، ويباركوا لأعنيهم - قد وردت كلمة «السيف» فى كتابهم المقدس أكثر من مائة مرة؟!..

* * *

* ومنذ ذلك التاريخ وذلك اللقاء أيقنتُ خطأ الحداثيين العرب الذين يستعرون آليات القراءة الحداثية الغربية التى قرأ بها التنويريون الغربيون النصوص الغربية -

(١) انظر كتابنا: مقام العقل فى الإسلام، (ص ١٠ - ١٣)، طبعة نهضة مصر، القاهرة (٢٠٠٨م).

الحدأة الغربية والقرآن الكريم

الكتاب المقدس - ليقروا بها القرآن الكريم؛ وذلك لاختلاف طبيعة النصوص الدينية فى الحضارتين - الغربية والإسلامية - بل ولاختلاف المسار الحضارى الغربى الذى أفرز الحدأة الغربية وآلياتها فى قراءة النصوص عن المسار الحضارى الإسلامى الذى اعتمد فى قراءة النصوص الدينية «تأويلاً» مختلفاً عن «الهيرمينوطيقا» Hermeneutics الغربية.. بل واعتمد المسار الإسلامى «تجديداً» مخالفاً للحدأة الغربية ذاتها.. فالبذرة الصالحة للإنبات فى التربة الحضارية الغربية ليست صالحة بالضرورة للإنبات فى التربة الحضارية الإسلامية.. وآليات القراءة الحدائية الغربية التى استندعتها طبيعة النصوص الدينية الغربية ليست بالضرورة صالحة لقراءة النص القرآنى المختلف فى طبيعته عن النصوص الدينية الغربية.. فصلاح البذرة لا يعنى بالضرورة صلاحها كى تُزرع وتنبت فى كل الأجواء وفى مختلف الأرضين..

* «لقد جاءت الحدأة الغربية ثمرة للتنوير الغربى الوضعى.. العلمانى باعتبارها «دينناً طبيعياً» يفهم الوجود بقوى دنيوية هى العقل والعلم»، حل محل اللاهوت الكُنسِى، الذى كان معادياً للعقل والعلم كما يقول عالم الاجتماع واللاهوت الألمانى «جوتفرايد كونزلن»^(١).

ولقد مثَّلت هذه الحدأة الغربية قطيعة معرفية كبرى مع الموروث الدينى الغربى، عندما جعلت الإنسان محور الثقافة بدلاً من الله، بل وألهمت الإنسان عندما جعلته سيد الكون.. وبعبارة المفكر الإيرانى الدكتور محمد خاتمى: «إن الحدأة هى الثقافة التى تتمحور حول الإنسان، فى مقابل ثقافتنا التى تتمحور حول الله.. إنها روح الحضارة الغربية المنسجمة معها، والمختلفة والمتباينة مع ثقافتنا الإسلامية.. لقد حارب الغرب ثقافته القرسطية، وكان من نتيجة حربه عليها ظهور حضارته الحديثة وثقافته الحديثة التى تبوأ الإنسان سدة المحورية فيها، فكان ذلك التحول من محورية الله إلى محورية الإنسان أبرز وجوه الاختلاف بين ثقافتنا وتقاليدنا الثقافية وبين ثقافة الغرب وحضارته الحديثة»^(٢).

(١) جوتفرايد كونزلن، مآزق المسيحية والعلمانية فى أوروبا (ص ٢٥ - ٣٠)، تقديم وتعليق: د. محمد عمارة، طبعة نهضة مصر، القاهرة (١٩٩٩م).

(٢) د. محمد خاتمى، الدين والتراث والحدأة والتنمية والحرية (ص ٤١ - ٤٩)، تقديم: د. محمد عمارة، طبعة نهضة مصر، القاهرة (١٩٩٩م).

ولقد حدث هذا الانقلاب في الغرب - انقلاب الإنسان على الله.. وانقلاب العقل والعلم على اللاهوت - لأن الكنيسة هناك قد أقامت تناقضاً حاداً بين الإنسان وبين الله، وعداء شديداً بين العقل والعلم وبين اللاهوت.. الأمر الذي يجعل هذه الحادثة خصوصية غربية أفرزتها ملاسبات غربية، ومن ثم فلا يجوز استعارتها في السياق الإسلامي الذي تقرر فيه أن الإنسان خليفة لله، وأن هذا الإنسان الخليفة لو أقسم على الله لأبره الله.. وتقرر فيه - أيضاً - أن العقل هو سبيل الإيمان بالله وهو أصل الدين والتدين.. وأن أول واجب على الإنسان هو «النظر» عند قوم، وهو «الشك» - عند قوم آخرين^(١) وأن «من لم يَشْكُ لم يَنْظُرْ، ومن لم يَنْظُرْ لم يُبَصِّرْ، ومن لم يُبَصِّرْ ففي العمى والضلال»؛ كما يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨ - ١١١١م]: حتى لقد أصبح «الشكُّ المنهجيُّ» علماً من العلوم الإسلامية يقول عنه الجاحظ [١٦٣ - ٢٥٥هـ/ ٧٨٠ - ٨٦٩م]: «فاعرف مواضع الشكِّ، وحالاتها الموجبة له؛ لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلماً؛ فلو لم يكن في ذلك إلا تعرف التوقف، ثم التثبت، لكان ذلك مما يُحتاج إليه.. فلم يكن يقين قط حتى كان قبله شكٌّ، ولم ينتقل أحد من اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما شك..»^(٢).

فنحن والغرب إذن حضارتان متميزتان، لهما مساران متميزان؛ الأمر الذي يجعل استعارة الحادثة الغربية - التي مثلت «ديناً طبيعياً» حل محل لاهوت الدين الكنسي الغربي تقليداً أعمى وجموداً لا علاقة له بأى لون من ألوان الموضوعية أو المنطق أو العقلانية.

لقد عرّف الدكتور على حرب الحادثة عند محمد أركون، فقال: «إنها القول بمرجعية العقل وحاكميته.. وإحلال سيادة الإنسان وسيطرته على الطبيعة مكان إمبريالية الذات الإلهية وهيمنتها على الكون»^(٣).

(١) د. على فهمي خشيم، الجبائيان أبو على وأبو هاشم (ص ٣٧٣)، طبعة طرابلس، ليبيا (١٩٦٨م).

(٢) الجاحظ، كتاب الحيوان (٦ / ٣٥ - ٣٧)، طبعة القاهرة الثانية.

(٣) د. على حرب، مسيرة التقدم والحادثة بين إنصاف ديتون وأشبار أركون، صحيفة (الحياة)، لندن في (١٨ - ١١ - ١٩٩٦م).

الحدائث الغريبة والقرآن الكريم

فهل يمكن لعارف بالإسلام الذى انتفى فيه التناقض بين العقل والنقل؛ لأن الوحى فيه - أى النقل - هو معجزة عقلية احتكمت إلى العقل؟ وبعبارة الإمام محمد عبده [١٢٦٦-١٣٢٣هـ / ١٨٤٩-١٩٠٥م]: «كانت الأمم تطلب عقلاً فى دين، فوافأها.. فلقد أطلق الإسلام سلطان العقل من كل ما كان قيّده، وخلّصه من كل تقليد كان استعبده، وردّه إلى مملكة يقضى فيها بحكمه وحكمته، مع الخضوع فى ذلك لله وحده، والوقوف عند شريعته.. إن العقل هو جوهر إنسانية الإنسان، وهو أفضل القوى الإنسانية على الحقيقة.. ولقد تأخى العقل والدين لأول مرة فى كتاب مقدس، على لسان نبي مرسل، بتصريح لا يقبل التأويل.. وأول أساس وُضع عليه الإسلام هو النظر العقلى، والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح؛ فقد أقامك منه على سبيل الحجة، وقاضاك إلى العقل، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن إلى سلطته؛ فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه؟

ولقد دعا القرآن الناس إلى النظر فيه بعقولهم؛ فهو معجزة عُرضت على العقل، وعَرَفَتْهُ القاضى فيها، وأطلقت له حق النظر فى أنحائها ونشر ما انطوى فى أثنائها.. والإسلام لا يعتمد على شىء سوى الدليل العقلى، والفكر الإنسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى، فلا يدهشك بخارق للعادة، ولا يُغشى بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يُخرسُ لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع فكرك بصيحة إلهية»^(١).

وفوق ذلك.. فإن المقابل «للعقل» فى لغة القرآن ليس «النقل»؛ وإنما هو «الجنون»!. فهل يجوز لعارف بهذا الإسلام استعارة هذه الحدائث الغريبة إلى الفضاء الحضارى الإسلامى، لإحلالها محل الإسلامية ولتأليه إنسانها وإحلال سيادته وسيطرته محل إمبريالية الذات الإلهية - كما يقولون؟!..

إن الإنسان فى الإسلام سيّدٌ فى الكون، وخليفة لسيد الكون.. وبعبارة الإمام محمد عبده: «إن الإنسان عبْدٌ لله وحده، وسيّدٌ لكل شىء بعده».

* * *

(١) محمد عبده، الأعمال الكاملة (٣/ ٤٦١، ٤٤٤)، (٥/ ٤٢٨)، (٣/ ٢٩٨، ٣٥٦، ٢٨٢، ١٥١، ٢٧٩). دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة بيروت (١٩٧٢م).

وإذا كانت هذه الحداثة التي مثلت خصوصيةً غربية لا يصح زرعها قسراً في فضاء رافض بالطبيعة لتوظيفها فيه.. فهل يجوز استعارة أدواتها في قراءة النص الديني الغربي لنقرأ بها النص الديني الإسلامي، متجاهلين الاختلافات الجوهرية بين طبيعة النص الديني الإسلامي وطبيعة النص الديني الغربي؟

إن النص الديني الغربي ليس وَحِيًّا إلهيًّا مباشراً؛ وإنما هو صياغة بشرية قال كُتَّابه:

«هكذا قال الرب» ولقد تحدث علماء نُقِدَ النصوص من اليهود عن أسفار (العهد القديم)، فقالوا: «إن هذه الأسفار المقدسة هي من طبقات مختلفة، وعصور متباينة، ومؤلفين مختلفين؛ حيث تستوعب ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة من الزمن.. فلا ارتباط بينها سواء في أسلوب اللغة أو في طريقة التأليف.. وإن القسم الأكبر منها لم يُكْتَبَ في الصحراء - سيناء - وموسى لم يكتبها كلها.. وإن القداسة التي أُضيفت على هذه الأسفار قد طرأت بعد عصر موسى عليه السلام بأكثر من عشرة قرون.. وبعد تدوين عزرا (القرن الخامس ق. م) لما دون من هذه الأسفار بأربعة قرون؛ فلم يكن هناك مَنْ يُقَدِّسُ هذه الأسفار قبل عصر المكابيين [١٦٨ - ٣٧ ق. م]»^(١).

وكذلك حال الأناجيل النصرانية، التي تقول عنها (دائرة المعارف البريطانية): «إن جميع النسخ الأصلية للعهد الجديد التي كتبت بأيدي مؤلفيها الأصليين قد اختفت، وإن هناك فاصلاً زمنياً لا يقل عن مائتين أو ثلاثمائة سنة بين أحداث العهد الجديد وتاريخ كتابة مخطوطاته الموجودة حالياً.. وإن مقتبسات بابوات الكنيسة من كتب العهد الجديد - والتي تغطيه تقريباً - تُظهِرُ أكثر من مائة وخمسين ألفاً من الاختلافات بين نصوص هذه الأناجيل»^(٢).

فهل يجوز لعاقِل استعارة أدوات وآليات القراءة الحداثية الغربية لمثل هذه

(١) زالمان شارار محرر تاريخ نقد العهد القديم من أقدم العصور حتى العصر الحديث (ص ١٩٦، ٢٠٦، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٠، ١٠٠)، ترجمة د. أحمد محمد هويدى. تقديم ومراجعة: د. محمد خليفة حسن، طبعة المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة (٢٠٠٠ م).

(٢) دائرة المعارف البريطانية، المجلد الثاني (ص ٩٤١).

الحداثة الغربية والقرآن الكريم

النصوص، كى نقرأ بها الوحي القرآنى المباشر والمعجز باللفظ المحفوظ الذى نزل به جبريل الأمين عليه السلام على قلب الصادق الأمين رسول الإسلام ﷺ.. والذى شهد له عارفوه - حتى من علماء الغرب اللاهوتيين - بهذا التميز والامتياز؟ والذى قال عنه اللاهوتى الدكتور «مونتجمرى وات» [١٩٠٩ - ٢٠٠٦م] - وهو قسيس إنجيلي.. ابن قسيس خدم فى كنائس لندن وأدنبرة والقدس، وأمضى أكثر من ثلث قرن فى دراسة العربية والقرآن والإسلام - كاتباً عن تَمَيُّز القرآن وامتيازهِ: «إن القرآن صادر عن الله، وبالتالي فهو وحى، وليس كلام محمد بأى حال من الأحوال، ولا هو نتاج تفكيره.. وإن محمداً ليس أكثر من رسول اختاره الله لحمل هذه الرسالة.. وإن التجربة النبوية مع الوحي يمكن إيجاز ملامحها الرئيسية فيما يلى:

١ - محمد يشعر، وهو فى حالة وعى، إن هناك كلمات بعينها تلقى فى روعه، أو تحضر فى قلبه أو عقله الواعى.

٢ - وإن هذه الكلمات والأفكار لم تكن أبداً نتيجة أى تفكير واعٍ من جانبه.

٣ - وإنه يعتقد أن هذه الكلمات أُلقيت فى روعه من قِبَل مندوب أو مبعوث خارجي مُتَحَدِّثٍ إليه كملك.

٤ - وإنه يعتقد أن هذه الرسالة قادمة من الله تعالى.

وعندما تمت كتابة هذا الوحي شكَّل النَّصَّ الذى بين أيدينا.. وعندما تحدى محمد أعداءه بأن يأتوا بسورة من مثل السور التى أُوحِيَتْ إليه، كان من المفترض أنهم لن يستطيعوا مواجهة التحدى؛ لأن السور التى تلاها محمد هى من عند الله، وما كان لبشر أن يتحدى الله..

وإذا كان القرآن كلام الله وحده ورسالته إلى محمد، فإن الكثيرين من المسيحيين لا يفترضون أن كلمات الله فى (العهدين القديم والجديد) قد جلبها مصدر خارجي مُمَثِّلٌ فى ملك أو ملائكة يُملونها على كُتَّاب الوحي، وإنما يُلقَى فيه رَوْعٌ هؤلاء الكُتَّاب أن ما يكتبونه إنما هو كلام الله حقاً.. والأنبياء الوارد ذكرهم فى (العهد القديم) يعلنون دون تردُّدٍ: «هكذا يقول الرَّبُّ»..

وإن إشارة القرآن إلى تحريف لَحِقَّ اليهودية والمسيحية - بصورتها الموجودة على أيامه - قَوْلٌ صحيح..^(١).

فهل يجوز بعد هذه الشهادات الغربية، على اختلاف طبيعة النص الديني الذي تعاملت معه الحداثة الغربية عن طبيعة النص الديني الإسلامي التسوية بينهما، ومن ثم استدعاء آليات القراءة الحداثية لنقرأ بها القرآن الكريم؟!*

ثم.. هل تجوز التسوية بين نصوص دينية ناسبت طفولة العقل البشري، فاعتمدت على «الخوارق المادية» التي تدهش العقل فتشله عن التفكير، وبين نص ديني وَاكَبَ بلوغ الإنسانية سن الرشد، فاعتمد المنطق والعقل وتحاكم إلى الحجة والبرهان، ورفض رفضاً قاطعاً ومتكرراً الاستجابة للذين سعوا إلى أن يسير على طريق الاستدلال بالخوارق المادية: ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ۝٨٨ وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً ۝٨٩ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفْيِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ ۝٩٣ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۝٩٤ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۝٩٥﴾ [الإسراء: ٨٨ - ٩٤].

هل تجوز التسوية بين هذه النصوص المختلفة في طبيعتها، وفي سُبُل الاستدلال فيها.. ومن ثم نضعها في سلة واحدة، فنقرأها جميعها بعيون الحداثة الغربية التي واجهت لاهوتا قاد أوروبا إلى عصور الظلمات.. بينما كان القرآن الكريم والحضارة التي أُنشأت من حوله المنارة التي أنارت الشرق، وجعلته العالم الأول على ظهر هذه الأرض لأكثر من عشرة قرون.. ثم أخرجت أوروبا من عصور الظلمات؟!*

(١) د. مونتجمري وات، الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر (ص ٣٥، ٣٦، ٨٣، ١٠٦، ٣٩، ١٧٠، ٢٠٦، ٥٢ - ٥٤، ٧١، ٣٢، ٦١، ١٢٨، ٦٣، ١٣١)، ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، طبعة مكتبة الأسرة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة (٢٠٠١ م).

الحداثة الغربية والقرآن الكريم

ثم.. وعلى حين تميزت النصوص الدينية الغربية بالركاقة.. فلقد تفرد القرآن الكريم دون كل النصوص الدينية منها والبشرية بألوان من الإعجاز التي مثلت بحاراً ليس لها قرار.. حتى لقد غدا هذا الإعجاز القرآني فناً من فنون التأليف في الحضارة الإسلامية كُتِبَتْ فيه مئاتُ المجلدات.. ولا تزال أبوابه مفتوحة أمام العقول التي هداها الله لكشف المزيد من أسرار هذا الإعجاز..

وإذا كان المقام لا يتحمل الخوض في هذا البحر، فإن إشارات إلى لون من ألوان الإعجاز للنص القرآني هو الإعجاز الهندسي تكفى للفت الأنظار إلى هذا التميز والامتياز..

فالقرآن الكريم قد تَحَدَّى العالمين - إنساً وجناً - أن يأتوا بشيء من «مثله».. فلماذا كان الاستخدام للفظ «المثل» دون سواه؟!

- إن «النَّدَّ» في العربية هو المشاركة في الجوهر فقط..

- و«الشَّبه» هو المشاركة في الكيفية فقط.

- و«الشكل» هو المشاركة في القَدْر والمساحة فقط.

- أما «المثل» فهو عامٌّ؛ إذ يعنى المشاركة في الجوهر.. والكيفية.. والكمية.. والقدر.. والمساحة، جميعاً^(١).

* ومن أسرار الإعجاز الهندسي في القرآن الكريم افتتاح كل رُبع من أرباعه - الأربعة - بـ (الحمد لله) في فاتحة القرآن.. وفي أول الأنعام.. وفي أول الكهف.. وفي أول فاطر..

* وكذلك الحروف المقطعة التي افتتحت بها عدة سور من سور القرآن الكريم.. ففي أصواتها - وللصوت في العربية معنى تتفرد به عن سائر اللغات - تكمن المعاني التي تغلب على آيات السورة التي افتتحت بها^(٢).. وفي هذه الحروف المقطعة نصف

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، طبعة دار التحرير، القاهرة (١٩٩١م).

(٢) د. تحية عبد العزيز إسماعيل، التفسير العلمي لحروف أوائل السور في القرآن الكريم، طبعة مطابع الأهرام، القاهرة (١٩٩٠م).

حروف الأبجدية (أربعة عشر حرفاً) وفيها حرفان منقوطان (ق، ن).. واثنان عشر غير منقوطة.. وفي الأربعة عشر الأخرى من حروف الأبجدية حرفان غير منقوتين (و، د) واثنان عشر منقوطة.. وفي هذه الحروف المقطعة: نصف الحروف المهموسة.. ونصف الحروف المقلقلة.. ونصف الحروف المهموزة.. وفيها من مخارج الحروف النصف من حروف كل مَخْرَجٍ.

* ومن الإعجاز الهندسى فى ألفاظ القرآن الكريم مجيء:

- «المطر»: فى العذاب والأذى.. و«الغيث»: فى السراء..
- «التغيير»: للسلبى.. و«الإصلاح»: فى الإيجابى..
- و«المرضع»: فى فترة الإرضاع - العامين .. و«المرضعة»: فى حال الإرضاع..
- و«الجسم»: للحى.. و«الجسد»: للميت..
- و«السَّنة»: للشمسية.. و«العام»: للقمرى..
- و«القَسَم»: لمطلق اليمين.. و«الحَلْف»: للحنث فى اليمين..
- و«السَّنة»: لتلى فيها جذب وشقاق.. و«العام»: للذى فيه خصب ورخاء..
- و«الحول»: للمدة الزمنية المحايدة.
- و«القعود»: عن القيام.. و«الجلوس»: عن الاضطجاع..
- و«التمام»: للوصول إلى الكمال المُتَجِّه إليه إثر نقص.. و«الكمال»: لغرض الوصول إليه مع استبعاد النقص..
- «المجىء»: من زمان أو مكان قريب.. و«الأتان»: فى المكان والزمان البعيد..
- و«العباد»: تَغْلِبُ فى المؤمنين المطيعين.. و«العبيد»: تغلب فى الكفار العصاة..
- و«السماء»: تأتى مفردة وجمعاً.. و«الأرض»: مفردة دائماً..
- و«البصر»: مفرد وجمع.. و«السمع»: مفرد دائماً..
- و«النهار»: مفرد.. وجمعه أيام..
- و«الصراط»: مفرد.. وجمعه سُبُل..

- و«النور»: مفرد فقط.. و«الظلمات»: جمع فقط..
- كذلك تم التزام الجمع فقط فى كلمات: «الألباب» و«الأكواب» و«الأصفاد»
و«الأباريق» و«السرابيل» و«الأرائك» و«العالمين»..
فهل يجوز لعاقل أن يتعامل مع هذا النص القرآنى الذى لا تنقضى عجائبه.. ولا
تنقضى أَوْجُهُ إعجازه على النحو الذى تعاملت به الحداثة الغربية مع نصوص بشرية
- أو حتى دينية - حالها كالذى رأيناه؟!!

* * *

وفارق آخر يمايز بين النموذج الحضارى الإسلامى وبين نظيره الغربى هو «طبيعة
العقل» فى كُلِّ من النموذجين.. فهناك «العقل اليونانى».. وهناك «العقل المسيحى»..
وهناك «العقل الإسلامى» المتميز عنهما.. وكما تقول المستشرقة الألمانية الدكتورة
«سيجيريد هونكة» [١٩١٣ - ١٩٩٩م]:

* «فإن العقل اليونانى الإغريقى عقل تأملى.. يرتاب، ويزدرى، ويتجنب الخبرة
الملموسة، والعمل الذى يتطلب الملاحظة المكثفة، مثلما ينكر على الرجل الحر
العمل اليدوى الموكول للعبيد فقط، مُتَمِّمًا بذلك تَحْلِيْقَهُ شطر مملكة الأفكار
العامة والقوانين؛ لذا فإن اليونانى يذعن للصيغ الفكرية الهندسية المجردة،
ولأشكال الفضاء المثالية، فى الوقت الذى يترك مزاولة الأعمال الحسابية إلى
البائع فى السوق.. وهذا التصنيف ينطبق على المراتب الاجتماعية بدءًا بالهيئة
الحاكمة، ونزولًا إلى المهن المبتدلة كأصحاب الحرف والمهندسين ومهندسى
البناء والفنيين، وختامًا بالعبيد، ولقد كانت المادة (الطبيعة) لدى حكماء اليونان
نقيضة لله تمامًا.. والحركة والضرورة والتحول هى علاقة اللاكمال.. ولقد ابتعد
أرسطو [٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م] عن الحقيقة لدى تعرضه لطبيعة الطيور؛ لأنه لم يمارس
صَيْدَ الطيور أبدًا.. كما ابتعد «جالينوس» [١٢٩ - ١٩٩م] عن الحقيقة فى تشخيص
الفك الأسفل فقال: إنه مكون من عظمتين مجتمعين معًا؛ لأنه لم يجرب، حتى جاء
الطبيب عبد اللطيف البغدادى [٥٢٠ - ٦٢٨ هـ / ١١٢٦ - ١٢٣١م] فأثبت بعد

المشاهدة والتجربة على ألاف العظام والهيكل أن الفك الأسفل هو عظم واحد دون رفو..».

* أما العقل المسيحي فهو عَدُوُّ الحكمة.. وبعبارة «بولس»: «لأن حكمة هذا العالم هي جهالة عند الله.. والرب يعلم أن أفكار الحكماء باطلة..»!

«وفي النصرانية: «الإيمان» أن لا ترتاب، وأن لا تسأل.. ولقد وصف الأب الروحي «تيرتوليان» [١٥٥ - ٢٢٢م] فضول العقل بأنه إثم، وفضول فاحش.. ولقد وصف الله المعرفة في الدنيا بأنها غرور.. ونهى «بولس» الرسول عن أى نوع من أنواع البحث عن الحقيقة في هذا العالم.. ولقد جاء: «سأبدد حكمة الحكماء، وأنبذ معرفة العارفين.. ولقد كان البحث عن الحقيقة في مكان آخر غير الإنجيل خطيئة ملحدة.. ولقد اعتبر «أوغسطين» [٣٥٤ - ٤٣٠م] النزوع إلى التجربة والابتكار فضولاً مريضاً.. وقال «بولس» الرسول: «يوجد مكتوب: أريد أن أهدم حكمة الحكماء، وأحطم عقل العقلاء.. وإن الغباء الموجود في الوجود قد اختاره الله..».

ولقد فصلت المسيحية فصلاً مطلقاً بين الحياة الأخروية العلوية، والدينية الأرضية المكتظة بالنقائص.. فالعداوة قائمة بينهما، ولا أمل في التوفيق بين: الله والعالم الروحي والديني، الروح والجسد، الرجل والأنثى، ولقد تعلموا ذلك من «أوغسطين» أساساً..

ولقد جعلت المسيحية الإنسان يتساءل:

- أو لم تكن الشهوة إلى المعرفة هي السبب في إنزال الخطيئة إلى العالم؟
- أو لم يصف الله حكمة الحكماء بأنها غباء؟ ورفض «بولس» كل أنواع البحث عن الحقيقة؟

وإلى جانب الطريق الروحية الوحيدة الموصلة للروح، إلى الله، اعتُبر كل طريق للبحث عنها في أى مكان آخر عدا الوحي خاطئاً مارقاً؛ فأُن تكون محبباً للاطلاع، وأن تبحث بعدما بُشِّرَ بالإنجيل أمران جعلهما «تيرتوليان» و«أوغسطين» ورئيس أساقفة «تمبير» إثمًا عظيمًا وخطيرًا..».

الحداثة الغربية والقرآن الكريم

كذلك اعتبرت المسيحية أنه لم يكن ثمت باعث، بل ولا حقَّ أيضًا في تقصّي الأسباب..».

ولقد حرص اليهود والنصارى على القول بأن النُصْب المقدسة تذرف الدمع، ومن أُنْدائها ينضح اللبن!..

ولقد نصَّ المرسوم الكنسيّ (١٢٢٨م): «إن على أعضاء الطائفة أن لا يدرسوا الفلاسفة الملحدّين.. وعليهم أيضًا أن لا يتعلموا الفنون الحرة ولا المبادئ الأولية، كالحساب والتعداد..

ولقد نظرت الكنيسة إلى العلم بتقزّز واشمئزاز، وحذرت وخوّفت الطامحين في المعرفة الإنسانية.. وكما شدد «أفلاطون» (٤٢٧ - ٣٤٧ ق. م) على استحالة المعرفة بواسطة الحواس، أجمعت الكنيسة والأفلاطونية والأرسطوطاليسية على وصف الأرض وما يعيش عليها كبؤس وضعيع وشبح مرتم في التنانة، ومادة معتمة فوضوية، في مقابل عالم فوقى مثالى علوى خليق بالطموح..».

هكذا حكمت المسيحية على العالم بأنه دنس؛ لأن مملكة المسيح ليست فيه.. ومن ثم حظرت الكنيسة التجريب فى العالم وفى الطبيعة؛ فهو - أيضًا - دَنَسٌ يورد أصحابه أهوال محاكم التفتيش!..

* * *

فإذا كان هذا هو حال «العقل الموروث» فى الحضارة الغربية الذى اضطرت الحداثة الغربية إلى إقامة قطيعة معرفية كبرى معه، لتخرُج أوروبا من كهوف الظلمات إلى أنوار عصر النهضة.. فهل يجوز للحدائين العرب تصور العقل المسلم والعقلانية الإسلامية التى نبعت من فقه الحكمة القرآنية، والتى تبلورت فلسفة إسلامية فى القرن الهجرى الأول؟ هل يجوز لهم وضع العقل المسلم وعقلانيته المؤمنة فى سلة واحدة مع هذا البؤس الذى رسمت معالمه المستشرقة الألمانية «سيجيريد هونكة»؟!..^(١).

(١) د. سيجريد هونكة، الله ليس كذلك (ص ٧٧، ٧٨، ٣٧). ترجمة: د. غريب محمد غريب، طبعة دار

* ففي الإسلام: أنزل الله الكتاب والحكمة.. أى الصواب الذى جاءت به النبوة فى الوحى.. والصواب الذى يدركه العقل خارج إطار النبوة والوحى..

وبعبارة حجة الإسلام أبى حامد الغزالى: «فإن مثال العقل البَصْرُ السليم عن الآفات والآذء، ومثال القرآن الشَّمْسُ المنتشرة الضياء؛ فأخلق بأن يكون طالب الاهتداء المستغنى بأحدهما عن الآخر فى غمار الأغبياء؛ فالمُعْرِضُ عن العقل مكتفياً بنور القرآن مثاله المتعرض لنور الشمس مغمضاً للأجفان؛ فلا فرق بينه وبين العميان.. فالعقل مع الشرع نور على نور»^(١).

وبعبارة إمام الصوفية والسلفية الحارث بن أسد المحاسبى [١٦٥ - ٢٤٣هـ/ ٧٨١ - ٨٥٧م]: «فإن العقل غريزة وضعها الله - سبحانه - فى أكثر خلقه.. ونور فى القلب كالنور فى العين.. يولد العبد به، ثم يزيد فيه معنى بعد معنى بالمعرفة بالأسباب الدالة على العقول..

والمعرفة عن العقل تكون.. وهو صفوة الروح.. ولقد سُمى العقل لبًّا؛ ولُبُّ كل شىء خالصه، وقال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

وبالعقل عرف الخلق الله، وشهدوا عليه بالعقل الذى عرفوه به من أنفسهم بمعرفة ما ينفعهم ومعرفة ما يضرهم.. وبه أقام الله على البالغين للحلم الحجة، وإياهم خاطب من قبل عقولهم، ووعد وتوعد، وأمر ونهى، وحض وندب..

ولقد روى فى التفسير لما قاله الله تعالى لموسى عليه السلام ﴿وَأَنَا أَخَّرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه: ١٣] «اعقل ما أقول لك».. فالفهم والبيان يسمى عقلاً؛ لأنه عن العقل كان.. والله عز وجل يقول ﴿وَعِيبًا أَدْنُ وَعِيبَةً﴾ [الحاقة: ١٢].. أى: أَدْنُ عقلت عن الله تعالى؛ يعنى: عَقَل عن الله ما سمعت أذناه، مما قال أو أخبر»^(٢).

الشروق القاهرة (١٩٩٥م)، والعقيدة والمعرفة (ص ٢١، ٢٣، ٤٢، ٢٠١ - ٢٠٣، ١٩٤، ١٨٧، ١٦٧، ١٦٥، ٨٣، ٩٤، ٥٢، ٥٣، ٦٣، ٥٥، ٧٩، ٢٢٧، ١٩١، ١٩٢)، ترجمة: عمر لطفى العالم. طبعة دار قتيبة. دمشق (١٩٨٧م) وانظر كذلك كتابنا: الإسلام فى عيون غربية (ص ٣٢٩ - ٣٣٨)، طبعة دار الشروق. القاهرة (٢٠٠٥م).

(١) الغزالى، الاقتصاد فى الاعتقاد (ص ٢، ٣). طبعة صبيح القاهرة. بدون تاريخ.
(٢) الحارث المحاسبى، مائة العقل وحقيقة معناه (ص ٢٠١ - ٢٠٥، ٢٠٨، ٢١١)، دراسة وتحقيق: حسين القوتلى، طبعة بيروت (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م).

وبعبارة ففقه الفلاسفة وفلسوف الفقهاء أبو الولرد ابن رشد [٥٢٠ - ٥٩٥هـ/ ١١٢٦ - ١١٩٨م]: «إن الشرع دعا إلى اعتبار الموجودات بالعقل، وتطلب معرفتها به، وذلك بئن فى غير ما آية من كتاب الله تبارك وتعالى، مثل قوله تعالى: ﴿فَاعْتَرُوا يَكُونِ الْأَبْصَرِ﴾ [الحشر: ٢] وهذا نص على وجوب استعمال القياس العقلى، أو العقلى والشرعى معاً.. فوجب أن نجعل نظرنا فى الموجودات بالقياس العقلى.. وإذا كانت هذه الشريعة حقاً، وداعية إلى النظر المؤدى إلى معرفة الحق، فإننا - معشر المسلمين - نعلم على القطع أنه لا يؤدى النظر البرهانى إلى مخالفة ما ورد به الشرع؛ فإن الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له.. إن الحكمة هى صاحبة الشريعة، والأخت الرضية.. وهما المصطحبتان بالطبع، المتحابتان بالجواهر والغريزة..»^(١).

وبشهادة البروفسور والمستشرق الفرنسى «إدوارد مونتيه» [١٨٥٦ - ١٩٢٧م]: «فإن الإسلام فى جوهره دين عقلى، بأوسع معانى هذه الكلمة من الوجهتين: الاشتقاقية والتاريخية؛ فإن تعريف الأسلوب العقلى Rationalism بأنه طريقة تقييم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق ينطبق على الإسلام تمام الانطباق.. إن لدين محمد كل العلامات التى تدل على أنه مجموعة من العقائد قامت على أساس المنطق والعقل.. إن الإيمان بالله والآخرة - فى الإسلام - يستقران فى نفس المتدين على أساس ثابت من العقل والمنطق، ويلخصان كل تعاليم العقيدة التى جاء بها القرآن، وإن بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهما على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة فى الدين وفى نشاط الدعوة إلى الإسلام.

لقد حفظ القرآن منزلته من غير أن يطرأ عليه تغيير أو تبدل، باعتباره النقطة التى بدأت منها تعاليم هذه العقيدة، وقد جهر القرآن دائماً بمبدأ الوحانية فى عظمة وجلال وصفاء لا يعتره التحول. ومن العسير أن نجد فى غير الإسلام ما يفوق تلك المزاياء، وفى هذا تكمن الأسباب الكثيرة التى تفسر لنا نجاح جهود الدعاة المسلمين»^(٢).

(١) ابن رشد، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال (ص ٢٢، ٢٣، ٣١، ٣٢، ٦٧)، دراسة وتحقيق: د. محمد عمار، طبعة القاهرة (١٩٨٣م).

(٢) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام (ص ٤٥٥)، ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوى، طبعة مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (١٩٧٠م).

فهل بعد هذه المغايرة بين الموروث الإسلامى فى العقلانية وفى طبيعة النصوص الدينية - وبين نظائرها فى الموروث الغربى - التى شهد عليها خبراء فى الميراثين مثل المستشرق الفرنسى «إدوارد مونتييه» - يجوز لعاقل استعارة آليات النظر والقراءة الحديثة الغربية لتنظر بها ونقرأ وفقاً لمعاييرها القرآن الكريم؟! *

* * *

لقد اعتمدت الحداثة الغربية «الهيرمينوطيقا» Hermeneutics لقراءة نصوص دينية طبيعتها وحالتها على النحو الذى رأينا.. ولقد قامت هذه «الهيرمينوطيقا» «بأنسنة النص الدينى»، وقالت بنظرية «موت المؤلف»؛ وذلك بعد أن صاحت الحداثة صيحتها المُنكَرَة: «لقد مات الله»!.. وانطلاقاً من هذا الموقف استباححت النصوص الدينية، وجعلت القارئ هو المؤلف الحقيقى للنص.. فلكل قارئ قراءته الخاصة.. ولا عبرة بمقاصد صاحب النص؛ وإنما العبرة بما يريد أن يفهمه القارئ من النص المقروء!!.. لقد أحلت هذه «الهيرمينوطيقا» «الدلالة» و«المغزى» محل «المعنى»، فأقامت القطيعة مع مراد صاحب النص.. وحررت القارئ للنص من المقاصد والمعانى والقيم والأحكام التى أرادها صاحب النص.. أى أنها قد فرغت النص الدينى من الدين!!..

وانطلاقاً من نظرية «موت المؤلف» التى سبقتها نظرية «موت الإله» تم تحرير فهم القارئ للنص الدينى من المقاصد الإلهية، وتمت قطيعة المباحدة مع المعانى التى أرادها المبدعون للنصوص بوجه عام.. وبذلك تم إحلال «الدين الطبيعى» محل الدين الإلهى.. «فالقارئ هو الذى ينتج النص.. ويصبح هناك عدد من النصوص بعدد القراء الذين يتلقون النص»^(١).

وفى التنظيم للقطيعة المعرفية التى أقامتها «الهيرمينوطيقا» مع المقاصد والأحكام والقيم التى جاءت بها النصوص الدينية يقول الفيلسوف الفرنسى «بول ريكور»: «إن الهيرمينوطيقا تبدأ عندما لا نكون مسرورين بالانتماء إلى تقليد متوارث، فنقطع علاقة الانتماء لمنحها دلالة ما.. ولقد وُلِدَت الهيرمينوطيقا - أو بالأحرى بُعثت - فى القرن

(١) سيزا قاسم، القارئ والنص: العلامة والدلالة (ص ١٢٤، ١٢٥)، طبعة القاهرة (٢٠٠٢م).

الثامن عشر بفضل انقلاب كوبرنيكي^(١) قدم سؤال: ما الفهم؟ على سؤال: معنى هذا النص أو ذاك، أو معنى هذه الفئة أو تلك من النصوص المقدسة أو الدنيوية.. ولقد أصبح بإمكان القارئ أن يستخرج من النص «دلالة» ليست ما قصد إليها المؤلف.. حتى ولو كانت هذه «الدلالة» من إسقاط القارئ.. فهدف الهيرمينوطيقا الأخير هو فهم المؤلف أحسن مما يفهم المؤلف نفسه!! لقد غدت «الدلالة» الموضوعية شيئاً آخر غير قصدية المؤلف الذاتية!! وواحد من أهم أهداف أي هيرمينوطيقا هو المباعدة إزاء المعنى نفسه؛ أى إزاء نظام القيم الذى يقوم عليه النص!! وهكذا تم فى الهيرمينوطيقا تأليه القارئ كل قارئ - والحكم بموت المؤلف، ونسخ القيم والأحكام التى حملها التراث.

وأمام ذاتية الفهم وتعدد الدلالات بتعدد القراء للنص الواحد، وموت المؤلف، وموت المعنى، وموت المرجعية، ومن ثم تعدد التأويلات للنص الواحد.. بل وربما للقارئ الواحد فى النص الواحد.. تفتح الهيرمينوطيقا الباب واسعاً لصراع التأويلات.. «فهناك صراع تأويلات، والتأويل النهائى يظهر كالقرار الممكن استثنائه.. ولا مجال لكلمة أخيرة.. وإذا حدث ذلك فإننا نسميه عنفاً».

وانطلاقاً من هذه العبثية فى قراءة النصوص الدينية، حكمت هذه الهيرمينوطيقا على النصوص الدينية بالنسبية بعد أن أنكرت المطلق بإطلاق!!.. وقالت عن الوحي: إنه ما يوجهه القارئ وعالمه وواقعه، وليس ما يوصيه الله!!.

هكذا لعبت الحداثة الغربية - عن طريق الهيرمينوطيقا - بالنصوص الدينية.. بل واعترفت بأنها قد مارست هذا «اللعب العابث» بهذه النصوص؛ فقال «بول ريكور»: «إننى وأنا أقرأ لا أتحقق؛ فالقراءة تدخلنى إلى التنويعات الخيالية للأنا، وتحول العالم بحسب اللعب هو أيضاً تحول لعبى للأنا»^(٢).

(١) نسبة إلى الفلكى البولندى «كوبرنيك» [١٤٧٣-١٥٤٣م].

(٢) بول ريكور، من النص إلى الفعل: أبحاث التأويل (ص ٢١، ١٠٦، ٤٦، ١٠٧، ١١٠، ١١١، ١٢٠، ١٥٤، ٣٨، ١٤٤، ١٤٥، ٨٥، ٨٧، ١١٨، ٤٦، ١١٧، ١٢٩، ٢٩٢، ١٥٨، ٩٧، ٢٩٢)، ترجمة: محمد برادة، وحسان بورقية، طبعة القاهرة (٢٠٠١م).

ولأنّ الحداثيين العرب هو ماضويّون - ماضيهم الحداثة الغربية - وهم مقلدون لهذه الحداثة - حَذَوْ النعل بالنعل - فلقد أرادوا قراءة القرآن الكريم بهذا التأويل العبثي الهيرمينوطيقا - ليفرغوا القرآن الكريم من المقاصد الشرعية، وليجعلوا من أنفسهم المؤلفين الحقيقيين لنصوصنا الدينية؛ انطلاقاً من نظريات الحداثة الغربية في «موت المؤلف» بل و «موت الله».. تعالى الله عن ما به يهرفون!

* لكن القرآن الكريم - وهو الوحي الإلهي المباشر المُعْجِزُ والمَحْفُوظ من تحريف المُحَرِّفِينَ ولعب اللاعبين وَعَبَثِ العابثين لا يمكن أن يكون حقلاً لهذا العبَثِ الحداثي بأي حال من الأحوال.

لقد شهد له بالإعجاز والتميز والامتياز عارفوه - خصوصاً وأنصاراً، مؤمنين وكفاراً، على حدّ سواء - فقال عنه أبو عبد شمس الوليد بن المغيرة [٩٥ ق. هـ - ١ هـ / ٥٣٠ - ٦٢٢ م] - وهو عدلٌ قريش، وقاضيهما، وأحد زعمائها وزنادقتها - «والله، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لمُغْدَق، وإن فرعه لمُثْمِر، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه، وما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن».

أما أبو الوليد، عتبة بن ربيعة بن عبد شمس [٢ هـ / ٦٢٤ م] فقال عندما سمع شيئاً من هذا القرآن الكريم: «والله، لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط؛ والله، ما هو بالشعر ولا بالسحر، ولا بالكهانة.. ووالله، ليكونن لهذا الذي سمعتُ نبأً عظيم»^(١).

وفي العصر الحديث قال عنه الإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] - وهو أحد بُلْغَاءِ العصر -: «إن القرآن كلام سماوى، تَنَزَّلَ من حضرة الربوبية التى لا يكتنه كنهها، على قلب أكمل الأنبياء.. إنه النور المنبعث عن شمس العلم الإلهي، والحكم الصادر عن المقام الرباني، على لسان الرسول الأُمى.. وهو يشتمل على معارف عالية، ومطالب سامية، لا يشرف عليها إلا أصحاب النفوس الزاكية والعقول الصافية..»^(٢).

(١) المعافري، أبو عبد الملك بن هشام، مختصر سيرة ابن هشام (١ / ١٨٧)، طبعة القاهرة، (١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م).

(٢) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده (٣ / ٤٣٦).

الحداثة الغربية والقرآن الكريم

وقال فيه واحد من آيات البلاغة الحديثة - العلامة مصطفى صادق الرافعي [١٢٩٧ - ١٣٥٦ هـ / ١٨٨٠ - ١٩٣٧ م]: «إن القرآن أنزل لتكون كل نفس سامية نُسخةً حية من معانيه، وليكون هو النفس المعنوية الكبرى؛ «فهو كتاب» ولكنه على ذلك مجموعة العالم الإنساني».

أما الدكتور طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ / ١٨٨٩ - ١٩٧٣ م] - وهو أحد بلغاء العصر - فإنه قال: «إن القرآن ليس شعرًا ولا نثرًا، وإنما هو قرآن»^(١).

* ولقد أجمع علماء الإسلام على أن هذا القرآن الكريم لا تنقضى عجائبه، وأنه بحر من المعاني ليس له قرار.. ولذلك قال جمهور العلماء «بالتأويل» الذي يجعل آيات القرآن مفتحة الأبواب دائمًا وأبدًا لاكتشاف كل ما هو جديد.. وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي «باتفاق فرق الإسلام على التأويل؛ إذ ليس هناك فريق من أهل الإسلام إلا وهو مضطر إلى التأويل، حتى من كان منهم غير مُعِين في النظر العقلي.. لكنهم اتفقوا على أن جواز ذلك موقوف على قيام البرهان على استحالة الظاهر»^(٢).

وفي تعريف التأويل يقول عبد القاهر الجرجاني [٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م]: «إنه معنى المعنى؛ فالمعنى هو المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة، أما معنى المعنى، فالمراد به أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضى بك ذلك المعنى إلى معنى آخر.. فإنك في جميع ذلك لا تُفيد غرضك الذي تعنى من مجرد اللفظ، ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنىً ثانيًا هو غرضك»^(٣).

ولقد وضع علماء الإسلام لهذا التأويل الذي هو الآلية لاكتشاف ما وراء ظواهر ألفاظ القرآن الكريم ضوابط لغوية وعقدية؛ حتى لا يكون لعبًا عبثيًا كالهيرمينوطيقا

(١) د. طه حسين، الفتنة الكبرى (١) عثمان (ص ٣٢)، طبعة القاهرة (١٩٨٤ م).

(٢) الغزالي، في فصل التفرقة بين الإسلام والزندقة (ص ١٠، ١١)، طبعة القاهرة (١٣٢٥ هـ / ١٩٠٧ م).

(٣) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز (ص ٢٦٣، ٢٦٢)، تحقيق: محمود محمد شاكر، طبعة القاهرة (٢٠٠٠ م).

الحداثيّة الغربيّة - فقال الشريف الجرجاني [٧٤٠-٨١٦هـ / ١٠٧٧-١١٤٣م] في التعريف الشرعي لهذا التأويل: «إنه صَرَفُ اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المُحْتَمَلُ الذي يراه موافقاً للكتاب والسُّنَّة»^(١).

ولقد جعل العلماء من السياق دليلاً لتعيين ما فيه تأويل... فقال قَوْمٌ - منهم البغوى [٢١٣-٣١٧هـ / ٨٢٨-٩٢٩م] والكواشى [٥٩٠-٦٨٠هـ / ١١٩٤-١٢٨١م]: «إن التأويل هو صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وما بعدها تحتمله الآية، غير مخالف للكتاب والسُّنَّة من الاستنباط»^(٢).

* أما فيلسوف الفقهاء وفقيه الفلاسفة أبو الوليد ابن رشد، فلقد فصل نظرية الإسلام في التأويل تفصيلاً؛ وذلك على النحو الذي ندعو فيه أنصار الهيرمينوطيقا الحداثيّة إلى الإياب لنظرية ابن رشد في التأويل - ونحن نعلم إجلالهم له...

لقد نَبَّه ابن رشد على أن للتأويل العربي أى في اللغة العربيّة - ضوابط حددها هذه اللغة؛ فهو لا يَجُوزُ إلا في المواطن التي تتوفر فيها للنص هذه الضوابط اللغوية؛ وذلك عندما قال «.. ومعنى التأويل هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية، من غير أن يُخِلَّ ذلك بعادة لسان العرب في التجوُّز من تسمية الشيء بشبيهه أو بسببه أو لاحقه أو مقارنه، أو غير ذلك من الأشياء التي عُدَّت في تعريف أصناف الكلام المجازي»^(٣).

وَنَبَّه ابن رشد على أن التأويل جائز في بعض نصوص الشرع، وليس في جميعها.. وعلى وجود شواهد في النصوص هي التي تعيّن مواطن التأويل ومواضعه.. وَخَلَصَ إلى حقيقة بالغة الأهمية تقول: إن المقصد من التأويل القائم على قانون التأويل العربي هو الجمع بين المعقول والمنقول؛ وليس إحلال المعقول محل المنقول.. فكان من أبرز من صاغوا للتأويل نظرية متكاملة يمكن إيجاز معالمها في عشرة عناصر هي:

(١) الشريف الجرجاني، التعريفات، مادة «التأويل»، طبعة القاهرة (١٩٣٨م).

(٢) التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، مادة «تأويل» و«تفسير»، طبعة الهند (١٨٩٢م).

(٣) ابن رشد، فصل المقال (ص ٣٢).

١ - التأويل جائز..

٢- فى المواطن التى يقوم فيها البرهان على استحالة الظاهر.

٣- وبشرط تحقق شروط اللغة العربية فى المجاز الذى تُخرج فيه دلالات الألفاظ من حقيقتها إلى مجازها.

٤- وفيما لم يثبت فيه إجماع يقيني على أن المراد ظاهر الألفاظ.

٥- وبترشيح دلالات ظواهر بعض النصوص على مواطن التأويل فى بعضها.

٦- ومن أجل الجمع بين المعقول والمنقول، لا المقابلة بينهما، والانحياز لأحدهما، تجاوزاً للآخر ونفيًا له.

٧- على أن يظل التأويل حقًا للخاصة من الراسخين فى العلم، لا يُصرَّح به للعامة، ولا يُثبت فى كتب الجمهور؛ حتى ولو كان تأويلًا صحيحًا مستجمعًا لشروط التأويل وضوابطه.. وبعبارة ابن رشد: «فهذا التأويل لا ينبغي أن يُصرَّح به لأهل الجدل، فضلًا عن الجمهور، ومتى صُرح بشيء من هذه التأويلات لمن هو من غير أهلها.. أفضى ذلك بالمصرَّح والمصرَّح إلى الكفر.. فلا يجب أن تثبت التأويلات الصحيحة فى الكتب الجمهورية، فضلًا عن الفاسدة.. وأما المصرَّح بهذه التأويلات لغير أهلها فكافر».

٨- أما أخبار الغيب، وكذلك المعجزات ومبادئ الشريعة، وكل ما لا يستطيع العقل الإنسانى الاستقلال بإدراك كنهه، فلقد أوجب ابن رشد أخذه على ظواهره دون تأويل؛ لأن هذه العقائد - عنده - مما تُعلَّم بنفسها بالطرق الثلاث للتصديق: الخطابية.. والجدلية.. والبرهانية.. ولذلك - كما يقول: «لم نَحْتَجْ أن نضرب له أمثالا، وكان على ظاهره، لا يتطرق إليه تأويل. وهذا النحو من الظاهر إن كان فى الأصول فالمتأول له كافر؛ مثل من يعتقد أنه لا سعادة أخرىة ههنا ولا شقاء، وأنه قصد بهذا القول أن يسلم الناس بعضهم من بعض فى أبدانهم وحواشهم، وأنها حيلة، وأنه لا غاية للإنسان إلا وجوده المحسوس فقط.. إن ها هنا ظاهراً من الشرع لا يجوز تأويله، فإن كان تأويله فى المبادئ فهو كفر، وإن كان فيما بعد المبادئ فهو بدعة».

٩- وحتى الحكماء من الفلاسفة برأى ابن رشد لا يجوزون تأويل أخبار الغيب ومبادئ الشريعة والمعجزات.. «ولا يجوز عندهم التكلم ولا الجدل في مبادئ الشرائع، وفاعل ذلك عندهم محتاج إلى الأدب الشديد؛ وذلك أنه لما كانت كل صناعة لها مبادئ، وواجب على الناظر في تلك الصناعة أن يسلم مبادئها، ولا يتعرض لها بنفى ولا إبطال، كانت الصناعة العملية الشرعية أخرى بذلك؛ لأن المشى على الفضائل الشرعية هو ضرورى عندهم؛ ليس فى وجود الإنسان بما هو إنسان؛ بل وبما هو إنسان عالم، ولذلك يجب على كل إنسان أن يسلم مبادئ الشريعة وأن يقلد فيها، فإنَّ جَحْدَهَا والمناظرة فيها مبطلان لوجود الإنسان، ولذلك وَجَبَ قَتْلُ الزنادقة؛ فالذى يجب أن يقال فيها: إن مبادئها أمور إلهية تفوق العقول الإنسانية؛ فلا بد أن يُعترف بها مع جهل أسبابها.. ولذلك لا تجد أحداً من القدماء تكلم فى المعجزات، مع انتشارها وظهورها فى العالم؛ لأنها مبادئ تثبتت الشرائع، والشرائع مبادئ الفضائل، ولا فيما يقال بعد الموت. فإذا نشأ الإنسان على الفضائل الشرعية كان فاضلاً بإطلاق، فإن تمادى به الزمان والسعادة إلى أن يكون من العلماء الراسخين فى العلم، فَعَرَضَ له تأويل مبدأ من مبادئها، فيجب عليه أن لا يُصَرِّحَ بذلك التأويل، وأن يقول فيه كما قال تعالى: ﴿وَالرَّسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران: ٧] هذه حدود الشرائع وحدود العلماء».

١٠- ويرى ابن رشد أن الإفراط فى التأويل بعد عصر الصدر الأول للأمة هو المسئول عن أمراض الاضطراب والفرقة والتكفير التى شاعت وانتشرت؛ «فالصدر الأول إنما صار إلى الفضيلة الكاملة والتقوى باستعمال هذه الأقاويل (التي تثبتت فى الكتاب العزيز) دون تأويلات فيها، ومن كان منهم وقف على تأويل لم يصرح به. وأما من أتى بعدهم، فإنهم لما استعملوا التأويل قلَّ تقواهم، وكثر اختلافهم، وارتفعت محبتهم وتفرقوا فرقا؛ فيجب على من أراد أن يرفع هذه البدعة عن الشريعة أن يعتمد إلى الكتاب العزيز، فيلتقط منه الاستدلالات الموجودة فى شىء شىء مما كُفِّنَا اعتقاده، ويجتهد فى نظره إلى ظاهرها ما أمكنه من غير أن يتأول من ذلك شيئاً، إلا

إذا كان التأويل ظاهرًا بنفسه؛ أعنى ظهورًا مشتركًا للجميع.. ذلك أنه لما تسلط على التأويل في هذه الشريعة من لم تتميز له هذه المواضع، ولا تميز له الصنف من الناس الذى يجوز التأويل فى حقهم، اضطرب الأمر فيها، وحدث لهم فَرْقٌ متباينة يُكْفَرُ بعضُهم بعضًا؛ وهذا كله جهل بمقصد الشرع وَتَعَدُّ عليه..»^(١).

هكذا وضع ابن رشد قانونًا للتأويل، وشروطًا لجوازه، قصرته على ما وراء العقائد ومبادئ الشريعة وأخبار الغيب والمعجزات.. لأنها مبادئ الفضائل التى تحقق سعادة الإنسان.. ولأنها مقاصد الوحي المعجز التى جاءت لتحقيق سعادة الإنسان فى المعاش والمعاد..».

وهكذا فتحت نظرية التأويل العربى للنصوص الأبواب أمام العقل لاكتشاف الأسرار الكامنة وراء ظواهر الألفاظ، ولاكتناه الكنوز المحجوبة عن الذين يقفون عند المعانى الحرفية لهذه الألفاظ، مع جعل هذا التأويل علمًا مضبوطًا بضوابط اللغة وثوابت الاعتقاد؛ بحيث يظل التأويل هو الباب الذى يُلجُّ أهله لاكتشاف المعانى الدفينة واللانهاية - معانى المعانى التى أودعها الله سبحانه وتعالى فى هذا القرآن الكريم.. وليس - كما صنعت الحداثة الغربية - «لعبًا عبثيًا» بالنصوص، يفرغ هذه النصوص من المعانى والقيم والأحكام.

* * *

وأخيرًا.. فإن الحداثيين العرب الذين زعموا ويزعمون أنهم دعاة العقلانية والاستنارة والتقدمية قد غدوا - فى الواقع - ماضويين رجعيين؛ وذلك عندما وقفوا عند الحداثة الغربية Modernisme التى أصبحت ماضيًا تجاوزته وفككت أنساقه عدمية وفوضوية ولا أدرية ما بعد الحداثة.. post- modernisme فغدا هؤلاء الحداثيون العرب ماضويين رجعيين، يبشرون بما تجاوزه الغرب الذى يعشقون

(١) ابن رشد، فصل المقال (ص ٣٤، ٣٥، ٤٦، ٣٢، ٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٢، ٤٧، ٤٨، ٦٥)، وتهافت التهافت (ص ١٢٤، ١٢٥)، طبعة القاهرة (١٩٠٣م)، ومناهج الأدلة فى عقائد الملة (ص ٥١، ٢٤٩)، دراسة وتحقيق: د. محمود قاسم، طبعة مكتبة الأنجلو، القاهرة.

نموذجه الحضارى.. ويعملون على إلحاق أمتهم وحضارتهم بركب التبعية لمركزيته الحضارية. ولقد شهدنا فى السنوات الأخيرة كيف كشفت الدراسات الاستراتيجية الغربية عن حقائق تُدين هؤلاء الحداثيين العرب..

* فالتقرير الذى أعدته «مؤسسة راند» الأمريكية التى تشير على صانع القرار الأمريكى (٢٠٠٤م) والذى نُشرَ تحت عنوان: (خطة أمريكية لإعادة بناء الدين الإسلامى) قد تم فيه تقسيم تيارات الفكر فى العالم الإسلامى إلى أربعة تيارات:

١- تيار الأصوليين: الذين يرفضون قيم الثقافة الغربية.. والذين عرفهم الرئيس الأمريكى «ريتشارد نيكسون» [١٩١٣ - ١٩٩٤م] بأنهم هم المصممون على:

- استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة عن طريق بعث الماضى.

- والذين يهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية.

- وينادون بأن الإسلام دين ودولة.

وعلى الرغم من أنهم ينظرون إلى الماضى، فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل؛ فهم ليسوا محافظين؛ ولكنهم ثَوَّار^(١). والذين قال عنهم المفكر الاستراتيجى الأمريكى «فوكوياما»: «إنهم هم الذين لا يرفضون السياسات الغربية فحسب؛ وإنما الحداثة الغربية ومبادئها الأساسى: العلمانية.. ولذلك فإن التطور الأهم يجب أن يأتى من داخل الإسلام نفسه، ليقرر ما إذا كان يريد أن يصل إلى وضع سلمى مع الحداثة الغربية - وخاصة الدولة العلمانية - أم لا؟»^(٢).

٢- وتيار التقليديين: الذين يريدون مجتمعاً محافظاً، وهم فى ريبة من الحداثة والتغيير..

٣- وتيار العلمانيين: الذين يريدون أن يقبل العالم الإسلامى الفصل بين الدين والدولة.

(١) نيكسون، الفرصة السانحة (ص ١٤٠)، ترجمة: أحمد صدقى مراد، طبعة دار الهلال، القاهرة (١٩٩٢م).

(٢) فوكوياما: مجلة (النيوزويك)، العدد السنوى، ديسمبر (٢٠٠١م)، فبراير (٢٠٠٢م).

٤- وتيار الحداثيين: الذين يريدون العالم الإسلامى جزءاً من الحداثة الغربية.. ويريدون تحديث الإسلام ليواكب العصر.

ثم تنصح هذه الخطة صانع القرار الأمريكى بدعم الحداثيين؛ لأنهم «الأكثر إخلاصاً فى تبنى قيم وروح المجتمع الغربى الحديث.. وهم - مع العلمانيين - الأقرب إلى الغرب فى ضوء القيم والسياسات».

ومن بين مبادئ الدعم الأمريكى المقترح لهؤلاء الحداثيين العرب فيما يتعلق بقراءة النص الدينى: «تشجيع تأويلهم للنص القرآنى - الحرفى - الذى نعتبره تاريخياً وأسطورة»!!.

وبعد أن أكدت هذه الخطة الأمريكية على «أن الحداثيين والعلمانيين العرب هم الأقرب إلى الغرب فى ضوء القيم والسياسات» طالبت صانع القرار الأمريكى بوجود دعم هؤلاء الحداثيين أولاً.. وذلك عن طريق:

أ- نشر وتوزيع أعمالهم - فى شرح وطرح الإسلام - بتكلفة مدعمة.

ب- وتشجيعهم على الكتابة للجماهير والشباب.

ج- وتقديم آرائهم فى مناهج التربية الإسلامية المدرسية.

د- وإعطائهم منصات شعبية للتواصل مع الجماهير.

هـ- وجعل آرائهم وأحكامهم فى القضايا الكبيرة للتأويل والفهم الدينى متاحة للجمهور؛ حتى يمكن أن تنافس آراء وأحكام الأصوليين والتقليديين.

و- وتيسير وتشجيع الوعي بالتاريخ السابق على الإسلام، والثقافة اللا إسلامية.

ز- وتشجيع تأويلهم للنص الحرفى.. الذى نعتبره تاريخياً وأسطورة.

ثم انتهى هذا التقرير الكاشف عن مواقع الحداثيين العرب من مخططات الإمبريالية الأمريكية المعاصرة إلى القول بضرورة «إعادة بناء الدين الإسلامى.. فالإسلام ليس أكثر حصانة من الأديان الأخرى الكبرى فى العالم، وأن الإجماع بين الحضارات قادر على تغيير القيم، بما فيها قيم الإسلام»^(١)!!.

(١) خطة أمريكية لتحديث الدين الإسلامى (ص ١٣، ١٤، ١٦، ١٨، ٢٠، ٢٤، ٧١، ٧٦، ٧٨، ٧٩، ٧٣)، ترجمة: د. محمد يحيى، طبعة المكتب المصرى الحديث، القاهرة (١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م).

هكذا خططت وقدرت وأعلنت «مؤسسة راند» الأمريكية، ذات النفوذ الكبير على صناعة القرار الأمريكي.. وهكذا تم الإعلان عن موقع الحداثيين العرب من مخطط «تأويل القرآن ليصبح تاريخاً وأسطورة.. وتغيير قيم الإسلام.. ودمج العالم الإسلامي في القيم والسياسات الغربية».. الأمر الذي يتنقل بأصحاب هذا التأويل الحداثي للنص القرآني من موقع «الاجتهاد الخاطئ» إلى موقع «العملاء الحضاريين»!

* * *

* لقد سبق لمخططات الغزو الفكري الغربي للشرق الإسلامي أن أعلنت عن مقاصدها - إبان القرن التاسع عشر - وذلك عندما كتب القناصل الفرنسيون في بيروت إلى وزارة الخارجية الفرنسية - وباريس - طالبين زيادة الدعم المالي لمدارس الإرساليات الفرنسية في لبنان؛ لأن هذه المدارس «تستهدف جعل الشام الكبير حليفاً أكثر أهمية من مستعمرة!!.. وتأمين هيمنة فرنسا على منطقة خصبة ومنتجة!!.. وتحويل الموارد إلى جيش متفانٍ لخدمة فرنسا في كل وقت!!.. وجعل البربرية العربية - كذا - تنحني لا إرادياً أمام الحضارة المسيحية لأوروبا»^(١)!!

وها هي الخطة الأمريكية التي وضعتها «مؤسسة راند» تعلق الآمال على الحداثيين العرب «الذين هم أكثر إخلاصاً في تبنى قيم وروح المجتمع الغربي، لجعل العالم الإسلامي جزءاً من الحداثة الغربية»؛ وذلك عن طريق «تشجيع تأويلهم للنص القرآني»؛ كي يتحول إلى تاريخ وأساطير!

إن هذا الذي كشفت عنه «مؤسسة راند» من ضرورة الدعم الأمريكي للحداثيين العرب كي يكسروا شوكة المقاومة الإسلامية الراضية لقيم وروح المجتمع الغربي، قيم الحداثة الغربية والعلمانية الغربية، عن طريق تأويل القرآن ليتحول إلى تاريخ وأساطير.. قد سبق وأعلنه فيلسوف صدام الحضارات «صموئيل هنتجتون» (١٩٢٧ - ٢٠٠٨م) عندما قال: «إننا لا نريد حرباً على الإسلام، وإنما نريدها حرباً

(١) من محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية باريس عن سنوات (١٨٤٠، ١٨٤٢، ١٨٤٨، ١٨٩٧، ١٨٩٨م).

الحداثة الغربية والقرآن الكريم

داخل الإسلام؛ حتى يَقْبَلَ الحداثة الغربية.. والعلمانية الغربية.. والمبدأ المسيحي: فصل الدين عن الدولة»^(١)..

وهو ما أعلنه كذلك أحد رموز الحداثيين العرب - هاشم صالح - القائم على الترجمة والنشر للمشروع الفكري للدكتور محمد أركون - عندما كتب يقول: «إننا يجب أن نلتحق بفولتير [١٧٣٤ - ١٧٧٨] وَتَصَوُّرِهِ الطبيعي عن الدين والأخلاق؛ فالدين الحقيقي هو الدين الطبيعي.. ولا بد من تأويل جديد لتراثنا يختلف عن تأويل الأصولية، بل وينقضه.. تأويل يكشف عن تاريخية النصوص التأسيسية، ويحل القراءة التاريخية محل القراءة التبجيلية لهذا التراث»^(٢).

إنها - هذه الحداثة.. وتأويلها للقرآن الكريم - كما قال «هنتجتون»: «حرب داخل الإسلام» ليتحول كما قالت «مؤسسة راند» إلى تاريخ وأساطير.

* * *

بهذه الحقائق والوقائع والوثائق آثرنا أن نقدم لهذا الكتاب البالغ الأهمية.. الذي:

- عرض باستفاضة لمناهج الحداثة الغربية في قراءة النصوص.

- وأوضح عدم ملاءمتها لقراءة النص الديني الإسلامي.

- ودعا الحداثيين العرب إلى تخليص «الهيرمينوطيقا» الغربية من خصوصياتها الثقافية والحضارية والتاريخية؛ وذلك حتى يكون التأويل الإسلامي هو السبيل لاكتشاف الجديد في النص، بدلاً من القطيعة المعرفية مع النص.

- وأكد على أن تحرير القراءة الشرعية للنص الديني الإسلامي من الوصاية الثقافية والمعرفية لصانعي الحداثة الغربية هو السبيل لاكتساب استقلالية ذاتية عربية إسلامية في بناء المعرفة وصناعة التاريخ.. وذلك دون التخلي عن التفاعل الصَّحِّي مع المعارف الإنسانية المعاصرة، غربية كانت أو غير غربية.

(١) مجلة (النورويك)، العدد السنوي، ديسمبر (٢٠٠١م) فبراير (٢٠٠٢م).

(٢) صحيفة (الشرق الأوسط)، لندن، في (٢٦ - ١٢ - ٢٠٠١م).

- ثم خُصَّ هذا الكتاب المهم إلى أن منهج علم أصول الفقه الإسلامى هو المنهج الأصلى لقراءة القرآن الكريم قراءة شرعية معاصرة.. فالمنهج الأصولى هو منهج تراثى حقاً، لكنه الأكثر معاصرة.. وهو الأفعلى فى استكناه أسرار القرآن الكريم، مع الحفاظ على مقاصده، وعلى تفعيل هذه المقاصد فى حياة المؤمنين بهذا القرآن الكريم.

إننا - بحق - أمام كتاب متميز.. وممتاز.. نتمنى له سعة الانتشار.. ونرجو لمؤلفه دوام السعادة والتوفيق.. ومزيداً من العطاء الفكرى إن شاء الله^(١).

(١) انظر بكتاب [سؤال المعاصرة والشرعية فى قراءة النص القرآنى] للدكتور سعيد النكر. طبعة دار السلام القاهرة سنة ١٤٣٤هـ سنة ٢٠١٣م.

الإعجاز في التدوين والجمع للقرآن الكريم

لأن القرآن الكريم هو الوحي الخاتم للنبوة الخاتمة، الذي خُتِمَ به معجزات النبوات والرسالات وشرائعها، فلقد شاء الله سبحانه وتعالى - أن يتعهد هو بحفظه من التحريف - لفظاً بالتبديل والتغيير.. ومعنى بفساد التأويلات - وذلك لتظل حجة الله قائمة أبداً على عباده - بهذا الوحي الخاتم الخالد.. وهذه الرسالة الخاتمة الخالدة - إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

لقد شاء - سبحانه وتعالى - لطفاً منه - أن يحفظ هذا الوحي القرآني الخاتم حفظاً إلهياً.. فلا يدعه إلى الناس - بأهوائهم.. وقدراتهم النسبية - يحرفون كلمة من بعد مواضعه أو ينسون حظاً مما ذكروا به فيه - كما حدث للكتب السماوية التي سبقت القرآن الكريم..

وعن هذه المشيئة الإلهية، قال الله - سبحانه وتعالى - في هذا الإعجاز القرآني المتحدى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، ﴿ وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٧]، ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ۝١١٤ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: ١١٤، ١١٥].

كما تعهد - سبحانه وتعالى - بعصمة رسوله ﷺ - من أن ينسى شيئاً مما أوحى إليه.. فقال لرسوله: ﴿ سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى ۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۝٧ وَيُخَوِّفُ لِّلْئِسْرَى ﴾ [الأعلى: ٦ - ٨] فهذه العصمة من ثمراتها حفظ القرآن الكريم.

وعندما كان رسول الله ﷺ يتعجل بذل الجهد والطاقة في حفظ ما يوحيه الله

إليه، مخافة أن يصيب هذا الوحي القرآنى شىء مما أصاب الكتب السابقة - من الضياع والتحريف والنسيان - جاء الوعد الألهى لرسوله بأن الله - سبحانه وتعالى - كما تعهد بحفظه.. وكما عصمه من النسيان - فلقد تعهد بجمع هذا الوحي القرآنى.. فالمشيئة الإلهية قد تعهدت بالجمع - المتضمن للترتيب - والحفظ، جميعاً: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) ﴿إِنْ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ﴾ (١٧) ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَالْتَفَعْ قُرْءَانَهُ﴾ (١٨) ﴿ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا نَبَإَهُ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩].

ولأن الله - سبحانه وتعالى - إذا أراد أمراً - فى عالم الإنسان، الذى فيه تخيير وتمكين - هياً لهذا الأمر أسباب التحقيق والتمكين.. فلقد هياً لهذا القرآن الكريم من أسباب التدوين والحفظ والتوثيق ما لم يتهيأ لكتاب سابق فى تاريخ النبوات والرسالات..

وعن هذه الحقيقة، قال شيخ الأماناء، وأحد أبرز العقول «الأصولية» والمجتهدة.. والمجددة» فى عصرنا الحديث.. الشيخ أمين الخولى [١٣١٣هـ - ١٣٨٥هـ / ١٨٩٥ - ١٩٦٦م]: «لقد كانت للرسول عناية بنشر الكتابة فى مجتمعه.. وكان للرسول كتبةٌ وحى يكتبون بين يديه القرآن.. وقد بلغ عددهم إلى بضعة وعشرين شخصاً، ورأى - عليه السلام - البعض أن يتعلموا من اللغات غير لغتهم العربية.. وكذلك كتب القرآن أولاً بأول، مع حفظ ما ينزل منه كذلك أولاً بأول، فتهيأ للنص القرآنى من الاطمئنان ما لا يكاد يتوافر مثله على التاريخ لما حفظت البشرية من نصوص وأصول»^(١).

* وعن هذه الحقيقة ذاتها - حقيقة الموثوقية العليا لحفظ القرآن وتدوينه وتوثيق سوره وآياته - قال المستشرق الإنجليزى الحجة - الذى قضى من عمره أكثر من ثلث قرن فى دراسة القرآن والإسلام واللغة العربية - مونتجمرى وات [١٩٠٩ - ٢٠٠٦م] - رغم أنه قسيس أنجليكانى.. وابن قسيس! قال:

«إن القرآن كان يسجل فور نزوله.. وعندما تمت كتابة هذا الوحي شكّل النصّ

(١) أمين الخولى [عن القرآن الكريم] ص ٢٨، ٢٩، ٣٧. دراسة وتقديم: د. محمد عمارة. طبعة نهضة مصر - القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

الإعجاز في التدوين والجمع للقرآن الكريم

القرآنى الذى بين أيدينا.. إنه كلام الله وحده.. وهو قرآن عربى مبين.. وعندما تحدى محمد أعداءه أن يأتوا بسورة من مثل السور التى أوحيت إليه، كان من المفترض أنهم لن يستطيعوا مواجهة التحدى، لأن السور التى تلاها محمد هى من عند الله، وما كان لبشر أن يتحدى الله..»^(١).

* وعن ذات الحقيقة - حقيقة الموثوقية غير المسبوقه التى امتاز بها وتميز تدوين القرآن الكريم - جاء فى مصادر علوم القرآن:

«أخرج أبو داود، من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، قال:

«كانوا يكتبون ذلك - [القرآن] - فى الصحف والألواح والعُصْب - [جريد النخل كُشط خوصه] - يكتبونه بين يدي النبى - عليه الصلاة والسلام».

«وقال الحارث المحاسبى [١٦٥ - ٢٤٣هـ / ٧٨١ - ٨٥٧م] - فى كتاب [فهم السنن]: إن كتابة القرآن ليست بمحدثة، فإن النبى ﷺ كان يأمرهم بكتابتها».

«وأخرج أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم عن ابن عباس -رضى الله عنهما-... قال عثمان: «كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السورة ذات العدد، فكان إذا أنزل عليه شىء دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا»^(٢).

* ولذلك وجدنا فى المصادر التى أرخت لمجتمع النبوة ودولتها كيف أن جهازاً كاملاً وكبيراً - فى ذلك المجتمع وتلك الدولة - قد تخصص فى القيام على تدوين الوحي القرآنى فى أدوات التدوين المتاحة يومئذ - الصحف.. والألواح.. والعُصْب.. وذلك فضلاً عن حفظه فى الصدور، وتطبيق آياته وأحكامه فى المجتمع والأسرة والحياة الخاصة.. والتعبد به آناء الليل وأطراف النهار.

* نعم.. لقد ذكرت المصادر الموثوقة والمعتمدة، التى أرخت لمعالم وعمالات

(١) مونتجمرى وات [الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر] ص ٣٦، ١٧٠، ٨٣. ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، طبعة الهيئة العامة للكتاب - القاهرة سنة ٢٠٠١م.

(٢) السيوطى [الإتقان فى علوم القرآن] ج ١ ص ٥٨، ٦٠، طبعة القاهرة سنة ١٣٥٤هـ / سنة ١٩٣٥م

دولة النبوة ولمؤسسات المجتمع النبوى أن دولة النبوة - التى بدأ الوحي فيها بـ [أقرأ] -
والتي أخرجت العرب من ظلمات الأمية إلى نور العلم والحضارة - أن هذه الدولة
قد كان لرئيسها ﷺ أكثر من أربعين كاتبًا - وأن تدوين آيات الوحي القرآنى وسوره قد
تخصص له وفيه ثمانية وعشرون من هؤلاء الكتاب.

* وإذا كان البعض سيعجب من تخصص وتخصيص هذا العدد الكبير من
الكتاب، لتدوين الوحي القرآنى، فور نزول آياته الكريمة - فى مجتمع كانت تشيع
فيه الأمية - فإن هذا الإعجاب سيتزايد عندما تكشف الحقيقة التاريخية عن أن هؤلاء
الكتاب، الذين تخصصوا فى تدوين الوحي القرآنى، لم يكونوا مجرد كتاب يحسنون
القراءة والكتابة.. وإنما كانوا من أركان القيادات التى أقامت الدين، وأسست الدولة،
وفتحت الفتوح، وأزالت القوى العظمى التى قهرت الشرق يومئذ، ووضعت الأسس
الراسخة لهذه الحضارة الإسلامية التى نبتت من هذا الوحي القرآنى العظيم، الذى
تعهدوا آياته وسوره بالتدوين والتوثيق.

ولعلها المرة الأولى التى تتكشف فيها أبعاد هذه الحقيقة.. عندما لا نكتفى بذكر
أسماء الكتاب الثمانية والعشرين، الذين تخصصوا فى تدوين الوحي القرآنى.. وإنما
نترجم لهم - فى سطور - ترجمة تكشف عن حقيقة أنهم لم يكونوا مجرد خبراء فى
القراءة والكتابة.. وإنما كانوا زعماء وقادة مبرزين فى المجتمع النبوى.. الأمر الذى
يكشف عن مدى المصادقية والموثوقية التى هياها اللطف الإلهى لتحقيق المشيئة
الربانية بالحفظ لهذا الكتاب الكريم.

* * *

لقد جاء فى كتاب [نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية] - وهو
أوفى وأوثق المصادر التى جمعت معالم دولة النبوة ومؤسساتها وعمالاتها وملامح
مجتمعها - أن رسول الله ﷺ باعتباره النبى والحاكم - قد اتخذ لصناعة الكتابة ثلاثة
وأربعين كاتبًا، منهم ثمانية وعشرون كاتبًا تخصصوا فى تدوين الوحي القرآنى..

ولقد آثرنا - فى هذه الدراسة - أن لا نكتفى بذكر أسماء هؤلاء الكتاب الثمانية
والعشرين - على نحو ما صنعت المصادر التراثية - وإنما أن نترجم لكل واحد منهم -

الإعجاز في التدوين والجمع للقرآن الكريم

فى سطور قليلة - لنكشف عن المقام العالى لأصحاب هذا الديوان الذى قام أصحابه على تحقيق المشيئة الإلهية فى حفظ القرآن الكريم.. إن القادة - فى العادة - يتخذون لهم كُتَّابًا، لكن دولة النبوة قد جعلت كُتَّاب القرآن من القيادات!

لقد ضمت قائمة كُتَّاب الوحي القرآنى كلاً من:

١ - أبو بكر الصديق [٥١ ق. هـ - ١٣ هـ / ٥٧٣ - ٦٣٤ م]:

وهو عبد الله بن أبى قحافة عثمان بن عامر بن كعب التيمى القرشى.

أول من آمن بالإسلام من الرجال، وأحد أعظم العرب فى الجاهلية. نشأ سيداً من سادات قريش، وواحدًا من كبار أغنيائها، وكان عالمًا بأنساب العرب وأخبارها وسياستها - حتى لقبه العرب «بعالم قريش». ولقد حرّم على نفسه الخمر فى الجاهلية فلم يشربها قط.

وكان صاحب النبى ﷺ فى الهجرة والغار، وفى الكثير من المواقف والمشاهد، وفى احتمال الشدائد. اشتهر بالصديق لثبات تصديقه لرسول الله ﷺ فى المحن والشدائد، وقيل كانت تلك صفته وشهرته التى اشتهر بها حتى فى الجاهلية.

وهو أحد المهاجرين الأولين - العشرة - ببيع بالخلافة يوم وفاة الرسول، فكان أول الراشدين وقاد حروب الردة التى أعادت الوحدة إلى دولة الإسلام.

وفى عهده تم تحرير كثير من بلاد الشام من الاحتلال البيزنطى، وبدأ تحرير العراق من الاحتلال الفارسى.

وفى عهده جُمعت صحائف القرآن الكريم فكونت المصحف والكتاب.

وكان خطيباً.. شجاعاً.. بطلاً.

وله فى كتب الحديث النبوى ١٤٢ حديثاً.

٢ - عمر بن الخطاب [٤٠ ق. هـ - ٢٣ هـ / ٥٨٤ - ٦٤٤ م]:

هو أبو حفص، عمر بن الخطاب بن نفيل، القرشى، العدوى.

كان فى الجاهلية من أشرف قريش وأبطالها، وصاحب السفارة فيها. وكان إسلامه

- قبل الهجرة بخمس سنين - فتحاً أعز الله به الإسلام.. إذ كان إسلامه أمانة من أمانى رسول الله ﷺ، وهو أحد العشرة المهاجرين الأولين، وثانى الخلفاء الراشدين، وأول من لُقّب بأمير المؤمنين.

وفى خلافته تحرر الشرق - بالفتوحات الإسلامية - من الاحتلال الرومانى والقهر الفارسى، وانتقلت الدولة الإسلامية إلى طور جديد فى التنظيمات والدواوين والمؤسسات، وغدت أكبر دول العالم فى ذلك التاريخ.

وهو أول من أرخ بالتقويم القمرى، جاعلاً عام الهجرة وتأسيس الدولة الإسلامية بداية ذلك التأريخ.

وفى عهده مُصِّرت المدن والأمصار.

ولقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ولقبه الرسول بالفاروق، وكناه بأبى حفص. وكان من القضاة على عهد الرسول.

كما كان فقيهاً مُلهماً.

وله فى كتب الحديث النبوى ٥٣٧ حديثاً.

٣- عثمان بن عفان [٤٧ق.هـ - ٣٥هـ / ٥٧٧ - ٦٥٦م]:

هو ذو النورين، عثمان بن عفان ابن أبى العاص بن أمية، القرشى، الأموى.

أحد السابقين إلى الإسلام، وأحد العشرة المهاجرين الأولين، وثالث الخلفاء الراشدين، وأحد الأغنياء الموسرين الذين أنفقوا بسخاء شديد فى سبيل الله.

سُمى ذو النورين لحظوته بالزواج من بنتى الرسول ﷺ: رقية.. ثم أم كلثوم.

وفى خلافته امتدت الفتوحات الإسلامية إلى أواسط آسيا، وإلى شمالى أفريقيا.. وفتحت جزيرة قبرص.

وهو الذى جمع الأمة على المصحف الإمام - بلهجة قريش التى نزل بها - بعد أن توحدت الأمة على حرف واحد، وزالت دواعى القراءة على الأحرف السبعة.. فكان جمعة هذا هو الجمع الثالث للقرآن الكريم.. بعد أن جمع أبو بكر صحائفه المتفرقة

الإعجاز في التدوين والجمع للقرآن الكريم

في كتاب.. وبعد الجمع الأول لسوره وآياته بتدوينها ومراجعتها على عهد رسول الله ﷺ.

ولقد روى عن رسول الله ﷺ في كتب الحديث النبوى ١٤٦ حديثاً.

٤- على بن أبى طالب [٢٣ق. هـ-٤٠هـ / ٦٠٠-٦٦١م]:

هو أبو الحسن، على بن أبى طالب بن عبد المطلب الهاشمى، القرشى. ابن عم النبى ﷺ.

تربى فى بيت النبوة. وهو أول الناس إسلاماً- بعد خديجة أم المؤمنين- رضى الله عنها- وأحد العشرة المهاجرين الأولين، ورابع الخلفاء الراشدين وأحد أكابر الأبطال الشجعان، والخطباء الفصحاء البلغاء، والعلماء الفقهاء، والفلاسفة الحكماء.

شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكان اللواء بيده فى كثير منها. وفى خلافته وقعت الفتنة حول مقتل عثمان بن عفان- رضى الله عنه- ولقد مات شهيداً بيد أحد الخوارج.

وله فى كتب الحديث النبوى ٥٨٦ حديثاً.

٥- الزبير بن العوام [٢٨ق. هـ-٣٦هـ / ٥٩٦-٦٥٦م]:

هو أبو عبد الله، الزبير بن العوام بن خويلد الأسدى، القرشى.

من السابقين إلى الإسلام. أسلم وهو ابن اثنى عشر عاماً. وهو أحد العشرة المهاجرين الأولين. وأول من سل سيفاً فى الإسلام.

شهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وشارك فى فتوحات الشام ومصر.

وله فى كتب الحديث النبوى ٣٨ حديثاً.

٦- زيد بن ثابت [١١ق. هـ-٤٥هـ / ٦١١-٦٦٥م]:

هو أبو خارجة، زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصارى الخزرجى.

من أكابر الصحابة، وكبراء كتّاب الوحي، طوال مراحل التدوين والجمع للقرآن الكريم.

ولد بيثرب (المدينة)، ونشأ بمكة، وهاجر مع النبي - ﷺ - وهو ابن أحد عشر عامًا.

وكان من العلماء الفقهاء المقدمين في القضاء والفتوى والفرائض والقراءة.
وكان في مقدمة الجامعين للقرآن على عهد النبي - ﷺ - .. وفي عهد أبي بكر الصديق.. وفي عهد عثمان بن عفان.

وعندما توفي زيد رثاه حسان بن ثابت.. وقال أبو هريرة: اليوم مات جبر هذه الأمة، وعسى الله أن يجعل في ابن عباس خلفاً.
وله في كتب الحديث النبوي ٩٢ حديثاً.

٧- أبي بن كعب [٢١هـ - ٦٤٢م]:

هو أبو المنذر، أبي بن كعب بن قيس بن عبيد، الأنصاري، الخزرجي. من بني النجار.

كان - قبل الإسلام - حبراً من أحبار اليهود، وكاتباً وقارئاً، ذا دراية بالكتب القديمة. ولما أسلم حسن إسلامه، وغدا من كبار الصحابة، وأحد كتّاب الوحي.

شهد بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله - ﷺ - وكان يفتي على عهد الرسول - ﷺ -.

وشهد - مع عمر بن الخطاب - وقعة الجابية بالشام. وهو الذي كتب كتاب الصلح لأهل القدس عند فتحها سنة ١٥هـ / سنة ٦٣٦م.

وشارك في جمع القرآن وتدوين المصحف الإمام على عهد عثمان بن عفان.
وفي الحديث النبوي: «أقرأ أمتي أبي بن كعب».
وله في كتب الحديث ١٦٤ حديثاً.

٨- حنظلة بن الربيع [٤٥هـ / ٦٦٥م]:

هو حنظلة بن الربيع بن صيفي التميمي.. وهو ابن أخى أكثم بن صيفي [٩هـ / ٦٣٠م] أحد حكماء العرب في الجاهلية.

كان من كتاب النبي - ﷺ - واشتهر لكتابته بـ «حنظلة الكاتب».

شهد القادسية. وتوفي في خلافة معاوية بن أبي سفيان.

٩ - خالد بن سعيد بن العاص [١٤هـ / ٦٣٥م]:

من بني عبد شمس، من أمية.

أحد السابقين إلى الإسلام. أسلم عندما كانت الدعوة لا تزال سرًا. فكان الثالث أو الرابع في السابقين إلى الإسلام. وكان من الذين صبت قريش عليهم العذاب للإسلامهم.

هاجر إلى الحبشة، وعاد منها سنة ٧هـ / سنة ٦٢٨م، فشارك في الغزوات مع رسول الله ﷺ وشهد فتح مكة سنة ٨هـ / سنة ٦٢٩م، وموقعة تبوك.

وكان يكتب لرسول الله - ﷺ - بمكة والمدينة. وهو الذي كتب كتاب أهل الطائف لوفد ثقيف. كما كان رسول النبي - ﷺ - في الصلح معهم.

ولقد ولاه الرسول - ﷺ - على اليمن - وشهد فتح أجنادين - بالشام - سنة ١٣هـ / سنة ٦٣٤م. واستشهد في موقعة مرج الصفر - قرب دمشق.

١٠ - عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول [١٢هـ / ٦٣٣م]:

أنصاري، خزرجي، كان أبوه رأس المنافقين - بالمدينة - أما هو فكان من فضلاء الصحابة وخيارهم. وكان اسمه الحُباب، وباسمه كان يُكنى أبوه، فغير الرسول - ﷺ - اسمه إلى عبد الله.

شهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله - ﷺ - ولما قال أبوه - يوم غزو بني المصطلق سنة ٦هـ ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].. قال عبد الله لرسول الله - عن أبيه -: «وهو - والله - الذليل وأنت العزيز، يا رسول الله. إن أذنت لي في قتله قتلته. فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها أحد أبر بوالده مني، ولكنني أخشى أن تأمر به رجلًا مسلمًا فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي على الأرض حيًا حتى أقتله، فأقتل مؤمنًا بكافر فأدخل النار».

فقال له الرسول - ﷺ -: «بل تحسن صحبته، وتترفق به ما صحبنا، ولا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه. ولكن برّ أباك، وأحسن صحبته».

١١ - عبد الله بن رواحة [٨هـ / ٦٢٩م]:

هو أبو محمد، عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي.

كان يكتب في الجاهلية. أسلم، وشهد بيعة العقبة التي تعاقدها الأنصار مع الرسول ﷺ على إقامة الدولة الإسلامية بالمدينة - قبل الهجرة بعام - وهو أحد النقباء الإثني عشر، الذين مثلوا قيادة الأنصار بدولة المدينة - مؤسسة الوزراء... مع المهاجرين الأولين - مؤسسة الأمراء..

شهد بدرًا وأحدًا والخندق والحديبية. واستخلفه الرسول - ﷺ - على المدينة في إحدى غزواته.

وكان أحد الأمراء في وقعة مؤتة - بالشام - سنة ٨هـ / سنة ٦٢٩م - واستشهد فيها. وكان شاعرًا راجزًا.

١٢ - شرحبيل بن حسنة [٥٠ق.هـ - ١٨هـ / ٥٧٤ - ٦٣٩م]:

هو شرحبيل بن عبد الله بن المطاع بن الغطريف، الكندي، حليف بني زهرة. من الصحابة القادة. أسلم بمكة، وهاجر إلى الحبشة. وغزا مع رسول الله - ﷺ - وكان رسول النبي إلى مصر. وتوفي النبي - ﷺ - وهو في مصر. وهو قائد فتوحات الأردن - على عهد أبي بكر الصديق.

وتوفي بطاعون عمواس على عهد عمر بن الخطاب - سنة ١٨هـ / سنة ٦٣٩م.

١٣ - معاوية بن أبي سفيان [٢٠ق.هـ - ٦٠هـ / ٦٠٣ - ٦٨٠م]:

هو معاوية بن «أبي سفيان» صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، القرشي، الأموي.

أحد كبار دهاة العرب، ولد بمكة. وكان كاتبًا حاسبًا فصيحًا حليماً وقوراً.

الإعجاز في التدوين والجمع للقرآن الكريم

أسلم يوم فتح مكة سنة ٨هـ / سنة ٦٢٩ م، فاتخذهُ الرسول - ﷺ - واحدًا من كُتّابه. ولقد ولاه أبو بكر الصديق قيادة جيش تحت إمرة أخيه يزيد بن أبي سفيان، فكان على المقدمة في فتح مدن صيدان وعرقه وجبيل وبירות. وولاه عمر بن الخطاب على الأردن، فدمشق، وجمع له عثمان بن عفان ولاية الشام. فلما تولى على بن أبي طالب الخلافة عزله.

وبعد استشهاد على بن أبي طالب اجتمع الأمر لمعاوية، فكان تأسيس الدولة الأموية سنة ٤١هـ / سنة ٦٦١ م.

وله في كتب الحديث النبوي ١٣٠ حديثًا.

١٤ - عبد الله بن الأرقم [٤٤هـ / ٦٦٤م]:

هو عبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث، القرشي، الزهري.

من الكُتّاب الرؤساء. وخال النبي - ﷺ - أسلم يوم فتح مكة سنة ٨هـ / سنة ٦٢٩ م وأصبح من كُتّاب النبي - ﷺ - كما كتب لأبي بكر الصديق، ولعمر بن الخطاب، وستين من خلافة عثمان بن عفان.

١٥ - ثابت بن قيس [١٢هـ / ٦٣٣م]:

هو ثابت بن قيس بن شماس، الأنصاري، الخزرجي.

كان خطيب رسول الله - ﷺ - شهد أحدا وما بعدها من المشاهد. واستشهد - يوم اليمامة - في قتال مسيلمة الكذاب والمرتين - على عهد أبي بكر الصديق.

وفيه قال الرسول - ﷺ - عندما زاره وهو عليل: «أذهب الباس رب الناس عن ثابت بن قيس بن شماس».

١٦ - عامر بن فهيرة [٤هـ / ٦٢٥م]:

هو أبو عمرو، عامر بن فهيرة. مولى أبي بكر الصديق. كان مولدًا من مؤلّدي الأزد.

من السابقين إلى الإسلام، أسلم قبل دخول الرسول - ﷺ - دار الأرقم بن أبي

الأرقم، وكان حسن الإسلام. وعُذِّب في الله - وهو مملوك للطفيل بن عبد الله بن سخبيرة - أخى عائشة لأُمها - فاشتراه أبو بكر الصديق وأعتقه.

وكان عامر هو الذي يروح بغنم أبي بكر الصديق إلى غار ثور، فيسقى الرسول وأبا بكر اللبن - إبان هجرتهما من مكة إلى المدينة -.

ولقد هاجر عامر مع الرسول وأبي بكر، فأردفه أبو بكر خلفه على راحلته.

ولقد شهد بدرًا وأحُدًا، واستشهد يوم بئر معونة سنة ٤هـ / سنة ٦٢٥ م، وهو ابن أربعين عامًا.

١٧ - حنظلة بن أبي عامر الأسدي [٣هـ / ٦٢٥ م]:

هو حنظلة بن أبي عامر - الراهب ابن صيفي بن النعمان بن مالك بن أمية بن صبيعة ابن زيد بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس بن حارثة.

أنصاري، أوسى، ثم من بني عمرو بن عوف.

من سادات المسلمين وفضلائهم. عُرف بغسيل الملائكة، لقول رسول الله - ﷺ - فيه عند استشهاده يوم أحد سنة ٣هـ / سنة ٦٢٥ م: «إن صاحبكم لتغسله الملائكة».. وكان قد خرج من بيته مسرعًا إلى القتال، فانخرط فيه، واستشهد، وهو جنب - لم يترث حتى يغتسل من جنبته.. فغسلته الملائكة!

١٨ - معيقب بن أبي فاطمة الدوسي [٤٠هـ / ٦٦٠ م]:

هو معيقب بن أبي فاطمة الدوسي، الأزدي.

من السابقين إلى الإسلام، والذين هاجروا إلى الحبشة، ومنها عاد إلى المدينة، وشهد غزوة بدر سنة ٢هـ / سنة ٦٢٤ م.

وتولى القيام على خاتم رسول الله - ﷺ - وعلى خاتم الراشد الثالث عثمان بن عفان. كما تولى ولاية بيت المال لأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب.

وله في كتب الحديث النبوي سبعة أحاديث.

١٩ - خالد بن الوليد [٢١هـ / ٦٤٢م]:

هو خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي، القرشي. كان من أشرف قريش وفرسانها في الجاهلية، يلي أعنة الخيل.

أسلم سنة ٧هـ / سنة ٦٢٨م قبل فتح مكة.. فسر رسول الله - ﷺ - بإسلامه، وولاه على الخيل. وقاد العديد من معارك الإسلام ضد المرتدين.. وضد الفرس والروم - في عهد أبي بكر الصديق وعهد عمر بن الخطاب.

وكان كاتبًا.. خطيبًا.. فصيحًا.

وروى له المحدثون - في كتب الحديث النبوي - ثمانية عشر حديثًا.

٢٠ - عمرو بن العاص [٥٠ ق.هـ - ٤٣هـ / ٥٧٤ - ٦٦٤م]:

هو أبو عبد الله، عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي.

أحد عظماء العرب ودهاتهم وأولى الرأي والحزم والمكيدة فيهم.

كان - في الجاهلية - من الأشداء على الإسلام والمسلمين. ثم أسلم في هدنة الحديبية سنة ٧هـ سنة ٦٢٨م، فولاة الرسول - ﷺ - إمارة الجيش في ذات السلاسل. واستعمله على عُمان، وكان من قادة الفتوحات للشام - على عهد عمر بن الخطاب - وهو قائد فتح مصر، الذي فتح الإسكندرية - عاصمة الإمبراطورية الرومانية في الشرق.

وكان أحد البلغاء الفصحاء، وله في كتب الحديث النبوي ٣٩ حديثًا.

٢١ - محمد بن مسلمة الأوسي [٣٥ ق.هـ - ٤٣هـ / ٥٨٩ - ٦٦٣م]:

هو أبو عبد الرحمن، محمد بن مسلمة الأنصاري الأوسي الحارثي.

من الأمراء والقادة. شهد بدرًا والمشاهد كلها - إلا غزوة تبوك - واستخلفه الرسول ﷺ على المدينة أثناء خروجه لبعض الغزوات.

وتولى ولاية الصدقات على جبهة لعمر بن الخطاب، كما تولى لعمر الكشف والتفتيش والمراقبة لأمر الولاية في البلاد.

٢٢ - المغيرة بن شعبة [٢٠ ق. هـ - ٥٠ هـ / ٦٠٣ - ٦٧٠ م]:

هو أبو عبد الله، المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي. أحد دهاة العرب وقادتهم وولاتهم. أسلم سنة ٥ هـ / سنة ٦٢٦ م. وشهد الحديبية واليمامة وفتوح الشام. وذهبت عينه في موقعة اليرموك. وشهد فتوح القادسية ونهاوند وهمدان وغيرها. وأثناء ولايته لعمر بن الخطاب ولعثمان بن عفان على البصرة والكوفة قاد الفتح لعدة بلاد.

واعترل الفتنة بين عليٍّ ومعاوية. ثم ولي الكوفة لمعاوية حتى وفاته. وله في كتب الحديث النبوي ١٣٦ حديثاً.

٢٣ - عبد الله بن أبي سرح [٣٧ هـ / ٦٥٧ م]:

هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي، العامري، من بني عامر بن لؤي. من مكة. أسلم قبل فتحها. وكان على ميمنة عمرو بن العاص في فتح مصر. وهو فاتح إفريقية - من طرابلس إلى طنجة.

تولى إمارة مصر - بعد عمرو بن العاص - اثني عشر عاماً. وغزا الروم بحرًا - وظفر بهم في معركة ذات الصواري سنة ٣٤ هـ / ٦٥٤ م.

٢٤ - سعيد بن العاص [٣ - ٥٩ هـ / ٦٢٤ - ٦٧٩ م]:

هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص ابن أمية القرشي. تربي في حجر عمر بن الخطاب، وأصبح من الولاة الأمراء الفاتحين. وهو فاتح طبرستان، وأحد الذين شاركوا في كتابة المصحف الإمام على عهد عثمان بن عفان. وكان كاتباً.. خطيباً.. فصيحاً.

٢٥ - أبان بن سعيد [١٣ هـ / ٦٣٤ م]:

هو أبو الوليد، أبان بن سعيد بن العاص الأموي.

الإعجاز فى التدوين والجمع للقرآن الكريم

من أشرف قريش، وكبار الصحابة، وكتاب الوحى. أسلم سنة ٧هـ / سنة ٦٢٨ م، بعد أن كان شديد الخصومة للإسلام والمسلمين.

ولاه رسول الله ﷺ عاملاً على البحرين، وعاد إلى المدينة عقب وفاة الرسول واستشهد - بوقعة أجنادين - بأرض الشام - فى خلافة أبى بكر الصديق.

٢٦ - العلاء الحضرمى [٢١هـ / ٦٤٢م]:

هو العلاء بن عبد الله الحضرمى، أصله من حضرموت، ببلاد اليمن. ولد ونشأ بمكة، حيث سكن أبوه. وصار من رجالات الفتوحات فى صدر الإسلام.

تولى ولاية البحرين لرسول الله - ﷺ - سنة ٨هـ / سنة ٦٢٩ م، مع ولاية الصدقة والأموال فيها. وكتب له رسول الله - ﷺ - الكتاب الذى فصل فيه فرائض الصدقات والزكوات.

وكان أول من فتح جزيرة بأرض فارس فى الإسلام سنة ١٤هـ / سنة ٦٣٥ م.

ويقال إنه أول قائد مسلم ركب البحر غازياً فى سبيل الله.

واستمر والياً على البحرين إلى عهد عمر بن الخطاب، حيث وجهه إلى البصرة، فتوفى وهو فى الطريق إليها.

٢٧ - جهيم بن الصلت:

هو جهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف، القرشى، المطلبى.

أسلم عام خيبر سنة ٧هـ / سنة ٦٢٨ م. وأعطاه الرسول - ﷺ - من غنائم خيبر ثلاثين وسقاً.

٢٨ - حبان بن سعيد بن العاص^(١):

* * *

هكذا رأينا - ونرى - أن أهل هذا «الديوان» الذين تخصصوا فى تدوين الوحى

(١) لم أعثر له على ترجمة فى المصادر التى تيسر الاطلاع عليها.

القرآنى، لم يكونوا مجرد كُتّاب يحسنون صناعة الكتابة والتدوين.. وإنما كانوا - مع ذلك وفوقه - قادة مقدمين فى:

- السبق إلى الإسلام.
 - والتضحية بالنفس والنفيس فى سبيل الله.
 - وإقامة الدين.
 - وإزالة الشرك والوثنية.
 - وتأسيس الدولة.
 - وفتح الفتوح التى حررت أوطان الشرق وضمائر شعوبه من قهر الروم والفرس.
 - والقيام على الحكم والتدبير للولايات - الإدارية.. والمالية.. والحرية فى الدولة.
 - والبراعة فى العلم.. والفيتا.. والقضاء.. ورواية الحديث النبوى الشريف.^(١)
- هكذا كان كتاب الوحي القرآنى.. الذين حققوا إرادة الله سبحانه وتعالى - فى حفظ هذا الذكر الحكيم.

* * *

ولقد نظم الحافظ العراقى - عبد الرحيم بن الحسين - [٧٢٥ - ٨٠٦هـ / ١٣٢٥ - ١٤٠٤م] أسماء كُتّاب الوحي هؤلاء - مع غيرهم من كُتّاب دولة النبوة - الذين بلغ عددهم اثنين وأربعين كاتبًا.. نظم أسماءهم فى قصيدة سجلت - بالنظم - هذه الحقيقة من حقائق التدوين والتوثيق والحفظ للقرآن الكريم.. فقال:

(١) انظر: عبد الحى الكتانى [نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية] ج١ ص ١١٤ - ١١٧ طبعة دار الكتاب العربى بيروت.

- والسيوطى: [الإتقان فى علوم القرآن] ج١ ص ٥٨، ٦٠ طبعة القاهرة سنة ١٣٥٤هـ سنة ١٩٣٥م.
- وأمين الخولى: [عن القرآن الكريم] ص ٢٨، ٢٩. دارسة وتقديم: د. محمد عمارة. طبعة نهضة مصر. القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

- ومونتجمرى وات [الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر] ص ٢٢ - ٢٢٦، ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ. طبعة الهيئة العامة للكتاب - القاهرة سنة ٢٠٠١م.
- وابن الأثير [أسد الغابة فى معرفة الصحابة]، طبعة دار الشعب القاهرة.
- والزركلى خير الدين - [الأعلام] - طبعة بيروت.

كُتِبَهِ اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ	زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَكَانَ حِينَئِذٍ
كَاتِبُهُ، وَبَعْدَهُ مُعَاوِيَةُ	ابْنُ أَبِي سَفْيَانَ كَانَ وَاعِيَةً
كَذَا أَبُو بَكْرٍ كَذَا عَلَى	عَمْرِ عُثْمَانَ كَذَا أَبِي
وَابْنِ سَعِيدٍ خَالِدٍ وَحَنْظَلَةَ	كَذَا شَرْحِيْلَ حَسَنَةَ
وَعَامِرٍ وَثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ	كَذَا ابْنُ أَرْقَمٍ بِغَيْرِ لَبْسٍ
وَاقْتَصَرَ الْمَزِيُّ مَعَ عَبْدِ الْغَنِيِّ	مِنْهُمْ عَلَى ذَا الْعَدَدِ الْمَبِينِ
وَزِدْتُ مِنْ مُفْتَرَقَاتِ السَّيْرِ	جَمْعًا كَثِيرًا فَاضْبَطْنَهُ وَاحْصِرِي
طَلْحَةَ وَالزَّبِيرَ وَابْنَ الْحَضْرَمِيِّ	وَابْنَ رَوَاحَةَ وَجَهْمًا فَاضْمَمِ
وَابْنَ الْوَلِيدِ خَالِدٍ وَحَاطِبًا	هُوَ ابْنُ عَمْرٍو وَكَذَا حَوَيْطِبًا
حَذِيفَةَ بَرِيدَةَ أَبَانَ	ابْنَ سَعِيدٍ وَأَبَا سَفْيَانَ
كَذَا ابْنُهُ يَزِيدُ بَعْضُ مُسْلِمَةَ	الْفَتْحِ مَعَ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمَةَ
عَمْرٍو هُوَ ابْنُ الْعَاصِ مَعَ مَغِيرَةَ	كَذَا السَّجْلِ مَعَ أَبِي سَلَمَةَ
كَذَا أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ	كَذَا مُعَيْقِبُ هُوَ الدُّوسِيُّ
وَابْنُ أَبِي الْأَرْقَمِ فِيهِمْ عَدَدٌ	كَذَا ابْنُ سُلُوكِ الْمُهْتَدِي
كَذَا ابْنُ زَيْدٍ اسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ	وَالْجَدُّ عَبْدُ رَبِّهِ بِلَا اشْتِبَاهِ
وَاعْدَدُ جَهِيمًا وَالْعَلَا بْنُ عَتَبَةَ	كَذَا حَصِينُ بْنُ غَيْرٍ أَثْبَتَ

* * *

وَذَكَرُوا ثَلَاثَةً قَدْ كَتَبُوا	وَارْتَدَّ كُلُّ مِنْهُمْ وَانْقَلَبُوا
ابْنَ أَبِي سَرْحٍ مَعَ ابْنِ خَطْلٍ	وَأَخْرَوْا أَبْهَمَ فَلَمْ يُسَمَّ لِي
وَلَمْ يَعِدْ مِنْهُمْ إِلَى الدِّيَّانِ سِوَى	ابْنَ أَبِي سَرْحٍ وَبَاقِيَهُمْ غُيِّ

هكذا نظم الحافظ العراقي أسماء كتاب دولة النبوة - وعددهم اثنان وأربعون كاتباً - منهم ثمانية وعشرون تخصصوا في كتابة الوحي القرآني.

«ولقد أوصل البرهان الحلبي عددهم - في [حواشي الشفا] - إلى ثلاثة وأربعين.

وقال الهوريني - في [المطالع النصرية] -: ولكن لم يكونوا كلهم كتّاب وحي»^(١).

ولقد ترجمنا للثمانية والعشرين، الذين تخصصوا في كتابة الوحي القرآني..

فرأينا مقامهم في دولة النبوة ومجتمعها.. ومن ثم رأينا مقام رسالتهم هذه - تدوين الوحي وتوثيق سوره وآياته - وهو مقام لم يحظ به كتاب ديني أو بشري على امتداد التاريخ.

* * *

أما جمع القرآن الكريم - الذي حظى نصه بهذا التدوين والتوثيق - فلقد أعلن عنه المولى - سبحانه وتعالى - عندما قال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾^(١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَفُرْءَانَهُ^(١٧) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانصِتْ لَهُ^(١٨) ثُمَّ إِنَّا عَلَيْنَا بَيَانُهُ^(١٩) [القيامة ١٦ - ١٩].

* وشهد له المستشرق الإنجليزى الحجة مونتجمري وات، عندما قال - في تفسير هذه الآيات:

«إن التفسير الطبيعي لهذه الآيات، هو أن محمداً ما دام يتبع تلاوة من يتلو عليه - [جبريل] - فإن الله متكفل بجمع الآيات المتفرقة، أو التى أوحى بها فى أوقات مختلفة لجعلها فى سياق واحد..

وإذا لم يكن محمد هو الذى رتب القرآن بناء على وحي نزل عليه، فمن الصعب أن نتصور زيد بن ثابت - أو أى مسلم آخر - يقوم بهذا العمل. ومن هنا فإن كثيراً من السور قد اتخذت شكلها الذى هى عليه منذ أيام محمد نفسه»^(٢).

* وعن هذه الحقيقة - حقيقة الجمع الإلهي للقرآن الكريم - تحدثت مصادر علوم القرآن الكريم عن المراحل الثلاث لهذا الجمع..

(١) [نظام الحكومة النبوية] ج١، ص ١١٤ - ١١٧.

(٢) [الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر]، ص ١٧٩.

الإعجاز في التدوين والجمع للقرآن الكريم

فقال الحاكم النيسابوري - محمد بن عبد الله [٣٢١ - ٤٠٥هـ / ٩٣٣ - ١٠١٤م] -
في [المستدرک] - «لقد جمع القرآن ثلاث مرات: (إحداها) بحضرة النبي ﷺ.

ثم أخرج بسند على شرط الشيخين، عن زيد بن ثابت، قال:

كنا عند رسول الله - ﷺ - نؤلف القرآن من الرقاع - الحديث.

وقال البيهقي: شبه أن يكون المراد: تأليف ما نزل من الآيات المتفرقة في سورها
وجمعها فيها بإشارة النبي ﷺ.

(الثانية) بحضرة أبي بكر.. فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند
عمر حياته، ثم عند حفصه بنت عمر..

وأخرج ابن أبي داود، عن طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، قال:

قدم عمر، فقال: من كان تلقى من رسول الله - ﷺ - شيئاً من القرآن فليأت به.
وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعُصْب، وكان لا يُقبل من أحد شيئاً حتى
يشهد شهيدين.

وهذا يدل على أن زيداً كان لا يكتفى بمجرد وجدانه مكتوباً حتى يشهد به من تلقاه
سماعاً، مع كون زيد كان يحفظ، فكان يفعل ذلك مبالغة في الاحتياط..

قال ابن حجر [٧٧٣ - ٨٥٢هـ / ١٣٧٢ - ١٤٤٩م]: وكان المراد بالشاهدين:
الحفظ والكتاب. وقال السخاوي [٨٣١ - ٩٠٢هـ / ١٤٢٧ - ١٤٩٧م] - في [جمال
القراء]: المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كُتب بين يدي رسول الله ﷺ.

وقال الحارث المحاسبى [١٦٥ - ٢٤٣هـ / ٧٨١ - ٨٥٧م] - في كتاب [فهم
السنن]: كتابة القرآن ليست بمحدثة، فإنه ﷺ كان يأمرهم بكتابته، ولكنه كان مفرقاً
في الرقاع والأكتاف والعُصْب، فإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعاً،
وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله - ﷺ - فيها القرآن متشراً فجمعها
جامع، وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء.

«وإنما كان في الأديم والعُصْب - [جريد النخل كُشط خوصه] - أولاً، قبل أن يُجمع

فى عهد أبى بكر، ثم جُمع فى الصحف فى عهد أبى بكر، كما دلت عليه الأخبار الصحيحة المترادفة..

(والجمع الثالث) فى زمن عثمان.. أرسل إلى حفصة: أن أرسلى إلينا الصحف ننسخها فى المصاحف.. فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف.

وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فأكتبوه بلسان قريش فإنه نزل بلسانهم.

قال ابن حجر: وكان ذلك فى سنة خمس وعشرين.

... واقتصر من سائر اللغات - [اللهجات] - على لغة - [لهجة] - قريش، محتجاً بأنه نزل بلغتهم - [لهجتهم] - وإن كان قد وُسِّع فى قراءته بلغة غيرهم، رفعا للخرج والمشقة فى ابتداء الأمر، فرأى - [أى عثمان] - أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت، فاقتصر على لغة واحدة.

وقال القاضى أبو بكر - فى [الانتصار] -: لم يقصد عثمان قصد أبى بكر فى جمع نفس القرآن بين لوحين، وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبى - ﷺ - وإلغاء ما ليس كذلك، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير، ولا تأويل أثبت مع التنزيل...

قال الحارث المحاسبى: المشهور عند الناس أن جامع القرآن عثمان، وليس كذلك، إنما حمّل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد.. فأما قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه من القراءات المطلقات على الحروف السبعة التى أنزل بها القرآن...

والإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفى، لا شبهة فى ذلك. أما الإجماع فنقله غير واحد، منهم الزركشى [٧٤٥ - ٧٩٤هـ / ١٣٤٤ - ١٣٩٢م] - فى [البرهان] - وأبو جعفر بن الزبير - فى [مناسباته] - وعبارته: ترتيب الآيات فى سورها واقع بتوقيفه ﷺ وأمره، من غير خلاف فى هذا بين المسلمين.

الإعجاز في التدوين والجمع للقرآن الكريم

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس.. قال عثمان: كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السورة ذات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا..

قال الزركشى - في [البرهان] -: والخلاف بينهم حول ترتيب السور، أهو توقيفي أيضًا؟ أو باجتهاد الصحابة؟ خلاف لفظي، لأن القائل بأنه باجتهاد الصحابة يقول: إنه رمز إليهم ذلك بعلمهم بأسباب نزوله ومواقع كلماته، ولهذا قال مالك [٩٣ - ١٧٩هـ / ٧١٢ - ٧٩٥م] - مع قوله بأنه باجتهاد منهم - إنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي ﷺ - وأخرج ابن أبي داود، بسند حسن، عن محمد بن كعب القرظي، قال: جمع القرآن، على عهد رسول الله - ﷺ - خمسة من الأنصار:

- معاذ بن جبل [٢٠ق.هـ - ١٨هـ / ٦٠٣ - ٦٣٩م].

- وعادة بن الصامت [٣٨ق.هـ - ٣٤هـ / ٥٨٦ - ٦٥٤م].

- وأبى بن كعب [٢١هـ / ٦٤٢م].

- وأبو الدرداء [٣٢هـ / ٦٥٢م].

- وأبو أيوب الأنصاري [٥٢هـ / ٦٧٢م].

وممن جمع القرآن أيضًا:

- أبو موسى الأشعري [٢١ق.هـ - ٤٤هـ / ٦٠٢ - ٦٦٥م].

- وقيس بن أبي صعصعة [وهو خزرجي].

- وسعيد بن المنذر بن أوس زهير [وهو خزرجي].

- وأبو زيد قيس بن السكن.

- وأم ورقة بنت عبد الله بن الحارث [التي لقبها الرسول ﷺ بالشهيدة]^(١).

(١) [الإتقان في علوم القرآن] ج١ ص ٥٧ - ٧٢.

فجمعته الدولة.. وجمعه الصحابة من الحفاظ والقراء.. وهكذا حظى تدوينه وتوثيقه وجمعه بما لم يحظ به كتاب آخر على مر التاريخ.. وبذلك تحقق الوعد الإلهي:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩)^(١).

(١) انظر كتابنا [حقائق وشبهات حول القرآن الكريم]، طبعة دار السلام - القاهرة.

عن مناهج التفسير للقرآن الكريم

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُّتَصِدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]..

صدق الله العظيم..

فعندما نزلت بواكير القرآن الكريم، التي تحدث بلغاء العرب - والبشرية قاطبة - أن يأتوا بشيء من مثله، حسبت قريش أن قاضيتها وعدلها والمبرز بين زعمائها وزنادقتها أبو عبد شمس، الوليد بن المغيرة [٩٥ق. هـ - ١هـ / ٥٣٠ - ٦٢٢م] يمكن أن يكون هو الجبل الذي لا تهزه آيات هذا القرآن، فبعثوا به إلى رسول - ﷺ - لسمع وينقد وينقض هذا الذي جاء به محمد والذي يذيعه بين الناس.

لكن جبل الوثنية وقاضيتها وعدلها وزعيمها وزنديقتها، ما لبث - حين سمع آيات من الذكر الحكيم - أن اهتز كيانه، وتصدعت حججه، وخشع للحقيقة، فقال: «والله إن لهذا الكلام لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لمغدق، وإن فرعه لمثمر، وإنه يعلو ولا يُعلَى عليه، وما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن».

وكذلك كان الحال مع جبل آخر من جبال الوثنية القرشية - أبو الوليد، عتبة بن ربيعة بن عبد شمس [٢هـ / ٦٢٤م] الذي قال عندما سمع آيات من الذكر الحكيم: «والله لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط. والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة.. والله ليكونن لهذا الذي سمعت نبأ عظيم»^(١).

هكذا اهتزت جبال الوثنية عند سماعها آيات الذكر الحكيم، حتى لم تجد سبيلاً

(١) المعافى [مختصر سيرة ابن هشام] ج١ ص ١٨٧. طبعة القاهرة سنة ١٤٢٢هـ سنة ٢٠٠٢م.

لمنع تأثيره فيها إلا صم الآذان عن السماع ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

حدث هذا منذ انبثاق نور القرآن الكريم في القرن السابع للميلاد.. واستمر هذا التأثير قائماً عبر التاريخ، حتى كان القرن العشرون، عندما جاء المستشرق الإنجليزى «مونتجمرى وات» [١٩٠٩ - ٢٠٠٦م] - وهو قسيس أنجليكانى ابن قسيس - خدم فى كنائس لندن وأدنبرة والقدس - فدرس العربية والقرآن والإسلام لأكثر من ثلث قرن، وتوج دراساته هذه بكتابه [الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر] - الذى نشره سنة ١٩٦٩م - فإذا به - وهو أحد أخبار النصرانية - يقول عن القرآن الكريم: «إن القرآن صادر عن الله، وبالتالي فهو وحى، وليس كلام محمد بأى حال من الأحوال، ولا هو نتاج تفكيره.. وإن محمداً ليس أكثر من رسول اختاره الله لحمل هذه الرسالة.. وإن التجربة النبوية مع الوحي يمكن إيجاز ملامحها الرئيسية فيما يلى:

١ - محمد يشعر، وهو فى حالة وعى، أن هناك كلمات بعينها تلقى فى روعه، أو تحضر فى قلبه أو عقله الواعى.

٢ - وأن هذه الكلمات والأفكار لم تكن أبداً نتيجة أى تفكير واع من جانبه.

٣ - وأنه يعتقد أن هذه الكلمات أُلقيت فى روعه من قبل مندوب أو مبعوث خارجى يتحدث إليه كَمَلَك.

٤ - وأنه يعتقد أن هذه الرسالة قادمة من الله تعالى.

وعندما تمت كتابة هذا الوحي شكّل النص الذى بين أيدينا.. وعندما تحدى محمد أعداءه بأن يأتوا بسورة من مثل السور التى أُحييت إليه، كان من المفترض أنهم لن يستطيعوا مواجهة التحدى، لأن السور التى تلاها محمد هى من عند الله، وما كان لبشر أن يتحدى الله»^(١).

(١) مونتجمرى وات [الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر] ص ٣٥، ٣٦، ٨٣، ١٠٦، ٣٩، ١٧٠، ٢٠٦، ٥٢ - ٥٤، ٧١، ٣٢، ٦١، ١٢٨. ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ. طبعة القاهرة - مكتبة الأسرة - الهيئة العامة للكتاب سنة ٢٠٠١م.

عن مناهج التفسير للقرآن الكريم

فالقس الأنجليكاني يشهد - فى القرن العشرين - وهو على ديانتته - بما شهد به أساطين الوثنية - فى القرن السابع للميلاد - بأن هذا الذى جاء به رسول الإسلام ﷺ «ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن» وإنما هو «كلام الله وحده».. «النبأ العظيم»..

وكما أقسم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس - قبل أربعة عشر قرناً - : «والله ليكونن لهذا الذى سمعت نبأ عظيم»، اعترف القس الأنجليكاني مونتجمرى وات - فى القرن العشرين: «بأن هذا القرآن قد تبوأ مكان المركز والقطب والمحور» فى الدين والدولة والأمة والثقافة والمدنية والحضارة التى استظلت وتستظل بها أمم وشعوب وقبائل وأجناس وألوان، مثلت أممية إنسانية امتدت إلى كل أنحاء الدنيا..

* * *

تلك إشارات لنماذج من الشهادات الشاهدة على التأثير الأسر للقرآن الكريم على الذين سمعوه، ولم يدخلوا - لأسباب مختلفة - فى أمة الإسلام..

أما الذين ارتاضوا برياض القرآن، ونظروا فى آياته بعيون البلغاء، فإن شهاداتهم تحتاج إلى مجلدات..

* ويكفى أن نشير إلى كلمات إمام مدرسة الإحياء والتجديد فى عصرنا الحديث - الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] التى يقول فيها:

«إن القرآن كلام سماوى، تنزل من حضرة الربوبية، التى لا يُكتنه كنهها، على قلب أكمل الأنبياء.. إنه النور المنبعث عن شمس العلم الإلهى، والحكم الصادر عن المقام الربانى، على لسان الرسول الأُمى.. وهو يشتمل على معارف عالية، ومطالب سامية، لا يشرف عليها إلا أصحاب النفوس الزاكية والعقول الصافية. وإن الطالب له يجد أمامه من الهيبة والجلال الفائضين من حضرة الكمال ما يأخذ بتلابيبه، ويكاد يحول دون مطلوبه، ولكن الله تعالى خفف علينا الأمر، بأن أمرنا بالفهم والتعقل لكلامه، لأنه إنما أنزل الكتاب نوراً وهدى، مبيناً للناس شرائعه وأحكامه، ولا يكون كذلك إلا إذا كانوا يفهمونه»^(١).

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٣ ص ٤٣٦. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م القاهرة سنة ١٩٩٣م.

* وقول العلامة مصطفى صادق الرافعي [١٢٩٧-١٣٥٦هـ / ١٨٨٠-١٩٣٧م] - وهو إحدى آيات البلاغة الحديثة -: «إن القرآن أنزل لتكون كل نفس سامية نسخة حية من معانيه، وليكون هو النفس المعنوية الكبرى. فهو كتاب، ولكنه مع ذلك مجموعة العالم الإنساني».

* ولأن القرآن الكريم قد مثل - على مر التاريخ - «النبأ العظيم» - بتعبير عتبة بن ربيعة - و«المركز والقطب والمحور» - بتعبير مونتجمري وات - فلقد مثلت تفاسيره الفن الأول والأكبر من فنون التأليف في تراث الإسلام.. مع التنوع والتعدد في مدارس هذه التفاسير، حتى لقد أصبحت المرأة التي تعكس هذا التنوع لتيارات الفكر في حضارة الإسلام..

* وفي عصرنا الحديث وواقعنا المعاصر، كانت هناك مدارس لتفسير هذا النبأ العظيم، اشتهر منها المدرسة الإصلاحية، التي ارتاد ميدانها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، والتي حملت مجلة [المنار] مناهجها ومعالها إلى مختلف أنحاء عالم الإسلام على امتداد أربعين عامًا.

ولقد تحول هذا التفسير إلى شجرة مباركة امتدت فروعها المورقة إلى أنحاء عالم الإسلام - كما أصبح القرآن - وهذا ما تفردت به - منهاجاً للإصلاح في الأمة، يتغيا إخراجها من أسر التخلف الموروث والهيمنة الإمبريالية الغربية التي زحفت على عالم الإسلام لاحتوائه، وإعاقة تحرره ونهوضه وانعتاقه..

ولقد أجاد الإمام محمد البشير الإبراهيمي [١٣٠٦ - ١٣٨٥هـ / ١٨٨٩ - ١٩٦٥م] - وهو أحد الأفرع المورقة لهذه المدرسة - فقه حقيقتها، وعمق إبداعاتها، عندما وصف تفسير إمامها للقرآن الكريم فقال:

«ثم جاء إمام النهضة بلا منازع، وفارس الحلبة بلا مدافع الأستاذ الإمام محمد عبده، فجلا بدروسه في تفسير كتاب الله عن حقائقه التي حام حولها من سبقه ولم يقع عليها. وكانت تلك الدروس آية على أن القرآن لا يفسر إلا بلسانين: لسان العرب، ولسان الزمان.

لقد كان من إصلاحات الإمام محمد عبده العملية درسه لكتاب الله بأسلوب

عن مناهج التفسير للقرآن الكريم

حكيم لم يسبقه إليه سابق، وهو من هو فى استقلال الفكر، واستنكار الطرائق الجامدة.. ولقد كانت تلك الدروس فيضاً من إلهام الله أجراه على قلب ذلك الإمام وعلى لسانه، وإنها مما لم تنطو عليها حنايا عالم ولا صحائف كتاب..

لقد كان تفسير الأستاذ الإمام المنهاج المعجزة فى التفسير، المنبئ - بعد إرهاصات الشوكانى [١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ / ١٧٦٠ - ١٨٣٤ م] والألوسى [١٢١٧ - ١٢٧٠ هـ / ١٨٠٢ - ١٨٥٤ م] وصديق حسن خان [١٢٤٨ - ١٣٠٧ هـ / ١٨٣٢ - ١٨٨٩ م] - بظهور إمام المفسرين بلا منازع محمد عبده، أبلغ من تكلم فى التفسير بياناً لهديه، وفهماً لأسراره، وتوفيقاً بين آيات الله فى القرآن، وبين آياته فى الأكوان. فوجود هذا الإمام وجد علم التفسير وتم، ولم ينقصه إلا أنه لم يكتبه بقلمه كما بينه بلسانه، ولو فعل لأبقى للمسلمين تفسيراً لا للقرآن بل لمعجزات القرآن^(١).

* أما المدرسة الثانية - والتي اتسمت بالمحلية المصرية - فهى المدرسة البيانية، التى ارتاد ميدانها شيخ الأمناء الشيخ أمين الخولى [١٣١٣ - ١٣٨٥ هـ / ١٨٩٥ - ١٩٦٦ م].. والتي أبدع فى إطار خصائصها عدد من تلاميذ الشيخ أمين.

ولأن تأثير هاتين المدرستين - فى التفسير - لا يزال مهيمناً على تيارات فكرنا المعاصر.. تأثير المدرسة الإصلاحية فى المحيط الإسلامى.. وتأثير المدرسة البيانية فى قطاع من المحيط العلمانى الحدائى.. كانت هذه الدراسة التى نقدم بين يديها سباحة ماهرة فى تيارات الفكر ومناهج الإصلاح وخيارات التقدم التى تنتفسها فى واقعنا الفكرى المعيش..

ويزيد من أهمية هذه الدراسة، أن صاحبها - الأستاذ الدكتور رمضان خميس - هو واحد من المفكرين المرابطين على ثغور الدراسات القرآنية.. وإذا كان الشيخ محمد عبده قد تمنى على المسلمين أن يستخرجوا من القرآن الكريم علم السنن الإلهية - الكونية والاجتماعية - الذى هو علم قوانين التقدم والنهوض والإمساك بحركة التاريخ وتدافع الأمم والحضارات - فإن الدكتور رمضان قد مثل - فى فكرنا

(١) [آثار الإمام البشير الإبراهيمي] ج١ ص ٣٢٧، ج٢ ص ٢٥٢، جمع وتقديم: د. أحمد طالب الإبراهيمي، طبعة بيروت سنة ١٩٩٧ م.

المعاصر - أبرز الفرسان الذين مهروا في هذا الميدان.. ميدان علم السنن الإلهية - الكونية والاجتماعية..

كما تميزت هذه الدراسة - التي توازن بين مدارس التفسير - بالنظرات النقدية التي تقود القارئ إلى الآفاق الأرحب في التعامل مع إبداعات أئمة الفكر في تراثنا القديم والحديث..

لذلك كانت سعادتى غامرة بتقديم هذه الدراسة، التي أبدعها باحث متميز، نعلق على إبداعاته الكثير والكثير من الآمال.

والله نسأل أن ينفع به.. وأن يوفقه إلى المزيد والمزيد من العطاء الفكرى.. إنه - سبحانه وتعالى - خير مسئول وأكرم مجيب^(١).

(١) تقديم لكتاب [موازنة بين منهجى المدرسة الإصلاحية والمدرسة البيانية فى التفسير وعلوم القرآن].

الدكتور طه جابر العلوانى

[١٣٥٤-١٤٣٧هـ - ١٩٣٥-٢٠١٦م]

الميلاد:

مدينة الفلوجة، منطقة الحصوة، محافظة الأنبار، العراق [١٣٥٤ - ١٤٣٧هـ /
١٩٣٥ - ٢٠١٦م]

المؤهلات العلمية:

- شهادة الدكتوراه، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر، ١٩٧٢م. بمرتبة الشرف الأولى فى تخصص «أصول الفقه»، وقد أوصت اللجنة المناقشة بالأزهر بطباعة رسالته بنفقة الأزهر وتبادلها مع الجامعات الإسلامية.
- شهادة الماجستير، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر، ١٩٦٨م.
- شهادة الليسانس، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر، ١٩٥٩م.
- شهادة الثانوية الأزهرية، القاهرة، ١٩٥٣م.
- شهادة المدرسة الآصفية الدينية (المعهد الدينى) فى الفلوجة، العراق، ١٩٥٢م.
- شهادة الابتدائية من المدرسة الابتدائية للبنين بالفلوجة، العراق، ١٩٤٨ - ١٩٤٩م.

اللغات:

- العربية (اللغة الأم - إتقان تام).
- الإنجليزية (إتقان تام).

- الفارسية (إمام يسير).

- التركية (إمام يسير).

الخبرات العلمية:

- الرئيس المؤسس لأكاديمية طه العلوانى للدراسات القرآنية، فرجينا منذ سنة ٢٠١٣م وحتى وفاته.

- أستاذ كرسى الإمام الشافعي للفقہ وأصوله والفقہ المقارن بجامعة قرطبة، فرجينا، من سنة ١٩٩٧م وحتى وفاته.

- رئيس جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية سابقاً G.S.I.S.S التى أصبحت «جامعة قرطبة» منذ ٢٠٠٢م، من سنة ١٩٨٦م وحتى سنة ٢٠٠٧م.

- نائب رئيس المعهد العالمى للفكر الإسلامى (هيرندن - فرجينا) من سنة ١٩٨٤م وحتى سنة ١٩٨٦م.

- رئيس قسم البحوث والدراسات فى المعهد العالمى للفكر الإسلامى من ١٩٨٤م وحتى سنة ١٩٨٦م.

- رئيس تحرير مجلة إسلامية المعرفة المؤسس، الصادرة عن المعهد العالمى للفكر الإسلامى، فرجينا، من سنة ٢٠٠٢م وحتى ٢٠٠٧م.

- أستاذ الفقہ والأصول كلية الشريعة جامعة الإمام محمد بن سعود من سنة ١٩٧٥م وحتى ١٩٨٤م.

- أستاذ الثقافة الإسلامية بمعهد ضباط الأمن العام فى الرياض من سنة ١٩٧٧م وحتى سنة ١٩٨٣م.

- مستشار قانونى فى الحقوق الخاصة بوزارة الداخلية فى المملكة العربية السعودية من سنة ١٩٧٥م وحتى ١٩٧٦م.

- مستشار اللجنة الوطنية للمياه فى المملكة السعودية لمدة سنتين.

- مدير تحرير مجلة الجندي في التدريب العسكري في بغداد ١٩٦٣ م.
- مدرس الدراسات الإسلامية في الكلية العسكرية في بغداد من سنة ١٩٦٤ م وحتى سنة ١٩٧٩ م.
- مدرس في كلية الدراسات الإسلامية في بغداد.
- الخطابة والإمامة والتدريس في جامع (الحاجة حسينية) في بغداد، الكرادة الشرقية، من سنة ١٩٥٣ م وحتى سنة ١٩٦٩ م.

الكتب:

- تحقيق ودراسة كتاب (المحصول في علم أصول الفقه) الإمام فخر الدين الرازي، وقد قامت جامعة الإمام محمد بن سعود بطبعه ونشره في ستة مجلدات ١٩٨٠. والطبعة الثانية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٢. والطبعة الثالثة قيد الإعداد في دار السلام للطباعة والنشر.
- الاجتهاد والتقليد في الإسلام، القاهرة: دار الأنصار، ١٩٨٠ م.
- تحقيق كتاب «النهى عن الاستعانة والاستنصار في أمور المسلمين بأهل الزمة والكفار» للعلامة مصطفى الوارداني، الرياض، شركة العبيكان، ١٩٨٣ م.
- أصول الفقه الإسلامي: منهج بحث ومعرفة، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٨٨ م.
- أدب الاختلاف في الإسلام، ط ١، ١٩٨٥ م، قطر: سلسلة كتاب الأمة، الكتاب رقم ٩، ط ٢، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٩٩١ م.
- مشكلتان وقراءة فيهما، مع المستشار طارق البشري، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٣ م.
- إصلاح الفكر الإسلامي: مدخل إلى نظام الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر، فرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٤ م.
- ابن تيمية وإسلامية المعرفة، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٥ م.

- خواطر فى الأزمة الفكرية والمأزق الحضارى للأمة الإسلامية، الرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامى، ١٩٩٦م.
- الأزمة الفكرية ومناهج التغيير: الآفاق والمنطلقات، القاهرة: المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ١٩٩٦م.
- الجمع بين القراءتين: قراءة الوحى وقراءة الكون، القاهرة: المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ١٩٩٦م.
- التعددية: أصول ومراجعات بين الاستتباع والإبداع، القاهرة: المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ١٩٩٦م.
- حاكمية القرآن، القاهرة: المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ١٩٩٧م.
- إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم، القاهرة: المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ١٩٩٧م.
- فى فقه الأقليات المسلمة (ضمن سلسلة: فى التنوير الإسلامى) القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٠م.
- مقدمة فى إسلامية المعرفة، بيروت: دار الهادى، ٢٠٠١م.
- إصلاح الفكر الإسلامى، ط ٢، بيروت: دار الهادى، ٢٠٠١م.
- الأزمة الفكرية ومناهج التغيير، بيروت: دار الهادى، ٢٠٠١م.
- مقاصد الشريعة، بيروت: دار الهادى، ٢٠٠١م.
- الخصوصية والعالمية فى الفكر الإسلامى المعاصر، بيروت: دار الهادى، ٢٠٠٣م.
- مدخل إلى فقه الأقليات، أيرلندا، المجلس الأوروبى للإفتاء والبحوث، ٢٠٠٤م.
- أبعاد غائبة عن فكر وممارسات الحركات الإسلامية المعاصرة، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م.

- نحو منهجية معرفية قرآنية: محاولات بيان قواعد المنهج التوحيدي للمعرفة، بيروت: دار الهادى، ٢٠٠٤م.
- ابن رشد الحفيد: الفقيه والفيلسوف، مراكش: جامعة القاضي عياض، المطبعة الوطنية، ٢٠٠٦م.
- أزمة الإنسانية ودور القرآن الكريم فى الخلاص منها، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦م.
- الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الكون، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦م.
- الوحدة البنائية للقرآن المجيد، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦م.
- لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦م.
- لا إكراه فى الدين: إشكالية الردة والمرتدين من صدر الإسلام إلى اليوم. ط ٢، مشتركة بين المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ومكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦م.
- نحو موقف قرآنى من النسخ، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٧م.
- نحو التجديد والاجتهاد، مراجعات فى المنظومة المعرفية الإسلامية، أولاً: الفقه وأصوله، القاهرة: دار التنوير، ٢٠٠٨م.
- التعليم الدينى بين التجديد والتجميد، القاهرة: دار السلام، ٢٠٠٩م.
- نحو إعادة بناء علوم الأمة الاجتماعية والشرعية، طه جابر العلوانى، منى أبو الفضل، القاهرة، دار السلام، ٢٠٠٩م.
- مفاهيم محورية فى المنهج والمنهجية، القاهرة: دار السلام، ٢٠٠٩م.
- معالم فى المنهج القرآنى، القاهرة: دار السلام، ٢٠١٠م.
- الإمام فخر الدين الرازى ومصنفاته، القاهرة: دار السلام، ٢٠١٠م.
- نحو موقف قرآنى من إشكالية المحكم والمتشابه، القاهرة: دار السلام، ٢٠١٠م.
- تفسير سورة الأنعام، القاهرة: دار السلام، ٢٠١٢م.

- إشكالية التعامل مع السنة النبوية، هرندن، فرجينيا: المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ٢٠١٤م.
- حوار مع القرآن، تجربة ذاتية ودعوة للتدبر، القاهرة: دار السلام، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.
- تجربتى مع الحياة السياسية فى العراق، بيروت، منتدى المعارف، ٢٠١٦م، ج١.
- الحاكمة والهيمنة نحو إعادة بناء مفهوم الأمة والدولة والدعوة، هرندن، فرجينيا: المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ٢٠١٦م.
- من أدب الاختلاف إلى نبذ الخلاف، هرندن، فرجينيا: المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ٢٠١٧م.

Books:

- Source Methodology In Islamic Jurisprudence, London: Washington, International Institute of Islamic Thought, 1990.
- The Quran and the Sunnah: The Time- Space Factor, Herndon, Virginia: The International Institute of Islamic Thought, Occasional Paper Series No: 3, 1991.
- Outlines of a Cultural Strategy, Herndon, Virginia: The International Institute of Islamic Thought, Occasional Paper Series, No. 1, 1991.
- The Ethics of Disagreement in Islam, London, International Institute of Islamic Thought, 1993.
- The Islamization of Knowledge: Yesterday and Today, London, International Institute of Islamic Thought, 1995.
- Missing Dimensions in Contemporary Islamic Movement, Herndon,

Virginia: The International Institute of Islamic Thought, Occasional Paper Series, No. 9, 1996.

– Linking Ethics and Economics: The Role of Ijtihad the regulation and Correction of Capital Markets. co- authored with Waleed El-Ansary, Washington, District of Columbia: Center for Muslim Christian Understanding, 1999.

– Towards a Figh for Minorities: Some Basic Reflections, London, Washington, International Institute of Islamic Thought, 2004.

– Fondements du Droit Musulman (Usul al- Fiqh al- Islami) Paris: Institut International de la Islamique, 2005.

– Shaykh Taha Al- Alwani: Issues in Contemporary Islamic Thought, London, Washington, International Institute of Islamic Thought, 2005.

أدب الاختلاف فى الإسلام للدكتور طه جابر العلوانى

[١٣٥٤ - ١٤٣٧هـ - ١٩٣٥ - ٢٠١٦م]

من سنن الله فى الاجتماع الإنسانى: سنة التعدد والتنوع والتمايز والاختلاف.. وهذه السنة - التى لا تبدل لها ولا تحويل - هى السبب الدافع للتسابق على طريق التقدم والخيرات بين الفرقاء المختلفين.. إذ لو كان الخلق نمطاً واحداً - فى الصفات والإمكانات والتوجهات - لكان الاجتماع الإنسانى موثقاً راکداً لا حافز فيه ولا حراك.. بل إن هذا التعدد والتنوع سنة وقانون فى جميع ميادين الكون والخلق والوجود - جماداً، ونباتاً، وحيواناً، وإنساناً - ولو كان الوجود والموجود نمطاً واحداً، لغدا - كذلك - منظره كئيباً، إذ التنوع من أهم عناصر الجمال فى هذا الوجود.

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن آيات الله - سبحانه وتعالى - فى التعدد والتنوع والتمايز والاختلاف:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨].. وفى تفسيرها يقول العلماء: «وللأختلاف خلقهم»^(١).. فكأنما التعددية هى علة الوجود.

﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].. فالتعدد والتنوع والاختلاف هو الحافز على التسابق فى الخيرات، وهو السبب فى الامتحانات والاختبارات التى تنمى الملكات والطاقات.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ الْمَنَاسِكُمْ وَالْمَوَاسِكُمْ﴾ [الأنعام: ١٠١]..

(١) القرطبى [الجامع لأحكام القرآن] ص ١١٤، ١١٥، طبعة دار الكتب المصرية.

لَا يَنْتِ لِلْعَلَمِينَ ﴿ [الروم: ٢٢] .. فكما تنوعت عوالم الخلق فى السموات والأرض، كذلك تنوعت واختلفت الألسنة واللغات والقوميات والثقافات والأجناس والألوان والحضارات .. وكذلك التوجهات: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل: ٤]، ﴿وَلِكُلِّ وِجْهٌ هُوَ مُوَلِّيًا فَاسْتَفِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

* وهنا - وأمام هذه الحقيقة - يتبادر السؤال عن العلاقة بين هؤلاء المختلفين:

- هل تظل طرق الاختلاف بين المختلفين دائمة الامتداد والاتساع والافتراق؟

- أم أن هناك إطارًا جامعًا لهؤلاء الفرقاء المختلفين؟

ومرة أخرى نجد القرآن الكريم يعلمنا أن «التعارف» و«التعايش» هو المقصد الذى يجب أن يجمع هؤلاء الفرقاء المختلفين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

إذن فالفرقاء المختلفون، الذين شاء الله أن يكون اختلافهم الحافز على التسابق فى طريق التقدم والعمران والخيرات لا يريد الله أن يسيروا فى طرق متوازية أو متباعدة تمنع التلاقى، وتحول دون التعارف والتعايش، وإنما يريد لهم وحدة يتعارفون ويتعايشون فى ظلالها، مع بقاء التنوع والتمايز والاختلاف فكأنهم فى منتدى كبير، يتميز فى الخصوصيات، ويجمعهم المشترك الإنسانى العام.. أى أن الصورة العامة والكلية هى صورة التنوع والاختلاف فى إطار الوحدة التى تحقق التعارف والتعايش بين هؤلاء الفرقاء.

* وهنا يبرز سؤال آخر:

- ما هو الضمان الذى يوجه التنوع نحو الوحدة؟.. والذى يعصم هذا التنوع - بما

فيه من تناقضات - من التشرذم والتضاد والشقاق؟

وهنا يبرز المنهاج القرآنى الذى يزكى «التدافع» بديلاً عن «الصراع» فى حل التناقضات.. فالتدافع - الدينى والفكرى والاجتماعى والسياسى - هو حراك يعالج التناقضات، ليعيدها عن الانحراف إلى مستوى التوازن، مع الحفاظ على التنوع

والتعدد: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، ﴿وَلَوْ لَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

أما الصراع، فإنه الطريق الذي يصبر فيه القوى الضعيف فينهى التعدد والتنوع، وينفرد ويستفرد بالسلطة والسلطان في جميع الميادين: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازُ نَحْلٍ حَاقِبَةٍ﴾ (٧) ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧، ٨]..

فللحفاظ على سنة التعدد والتنوع والتمايز والاختلاف، مع حل المتناقضات بين الفرقاء المختلفين، زكى القرآن الكريم منهاج التدافع بديلاً عن منهاج الصراع^(١).

* وللجمع بين التعدد والوحدة، حرص الفكر الإسلامى على التمييز بين «الأصول» الجامعة للوحدة، وبين «الفروع» - الفقهية والسياسية - التى تحقق التنوع والاختلاف فى إطار هذه الوحدة.. ولقد وضع أهل السنة والجماعة لذلك «قانوناً» ميز بين «الأصول»، التى معايير الخلاف فيها: إيمان وكفر، وبين «الفروع»، التى معايير الاختلاف فيها: صواب وخطأ.. وعن هذا «القانون» عبر حجة الإسلام أبو حامد الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥هـ / ١٠٥٨ - ١١١١م]، فقال: «.. أما القانون فهو أن تعلم أن النظريات قسمان:

- قسم يتعلق بأصول القواعد.

- وقسم يتعلق بالفروع.

وأصول الإيمان ثلاثة: الإيمان بالله، وبرسوله، وباليوم الآخر. وما عداه فروع.

وأعلم أنه لا تكفير فى الفروع أصلاً، إلا فى مسألة واحدة وهى أن ينكر أصلاً دينياً علم عن الرسول - ﷺ - بالتواتر، ولكن فى بعضها تخطئة، كما فى الفقهيات، وفى بعضها تبديع، كالخطأ المتعلق بالإمامة وأحوال الصحابة.

(١) انظر كتابنا [الإسلام والتعددية الاختلاف والتنوع فى إطار الوحدة]، طبعة دار السلام - القاهرة سنة ١٤٣٢هـ / سنة ٢٠١١م.

وأعلم أن الخطأ في أصل الإمامة - وتعيينها وشروطها وما يتعلق بها - [أى فى السياسات] - لا يوجب شىء منه التكفير.. ولا يلتفت إلى قوم يعظمون أمر الإمامة ويجعلون الإيمان بالإمام مقروناً بالإيمان بالله ورسوله، ولا إلى خصومهم المكفرين لهم بمجرد مذهبهم فى الإمامة، فكل ذلك إسراف، إذ ليس فى واحد من القولين تكذيب للرسول - ﷺ - أصلاً، ومتى وجد التكذيب وجد التكفير وإن كان فى الفروع. نعم، لو أنكر ما ثبت بأخبار الآحاد فلا يلزمه به الكفر، ولو أنكر ما ثبت بالإجماع فهذا فيه نظر، لأن معرفة كون الإجماع حجة قاطعة فيه غموض يعرفه المحصلون لعلم أصول الفقه.. فهذا حكم الفروع.

وأما الأصول الثلاثة، وكل ما لا يحتمل التأويل فى نفسه، وتواتر نقله، ولم يتصور أن يقوم برهان على خلافة، فمخالفته تكذيب محض..^(١).

* ولقد مد شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨هـ / ١٢٦٣ - ١٣٢٨م] نطاق الفروع - التى لا تكفير فى الاختلاف حولها - إلى عدد من المسائل التى تناولها علماء أهل السنة والجماعة فى كتب الأصول.. فقال:

«إن المسائل التى اختلف أهل القبلة فيها، مثل:

- أن الله تعالى هل هو عالم بالعلم أو بالذات؟

- وأنه تعالى هو موجد لأفعال العباد أم لا؟

- وأنه هو متحيز؟

- وهل هو فى مكان وجهة؟

- وهل هو مرئى أم لا؟

لا تخلو - [هذه المسائل وأمثالها] - إما أن تتوقف صحة الدين على معرفة الحق فيها أو لا تتوقف. والأول باطل، إذ لو كانت معرفة هذه الأصول من الدين لكان الواجب على النبى ﷺ أن يطالبهم بهذه المسائل، ويبحث عن كيفية اعتقادهم فيها،

(١) الغزالي [فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] ص ١٥، ١٦، طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧م.

أدب الاختلاف فى الإسلام

فلما لم يطالبهم بهذه المسائل، بل ما جرى حديث عن هذه المسائل فى زمانه عليه السلام ولا فى زمان الصحابة والتابعين - رضى الله عنهم - علمنا أنه لا تتوقف صحة الإسلام على معرفة هذه الأصول، وإذا كان كذلك، لم يكن الخطأ فى هذه المسائل قادحا فى حقيقة الإسلام، وذلك يقتضى الامتناع عن تكفير أهل القبلة^(١).

* وحتى لا يفضى الاختلاف والتنوع إلى التضاد والشقاق، لا بد من الحرص على تنمية الآداب التى تجعل الاختلاف ظاهرة صحية، تثرى الحياة، وتغنى الفكر، وتقود الفرقاء المختلفين إلى التعارف والتعايش والتعاون الذى أراده الله - سبحانه وتعالى - من وراء سنة التعدد والتمايز والاختلاف.

فآداب الاختلاف هى الإكسير الذى يجعل هذا الاختلاف نعمة من نعم الله - ومصدر ثراء وغنى، وعاصمًا من الصراع والإقصاء والتشردم والشقاق والتضاد.

ولأهمية هذه الآداب فى إثراء الحياة الفكرية، كان الاختيار لهذا الكتاب - [آداب الاختلاف فى الإسلام] - للأستاذ الدكتور طه جابر العلوانى - الذى لا نغالى إذا قلنا: إنه من أهم - إن لم يكن أهم - ما كتب فى هذا الموضوع المهم فى فكرنا الإسلامى المعاصر^(٢).

سائلين المولى - عز وجل - أن ينفع به، فى مناخ نحن أحوج ما نكون إليه.. إنه - سبحانه وتعالى - خير مسئول وأكرم مجيب.

(١) ابن تيمية [موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول] ج ١ ص ١٤٤، طبعة القاهرة سنة ١٣٢١هـ.
(٢) لقد قام الدكتور طه بإخراج طبعة جديدة لهذا الكتاب سنة ٢٠١٧م بعنوان [من أدب الاختلاف إلى نبذ الخلاف] أضاف فيها دراسة عن دور علم الكلام فى تفريق الأمة.. وعن رأيه فى الحاكمية الإلهية والحاكمية القرآنية. وهى إضافات مثلت تطورًا فى فكره إزاء علم الكلام.. وعلاقة الدين بالدولة.

أمريكا: هل هي شعب الله المختار؟!

للقس الأمريكي هيربرت أرمسترونج

إذا كانت العقيدة اليهودية العنصرية التي تدعى أن اليهود هم الشعب المختار والمقدس المعصوم، دون كل الشعوب، وفوق جميع الشعوب، وضد سائر الشعوب، قد جعلت اليهود يتصرفون مع كل الأغيار والآخرين تصرف الفعّال لما يريد، والذي لا يُسأل عما يفعل!

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران - ٧٥].

فلا تُطبّق عليهم قرارات المنظمات الدولية - من الجمعية العامة للأمم المتحدة إلى مجلس الأمن - ولا اتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩م، ولا مواثيق حقوق الإنسان الفلسطيني والعربي.

إذا كان هذا هو حال العنصرية اليهودية.. فيبدو أن رعاة البقر الأمريكيين قد أرادوا منافسة اليهود في هذا الميدان، فحسبوا - وهم الأقوى - أنهم الأحق بأن يكونوا شعب الله المختار!

* يلوثون العالم، ويخرقون الأوزون، دون أن يخضعوا لمواثيق البيئة التي ارتضاها العالم.

* ويستخدمون الفيتو بإسراف، على النحو الذي يجهض إرادة ما يقرب من مائتي دولة تمثل الأسرة الدولية في الأمم المتحدة.

* ويتحدون الإنسانية في التفرد باستخدام الأسلحة الذرية ضد المدنيين، في مدينتي «هيروشيما» و«نجازاكي» سنة ١٩٤٥م.

* ويمرّقون ضد العالم في العودة إلى دوامة سباق التسلح بالدرع الصاروخية.

* ويقسمون العالم - وفق هواهم - ودون شورى أو ديمقراطية - إلى «خير وشر» و«سلم وإرهاب» و«تحضر وبربرية»، جاعلين أنفسهم ومن رضوا عنه وتبعهم الخير والسلم والتحضر، وجاعلين الأغيار هم الشر والبربرية والإرهاب.

* ويعطون أنفسهم الحق فى شن الحروب الاستباقية ضد الحكومات التى لا تعجبهم، ضاربين عرض الحائط بمبدأ سيادة الدول الوطنية والقومية على أرضها، وهو المبدأ الذى قامت على أساسه الشرعية الدولية منذ نشأتها وحتى الآن.

* وأخيرًا: يريدون تقرير العصمة لجنس الأمريكان! يفعلون ما يريدون، ولا يسألون عما يفعلونه أمام المحكمة الجنائية الدولية، التى ارتضتها الإنسانية حكمًا وحاكمًا فى الخروج على قواعد ومواثيق حقوق الإنسان.

يبدو أن رعاة البقر الأمريكان قد قرروا منافسة اليهود فى عقيدة أنهم شعب الله المختار، بل والاستئثار بهذه العقيدة العنصرية دون الأمم والشعوب، بمن فيهم أداتهم الصهيونية وإسرائيل!

* * *

ففى كتاب «أمريكا وبريطانيا فى نبوءات الكتاب المقدس» للقس الأمريكى هيربرت أرمسترونج -والذى طبعت منه خمسة ملايين نسخة فى أمريكا، والذى روج له مؤلفه من خلال برنامج «العالم غدًا» الذى كان يذاع على أربعمئة قناة تليفزيونية فى جميع أنحاء العالم - فى هذا الكتاب نرى التأسيس الدينى لدعوى أن رعاة البقر الأمريكان، ومعهم الإنجليز، هم شعب الله المختار، الذين يملكون حق وعد الرب لإبراهيم عليه السلام، فهم الذرية الإبراهيمية التى قطع الرب لها هذا العهد التوراتى، بذلك الميراث المقدس، وهم الذين جعلهم الرب حملة رسالة استعمار العالم!! وفى مقدمته أرض فلسطين، ليعود المسيح عليه السلام حاكمًا للعالم الألفية السعيدة التى تحدثت عنها النبوءات!

وإذا كان هذا التحريف لتفسيرات النبوءات - التى هى فى الأصل من وضع الأخبار والحاخامات اليهود - هو واحد من عجائب الفكر، فإن وضع رعاة البقر الأمريكان لهذه العقيدة العنصرية فى التطبيق - بإعلانهم أن القرن الواحد والعشرين هو قرن

أمريكا: هل هى شعب الله المختار؟!

الإمبريالية الأمريكية - يدعونا إلى النظر فى مقولات هذا الكتاب، الذى وضعه القس الأمريكى كى يؤسس لهذه النزعة العنصرية، ويجعلها دينًا يتدين به اليمين الدينى الذى يحكم أمريكا هذه الأيام.

* * *

* يبدأ صاحب كتاب «أمريكا وبريطانيا فى نبوءات الكتاب المقدس» من الأسطورة التى أراد بها حاخامات اليهود تأسيس العنصرية والامتياز لشعب الله المختار، أسطورة وعد الله لإبراهيم عليه السلام، بأن يجعل له من الذرية أممًا كثيرة، ونسلًا كثيرًا جدًا، وأن يعطى الأرض التى أراها لإبراهيم لهذه الذرية وأن تراث هذه الذرية بوابات مدن أعدائها، أى تغزو وتستعمر مدن الأعداء «سفر التكوين ١٧: ١-٦، ٢٢: ١٦-١٨».

* ثم يشرح المؤلف فى «التفسير الأمريكانى» - وليس اليهودى - لهذه الأساطير، فيقول: إن هذا الوعد هو للأمريكان والإنجليز، وليس لليهود، فاليهود جماعة صغيرة محدودة العدد، وليسوا أممًا كثيرة، بينما الأمريكان والإنجليز هم الذين ينطبق عليهم وصف الأمم الكثيرة والنسل الكثير.

* ثم يقول إن هذا الوعد هو «لإسرائيل»، وليس «لليهود» فاليهود جزء من إسرائيل، وليسوا كل إسرائيل، إنهم نسل يهوذا، وهو سبط من الأسباط الاثنى عشر، ثم إنهم هم الذين عصوا ربهم، ودمر ملكهم وبيت عبادتهم، وانقطعت سلسلة ملوكهم منذ عهد الملك «صدقيا»، بعد عصر «سليمان» أما الأسباط العشرة - بقية إسرائيل وأغليبتها - الذين استمر فيهم الوعد والعهد والميراث والملك ووعد البكورية، فلقد حمل بذرتهم وامتدادهم النبی «إرميا» مع إحدى بنات الملك «صدقيا» إلى أيرلندا ثم إلى إنجلترا ثم إلى الولايات المتحدة الأمريكية! فتجسد الوعد المادى - بالأرض والثروة والغزو والاستعمار للشعوب وورثة مدن الأعداء - تجسد هذا الوعد المادى فى الإمبراطورية الأمريكية والإمبراطورية الإنجليزية، ولقد جمع الأمريكان والإنجليز إلى هذا الوعد المادى الوعد الروحى باتباعهم ليسوع المسيح عليه السلام.

* ويستشهد القس «أرمسترونج» على أن الأمريكان والإنجليز - وليس اليهود

- هم شعب الله المختار، بأن الوعد الإلهي والنبوءة المقدسة قد جعلت من هذا الشعب المختار شعباً استعمارياً، يقهر الشعوب ويستولى على المدن، فهذه الصفات تنطبق على الأمريكان والإنجليز منذ بداية القرن التاسع عشر، وليس على اليهود؛ أى أن آيات ومعجزات وصفات النبوة والقداسة والاصطفاء للشعب المختار هي الاستعمار للدول والقهر للشعوب، وهي آيات ومعجزات أمريكية وإنجليزية لم تظهر على أيدي اليهود المقهورين المضطهدين!!

هذه هي الأسطورة المؤسّسة لكون رعاة البقر الأمريكان - ومعهم الإنجليز - هم شعب الله المختار، الفعالون بالشعوب ما يريدون، والذين لا يُسألون عما يفعلون، والذين يمثل اجتياحهم للعالم، ونهبهم لثرواته وقهرهم لشعوبه؛ تحقيقاً لوعده الله لإبراهيم ولذرية إبراهيم!!

* أما النصوص الغربية والعجيبة التي ساقها القس الأمريكي، كى يؤسس ديناً للهيمنة الأمريكية على العالم، فإن منها قوله: «إن اليهود أمة مختلفة تماماً عن إسرائيل، لذا فمن الخطأ أن نسمى يهود اليوم إسرائيل، إنهم ليسوا أمة إسرائيل، إنهم سبط يهوذا، وإن الأسباط العشرة لإسرائيل اليوم ليسوا اليهود، بل هم إسرائيل التي كانت في حرب ضد اليهود».

* وإن النبوءة كانت تشير دائماً إلى «السامرة»، ولم تشر أبداً إلى اليهود، و«السامرة» هي المنطقة التي كان يسكنها الأسباط العشرة من إسرائيل، بينما اليهود - سبط يهوذا - كانوا يسكنون المنطقة اليهودية، جنوبى السامرة.

* وبعد موت الملك «صدقيا» - ملك يهوذا - تم غرس عرش داود في إسرائيل، وليس في يهوذا واليهود، وذلك بواسطة إحدى بنات «صدقيا» التي صحبت النبي «إرميا» في رحلته إلى «أيرلندا» فأصبحت زوجة لملك أيرلندا، ومنذ ذلك التاريخ «أصبحت إسرائيل مستقلة في أيرلندا، فإسرائيل التي مقرها أيرلندا، كان يحكمها سلسلة من الملوك يمتد نسبهم إلى ابنة صدقيا، والإسرائيليون الأيرلنديون كانوا عبارة عن جالية لم تقع تحت السبي الآشورى».

* «وإن عرش داود، الذى أعيد غرسه في أيرلندا، قد انقلب ثانية وأعيد غرسه في

أمريكا: هل هي شعب الله المختار؟!

اسكتلندا، وانقلب في المرة الثالثة وتم غرسه في لندن، وكان الملك جورج يمتلك خريطة - مرسومًا - يوضح نسب كل جيل حتى يصل هذا النسب إلى ابنة صديق داود وحتى آدم».

* ولما كانت النبوءة، والوعد الإلهي لإبراهيم يتحدث عن أن الذين «يملكون امتياز البكورية» هم أمم كثيرة - وليسوا قلة كاليهود - وأنهم «سوف يرثون بوابات - مدن - أعدائهم - أي يصبحون شعبًا استعماريًا - وتتوسع مستعمراتهم وتمتد من الجزر البريطانية إلى كل أنحاء العالم» فإن هذه الصفات تنطبق على الأمريكان والإنجليز، لا على اليهود.

* ثم تكتمل سلسلة الفكر الأسطوري لليمين الديني الأمريكي، بالحديث عن انتقال الآباء المؤسسين لأمريكا من إنجلترا، حاملين «بذرة إسرائيل» - الشعب المختار - إلى الأرض الجديدة، التي رأوا فيها «أرض الميعاد» والتي رأوا في خروجهم إليها محاكاة لخروج بني إسرائيل من مصر إلى أرض كنعان، ولذلك رأيناهم يطلقون على ولاياتها أسماء عبرانية، ويسمون أبناءهم أسماء عبرانية ويفرضون تعليم اللغة العبرية في مدارسهم وجامعاتهم، حتى أن أول دكتوراة منحتها جامعة «هارفارد» سنة ١٦٤٢م كان عنوانها «العبرية هي اللغة الأم»، وأول كتاب طبع في أمريكا هو «سفر المزامير»!

* ولا يكتفى أبناء إسرائيل الأمريكان، بالدعم والتأييد للمشروع الصهيوني في فلسطين، وإنما يرون في هذا المشروع مجرد أداة وتمهيد لاستعمارهم هم لفلسطين، فالأمريكان - وليس اليهود - هم بنوا إسرائيل «المالكون لامتياز البكورية، والوارثون لوعد الله لذرية إبراهيم» وبعبارة «أرمسترونج» فإنهم هم الذين «سيقومون بغرس العنب في بلدهم الأصلي السامرة، عندما يعود بيت إسرائيل إلى فلسطين عند عودة المسيح فأحفاد أفرايم هم البريطانيون، وأحفاد منسى هم الأمريكان، وليس من حق اليهود أن يطلق عليهم اسم بيت إسرائيل»! ثم يعلن هذا القس الأمريكي على الملأ: «نعم، إننا شعب الله المختار إسرائيل»!!

* هكذا تحدث القس الأمريكي «هيربرت أرمسترونج» عن الأساطير الدينية

المؤسسة لإمبريالية الإمبراطورية الأمريكية، حتى تكون إمبريالية مقدسة، يمثل اجتياحها للعالم التحقيق لوعده الله لإبراهيم، عليه السلام!

وإذا كان البعض سيقول: وما لنا وهذه التخاريف الأسطورية؟! فإننا نقول لهم: وهل قام حكم اليمين الديني في أمريكا اليوم إلا على التخاريف والأساطير؟! إننا أمام خرافات تُستخدم في دعم الباطل، فلم لا نستخدم حقائق الإسلام في دعم قضايانا العادلة، واستخلاص حقنا السليب من برائن الأعداء، الغارقين في الأساطير، والزاعمين أنهم العقلانيون المتقدمون.

تلك سطور آثرنا أن نقدم بها بين يدي هذا الكتاب «الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا في نبوءات الكتاب المقدس»^(١).

والله نسأل أن يكون نشره موقفاً لأمتنا من سباتها العميق! وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين.

(١) انظر طبعتنا لهذا الكتاب - بعنوان: [أمريكا هل هي شعب الله المختار...؟!] هدية مجلة [الأزهر] عدد جمادى الأولى سنة ١٤٣٣ هـ.

خطة أمريكية لتحديث الإسلام

كان سقوط الشيوعية - أوائل ١٩٩١ م - إيذاناً بسقوط كثير من الأيديولوجيات التي أفرزتها الحضارة الغربية - المادية.. والنازية.. والفاشية.. والوجودية - وإيذاناً باجتماع الغرب الحضارى على الليبرالية الرأسمالية - التي أعلنوا أنها «نهاية التاريخ»، والتي أرادوا «عولمتها»، أى صب العالم فى قالبها.

ولأن «النزعة الصراعية» هى الروح السارية فى الحضارة الغربية - من صراع الأحياء عند «داروين» [١٨٠٩ - ١٨٨٢ م] إلى صراع الطبقات عند «ماركس» [١٨١٧ - ١٨٨٣ م] إلى صراع المراحل التاريخية عند «هيجل» [١٧٧٠ - ١٨٣١ م] إلى صراع الحضارات عند «هنتنغتون» [١٩٢٧ - ٢٠٠٨ م] - فلقد وجد الغرب الإمبريالى الرأسمالى - الذى تفرد بقطبية النظام العالمى - نفسه محتاجاً إلى خصم وعدو، يحله محل الشيوعية، ويمارس ضده «نزعة الصراع».

وكان الإسلام - الذى لم تسقط أيديولوجيته.. وإنما برزت وتألقت - هو هذا الخصم والعدو الذى أحلته الإمبريالية الغربية - بزعامة أمريكا - محل العدو الشيوعى.. فاستدعى الإسلام ليكون «العدو الأخضر»، الذى أحلوه محل «العدو الأحمر» - الذى سقط أوائل تسعينيات القرن العشرين.

وعلى هذه الحقيقة شهدت دراسة بالغة الأهمية، كتبها اثنان من علماء الاجتماع الإنجليز، هما: د«إدوارد مورتيمر» ود. «إرنست جيلنر»، ونشرتها المجلة الفصلية المتخصصة [شئون دولية] الصادرة «بكمبردج» - فى يناير ١٩٩١ م - فى «ملف» عن «الإسلام والمسيحية» و«الإسلام والماركسية» - وجاء فيها:

«لقد شعر الكثيرون بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفيتى..

وبالنسبة لهذا الغرض كان الإسلام جاهزاً في المتناول.. فالإسلام رافض لأى تمييز بين ما لله وما لقيصر.. وهو لا يسمح لمعتنقيه بأن يصبحوا مواطنين فى دولة علمانية.. إنه استثناء مدهش وتام جداً من النظرية التى يعتنقها علماء الاجتماع، والتى تقول:

إن المجتمع الصناعى والعلمى الحديث يُحل العلمنة محل الإيمان الدينى.. فلم تتم أى علمنة فى عالم الإسلام، وسيطرة هذا الدين على المؤمنين به هى سيطرة قوية، بل هى أقوى الآن مما كانت عليه من مائة سنة مضت.. إنه مقاوم للعلمنة فى ظل مختلف النظم السياسية - راديكالية.. وتقليدية.. وبين بين.. وعمليات الإصلاح الذاتى تتم فى العالم الإسلامى باسم الإيمان الدينى، وليس على أنقاض هذا الإيمان.. الأمر الذى مكّن العالم الإسلامى من الإفلات من المعضلة التى جعلت مجتمعات أخرى ضحية للاضطراب والإذلال، بسبب إضفاء الغرب الطابع المثالى على نموذجهِ فى التحديث، الأمر الذى جعلها تقف منه موقف المحاكاة والتقليد..

ذلك هو التفسير الأساس لمقاومة الإسلام المرموقة للعلمنة..

ولأن الإسلام هو الثقافة - الوحيدة القادرة على توجيه تحد فعلى وحقيقى للثقافة العلمانية الغربية - [ثقافة الشك واللاإرادية - ثقافة الأخصائيين الذين لا روح لهم، والعلماء الذين لا قلوب لهم] - كان الإسلام، من بين ثقافات الجنوب، الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة على الإسلام!

* وبدلاً من أن يسمى الغرب الإمبريالى حربه هذه «حرباً على الإسلام»، أسماها «حرباً داخل الإسلام»، ضد الأصوليين الإسلاميين - الذين هم - برأى الرئيس الأمريكى الأسبق «ريتشارد نيكسون [١٩١٣ - ١٩٩٤م] - وهو مفكر استراتيجى: - المصممون على استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة، عن طريق بعث الماضى..

- والذين يهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية..

- وينادون بأن الإسلام دين دولة..

خطة أمريكية لتحديث الإسلام

- وعلى الرغم من أنهم ينظرون إلى الماضي، فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل. فهم ليسوا محافظين، ولكنهم ثوار^(١)!

* ولجلاء سبب إعلان الإمبريالية الغربية هذه الحرب «داخل الإسلام».. ولتبيان مقاصد هذه الحرب.. أعلن المفكر الاستراتيجي الأمريكي «فوكوياما»: أن المطلوب هو تخلي الإسلام عن نموذج الحضارى المغاير والمستقل، والتماهى فى النموذج الحضارى الغربى، والقبول بقيم الحداثة الاستهلاكية الغربية، وبالدولة العلمانية التى تفصل بين ما لقيصر وما لله.. فقال - عن سبب هذه الحرب المعلنة داخل الإسلام، وعن مقاصدها:

«إن الإسلام هو الحضارة الرئيسية الوحيدة فى العالم التى يمكن الجدل بأن لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة الأمريكية المسيطرة فى السياسة الدولية.. فالعالم الإسلامى يختلف عن غيره من الحضارات فى وجه واحد مهم، فهو وحده قد وُلد تكرر خلال الأعوام الأخيرة حركات أصولية مهمة، ترفض لا السياسات الغربية فحسب، وإنما المبدأ الأكثر أساسية للحداثة: الدولة العلمانية نفسها.. ومن ثم فإن الصراع الحالى ليس ببساطة - معركة ضد الإرهاب.. ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية التى ترفض الاستهلاكية الغربية، والحداثة الغربية، والعلمانية الغربية، والمبدأ المسيحى: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله - فصل الدين عن الدولة.. وإن التطور الأهم ينبغى أن يأتى من داخل الإسلام نفسه، فعلى المجتمع الإسلامى أن يقرر ما إذا كان يريد أن يصل إلى وضع سلمى مع الحداثة، خاصة فيما يتعلق بالمبدأ الأساسى حول العلمانية.. أم لا؟^(٢)».

* ولأن عبقرية الغرب هى فى «المأسسة والمؤسسات»، فلقد نهضت مؤسسة [راند] - الأمريكية القريبة من صانع القرار الأمريكى - بكتابة دراسة بالغة العمق والإحاطة - خططت فيها لهذه الحرب التى أعلنها الغرب الإمبريالى داخل الإسلام..

(١) نيكسون [الفرصة السانحة] ص ١٤٠. ترجمة: أحمد صدقى مراد. طبعة دار الهلال - القاهرة ١٩٩٢م.

(٢) [النيوزويك] - العدد السنوى ديسمبر سنة ٢٠٠١م - فبراير سنة ٢٠٠٢م.

وفى هذه الدراسة - التى اتخذت لها عنوان: [خطة أمريكية لتحديث الدين الإسلامى]- جاء:

- الاعتراف بفشل الحلول القومية، والعروبية، والاشتراكية العربية..
- وتقدير أن الإسلام المعاصر هو فى حالة تصعيد، وفى حالة صراع داخلى وخارجى على قيمه وهويته ووضعه فى العالم..
- وأن الولايات المتحدة الأمريكية والعالم الصناعى الحديث والمجتمع الدولى يفضل عالمًا إسلاميًا يتألف مع النظام العالمى والغربى، ويتبع قواعد ومعايير التعامل الدولى والغربى.. وذلك بتشجيع العناصر الإسلامية الأكثر توافقًا مع قيم الغرب والحداثة الغربية.. وبالعمل - بشكل غير مباشر - على تغيير مفهوم المسلمين عن الدين الإسلامى..

* وتقسم هذه الخطة تيارات الفكر الإسلامى إلى توجهات رئيسية أربعة:

- ١- الأصوليون: الذين يرفضون الثقافة الغربية والحداثة الغربية والديمقراطية الغربية، ويريدون بعث الحضارة الإسلامية، وتطبيق الشريعة الإسلامية، والقيم الإسلامية.
 - ٢- والعلماء التقليديون: الذين يريدون مجتمعًا محافظًا، ويرتابون فى الحداثة الغربية، وفى التجديد والتغيير.
 - ٣- والحداثيون: الذين يريدون أن يصبح العالم الإسلامى جزءًا من الحداثة الغربية، وتحديث الإسلام كى يواكب العصر، فرؤيتهم متفقة مع الرؤية الغربية، وهم الأكثر إخلاصًا فى تبنى قيم وروح المجتمع الديمقراطى الحديث..
 - ٤- والعلمانيون: الذين يريدون أن يقبل العالم الإسلامى الفصل بين الدين والدولة، واستنساخ نماذج الديمقراطيات الغربية، والأتاتورية الكمالية.. وإعادة الدين إلى نطاق الحياة الخاصة والعلاقات الفردية بين كل شخص وربه.. فهؤلاء العلمانيون هم حلفاؤنا الطبيعيون فى العالم الإسلامى..
- * وتصنيف الصوفيين ضمن تيار الحداثة، وذلك لما تمثله الصوفية من تأويل

خطة أمريكية لتحديث الإسلام

فكرى متفتح للإسلام، ولما لها من تأثير فى المناهج الدراسية والمعابر والحياة الثقافية.. فموسيقاها وأشعارها وفلسفتها هى بمثابة الجسر القوى للقيم الحداثية خارج التيارات الدينية..

* وفى موقف الغرب من هذه التيارات والتوجهات، تفصح هذه الخطة عن أن «الحداثيين والعلمانيين هم الأقرب إلى الغرب فى ضوء القيم والسياسات».. وأن الحداثيين هم الأشد قرباً من الغرب، بينما تشوب التوجهات اليسارية والقومية ولاء بعض العلمانيين للرأسمالية الغربية..

* وتشير الخطة على صانع القرار الأمريكى والغربى بدعم الحداثيين والعلمانيين فى الصراع الغربى ضد الأصوليين الإسلاميين، والعمل على تنمية التناقضات بين العلماء التقليديين وبين الأصوليين.

* ولأن الحداثيين والعلمانيين هم عماد المشروع الغربى لتغيير وتحديث الإسلام.. توصى الخطة بتركيز المساعدات الغربية لهم، لأن وضع هؤلاء الحداثيين والعلمانيين، فى الواقع الإسلامى، ضعيف بالنسبة لوضع الأصوليين والتقليديين - فهم «بصورة عامة، فى حال أضعف من الجماعات الأخرى»، لذلك، فهم «يفتقرون إلى الدعم القوى والموارد المالية والبنية التحتية الفعالة، والمنصات الشعبية.. كما أن لديهم صعوبات فى التعامل مع القطاع التقليدى الواسع من الجمهور الإسلامى»..

* ورغم اعتبار الخطة أن لدى التيار التقليدى «عناصر ديمقراطية يمكن استخدامها لمواجهة التيار الأصولى»، إلا أن الرهان الغربى يظل على الحداثيين، وليس على التقليديين.. فوظيفة التقليديين - فى هذه الخطة - هى استخدامهم ضد الأصوليين.. بينما تحديث الإسلام وتطويعه هى مهمة الحداثيين.. الذين توصى الخطة بدعمهم، وذلك عن طريق:

(أ) تحويلهم من أفراد مفصولين إلى حركة ذات قيمة.

(ب) ونشر وتوزيع أعمالهم، فى شرح وطرح الإسلام، بتكلفة مدعمة.

(ج) وتشجيعهم على الكتابة للجماهير والشباب.

- (د) وتقديم آرائهم فى المناهج الدراسية للتربية الإسلامية.
- (هـ) وإعطائهم منصات شعبية للتواصل مع الجماهير.
- (و) وجعل آرائهم وأحكامهم فى القضايا الكبرى لتأويل الدين الإسلامى متاحة للجمهور؛ حتى يمكن أن تنافس آراء وأحكام الأصوليين والتقليديين الذين لديهم مؤسسات للنشر والتعليم.
- (ز) وتقديم العلمانية والحدثة للشباب الإسلامى الساخط، باعتبارها «الثقافة المضادة» للواقع الذى يرفضونه.
- (ح) وتيسير وتشجيع الوعى بالتاريخ والثقافة الإسلامية، السابقة على ظهور الإسلام فى مناهج التعليم ووسائل الإعلام - من الفرعونية.. إلى القبطية.. إلى الفينيقية.. إلى الآشورية... إلخ.
- (ط) وتنمية المنظمات المدنية، غير الإسلامية، المستقلة، لدعم الثقافة المدنية، غير الدينية، ولاستيعاب المواطنين العاديين فى إطارها.
- (ى) ونشر نقد العلماء التقليديين للتيار الأصولى، وتوسيع هوة الخلاف بين التقليديين والأصوليين.
- (ك) وإفشال التحالفات بين التقليديين والأصوليين، ومنعها بكل الصور.
- (ل) وتشجيع التعاون بين الحداثيين والعلماء التقليديين الأقرب إلى التوجه الحداثى.
- (م) وتجهيز وتشجيع العلماء التقليديين على الجدل ضد الأصوليين.
- (ن) وزيادة حضور الحداثيين فى المؤسسات التقليدية.
- (س) والعمل على شق صفوف العلماء التقليديين، بتشجيع الأقرب منهم إلى منهج «الرأى» ضد «النصوصيين».
- (ع) والعمل على تنمية التيارات الصوفية وزيادة شعبيتها.
- (ف) والعمل على تحدى التيارات الأصولية.. وتوجيه الاتهامات لهم بالعنف

خطة أمريكية لتحديث الإسلام

والعمل غير المشروع.. والتأكيد على عجزهم عن الحكم وإحداث التنمية الإيجابية لبلادهم ومجتمعاتهم.. وتوجيه هذه الرسائل بالأخص للشباب والنساء والأقليات المسلمة في الغرب.

(ص) ونزع هالات البطولة عن أصحاب العمليات الجهادية الاستشهادية.

(ق) وتشجيع الصحفيين على تسليط الأضواء على قضايا الفساد واللاأخلاقية في الدوائر الأصولية.

(ر) وتشجيع الانقسامات بين الأصوليين.

(ش) وتشجيع مقولة أن «الأصولية عدو مشترك»، وتثبيط أى تحالف علمانى مع القوى القومية واليسارية المضادة للولايات المتحدة الأمريكية.

ت- ودعم فكرة أن الدين والدولة يمكن أن ينفصلا أيضًا فى الإسلام، كما حدث فى الغرب المسيحى، وأن هذا الانفصال لا يهدد العقيدة الدينية، بل يقويها.

ث- والحيلولة دون التشكيك أو التكذيب للجماعات والأشخاص الحداثيين والعلمانيين الذين نسعى إلى مساعدتهم والاعتماد عليهم.

* * *

هذا هو الإطار العام للخطة الأمريكية، والتخطيط الأمريكى الذى وضعته مؤسسة «راند الأمريكية»^(١) وقدمته لصانع القرار الأمريكى، كى يعمل على تفجير الحرب داخل الإسلام، بدلاً من إعلان الحرب على الإسلام.. ذلك أن إعلان الحرب على الإسلام سيستنفر جمهور المسلمين لمواجهة هذه الحرب الصليبية.. بينما تفجير الحرب داخل الإسلام، وبواسطة قطاعات وتيارات من أبنائه، سيجعل بأس المسلمين بينهم شديداً، وسيؤدى إلى شغل بعضهم ببعض، وتدمير بعضهم للبعض الآخر، وإلى تبديد طاقات الجميع.. وهنا يتم دعم إلحاق العالم الإسلامى - بما فيه من ثروات هائلة، وما له من موقع استراتيجى حاكم - بالمركز الحضارى الإمبريالى

(١) التابعة لوزارة الدفاع الأمريكية - البنتاجون - ولها مكتب فى الدوحة.. وشبكة من الباحثين فى بلاد الشرق الإسلامى.

الغربي، الذي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك بعد قيام وكلائها - من الحداثيين والعلمانيين المسلمين - بتدمير معالم الهوية الإسلامية - فى صراعهم ضد الأصوليين المسلمين، واستغلالهم للتقليديين المسلمين.

* ولم يقف هذا التخطيط عند الإطار العام والمقاصد الكبرى.. وإنما قدم نماذج للقضايا المرشحة لتفجير الصراعات الفكرية بين تيارات الفكر فى عالم الإسلام.. هذه «القضايا التفجيرية» التى سرعان ما طرحها الحداثيون والعلمانيون فى الساحات الإسلامية، ففجرت الصراعات الفكرية فى عالم الإسلام.

لقد نصح هذا التخطيط صانع القرار الأمريكى بأن يوفر للحداثيين والعلمانيين المسلمين وسائل النشر والمنصات الشعبية - [الفضائيات] - للتواصل مع الجماهير.. وتيسير تقديم آرائهم من خلال المناهج الدراسية.. وما هى إلا سنوات قليلة حتى رأينا ساحات الفكر والثقافة والإعلام والتعليم فى كثير من بلاد الإسلام تنشغل بالصراع حول القضايا التى رشحها هذا التخطيط لتكون نماذج لتفكيك ثوابت الهوية الإسلامية، ولشغل العقل المسلم عن معالجة مشكلات واقعة، وسبل تحقيق استقلاله الحضارى، ونهوضه من المأزق الذى يصفده بالأغلال.

ومن نماذج هذه «القضايا التفجيرية» التى رشحها هذا التخطيط، والتى أثارها الحداثيون والعلمانيون:

١ - التشكيك فى دقة تسجيل القرآن وجمعه.. والادعاء بأنه لم يجمع إلا بعد وفاة النبى ﷺ وأن ذلك قد أنتج روايات عديدة مختلفة عن بعضها البعض للقرآن.. وأنه قد تم التخلص من هذه الروايات المختلفة، باستثناء رواية واحدة.. وأن هناك سورتين قد فقدتا فى هذا التدوين والتسجيل.. مع طرح الرؤية الحداثية - التى تتهم بعض الصحابة الذين جمعوا القرآن وسجلوه بالمغالطة وعدم الدقة.

كل ذلك لمواجهة الموقف الأصولى والتقليدى الذى يؤمن بالحفظ الإلهى للقرآن، وأن الذى جمعه هو الله ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٧].. وأن الوحى قد راجعه مجموعاً مع النبى ﷺ - قبل وفاته.. وأنه قد تركه مدوناً ومحفوظاً.

٢ - طرح المفهوم الحداثى للنزعة التاريخية.. لأن تطبيق هذه التاريخية والتاريخانية

على الإسلام يؤدي إلى التحلل من الإسلام الذى كان يمارس فى عهد النبى ﷺ، وذلك بجعله ملائماً لذلك العصر الذى مضى وانقضى، وغير صالح لعصرنا والزمن الذى نعيش فيه.

فالقرآن كما تقول الخطة «لا يختلف عن العهد القديم فى اشتماله على محتوى لم يعد ذا صلة بالحاضر، ولا توجد حاجة إليه.

والفروض المعرفية والفلسفية للحضارة الغربية هى المقدمات للقول بتاريخية القرآن، ومن ثم إعادة بناء الإسلام فى ضوء العصر الإسلامى الجديد.

فالحداثيون الإسلاميون يعتبرون النص الحرفى للقرآن تاريخاً وأسطورة، كما حدث مع النص الإنجيلى والتوراتى فى المسيحية واليهودية.

والإسلام ليس أكثر حصانة من الأديان الكبرى الأخرى فى العالم، وإن الإجماع بين الحضارات قادر على تغيير القيم، بما فيها قيم الإسلام».

٣- والتشكيك فى مصداقة كتب الحديث النبوى، واعتبار أن الحديث هو فى أفضل الحالات وسيلة مبهمة بها خلل.. فالبخارى - الذى يعتبر كتابه أكثر مجموعات الحديث جزءاً ومصدقية - قد جمع ٤٠٠٠ حديث من بين ٦٠٠,٠٠٠ حديث.. وهو قد أكمل هذا العمل فى ستة عشر عاماً.. بينما المنطق العملى يقول بضرورة استغراق هذا العمل لسبعين عاماً..^(١).

إن جهد تغذية الإسلام الديمقراطى يتطلب موقفاً من الأحاديث وتأثيرها على القانون (الشريعة).

٤ - معارضة تطبيق الحدود المنصوص عليها فى القرآن، بدعوى أن الدين قوة رجعية فى المجتمع ينبغى دحضها، وأن هذه العقوبات مغالطة، ومن ثم لا يمكن أبداً تشريع القوانين الدينية.

(١) يتجاهل هذا الادعاء استفادة البخارى من الجهود التى سبقته فى جميع السنة وتحقيقها وتدوينها. فهو لم يبدأ عمله من فراغ.

٥ - تنفيذ تفسير الأصوليين للإسلام.. وإحلال التأويل الحداثي والعلماني محل التفسير الأصولي والفهم التقليدي، الذى يرى أن الشريعة الإسلامية والسنة النبوية ينبغى اتباعها بصرامة وحرفية.. ولذلك ينبغى إعلام وتعليم عامة الناس عملية تأويل دينهم.

٦ - ترويج المفهوم العلماني عن مكان الدين ودوره، وذلك بالفصل بين الدين والدولة والسياسة.. والحيلولة بين الدولة وبين الالتزام بالدين.. وإخضاع العادات الدينية للقوانين الوضعية وللمعايير الدولية لحقوق الإنسان.. واتخاذ التجربة الكمالية الأتاتورية العلمانية نموذجاً يُحتذى فى المجتمعات الإسلامية.

٧ - معارضة القائلين: إن العلمانية لا مكان لها فى العالم الإسلامى، حيث إنها تتعارض مع جوهر الدين الإسلامى لما له من طبيعة شمولية تتضمن توجهات سياسية، كما أن العلمانيين لا يمثلون - فى العالم الإسلامى - إلا أقلية ضئيلة - لا ينبغى للغرب أن يربط نفسه بها.

معارضة هذه الدعوى وهذا التوجه، ووصفها بأنها مغالطة - والتأكيد على أن الأنظمة العلمانية - قد نجحت فى تولى السلطة، والحصول على الشرعية، وحتى الشعبية، واكتسبت الحركات العلمانية قدرًا هائلًا من المؤيدين، ولقد حققت تركيا تقدمها من خلال السياسة العلمانية التى فرضت نفسها على الجميع، ولقد مثلت نموذجًا مذهبًا على التحول من الإسلامية العثمانية إلى العلمانية الكمالية الأتاتورية، فهى نموذج ملهم للعالم الإسلامى أكثر من النماذج العلمانية الغربية.

٨ - عقد الشراكة مع المؤسسات التقليدية والعلماء التقليديين.. فهم قوى مفيدة مضادة للأصوليين، يتمتعون بشرعية وسلطة عامة فى أعين الشعوب المسلمة.. ويميلون إلى أن يكونوا فى منتصف الطريق، أكثر اعتدالًا، وتأثرًا هادئًا.. وهم منفتحون على الحوار بين الأديان.. ولا يؤيدون العنف الأصولي بوجه عام.

مع الأخذ فى الاعتبار تقارب التقليديين مع الأصوليين فى القضايا الحرجة - مثل

خطة أمريكية لتحديث الإسلام

تطبيق الشريعة.. والموقف من الغرب والولايات المتحدة.. ووضع المرأة.. وطبيعة النظام السياسى المثالى.. والموقف من قيم التنوير الغربية.. ومن العلمانية.

٩ - اعتبار مسألة الحجاب قضية حرية تعبير.. وقضية تعددية. فلم يعد الحجاب قضية محايدة، ولا هو أسلوب حياة، ولا هو مطلب دينى، وإنما أصبح بياناً وشعاراً سياسياً.. وهو - فى السياق الأمريكى - يمثل كسباً للمعركة ضد الثقافة الأمريكية.. كما أنه يمثل تجسيداً لتبعية المرأة للرجل.

١٠ - إثارة مشاكل الأقليات.. والادعاء بأن الإسلام لا يسمح لهم بممارسة دينهم أو ثقافتهم بأى طريقة مرئية.

١١ - العمل على تأكيد وفرض قيم الحضارة الغربية على الجميع، بدعوى أنها قيم كونية.. فلا بد من الالتزام الراسخ والثابت بقيمنا الجوهرية، مع التعاون التكتيكى الذى تمليه المصالح الآنية مع بعض اللاعبين على الساحة والمراكز فى نطاق الإسلام السياسى..».

* * *

هكذا فكر ودبر المخططون الأمريكيون فى تحديث وتغيير الدين الإسلامى، للتخلص منه كنسق حضارى راسخ فى مواجهة الحداثة الاستهلاكية والعلمانية الغربية، وذلك عن طريق شن الحرب داخل الإسلام، وتحت مظلات وأعلام إسلامية، لتبديد طاقات المسلمين فى الصراعات الداخلية، ولتحقيق وتفعيل المزيد من القيود والأغلال - قيود التبعية وأغلال الإلحاق - التى تشد عالم الإسلام وأمتة إلى المركزية الحضارية الغربية.

* وبعد إصدار مؤسسة «راند RAND» تقريرها الأساسى هذا ٢٠٠٣ - ٢٠٠٤م.. أصدرت - بعد ثلاث سنوات فى ٢٠٠٧م - تقريرها الثانى، الذى تابعت فيه تنفيذ مخططها على أرض الواقع الإسلامى، وتطوير هذا المخطط - بناء على نتائج تطبيقاته: ولقد جاء هذا التقرير الثانى «ليمثل نقلة نوعية فى التعامل مع العالم الإسلامى، وهى نقلة تتركز فى جانبين:

الأول: هو أن المواجهة ليست مع فئة ضئيلة من التيار الإسلامى - [الأصوليين] وإنما مع كل التيار الإسلامى.

والثانى: هو الانتقال من أن يتولى الغرب مواجهة هذا التيار الإسلامى إلى توجيه التيارات العلمانية فى العالم المسلم إلى خط المواجهة الأول مع التيار الإسلامى، وأن تقوم الولايات المتحدة فقط بتقديم الدعم والمساندة والتخطيط لذلك.

واللافت للنظر فى هذا التقرير - الثانى - هو الانتقال الفكرى من المواجهة مع فئة محدودة من المجتمع المسلم إلى مواجهة هى أقرب إلى الحرب الشاملة على غرار الحرب الباردة بين معسكرين: الأول هو المعسكر الغربى، والثانى هو العالم الإسلامى. وفى هذا التقرير إشارات إلى إرهابات إعلان المواجهة الفكرية الشاملة ضد الإسلام أولاً، وضد التيار الإسلامى بمختلف توجهاته ثانياً، وأخيراً ضد كل من لا يعادى الإسلام علانية وصراحة حتى من الغربيين أنفسهم، أو من باقى الشعوب.

* كما حدد هذا التقرير عناصر استراتيجية احتواء الإسلام.. ومنها:

١ - أن الصراع ليس صراع مصالح فقط، بل الأهم أنه صراع أفكار حول النموذج الصحيح لإدارة شؤون العالم فى المستقبل. فهو صراع عالمى حول مستقبل العالم.

٢ - وأن المعركة لن تحسم فقط بمقاومة الإرهاب.. فالإرهاب ليس هو جوهر المشكلة القادمة من العالم الإسلامى، وإنما المشكلة فى الإسلام ذاته، وفى التيار الإسلامى بمجموعه، كتيار معبر عن روح الإسلام. إنهما معاً يمثلان التحدى الحقيقى، ولا بد من هزيمة هذا الخصم فكرياً أولاً، ثم أمنياً وعسكرياً بعد ذلك.

٣ - ولا بد أن تقوم الولايات المتحدة الأمريكية بالإمساك بزمام قيادة المواجهة الفكرية مع الإسلام والتيارات الإسلامية، كما كان الحال إبان الحرب الباردة، وليس فقط تزعم المواجهة العسكرية والأمنية.

٤ - نقل الصراع إلى داخل العالم الإسلامى، وبين المسلمين أنفسهم، بدلاً من أن يكون صراعاً مع الغرب.

٥ - لا بد من تغيير الإسلام، أو احتوائه، أو تهميش دوره.. أى التحول من العمل على تغيير المسلمين الذى كان هدف مرحلة ما بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م - إلى العمل على تغيير الإسلام ذاته بوصفه المحرك الفكرى والعقدى لتيار مقاومة الهيمنة الغربية على الإسلام وعالمه.. وفى حالة صعوبة تغيير الإسلام، فلا بد من احتوائه، وإعادته إلى المسجد، ومنعه من التأثير على الأفراد إلا فى مجال العبادات الفردية فقط.

٦ - جعل مصطلح الاعتدال - بمعناه الأمريكى - أحد الأسلحة التى تستخدم استراتيجياً لتغيير الإسلام والمسلمين معاً.. وضرورة اختطاف هذا المصطلح النبيل - مصطلح الاعتدال - وتحويله إلى سلاح يُشرع فى وجه الإسلام والمسلمين وكل من لا يعادى الإسلام.

٧ - إعادة تفسير مبادئ الإسلام لتستجيب للمصالح الغربية، أو بعبارة أخرى: إعادة كتابته لكى يتلاءم مع المتغيرات العالمية، كما تم من قبل النصرانية واليهودية.

٨ - استخدام الإسلام فى مواجهة الإسلاميين، وذلك بالتنقيب فى التراث الإسلامى عما يمكن أن يُستخدم لتبرير تغيير المواقف الإسلامية، أو يساهم فى تغيير الإسلام.

٩ - إحياء ودعم وتقوية العلمانيين المسلمين لاستخدامهم فى مواجهة التيار الإسلامى.

١٠ - التحايل على تهميش سلطة الدول وسيادتها على أراضيها، وتأكيد حقوق المؤسسات الأمريكية فى التغلغل داخل المجتمعات الإسلامية، دون أن تتمكن الدول من إيقاف وتحجيم هذا التدخل.

١١ - اتهام كل خصوم الهيمنة الأمريكية بالسلفية والوهابية والتطرف.. واستخدام

التيارات الصوفية الموالية للغرب فى حملة الهجوم على التيار الإسلامى بالعموم.

١٢ - استخدام الحوار كوسيلة لتغيير قناعات بعض الإسلاميين، أو إجبارهم على مناقشة القضايا التى كانت تعتبر من المقدسات والمسلمات وخارج دائرة النقاش والاختلاف.. أو لتعطيل مسيرتهم الفكرية حتى تحين فرصة مواجهتهم.

١٣ - جمع كل من لا ينتمى إلى التيارات الإسلامية تحت مظلة الاعتدال - بمفهومه الأمريكى - وذلك فى محاولة لحشر كل التيار الإسلامى فى مربع الأقلية المتطرفة.

* وهكذا يرسم هذا التقرير - الثانى - لمؤسسة «راند RAND» - التابعة للقوات الجوية الأمريكية والأقرب إلى صانع القرار الأمريكى - هكذا رسم هذا التقرير - الصادر فى ٢٦ مارس ٢٠٠٧م - معالم بروتوكولات الحرب الفكرية، التى بدأت، وتم حشد الأنصار لها، ضد الإسلام والتيارات الإسلامية.. وذلك لتغيير الإسلام - أو احتوائه - عن طريق تحويل جزء من الأمة المسلمة إلى عملاء يخدمون مصالح أمريكا والغرب، ويتحولون إلى أدوات يحركها أعداء العالم الإسلامى، ثم يتم التضحية بهم عند أول بادرة لنجاح المخطط الأمريكى المقترح للمواجهة مع الإسلام والتيار الإسلامى، وكل من لا يعادى الإسلام.

الأمر الذى يجعل من الوعى بهذا التخطيط المدخل لمواجهته، وإجهاضه، وذلك بالكشف عن مساحة الأرض المشتركة بين تيارات الفكر الإسلامى، وتوظيف التعددية لخدمة الوحدة، وعزل القلة العميلة الكارهة للإسلام، إما لجعلها بحقائقه، أو لسوء فهمها لهذه الحقائق، أو للصورة المزيفة التى تم ترويجها لهذا الإسلام.

إن الوعى بحقائق هذه «البروتوكولات» الأمريكية - المنشورة.. والموثقة - لمواجهة مخططاتها، هى الرسالة التى تنهض بها هذه الدراسة..

وصدق الله العظيم:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦، ٣٧].

الإسلام فى عيون غربية

[دراسات سويسرية]

تمثل «الاستنارة»: حالة كيفية ونوعية من «الوعى - الفاعل» بحقيقة «الذات» و«الواقع» و«المحيط».. فلا بد فيها من الوعى «بالذات الحضارية والثقافية» والمعرفة الواعية «بالآخر الحضارى والثقافى» أيضًا.

والذين تقف ثقافتهم عند موروثهم الفكرى لا تتعداه، هم - فى أحسن الأحوال - كمن ينظر بعين واحدة، فلا يبصرون إلا ذاتهم، أو كالأعمى الذى لا يدرك من الوجود غير جسده الذى يتحسسه بيديه!

وكذلك حال ثقافة الذين ضُربت عقولهم فى «المصانع الفكرية» للحضارات الأخرى، الذين جهلوا مواريتهم، وهوية أمتهم، وثقافة الحضارة التى يحملون أسماءها، وإلى شعوبها يتتسبون..

إنهم مستنيرون.. لكن استنارتهم لا ترى غير الآخر، ولهم وعى، لكن وعيهم لا يدرك الذات الحضارية التى يستظلون بعنوانها العقدى والوطنى والقومى والثقافى.

ومن هنا، كانت الاستنارة الكاملة الفاعلة هى الوعى الحقيقى «بالذات الحضارية» و«بالآخر الحضارى»، وإدراك وإعمال قوانين الأخذ والعطاء، والتفاعل الصحى بين تيارات الفكر الإنسانى، وثمرات العقول فى مختلف الثقافات والحضارات..

فالذين يكتفون «بذاتهم» الثقافية والحضارية، لابد وأن يقودوا هذه «الذات» إلى الذبول والاضمحلال، مثلهم فى ذلك كمثل المضرب عن الطعام، يعيش على الذات حتى يستهلك مكوناتها!

وكذلك الذين يتجاهلون أو يجهلون «الذات» الثقافية والحضارية لأمتهم،

ويتقمصون «ذوات» الآخرين، لا بد وأن تنتهى هذه «الذات» - التى فرطوا فيها - إلى الذبول والاضمحلال!

فمعرفة النفس لا تغنى عن معرفة الآخرين.. والعكس صحيح..

ولا يحسبن أحد أن هذا المنهاج - فى الاستنارة الحقيقية - هو وليد الواقع المعاصر، وما شهد ويشهد من تسارع وتعاظم فى ثورة وسائل الاتصال.. فمن القرآن الكريم نتعلم المنهاج الذى يدعونا - بعد الوعى بالذات، واليقين بالحق الذى نؤمن به، وننتهى إليه، ونجاهد فى سبيله - يدعونا هذا المنهاج القرآنى إلى التعرف على الآخرين.. بل والتأمل فيما يقولونه عنا، والتدبر فى «صورة ذاتنا» لدى هؤلاء «الآخرين»..

* إن عالمية الإسلام تفرض على أمته - كى تحقق القيام بفريضة الدعوة إليه - تحقيق مستويات ثلاثة فى الدعوة إلى هذا الدين:

١ - تبليغ الدعوة الإسلامية إلى الآخرين.

٢ - وإقامة الحجة، بصدق الإسلام، على هؤلاء الآخرين.

٣ - وإزالة الشبهة، عن الإسلام، لدى هؤلاء الآخرين.

وبدون المعرفة بالآخر، والوعى بما لديه من عقائد و«أيديولوجيات» وموارث فكرية وثقافية، يستحيل إنجاز هذه الأركان فى فريضة الدعوة إلى الإسلام..

* وليس كالقرآن كتاباً اعتمد «المقارنة» منهاجاً فى إثبات الحق الإسلامى، عندما عرض هذا الحق مقارناً بما لدى الشرك والوثنية والإلحاد والتحريف من دعاوى وموارث.. ﴿قَالَ اتَّعَبُدُون مَا نَنْحِتُونَ﴾ (١٥) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

وفى تقرير صفات الكمال للذات الإلهية، ينساب المنطق القرآنى إلى العقول والقلوب عندما يأتى فى معرض المقارنة مع بضاعة الآخرين: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤١، ٤٢]..

* وليس كالقرآن كتاباً سعى إلى استنطاق الآخرين كل ما لديهم من «حجج وبراهين» على ما يعتقدون: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]..
﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُوْنِي بِكُتُبٍ مِّنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَشْرِكُ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

* وليس كالقرآن كتاباً اهتم «ببضاعة» الآخرين - العقيدية والفكرية - على ما بها من سقم وعوج وتهافت.. فهو يثبت ما تحدثوا به عنه - وهو المعجز المتحدى - عندما قالوا: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَثُ أَحْلَمَ بَلْ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِزْنَا نَبَأَهُ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]..

ويثبت ما وصفوا به الصادق الأمين ﷺ عندما قالوا عنه: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]..

ويثبت الفلسفة الدهرية - على بؤسها - عندما تعلقوا بحبالها:

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]..

ويخلد «منطقهم» العجيب، الذى انحاز للشرك، متعجباً من التوحيد! ﴿أَجْعَلِ

الْأَلَهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]..

يتبع القرآن الكريم «مقالات» الآخرين، فيفندها، ثم لا يطوى صفحتها متجاوزاً إياها، وإنما يثبتها آيات فى سورة تتلوها وتعبدها بها، ليرسى دعائم هذا المنهاج فى مقارنة العقائد والفلسفات والأفكار.

بل إننا نتعلم من هذا المنهاج القرآنى، أن الذين يصادرون الفكر الآخر، ويغلقون دونه الأسماع والأبصار إنما كانوا هم المشركين.. فتجاهل الفكر الآخر، والصد عن سماعه وتأمله وتدبره ليس منهاج أهل الإيمان.. والمشركون هم الذين يُلْهَوْنَ ويصرفون أنفسهم وذويهم عن القرآن: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِ لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦].. فلقد رفعوا شعار التعمية على هذا الذى خالف ما وجدوا عليه آباءهم وكبراءهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْفِ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]..

فلقد حسبوا أن الراحة والغلب فى التعمية على هذا الذى لم يألفوه، والكتمان لهذا الذى لا يهونون، والمصادرة لهذا الذى لا يريدون!..

هذا هو المنهاج القرآنى فى التعامل مع الفكر الآخر - حتى عندما كان شرًّا صريحًا وكفرًا بواحًا ووثنية جاهلية ودهرية حيوانية، مصادمة للفطرة السوية التى فطر الله عليها الإنسان فى الإيمان..

* * *

واليوم.. ونحن نعيش واقعًا عالميًا، إن هدأت فيه أدوات القتال الدامى حينًا، اشتدت فيه آليات التدافع الفكرى، بل والغزو الثقافى، والاجتياح الإعلامى، فى كل الأحيان.. فى هذا الواقع، نرى فكر الآخرين يقتحم على عقولنا وقلوبنا حتى مخادعنا التى نستكن فيها!.. وكذلك يتاح لفكرنا - هو الآخر - أن يصل إلى الآخرين فى عوالمهم، الأمر الذى أحدث تغييرًا نوعيًا فى المواقع الفكرية على خارطة الواقع المعاصر.. فلم يعد الفكر الآخر خارج الحدود، ولا حتى متربصًا ومتلصصًا على النوافذ والأبواب، وإنما غدا فى داخل حصوننا، قامت وتقام له المراكز والمؤسسات والجامعات والصحف والمجلات.. بل إنه يمتطرننا صباح مساء وآناء الليل وأطراف النهار من أقماره الصناعية السابحة فى سماواتنا بلا حواجز أو حدود!..

كما أصبحت لنا - نحن أيضًا - رغم حالة الاستضعاف وقلة الإمكانيات - مراكز إشعاع فكرى فى ديار الآخرين، تؤتى - بقوة الحق الإسلامى، وجاذبية الفطرة فيه - من الثمرات ما يعوض سلبات الاستضعاف وقلة الإمكانيات!..

لقد أثمر هذا الواقع الجديد - الذى أحدثته ثورة الاتصال - لوئاً من «التلاحم الفكرى» العالمى، الأمر الذى فرض ويفرض على مختلف فرقاء التدافع الفكرى الوعى بما لدى الآخرين..

فلقد أصبح هذا الوعى ضرورة للقبول وللرفض على حد سواء!..

وإذا كانت القضية، بالنسبة لنا، تتعدى حدود «المغالبة الدنيوية» فى عالم الأفكار، إلى حيث هى فريضة دينية - أيضاً - لإبلاغ الدعوة إلى الإسلام، وإقامة الحججة على صدقه، وإزالة الشبهة عن عقول المشتبهين فيه.. فإن الوعى بما لدى الآخرين عن «ذاتهم» وعنا يصبح - هو الآخر - فريضة إسلامية على الذين انتدبوا أنفسهم للرباط الفكرى على ثغور الإسلام - الدين.. والحضارة.. والأمة.. والديار - هذه الشريحة من أهل العلم، الذين تحدث عن رسالتهم هذه رسول الله ﷺ عندما قال:

«يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له، ينفون عنه تحريف الضالين وانتحال المبطلين» رواه الطبرانى..

وإذا كانت هذه السلسلة - [فى التنوير الإسلامى] - قد بدأت بدراسة عن (الصحوة الإسلامية فى عيون غربية)، قدمت فيها رؤية ثلاثين مستشرقاً لظاهرة الصحوة الإسلامية المعاصرة.. فإنها تواصل رسالة تعريف العقل العربى والمسلم بتصورات الآخرين للإسلام.. والإحياء الإسلامى.. وقضايا وطن العروبة وعالم الإسلام.. وتواصل هذه «السلسلة» القيام بهذه الفريضة الفكرية، فتقدم للباحثين والقراء سبع دراسات كتبها خمسة من العلماء والمفكرين السويسريين - أحدهم مسلم، مصرى المولد والنشأة - وهذه الدراسات هى:

١ - «الإسلام وأوروبا: الجاران الغربان»، لـ «إريك جيسلينج».

٢ - «الإسلام فى مرآة الغرب: نموذج برنارد لويس، ومكسيم رودينسون»، لـ «إريك جيسلينج».

٣ - «الشرق الأوسط: بؤرة الصراعات»، لـ «إريك جيسلينج» و«أرنولد هوتينجر».

٤ - «الفكر المتشدد فى الإسلام»، لـ «إرنست تسيندن».

- ٥ - «كيف نتعامل مع التطرف الديني؟»، لـ «هانس كينج».
- ٦ - «ما مدى خطورة الحركة الإسلامية»، لـ «أرنولد هوتينجر».
- ٧ - «قضية سلمان رشدي: خلفيات العلاقة المتوترة بين الشرق والغرب»، لـ «إسماعيل أمين».
- ولقد اختار هذه الدراسات، وترجمها عن الألمانية، وقدم لها باحث أكاديمي - جاد ومتميز - مسلم.. مصرى المولد والنشأة - يعيش فى سويسرا، ويعايش هؤلاء المستشرقين، ويحاور أفكارهم - هو الأستاذ ثابت عيد^(١)..
- نقدم هذه الدراسات إلى الباحثين والقراء.. إسهامًا فى تنمية وعينا بصورتنا عند الآخرين، لتدبر مواقع أقدامنا، ولنرشد ذاتنا الإسلامية، ولنسد خطانا على طريق التقدم والنهوض..
- والله نسأل أن يتقبل هذا الجهد خالصًا لوجهه الكريم.. وأن يهدى به إلى سواء السبيل..

(١) انظر هذا الكتاب فى طبعة نهضة مصر - القاهرة سنة ١٩٩٩ م

ويسألونك عن صراع الغرب والشرق

منذ بواكير «الوعى الفكرى» - الذى منحنى الله إياه - إبان العيش فى الريف.. وطلب العلم فى الأزهر الشريف - وقفت «متأملًا.. وحائرًا» أمام الحكمة التراثية التى صاغتها حكمة الفلاح المصرى، والتى تقول:

«محدث ييجى من الغرب يُسرّ القلب!» - [لا أحد يأتى من الغرب يسرّ القلب] - توقفت - متأملًا.. وحائرًا.. ومتسائلًا:

- كيف لا يأتى أحد من الغرب فيسر القلب؟!..

- وأى غرب؟!..

- ولماذا؟!..

ولقد أدركت - عندما قرأت فى التراث الفرعونى - أن مصطلح «الغرب» - عند الفراعنة - كان يعنى: الغروب.. والموت.. والآخرة.. وأيقنت أن هذا «الغرب الفرعونى» ليس هو المراد بالحكمة التى صاغها الفلاحون المصريون.. فالإيمان الدينى للفراعنة لا يمكن أن يذم الآخرة والمصير.. ثم إنه لم يحدث أن عاد أحد من هذا «الغرب».. الآخرة»، حتى يحكم عليه الفراعنة هذا الحكم القاسى والقاطع والغريب!..

لكننى، بعد أن انعطفت - خلال مشروعى الفكرى - نحو دراسة تاريخ الصراع الغربى ضد الشرق، وغزوات الغرب للشرق.. وامتداد هذا الصراع وهذه الغزوات وقسوتها ولا أخلاقيتها - أدركت - يقينًا - أن مراد الحكمة التراثية «بالغرب» هو الغرب الاستعمارى، الذى احترف الإغارة على الشرق، والاحتلال لأراضيه، والنهب

لثرواته، والقهر لدياناته وثقافته وحضاراته.. والغدر بأهله وشعوبه، على امتداد أغلب قرون التاريخ المعروف والمكتوب!..

إن التاريخ المكتوب عن علاقات الغرب بالشرق يبلغ الآن أربعة وعشرين قرناً.. وفي هذا التاريخ:

- احتل الغرب الشرق، ونهبه اقتصادياً، وقهر شعوبه حضارياً وثقافياً وسياسياً ودينياً - بل ولغوياً - قبل ظهور الإسلام - مدة عشرة قرون - من «الإسكندر الأكبر» [٣٥٦ - ٣٢٤ ق.م] في القرن الرابع قبل الميلاد.. وحتى «هرقل» [٦١٠ - ٦٤١ م] في القرن السابع للميلاد.

- فلما ظهر الإسلام.. وحررت الفتوحات الإسلامية أوطان الشرق وعقائد شعوبه ومقدساتهم - في القرن السابع الميلادي.. عاد الغرب الصليبي ليختطف الشرق مرة ثانية من التحرير الإسلامي.. عاد وعينه على خيرات الشرق وثرواته، مغلفاً هذا الطمع المادي «بالصليب» وبالحديث عن «قبر الإله» في فلسطين!..

وفي هذه الغزوة الصليبية الاستيطانية، التي دامت قرنين من الزمان [٤٨٩ - ٦٩٠ هـ/ ١٠٩٦ - ١٢٩١ م]، صنع الغرب «الحيثيات» التي جعلت شعوب الشرق تصوغ حكمتها هذه:

«مَحَدِّش ييجى من الغرب يسرّ القلب»!

فلقد قادت الكنيسة الغربية هذه الحملات الصليبية.. وحشدت فيها أمراء الإقطاع الأوربيين، الذين كانوا - كما يقول شاهد العيان: الأمير العربى «أسامة بن منقذ» [٤٨٨ - ٥٨٤ هـ/ ١٠٩٥ - ١١٨٨ م]: «إنهم بهائم، لا فضيلة لديهم سوى القتال»!..

وجاءت الكنيسة الغربية - في هذه الحروب بتجار المدن التجارية الإيطالية - طلائع البورجوازية الأوربية - في «جنوة» و«نابولى» و«بيزا» و«البندقية».. لتمويل هذه الحروب لقاء الاستيلاء على تجارة الشرق الإسلامى، وطرق التجارة الدولية التى تمر ببلاده - من الهند والصين إلى أوروبا.. أى أن هذه الحروب الصليبية - ضد الإسلام وعالمه وأمتة وحضارته - قد تحالفت فيها الكنيسة والبورجوازية والإقطاع!..

ويسأونك عن صراع الغرب والشرق

ويومئذ افتتح البابا الذهبي «أوربان الثاني» [١٠٨٨ - ١٠٩٩ م] تلك الحملات الصليبية بخطاب تحدث فيه إلى أمراء الإقطاع الأوربيين، قال فيه:

«يا من كنتم لصوصًا كونوا اليوم جنودًا!.. لقد آن الزمان الذى فيه تحوّلون ضد الإسلام تلك الأسلحة التى أنتم لحد الآن تستخدمونها بعضكم ضد بعض.. فالحرب المقدسة المعتمدة الآن.. هى فى حق الله عينه.. وليست هى لاكتساب مدينة واحدة.. بل هى أقاليم آسيا بجملتها، مع غناها وخزائنها العديمة الإحصاء!..

فاتخذوا محجة القبر المقدس، وخلصوا الأراضى المقدسة من أيادى المختلسين، وأنتم أملكوها لذواتكم، فهذه الأرض - حسب ألفاظ التوراة - تفيض لبنًا وعسلًا.. ومدينة أورشليم هى قطب الأرض المذكورة والأمكنة المخصصة المشابهة فردوسًا سماويًا..

اذهبوا وحاربوا البربر - [يقصد المسلمين!] - لتخليص الأراضى المقدسة من استيلائهم.. امضوا متسلحين بسيف مفاتيحى البطرسية - [أى مفاتيح الجنة التى صنعها لهم البابا!] - واكتسبوا بها لذواتكم خزائن المكافآت السماوية الأبدية. فإذا أنتم انتصرتكم على أعدائكم، فالمُلك الشرقى يكون لكم قسمًا وميراثًا!..

وهذا هو الحين الذى فيه أنتم تفدون من كثرة الاغتصابات التى مارستموها عدوانًا.. من حيث إنكم صبغتم أيديكم بالدم ظلمًا، فاغسلوها بدم غير المؤمنين - [أى المسلمين!] «..»^(١).

* وعندما دخلت الجيوش الصليبية - التى تحمل مع سيوفها مفاتيح الجنة! - المفاتيح البطرسية! - إلى مدينة القدس سنة ٤٩٢هـ/ سنة ١٠٩٩م، صنعت أبشع مجازر الغرب ضد الشرق فى العصر الوسيط..

ولقد تحدث شهود العيان - من الصليبيين أنفسهم - عن هذه المجزرة فقالوا:

«إن الصليبيين - خيالة ومشاة - بعد أن قتلوا وذبحوا وأحرقوا كل من بقى فى القدس

(١) مكسيموس مونروند [تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق المدعوة حرب الصليب] المجلد الأول ص ١٢ - ١٤ - ترجمة: مكسيموس مظلوم. طبعة أورشليم سنة ١٨٦٥ م.

من سكانها.. دخلوا إلى جامع عمر - مسجد قبة الصخرة - فذبّحوا كل الذين احتموا به! وأبادوا بحد السيف كل الموجودين هناك.. حتى استوعب الجامع من الدم بحرًا متموجًا، علا إلى حد الركب، بل إلى لُجُم الخيل!..

ولما حل المساء، اندفع الصليبيون ليكون من فرط الضحك[!!] بعد أن أتوا على نبذ المعاصر [!!] إلى كنيسة القيامة، ووضعوا أكفهم الغارقة في الدماء على جدرانها، ورددوا الصلوات!!..

ثم كتبوا إلى البابا فقالوا له: يا ليتك كنت معنا لتشهد خيولنا وهى تسبح في دماء الكفار - [أى المسلمين]!!..^(١).

* وتحدث المؤرخ الأوربي «ميشائيل درسيرر» عن اشتراك كهنة الكنيسة وبطاركتها في هذه المذبحة المروعة، فقال:

«إن البطرك نفسه كان يعدو في أزقة بيت المقدس، وسيفه يقطر دمًا، حاصدًا به كل من وجده في طريقه، ولم يتوقف حتى بلغ كنيسة القيامة وقبر المسيح، فأخذ في غسل يديه تخلصًا من الدماء اللاصقة بها، مرددًا المزمور التالي: «يفرح الأبرار حين يرون عقاب الأشرار، ويغسلون أقدامهم بدمهم، فيقول الناس: حقًا إن للصديق مكافأة، وإن في الأرض إلهًا يقضى» - [المزمور ٥٨: ١٠ - ١١] - ثم أخذ [البطرك] - في أداء القداس قائلاً: إنه لم يتقدم في حياته للرب بأى قربان أعظم من ذلك ليرضى الرب»!^(٢).

* * *

* وإبان هذا الصراع - الذى فرضه الغرب على الشرق - عانى الشرق - المتخلق بالأخلاق الإسلامية - من غدر الغرب الصليبي - حتى عندما يعاهد ملوكه وأمرأه وفرسانه...

(١) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ١٧٢ - ١٧٥.

(٢) د. سيجريد هونكة [الله ليس كذلك] ص ٢٥ - ٣٤ - ترجمة: د. غريب محمد غريب - طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٩٥ م.

ويسألونك عن صراع الغرب والشرق

فالملك الصليبي «ريتشارد قلب الأسد» [١١٥٧ - ١١٩٩ م] - الذي يفاخر به الغرب الصليبي - «بعد أن أقسم بشرفه لثلاثة آلاف أسير عربي أن حياتهم آمنة، إذ هو فجأة متقلب المزاج، فأمر بذبحهم جميعاً»^(١)!

* ولقد صنعوا هذا الغدر - أيضًا - عندما جاءت حملتهم الصليبية إلى «دمياط» - بمصر - [٦١٦ هـ / ١٢١٩ م].. ففي يوم الثلاثاء - ٢٥ شعبان سنة ٦١٦ هـ - وبعد أن أعطوا الأمان لأهل دمياط على أن يخرجوا منها بأموالهم وأهليهم.. نقضوا الاتفاق، وغدروا بأهل دمياط، ووضعوا فيهم السيف قتلاً وأسرًا، وباتوا تلك الليلة بالجامع يفجرون بالنساء ويغتصبون البنات.

وأخذوا المنبر والمصاحف ورءؤس القتلى وبعثوا بها إلى بلادهم. وجعلوا الجامع كنيسة، وأرسلوا الأسرى - عن طريق البحر - إلى عكا!.. صنعوا ذلك بناء على أوامر البابا ومبعوثيه الكرادلة ورجال الدين - في الكنيسة!^(٢).

نعم!.. صنعوا ذلك بالأسرى - الذين أعطوا لهم عهود الأمان - على حين شهد الأسرى الصليبيون أنفسهم بسماحة الإسلام ووفاء المسلمين بالعهود، بل إنقاذهم حتى الذين غدروا وارتكبوا المذابح ضد الأسرى المسلمين!!

ولقد كتب أحد هؤلاء الأسرى الصليبيين - وهو عالم الفلسفة اللاهوتية: القسيس «ألفيروس» - من كولونيا، على نهر الراين، بألمانيا.. كتب نشيدًا بهذا الخلق الإسلامي، في رسالته التي كتبها إلى الملك الأيوبي الكامل [٥٧٦ - ٦٣٥ هـ / ١١٨٠ - ١٤٣٨ م].. فقال:

«منذ تقادم العهود، لم يسمع المرء بمثل هذا الترفق والجود، خاصة مع أسرى العدو اللدود. ولما شاء الله أن نكون أسراك، لم نعرفك مشيدًا طاغية، ولا سيدًا داهية، وإنما عرفناك أبًا رحيماً، شملنا بالإحسان والطيبات، وعونًا منقذًا في كل النوائب والملمات.

(١) المرجع السابق ص ٣٤.

(٢) د. محمد عمارة [معارك العرب ضد الغزاة] ص ٧٥، ٧٦ - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨ م.

ومن ذا الذى يمكن أن يشك لحظة فى أن مثل هذا الجود والتسامح والرحمة من عند الله؟!..

إن الرجال الذين قتلنا آباءهم وأبناءهم وبناتهم وإخوانهم وأخواتهم، وأذقناهم مر العذاب، لما غدونا أسراهم، وكدنا نموت جوعاً، راحوا يؤثروننا على أنفسهم على ما بهم من خصاصة، وأسدوا إلينا كل ما استطاعوا من إحسان، بينما كنا نحن تحت رحمتهم لا حول لنا ولا سلطان»^(١).

* * *

* وكذلك صنع الغرب الصليبي مع المقدسات..

- فمسجد قبة الصخرة - مسجد عمر بن الخطاب - بالقدس - حولوه إلى كنيسة لاتينية!..

- والمسجد الأقصى حولوه إلى كنيسة.. واصطبل خيل.. ومساكن لفرسان «الداوية».. ومخازن للسلاح!.

- وكذلك صنعوا بمساجد دمياط.. وكل المدن التى احتلوها!..

* * *

* وإذا كان تاريخ الغزو والنهب والقهر والغدر الغربى ضد الشرق، قد بلغ - بإضافة قرنى الحروب الصليبية - اثنى عشر قرنًا: عشرة للإغريق والرومان والبيزنطيين.. وقرنين للصليبيين..

فإن إسقاط «غرناطة» [٨٩٧هـ / ١٤٩٢م] قد كان بداية للغزوة الصليبية الحديثة - المستمرة حتى هذه اللحظات! - غزوة الخمسمائة عام!..

لقد أسقطت غرناطة فى يناير سنة ١٤٩٢م.. وفى أغسطس، من نفس العام، خرج «كريستوفر كولمبس» [١٤٥١ - ١٥٠٦م] من إسبانيا ليلتف حول العالم الإسلامى، وليجمع الذهب الكثير من جزر الهند، حتى يجهز حملة صليبية جديدة تعيد اختطاف القدس وفلسطين والشرق من الإسلام..

(١) [الله ليس كذلك] ص ٣٣، ٣٤.

ويسألونك عن صراع الغرب والشرق

ولقد كتب هو عن هذا المشروع إلى ملكى إسبانيا - الصليبيين.. اللذين استأصلا الإسلام من الأندلس - «فرديناند» [١٤٧٩-١٥١٦م] و«إيزابيلا» [١٤٧٤-١٥٠٤م] فقال: «إن هدفه هو العثور على الذهب بكميات كبيرة، حتى يتسنى للملكين أن يفتحوا الديار المقدسة خلال ثلاث سنوات.. فقد أعلنت لسموكم أن كل المغانم التي سيدرهما مشروعى هذا سوف تنفق على فتح القدس، وقد ابتسمتا - يا صاحبي الجلالة - وقتلتما: إن ذلك يسركما..»

لقد مكثت في بلاطكم سبعة أعوام مناقشاً هذا الأمر مع العديد من الرجال.. ولهذا فيجب علينا أن نؤمن بأن أمر القيام بحملة صليبية لاستعادة مدينة القدس، لهو أمر سوف يتحقق بالفعل.. لقد قال به يسوع المسيح المخلص، وذكره من قبل عبر رسالة المقدسين..

لقد ذكر الكاردينال «بيير» الكثير عن نهاية المسلمين، كما أن الأب «يواقيم الفيورى» قد ذكر أن الشخص الذى سيقوم بإعادة بناء الضريح المقدس، فوق جبل صهيون بالقدس، سوف يخرج من إسبانيا.. فلتكونوا واثقين من إحراز النصر فى مسألة استعادة الضريح المقدس ومدينة القدس إلى أحضان الكنيسة الكاثوليكية..»^(١)

* ولأن كولمبس قد ضل الطريق، فذهب إلى أمريكا، بدلاً من الالتفاف حول العالم الإسلامى، فلقد خرج «فاسكو دى جاما» [١٤٦٩-١٥٢٤م] بحملة صليبية جديدة [٩٠٣هـ - ١٤٩٧م] - أى بعد خمس سنوات من بدء مشروع كولمبس - فالتف حول العالم الإسلامى.. وذهب البرتغاليون ليحاربوا المسلمين فى الهند.. وهناك لقيهم الجيش المصرى [٩١٠هـ - ١٥٠٤م].. كما ذهبوا لقتال المسلمين فى الفلبين.. وهناك قتل «ماجلان» [١٤٨٠-١٥٢١م] وهو يحارب المسلمين على أرض الفلبين [٩٢٧هـ - ١٥٢١م]..!

* وبعد الالتفاف الصليبي حول العالم الإسلامى - حاملين المسيحية فى

(١) د. حاتم الطحاوى [وثيقة نادرة: بعد غرناطة جاء دور القدس] - مجلة [العربى] - الكويت - عدد مارس سنة ٢٠٠٣م. وصحيفة (الأهرام) فى ٢٨-٤-٢٠٠٤م.

مواجهة الإسلام.. وطالبين «التوابل» والتجارة العالمية!.. جاء الدور على قلب العالم الإسلامي.. فكانت حملة «بونابرت» [١٧٦٩ - ١٨٢١ م] على مصر والشام [١٢١٣ هـ - ١٧٩٨ م].. وفيها قتل الفرنسيون - رواد الثورة والتنوير قتلوا ٧/١ الشعب المصري - ٣٠٠,٠٠٠ من شعب كان تعداده يومئذ أقل من ٣,٠٠٠,٠٠٠ نسمة!!..

* ومع الغزوة الحديثة - الممتدة على امتداد القرون الخمسة الأخيرة - يبلغ تاريخ الغزو والاحتلال الغربى للشرق سبعة عشر قرنًا.. من أربعة وعشرين قرنًا هي قرون التاريخ المكتوب!!..

- عشرة قرون قبل الإسلام..

- وقرنان من الحروب الصليبية الأولى..

- وخمسة قرون منذ إسقاط غرناطة وحتى الآن..

ومع هذه الغزوة الحديثة - ورغم التنوير الغربى، الذى حاربت هذه الغزوة تحت راياته - فلقد مارس هذا الغرب - الذى عمت بلوى احتلاله كل عالم الإسلام، باستثناء شمالى اليمن والحجاز! مارس مع الشرق الإسلامى المجازر والغدر بالعهود..

- فبونابرت - الذى قتل ٧/١ الشعب المصرى - قد غدر بعهد الأمان الذى قطعه لثلاثة آلاف من الجنود العثمانيين، الذين استسلموا بعد معركة «يافا» [١٢١٤ هـ - ١٧٩٩ م] فأعدمهم جميعًا - على شاطئ البحر - رميًا بالرصاص^(١)!!..

- وفى الجزائر.. قتل الفرنسيون فى يوم واحد، بمدينة واحدة - هى سطيف - فى مايو سنة ١٩٤٥ م ٤٥,٠٠٠ من الجزائريين!!..

- ثم قدمت الجزائر - وحدها - قرابة مليونى شهيد، ثمناً لحريتها فى ثورة ١٩٥٤ - ١٩٦٢ م!!..

- وتكررت.. وتوالت المجازر الغربية - على امتداد عالم الإسلام - من المغرب..

(١) عبد الرحمن الرافعى [تاريخ الحركة القومية] ج-٢ ص ٣٠، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م.

ويسأونك عن صراع الغرب والشرق

إلى الريف المغربي.. إلى تونس.. وليبيا.. ومصر.. وفلسطين.. وسوريا.. ولبنان.. والعراق.. وعدن.. والهند.. وأندونيسيا..

- كما لا تزال هذه المجازر قائمة حتى الآن.. تحصد الملايين على أرض العراق.. وأفغانستان.. وفلسطين.. والصومال.. إلخ.. إلخ..

* ومع المجازر.. والغدر بالعهود.. وقتل الأسرى.. كان تدنيس المقدسات.. فلقد دخل الفرنسيون الأزهر الشريف بخيولهم.. وسكروا فيه.. بل وبالوا وتخوطوا!!.. ومزقوا المصاحف وكتب السنة وداسوها بالأقدام!! وقتلوا العلماء والطلاب والمصلين^(١)!!..

وكذلك صنع الإنجليز مع الأزهر الشريف إبان ثورة سنة ١٩١٩م^(٢).

وتكرر هدم المساجد وتدنيسها بالعراق - الفالوجة سنة ٢٠٠٤م - وغزة سنة ٢٠٠٩م.. والصومال.. بل لقد حول الفرنسيون عددًا من مساجد الجزائر الكبرى إلى كنائس وكاتيدرائيات!!..

* وإذا كان الغرب الصليبي قد تحالف مع الوثنية التترية - فى العصر الوسيط - ضد الإسلام والمسلمين.. فإنه قد صنع ذات الشيء عندما تحالف مع الصهيونية ضد العرب والمسلمين فى العصر الحديث.. فكل شئ - لدى الغرب الاستعماري - مباح ومستباح إذا كان ضد الإسلام والمسلمين!!..

* * *

* وكما أن رايات الصليب لم تستطع حجب المطاعم الدنيوية فى ثروات الشرق عن عيون الذين أرخوا لهذا الصراع الصليبي ضد الشرق الإسلامى، فشهد المؤرخون النصرارى كيف أن الحروب الصليبية قد تحولت لدى أصحابها إلى «صناعة» تدر الأموال الطائلة، وتُقصّد لذات الأموال!!.. وبعبارة صاحب كتاب [حرب الصليب]: «.. فكثير من الأشراف والعظماء صاروا يعتبرون الحروب بمنزلة مهنة صناعية

(١) الجبرتي [مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين] ص ٧٢، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨م.

(٢) الرافعي [ثورة سنة ١٩١٩م] ص ٧٦-٧٨ - طبعة دار الشعب - القاهرة.

لاحتشاد (جمع) الأموال الغنية، بل إن التعطش نحو أخذ الغنائم وحده كان يجذب الجيش إلى المحاربة^(١)!

كذلك أصبحت الإمارات الصليبية، التي قامت بدعوى استرداد «قبر الإله»! مصادر تمويل لأوروبا النصرانية من وراء تجاراتها مع الشرق الإسلامي، واستغلالها لضعف الحكم الفاطمي - الغريب عن فكرية الأمة ومذهبها السني.. ولصراعات وزراء الدولة الفاطمية.. استغلال ذلك في استنزاف بل وفرض «الجزية» عليها!!..

وبعبارة المؤرخين النصارى:

«فلقد كانت خزائن مصر تحت تصرفنا، وسلطنة أورشليم كانت آمنة من جهة البر المصري، ومسلك البحر كان حرًا.. كما أن موانئ أقاليم مصر كلها كانت مفتوحة لقبول مراكبنا وتجارها كانوا ينقلون إلى موانئ بلادنا غلات أراضيها، وهذه المتاجر كانت كلية الفوائد لنا.. وكانت الجزية والخراجات توفى لنا بانتظام!»^(٢).

أى أن الهيمنة الصليبية قد فرضت «تطبيع» العلاقات التجارية مع «دول الجوار»؟!..

بل لقد فرضوا «الجزية» على مصر الفاطمية [٥٦١هـ - ١١٦٦م] بواسطة الوزير الفاطمي الخائن «شاور» - الذى جعل للصليبيين حامية تقف على أبواب القاهرة، ويدهم مفاتيحها!!.. والذى كان يسمى الصليبيين «الفرج».. وليس «الفرنج»؟!..

هكذا كانت الأموال هى «الإله» الحقيقى الذى يعبد الصليبيون.. والذى به يتدينون!!.. وكذلك هو الحال - اليوم - مع غزاة القرن الواحد والعشرين.. الباحثين عن البترول والغاز والمعادن النفيسة - فى الخليج العربى.. والعراق.. وبحر قزوين.. والحزام الإسلامى فى إفريقيا - لتمويل أكبر تجارات العولمة الرأسمالية: تجارة السلاح والحروب.. والتى تليها - فى الرأسمالية الطفيلية المتوحشة - تجارة المخدرات.. وتجارة الدعارة.. والتجارة فى القروض!!..

(١) المجلد الثانى. ص ٨٠، ٨١.

(٢) المصدر السابق. المجلد الثانى. ص ٧٢.

ويسألونك عن صراع الغرب والشرق

* وإذا كان إنعاش الذاكرة الإسلامية «بوعى التاريخ»، هو سلاح من أمضى الأسلحة فى هذا الصراع الذى فرضه الغرب علينا ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]..

فإن وقائع هذا التاريخ الطويل من الصراع تكون أفعال عندما يشهد بها الآخرون من غير المسلمين.. فشهادة الشهود من أهلها هى الأفعال والأكثر حسماً فى إقامة البراهين التى تنفذ إلى الأفئدة والعقول.. والتى تحرك الهمم والطاقات.. إنها - هذه الشهادات - تفعل ذلك سواء:

- فى وضع يدنا نحن على حجم هذه الحقائق والوقائع..

- أو فى حوارنا مع الإنسان الغربى، ليتفهم قضايانا العادلة، ويتعاطف معها..

- وكذلك فى حوارنا مع المتغربين من أبنائنا، الذين لا يزالون يدافعون عن الغرب وتاريخه، رغم السجل الدامى والمخزى لمؤسسات الهيمنة الغربية - السياسية.. والدينية - فى التعامل مع الشرق الإسلامى.. ودينه.. وأمته.. وحضارته.. عبر هذا التاريخ الطويل.

* * *

* ولأن هذا الكتاب - الذى نقدم لطبعته الجديدة - كتاب [تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق المدعوة حرب الصليب] - هو واحد من أهم هذه الكتب الشاهدة على هذا التاريخ الغربى الأسود.. كان الاهتمام بتقديمه إلى العلماء والمفكرين والباحثين والمؤرخين والقراء..

- لقد كتبه - بالفرنسية - رجل دين نصرانى - كاثوليكي - هو «مكسيموس مونروند»..

- وترجمه عن الفرنسية إلى العربية رجل دين نصرانى - كاثوليكي - هو «قدس السيد كير يوكيريو مكسيموس مظلوم» - سنة ١٨٤١ م

- وطبع بالقدس - أورشليم - فى دير الرهبان الفرنسيسكانيين - وعلى غلافه «الصليب» - سنة ١٨٦٥ م..

- وضم شهادات شهود العيان.. والعديد من الوثائق النادرة، عن مائتي عام من الحروب والمجازر والغدر والنهب والاستيطان وتدنيس المقدسات وتدميرها.. اقترفها الغرب الصليبي ضد الشرق الإسلامي..

وإذا كان الصليبيون القدماء قد ذهبوا إلى «مذبلة التاريخ»، عندما حررت دول الفروسية الإسلامية الشرق من قلاعهم واستيطانهم.

وإذا كانت بلادنا الإسلامية تمارس اليوم تشييع الغزوة الغربية الحديثة إلى ذات المصير..

فإن الجهاد الإسلامي قد كان ولا يزال - هو السلاح الذي واجهت به أمتنا هذا الصراع الذي فرضه عليها الأعداء على امتداد هذا التاريخ الطويل..

ورحم الله صلاح الدين الأيوبي، الذي كتب إلى الملك الصليبي «ريتشارد قلب الأسد» [١١٨٩ - ١١٩٩ م] فقال:

«القدس إرثنا كما هي إرثكم.. من القدس عرج نبينا إلى السماء.. وفي القدس تجتمع الملائكة.. لا تفكر بأنه يمكن لنا أن نتخلى عنها كأمة مسلمة. أما بالنسبة للأرض، فإن احتلالكم فيها كان شيئاً عرضياً، وحدث لأن المسلمين الذين عاشوا في البلاد حينها كانوا ضعفاء. ولن يمكنكم الله أن تشيدوا فيها حجراً واحداً طالما استمر الجهاد!».

فقط.. نريد للخلف:

- «الوعى بتاريخ هذا الصراع» الذي كتبه علينا الأعداء..

- «والوعى بالسنن» التي حكمت مراحل ودوراته..

- «والسير على طريق الجهاد»، كما سار أسلافنا العظام - الذين حرروا الشرق.. وجاهدوا في سبيل حراسة حريته:

- عمر بن الخطاب [٤٠ ق. هـ - ٢٣ هـ / ٥٨٤ - ٦٤٤ م].

- وأبو عبيدة بن الجراح [٤٠ ق. هـ - ١٨ هـ / ٥٨٤ - ٦٣٩ م]

- وسعد بن أبي وقاص [٢٣ ق. هـ - ٥٥ هـ / ٦٠٠ - ٦٧٥ م].
 - وعمر بن العاص [٥٠ ق. هـ - ٤٣ هـ / ٥٧٤ - ٦٦٤ م].
 - وصالح الدين الأيوبي [٥٦٤ - ٥٨٩ هـ / ١١٦٩ - ١١٩٣ م].
 - والمظفر قطز [٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م].
 - والظاهر بيبرس [٧٠٩ هـ / ١٣١٠ م].
 - وعمر المختار [١٢٧٥ - ١٣٥٠ هـ / ١٨٥٨ - ١٩٣١ م].
 - وعز الدين القسام [١٣٠٠ - ١٣٥٤ هـ / ١٨٨٢ - ١٩٣٥ م].
 - وأحمد ياسين [١٣٥٥ - ١٤٢٥ هـ / ١٩٣٦ - ٢٠٠٤ م].
- ومواكب القادة والعظماء والشهداء الذين ساروا على طريق الجهاد.. فرفعوا راية الإسلام.. وحرروا الأرض من دنس الغاصبين..
- والله من وراء القصد.. ناصر لمن ينصره.. إنه نعم المولى ونعم النصير^(١).

(١) تقديم لطبعة جديدة من كتاب [تاريخ الحروب المقدسة في الشرق المدعوة حرب الصليب].

الجدور العميقة لظاهرة الإسلاموفوبيا

(١)

ظاهرة «الإسلاموفوبيا»: ظاهرة غربية، تعمل على «شيطنة» الإسلام والمسلمين، وذلك للتخويف من الإسلام، الذى يحرك الملكات والطاقات فى الشعوب الإسلامية كى تتحرر من هيمنة الإمبريالية الغربية، وتستخلص أوطانها وثرواتها من الاحتلال والنهب الاستعماري.. فالنجاح فى التخويف من الإسلام، وفى تشويه صورته، يشحن قطاعات من الشعوب الغربية فى موكب التأيد لسياسة حكوماتها الاستعمارية فى معركتها ضد الإسلام والمسلمين، تحت دعاوى أن هذه الحرب على الإسلام لها مبرراتها الحضارية!

وبعض الناس - يخطئ - فيظن أن هذه الظاهرة حديثة النشأة، إذ يربطها البعض بالغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة، التى اجتاحت العالم الإسلامى فى القرنين التاسع عشر والعشرين.. بل ويظن البعض أنها وليدة أحداث الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م.. بينما الحقيقة أن ظاهرة التشويه للإسلام والتخويف منه إنما تعود إلى الحروب الصليبية [٤٨٩ - ٦٩٠ هـ / ١٠٩٦ - ١٢٩١ م] على الشرق الإسلامى، والتى دامت قرنين من الزمان.. بل إن الكاتب الغربى والقائد العسكرى الإنجليزى «جلوب باشا» [١٨٩٧ - ١٩٨٦ م] يرجع هذه الظاهرة الغربية إلى ظهور الإسلام، فيقول: «إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد!».

- إن البابا الذهبى «أوربان الثانى» [١٠٨٨ - ١٠٩٩ م] الذى أعلن وقاد الحروب الصليبية على الشرق الإسلامى، قد جمع فرسان الإقطاع الأوربيين، ودعاهم إلى الاتحاد لمحاربة المسلمين - بدلاً من صراعاتهم الداخلية - وضمن تمويل المدن التجارية الأوربية - «نابولى» و«بيزا» و«جنوة» لهذه الحرب لقاء المكاسب المرجوة

من التجارة بين الشرق والغرب.. ووجه الكنيسة الكاثوليكية لشحن الشعوب الأوروبية فى هذه الحرب بواسطة «أيديولوجية» الكراهية للإسلام - الإسلاموفوبيا».

وفى خطابه البابوى أمام فرسان الإقطاع الأوربيين - بمدينة «كليرمونت» - بجنوبى فرنسا سنة ١٠٩٥ م - أفصح البابا عن المقاصد المادية الاستعمارية لهذه الحرب الصليبية - الاستيلاء على ثروات الشرق التى تدر سمناً وعسلاً! - مع تغليف هذه المقاصد بالأيديولوجية الدينية وبالكراهية للإسلام والتخويف من المسلمين.. صنع البابا ذلك، فى خطاب إعلان هذه الحرب، الذى دشن فيه «ظاهرة الإسلاموفوبيا» قبل اثنى عشر قرناً!! فقال مخاطباً فرسان الإقطاع الأوربيين:

«يا من كنتم لصوصاً كونوا الآن جنوداً.. لقد آن الزمان الذى فيه تحوّلون ضد الإسلام تلك الأسلحة التى تستخدمونها ضد بعضكم البعض.. فالحرب المقدسة المعتمدة الآن هى فى حق الله عينه، وليست لاكتساب مدينة واحدة، بل هى أقاليم آسيا بجملتها، مع غناها وخزائنها التى لا تحصى، فاتخذوا محجة القبر المقدس، وخلصوا الأرض المقدسة من أياد المختلسين، وامتلكوها أنتم لذواتكم، فهذه الأرض - حسب ألفاظ التوراة - تفيض لبناً وعسلاً.. ومدينة أورشليم هى قطب الأرض المذكورة، وخصوبة هذه الأرض تشابه فردوساً سماوياً!.. اذهبوا، وحاربوا البربر - [أى المسلمين!] - لتخليص الأراضى المقدسة من استيلائهم.. أمضوا متسلحين بسيف مفاتيحى البطرسية - [أى مفاتيح الجنة التى صنعها البابا لفرسان الإقطاع!] - واكتسبوا بها لذواتكم خزائن المكافآت السماوية الأبدية، وإذا أنتم انتصرتم على أعدائكم، فالملك الشرقى يكون لكم ميراثاً.. وهذا هو الوقت الذى تفدون فيه كثرة العدوانات التى مارستموها، والتى صبغت أيديكم بالدماء، فاغسلوها بدماء غير المؤمنين - [أى المسلمين!].

أى خذى يجللنا وأى عار، لو أن هذا الجنس من الكفار، الذى لا يليق به إلا كل احتقار، والذى سقط فى هاوية التعرى عن كرامة الإنسان، جاعلاً من نفسه عبداً للشيطان، قد قُدر له الانتصار على شعب الله المختار؟!«^(١).

(١) مكسيموس مونروند [تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق، المدعوة حرب الصليب] المجلد الأول ص ١٢، ٤. طبعة أورشليم سنة ١٨٦٥ م.

الجزور العميقة لظاهرة الإسلاموفوبيا

هكذا أسس البابا الذهبي - قبل اثني عشر قرنًا - لظاهرة «الإسلاموفوبيا»:
- فالمسلمون في هذه الأيدلوجية «كفار غير مؤمنين.. استولوا على قبر المسيح».
- وهم قد سقطوا في الهاوية التي حرمتهم من «كرامة الإنسان».
- وهم «عبيد للشيطان».. بينما الكاثوليك الأوروبيون - أتباع البابا الذهبي هم «شعب الله المختار».

- وعلى فرسان الإقطاع الأوروبيين - المسلحين بمفاتيح الجنة - أن يطهروا أيديهم بدماء هؤلاء المسلمين - الكفار.. غير المؤمنين - وأن يمتلكوا مدائن الشرق وأراضيه التي تفيض لبنًا وعسلًا، والتي تعادل في خصوبتها وغناها «فردوسًا سماويًا».

ويذكر لنا المؤرخ الغربي «مكسيموس مونروند» - في كتابه [تاريخ الحروب المقدسة في الشرق، المدعوة حرب الصليب] - والذي أورد وقائع هذه الجزور «للإسلاموفوبيا» - كيف آتت كلمات البابا الذهبي أكلها عند فرسان الإقطاع الأوروبيين.. حتى أنهم عندما اقتحموا القدس في يوليو سنة ١٠٩٩م، قتلوا وذبحوا وأحرقوا وأغرقوا سبعين ألفًا من سكانها في سبعة أيام!.. وكيف أن «الذين هربوا إلى جامع عمر.. [مسجد قبة الصخرة] - لحماية أنفسهم من الموت، خاب ظنهم، لأن الصليبيين - خيالة ومشاة - دخلوا الجامع المذكور، وأبادوا بحد السيف كل من فيه.. حتى صار الدم في الجامع بحرًا متموجًا، علا إلى حد الركب، بل إلى لُجُم الخيل»، وكيف كتب فرسان الإقطاع الصليبيون إلى البابا الذهبي يشرونه بهذه المجزرة، ويقولون له: «يا ليتك كنت معنا لتشهد خيولنا وهي تسبح في دماء الكفار» - [أي المسلمين] -^(١)!!

- أما المؤرخ الأوربي «ميشائيل درسيرر» فلقد حدثنا عن أن رجال الدين شاركوا - بحماس وفاعلية - في هذه المجزرة، «وكيف كان البطريك نفسه يعدو في زقاق بيت المقدس، وسيفه يقطر دمًا، حاصدًا به كل من وجده في طريقه، ولم يتوقف حتى بلغ كنيسة القيامة وقبر المسيح، فأخذ في غسل يديه تخلصًا من الدماء اللاصقة بها،

(١) المصدر السابق. المجلد الأول. ص ١٧٢ - ١٧٥.

مرددًا كلمات المزمور التالي: «يفرح الأبرار حين يرون عقاب الأشرار، ويغسلون أقدامهم بدمهم، فيقول الناس: حقًا إن للصديق مكافأة، وإن في الأرض إلهًا يقضى» - [المزمور ٥٨: ١٠ - ١١].

ثم أخذ البطريك في أداء القداس، قائلاً: إنه لم يتقدم في حياته للرب بأى قربان أعظم من ذلك ليرضى الرب»^(١)!..

هكذا بدأت - قبل اثني عشر قرنًا - فى الفكر الغربى ظاهرة «الإسلاموفوبيا» لتزييف صورة الإسلام، ولشيطنة صورة الشعوب الإسلامية، كى يتم شحن الشعوب الأوربية وراء الكنيسة وفرسان الإقطاع والمدن التجارية، لغزو الشرق الإسلامى، والاستيلاء على مدائنه وأراضيه «التي تفيض لبنًا وعسلًا»..

ولقد ظلت هذه الظاهرة حاضرة فى المخزون الثقافى للغرب الاستعمارى.. حتى أن وصف «الأشرار» الذى أطلقه البطريك على المسلمين - عند غزو القدس سنة ١٠٩٩م - كان هو الذى أطلقه عليهم الرئيس الأمريكى «بوش الصغير» عند غزو العراق سنة ٢٠٠٣م، انطلاقًا من ذات «المزامير»!..

(١) د. سيجريد هونكة [الله ليس كذلك] ص ٥٣ - ترجمة : غريب محمد غريب، طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٩٥م.

والآن

(٢)

وفور حدوث «قارعة» ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م - بأمريكا - تصاعدت موجات العداء الغربى للإسلام، واستدعى الساسة والإعلاميون الغربيون مخزون «ثقافة الكراهية السوداء» - للإسلام - التى تراكمت عندهم منذ الحروب الصليبية، حتى كأن هذه «القارعة» هى «الفرصة السانحة» التى كشفت عن بشاعة هذا المخزون، المصحوب بالاستعلاء الغربى والازدراء للإسلام ورسوله ﷺ وأمتة وحضارته، فرئيسة وزراء إنجلترا السابقة «مارجريت تاتشر» تصرح فتقول: «إن المسلمين الذين يرفضون القيم الغربية، وتتعارض مصالحهم مع مصالح الغرب، هم أعداء أمريكا وأعداؤنا.. وإن هذه الأصولية الإسلامية هى مثل البولشفية - فى الماضى أيديولوجية عدائية.. تتطلب تبنى استراتيجية طويلة المدى ليتسنى هزيمتها»!..

وهى بهذا التصريح - من المرأة الحديدية - تكشف عن أن أهداف الغرب من وراء هذه الحملة هى تحقيق «المصالح» وفرض «القيم الغربية».. وأن العداء إنما هو للإسلام الذى يتصدى لهذه المقاصد الغربية فى بلاد الإسلام!

- وفى يناير سنة ٢٠٠٢م ينظر المستشرق الصهيونى العجوز «برنارد لويس» للحملة الصليبية الغربية على الإسلام وبلاده، فيوجه الاتهام، لا لما سمي «بالإرهاب» وإنما لذات الإسلام!.. فيقول: «إن إرهاب اليوم هو جزء من كفاح طويل بين الإسلام والغرب.. فالنظام الأخلاقى الذى يستند إليه الإسلام مختلف عما هو فى الحضارة الغربية - المسيحية.. اليهودية.. وإن آيات القرآن تصدق على ممارسة العنف ضد غير المسلمين.. وهذه الحرب هى حرب بين الأديان!».

حتى لكأنه - وهو فى القرن الواحد والعشرين - يتحدث لغة البابا الذى أعلن الحروب الصليبية سنة ١٠٩٦م.. فهى بنظره حرب بين الأديان حرب الحضارة المسيحية اليهودية ضد الإسلام والقرآن!

- ويكتب الروائى الفرنسى «ميشيل هويليك» يقول: «إن قراءة القرآن مثيرة للتعزز.. وإن الإسلام دين عدوانى لا متسامح، يجعل الناس أشقياء تعساء!».

- وفى نوفمبر سنة ٢٠٠١م، يعيد المفكر الاستراتيجى الأمريكى «صموئيل هنتنجنون» طرح نظريته فى صدام الحضارات وصراع الثقافات.. صراع الغرب ضد الإسلام، فيقول: «نريد حرباً داخل الإسلام، حتى يقبل الحداثة الغربية والعلمانية الغربية، والمبدأ المسيحى: فصل الدين عن الدولة»!! فالمطلوب هو تفرغ الإسلام من الإسلام!..

- أما وزير العدل الأمريكى نعم، وزير العدل! - «جون أشكروفت» فإنه لا يكتفى بإهانة الإسلام، وإنما يوجه الإهانة إلى رب العزة الذى يعبده المسلمون - ربع البشرية - فيقول فى فبراير سنة ٢٠٠٢م: «إن المسيحية دين أرسل الرب فيه ابنه ليموت من أجل الناس، أما الإسلام فهو دين يطلب الله فيه من الشخص إرسال ابنه ليموت من أجل هذا الإله»!!

- ولا تقف أمريكا - ومعها الغرب - عند غزو أفغانستان.. وإنما تغزو - كذلك العراق فى سنة ٢٠٠٣م.. ويعلن وزير حربها «رامسفيلد» قدرة أمريكا على الحرب فى ثلاث جبهات.. ويؤكد الرئيس الأمريكى «بوش الصغير» - مرة أخرى أنها حرب صليبية - وذلك عندما يصرح - فى مارس سنة ٢٠٠٣م - وجيوشه تزحف على العراق: «إن الحرب على العراق هى حرب عادلة بالمقاييس المسيحية التى حددها القديس «أوغسطين» (٣٥٤ - ٤٣٠م) والقديس «توما الإكوينى» (١٢٢٥ - ١٢٧٤م) و«مارتن لوتر» (١٤٨٣ - ١٥٤٦م)!!

- ويخطب الجنرال الأمريكى «ويليام ج. بويكن» - نائب وزير الدفاع - وقائد فرقة الاغتيالات - التى دربها الصهاينة - لاغتيال علماء العراق وخبرائه وكبار ضباطه - يخطب فى إحدى الكنائس الأمريكية - وهو يرتدى زيه العسكرى فيوجه الإهانات

والآن

لإله المسلمين، ودينهم ورسولهم.. فيقول: «إن إلهنا أكبر من إله المسلمين، إن إلهنا إله حقيقى، وإله المسلمين صنم- [!!]- وإنهم يكرهون الولايات المتحدة الأمريكية لأنها أمة مسيحية - يهودية. وإن حربنا معهم هى حرب على الشيطان. وإن دين الإسلام هو دين شيطانى شرير. ومحمد هو الشيطان نفسه!!.. ويرفض «رامسفيلد» الاعتذار عن كلام نائبه بحجة أنها «حرية رأى وتعبير»!!..

- وفى مارس سنة ٢٠٠٢م صرح وزير الداخلية الألمانى «أوتوشيلى» «بأن عقيدة الإسلام هى هرطقة وضلال».

- وفى سبتمبر سنة ٢٠٠٥م نشرت الرسوم الدانماركية المسيئة لرسول الإسلام ﷺ، والتي تصوره إرهابياً، يضع على رأسه عمامة - هى قبلة موقوتة!

- وفى سنة ٢٠٠٦م، نشر الكاردينال «جوزيف راتزينجر» - البابا بنديكتس السادس عشر - نشر كتاباً - فى نيوريوك - عنوانه: [بلا جذور: الغرب. النسيبة. المسيحية. الإسلام] مارس فيه تخويف الغرب من الإسلام، وأعلن: «أنه يخشى أن تصبح أوروبا جزءاً من دار الإسلام فى القرن الواحد والعشرين»!

- وفى ١٨ إبريل ٢٠٠٦م، نشرت صحيفة «لوموند» - الفرنسية - قول بابا الفاتيكان: «إن الإسلام ليس دين توحيد على نمط اليهودية والمسيحية، ولا ينتمى إلى الوحي نفسه الذى تنتمى إليه اليهودية والمسيحية»!

- وفى ١٢ سبتمبر سنة ٢٠٠٦م، ألقى البابا محاضرته الشهيرة - بجامعة «ريجنسبورج» - الألمانية - والتي اتهم فيها الإيمان الإسلامى بأنه «وثنى لا عقلانى».. وقال فيها عن رسول الله ﷺ: «إنه لم يأت بخير.. وأنه قد أمر بنشر دينه بالعنف».. وقال: إن القرآن قد أضيفت إليه «تعليمات أوامر اللثام» التى تحض على الإكراه فى الدين!..

- وفى سبتمبر سنة ٢٠٠٧م، بدأت فى أوروبا مظاهرات ضد «أسلمة أوروبا»، شاركت فيها الأحزاب الفاشية واليمينية الجديدة، وباركتها الكنائس الغربية.

- وفى سنة ٢٠٠٧م، منحت ملكة إنجلترا «وسام الفارس» للكاتب «سلمان رشدى» الذى احترف الإساءة إلى الإسلام، ورسوله ﷺ وإلى بيت النبوة.

- وفي نوفمبر سنة ٢٠٠٧م، صدر في إنجلترا تقرير أعدته لجنة من كبار المفكرين وأساتذة الجامعات والخبراء في الإعلام والقيادات الدينية، جاء فيه: أن الصورة السائدة عن الإسلام في الغرب هو أنه يماثل الفاشية والنازية والشيوعية.. وأن ازدراء الإسلام، وتشبيهه بالشیطان ليس مقصوراً على الصحافة الصغيرة والشعبية.. بل إن صورته هذه هي السائدة في الصحف الكبرى.. وفي الكتب.. والمحاضرات الجامعية..!

- وفي صيف سنة ٢٠٠٧م، أرسل ٣٨ عالماً مسلماً - من مؤسسة آل البيت - بالأردن - رسالة إلى الفاتيكان، يطلبون الحوار للوصول إلى كلمة سواء.. فكان جواب المتحدث باسم الفاتيكان: «إن الحوار مع المسلمين صعب، لأنهم يؤمنون أن القرآن من عند الله»!!..

- وفي يناير سنة ٢٠٠٨م، منح الرئيس الفرنسي «ساركوزي» جائزة «سيمون دي بوفوار» [١٩٠٨ - ١٩٨٦م] للكاتبة البنجلاديشية «تسليمة نسرین»، التي احترفت التهجم على الإسلام ومقدسات الإسلام.

- وفي سنة ٢٠٠٨م، عرضت - في هولندا - الأفلام المسيئة للإسلام ولرسوله ﷺ وللقرآن الكريم، فيلم: «فتنة القرآن» وفيلم: «هتلر».

- وفي فبراير سنة ٢٠٠٨م، دعا وزير الداخلية الألماني إلى إعادة نشر الرسوم الدانماركية المسيئة إلى رسول الإسلام في صحافة دول الاتحاد الأوروبي، لمزيد من النكاية بالمسلمين والازدراء للإسلام!

- وفي سنة ٢٠٠٩م، أنتج القمص القبطي مرقص عزيز خليل - كاهن الكنيسة المعلقة بمصر القديمة - فيلم «فتنة محمد» ووضعه على شبكة المعلومات العالمية - وكتب - على موقع الهيئة القبطية الكندية - باسم «الأب يوتا» - أبشع ألوان الازدراء لرسول الإسلام ﷺ، حتى أنه قال: «إنني شخصياً أربأ بالشیطان أن يتمثل بمحمد، لأن الشيطان لم يفعل ما فعله محمد!».

- وفي إبريل سنة ٢٠٠٩م، أعيد نشر الرسوم الدانماركية المسيئة لرسول الإسلام، من قبل مؤسسة حرية الصحافة في الاتحاد الأوروبي.. وفي ٨ سبتمبر سنة ٢٠١٠م منحت ألمانيا - في حضور المستشارة الألمانية أنجيلا ميركيل - «جائزة حرية

والآن

الصحافة» للرسام الدانماركى صاحب الرسوم المسيئة لرسول الإسلام، بمناسبة مرور خمس سنوات على تلك الرسوم!

وبعد شهر - فى ١٦ أكتوبر سنة ٢٠١٠م - أعلنت المستشار الألمانية عن:

١ - فشل تجربة التنوع الثقافى فى أوروبا^(١).

٢ - ضرورة التزام المهاجرين المسلمين فى ألمانيا بالقيم المسيحية!!

(١) انظر توثيق هذه النصوص بكتابنا: [الغرب والإسلام: تاريخ من الغزو والتزييف وغواية الأقليات] ص ١٤٤ - ١٥٢. طبعة مكتبة وهبة - القاهرة - سنة ٢٠١١م. وانظر كتابنا [ظاهرة الإسلاموفوبيا: الجذور التاريخية والنهائيات المستترة] طبعة دار البشير - القاهرة.

الاستراتيجية الغربية لتنصير المسلمين ودور الكنائس المحلية فى التنصير

لقد عاشت الكنائس النصرانية فى الشرق الإسلامى قرونًا طويلة وهى تدرك أن الإسلام هو الذى أنقذها وأنقذ نصرانيتها من الإبادة الرومانية التى امتدت منذ ظهور المسيحية وحتى الفتوحات الإسلامية - وفى تلك القرون الستة.. عاشت النصرانية الشرقية - تحت نير الاستعمار الرومانى ديانة سرية مضطهدة ومطاردة ومتهمة بالهرطقة، حتى لقد اغتصب الرومان كنائسها وأديرتها - بعد تدينهم بالنصرانية.. منذ الانشقاق الذى حدث فى «مجمع خلقدونية» سنة ٤٥١م، وتكون «المذهب الملكانى» الرومانى، المعادى للنصرانية الشرقية.. فتواصل الاضطهاد الرومانى للنصرانية الشرقية بعد اعتناق روما للنصرانية، كما كان الحال فى عصر وثنية الرومان!..

ولقد استمر هذا الاضطهاد، الذى هربت منه قيادات النصرانية الشرقية إلى الصحارى والجبال والمغارات.. والذى تؤرخ الكنائس الشرقية حتى الآن بمجازره ضد أنصارها، فتسميه «عصر الشهداء»!..

عاشت النصرانية الشرقية هذا التاريخ، حتى جاء الفتح الإسلامى فحرر أوطانها من القهر السياسى والحضارى والثقافى والاقتصادى.. وحرر ضمير رعاياها من القهر الدينى..

وظلت هذه النصرانية الشرقية وكنائسها واعية بذكرىات هذا التاريخ الدموى.. وعارفة ومعلنة عن فضل الإسلام وفتوحاته التحريرية فى إنقاذها من الهلاك والانقراض..

- فشاهد العيان على الفتح الإسلامى لمصر، الأسقف «يوحنا النقيوس» هو القائل:

«إن الله الذى يصون الحق، لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم لتجرئهم عليه، وردهم إلى يد الإسماعيليين-[العرب المسلمين]، ثم نهض المسلمون وحازوا كل مصر.. وكان هرقل [٦١٠ - ٦٤١م] حزيناً.. وبسبب هزيمة الروم الذين كانوا فى مصر، وبأمر الله الذى يأخذ أرواح حكامهم.. مرض هرقل ومات.. وكان عمرو بن العاص [٥٠ق هـ- ٤٣هـ / ٥٧٤ - ٦٦٤م] يقوى كل يوم فى عمله، ويأخذ الضرائب التى حددها، ولم يأخذ شيئاً من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئاً ما، سلباً أو نهباً، وحافظ على الكنائس طوال الأيام»^(١).

- كما تحدث هذا الأسقف عن الأمان الذى أعطاه عمرو بن العاص للبطرك «بنيامين» [٣٩هـ - ٦٥٩م] - بطرك المصريين - الذى كان هارباً من مطاردة الرومان ثلاثة عشر عاماً - وعن عودته إلى رعيته.. واستقبال عمرو بن العاص له.. وزيارة البطرك للكنائس التى حررها له الإسلام.. والسعادة التى عبر عنها وأعلنها بما صنع الفتح الإسلامى للنصرانية المصرية.. فقال الأسقف يوحنا النقيوس:

«ودخل الأنبا «بنيامين» بطريك المصريين، مدينة الإسكندرية، بعد هربه من الروم ثلاثة عشر عاماً.. وسار إلى كنائسه، وزارها كلها، وكان كل الناس يقولون: هذا النفى وانتصار الإسلام، كان بسبب ظلم هرقل الملك، وبسبب اضطهاد الأرثوذكسيين.. وهلك الروم لهذا السبب، وساد المسلمون مصر.. وخطب الأنبا «بنيامين» فى دير «مقاريوس»، فقال: لقد وجدتُ فى الإسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدهما، بعد الاضطهادات والمظالم التى قام بتمثيلها الظلمة المارقون..»^(٢).

- وبعد الأسقف «يوحنا النقيوس» بعدة قرون، يشهد الأسقف «ميخائيل السريانى» على ذات الحقيقة، فيقول عن تحرير الإسلام للنصرانية المصرية والشرقية، وعن سماحة الإسلام مع نصارى مصر: «لم يسمح الإمبراطور الرومانى لكنيستنا

(١) [تاريخ مصر ليوحنا النقيوس: رؤية قبطية للفتح الإسلامى]، ص ٢٠١، ٢٠٢. ترجمة ودراسة: د. عمر صابر عبد الجليل. طبعة القاهرة - دار عين سنة ٢٠٠٠م.

(٢) المصدر السابق. ص ٢٢٠.

المونوفيزيتية - [القائلة بالطبيعة الواحدة للمسيح] - بالظهور، ولم يصغ إلى شكاوى الأساقفة فيما يتعلق بالكنايس التي نهبت، ولهذا، فقد انتقم الرب منه.

لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا أبناء إسماعيل من الجنوب لينقذونا من أيدي الرومان، وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية، وعشنا في سلام»^(١).

- ولما حرر عمرو بن العاص كنائس مصر وأديرتها من الاغتصاب الروماني، وردّها إلى أهلها «خرج للقائه من أديرة وادى النظرون سبعون ألف راهب، بيد كل واحد عكاز، فسلموا عليه. وكتب لهم كتاباً [بالأمان] هو عندهم» في أديرتهم^(٢)..

- وحتى القرن العشرين، ظل المؤرخون النصارى الوطنيون يشهدون على هذه الحقيقة - حقيقة إنقاذ الإسلام للنصرانية الشرقية من الإبادة الرومانية - فكتب صاحب كتاب [تاريخ الأمة القبطية] - يعقوب نخلة روفيلة - [١٨٤٧ - ١٩٠٥ م] يقول:

«ولما ثبت قدم العرب في مصر، شرع عمرو بن العاص في تطمين خواطر الأهلين واستمالة قلوبهم إليه، واكتساب ثقتهم به، وتقريب سراة القوم وعقلائهم منه، وإجابة طلباتهم.

وأول شيء فعله من هذا القبيل: استدعاء «بنيامين» البطريك، الذي اختفى من أيام هرقل ملك الروم، فكتب أماناً أرسله إلى جميع الجهات يدعو فيه البطريك للحضور، ولا خوف عليه ولا تثريب، ولما حضر، وذهب لمقابلته ليشكره على هذا الصنيع، أكرمه، وأظهر له الولاء، وأقسم له بالأمان على نفسه وعلى رعيته وعزل البطريك الذي كان أقامه هرقل، ورد «بنيامين» إلى مركزه الأصلي معززاً مكرماً.. وكان «بنيامين» موصوفاً بالعقل والمعرفة والحكمة حتى سماه بعضهم «بالحكيم».. وقيل إن عمرًا لما تحقق ذلك منه، قربه إليه، وصار يدعوّه في بعض الأوقات ويستشيرّه

(١) د. صبرى أبو الخير سليم [تاريخ مصر في العصر البيزنطى] ص ٦٢. طبعة القاهرة - دار عين - سنة ٢٠٠١ م.

(٢) المرجع السابق. ص ١٩٤.

فى الأحوال المهمة المتعلقة بالبلاد وخيرها، وقد حسب الأقباط هذا الالتفات منة عظيمة وفضلاً جزيلاً لعمره..

واستعان عمرو فى تنظيم البلاد بفضلاء القبط وعقلائهم على تنظيم حكومة عادلة تضمن راحة الأهالى، فقسم البلاد إلى أقسام يرأس كل منها حاكم قبطى ينظر فى قضايا الناس ويحكم بينهم، ورتب مجالس ابتدائية استئنافية مؤلفة من أعضاء ذوى نزاهة واستقامة، وعين نواباً من القبط ومنحهم حق التداخل فى القضايا المختصة بالأقباط والحكم فيها بمقتضى شرائعهم الدينية والأهلية، وكانوا بذلك فى نوع من الحرية والاستقلال المدنى، وهى ميزة كانوا قد جردوا منها فى أيام الدولة الرومانية. وضرب عمرو بن العاص الخراج على البلاد بطريقة عادلة.. وجعله على أقساط، فى آجال معينة، حتى لا يتضايق أهل البلاد..

وبالجملة، فإن القبط نالوا فى أيام عمرو بن العاص راحة لم يروها من أزمان^(١).

- نعم.. ظلت الكنائس المحلية فى الشرق الإسلامى طوال قرون عيشها المشترك مع الإسلام، واعية بهذه الحقائق، وذاكرة لها، ومتذكرة لآثارها.. ولذلك، انخرطت مع رعيته - طوال هذه القرون - فاندمجت فى الأمة الواحدة، وأسهمت فى بناء الحضارة الإسلامية الواحدة.. وانتمت إلى مكونات الهوية الواحدة التى جمعت بين الجميع - هوية: اللغة.. والتاريخ.. ومنظومة القيم والأخلاق - مع التنوع والتميز فى عقائد الدين..

- وفى ضوء هذه الحقائق التاريخية - التى شهد عليها وبها الأساقفة والمؤرخون - والتى أثمرت قدراً من الاندماج القومى والحضارى والثقافى ونماذج من العيش والتعايش المشترك صار مضرِباً للأمثال ونموذجاً للاحتذاء.. فى ضوء ذلك يأتى السؤال - الذى يحير البعض - عن السر الذى جعل قطاعات عديدة ومتنفةذة.. وأحياناً قائدة - فى هذه الكنائس، تتحول عن حذرها التاريخى من العمل على تنصير

(١) يعقوب نخلة روفيلة [تاريخ الأمة القبطية] ص ٥٤ - ٥٧ - تقديم: د. جودت جبرة. الطبعة الثانية - القاهرة - مؤسسة مار مرقس لدراسة التاريخ - سنة ٢٠٠٠ م.

الاستراتيجية الغربية لتنصير المسلمين

المسلمين لتنخرط فى عملية التنصير.. وبالاشتراك مع من؟.. مع الغربيين، أحفاد الذين اضطهدوا الأسلاف!.. وضد من؟.. ضد المسلمين، أحفاد الأسلاف الذين حرروا أولئك الأسلاف!..

* * *

- لقد بدأ التنصير - الذى يسمونه تبشيراً - كجزء من الغزوة الاستعمارية الغربية للشرق، مارسته مذاهب النصرانية الغربية - البروتستانت والكاثوليك.. وكانت سهام هذا التنصير - فى مراحل الأولى - موجهة ضد أبناء الكنائس الشرقية، لأنهم الأقرب فى الاستجابة لمذاهب نصرانية بينها وبينهم وجوه شبه كثيرة.. ولما كانت عليه كنائسهم الشرقية من جمود وتخلف وجهل وتقليد.. ولما كان فى موالاة مذاهب المستعمرين من امتيازات..

وبعد أن اكتسب هذا التنصير الغربى لمذاهبه الغربية مواطئ أقدام بين النصرانية الشرقية، بدأ يتوجه نحو تنصير المسلمين.. لكنه رغم طول الزمن.. وكثرة الإنفاق.. ومشقة الجهود - لم يحصد إلا خيبة الأمل فى ميادين التنصير للمسلمين!!..

ولهذه الحقيقة، تداعت الكنائس الغربية - والأمريكية المشيخية منها على وجه الخصوص - لدراسة تاريخ التنصير.. وتجاربه وأساليبه.. والدروس المستفادة من هذا الإخفاق.. ولدراسة الأساليب الجديدة لتنصير المسلمين.. فكان المؤتمر التاريخى الذى عقد فى منتصف مايو سنة ١٩٧٨ م - فى «كولورادو» - بولاية «كاليفورنيا» - بالولايات المتحدة.. والذى ناقش المؤتمر فيه أربعين بحثاً.. ثم نشرت وثائقه - إلا ماله حساسية شديدة! - باللغة الإنجليزية سنة ١٩٧٨ م.. ثم ترجمت إلى العربية، تحت عنوان: [التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامى] - فيما يقرب من ألف صفحة.. ففى وثائق هذا المؤتمر ومداولاته - التى تمثل «بروتوكولات قساوسة التنصير» - نجد الإجابة عن هذا السؤال:

«لماذا خرجت الكنائس الشرقية - أ وبعضها على الأقل - عن هذا «الحذر التاريخى» فانخرطت فى ميدان تنصير المسلمين، بعد أن كانت تتعد عن ذلك طوال تاريخ تعايشها وعيشها المشترك مع الإسلام والمسلمين؟!»..

إن هذا التحول التاريخي في الموقف الكنسي الشرقي من هذه القضية، هو - بإيجاز شديد - جزء من النجاح الغربي في توظيف الكنائس الشرقية بعملية تنصير المسلمين، التي هي جزء من الحملة الغربية ضد الصحوة الإسلامية المعاصرة والبعث الإسلامي الحديث..

لقد جاء حين من الدهر - في ظل الاستعمار الغربي الحديث للشرق الإسلامي ظن فيه الغرب الاستعماري وظنت فيه الكنائس الشرقية - أن «العلمانية» - التي جاءت إلى بلادنا في ركاب المستعمرين الغربيين - قد أزاحت الإسلام عن مكانته في السياسة والدولة والاجتماع والقانون.. وأنه لم يبق من هذا الإسلام إلا العقائد والشعائر والعبادات.. وأن التصنيع الحديث والعلوم الطبيعية وتقنياتها ونظرياتها قد صنعت بالإسلام ما صنعتته بالنصرانية الغربية، عندما همّستها، وعزلتها عن التأثير في مختلف ميادين الحياة..

لكن.. وفجأة.. فوجئ الغرب - السياسي والديني - بأن الإسلام لم يتزحزح عن أى من قواعده الراسخة في ميادين الدولة والسياسة والاجتماع والقانون.. وأنه لم تتم أى علمنة حقيقية في عالم الإسلام.. ولقد نشرت مجلة [شئون دولية] - الصادرة في «كمبردج» بإنجلترا - عدد يناير سنة ١٩٩١ م - دراسة عن موقف الإسلام هذا.. فقالت:

«إن النظرية التي يعتنقها علماء الاجتماع، والتي تقول إن المجتمع الصناعي والعلمي الحديث يقوّض الإيمان الديني - مقولة العلمنة - صالحة على العموم.. فالتأثير السياسي والسيكولوجي للدين قد تناقص عملياً في كل المجتمعات، وبدرجات متفاوتة وأشكال مختلفة.. لكن عالم الإسلام استثناء مدهش وتام جداً من هذا.. فلم تتم أى علمنة في عالم الإسلام. إن سيطرة الإسلام على المؤمنين به هي سيطرة قوية، وهي بطريقة ما أقوى الآن عما كانت من ١٠٠ سنة مضت. إن الإسلام مقاوم للعلمنة في ظل كل النظم السياسية.. الراديكالية.. والتقليدية - والتي تقف بين بين. وإن وجود تقاليد محلية للإسلام، قد جعل عملية الإصلاح الذاتي، استجابة لدواعي الحداثة، تتم باسم الإيمان المحلي.. الأمر الذي مكن العالم الإسلامي من الإفلات من المعضلة التي أرقّت المجتمعات الأخرى.. معضلة إضفاء الطابع

المثالى على الغرب، ومحاكاته - الباعثة على الإذلال! - وهذا هو التفسير الأساسى لمقاومة الإسلام المرموقة لاتجاه العلمنة..».

ولهذا الاستعصاء الإسلامى على العلمنة والتهميس والتوارى.

- قرر الغرب السياسى: اتخاذ الإسلام عدوًا، وإعلان ذلك صراحة فى ذات اللحظات التى تهاوى فيها الخطر الشيوعى داخل الحضارة الغربية..

وعن هذه الحقيقة تتحدث مجلة [شئون دولية] فتقول:

«لقد شعر الكثيرون بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفيتى.. وبالنسبة إلى هذا الغرض فإن الإسلام جاهز فى المتناول.. فالإسلام من بين الثقافات الموجودة فى الجنوب هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة، ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحد فعلى وحقيقى لمجتمعات يسودها مذهب اللادرية وفتور الهمة واللامبالاة، وهى آفات من شأنها أن تؤدى إلى هلاك تلك المجتمعات مادياً، فضلاً عن هلاكها المعنوى..».

إذن.. ها هو الغرب السياسى قد أعلن الحرب على الإسلام.. واتخذ عدوًا أحلّه محل الخطر الشيوعى الذى انهار - وذلك لاستعصاء الإسلام على العلمنة والتهميش.. وبقائه منهاجًا شاملاً للدين والدولة.. والدنيا والآخرة.. والسياسة والقانون والعمران... وفشل المحاولات الغربية لحصره فى المحاريب والشعائر والطقوس والعبادات، وترك دينا المسلمين وثروات أوطانهم «للقصر الغربى»!..

لقد اتخذوه عدوًا، وأعلنوا عليه الحرب، لصموده ممثلاً ومزكياً لثقافة المقاومة وروح الجهاد لتحرير أمة الإسلام وعالمه وحضارته من الهيمنة الغربية، وفق نموذج ذاتى للتجدد والتجديد، متميز عن النموذج الغربى فى الحداثة والتقدم والنهوض..

* * *

- وعلى جبهة «الغرب الدينى» كان التوازى مع «الغرب السياسى» فى الموقف من الإسلام.. وكان السعى من قبل النصرانية الغربية لمحاصرة الصحوحة الإسلامية

ومعاجلتها.. ولتنصير المسلمين، بالاعتماد المتبادل - هذه المرة - مع الكنائس المحلية الشرقية!!..

لقد تحدثت «بروتوكولات قساوسة التنصير» - في مؤتمر «كولورادو» - عن أن الصحوة الإسلامية قد بلغت شأوا لم تبلغه لعدة قرون مضت» وعن «تحرك جماهير هذه الصحوة لفرض تطبيق الشريعة الإسلامية في مصر.. وتطبيق الدستور الإسلامى فى باكستان..»^(١).

كما تحدثت هذه «البروتوكولات» عن «أن الإسلام - منذ ظهوره فى القرن السابع - قد مثل تحدياً لكنيسة يسوع المسيح»^(٢).. وعن أن هذا «الإسلام هو الدين الوحيد الذى تناقص مصادره الأصلية أسس النصرانية.. وإن النظام الإسلامى هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعياً وسياسياً.. إنه حركة دينية معادية للنصرانية، مخططة تخطيطاً يفوق قدرة البشر!.. ونحن بحاجة إلى مئات المراكز، تؤسس حول العالم، بواسطة النصارى، للتركيز على الإسلام. ليس فقط لخلق فهم أفضل للإسلام، وللتعامل النصرانى مع الإسلام، وإنما لتوصيل ذلك الفهم إلى المنصرين من أجل اختراق الإسلام فى صدق ودهاء..»^(٣)!!

- كما تحدثت هذه «البروتوكولات» عن معالم هذا الدهاء فى اختراق الإسلام.. والتى تتمثل - ضمن ما تتمثل - فى التنصير من خلال الثقافة الإسلامية.. والمصطلحات الإسلامية.. واستغلال الموروث الإسلامى عن طريق التحريف والتأويل - فقالت هذه «البروتوكولات»:

«إنه من الممكن، فى بعض الأحوال، الذهاب أبعد فيما يتعلق باستعمال المصطلحات القرآنية، مع إعطاء اهتمام خاص إلى الثقافة الإسلامية، وتكييف اللغة لحروف خاصة، واستعمال قواعد الإملاء القرآنية للأسماء الإنجيلية المعروفة، واستعمال الألقاب التبجيلية والتعبيرات القرآنية» فى ترجمة الإنجيل^(٤)!!.. وذلك

(١) [التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامى] ص ٨. طبعة مالطا سنة ١٩٩١ م.

(٢) المصدر السابق. ص ٣٢٩.

(٣) المصدر السابق. ص ١٢٣.

(٤) المصدر السابق. ص ٥٥١.

وصولاً «إلى المسلمين من أجل المسيح على أساس تأويلات قرآنية..!!»^(١).. وبهذه الطريقة تصبح عملية التنصير مثل الخميرة التي تعمل داخل الكيان كله لتمكن الروح النصرانية وتعاليمها من إحداث التغيير الطبيعي»^(٢)!!

- ولم يقف هذا الانزعاج من صمود الإسلام أمام العلمنة والعلمانية.. والفرع من صحوته وتمدده.. لم يقف ذلك عند البروتستانتية الغربية - وخاصة الأمريكية - بل شاركتها في ذلك الانزعاج والفرع الكاثوليكية أيضًا.. فتحدث كبار كرادلة الفاتيكان عند الصحوة الإسلامية «التي تفتح أوروبا فتحًا إسلاميًا جديدًا»!!.. وعن «التحدى الإسلامي»!!.. وعن تكاثر المسلمين أمام انقراض الأوربيين!! فقال الكاردينال «بول بوبار» - مساعد بابا الفاتيكان.. ومسئول المجلس الفاتيكانى للثقافة -:

«إن الإسلام يشكل تحديًا بالنسبة لأوروبا وللغرب عمومًا. وإن المرء لا يحتاج إلى أن يكون خبيرًا ضليعًا كي يلاحظ تفاوتًا بين معدلات النمو السكاني في أنحاء معينة من العالم، ففي البلدان ذات الثقافة المسيحية يتراجع النمو السكاني بشكل تدريجي، بينما يحدث العكس في البلدان الإسلامية النامية. وفي مهد المسيح يتساءل المسيحيون بقلق عما سيحمله لهم الغد، وعما إذا لم يكن موتهم مبرمجًا بشكل ما؟!..»

إن التحدى الذى يشكله الإسلام يكمن فى أنه دين وثقافة ومجتمع وأسلوب حياة وتفكير وتصرف، فى حين أن المسيحيين فى أوروبا يميلون إلى تهميش الكنيسة أمام المجتمع، ويتناسون الصيام الذى يفرضه عليهم دينهم، وفى الوقت نفسه ينبهرون بصيام المسلمين فى شهر رمضان^(٣)!!

كما يتحدث المونسنيور «جوزيبى برناردى» - بحضرة بابا الفاتيكان - سنة ١٩٩٩م - عن هذا «الفتح الإسلامى الجديد» لأوروبا!!.. فيقول:

(١) المصدر السابق. ص ٨١٥.

(٢) المصدر السابق. ص ٥٩٦، ٥٩٥.

(٣) من حديث إلى صحيفة «الفيجارو» - الفرنسية - والنقل عن صحيفة «الشرق الأوسط» - لندن - فى ١ - ١٠ - سنة ١٩٩٩م.

«إن العالم الإسلامي سبق أن بدأ ييسط سيطرته بفضل دولارات النفط.. وهو يبني المساجد والمراكز الثقافية للمسلمين المهاجرين في الدول المسيحية، بما في ذلك روما عاصمة المسيحية. فكيف يمكننا ألا نرى في ذلك برنامجًا واضحًا للتوسع، وفتحًا جديدًا»^(١)؟!

إنه الانزعاج والفرع من الإسلام.. وصموده أمام العلمنة.. واستعصائه عليها.. وصحوته.. وتمدده - الذي سموه «فتحًا جديدًا لأوروبا والغرب»!..

وإنها المعالجة الغربية لهذه الصحوة الإسلامية، بإعلان الحرب الشاملة على الإسلام - دينًا.. وسياسيًا.. وإعلاميًا - لمعالجة هذا الخطر - الذي سموه - في البداية «الخطر الأخضر».. ثم ما لبثو أن أطلقوا عليه أسماء أخرى، منها «الأصولية» ومنها «الإرهاب»!

* * *

- وفي إطار المخطط الغربي على الجبهة الدينية - لتنصير المسلمين - كل المسلمين! - جاء الحديث عن المتغير الجوهري والجديد - الذي رسمته النصرانية الغربية للكنائس المحلية الشرقية، في عملية تنصير المسلمين.. مخطط التنصير للمسلمين بالاعتماد المتبادل بين الكنائس الغربية والكنائس الشرقية.. أى إخراج الكنائس الشرقية من «وطنيتها» ومن «انتمائها الشرقى»، وتوظيفها - من قبل النصرانية الغربية - في عملية تنصير المسلمين!..

وعن هذا «المتغير - الجوهري والجديد» قالت «بروتوكولات قساوسة التنصير» الأمريكان في مؤتمر «كولورادو»:

«إنه على مديري إرساليات أمريكا الشمالية والقادة المنصرين الآخرين أن يكتشفوا ويوطدوا أساليب جديدة للتعاون والمشاركة مع كنائس العالم الثالث وعملها المنظم للوصول إلى المسلمين، لقد وطينا العزم على العمل بالاعتماد المتبادل مع كل النصراني والكنائس الموجودة في العالم الإسلامي.. إن نصارى

(١) صحيفة «الشرق الأوسط» - لندن - في ١٣ - ١٠ - ١٩٩٩ م.

الاستراتيجية الغربية لتنصير المسلمين

البروتستانت - فى الشرق الأوسط وإفريقيا وآسيا - منهمكون بصورة عميقة فى عملية تنصير المسلمين.. ويجب أن تخرج الكنائس القومية من عزلتها وتقتحم بعزم جديد ثقافات ومجتمعات المسلمين الذين نسعى إلى تنصيرهم.. وعلى المواطنين النصارى فى البلدان الإسلامية وإرساليات التنصير الأجنبية العمل معا بروح تامة، من أجل الاعتماد المتبادل والتعاون المشترك لتنصير المسلمين.. إذ يجب أن يتم كسب المسلمين عن طريق منصرين مقبولين داخل مجتمعاتهم.. ويُفضل النصارى العرب فى عملية التنصير.. إن تنصير هذه البلاد سوف يتم من خلال النصارى المنتمين إلى الكنيسة المحلية..^(١)!!

- هكذا تم التخطيط النصرانى الغربى لغواية الكنائس الشرقية، وتوظيفها فى المخطط الغربى لتنصير المسلمين.. كما سبق وخطط الغرب السياسى لغواية العلمانيين الشرقيين وتوظيفهم فى عملية تغريب الأمة الإسلامية.. بهدف كسر شوكة الإسلام، وتحقيق التبعية الحضارية فى عالم الإسلام - للمركز الحضارى الغربى!!.. - وفى إطار هذا المخطط.. المكتوب والمعلن.. يجب أن نرى «ظاهرة القمص زكريا بطرس».. قمص الكنيسة الأرثوذكسية المصرية، وجهوده الساعية إلى تنصير المسلمين، من خلال حلقاته التلفازية، وجهود غيره من المنصرين..

وأن نسأل أنفسنا:

- ماذا نحن فاعلون^(٢)!

(١) [التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامى] ص ٧٩٠، ٥٣، ٥٦، ٤، ٥، ٦٢٧، ٦٣٠، ٣٨٣، ٨٤٥.

(٢) من تقديم لكتاب فى الرد على القمص زكريا بطرس.

الاستغلال الأمريكى للأقليات

فى تقرير الخارجية الأمريكية عن «الحريات الدينية» سنة ٢٠١٢م، تتكرر الأكاذيب والافتراءات التى حوّاها تقريرها السابق عن سنة ٢٠١١م..

ولقد تميز هذا التقرير الجديد بتوجيه أكبر قدر من الافتراءات إلى دستور مصر الجديد - دستور ديسمبر سنة ٢٠١٢م - وعلى سبيل المثال:

- يدعى تقرير الخارجية الأمريكية أن الدستور الجديد «يجرم الاختلاف العقيدى»!!.. بينما الحقيقة أن هذا الدستور - فى المادة ٤٣ - ينص على أن «حرية الاعتقاد مصونة. وتكفل الدولة حرية ممارسة الشعائر الدينية وإقامة دور العبادة للأديان السماوية».

- ويعيب التقرير على الدستور الجديد - وعلى الأزهر - قصر حرية إقامة دور العبادة على أتباع الديانات السماوية - الإسلام، والمسيحية، واليهودية.. مطالباً بحرية بناء دور العبادة للشيعة والبهايين!!.. ونحن نسأل واضعى هذا التقرير: هل الشيعة غير مسلمين، حتى يحتاجوا إلى دور عبادة غير التى يتعبد فيها المسلمون؟!.. إن الشيعة لا يخرجون أنفسهم من دين الإسلام وأمة المسلمين، حتى يكونوا بحاجة إلى دور عبادة غير المساجد التى يصلى فيها المسلمون.

أما البهايون.. فإن التقرير الأمريكى يعترف «بأن لديهم القدرة على ممارسة العبادة بشكل خاص، ويمكنهم المشاركة فى الاحتفالات، مثل نوروز رأس السنة البهائية».

وغير خاف أن دفاع الاستعمار والصهيونية عن البهايين وراءه أسباب سياسية،

لا علاقة لها بالحرريات الدينية، فالاستعمار الإنجليزي، بعد احتلال فلسطين سنة ١٩١٧م، منح زعيم البهائية «عبد البهاء» عباس أفندي [١٨٤٤ - ١٩٢٠] «وسام الشجاعة»! ولقب «سير»!.. كما حظى البهائيون بدعم الصهيونية العالمية، وخاصة أسرة المصرفي الصهيوني الشهير «روتشيلد» [١٧٤٣ - ١٨١٢م] - التي حصلت من الاستعمار الإنجليزي على «وعد بلفور» سنة ١٩١٧م بإقامة الكيان الصهيوني على أرض فلسطين.. هذا الكيان الذي اعترف به البهائيون فور قيامه سنة ١٩٤٨م، معتبرين قيامه تحقيقاً لوعده إلهي!.. وفي هذا الكيان الصهيوني تقوم «القبلة» والكعبة» الخاصة بالبهائيين!..

ولهذا كان الدفاع الدائم - في تقارير الخارجية الأمريكية، حول الحرريات الدينية - عن البهائيين.. وكان النقد للسياسة المصرية، رغم اعتراف هذا التقرير بأن البهائيين - في مصر - «لديهم القدرة على ممارسة العبادة بشكل خاص، ويمكنهم المشاركة في احتفالاتهم، ومنها الاحتفال بعيد النوروز - رأس السنة البهائية»!

- ويتجاهل التقرير الأمريكي أن قصر إقامة دور العبادة على الديانات السماوية الثلاث، قد كان - أثناء وضع الدستور الجديد - مطلباً للكنيسة الأرثوذكسية، أصر عليه ممثلها «الأببا بولا»، وذلك لإغلاق الأبواب أمام قيام كنائس تفتت وحدة الكنيسة الأم - من مثل «شهود يهوه»، وغيرها... ولقد كنت شاهداً على المناقشات التي دارت حول هذا الموضوع - وأنا مقرر لجنة المقومات الأساسية للدولة والمجتمع - بالجمعية التأسيسية لوضع الدستور - كما تشهد على ذلك مضابط اجتماعات هذه اللجنة.. ومن هنا فإن قصر حرية إقامة دور العبادة على أهل الديانات السماوية قد جاء استجابة للموقف الموحد الذي اجتمع عليه المسيحيون والمسلمون.. والعلمانيون والليبراليون والإسلاميون جميعاً عند وضع الدستور!

- ويمضى التقرير الأمريكي في الافتراء على الدستور الجديد، فيزعم أن «بعض بنود هذا الدستور تقدم حماية أضعف للأقليات من الدستور السابق - دستور سنة ١٩٧١م».. فهل هذا صحيح؟!

إن الدستور الجديد قد ذهب على درب المساواة بين أهل الديانات السماوية

الاستغلال الأمريكى للأقليات

إلى مدى غير مسبوق فى سائر الدساتير المصرية، وذلك عندما وضع المادة الثالثة - فى باب المقومات الأساسية للدولة والمجتمع - والسابقة على المادة الخاصة بالأزهر - والتي تنص على أن: «مبادئ شرائع المصريين من المسيحيين واليهود المصدر الرئيسى للتشريعات المنظمة لأحوالهم الشخصية، وشئونهم الدينية، واختيار قياداتهم الروحية».

نعم.. نص الدستور على ذلك - ولأول مرة فى تاريخ الدساتير المصرية - رغم أن كلمة «شريعة»، وإن وردت فى أسفار العهد القديم تسعة وستين مرة، إلا أنها لم ترد ولو مرة واحدة فى أى إنجيل من الأناجيل!

لكنه الافتراء الأمريكى، الذى يزعم أن دستورنا الجديد إنما يقدم حماية أضعف للأقليات من الدستور السابق!

- وتمضى الأكاذيب الصارخة فى تقرير الخارجية الأمريكية لتزعم «أن الدستور الجديد لا يمنع الأحزاب القائمة على الدين».. فهلا قرأ واضعوا هذا التقرير ما جاء فى المادة السادسة من هذا الدستور - فى باب المقومات الأساسية - من النص على أنه «لا يجوز قيام حزب سياسى على أساس التفرقة بين المواطنين بسبب الجنس أو الأصل أو الدين».. هلا قرأ واضعوا هذا التقرير الأمريكى هذا النص الواضح والحاسم والصريح؟!

- وبدلاً من أن يمدح التقرير الأمريكى نص الدستور الجديد - فى المادة ٤٤ على «حظر الإساءة أو التعريض بالرسول والأنبياء كافة».. يذهب - وبالفكر - لاعتبار هذا النص من سلبات الدستور!.. مع أن حظر الإساءة للأنبياء والرسول، وتجريم ازدراء الأديان والمقدسات الدينية كافة هو الضمان للسلام الدينى والفكرى والاجتماعى، والسبيل لغلق الأبواب أمام التطرف والغلو اللادينى والدينى على السواء.. بل إن احترام الأنبياء.. وهم فى مجملهم ساميون - ضمان لقطع الطريق على معاداة السامية الحقيقية، وليس بالمعنى الصهيونى للسامية الذى يروج له الغرب والأمريكان!

- ولا ينسى التقرير الأمريكى قواتنا المسلحة من توجيه الاتهامات، فيقول: إنه لا يوجد مسيحيون فى المجلس الأعلى للقوات المسلحة! ونحن نسأل واضعى هذا

التقرير عن المسلمين الذين يمثلون الديانة الثانية فى الكثير من البلاد الأوربية: هل لهم ممثلون فى القيادات العليا للقوات المسلحة بتلك البلاد؟!

إن عدد المسلمين الفرنسيين هو ضعف عدد المسيحيين فى مصر، فهل أفسحت فرنسا فى قيادة جيشها مكاناً للمسلمين الفرنسيين؟! .. أم أن لهذه المناصب قواعدها ومعاييرها المهنية التى لا علاقة لها بالديانات؟! .. ثم إن الجيش المصرى زاحر بالضباط الكبار من المسيحيين، والذين قاد بعضهم أفرعاً كبرى من هذا الجيش فى أخطر الحروب.

- وفيما يتعلق بالادعاء الأمريكى حول «معاداة السامية» - وبالمفهوم الأمريكى للسامية، الذى يساوى بينها وبين الصهيونية - متجاهلاً أن العرب ساميون! - فلقد شاء الله لهذا التقرير أن يقع فى تناقض صارخ.. فهو يعترف بأنه «لم يكن هناك أحداث عنف ضد السامية على مدار السنوات الحديثة والحالية. ولقد قدمت الحكومة المصرية محاولات عامة للتمييز بين معارضة السامية ومعارضة سياسة إسرائيل وممارساتها».. لكن.. وبعد هذا الكلام الموضوعى، نرى التقرير ينقلب على عقبيه، فيقول: «لقد زادت فى مصر نبرة العداء للسامية فى وسائل الإعلام»!.. وهكذا يحرص التقرير الأمريكى على الكذب والافتراء!

- تلك إشارات إلى بعض الافتراءات الأمريكية الجديدة، التى توجهت - بالأساس - إلى نصوص الدستور المصرى الجديد، الذى حظى فى الاستفتاء عليه بأعلى نسبة تأييد، إذ حظى بموافقة ٦٤٪ من المصوتين، بينما حظى الدستور الإيطالى على ٦١٪ - وكانت يومها أعلى نسبة حصل عليها دستور من الدساتير.

وأخيراً.. فإننا نسأل واضعى هذا التقرير الأمريكى عن الحريات الدينية:

- إذا كنتم قد اعترفتم - فى هذا التقرير «بأن المسيحيين والمسلمين المصريين يتشاركون فى ثقافة مشتركة، وفى معظم الحالات يعيشون سوياً عيشة آمنة سالمة بمثابة جيران فى بلد واحد».

إذا كنتم قد اعترفتم هذا الاعتراف الواقعى والموضوعى والصريح.. فلم تدسون أنوفكم الكريهة، وتعبثون بأصابعكم النجسة فى العلاقة بين المسلمين والمسيحيين المصريين؟! ^(١).

(١) انظره بكتابتنا [الاستغلال الأمريكى للأقليات] طبعة مكتبة وهبه - القاهرة.

صليبية حتى النهاية

- هذا عمل فكري متميز.. يفتح إخلاصُ كاتبه الأبواب أمام أفكاره لتصل مباشرة إلى العقول والقلوب..

- هذا عمل فكري يقدم نموذجًا من نماذج الغيرة على دين الإسلام.. ويلفت الأنظار إلى عظمة رسوله ﷺ.. ويجاهد لإيقاظ الأمة، كي تنهض لتواجه التحديات الصليبية والإمبريالية والصهيونية، التي اجتمعت لتحرس تخلفنا الموروث، ولتشدد قبضة الهيمنة، كي تذيب هويتنا، وتطوى صفحة ديننا من الوجود..

- هذا عمل فكري، كتبه قلم يتعبد صاحبه بالكلمة الطيبة الصادقة الشجاعة حسبة إلى الله تعالى.

* * *

أما عن موضوع هذا الكتاب، فإنني أقدم بين يديه كلمات موجزة، وذلك مخافة الإطالة التي تحول بين القارئ وبين سرعة الدخول فيه..

وأولى هذه الكلمات: أن الصليبية مغامرة ومناقضة للمسيحية التي جاء بها المسيح - عليه السلام - فالمسيحية هي ديانة الصوفية المسالمة والسلام المتصوف.. بينما الصليبية هي النزعة العنصرية المادية الغربية، التي حاربت القرون الطوال لقهر الشرق دينيًا وسياسيًا واقتصاديًا ولغويًا وثقافيًا وحضاريًا..

وإذا كانت هذه الصليبية قد رفعت الصليب شعارًا على حروبها ضد الشرق والإسلام بعد أن تديننت أوروبا بمسيحية بولس.. فإن لها في الحروب على الشرق تاريخًا سابقًا حتى على ظهور المسيحية.. فلقد غزت الشرق تحت شعار «الهيلينية اليونانية» عشرة قرون، بدأت «بالإسكندر الأكبر» [٣٥٦-٣٢٣ ق.م] - في القرن الرابع قبل الميلاد - واستمرت حتى «هرقل» [٦١٠-٦٤١م] - في القرن السابع للميلاد..

ولقد كانت هليينتها هذه وبالأعلى المسيحية، حتى لقد قال المستشرق الإيطالي الأمير «كيتاني» [١٨٦٩ - ١٩٢٦ م]: «إن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة شعور بالاستياء من السفسطة المذهبية التي جلبتها الروح الهلينية إلى اللاهوت المسيحي.. لقد كانت الثقافة الهلينية وبالأعلى على هذا اللاهوت من الوجهة الدينية، لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة مليئة بالشكوك والشبهات.. الأمر الذي زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها.. فلما أهلت أبناء الوحي الجديد فجأة من الصحراء، لم تعد المسيحية قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد، ذى المبادئ الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل وحينئذ ترك الشرق المسيح، وارتمى فى أحضان بنى بلاد العرب».

- وإذا كانت المسيحية قد قالت على لسان المسيح - عليه السلام -: «إن مملكتى ليست فى هذا العالم». وأن رسالة كنيستها هى خلاص الروح وتوبة العصاة.. فإن الصليبية هى نزعة مادية دنيوية، جعلت مفاتيح الجنة - التى صنعها البابا - الحافز على نهب ثروات الشرق، حتى لقد خاطب البابا «أوربان الثانى» [١٠٨٨ - ١٠٩٩ م] فرسان الإقطاع الأوربى محرضاً إياهم على محاربة الإسلام والمسلمين، مغرياً لهم بنهب اقتصادات الشرق وخيرات أرضه وكنوز ثرواته.. فقال: «يا من كنتم لصوصاً كونوا اليوم جنوداً. لقد آن الزمان الذى تحوّلون ضد الإسلام تلك الأسلحة التى أنتم لحد الآن تستخدمونها بعضكم ضد بعض.. فأمضوا متسلحين بسيف مفاتيحى البطرسية - [مفاتيح الجنة]... إن الحرب المقدسة المعتمدة الآن هى فى حق الله عينه.. وليست هى لاكتساب مدينة واحدة، بل هى أقاليم آسيا بجملتها، مع غناها وخزائنها العديدة الإحصاء.. أملكوها لذواتكم، فهذه الأرض - حسب ألفاظ التوراة - تفيض لبناً وعسلاً.. فإذا انتصرتكم على أعدائكم، فالملك الشرقى يكون لكم قسمًا وميراثًا!»!

ولهذه الحقيقة، كانت الصليبية «ظاهرة غريبة»، برئت منها المسيحية الشرقية، التى تركت ما لقيصر لقيصر، ووقفت كنيستها عند خلاص الروح وتوبة العصاة..

ولهذه الحقيقة - أيضًا - أبصر المؤرخون المسلمون غربة الصليبية وغرابتها عن

صلبية حتى النهاية

المسيحية الحققة، فأطلقوا على حروبها وصف «حروب الفرنجة»، لشذوذها عن دين المسيحية وسلوك المسيحيين الحقيقيين.

ولهذه الحقيقة - أيضًا - نرى الغرب اليوم يتخذ من «الإسلاموفوبيا» - أى كراهة الإسلام، وتزييف صورته، والتحريض عليه وعلى أهله - عنوانًا على هذه الصليبية - حتى بعد انحسار التدين بالمسيحية فى أغلب بلاد الحضارة الأوروبية.. لقد تراجعت المسيحية هناك، لكن ظلت النزعة الصليبية المحرك الأول لسعار الإسلاموفوبيا.. وأصبحت القيادة «لليمين الأوربي»، وليست للكنائس فى هذه الحرب المجنونة على الإسلام.. وحلت عنصرية الرجل الأبيض وعلمانية دولته محل الدين واللاهوت.. وأخذ الحديث عن أوربا كنادى «للتراث» المسيحى و«الذكريات» المسيحية يحل محل الحديث عن التدين بديانة المسيح عليه السلام.

فالفارق كبير، والتناقض شديد وعميق بين حقيقة الصليبية وبين حقيقة المسيحية..

- أما الكلمة الثانية: فهى أننا إذا كنا نواجه الصليبية المعاصرة التى فجرت نزعات الإسلاموفوبيا، فإن نهاية هذه المرحلة ستكون نهاية الصليبية - إن شاء الله.

ذلك أن الصليبية التاريخية قد قامت على ركيزتين:

١ - عنصرية الرجل الأبيض - التى تحتقر وتعادى العرب.

٢ - والتعصب الأوربي لمسيحية بولس.. تلك التى رفضت المسيحية الشرقية، بل وفجرت الحروب الدينية المقدسة داخل المسيحية الأوروبية ذاتها..

ونحن نشهد اليوم ظهور واقع جديد، يؤذن بموت الغرب الصليبي، ومن ثم طى صفحة الصليبية من الوجود..

فبالنسبة لعنصرية الرجل الأبيض، تؤذن العلمنة التى أصابت الأسرة الأوروبية بالانهيار، مع الشذوذ الجنسى فاحشة قوم لوط، التى يسمونها زواج المثليين - بالانقراض التدريجى لهذا الرجل الأبيض ديموجرافيًا.

ففى سنة ١٩١٥م كانت نسبة الرجل الأبيض إلى سكان العالم هى ٢٨٪، أما الآن

- أى بعد مائة سنة فى سنة ٢٠١٥م - فنسبته إلى سكان العالم هى ١٨٪!!.. وتوشك الكثير من الدول الأوروبية أن تصبح «دورًا للمسنين»!!..

وبالنسبة للركيزة الثانية للصليبية الغربية - التعصب المسمى - فإن أوروبا توشك أن تصبح «فراغًا مسيحيًا».. وفى هذا الفراغ يتمدد الإسلام - الذى كان الهدف الذى وجهت إليه الصليبية أسلحتها عبر التاريخ..

- ففرنسا - أكبر بلاد الكاثوليكية - التى حلمت سنة ١٩٣٠م بتشجيع جنازة الإسلام فى الجزائر - أصبح عدد المسلمين الذين يصلون الجمعة فيها ضعف الكاثوليك الذين يذهبون يوم الأحد لحضور القداس!

- وفى ألمانيا - التى تغلق الكثير من كنائسها لقلّة الزوار.. وتفقد هذه الكنائس سنويًا أكثر من ١٠٠,٠٠٠ من أتباعها.. يمثل المسلمون ٣٪ من سكانها، لكن مواليدهم هى ١٠٪ من المواليد الألمان!

ورغم صعود اليمين السياسى الألمانى المعادى للمهاجرين المسلمين - فإن حاجة المصانع الرأسمالية إلى العمالة ترغم هذه البلاد على قبول المهاجرين.. فأرباح الرأسمالية المتوحشة مقدمة على الهوية الدينية والحضارية!!..

- وفى إيطاليا - حيث الفاتيكان - وفى عموم البلاد الكاثوليكية، لا يلتزم بتعاليم الكنيسة سوى ٢٠٪ من السكان!

- وفى إنجلترا.. فإن لندن - التى سبق واستعمرت أغلب عالم الإسلام - قد انتخبت مسلمًا عمده لها!. وتدنّت نسبة الرجل الأبيض فيها إلى ٤٥٪ من سكانها!!.. وأعلن رئيس الكنيسة الكاثوليكية فى إنجلترا وويلز الكاردينال «كورمك ميرفى»: «أن المسيحية أوشكت على الانحسار فى بريطانيا، وأن الدين لم يعد مؤثرًا فى حياة الناس»!

- وفى بلجيكا - عاصمة الاتحاد الأوروبى الذى أرادوه ناديًا مسيحيًا - يمثل المسلمون ٢٥٪ من السكان، لكن مواليدهم يمثلون ٥٠٪ من مواليد بلجيكا!!..

- وفى عموم أوروبا، تغلق الكنائس، ويتحول الكثير منها إلى مطاعم وملاهى وعلب ليل.. وأحيانًا إلى مساجد!!..

صلبية حتى النهاية

- ولقد أوجز هذا «الواقع الجديد» بابا الفاتيكان السابق «بنديكتوس السادس عشر» عندما قال: «إنه يخشى أن تصبح أوروبا جزءاً من دار الإسلام فى القرن الواحد والعشرين»!!

* * *

تلك هى الصليبية - التاريخية.. والمعاصرة.. وهذه هى بشائر نهايتها المرتقبة - إن شاء الله..

فقط، على المسلمين أن يعو هذا التاريخ وهذا الواقع - وفى هذا الكتاب الذى نقدم له زاد كثير لهذا الوعى.. وأن يأخذوا بأسباب النهوض - التى سبق وجعلتهم العالم الأول على ظهر هذه الأرض لأكثر من عشرة قرون - إذ لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها - فقه الوعى وفقه الواقع، وعقد القرآن بينهما.. وذلك حتى يتحقق وعد الله لعباده المؤمنين:

﴿يُرِيدُونَ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

والآن.. لندع القارئ يسبح فى هذا الكتاب المتميز... الذى يمثل كتيبة من كتائب الوعى الفكرى الصانع للتاريخ وللمستقبل - إن شاء الله.

سائلين المولى أن ينفع به.. وأن يوفق كاتبه إلى المزيد من العطاء.. إنه سبحانه - خير مسئول وأكرم مجيب^(١).

(١) انظر كتاب [صلبية حتى النهاية] لأحمد صلاح سالم.

الحرية أولاً.. مسار الحرية فى الحضارة الإسلامية

الحرية: ضد العبودية.. والحر: ضد العبد والرقيق.. وتحرير الرقبة: عتقها من الرق والعبودية..

فالحرية: هى الإباحة التى تمكن الإنسان من الفعل المعبر عن إرادته، فى أى ميدان من ميادين الفعل، وبأى لون من ألوان التعبير.

وفى المصطلح القرآنى، الذى يقابل بين الحر والعبد: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْعَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنْ أَعْدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَ لَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

ومن المأثورات الإسلامية كلمات الراشد الثانى عمر بن الخطاب (٤٠ ق هـ - ٢٣ هـ / ٥٨٤ - ٦٤٤ م) التى يقول فيها: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!»

ولقد كان مبحث الحرية والاختيار أول المباحث التى بدأت بها الفلسفة الإسلامية فى تاريخنا الحضارى، بعد ظهور الإسلام - حول منتصف القرن الهجرى الأول - ولقد دلت ملابسات هذه النشأة على ارتباط «الحرية» «بالمسئولية» فى النظرة الإسلامية، لأن القضية التى أثارت الجدل فولدت البحث فى هذه القضية هى التغييرات التى أحدثتها الدولة الأموية فى نظام الحكم الإسلامى، والتى انتقلت به من الشورى والخلافة الكاملة إلى الخلافة الناقصة والملك العضود، ومن الصراعات الفكرية والسياسية التى حدثت بين المسلمين حول هذه التغييرات.. وهل القائمون بها مسئولون عنها، يحاسبون عليها، فهم أحرار مختارون؟ أم أنهم غير مسئولين، كلياً أو جزئياً، ولا حساب عليهم، لأنهم مسيرون مجبرون؟

وإذا كان «التكليف» - وهو عنوان المسؤولية فى القانون والفقه الإسلامى - فرعاً عن «الحرية».. فلقد تجاوزت الحرية - فى النظرة الإسلامية - نطاق الفرد - الحرية الفردية - إلى النطاق الاجتماعى - الحرية الاجتماعية - للأمم والجماعات.. ففى التكليف الإسلامى «فروض عينية» على «الفرد» تستلزم حرية هذا الفرد المكلف.. وفيها، كذلك «فروض كفاية» - أى اجتماعية - تجب على الأمة والجماعة.. وتستلزم حرية اجتماعية للأمة والجماعة.. الأمر الذى يقطع بتجاوز نطاق الحرية - فى النظرة الإسلامية منذ البدء - نطاق الفرد إلى الجماعة والاجتماع.. على عكس ما يظن الذين حسبوا مبحث الحرية والاختيار «فردياً - دينياً» لم يتجاوز هذا الإطار!.. فإذا كانت التكاليف الفردية - الواجبة على الفرد، وهى فروض العين - تستلزم حرية المكلف بها، فإن التكاليف الاجتماعية - الواجبة على الأمة، وهى فروض الكفاية - تستلزم حرية الأمة المكلفة بها، بل إن هذه التكاليف الاجتماعية - فى النظرة الإسلامية - هى أشد تأكيداً من الفروض العينية الفردية، بدليل أن التخلف عن «فرض العين» إنما يقع إثمه على الفرد، بينما التخلف عن فرض الكفاية الاجتماعى يلحق إثمه بالأمة جمعاء.. الأمر الذى يوحى أن حرية الأمة هى الأساس فى الحرية الفردية لآحاد هذه الأمة.

ونظرة الإسلام إلى الحرية، ومن ثم مقامها ومكانتها فيه، نظرة متميزة خاصة إذا كانت المقارنة مستحضرة نظرة الحضارة الغربية وبعض الحضارات الشرقية القديمة إلى هذا الموضوع.

- فالحرية فى النظرة الإسلامية، ضرورة من الضرورات الإنسانية، وفريضة إلهية وتكليف شرعى واجب.. وليست مجرد «حق» من الحقوق، يجوز لصاحبه أن يتنازل عنه إن هو أراد!.

- ومقام «الحرية» يبلغ فى الأهمية وسلم الأولويات، مقام «الحياة» التى هى نقطة البدء والمنتهى، وجماع علاقة الإنسان بوجوده الدنيوى.. لقد اعتبر الإسلام «الرق» بمثابة «الموت» واعتبر «الحرية» إحياء «وحياة».. فعتق الرقبة، أى تحرير العبد، هو إخراج له من الموت الحتمى إلى حكم الحياة.. وهذا هو الذى جعل عتق الرقبة -

الحرية أولاً.. مسار الحرية فى الحضارة الإسلامية

إحياءها - كفارة للقتل الخطأ الذى أخرج به القاتل نفساً من إطار الأحياء إلى عداد الموتى - فكان عليه كفارة عن ذلك، أن يعيد الحياة إلى الرقيق بالعتق والتحرير: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَقٌ فِدْيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ٩٢].. وبعبارة واحد من مفسرى القرآن الكريم - الإمام النسفى [٧١٠هـ - ١٣١٠م] - «فإنه (أى القاتل) - لما أخرج نفساً مؤمنة من جملة الأحياء، لزمه أن يدخل نفساً مثلها فى جملة الأحرار، لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها، من قبل أن الرقيق ملحق بالأموات، إذ الرق أثر من آثار الكفر، والكفر موت حكماً» (٤٧: ج ١ ص ١٨٩).

وفى الآية ١٢٢ من سورة الأنعام ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيثَاقًا حَيِّنَهُ وَجَعَلْنَا لَهُ ثَوْرًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فالإسلام عندما يهدى إنما يحرر الإنسان من عبودية الطواغيت، وعندما يحرر فإنه يحقق للإنسان ضرورة الحرية المحققة لمعنى «الحياة» وحقيقة الحياة.. ومن هنا كانت شهادة أن لا إله إلا الله عنوان الحرية التى تحرر كل ملكات الإنسان وطاقاته من العبودية لكل الطواغيت، فإفراد الذات الإلهية بالعبودية هو قمة التحرير لعباد الله!

وكلمات الإمام النسفى التى تقول: «إذ الرق أثر من آثار الكفر»، تلفت النظر إلى الموقف العملى الذى اتخذه الإسلام، إبان ظهوره من نظام الرق وواقع الاسترقاق.

فلقد ظهر الإسلام ونظام الرق - فى شبه الجزيرة العربية وفيما وراءها - نظام عام وراسخ وبالغ القسوة، ويمثل ركيزة من ركائز النظامين الاقتصادى والاجتماعى لعالم ذلك التاريخ، وفى كل الحضارات.. وإذا نظرنا إلى المحيط الذى ظهر فيه الإسلام وجدنا الروافد والمنابع المتعددة دائمة الإمداد «لنهر الرقيق» الزاخر بالجديد من الأرقاء.. فالحروب العدوانية.. والغارات الدائمة.. والفقر المدقع.. والعجز عن سداد

الدين.. والحراية وقطع الطريق، وأسواق النخاسة التى تعج بالصغار المجلوبين - فتیان وفتیات - التى تمثل مصدرًا من مصادر الاستثمار فى الرقيق - كانت من المعالم الأساسية لكل المجتمعات، حتى لا نغالى إذا قلنا: إن الرقيق كان «العملة الدولية» لاقتصاد ذلك التاريخ!.. ولقد بلغ من قسوتها وشيوعها ما صنعتها القيصرية الرومانية والكسروية الفارسية - القوى العظمى يومئذ - من تحويل كل شعوب المستعمرات إلى رقيق وبرابرة وأقنان!

فلما جاء الإسلام، وقامت دولته بالمدينة المنورة، حرم وألغى كل المنابع والروافد التى تمد «نهر الرقيق» بالجديد.. ووسع المصبات التى تجفف هذا النهر، وذلك عندما حجب إلى الناس عتق الأرقاء، بل وجعله مصرفًا من مصارف الأموال الإسلامية العامة، وصدقات المسلمين وزكواتهم.. وعندما جعل العديد من الكفارات هى تحرير الرقبة.. وعندما سن شرائع المساواة بين الرقيق ومالكة وسيده، فى المطعم والمشرب والملبس.. ودعا إلى حسن معاملته والتخفيف عنه فى الأعمال.. حتى لقد أصبح الاسترقاق - فى ظل هذه التشريعات - عبئًا اقتصاديًا يزهده فيه الراغبون فى الثراء!..

فلم يكن موقف الإسلام من «الحرية» وعداؤه «للعبودية» مجرد موقف «فكرى نظرى» وإنما تجسد على أرض الواقع تجربة «إصلاحية - ثورية» شاملة غيرت المجتمع الذى ظهر فيه تغييرًا جذريًا - وذلك هو الذى يحسب للإسلام، ولا تحسب عليه «الردة» التى حدثت عندما استشرى الاسترقاق فى فترات لاحقة من التاريخ!.

لقد وقف التشريع الإسلامى من الاسترقاق عند أسرى الحرب المشروعة، ليبادلهم مع أسرى المسلمين، بل وشرع لهذه الحالات المحدودة العدد «المن» و«الفداء»: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُّوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنَصَرْتَهُمْ وَلَكِنْ لِبَلَاءِ بَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ [محمد: ٤٧]..

وإذا كان هذا هو مقام الحرية فى النظرة الإسلامية، فإن هذه النظرة قد ربطت قيمة الحرية بالإنسان، مطلق الإنسان، وليس بالإنسان المسلم وحده.. وإذا كان

الحرية أولاً.. مسار الحرية في الحضارة الإسلامية

الدين والتدين هو أعلى وأول ما يميز الإنسان، فإن تقرير الإسلام لحرية الضمير في الاعتقاد الديني لشاهد على تقديس حرية الإنسان في كل الميادين.. فهو حر حتى في أن يكفر، إذا كان الكفر هو خياره واختياره: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].. ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَانْتَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنُتِمَّ لَهَا كَرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨].. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

لقد أراد الله للناس الهدى والإيمان، لكنه - سبحانه - جعل لهم، مع هذه الإرادة الإلهية، الحرية والتخير والتمكين، فكان انتصار الإسلام للحرية الإنسانية في كل الميادين..

وإذا كانت شهادة التوحيد - «لا إله إلا الله» - هي جوهر التدين بالإسلام، فإنها في مفهومه، ثورة تحرير للإنسان من العبودية لكل الطواغيت، ومن جميع الأغيار، فإفراد الله بالألوهية والعبودية هو جوهر تحرير الإنسان من العبودية لغير الله، إنها العبودية للذات المنزهة عن المادة.. ومن ثم فإنها هي المحققة لتحرير الإنسان من كل ألوان الطواغيت المادية التي تستلب منه الإرادة والحرية والاختيار.

بل إن الإسلام - عندما يدعو الإنسان إلى الاقتصاد في الاقتناء والامتلاك - بتهديبه لشهوات التملك وغرائزه وبالوقوف بها عند حدود «الاستخلاف» و«الانتفاع» لا «ملكية الرقبة» و«الاحتكار».. بصنيعه هذا إنما ينجز إنجازاً عظيماً على درب تحرير الإنسان وانعتاقه من العبودية للأشياء، التي يحسبها مملوكة له، على حين أنه لها مملوك!

لكن للإسلام مذهب متميز في «نطاق» الحرية الإنسانية و«آفاقها» و«حدودها».. فالإنسان خليفة لله - سبحانه - في عمارة الوجود، ومن ثم فإن حريته هي حرية الخليفة، وليست حرية سيد هذا الوجود.. إنه سيد في هذا الوجود، وليس سيّداً لهذا الوجود.. وبعبارة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥م]: «.. فالإنسان عبد لله وحده وسيد كل شيء بعده»..

ثم إنه حر، فى إطار الملايسات والعوامل الموضوعية الخارجية التى ليست من صنعه، والتى قد يستعصى عليه تعديل بعضها أو تحويلها وتغييرها.. وهو حر فى إطار أشواقه ورغباته وميوله، التى قد لا تكون دائماً وأبداً ثمرات حرة وخالصة لحرية وإرادته الخالصة، وإنما قد تكون - أحياناً - ثمرات لمحيط لم يصنعه، ولموروث ما كان له إلا أن يتلقاه.

ثم إنه «ال خليفة.. والوكيل: الحر»، فى إطار ونطاق ثوابت ومقاصد الشريعة التى هى عقد وعهد الاستخلاف والتوكيل.. فحرية الإنسان الخليفة ليست الحرية الليبرالية الغربية، التى ادعت أن الإنسان هو سيد الكون، وأن حرية الشخصية - من ثم - لا تخضع لأية قيود.. وعندما وفد هذا المفهوم الليبرالى الغربى فى الحرية إلى بلادنا - فى القرن التاسع عشر، والقائم «على الإباحة» وعدم التعرض لأحد فى أموره الخاصة - انتقده علماء الإسلام انتقاداً شديداً.. وكتب الأستاذ عبد الله النديم [١٢٦١ - ١٣١٣هـ / ١٨٤٥ - ١٨٩٦م] فقال: «.. ولئن قيل: إن الحرية تقضى بعدم تعرض أحد لأحد فى أموره الخاصة، قلنا: إن الحرية عبارة عن المطالبة بالحقوق والوقوف عند الحدود.. وهذا الذى نسمع به ونراه رجوع إلى البهيمية وخروج عن حد الإنسانية، ولئن كان ذلك سائغاً فى أوروبا، فإن لكل أمة عادات وروابط دينية أو بيئية، وهذه الإباحة لا تناسب أخلاق المسلمين ولا قواعدهم الدينية ولا عاداتهم. والقانون الحق هو الحافظ لحقوق الأمة من غير أن يجنى أو يغرى بالجناية عليها بما يبيحه من الأحوال المحظورة عندها»..

وإذا كان الله - سبحانه وتعالى - قد سخر للإنسان ظواهر الطبيعة وقواها ليتحرر من العبودية لها، فإنه قد أقام، وأراد إخاء بين قوى الإنسان وقوى الطبيعة - الخليفة - لتمتزع حرية بهذا التسخير المتبادل، فهو أخ للطبيعة، بين قواه وقواها تسخير متبادل، هو أشبه ما يكون بالارتفاق، كل مرفق مسخر للمرفق الآخر، الأمر الذى يجعل الحرية الإنسانية حرية المخلوق المسئول، لا حرية الذى لا يسأل عما يفعله.. الفعال لما يريد!.

هكذا جاء الإسلام ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا

الحرية أولاً.. مسار الحرية فى الحضارة الإسلامية

عندهم فى التورينة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينههم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴿[الأعراف: ١٥٧]، أى ليحطم القيود والأغلال التى كانت تحول بين الإنسان - مطلق الإنسان - وبين تحقيق أشواقه فى الحرية والاعتناق.

ولقد بدأ الإسلام فوضع قيمة الحرية فى الممارسة والتطبيق عندما حرر الإنسان من أغلال الجاهلية وظلمها وظلماتها، وذلك بإعادة صياغة هذا الإنسان الصياغة الإسلامية التى حررت ملكاته وطاقاته حتى لقد أصبح «العالم الأكبر» برغم أنه - مادياً - «جرم صغير»! وتمت تربية «الجيل القرآنى الفريد»، الذى صنعه الرسول ﷺ - على عينه فى «دار الأرقم بن أبى الأرقم» التى كانت أولى مؤسسات الصناعة الثقيلة التى أقامها الإسلام لإعادة صياغة هذا الإنسان.. أى إن منهاج الإسلام فى الحرية والتحرير قد وضع «التربية» قبل «السياسة»، و«الأمة» قبل «الدولة»، لأن «الأصول» لا بد أن تسبق «الفروع».

ولقد عبر الصحابى الجليل جعفر بن أبى طالب [٨هـ - ٦٢٩م] عن حقيقة هذا التحرير الذى صنعتته التربية الإسلامية للإنسان، وكيف أخرجته هذه التربية من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، مفجرة فيه الملكات والطاقات الدفينة، فقال للنجاشى ملك الحبشة - عن سبب اضطهاد الوثنية القرشية للمسلمين، وسبب هجرتهم من مكة إلى الحبشة - (سنة خمس من البعثة) - فقال للنجاشى:

«أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام»..

وعندما تمت التربية الإسلامية التي حررت هذا الجيل القرآنى الفريد، جاءت «الدولة» ومؤسساتها وجاءت «السياسة» وقوانينها، وجاءت «الفتوحات» التي حررت الشرق من قهر الفرس والرومان - القهر السياسى والاجتماعى والاقتصادى والدينى والثقافى الذى دام عشرة قرون - وذلك عندما فتح هذا الجيل القرآنى الفريد - فى ثمانين عامًا - أوسع مما فتح الرومان فى ثمانية قرون! وشتان بين فتح وفتح.. شتان بين فتح حرر الضمائر والأوطان ثم ترك الناس أحرارًا وما يدينون؛ حتى إن نسبة الذين أسلموا فى مصر وسوريا وفارس بعد قرن من الفتوحات الإسلامية كانت ١٠٪ من السكان!..

شتان بين هذا الفتح التحريرى وبين الفتح الرومانى الذى حول كل شعوب المستعمرات إلى برابرة ورقيق وأقنان!

ولأن خطاب التحرير الإسلامى إنما هو موجه للإنسان، مطلق الإنسان - بصرف النظر عن دينه ولونه وجنسه - فلقد بدأت السياسة الخارجية لدولة النبوة سنة [٧هـ - سنة ٦٢٨م] بالرسائل التى دعا فيها رسول الله ﷺ إلى تحرير المضطهدين والمستضعفين.. فهذا التحرير للمستضعفين - بصرف النظر عن دينهم - هو فريضة إسلامية ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥]، هذه الفريضة قد حملتها رسائل رسول الله ﷺ إلى القياصرة والأكاسرة والملوك والرؤساء.. فدعا رسول الله قيصر الروم «هرقل» [٦١٠ - ٦٤١م] إلى تحرير «الأرسيين» - النصارى الموحدين - الذين كانوا مضطهدين فى دولة الرومان وقال له: «أسلم تسلم يؤتك الله أجرًا مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأرسيين»..

وفى اللقاء بين رسول رسول الله ﷺ حاطب بن أبى بلتعة [٣٥ ق هـ - ٣٠هـ/ ٥٨٦ - ٦٥٠م] وبين المقوقس - عظيم القبط - حذر حاطب المقوقس من الاستبداد وعواقبه، ومن الفرعونىة ومصيرها، فقال له: «إنه قد كان قبلك رجل - (فرعون موسى) - زعم أنه الرب الأعلى فانتقم الله به، ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر

الحرية أولاً.. مسار الحرية فى الحضارة الإسلامية

بك».. ثم أعلن له أن الإسلام لا يريد إلغاء الآخر، بل الإضافة إلى ما لدى «الآخر»، فقال: «إن لك ديناً لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام الكافى به الله فقد ما سواه. وما بشاره موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، ولسنا ننهك عن دين المسيح ولكننا نأمرك به»..

- فلما جاءت الفتوحات الإسلامية، التى طوت صفحات القوى المتجبرة - الفرس والروم - كانت تجسيدا لهذه القيم فى الحرية والتحرير.. فكانت كل معاركها ضد جيوش الفرس والروم.. ووقفت معها وساعدتها وناصرتها شعوب الشرق - وهى على ديانتها القديمة - عندما رأت فيها «الإنقاذ» الذى حررها من الظلم، وحقق لها «الأمن والطمأنينة» - على حد تعبير البطررك المصرى «بنيامين» [٣٩هـ - ٦٥٩م] «الذى حرره عمرو بن العاص» [٥٠ ق هـ - ٤٣هـ / ٥٧٤ - ٦٦٤] من النفى والاضطهاد.

ولقد امتلأت كتب التاريخ التى أرخت لهذا التحرير الإسلامى بالشهادات التى كتبها غير المسلمين، والتى تقطع بأن هذه الفتوحات الإسلامية قد وضعت قيمة الحرية هذه فى الممارسة والتطبيق..

فنقل الأسقف المصرى «يوحنا النقيوسى» - الذى كان شاهد عيان على الفتح الإسلامى لمصر - فرح الشعب المصرى بالفتح الذى حرر الضمائر والوطن والكنائس والأديرة والبطرك.. فقال:

«كان كل الناس يقولون: إن انتصار الإسلام كان بسبب ظلم هرقل، وبسبب اضطهاد الأرثوذكسيين، وأن عمرو بن العاص لم يأخذ شيئاً من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئاً ما، سلباً أو نهباً، وحافظ على الكنائس طوال الأيام» كما نقل - «النقيوسى» - كلمات البطررك «بنيامين» الذى حرره الفتح الإسلامى، ورد إليه كنائسه وأديرته، وأعادته إلى منصبه - بعد عزل البطررك الرومانى.. فقد زار «بنيامين» كنائسه، وخطب فى «دير مقاريوس» وقال:

«لقد وجدت فى الإسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدهما، بعد الاضطهاد والمظالم التى قام بتمثيلها الظلمة المارقون» الرومان..

وبعد خمسة قرون من الفتح الإسلامي، أكد هذه الحقيقة البطريرك السرياني «ميخائيل الأكبر» [١١٢٦ - ١١٩٩] الذي قال:

«.. لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا أبناء إسماعيل لينقذونا من أيدي الرومان، وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية، وعشنا في سلام»..

وفي العصر الحديث شهد المؤرخ القبطي «يعقوب نخلة روفيلة» [١٨٤٧ - ١٩٠٥م] «بأن الفتح الإسلامي قد حقق للشعب القبطي نوعاً من الحرية والاستقلال المدني، وهي ميزة كانوا قد جردوا منها في أيام الدولة الرومانية وحقق لهم راحة لم يروها من أزمان»..

- كذلك حمل الفاتحون المسلمون قيمة الحرية والتحرير هذه إلى بلاد الفرس، الذين كانوا يعيشون في ظل كهانة الحكم بالحق الإلهي، ويقهرهم نظام طبقي مغلق يقتل الملكات والطاقات لدى جماهير المستضعفين.. ففي لقاء القائد المسلم «ربيعي ابن عامر التميمي» مع القائد الفارسي «رستم» سأل «رستم» «ربيعي»:
- ما الذي جاء بكم؟! -

- فقال له «ربيعي»: «إن الله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

- أما المؤرخ الإنجليزي الحجة «سير توماس أرنولد» [١٨٦٤ - ١٩٣٠م] فلقد شهد على هذا التحرير الذي حققه الإسلام للشرق، فقال: «إنه من الحق أن نقول، إن غير المسلمين قد نعموا بوجه الإجمال، في ظل الحكم الإسلامي بدرجة من التسامح لا نجد لها معادلاً في أوروبا قبل الأزمنة الحديثة».

لكن.. إذا كان هذا هو مقام الحرية في الإسلام، وتلك هي تطبيقاتها في أرض الواقع.. فلماذا وكيف ساد الاستبداد «الدولة» الإسلامية، لفترة طويلة من التاريخ؟!.. حتى اضطرت «الأمة» إلى الثورات التي غطت أغلب مساحات هذا التاريخ؟! -

- إن الجيل القرآني الفريد، الذي أقام الدين وأسس الدولة، وفتح الفتوح، ووضع

الحرية أولاً.. مسار الحرية فى الحضارة الإسلامية

قيم الإسلام فى الحرية بالممارسة والتطبيق قد تحول إلى أقلية فى الدولة الإسلامية بعد الفتوحات التى أدخلت فى المجتمع الإسلامى شعوباً وقبائل وعادات وتقاليد وموارث لم تتح لها سرعة الفتوحات التبرية وإعادة الصياغة للإنسان، فأصبحت الغلبة فى الدولة الإسلامية لعادات وتقاليد وموارث وقيم عاشت طويلاً وترسخت فى ظل استبداد الفرس والرومان.. ويكفى لتقريب الصورة أن نعرف أن تعداد شبه الجزيرة العربية يومئذ كان حول المليون.. بينما ضمت الدولة الإسلامية - على نحو سريع - قرابة الأربعين مليوناً من السكان!.. فاختل التوازن بين الجيل الذى صاغه الإسلام وبين الملايين التى أدخلتها الفتوحات السريعة إلى «معدة» المجتمع الإسلامى..

ولقد كان عمر بن الخطاب واعياً بمخاطر هذا «الوافد السلبى» - الذى يمتلك إغراءات الترف وغوايات الرفاهية التى تتمتع بها فضاءات هذه البلاد المفتوحة، على النقيض من البساطة والخشونة التى عاش فى ظلالها الجيل القرآنى الفريد - فحاول عمر الاحتفاظ بنقاء هذا الجيل القرآنى «قوة ضاربة» للإسلام وحافطة لقيمه ومثله العليا.. حتى لقد ذهب إلى حد محاولة «الحجر» على ملأ قريش وأشرفها الخروج إلى مجتمعات البلاد المفتوحة، ففرض ما يمكن أن يعد «تحديد الإقامة» لهم بالحجاز كى لا تجتذبهم إغراءات المجتمعات الغنية، فتقوم من حولهم «مراكز قوى» تنتصر لمنظومة القيم الموروثة التى لم تخضع لتهديب الإسلام..

ويرصد التاريخ - بعبرية - هذه الحقيقة التى مثلت تحولاً عن نقاء النموذج القيمى الإسلامى، لحساب الموارث التى ترسخت فى ظلال الترف والاستبداد، فيقول:

«وكان عمر قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج فى البلدان إلا بإذن وأجل.. فلما ولى عثمان [٤٧هـ - ٣٥هـ / ٥٧٧ - ٦٥٦م] لم يأخذهم به، فخرجوا إلى البلاد، فلما نزلوها، ورأوا الدنيا، ورأهم الناس.. وتقربوا إليهم، وقالوا: يملكون فيكون لنا فى ملكهم خطوة. فكان ذلك أول وهن على الإسلام، وأول فتنة كانت فى العامة.. ولذلك كان عثمان أحب إلى قريش من عمر»..

- وكثيرة من ثمرات هذا التحول الاجتماعى، شهدنا كيف جاءت عوامل الفتنة

ووقائعها ورموزها من المجتمعات التي أدخلتها الفتوحات السريعة في دولة الإسلام، دون أن تتاح لها الفرصة للتهذيب بمنهاج الإسلام في إعادة صياغة الإنسان بقيم الإسلام..

- لقد جاء اغتيال عمر من فارس، بمؤامرة نفذها أبو لؤلؤة المجوسى.

- وجاءت الثورة على عثمان بن عفان من مصر والعراق..

- وجاء الملك العضود من الشام..

وهكذا، رويداً رويداً، تراجعت الحرية والشورى عن «الدولة والسلطة»، بينما ظل العلماء الذين ورثوا ميراث النبوة في أحضان الأمة، يصنعون الحضارة وتتوالى ثوراتهم ضد الاستبداد والاستعباد..

- فلما ظهرت متناقضات العصبية العرقية - التي كان الإسلام قد هذبها في عهد النبوة، وصفها ووصمها «بالجاهلية.. والمنتنة» - لما ظهرت هذه العصبية العرقية بين شعوبية الفرس وعصبية العرب، وعلت العصبية العربية في ظل الدولة الأموية، ثم علا شأن الشعوبية الفارسية في العقود الأولى من الحكم العباسى، خيل للخليفة العباسى المعتصم [٢١٨ - ٢٢٧هـ / ٨٣٣ - ٨٤٣م] أن عزل الفريقين - العرب والفرس - عن جيش الدولة يمكن أن يكون سبيلاً لحفظ وحدتها، وتحجيم النفوذ السياسى لهذه العصبيات العرقية، فاستجلب المماليك من أواسط آسيا، وكون منهم جيش الدولة، وجعل لهم معسكراً في «سامراء» - بالقرب من بغداد - لكن هذه المؤسسة العسكرية، الغربية عن روح الحضارة العربية والقيم الإسلامية، سرعان ما تضخمت وتحولت من أداة في يد الخلافة إلى حيث أصبحت الخلافة لعبة في يدها حتى لقد أصبحت «سامراء» هي العاصمة بدلاً من «بغداد»!! وهكذا زحفت العسكرة على المجتمع، وغالبت عوامل «القوة» والجمود والتقليد قيم الإبداع والاجتهاد والتجديد.. فبدأ التراجع الحضارى يأخذ طريقه إلى الفضاء الإسلامى بالتدريج، وعن هذا التحول السلبي والرئيسى يقول الإمام محمد عبده:

«كان الإسلام ديناً عربياً، ثم لحقه العلم فصار علماً عربياً، بعد أن كان يونانياً، حتى سيطر الترك والديلم وغيرهم ممن لم يكن لهم ذلك العقل الذى راضه الإسلام،

الحرية أولاً.. مسار الحرية فى الحضارة الإسلامية

والقلب الذى هذب الدين، بل جاؤوا إلى الإسلام بخشونة الجهل، يحملون أُلوية الظلم، فلبسوا ثوبه على أبدانهم، ولم ينفذ منه شىء إلى وجدانهم، فمالوا على العلم وصديقه الإسلام ميلتهم. أما العلم فلم يحفلوا بأهله، وقبضوا عنه يد المعونة، وحملوا كثيراً من أعوانهم على أن يندرجوا فى سلك العلماء، وأن يتسربلوا بسرابيلهم، ليعدوا من قبيلهم، ثم ليضعوا للعامة فى الدين ما ييغض إليهم العلم، ويبعد بنفوسهم عن طلبه، ودخلوا عليهم - وهم أعرار - من باب التقوى وحماية الدين، وزعموا أن الدين ناقص ليكملوه.. فاستعاروا للإسلام ما هو منه براء، ونجحوا فى إقناع العامة بأن فى ذلك تعظيم شعائره، وتفخيم أوامره، والغوغاء عون الغاشم، وهم يد الظالم، فخلقوا لنا هذه الاحتفالات، وسنوا لنا عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم مما فرق الجماعة وأوقع الناس فى الضلالة، وقرروا أن المتأخر ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم، وجعلوا ذلك عقيدة حتى توقف الفكر وتجمدت العقول، ثم بثوا أعوانهم فى أطراف الممالك الإسلامية، ينشرون من القصص والأخبار والآراء ما يقنع العامة بأن لا نظر لهم فى الشئون العامة، وأن كل ما هو من أمور الجماعة والدولة هو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم، ومن دخل فى شىء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لا يعنيه، وأن ما يظهر من فساد الأعمال واختلال الأحوال ليس من صنع الحكام، وإنما هو تحقيق لما ورد فى الأخبار من أحوال آخر الزمان، وإنه لا حيلة فى إصلاح حال ولا أمل، وأن الأسلم تفويض ذلك إلى الله، وما على المسلم إلا أن يقتصر على خاصة نفسه، ووجدوا فى ظواهر الألفاظ لبعض الأحاديث ما يعينهم على ذلك، وفى بعض الأحاديث الموضوعة والضعيفة ما شد أزرهم فى بث هذه الأوهام.

وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضللين، وتعاون ولادة الشر على مساعدتهم فى جميع الأطراف، واتخذوا من عقيدة القدر مثبطاً للعزائم وغلاً للأيدى عن العمل. والعامل الأقوى فى حمل النفوس على قبول الخرافات إنما هو السذاجة، وضعف البصيرة فى الدين وموافقة الهوى، وهى أمور إذا اجتمعت أهلكت، فاستتر الحق تحت ظلام الباطل، ورسخ فى نفوس الناس من العقائد ما يتضارب وأصول دينهم ويباينها على خط مستقيم.

هذه السياسة هى التى روجت ما أدخل على الدين مما لا يعرفه، وسلبت من المسلم

أَمْلاً كان يخرق به أطباق السموات، وأخلدت به إلى يأس يجاور به العجماءات..
هناك استعجم الإسلام وانقلب عجمياً».

هكذا حلل الإمام محمد عبده - بعقريه حضارية - دور عسكرة الدولة التي سرت
سلبياتها إلى المجتمع، ودور العجمة التي ميزت هذه العسكرة في إحلال الجمود
والتقليد والخرافة محل المعالم الحضارية التي ميزت منظومة القيم الحضارية التي
جاء بها الإسلام، والتي صاغت الجيل القرآني في صدر الإسلام.

- فلما جاء الإمام الشهيد حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨هـ / ١٩٠٦ - ١٩٤٩م] -
وهو تلميذ نجيب للإمام محمد عبده - وأخذ في تشخيص عوامل التحلل والتراجع
الحضاري في التاريخ الإسلامي، تبني ذات التحليل وكتب يقول: «إن من أهم عوامل
التحلل في الدولة الإسلامية.. انتقال السلطة والرياسة إلى غير العرب، من الفرس
تارة والديلم تارة أخرى والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الإسلام
الصحيح، ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن، لصعوبة إدراكهم لمعانيه».

فلما كانت المخاطر الخارجية - الصليبية - [٤٨٩ - ٦٩٠هـ / ١٠٩٦ - ١٢٩١م]
والتتريه [٦٥٦ - ٦٥٩هـ / ١٢٥٨ - ١٢٦١م] التي هددت الوجود الإسلامي - مدت
هذه المخاطر في عمر «عسكرة الدولة».. فأصبحت الغلبة «لقوة العضلات» بدلاً
من «ملكات العقل والعقلانية».. وغدت الأرض إقطاعاً للمماليك مقابل حمايتها
من الصليبيين والتتار، وأصبحت الدولة قوة قهر واستبداد تراجعت من فضائها قيم
الحرية والشورى ومشاركة الأمة في صناعة القرار.. وأخذ فقهاء السلاطين ينظرون
ويبررون لحكم التغلب، ويدعون لطاعة أهل الفسق والفجور طالما تغلبوا بالقوة
على البلاد والعباد!

تلك إشارات لمقام الحرية في الإسلام.. ولأسباب صعودها وازدهارها.. ولبعض
أسباب تراجعها عن فضاء «الدولة والسلطة والسلطان»..

وهي إشارات ترسم معالم الطريق نحو استعادة هذه الحرية من جديد.. إذ لا
يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها:

- إعادة صياغة الإنسان بقيم الحرية التي جاء بها الإسلام.

الحرية أولاً.. مسار الحرية فى الحضارة الإسلامية

- والبعد بالصناعة الثقيلة: التريبة قبل السياسة.. والأمة قبل الدولة - لتأتى «الدولة الحرة» ثمرة ناضجة وطبيعية «للأمة الحرة».. وليتحقق شعار: «كما تكونوا يولى عليكم» بدلاً من الشعار القائم الآن: «كما يولى عليكم تكونوا»!

بهذه الصفحات - التى قدمت هذه الحقائق - نقدم لكتاب متميز.. وممتاز.. ينتصر لأولوية الحرية فى ترتيب فقه أولويات العصر الذى نعيش فيه.. ويتخذ موقفاً متوازناً، عندما يسلط الأضواء على الاستبداد الذى طبع «الدولة» - فى تاريخنا - لعدة قرون.. وفى الوقت ذاته ينصف «الأمة» التى بنت الحضارة وفجرت الثورات ضد هذا الاستبداد على امتداد هذه القرون ساعياً - بذلك - إلى تذكير الأمة بمنهاج الإسلام فى تحرير الإنسان - مطلق الإنسان..

والله نسأل أن ينفع به، وأن يجرى كاتبه خير الجزاء.. إنه - سبحانه وتعالى - خير مسئول وأكرم مجيب..^(١).

١٠ رمضان ١٤٣٣هـ / ٢٩ يوليو ٢٠١٢م

(١) انظره بكتاب [الحرية أولاً] للدكتور محمود المصرى طبعة دار المعارف - القاهرة.

الحرية روح الإسلام

عندما ظهر الإسلام، كان العبرانيون قد اتخذوا العجل الذهبي معبودًا لهم من دون الله ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَسْكَمَا يَا مُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣]..

وكان الرومان قد عبدوا بشرًا من دون الله، وقالوا عنه: «إنه خالق كل شيء، وبه كان كل شيء، وبدونه لم يكن شيء، وهو الألف والياء، والأول والآخر»!..

وكانت الكسروية الفارسية قد جعلت كسرى إلهاً أو ابن إله، يفرض الطبقية المغلقة، التي تقتل الملكات والطاقات، على جمهور العباد..

وكان الشرق الأقصى قد سادت فيه الديانات الوضعية، التي تنكر الغيب، وتكفر بالنبوات والرسالات.. بل وترى فيها مصدر الشقاق والمنازعات!..

فجاء الإسلام ليحرر الإنسان - مطلق الإنسان - وليخرج الناس - كل الناس - من عبودية كل هذه الطواغيت، ليفجر فيهم ملكات الحرية وطاقاتها، وليستخلص أرواحهم لعبادة الواحد الأحد، وذلك حتى يصبح هذا الإنسان - الجرم الصغير - العالم الأكبر.. الذي إذا أقسم على الله، أبره الله!..

- جاء الإسلام ليجعل القراءة في كتاب الكون وفي كتاب الوحي حماية من العبودية ومن الطغيان.. ففي الآيات الأولى التي نزل بها الروح الأمين على قلب الصادق الأمين، أن الحرية ليست للفرد فقط - كما كانت في القبلية والقبيلة - وإنما هي للجماعة والأمة، المنظمة في المؤسسات الشورية، والتي تعصم من الاستفراد بأية سلطة من السلطات ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ [العلق: ٦، ٧]..

- جاء الإسلام ليجعل مفتاح الدخول فيه شعار الذى يحرر الإنسان من كل ألوان العبودية لغير الله: «أشهد أن لا إله إلا الله»..

- جاء الإسلام ليرفع قيمة الحرية - ولأول مرة فى الشرائع والفلسفات - من مستوى «الحق» إلى مستوى «الفريضة والواجب والتكليف الإلهي والضرورة الحياتية»..

- جاء الإسلام ليساوى بين «الحرية» وبين «الحياة»، جاعلاً الحرية هى الحياة، وبدونها يكون الموت والموت.. حتى لذكر المفسرون للقرآن الكريم أن علة كون كفارة القتل الخطأ هو عتق رقبة - أى تحريرها -: أن القاتل قد أخرج إنساناً من عداد الأحياء إلى عداد الأموات.. ولذلك، فالكفارة هى أن يخرج إنساناً من عداد الأموات - الأرقاء - إلى عداد الأحياء - الأحرار - «لأن الرق موت والحرية حياة»^(١).

- جاء الإسلام ليجعل الأسرة.. والأمة.. والدولة، مؤسسات تدار بالشورى، التى تفجر وتنمى ملكات الحرية فى الإنسان، عن طريق ممارسة المشاركة فى صنع القرار.. وفى الأسرة ﴿وَالْوَلَدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِضِعُوا أَوْلَدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣].. وفى الأمة ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].. وفى الدولة: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].. وليقيم دولته الأولى على المؤسسات الشورية الثلاث: المهاجرين الأولين - الأمراء - العشرة - والوزراء - النقباء الإثنى عشر - الأنصار - ومجلس الشورى - مجلس السبعين^(٢).. وليتحدث عن «أولى الأمر» - الجماعة - وليس «ولى الأمر» - الفرد!

(١) النسفى: [مدارك التنزيل] جـ ١ ص ١٨٩. طبعة القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ.

(٢) د. محمد عمارة: [المؤسسية والمؤسسات فى الحضارة الإسلامية] ص ٣١ - ٣٨. طبعة القاهرة سنة ١٤٣١ هـ - سنة ٢٠١٠ م.

الحرية روح الإسلام

- جاء الإسلام ليستنفر في الإنسان ملكات الحرية وطاقتها.. فبعد آية الكرسي، التي أشارت إلى عظمة الذات الإلهية وإلى جبروتها، يأتي الإعلان عن أنه - مع ذلك ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ

أَسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَيَّعُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٦].. فصاغ للإيمان «عملة» لها وجهان:

الأول: الكفر بكل الطواغيت، وتحرير الإنسان من أية عبودية لأي من هذه الطواغيت.

والثاني: إفراد الذات الإلهية بالعبودية - التي هي قمة التحرير للإنسان..

- جاء الإسلام «ثورة» تحطم القيود والأغلال التي كانت مفروضة على حريات الناس.. جاء ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي

التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ

ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]..

- جاء الإسلام ليفتح آفاق العالمية والعمومية أمام الحرية، حتى لا تكون حكرًا على قبيلة عبرانية، ولا على عنصرية رومانية.. وإنما لتكون إنسانية مشاعة بين كل أصحاب العقائد والديانات.. ففي بواكير السياسة الخارجية لدولة النبوة، يطلب رسول الله ﷺ من «هرقل» [٦١٠ - ٦٤١ م] - عظيم الروم - رفع الاضطهاد عن النصارى الموحدين - الأريسيين - أتباع «أريوس» [٢٥٦ - ٣٣٦ م] فيقول لهرقل: «أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين».. ويطلب من «المقوقس» - عظيم القبط - على لسان الصحابي «حاطب بن أبى بلتعة» [٣٥ ق هـ - ٣٠ هـ / ٥٨٦ - ٦٥٠ م] أن يفقه معنى الدعوة إلى الإسلام، وكيف أنها تضيف إلى النبوات والرسالات، ولا تحجر على الإيمان بأى منها، بل ولا تمنع من الوقوف عند أى منها..: «إن لك دينًا لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام الكافى به الله فقد ما سواه.. ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به»!..

كما يذكره بعبارة مصير الاستبداد عبر التاريخ، فيقول له «إنه قد كان قبلك رجل [فرعون] - زعم أنه الرب الأعلى، فانتقم الله به، ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر بك!»^(١)..

ويطلب [الإسلام] من الفرس أن يفقهوا أن الحرية هي جماع رسالة الإسلام.. فعندما سأل قائد الفرس «رستم» الصحابي ربيعى ابن عامر:

- ما الذى جاء بكم؟!..

- قال له ربيعى: «إن الله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»^(٢).. مؤكداً - ربيعى - على أن الإسلام - دين الله - قد جاء ليخرج من يشاء.. دون أن يفرض هذا التحرير على من لا يشاء!..

- ولقد جعل الإسلام الجهاد سبيلاً لهذا التحرير - الجهاد بالكلمة، والحجة، والعلم، والبرهان - فالقرآن هو الجهاد الكبير ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].. والجهاد القتالى لتحرير المستضعفين الذين فرض عليهم الرومان والفرس القهر الدينى والسياسى والاقتصادى والثقافى عشرة قرون - من «الإسكندر» [٣٥٦ - ٣٢٣ ق. م] - فى القرن الرابع قبل الميلاد - إلى «هرقل» - فى القرن السابع للميلاد - ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقِيمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].. فكانت الفتوحات الإسلامية تحريراً لأوطان الشرق ولشعوبه من كل ألوان القهر والعبودية.. ثم تركهم المسلمون وما يدينون.. حتى أن نسبة المسلمين فى الدولة الإسلامية، بعد قرن من الفتوحات، لم تتعد ١٠٪ من السكان!^(٣).. وحتى لقد شهد البطرك المصرى «بنيامين» [٣٩هـ -

(١) ابن عبد الحكم: [فتوح مصر وأخبارها] ص ٤٦. طبعة ليدن سنة ١٩٢٠م.

(٢) الطبرى: [التاريخ] ج ٣ ص ٥٢٠ طبعة دار المعارف - القاهرة.

(٣) فيليب فارغ، يوسف كرباج: [المسيحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى] ص ٢٥ ترجمة: بشير السباعى طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤م.

الحرية روح الإسلام

٦٥٩م] - الذى حرره الفتح الإسلامى، وأعادته إلى كرسى كنيسته القبطية بعد نفى دام ثلاثة عشر عامًا - شهد بأن الفتح قد حقق الحرية والأمن والأمان للأقباط، فقال - فى خطابه بكنائس الإسكندرية - التى أعاده الفتح الإسلامى إليها: «لقد وجدت فى الإسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدهما، بعد الاضطهاد والمظالم التى قام بتمثيلها الظلمة المارقون الرومان»^(١)..

وشهد المؤرخ القبطى يعقوب نخلة روفيلة [١٨٤٧ - ١٩٠٥م]: «بأن الفتح الإسلامى قد حقق للأقباط نوعاً من الحرية والاستقلال المدنى، وراحة لم يروها من أزمان. وهى ميزة كانوا قد جردوا منها فى أيام الدولة الرومانية»^(٢).

وفى المشرق العربى، حقق الإسلام ذات التحرير.. فشهد البطرك السريانى «ميخائيل الأكبر» [١١٢٦ - ١١٩٩م] على ذلك وقال:

«لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا أبناء إسماعيل - [العرب المسلمون] - لينقذونا من أيدي الرومان، وتركنا العرب نمارس عقائد بحرية، وعشنا فى سلام»^(٣).

- ولقد صدّقت شهادات العلماء الغربيين على هذه الشهادات الشرقية - التى وصفت الفتح الإسلامى «بالتحرير.. الذى حقق النجاة والإنقاذ والطمأنينة والراحة والاستقلال المدنى» لنصارى الشرق.. فقال المؤرخ الإنجليزى الحجة سير توماس أرنولد [١٨٦٤ - ١٩٣٠م]: «إنه من الحق أن نقول: إن غير المسلمين قد نعموا بوجه الإجمال فى ظل الحكم الإسلامى، بدرجة من التسامح لا نجد لها معادلاً فى أوروبا قبل الأزمنة الحديثة»^(٤)..

(١) يوحنا النقيوسى - الأسقف -: [تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى] ص ٢٠١، ٢٢٠ ترجمة ودراسة وتعليق: د. عمر صابر عبد الجليل. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

(٢) يعقوب نخلة روفيلة: [تاريخ الأمة القبطية] ص ٥٧. تقديم: د. جودت جيرة. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

(٣) د. صبرى أبو الخير سليم: [تاريخ مصر فى العصر البيزنطى] ص ٢٦. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١م.

(٤) آرنولد: [الدعوة إلى الإسلام] ص ٤٦١. ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوى. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.

أما الفيلسوف الأمريكي «جون تايلور» [١٧٥٣ - ١٨٢٤م] فلقد أجاد في وصف المشهد الدينى الذى ظهر فيه الإسلام - وأبواب الحرية والأمل والرجاء التى فتحها الإسلام أمام الإنسانية - فقال: «لقد كان أئمة اللاهوت قد استبدلوا عقائد ميتافيزيقية عويصة بحقيقة الدين.. وكان الناس فى الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة، كما كانت الطبقات العليا مخنثة يشيع فيها الفساد، والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب، ولم يكن للعبيد أمل فى حاضرهم ولا مستقبلهم، فأزال الإسلام، بعون من الله، هذا الفساد وهذه الخرافات.. لقد كان ثورة على المجادلة الجوفاء فى العقيدة، وحجة قوية على وحدانية الله وعظمته، كما بين أن الله رحيم عادل.. وأن المرء مسئول، وأن هناك حياة أخرى ويومًا للحساب، وأعد للأشرار عقابًا أليمًا، وفرض الصلاة والزكاة والصوم وفعل الخير، وأحل الشجاعة محل الرهبة، ومنح العبيد رجاء، والإنسانية إخاء، ووهب الناس إدركًا للحقائق الأساسية التى تقوم عليها الطبيعة البشرية»^(١).

- هكذا شهد شهود من أهلها - شريقون وغربيون - لاهوتيون ومدنيون - على أن الإسلام قد جاء ففتح أبواب الحرية والتحرير أمام الإنسان - مطلق الإنسان - ليعود إلى الفطرة التى فطر الله الناس عليها، ولتحرر طاقاته فيعبد الله بعمران هذا الوجود.

- وإذا كان جمهور علماء المسلمين قد وقفوا بمقاصد الشريعة عند: حفظ الدين.. والنفس.. والعقل.. والعرض.. والمال.. وإذا كان الحديث النبوى الشريف قد قرر الشهادة لمن يجاهد للحفاظ على هذه المقاصد، فقال: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد» - رواه الترمذى.. فإن الحرية هى الشرط الأول للحفاظ على هذه المقاصد جميعًا.. فالحرية هى الحياة.. وبدون الحياة الحرة لا سبيل للحفاظ على أى من هذه المقاصد التى جاءت بها ولها شريعة الإسلام.

* * *

بهذه السطور نقدم بين يدي عمل علمى رصين، كتبه باحث عن الحقيقة، ومجاهد

(١) المصدر السابق. ص ٨٩ - ٩٢.

الحرية روح الإسلام

فى سبيل إشاعتها بين الناس - الأستاذ الدكتور فتحى أبو الورد - عن [مقصد الحرية وتطبيقاته فى الفقه السياسى الإسلامى].. وهو عمل يأتى فى وقته، حيث جماهير الأمة تنتفض وتثور طلباً للحرية.. وحيث الدول الإسلامية.. والنخب السياسية التى تتطلع لاستكمال إسلامية المجتمعات الإسلامية فى أمس الحاجة إلى المباحث العلمية الجادة والرصينة فى [الفقه السياسى الإسلامى]..

والله نسأل أن ينفع بهذا العمل العلمى الممتاز.. إنه - سبحانه وتعالى - خير مسئول وأكرم مجيب.

ثقافة الاستشهاد

«الشهيد».. اسم من أسماء الله الحسنی؛ لأنه - سبحانه وتعالى - عالم الغيب والشهادة.. والغيب: هو ما بطن وخفى.. أما الشهادة: فهي ما ظهر.. فهو - سبحانه - الشاهد المشاهد.. والذي يشهد على خلقه يوم القيامة بما علم وشاهد منهم^(١).

ولقد سمي المؤمن، الذي يقدم روحه فداء لله ودينه.. وأمة رسوله ﷺ.. ودار الإسلام، شهيداً؛ لأنه يشهد ويشاهد مكانته في الجنة في ذات اللحظة التي تنشق من جسده أول قطرة من الدماء!.. وفي الحديث النبوي الشريف، قال رسول الله ﷺ: «للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويُجَار من عذاب القبر، ويأمن من الفرع الأكبر، ويحلّى حُلّة الإيمان، ويُزَوَّج من الحور العين، ويُشَفَّع في سبعين إنساناً من أقاربه» رواه ابن ماجه.

ولهذه الحقيقة، قرر القرآن الكريم أن الشهداء ليسوا أمواتاً، وإنما هم أحياء عند بهم يرزقون، فرحون بهذه الحياة الخالدة التي صاروا إليها - بعد الحياة الفانية؛ لأن شهودهم وشهادتهم ومشاهدتهم لمكانتهم في الجنة، لحظة انبثاق أول قطرة دم من أجسادهم، معناه أن حياتهم الخالدة قد بدأت في ذات اللحظة التي بدأوا فيها المغادرة لحياتهم الفانية والتحول عنها.. فحياتهم موصولة، ليس فيها أى انقطاع:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [١٦٩] فَرَحِينَ

(١) أبو حامد الغزالي (المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنی) ص ٨١، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة - بدون تاريخ.

يَمَّا ءَاتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

لقد تفردوا بمشاهدة مكائنتهم فى الجنة - دار الخلد - قبل مغادرتهم دار الفناء.. ومن ثم تفردوا بتجاوز الموت، عندما أفضت حياتهم الدنيا - الفانية - إلى حياتهم الأخرى - الباقية - فى جنات النعيم.

- ولأن الإسلام يريد الإنسان ربانياً، يتسامى على الجانب الطينى فى خلقه وخلقه، ليصعد وينطلق من الجانب الروحى الذى نفخه الله فيه من روحه - سبحانه وتعالى - فلقد دعا الإسلام هذا الإنسان إلى الارتفاع والارتقاء بحياته وخلقه وسلوكه من درك الحيوانية إلى آفاق التخلق - النسبى والممكن - بأخلاق الله وصفاته - المطلقة - ومنها صفة الشهيد..

فالتخلق بأخلاق الله، بمعنى السعى على درب اكتساب الممكن من صفاته - سبحانه - هو سبيل التسامى بالإنسان.

وفى هذا المعنى يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالى [٤٥٠ - ٥٠٥هـ / ١٠٥٨ - ١١١١م]:

«إن كمال العبد وسعادته «هى» فى التخلق بأخلاق الله تعالى والتحلّى بمعانى صفاته وأسمائه بقدر ما يتصور فى حقه.. ومن لم يكن له حظ من معانى أسماء الله تعالى إلا بأن يسمع لفظه، ويفهم فى اللغة تفسيره ووضع، ويعتقد بالقلب وجود معناه فى الله تعالى، فهو مبخوس الحظ، نازل الدرجة، ليس يحسن به أن ينتجج بما ناله، فإن سماع اللفظ لا يستدعى إلا سلامة حاسة السمع التى يدرك بها الأصوات، وهذه رتبة يشارك البهيمة فيها، وأما فهم وضعه فى اللغة؛ فلا يستدعى إلا معرفته العربية، وهذه رتبة يشارك فيها الأديب اللغوى، بل الغبى البدوى، وأما اعتقاد ثبوت معناه لله تعالى من غير كشف، فلا يستدعى إلا فهم معانى هذه الألفاظ والتصديق بها، وهذه رتبة يشارك فيها العامى بل الصبى، فإنه بعد فهم الكلام إذا ألقى إليه هذه المعانى تلقاها وتلقفها واعتقدتها بقلبه وصمم عليها.. ومن حظوظ المقربين من معانى أسماء

الله الحسنى.. استعظامهم ما ينكشف لهم من صفات الجلال على وجه ينبعث من الاستعظام يشوقهم إلى الاتصاف بما يمكنهم من تلك الصفات ليقربوا بها من الحق قريباً بالصفة لا بالمكان، فيأخذوا من الاتصاف بها شبهاً من الملائكة المقربين عند الله تعالى. ولن يتصور أن يمتلئ القلب باستعظام صفة واستشرافها إلا ويتبعه شوق إلى تلك الصفة وعشق لذلك الجلال والجمال، وحرص على التحلى بذلك الوصف إن كان ذلك ممكناً للمستعظم بكماله، فإن لم يكن بكماله فيبعث الشوق إلى القدر الممكن منه لا محالة.. فبالسعى في اكتساب الممكن من تلك الصفات، والتخلق بها، والتحلّى بمحاسنها يصير العبد ربانياً، أى قريباً من الرب تعالى^(١).

تلك هى ثقافة المسلم، وتلك هى آفاق المثل الإسلامية، حيال التخلق بمعانى صفات الله وأسمائه الحسنى.. ومنها صفة الشهيد.. فحتى يكون المسلم شاهداً على الناس.. ومشاهداً لمقعده من الجنة، لا بد أن يسعى لبذل جهده ووسعه.. بما فى ذلك الروح والدم - ليكون من الشهداء الأحياء الفرحين عند ربهم فى جنات الخلود.

- ولأن الإسلام: دين ودنيا.. ودنيا وآخره.. وفرد وجماعة وأمة.. ودين ودولة ونظام واجتماع.. ولأن مقاصد الشريعة الإسلامية لم تقف فقط عند حفظ الدين.. وإنما أضافت إليه حفظ النفس.. والعقل.. والعرض.. والمال.. فلقد فتح الإسلام أمام المسلم أبواباً كثيرة وواسعة للشهادة والاستشهاد.. فكل ميادين الحفاظ على الدين.. والنفس.. والعقل.. والعرض.. والمال.. هى ميادين للشهادة.. والمقبلون على بذل النفوس والأرواح فيها هم الشهداء الأحياء عند الله، الفرحون بما أعد لهم مولاهم فى دار الخلود وجنات النعيم..

ولقد جاء فى الحديث النبوى الشريف: «من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتل دون دينه فهو شهيد، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد» - رواه الترمذى..

وأول الناس دخولاً فى الجنة هم: «الفقراء المهاجرون الذين تُسد بهم الثغور ويتقى بهم المكاره» - رواه الإمام أحمد.

(١) المصدر السابق، ص ٢٠، ٢١.

فالتضحية بالنفس فى جميع ميادين الحفاظ على مقاصد الشريعة - الدينية والدينية - هى أبواب للشهادة والاستشهاد، تفضى إلى الحياة الحقة الخالدة للشهداء فى جنات النعيم.

بل إن هذه الميادين - ميادين الشهادة والاستشهاد - التى يحافظ بها المسلم على مقاصد الشريعة الإسلامية، إنما تتسع وترحب بتعدد وتنوع لوازمها وضرورتها.

فالحفاظ على الدين لا يقف عند التمكن من الاعتقاد.. والعبادات.. وإنما يمتد ليكون النظام الحاكم والمحقق لسعادة الدنيا والآخرة.

والحفاظ على النفس لا يقف عند صيانة حياة الأفراد، وإنما يمتد ليشمل كل ما يحقق فاعلية الأنفس والأمم والشعوب وعزتها وكرامتها وحرياتها.

والحفاظ على العقل لا يقف عند صيانتها من السكر والجنون، وإنما يمتد ليشمل كل الميادين والعلوم والفنون والآداب التى تصون العقل والقلب عن التدنى والانحطاط.

والحفاظ على العرض لا يقف عند الحريم الفردى، وإنما يمتد إلى صيانة جميع الأغراض من كل ما ينتهك حرمتها.. بل وحياءها.. مسلمة كانت تلك الأغراض أم على غير الإسلام من المعتقدات..

والحفاظ على المال لا يقف عند صيانة ما فى الحوزة من الأموال والثروات، وإنما يمتد إلى سائر الميادين التى يتحقق بها العدل الاجتماعى بين الناس.. كل الناس.. وفى ذلك يقول العلامة ابن حزم الأندلسى [٣٨٤-٤٥٦هـ / ٩٩٤-١٠٦٤م]:

«.. وفرض على الأغنياء، من أهل كل بلد، أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك، إن لم تقم الزكوات بهم، ولا فى أموال المسلمين بهم، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لا بد منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك، وبمسكن يكتفون من المطر والصيف والشمس وعيون المارة.. ولا يحل لمسلم اضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاماً فيه فضل «زيادة» عن صاحبه لمسلم أو ذمى.. وله أن يقاتل عن ذلك، فإن قُتل فعلى قاتله القود - الدية - وإن قُتل المانع فإلى لعنة الله؛ لأنه مانع حقاً، وهو طائفة باغية. قال تعالى:

ثقافة الاستهاد

﴿وَأِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَاقْتُلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

ومانع الحق باغ على أخيه الذى له الحق. وبهذا قاتل أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، مانع الزكاة^(١).

فلاستشهاد فى ميادين تحقيق العدل الاجتماعى داخل فى ميدان صيانة النفس، كمقصد من مقاصد شريعة الإسلام.

بل إن تكامل هذه الميادين - على اتساعها - ليلبغ الحد الذى جعل فيه الإسلام صيانة النفس بتحقيق ضروريات حياتها - الشرط لإقامة الدين - وهو المقصد الأول لشريعة الإسلام!..

وفى ذلك يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالى: «إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا.. فنظام الدين؛ بالمعرفة والعبادة، لا يتوصل إليهما إلا:

- بصحة البدن.

- وبقاء الحياة.

- وسلامة قدر الحاجات، من:

(أ) الكسوة.

(ب) والمسكن.

(ج) والأقوات.

(د) والأمن.

ولعمري! إن من أصبح آمناً فى سربه، معافى فى بدنه، وله قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذاقيرها، ولا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات

(١) ابن حزم الأندلسى (كتاب المحلى) ج٦، ص ١٥٩، طبع القاهرة - المنيرية.

الضرورية، وإلا، فمن كان جميع أوقاته مستغرقاً بحراسة نفسه من سيوف الظلمة، وطلب قوته من وجوه الغلبة، متى يتفرغ للعلم والعمل، وهما وسيلتاها إلى سعادة الآخرة؟!.. فإذن، بان أن نظام الدنيا، أعنى مقادير الحاجة، شرط لنظام الدين..»^(١).

فكل ميادين الصلاح الديوى هى ميادين لصلاح الدين، وجميعها مقاصد للشرعية الإسلامية، والجهاد فيها أبوابه مشروعة للشهادة والاستشهاد.

- ولهذه الحقيقة، ربط القرآن الكريم القتال المشروع، الذى هو ميدان للشهادة والاستشهاد، بالحفاظ على حرية الدين والتدين، كى لا يفتن المؤمن فى دينه:

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كَلَهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وبالحفاظ على حرية الوطن، الذى هو الوعاء الضرورى لإقامة الدين، والشرط اللازم لكماله واكتماله.. والذى بدون حريته لا يتم الحفاظ على مقاصد الشريعة الأخرى، النفس، والعقل، والعرض، والمال.. ولذلك، بدأ «الإذن» فى القتال - زمن البعثة النبوية - للحفاظ على حرية الدين.. وحرية الوطن، منعاً للفتنة فى الدين.. ولإخراج من الديار:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾^(٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْأَنْفُسُ فَاسَادَ لَكُمْ وَلَئِنْ لَمْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَانْقَلَبُوا خَسِرَانِ ۚ وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

وكان «الأمر» بالقتال خاصاً بذلك أيضاً:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(١٩٠) وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ^(١٩١) فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٠، ١٩٢].

(١) الغزالي (الاقتصاد فى الاعتقاد) ص ١٣٥، طبعة القاهرة، مكتبة صبيح، بدون تاريخ.

وكذلك كان «فرض القتال وإيجابه» مقصوراً على هذه الأغراض، حماية الدين من الفتنة، وحماية الوطن من العدوان:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَالُونَ لَكُمْ حَتَّى يَرْضَوْكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْطَلَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ دِمْنَكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿[البقرة: ٢١٦، ٢١٧].

فالإخراج من الديار، والفتنة في الدين هما سبب الأمر بالقتال والإيجاب لهذا القتال، وكذلك كانت معايير الموالاة والمعاداة مع الآخرين - كل الآخرين:

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَلَمُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿[الممتحنة: ٨، ٩].

هكذا وقفت مقاصد القتال عند حماية حرية الدين والتدين، وحرية الوطن الذي هو الوعاء الضروري لإقامة كامل الدين.. واتسعت ميادين الشهادة والاستشهاد لتشمل كل ميادين الجهاد، الذي هو بذل الوسع واستفراغ الجهد في كل ميادين الصلاح والإصلاح.

- ولهذه الحقيقة - حقيقة أن حرية الوطن هي الشرط لحرية الدين والتدين - كانت صيانة الحرية لدار الإسلام باباً عظيماً وواسعاً من أبواب الشهادة والاستشهاد.

- إن كثيرين - من الجاهلين أو الغافلين - يقفون اليوم عاجزين عن استيعاب مكانة ثقافة الشهادة والاستشهاد في النسق الفكري الإسلامي، تلك التي جعلت وتجعل ﴿نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ يذيقون الفرعونية الجديدة كؤوس المنية في ساحات الجهاد الإسلامي على امتداد ديار الإسلام، التي عدت عليها عاديّات آلات الحرب الصليبية الصهيونية.. إنهم عاجزون عن فهم قول الشهيد - سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل : ٦].

وعاجزون عن فهم مكانة الوطن في ثقافة الشهادة والاستشهاد الإسلامية، فالوطن عندهم «تراب» بينما هو في الإسلام الوعاء الضروري لإقامة الدين وكل مقاصد شريعة الإسلام.

لقد جعل الإسلام حرية الوطن مرادفه ومساوية للحياة:

﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنِييَةً﴾ [النساء: ٦٦].

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَقْتُلُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

فالإخراج من الديار، كالإخراج من الحياة.. إعدام!.. تقابله الحياة المتمثلة في حرية المواطن، التي لا تتحقق إلا في وطن حر!

وإذا كان الإخراج القسري من الديار إعدام.. فإن التفریط في حرية الوطن هو موت لهؤلاء المفرطين، حتى ولو ظل الجانب الحيواني منهم «حيًا»، يأكلون به ويشربون!.. ذلك أن ذهاب منعتهم، وذوبان ذاتيتهم وهويتهم في الغزاة هو موت حكمي، لا يعوضه بقاء الجانب الحيواني لهؤلاء الذين فرطوا في حرية الأوطان.

ولقد أبدع الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥م]، في تقرير هذه الحقيقة - التي رفعت حرية الوطن إلى مرتبة الحياة.. وجعلت الخروج منه، بالتفریط في حريته موتًا وموأتًا - فقال - في تفسيره قول الله - سبحانه وتعالى - في سورة البقرة:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٣، ٢٤٤].

فقال الأستاذ الإمام: «تلك سنة الله - تعالى - في الأمم التي تجبن فلا تدفع العادين عليها، وحياة الأمم وموتها، في عرف الناس جميعهم معروف، فمعنى موت أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم، وأزال استقلال أمتهم، حتى صارت لا تعد أمة، بأن تفرق شملها وذهبت جامعته، فكل من بقوا من أفرادها خاضعون للغالبين، ضائعون فيهم، مدغمين في غمارهم، لا وجود لهم في أنفسهم، وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم، ومعنى حياتهم: هو عودة الاستقلال إليهم.

إن الجبن عند مدافعة الأعداء، وتسليم الديار، بالهزيمة والفرار، هو الموت المحفوف بالخزي والعار، وإن الحياة العزيزة الطيبة هي الحياة المليئة المحفوظة من عدوان المعتدين.

والقتال في سبيل الله، أعم من القتال لأجل الدين؛ لأنه يشمل أيضاً الدفاع عن الحوزة إذا هم الطامع المهاجم باغتصاب بلادنا والتمتع بخيرات أرضنا، أو أراد العدو الباغى إذلالنا، والعدوان على استقلالنا، ولو لم يكن ذلك لأجل فتننا في ديننا.. فالقتال لحماية الحقيقة كالقتال لحماية الحق، كله جهاد في سبيل الله.. ولقد اتفق الفقهاء على أن العدو إذا دخل دار الإسلام يكون قتاله فرض عين على كل المسلمين..»^(١).

فالحفاظ على حرية الوطن هو حفاظ على الوعاء الذي بدونه لا يمكن أن نقيم كامل دين الإسلام.. فانتهاك حوزة الوطن هو المعادل للفتنة في الدين، كلاهما يوجب الجهاد القتالي لتحرير الضمير وتحرير الديار.

ولأن الإسلام هو الإحياء للقلوب.. وللأوطان:

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج ٤، ص ٦٩٥، ٦٩٧، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة بيروت ١٩٧٢م.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ
اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ۚ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

كانت ثقافة المقاومة.. والشهادة والاستشهاد هي السبيل إلى حياة الفرد والأمة
والحضارة.. وبهذه الحقيقة التي تجسدت منذ صدر الإسلام ديناً وأمة ووطناً، حقق
المسلمون - وسيظلون - العزة الإسلامية، التي شاء الله - سبحانه وتعالى - أن تكون
من عزته.. ومن عزة رسول ﷺ:

﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

وإذا كانت آلة الحرب الباغية والمدمرة الفرعونية الصليبية تحاول وأد اليقظة
الإسلامية المعاصرة واغتيال حرية دار الإسلام؛ فإن ثقافة الشهادة والاستشهاد، ثقافة:
﴿إِن نَّأَشِئْنَا لَلَيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْكَ وَأَفْوَمُ قَيْلاً﴾ [المزمل: ٦].

هي التي تحقق الآن واحدة من أعظم معجزات الإسلام، على امتداد أرض
المواجهة بين أمة الإسلام وبين فراغة القرن الواحد والعشرين:

﴿كُنِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤].

الأعمال الكاملة للشيخ عبد الجليل عيسى

فى النصف الثانى من عقد الستينيات - بالقرن الماضى وإبان تبلور المشروع الفكرى الذى وهبته حياتى لاحظت بروز الاستقطاب الحاد فى ساحة الفكر ببلادنا بين الجمود والتقليد لتراث عصر تراجعنا الحضارى، والجمود والتقليد للوافت الغربى الذى تمدد فى الفراغ الذى خلفه الجمود والتقليد لتراثنا.. أى أن السيادة إنما كانت للغلو الدينى والغلو اللادينى.. وغاب عن ساحة الفكر - إلى حد كبير - تيار الوسطية والاستنارة والإحياء والتجديد..

وعلى سبيل المثال:

- فالشيخ رفاعه رافع الطهطاوى [١٢١٦ - ١٢٩٠هـ / ١٨٠١ - ١٨٧٣م] لم تكن له بمكتباتنا آثار فكرية تذكر.. حتى لقد تم للمتغربين تزيف فكره، وتصويره بصورة المنبهر بالحضارة الغربية، الراقص على أنغامها!.

- وإمام مدرسة الإحياء والتجديد الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] لم يكن له بين القراء سوى تفسيره لسورة الفاتحة وجزء عم، وكتاب [الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية] - الذى غير العلمانيون عنوانه، وشوهوا محتواه - بالحذف والإضافات! - الأمر الذى أتاح للمتغربين تصويره بصورة العلمانى، المتغرب، الذى ينتصر للعقل المجرد على حساب الشرع والنقل!..

- وموقف الشرق وفيلسوف الإسلام جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ / ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] لم يكن له بيد القراء سوى [رسالة الرد على الدهريين].. حتى لقد شاع عنه - فى الدوائر المتغربة - أنه كان صانع رجال ومفجر ثورات.. لم يخلف أعمالاً فكرية ذات بال!.

وهكذا كان غياب الجمع والتحقيق والدراسة للأعمال الكاملة لهؤلاء الأعلام - وأمثالهم - سبباً في غيبة تيار الوسطية والاستنارة والإحياء والتجديد عن حياتنا الفكرية.. بل وشيوع الافتراءات والمطاعن لأعلام هذا التيار، وذلك لحساب تيارى الغلو الدينى واللادينى..

وبعد الجهد الذى أعاننى الله عليه، فى الجمع والتحقيق والدراسة لأعمال هؤلاء الأعلام - ونظرائهم - أصبح للطهطاوى بالمكتبة - خمسة مجلدات.. وبرزت - للمرة الأولى - حقائق مواقف الإسلامى الناقدة للفلسفة الوضعية الغربية.. وللعلمنة.. واللاأدرية.. والمدافعة عن فلسفة الإسلام فى العلاقة العضوية بين العقل والشرع.. وأصبح للإمام محمد عبده - بالمكتبة - خمسة مجلدات.. وبرزت وسطيته الإسلامى، واجتهاداته وتجديداته فى نظرية المعرفة الإسلامى، وفى نقد مادىة الحضارة الغربية، ونقد الجمود والتقليد لتراثنا.. وانحيازه لإسلامىة الدولة ومدنيتها.. وفتوحاته الرائدة فى تفسير القرآن الكريم..

وأصبح للأفغانى - بالمكتبة - أربعة مجلدات.. أبرزت نقده للباطنية وللمادىة جميعاً.. وحديثه عن أن سبيل الإصلاح فى الأمة قد كان ولا يزال هو سبيل الإسلام - ولا سبيل سواه.. كما قدمت هذه الأعمال الحقائق التى ردت عن الأفغانى ركام الشبهات التى افتراها عليه خصوم اليقظة الإسلامىة الحديثة..

- أما المجاهد الشهيد عبد الرحمن الكواكبى [١٢٧٠- ١٣٢٠هـ / ١٨٥٤ - ١٩٠٢م] فلقد أبرزت أعماله الكاملة اقتران العروبة بالإسلام.. وتزكية الإصلاح بالإسلام.. وذلك فضلاً عن أبراز رائعته المتفردة التى لم يكتب مثلها فى تحليل آفة الآفات [طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد]..

- وكذلك كان الحال مع قاسم أمين [١٢٨٠ - ١٣٢٦هـ / ١٨٦٣- ١٩٠٨م] الذى أبرزت أعماله الكاملة رؤيته الاجتماعىة للتاريخ.. كما ميزت بين منهاجه فى [تحرير المرأة] وموقفه فى [المرأة الجديدة].. الأمر الذى أسهم فى تصحيح صورته عند الإسلاميين والعلمانيين إلى حد كبير..

ولأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.. فلقد غدت سلسلة الأعمال الكاملة - التي أعان الله على جمعها وتحقيقها ودراستها - مصادر في أبحاث الدراسات العليا.. ومنارات سلطت الأضواء على تيار الوسطية والاستنارة والإحياء والتجديد في عصرنا الحديث.. الأمر الذي فتح أمام العقل المسلم المعاصر طريقاً متميزاً غير طريقي الغلو الديني واللا ديني..

- واليوم.. وبعد نصف قرن من بداية الإنجاز لهذا المشروع، تبدو الساحة الفكرية - ببلادنا - أشد ما تكون حاجة إلى مواصلة هذا العمل، وذلك بسبب النوازل التي حدثت ولم تكن قائمة في عقد الستينيات..

ذلك أن الآثار الكارثية لتجريف العقل والفكر والثقافة الذي أصاب حياتنا العلمية والفكرية في العقود المنصرمة، قد جعل شباب الباحثين وجمهور القراء - في واقعنا الفكرى المعيش - يتامى ليس لهم كافلون!.. وتلاميذ بلا أساتذة!.. وضحايا تتخطفهم تيارات الغلو الديني واللا ديني - التي ازدادت، هي الأخرى، هشاشة وضحالة، جعلتها أقرب إلى سطحية «الإعلام» منها إلى رصانة «العلماء»!..

لذلك وأمام هذه النوازل التي استجدت، برزت وتبرز الحاجة الماسة والضرورة الملحة لمواصلة الجمع والتحقيق والدراسة للأعمال الكاملة لكوكبة العلماء الأعلام الذين نجت عقولهم من التجريف الذي أصاب حياتنا الفكرية في العقود الأخيرة.. وذلك لتكون أعمال هؤلاء العلماء الأعلام «الجامعة الفكرية» التي يطلب شبابنا العلم في رحابها.. و«المنارات» التي تضيء لهؤلاء الشباب طرق النجاة من العناء الذي يفرض الإعلام زبده على عقول الجماهير..

لذلك كانت سعادتي غامرة بهذا العمل العلمى الذى أقدم له - [الأعمال الفكرية للشيخ عبد الجليل عيسى] - الذى مثل - ولا يزال - منارة من منارات الإحياء والتجديد فى فكرنا المعاصر.. والذى مثل - ولا يزال - أحد أبرز المعلمين العظام الذين رابطوا على ثغور الأصالة للمنابع الجوهرية والنقية - القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة.. وعلى فقه الواقع المعيش.. وعلى جبهة الإصلاح.. مع الاستشراف لمستقبل هذه الأمة.. أمة التوحيد الخالص.. ودين المستقبل، الذى لا مستقبل لسواه!

إن هذا العمل الفكرى الكبير - الذى أسعد بتقديمه - قد نهض به باحثان لهما قدم راسخة فى ميدان البحث العلمى والتحقيق للنصوص.. هما: الشيخ الدكتور على عبد العظيم.. والشيخ صلاح عبد الفتاح..

وإن سعادتى بتقديم جهدهما هذا، ستتضاعف إن شاء الله - عندما يواصلان العمل فى هذا الميدان.. ميدان الجمع والتحقيق والدراسة لأعلام العلماء الذين مثلوا منارات فكرية بارزة فى عصرنا الحديث.. وستضاعف هذه السعادة أكثر وأكثر عندما ننجح فى تكوين «كتيبة» من الباحثين المحققين لترابط على ثغور العمل فى هذا الميدان الكبير والخطير..

إن قراءة الأعمال الفكرية لعلمائنا السابقين إنما تضيف أعمار هؤلاء العلماء لأعمار القارئ لهذه الأعمال!.. وفى هذا حظ عظيم لرواد هذا الميدان..

وسيجد القراء والباحثون فى هذه الأعمال - التى نقدم لها :-

١ - تفسيرًا للقرآن الكريم، برئ من آفة الإسرائيليات - التى شابت الكثير من التفاسير... وتميز برؤية قرآنية تحلى بها الشيخ عبد الجليل عيسى - وهو أحد علماء مدرسة الإحياء والتجديد - مدرسة الإمام محمد عبده.. الذى وصف العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمى [١٣٠٦ - ١٣٨٥ هـ / ١٨٨٩ - ١٩٦٥ م] منهاجه فى التفسير بأنه «المنهاج المعجزة فى تفسير معجزات القرآن الكريم»^(١).

٢ - [صفوة صحيح البخارى] - الذى اختار الشيخ عبد الجليل أحاديثه - واختيار المرء قطعة من عقله - والذى شرحه شرحًا منيرًا، فجاء زائدًا من السنة النبوية فيه غناء لجمهور المثقفين والقراء - حبذا لو لم يخل منه بيت من البيوت ولا مكتبة من المكتبات..

٣ - و[اجتهاد الرسول - ﷺ] الذى ميز بين أنواع العلم النبوى.. بين السنة التشريعية والسنة غير التشريعية.. وهو فن خلت منه - مع الأسف الشديد - كل مناهج دراسات السنة النبوية فى كلياتنا الشرعية!.. رغم ماله فى تراثنا من أئمة أعلام - منهم القرافى

(١) [آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمى] ج٢ ص ٢٥٢ - جمع والقديم: د. أحمد طالب الإبراهيمى. طبعة بيروت سنة ١٩٩٧ م.

الأعمال الكاملة للشيخ عبد الجليل عيسى

- أحمد بن إدريس - [٦٨٤هـ - ١٢٨٥م] وولى الله الدهوى [١١١٠ - ١١٧٦هـ/ ١٦٩٩ - ١٧٦٢م] وعبد العزيز جاويش [١٢٩٣ - ١٣٤٧هـ/ ١٨٧٦ - ١٩٢٩م] ومحمد الخضر حسين [١٢٩٣ - ١٣٧٧هـ/ ١٨٧٦ - ١٩٥٨م] ومحمود شلتوت [١٣١٠ - ١٣٨٣هـ/ ١٨٩٣ - ١٩٦٣م] والطاهرين عاشور [١٢٩٦ - ١٣٩٣هـ/ ١٨٧٩ - ١٩٧٣م] وعلى الخفيف [١٣٠٩ - ١٣٩٨هـ/ ١٨٩١ - ١٩٧٨م]..

مع تميز كتاب الشيخ عبد الجليل وامتيازه بين ما كتبه جميع هؤلاء الأئمة الأعلام..

٤ - و[ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين] وهو كتاب نفيس فى نقد ما يجب نقده من فقهاء الموروث.. سلك فيه صاحبه منهج الاختيار والترجيح على النحو الذى جعله عملاً متميزاً فى ميدان تجديد الفقه الموروث.

٥ - والمقالات التى نشرها عالمنا الجليل.. والتى جمعها وصنفها الباحثان المحققان فجاءت ديواناً لفقهاء المعاصر وواقعنا المعيش..

وفوق هذا كله، سيجد الباحثون والقراء - فى هذه الأعمال الكاملة - الدراسة العلمية الرصينة والشاملة التى قدم بها الباحثان المحققان لهذه الأعمال، وهى دراسة ترجمت للمؤلف.. وعرّفت بعصره وبأعماله الفكرية.. فجاءت تمهيداً يعين القراء على السباحة فى هذا المحيط العلمى الذى خلّفه لنا هذا العالم الرائد - عليه رحمة الله -..

إن نشر هذه الأعمال العلمية الكاملة إنما يسهم فى إعادة الاعتبار لمعنى العلم والعلماء.. ولمعنى الفقه والفقهاء.. ولمعنى الفكر والمفكرين.. الأمر الذى يميز - فى حياتنا الفكرية - بين الغث والسمين.. والذى يكشف زيف الزبد الذى يفرضه الإعلام الجاهل على ساحات العلم والعلماء.. وصدق الله العظيم: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧]..

حقق الله الآمال.. ونفع بهذا العمل العلمى المتميز.. ورحم الله شيخنا العالم الجليل الشيخ عبد الجليل عيسى.. وأنعم عليه فى أخراه جزاء ما قدم فى دنياه.. ووفق الله الباحثين المحققين لمزيد من العطاء.. إنه - سبحانه - خير مسئول وأكرم مجيب.

ندوة «التبيان» فقه الواقع الإسلامى

عند الأستاذ الدكتور الشيخ محمد المختار المهدي

مع ولاية الأستاذ الدكتور الشيخ محمد المختار المهدي [١٣٥٨ - ١٤٣٧هـ/ ١٩٣٩ - ٢٠١٦م] إمامة الجمعية الشرعية، صدرت مجلة [التبيان]، فكانت فتحاً جديداً ومبيناً فى تاريخ هذه الجمعية العريقة، إذ نقلت فكرها وإنجازاتها إلى جمهور عريض، وجعلت هذا الجمهور العريض يتفاعل مع فكر الجمعية وإنجازاتها..

وبإقامة مجلة [التبيان] ندوتها الشهرية - على امتداد ثماني سنوات - نشرت فيها وقائع أربع وستين ندوة - أصبحت [التبيان] ديواناً للفكر الإسلامى، الذى يجتهد فيه كبار العلماء والمفكرين والخبراء كى يشخصوا أمراض الأمة ومشكلاتها، مقترحين الحلول النابعة من دينها، والمستظلة برايات هذا الدين.

وكانت الندوة الأولى - فى جمادى الأولى سنة ١٤٢٧هـ/ يونية سنة ٢٠٠٠م - عن [حرية الاعتقاد بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية] - والتى أسهم فيها العلماء:

أ. د. محمد المختار المهدي.

٢ - أ. د. محمد عمارة.

٣ - أ. د. محمد المسير.

٤ - أ. د. محمد نبيل غنايم.

أما الندوة الرابعة والستون - التى نشرتها [التبيان] فى عدد شعبان سنة ١٤٣٤هـ/ يونية سنة ٢٠١٣م - فلقد كانت عن [فقه الأولويات ودوره فى حل مشكلاتنا المعاصرة] - ولقد أسهم فيها العلماء:

أ. د. محمد المختار المهدي.

٢- أ. د. محمد عبد الرحمن عبد المنعم.

٣- أ. د. مجدى عبد الغفار.

ولقد قدمت هذه الندوات لقراء [التبيان] عصارات أفكار قرابة الستين عالمًا ومفكرًا وخبيرًا من أعلام الفكر الإسلامى المعاصر.. هم - مع حفظ الألقاب -:

١ - محمد المختار المهدي.

٢ - محمد عمارة.

٣ - محمد المسير.

٤ - عبد الحليم عويس.

٥ - حسن الشافعى.

٦ - محمد السيد الجليند.

٧ - عبد الله سمك.

٨ - مصطفى عبد الواحد.

٩ - محمد عبد رب النبى.

١٠ - محمد عبد الرحمن عبد المنعم.

١١ - مجدى عبد الغفار.

١٢ - طلعت عفيفى.

١٣ - عبده مقلد.

١٤ - جعفر عبد السلام.

١٥ - محمد مختار جمعة.

١٦ - محمد عبد الفتاح المهدي.

- ١٧ - عبده مصطفى.
- ١٨ - أحمد عمر هاشم.
- ١٩ - إسماعيل الدفتار.
- ٢٠ - محمد عبد الحليم عمر.
- ٢١ - ضياء رشوان.
- ٢٢ - محمد كمال إمام.
- ٢٣ - مصطفى إسماعيل.
- ٢٤ - زغلول النجار.
- ٢٥ - محمد نجيب عوضين.
- ٢٦ - محمد نور الدين.
- ٢٧ - على نبيه البحراوى.
- ٢٨ - اللواء محمد طلبية.
- ٢٩ - نصر فريد واصل.
- ٣٠ - على خليفة.
- ٣١ - الأحمدي أبو النور.
- ٣٢ - حسين أحمد حسين.
- ٣٣ - عبد الفتاح إدريس.
- ٣٤ - شوقي عبد اللطيف.
- ٣٥ - أحمد يوسف سليمان.
- ٣٦ - حسين شحاتة.
- ٣٧ - جمال عبد السلام.

- ٣٨ - سالم عبد الجليل .
 - ٣٩ - محمود يوسف .
 - ٤٠ - رضا الطيب .
 - ٤١ - كاميليا حلمى .
 - ٤٢ - معبد على الجارحى .
 - ٤٣ - محمد صبيح .
 - ٤٤ - راغب السرجانى .
 - ٤٥ - محمد رأفت عثمان .
 - ٤٦ - حامد أبو طالب .
 - ٤٧ - صلاح سلطان .
 - ٤٨ - صلاح عبد المقصود .
 - ٤٩ - خالد الترعانى .
 - ٥٠ - يوسف القرضاوى .
 - ٥١ - عبد الله الحسينى .
 - ٥٢ - محمد حلمى عيسى .
 - ٥٣ - عطية عبد الموجود .
 - ٥٤ - فؤاد النادى .
 - ٥٥ - أحمد ربيع .
 - ٥٦ - باسم خفاجى .
 - ٥٧ - عكرمة صبرى .
- ولقد مثلت هذه الندوات «جدول أعمال» لمشكلات الأمة الإسلامية - فى ميادينها المختلفة - الدينية.. والاجتماعية.. والفكرية.. والثقافية.. والاقتصادية..

ندوة «التبيان»

والوطنية..والقومية.. والعالمية.. قضايا المرجعية.. وفقه الواقع.. واستشراف المستقبل - فكانت «مجمعاً علمياً» نحاور فيه رموز العلم والفكر فى واقعنا الإسلامى المعاصر..

- وللبرهنة على خطر هذه الندوات، يكفى أن نعلم أنه قد كان من موضوعاتها - على سبيل المثال :-

١ - [حرية الاعتقاد بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية].

٢ - [الرأسمالية وإرهابات السقوط].

٣ - [الإسلام بين التنوير والتزوير].

٤ - [صحيفة المدينة.. والتعامل مع غير المسلمين].

٥ - [مبدأ المواطنة - : حقوق وواجبات].

٦ - [المسلمون فى أوروبا: الواقع والمشكلات].

٧ - [الأخوة الإسلامية بين القطرية والقومية].

٨ - [الإسلام بين الدولة المدنية والدولة الدينية].

٩ - [الصحة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد].

١٠ - [العالم الإسلامى وأمريكا: آفاق المستقبل]

١١ - [العدالة الاجتماعية: الفريضة المنشودة]

١٢ - [المنهج الإسلامى: بديل آمن للتنمية والنهضة].

١٣ - [نحو حقائق الإسلام وأباطيل العولمة].

١٤ - [ضوابط إسلامية لاقتصاد الأمة المستقلة].

١٥ - [عوائق الوحدة الإسلامية].

١٦ - [نظرية المؤامرة بين الوهم والحقيقة].

- ١٧ - [الأُسرة بين الشريعة الإسلامية والمواثيق الدولية].
 - ١٨ - [مكانة المرأة ورسالتها بين الإسلام والحضارة الإسلامية].
 - ١٩ - [التربية السلوكية الإسلامية للأولاد].
 - ٢٠ - [الغنوسة: أسبابها وعلاجها].
 - ٢١ - [الإسلام والقضية السكانية].
 - ٢٢ - [القضية الفلسطينية فى ضوء واقع الأمة].
 - ٢٣ - [القدس: رمز الصراع وبوابة الانتصار]
 - ٢٤ - [المسجد الأقصى بين مؤامرات الصهاينة وواجب المسلمين].
 - ٢٥ - [المعارف المقدسية].
 - ٢٦ - [فقه المقاومة من المنظور الإسلامى].
 - ٢٧ - [الإسلام ومعالم الإصلاح فى مصر الآن].
 - ٢٨ - [نعم للتعديلات الدستورية].
 - ٢٩ - [نظرات فى مشروع الدستور].
 - ٣٠ - [القرآن الكريم مرجعية الدساتير].
 - ٣١ - [الثورات العربية: دروس وآمال].
 - ٣٢ - [السييل الراشد لنجاح الثورة المصرية].
 - ٣٣ - [مسار الثورة وتحديات الحاضر].
 - ٣٤ - [دور الشعوب فى نهضة الأمة].
 - ٣٥ - [لماذا التفريع من الإسلاميين فى هذه المرحلة؟].
- وفى كل هذه الندوات، كان الدكتور المهدي هو القطب والرائد - هو صاحب الفكرة التى تدور حولها الندوة - [مع التشاور - الذى كنت شاهداً عليه فى أغلب

ندوة «التبيان»

الندوات].. وصاحب العطاء الأول فى أغلب هذه الندوات.. وصاحب الرأى الأول فى اختيار العلماء الذين شاركوا فيها.. فهو الأب الفكرى لهذا الإنجاز العظيم.

- وإذا شئنا كلمات دالة.. وعبارات جامعة.. وصياغات مضيئة من هذه الثروة الفكرية، التى جاءت على لسان الدكتور المهدي.. فإننا نقدم الكلمات التى يمكن أن نطلق عليها [معالم فقه الواقع الإسلامى عند الدكتور المهدي]- عليه رحمة الله - فلقد قال:

١- عن مشكلة المصطلحات

هناك مشكلة عامة فى وطننا الإسلامى وهى استيراد مصطلحات دون البحث عن منشئها ولا مدلولها، فقد تكون هناك سموم راقدة تحت تلك المصطلحات الوافدة..

- فمثلاً كلمة الأقباط: صارت تطلق فقط على النصارى، مع أن معناها فى الأساس مصر.. وكانت الكعبة تكسى بالقباطى، أى بما يصنع فى مصر، ولبس النبى ﷺ حلة قبطية.. وما زلنا حتى الآن نقول: هاجر القبطية، ومارية القبطية، وكل هذا منسوب إلى مصر..

إذن، فربط لفظ الأقباط بالنصارى على وجه الخصوص مفهوم تحته سم راقد، لأن معنى ذلك أن المسيحيين هم المصريون، وأن المسلمين وافدون على مصر، أو فاتحون لها وحسب، وليسوا مصريين.. وهذا هو ما فعله اليهود حين خصوا أنفسهم بلفظ السامية، واستطاعوا أن يأخذوا من الدول كلها إقراراً بأن من يعتدى على اليهود فقد اعتدى على السامية، وجعلوها جريمة ضد الإنسانية.

- ولفظ المواطنة: لم يبرز إلا فى سنة ١٩٩٤م - برز عند غير المسلمين فى ندوات وكتيبات، وكان ذلك متزامناً مع مؤتمر القاهرة للسكان. وقد زعم بعضهم: أن المواطنة «هى مصدر العلاقات الاجتماعية على أساس سياسى، أى وفق الانتماء الجغرافى، وليست على أساس دينى فى المجتمع الديمقراطى»، وهذا التحديد نجده عند بعض العلمانيين، فهم يريدون أن يجعلوا المواطنة بديلاً للدين. وهى فكرة تتشابه إلى حد كبير مع فكرة الماسونية العالمية، التى مهمتها تجميع قضية الدين فى نفوس البشر.

إن المواطنة التي يقبلها الإسلام هي التي تجعل المرجعية للإسلام، وليس للأقلية التي تتحكم في الأكثرية.. ففي صحيفة دولة المدينة تقرر بأن محمداً - ﷺ - هو المرجع في القضاء وفي الأحكام - ولم يكن المسلمون في ذلك الوقت أكثرية.. بينما نجد الآن الأقلية تريد أن تفرض سلطانها على الأكثرية..

- وإن كلمة التنوير: مقتبسة من الدين الإسلامي، فالقرآن الكريم جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، فالله تعالى نور السموات والأرض، ونبه ﷺ كان سراجاً منيراً، لذا كانت مهمة الإسلام هي تنوير الناس.

لكن أعداء الإسلام حرفوا أو زوروا مهمة الإسلام ووسموه بأنه ظلام، وأطلقوا على أتباعه: الظلاميين، ومن ثم استدعى هذا المصطلح الجديد - «التنوير» - إشارة إلى ما يأتينا من بلد النور باريس بزعمهم! والنور عندهم هو إخراج المسلمين من دينهم، وتنحية التشريع الإسلامي عن حكم الحياة، وإلغاء الخلافة، وتفتيت الدولة الإسلامية.

- الشورى والديمقراطية: إن هناك خلطاً بين الشورى والديمقراطية، فالديمقراطية هي حكم الشعب للشعب، بمعنى أنه مصدر السلطات. أما الشورى - في الإسلام - فإنها تعتمد المبادئ والقيم والفرائض والأحكام الشرعية التي لا خلاف عليها، ثم بعد ذلك تأتي مسألة إبداء الرأي، أما أن يدخل في اختصاص المجالس النيابية إلغاء حكم شرعى أو تقييد حكم شرعى بما لا يراه الإسلام فهذا من العبث بمقدسات الإسلام.

إن الإسلام لا يقول بحرية الرأي فحسب، ولكنه يقول بوجوب إبداء الرأي.

- صراع الحضارات: إن صراع الحضارات وحوار الحضارات كلمتان ينبغي أن نقف عندهما من المنظور الشرعى، فالحوار جعله الإسلام مبدأ من مبادئ الدعوة الإسلامية، بل إنه جعله من وسائل الدعوة: [وجادلهم بالتى هي أحسن].

وإن الصراع هو صراع بين الحق والباطل منذ الأزل وإلى الأبد: [ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض]، ولهذا يجب على المسلمين أن يقوموا بجهد الدفع، فأعداؤنا هم الذين يبدأون الصراع، وهذا الصراع - كما نعلم جميعاً

ندوة «التبيان»

- بدأ بالاستعمار فى التاريخ الحديث، وأماننا ما يحدث الآن فى فلسطين والعراق ولبنان وما يحدث للمسلمين فى شتى بقاع الأرض.

لمدة قرنين من الزمان ونحن ندور فى فلك القوى العالمية - نلتمس منها النهضة والنصر، وندور فى فلك أفكارها [أيدولوجياتها] نلتمس منها الحضارة والتقدم، فما صلحت لنا حياة، وما حققنا نصرًا حاسمًا، وما أفلحنا فى بناء حضارة أو نهضة، والعكس هو الذى وقع.. فالتائج المرة، والتمزقات المتتالية، والتبعية الاقتصادية والسياسية والفكرية، والتخلف العلمى والبحثى، والهزائم - فى جهات كثيرة - كل ذلك كان حصاد هذه الرحلة من التيه والتسول الحضارى.. إنه [حصاد الغرر - بتعبير الشيخ الغزالى].

لقد حوربت التربية الإسلامية والجامعات الإسلامية، وألغيت الأوقاف الإسلامية - وشجع السفور والاختلاط الشائن باسم [التعليم العالى]، وانتشرت البنوك الربوية، وظلت الأمور تنحدر حتى وصلت إلى محاولة فرض قرارات مؤتمرات السكان الدولية الماسونية اللادينية على الأسرة لإباحة الحرام، ومحاربة الزواج الحلال، وتمكين المراهقين من الزنا، وشل وجود الأب.

ألم يأن لإخواننا المواطنين المتمكنين من القرار السياسى أو الفكرى أو الثقافى أن يتعلموا؟!..

ألم يأن أن يتذكروا المنحدر الذى ننحدر إليه، كلما ابتعدنا عن ديننا؟.. بينما جارتنا [إسرائيل] تزداد قوة وعلوًا فى الأرض، وجارتنا الأخرى الشيعة تسعى إلى أن تكون دولة عظمى؟.. وأين نحن؟.. وإلى متى؟!..

إن الإسلام لن ينتصر إلا بيد المسلمين أنفسهم، وإن الاعتماد على غير المسلمين فى ذلك ضرب من المستحيل، وهو ضد العقل والتفكير.

- المؤامرة: إن مصطلح المؤامرة ليس بجديد، ولكنه موجود منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام، فقد ركز إبليس أولًا على أن يخرج من الجنة عاريًا، ولم يقل له ذلك صراحة، ولكن قال:

﴿ هَلْ أَدُلُّكَ ﴾ [طه: ١٢٠] وهو يريد في الحقيقة - كما قال الله تعالى: ﴿ فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ يَبْدِي لَهُمَا مَا وَرَىٰ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاءٍ تَهُمَا ﴾ [الأعراف: ٢٠].

وإن الرسل جميعاً، ابتداء من نوح وانتهاء بسيدنا محمد ﷺ تعرضوا لمؤامرات شياطين الجن والإنس.. فالمؤامرة شىء محقق فى دنيا الواقع. ولقد حذرنا الله من هؤلاء الأعداء الذين يكيدون للإسلام، وقال: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ﴾ [النساء: ٧١] - وقال: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ ﴾ [المائدة: ٨٢] وقال: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقِيلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وإن من ينكر أن هناك مؤامرة تحاك ضد المسلمين هو أحد رجلين: أما أنه جاهل بالقرآن والسنة الكونية وتاريخ البشرية، وإما أنه هو نفسه متآمر ليجعل المسلمين فى حالة استسلام وخضوع.

ونحن نحذر من أن يتخذ المسلمون من هذه المؤامرات التى تحاك ضدهم شناعة يعلقون عليها فشلهم فى حماية دينهم ورفع شأنه.. ويجب أن يستفز وجود مثل هذه المؤامرات فى المسلمين التحدى والأخذ بكل الوسائل لمواجهة هذه المؤامرات. إن سلسلة المؤامرات التى حيكت ضد الإسلام والمسلمين عبر هذا التاريخ البشرى تؤكد ضرورة أن يستخرج المسلمون من طاقاتهم طاقة التحدى لهذه المؤامرات، وأن يدفعوا عن أنفسهم الأذى والاضطهاد.

لقد كان الواجب على مصر أن تتعاون مع دول حوض النيل، وتبادل معهم المنافع.. لكن الفراغ الذى تركته مصر مع جيرانها استغله اليهود أعداء الأمة وتسلبوا إلى هذه البلاد، واستغلوا الفقر عندهم بتحريضهم على مصر.

ولقد كان انفصال جنوب السودان بمثابة حصار استراتيجى لمصر، ونحن نحذر من تداعيات هذا الانفصال وما سيتبعه من مخاطر وكوارث اقتصادية وسياسية وأمنية على دول المنطقة، ومصر بصفة خاصة.. وهذا الانفصال هو مقدمة لتنفيذ مخططات الأعداء فى استكمال تقسيم السودان وتفتيته، والتشجيع على تقسيم مصر وفصل الصعيد عن شمال البلاد. إنه تهديد مباشر لأمن مصر.. وهو يمثل حاجزاً بيننا وبين الدول الإفريقية..

ندوة «التبيان»

إن جنوب السودان يمثل خمس مساحة السودان. والمسلمون يشكلون فيه ١٧٪ والمسيحيون ١٨٪ والباقي عبّاد وثن يعمل الغرب على تنصيرهم.

وإن استخدام «حق تقرير المصير» لفصل أجزاء من الدولة هو مؤامرة على وحدة الدول الإسلامية خاصة - استخدمه الغرب سنة ١٩٩٩م فى انفصال «تيمور الشرقية» عن أندونيسيا بعد أن كانت جزءاً من الوطن الأم، فشجعها الغرب على الانفصال بعد تعرض أندونيسيا لضغوط اقتصادية وسياسية وعسكرية خارجية، واعترفت بها الدول الغربية.

وهناك قضية «البوليساريو» بين المغرب والجزائر.. والأكراد الذين يطالبون بتقرير المصير، وبلاد النوبة فى مصر والسودان، ودارفور وكردفان فى غرب وشرق السودان، وجزر الخليج العربى التى تتصارع عليها إيران والإمارات.

- الآخر: إن هذا الآخر هو الذى ينكرنا، فالمسلمون يؤمنون بسيدنا موسى وعيسى، ويؤمنون بالتوراة والإنجيل كما نزل من السماء وبالقرآن الذى جاء مصداقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل. ولكنهم - [الآخر] - يرفضون أن يعترفوا بما فى القرآن، وهذا هو المشكل، فنحن نعتز بالآخر والآخر لا يعترف بنا. ومع ذلك يجب علينا أن نبلغ عن رسول الله بلاغاً مبيناً لكل العالمين بحيث لا تنتهم كل من ليس على ديننا بأنه مخلد فى النار، ولو لم يصله هذا الدين نقيّاً واضحاً، ذلك أن كثيراً من عامة الغرب قد وصلهم الإسلام عن طريق الإعلام الصهيونى المشوه لمبادئ الإسلام، والكافر هو الذى عرّض عليه الحق عرضاً صحيحاً ومبيناً فأنكره وجحدته.

ويجب الاجتماع على الثوابت والقواطع فى دين الله، وترك المسائل الفرعية المختلف فيها جانباً حتى تظهر صورة الإسلام الصحيحة أمام الغرب.

- الغزو الفكرى: إن الغزو الفكرى الغربى، والذى تبناه الإعلام فى بلادنا على مدى عقود طويلة من الزمان، كان الطامة الكبرى التى أفسدت كل شىء فى المجتمع، وأعلت من حب الشهوات والغرائز، ورغبت فى الدنيا، وأبعدت الناس عن الآخرة وعن محاسبة النفس ومراقبة الله عز وجل.

- الإسلاموفوبيا: إن التخويف من الإسلام صناعة غربية، صاغوا لها مصطلحاً

انتشر في العالم الغربي، وهو مصطلح «الإسلاموفوبيا». وإن انتشار هذا المصطلح جاء على أثر انتشار الإسلام في ربوع أمريكا وأوروبا، والخوف الشديد من أسلمة الغرب، ذلك أن خوف الغربيين من الإسلام يأتي من خوفهم الشديد من تطبيق صادق للحرية والعدالة وكل ما جاء به الإسلام من قيم شهد بها العدو والصدیق.

- الفتنة في الدين: لقد أوضح القرآن الكريم دائماً أن الكفار مستمرّون في خلق الفتن لصرف صاحب العقيدة عن دينه، وهذه الفتن أكبر من القتل. ولم تكن هذه الفتن في عهد النبي ﷺ فقط، بل هي مستمرة إلى يوم القيامة: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقِيلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

وفي ذات الوقت - يؤكد القرآن أن الله لا يصلح عمل المفسدين، وأن هؤلاء المرتدين عن دين الله لن يصلوا لأهدافهم مهما تكن قوتهم ومهما تكن القوى التي تساندتهم: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

- ترشيد الخطاب الديني: إن كلمة «تجديد الخطاب الديني» لم تصدر إلا عن أمريكا، وقبل تولى بوش لم يسمع المسلمون بهذه الكلمة، وقد يكون فيها جانب من الحق، ولكنه حق يراد به باطل، فالتجديد في أمور الدين أمر مطلوب على لسان الرسول ﷺ «إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة دينها».

ولكن من المؤكد أن هذا المصطلح الجديد لا يراد به ذلك، وإنما يراد به تغيير الثوابت في دين الإسلام لتتواءم مع ما يريده الأمريكان، فهم يريدون إسلاماً جديداً يسمونه [الفرقان الحق]، يريدون فيه إلغاء الجهاد والحجاب وضوابط الزواج، مما يؤكد أن المقصود هو إلغاء الثوابت الإسلامية.

وعندما طبق هذا التجديد تم التركيز فقط على الخطاب الإسلامي، وليس على الخطاب الديني، مع أن كلمة الديني شاملة الإسلام والمسيحية واليهودية، إلا أن المراقبة ركزت على الخطاب الإسلامي في المساجد والمدارس ووسائل الإعلام، ولا نجد أثراً لهذا التجديد أو المراقبة في الكنائس ولا في بيع اليهود مدارسهم، ولهذا تخيرنا كلمة الترشييد.

- الاحتفالات الإسلامية: إن القرآن الكريم قد طالب المسلمين بتذكر أيام الله، وقد كان من أهداف رسالة سيدنا موسى - عليه السلام - أن يذكرهم بذلك:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

فسيدنا موسى كان مكلفاً بأمرين:

١ - إخراج الناس من الظلمات إلى النور.

٢ - وبتذكيرهم بأيام الله.

وأيام الله فيها النصر والهزيمة، ومعها أسباب كل منها، وفيها الشدة والرخاء، فإذا كانت نصراً يأخذ المسلمون العبرة في الاستمرار على أسباب النصر، وإن كان فيها هزيمة فعلى المسلمين أن يبحثوا عن أسبابها حتى ينأوا عنها ولا يرتكبوها مرة أخرى.

يجب أن يتذكر المسلمون الإسراء والمعراج بما فيه من مغزى الحفاظ على بيت المقدس، وعلى استعادة المسجد الأقصى والمقدسات، ولفت أنظار المسلمين إلى ما يجري هناك وما يتم التخطيط له، وأثره على كيان المسلمين جميعاً.

أما الاحتفالات الشخصية والأسرية، فمنها ما ورد في الشرع إقراره، كالاحتفال بيوم ميلاد الشخص بتقديم طاعة لله شكراً على ذلك، كما فعل الرسول ﷺ حين أخبر عن صيامه يوم الاثنين بأنه يوم ولد فيه. والاحتفال بالزواج، بتقديم وليمة لأهله وأصدقائه والفقراء شكراً لتلك النعمة، والاحتفال بالإنجاب ذكراً أو أنثى بعمل عقيقة تذبح يوم السابع، عند الاستطاعة. والاحتفال بيوم فوز طالب في شهادة عامة، وأراد أهله أن يكرموا أو أرادت هيئة أو جمعية أن تشجعه.. أو إذا عين أحد الزملاء في منصب عن جدارة وأراد زملاؤه أن يهنئوه وينصحون، كل ذلك لا نجد في شرع الله ما يمنعه إلا إذا صاحبه منكر من لهو أو مشرب حرام أو إسراف.

أما الاحتفال برأس السنة الميلادية، وعيد الحب، وعيد الأم، وعيد العمال، فهذه كلها أمور خارجة عن نطاق المجتمع المسلم، وسبب الاحتفال بها هو انبطاح المسلمين أمام الحضارة الغربية وتقليدهم ومحاكاتهم للغرب.

٢- عن الدولة الإسلامية

- دولتنا: إسلامية ومدنية: إن الدين ضرورة من ضرورات الحياة كلها، ولا بد لكل شعب أن يكون له دين، والقول بالدولة المدنية بمعنى دولة لا دينية إلغاء للأديان كلها.. ومحل النزاع هو في التقابل بين المدني والديني.

إن الحكومة عندنا اسمها الحكومة الإسلامية، وكلمة حكومة إسلامية لها شقها المدني ولها شقها الديني، وفي شقها الديني انتماء صادق ومخلص لكل ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ، وما لم يأت فيها يترك للعقل البشري الاجتهاد والاستنباط لقضاء مصالح العباد.. ومن الناحية المدنية، أنه دين الجميع، ويحرص على مصلحة الجميع.

إن الرسول ﷺ بعد هجرته إلى المدينة، أسس الدولة الحديثة بثلاثة أعمدة كبار:

١ - المسجد.. الذي تنبعث منه الدولة في قضائها وعبادتها ونظام حكمها.

٢ - والمؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين حتى يكونوا أمة واحدة.

٣ - والصحيفة التي عقدها النبي ﷺ مع المخالفين له في العقيدة لتكون المدينة النواة الأساسية لدولة الإسلام.

إنه لا دولة دينية في الإسلام، وإن الدولة الدينية التي كانت في أوروبا في العصور الوسطى حين كان يسيطر رجال الدين المسيحي والكنيسة على كل أمور الدولة، وكان مبدؤهم: [ما هو معقود في الأرض معقود في السماء].

أما مثل هذه الأمور فهي غير موجودة في الإسلام.. إن دولة الإسلام هي دولة مدنية تقوم على الأسس التي وضعها النبي ﷺ في المدينة، حيث كان يعيش المسلمون وغير المسلمين في تعايش سلمى كبير، تحكمهم المعاهدات.. وكان لغير المسلمين ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، ومع ذلك كانت مرجعية هذه الدولة الوحي، ولم تتحكم الشريعة الإسلامية يوماً في أرواح الناس أو في حقوقهم.

وإن غياب الإسلام عن الساحة في مصر أدى إلى اعتقاد هؤلاء الناس بأن الإسلام يدعو لدولة دينية، خاصة وإن هؤلاء الليبراليين درسوا تاريخ أوروبا وتاريخ العصور

الوسطى التى كانت تسمى بالعصور المظلمة فى أوربا، فى الوقت الذى كانت تعيش فيه الحضارة الإسلامية أزهى عصورها بسبب مدنية الإسلام.

إن الإسلام هو نظام الدولة، فالأغلبية مسلمة، والسعى إلى قلب نظام الحكم فى أى دولة عقوبته الإعدام، وذلك فى كل قوانين العالم، ولا يقتل هذا المرتد إلا فى حالة واحدة هى خروجه على الجماعة.

ولقد وضع القرآن الكريم القواعد العامة التى يلجأ إليها الإنسان ويستنبط منها دساتير العالم وقوانين الأرض، وإذا كانت هناك مبادئ حاكمة فوق دستورية فيجب أن تكون مبادئ القرآن الكريم، لأنه صادر عن الخلاق العليم الذى يعلم السر وأخفى.

ولقد جعل الله عملية استنباط الأحكام وتنفيذها «لأولى الأمر» وليست «لولى الأمر»، فلم ترد كلمة «ولى الأمر» فى القرآن مطلقاً، وإنما جاءت «أولو الأمر» حيث لم يضع الإسلام السلطة فى يد شخص واحد، وهنا قضى القرآن الكريم على ما يسمى بالديكتاتورية.

- القطرية: لقد سمعنا عن الفرعونية فى مصر - مصر للمصريين، والسعودية للسعوديين، وسوريا للسوريين - أى تفكيك الأمة الإسلامية - بحيث تغلق كل دولة على شعبها وخيراتها بعيداً عن الدول الأخرى، واهتمام كل دولة بنفسها فقط ولو كان على حساب الأخرى.

إن الأخوة الإسلامية هى الإطار العام الذى يحكم على القطرية والقومية على اعتبار أن الجميع يصب فى النهاية داخل الأخوة الإسلامية، وهى فى الوقت نفسه ليست معادية لا للقطرية ولا للقومية ولا للأسرة، بل متألّفة ومتعاونة فيما بينها، فلا تضاد ولا صراع بين الأخوة الإسلامية وبين القوميات والقطريات.

ولكن الأخوة الإسلامية هى الأساس وهى الهدف، وإن كل الكيانات (القطر، القوم، الأسرة، القبيلة) تخدم فى النهاية هذا الهدف باعتبار أن العقيدة هى الحاكم على الجميع.. ولا بد أن يتحد كل قطر مع بقية الأقطار لتكون الأمة كلها قوة واحدة، تستغنى عن الأعداء، كذلك تعلو الأخوة الإسلامية على علاقات الأبوة

والبنوة، والواجب أن تخدم هذه العلاقات وحدة الأمة، لأن هذه الوحدة هي مصدر قوتها.

إن دين الإسلام ليس ديناً قومياً ولا قوطياً، ولكنه دين عالمي. ولقد كان الشيخ الغزالي يقول: العرب + إسلام = قيادة، بينما العرب - إسلام = صعلكة. وهذا هو الموجود الآن: الصعلكة.

في البلاد الإسلامية المنكوبة بأى أزمة من الأزمات، وجدنا أن الإرساليات التبشيرية تستغل الحاجة الماسة إلى المساعدة، وتقول لهم: نحن الذين ساعدناكم، والمسلمون معهم الأموال الوفيرة والأرصدة الضخمة ولا يسألون عنكم، إذن ليست هناك علاقة بينكم وبينهم، ونحن معكم، ثم يدعونهم إلى الخروج من هذا الدين وفتنتهم فى عقيدتهم.

- المال والثروة: إن الإسلام جعل المال وسيلة لا غاية، وجعلوه هم غاية، وجعلوا هدفهم الحصول على أكبر قدر من الأموال. وطبيعة الإنسان تأبى الرضا ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

ولكن على الإنسان أن يعلم أن المال هو مال الله، يهبه عز وجل لمن شاء، فمن أحسن وشكر النعمة زاده الله ﴿ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبُكُمْ لِيَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلِيَنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧]. ومن لم يرض بما قسمه الله ألبسه لباس الجوع والخوف.

ولقد جاءت الضوابط الإسلامية لتزيل الشح من نفوس الناس، فالمال يسبب الطغيان والطمع والجشع ﴿ وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا شُوزًا أَوْ إِعْرَاصًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٨]، ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].. وكانت نتيجة هذا الجشع والطمع هذه الآثار المدمرة للعالم.

ندوة «التبيان»

ومن المفروض أن الربا يزيد المال والزكاة تنقصه، ولكن الإسلام يقول: ﴿يَمْحُو اللَّهُ الْرِبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُجِبُ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبِّكَ لِيَرْبُوهَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيحُوا عِندَ اللَّهِ وََمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].. فالإنفاق نفسه سبيل من سبل تنمية المال، كما أن إكرام اليتيم يفتح باب الرزق الواسع ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرْنَا عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ (١٦) ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ (١٧) ﴿وَلَا تَخْضِبُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ (١٨) ﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ (١٩) ﴿وَتُحْبِثُونَ أَمْوَالَكُمْ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ١٦ - ٢٠].. فإكرام اليتيم سبب سعة الرزق، كما أن التقوى أيضاً من أهم أسباب أبواب الرزق ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ (١٧) ﴿وَلَا يَسْتَنُونَ﴾ (١٨) ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ﴾ [القلم: ١٧ - ١٩].

إن المال هو مال الله، أتاه الله لمن يشاء امتحاناً وابتلاءً ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥]، فالمال هو زينة ونعمة، ولكنه مسئولية، ولذلك يطالب الإسلام بمحاسبة العبد من أين اكتسب ماله وفيما أنفقه، فأعلم أنك مطالب بإنفاق المال في مصاريف ومجالات حلال.

وإن من العوائق التي تواجه الشباب وجود الطبقات، طبقة المترفين الذين يقلدون الغرب في كل شيء، وينفقون ببذخ وتبذير، ويجعلون الفقراء يشعرون بالإحباط، وقد يؤدون العمرة سنوياً، ومرتين في السنة، ويتكفلون ثلاثين أو أربعين ألفاً من الجنيهات، هذا المال يمكن أن يكون له ثواب أكثر لو أنفقوه على تربية يتيم أو زواج شاب.

وإن الحديث عن العدالة الاجتماعية هو حديث عن العدل، الذي هو صفة من صفات الله عز وجل.

وكما أن الإسلام هو دين الأنبياء جميعاً، فهو دين العدل.. لا فرق فيه بين غنى وفقير في ضرورة وصول الحق إلى صاحبه، ولا بين قوى وضعيف، ولا بين صغير وكبير، ولا بين أبيض وأسود، ولا بين جنس وجنس، ولا بين مسلم وغيره، فالكل أمام الحق سواء.

والتكافل الاجتماعي يمنع تركيز الثروة في يد طبقة من الطبقات.

- الاقتصاد الإسلامي: إن أهم ما يميز الاقتصاد الإسلامي هو تحقيق التوازن بين المادة والروح، فالجسد الإنساني يحتاج إلى الطعام والشراب كي ينمو وفي الوقت نفسه تحتاج الروح إلى الغذاء كي تنمو وترتقى، وغذاء الروح هو الوحي، سواء كان من القرآن أو من السنة النبوية المطهرة، لأن الروح لا تتغذى إلا بما جاءها من الله عز وجل، ولهذا يمتاز التطبيق الإسلامي بأنه تطبيق واقعي يحقق التوازن.

ومن ثواب الاقتصاد الإسلامي تحريم الربا والرشوة والاحتكار وكنز المال دون إخراج حق الله وحق عباد الله فيه.

والعمل في الإسلام ليس حقاً للإنسان ولكنه واجب عليه.

ومحاربة الشره في الاستهلاك الذي شاع في ربوع العالم الإسلامي وأدى إلى إهدار المال في غير مكانه، حيث أصبحت الكماليات بالنسبة للإنسان ضرورات. إن الضرورات التي لا غنى عنها للإنسان قد حددها الله في كتابه الكريم حيث قال: ﴿فَقُلْنَا يٰٓأَدَمُ إِنَّ هٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ (١١٧) [طه: ١١٨، ١١٩].. فهي أربع: توفير المأكل، والملبس، والمشرب، والمسكن.. وهذا ما اتفقت عليه كل الحكومات وجميع خبراء الاقتصاد. ويلحق بهذه الضرورات الأربع: الدواء، والدفاع، فيتحقق الاكتفاء الذاتي الذي هو سر استقلال أى دولة.

- فروض الكفاية: إن فروض الكفاية هي من الفروض الغائبة في المجتمع، فكثير من الأغنياء يعتقدون أنهم أدوا ما عليهم بدفعهم لزكاة أموالهم، وغاب عنهم أن في المجتمع من حولهم من أيتام وفقراء ومرضى يحتاجون لمن يساعدهم في فك كربهم، لأن الأمة كلها ستكون آثمة إذا وجدنا فيها محتاجاً أو مريضاً أو يتيماً غير مكفول، أو مكروب، ولكن إذا قام البعض بسد هذا الكرب سقط الإثم عن بقية الأمة، وأخذوا هم ثواب الأمة كلها، وإذا كان البعض قادراً ولم يفعل أخذ إثم الأمة كلها.

وفرض الكفاية ليس في المال فقط ولكن على الإنسان أن يزكى من علمه ويعلم الناس حسبة لوجه الله تعالى، أو يزكى بوقته وينفع به غيره فيمشى في حاجة مسلم، وهذا شكر لله تعالى على نعمه، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

إن فروض الكفاية تشمل مناحى الحياة، وكل ما يتم به المعاش، كالبيع والشراء والحرث والطب وتولى الأمانة والشهادة وأدائها والقضاء وإعانة القضاة على استيفاء الحقوق، وحتى تزويج العزب والعانس، إذ إن حل مشكلة العنوسة فى المجتمع تدخل فى إطار فروض الكفاية، لأن القرآن الكريم قال: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].. والخطاب فى الآية الكريمة موجه لأولياء أمور البنين والبنات، فإن عجز الإنسان عن تزويج ابنه أو ابنته توجه الأمر إلى الأمة كلها حتى لا يكون فيها عزب ولا عانس، وإن وجود ١١ مليون عانس فى مصر، وأيضاً زيادة النسبة فى كثير من الدول الإسلامية إنما هو دليل على إغفال الأمة لفروض الكفاية.

إن إغاثة الملهوف وكسوة العارى وإطعام الجائع وكفالة اليتيم وتعليم الطب والزراعة والتجارة وتعلم اللغات الأجنبية وتعلم الصنائع والحرف.. كل هذه من فروض الكفاية، لأن الأمة لا تستطيع أن تحيا وتتقدم بدونها، كذلك تعليم وتدريب جيش يدافع عن الأمة، فالجهاد والتحصينات، كل ذلك من فروض الكفاية، لأن الأمة لا بد أن تكتفى فى كل مجال يقودها إلى القوة.

وإن مصر لو استغلت ما حباها الله من تربة خصبة ومياه عذبة لما احتاجت إلى أن تمد يدها لتأخذ رغيف الخبز والقمح من أعدائها، ولو طبقت الأمة فروض الكفاية تطبيقاً عملياً لما احتاجت للاقتراض من هذا ولا ذاك، بل لأصبحت قادرة على الاكتفاء الذاتى وإقراض الآخرين.

- **فقه الأولويات:** إن مراعاة فقه الأولويات فى حياتنا سيكون ذا فائدة كبيرة فى المجتمع والأمة كلها، ومن بين هذه الأولويات تقديم العمل المتعدى نفعه على العمل الذاتى، ومثال ذلك كمن يريد أن يبنى مسجداً فى منطقته، وهو عمل عظيم بالطبع، له نفع كبير على صاحبه وثواب عظيم، ولكن إذا علم أن شخصاً آخر سيقوم بالمهمة نفسها، أو كان هناك مسجد قريب يؤدى المهمة، فعليه أن يبحث عن مشروع آخر يفيد به غيره من الناس، ويساعد فى سد الثغرات الأخرى، كالمساهمة فى علاج المرضى وفك كرب المكروبين، وكفالة اليتامى، ومساعدة الفقراء والمحتاجين، ليحصل على أفضل من بناء المسجد.

إننا نرى بعض الناس اعتادوا على تأدية العمرة سنوياً، وهم ييغون الثواب من الله تعالى، ولكن على الإنسان أن يفكر في غيره، وألا يقف الثواب الذي يبتغيه على ذاته، ولكن حينما ينفع غيره سيكون بذلك قد قدم صدقة جارية لنفسه، وأثرى مجتمعه بالخير والنفع.

لقد عقد النبي صلى الله عليه وسلم صلح الحديبية في ظروف قاسية على المسلمين.. فهم محرومون، وعلى مشارف مكة والبيت الحرام.. لكنه نظر إلى المصلحة المستقبلية الدائمة، وهى نصره الدين فى المدينة، فقدمها على العمرة فى مكة، التى تربوا فيها.. بينما نظر بعض المسلمين - ومنهم سيدنا عمر - إلى المصلحة - القريبة المؤقتة.

وإن كثيراً من الناس لا يرتب أولوياته ترتيباً صحيحاً، خاصة فى أمور الرزق والمال، فنرى كثيراً منهم نسبة إنفاقه على الكماليات تبلغ ٨٠٪، وعلى الأساسيات ٢٠٪ فقط، وهذا خلل عظيم. ورغم أنه لا أحد يستطيع أن يحرم ما أحله الله، لقوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢] - إلا أن كل شىء ينبغى أن يكون بمقدار وميزان، فإذا زاد الشىء عن حده انقلب إلى ضده، ويصبح أمراً مكروهاً بعد أن كان أمراً مباحاً، وبعد أن كان مكروهاً يصير حراماً، ومع الديمومة والتكرار يصير الأمر الصغير كبيرة من الكبائر.

ولقد تناصح العلماء مع بعضهم البعض بتقديم الأولى على ما هو دونه، فقد كان الفضيل بين عياض [١٠٥ - ١٨٧ هـ / ٧٢٣ - ٨٠٣ م] من الزاهدين العابدين، وكان يقال له «عابد الحرمين»، حيث كان يعبد الله فى مكة، ثم يذهب إلى المدينة، وهكذا، فأرسل إليه عبد الله بن المبارك [١١٨ - ١٨١ هـ / ٧٣٦ - ٧٩٧ م] قصيدة يحثه فيها على الجهاد قائلاً:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك فى العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله فى باطل فخيولنا يوم الصبيحة تتعب

ريح العبير لكم ونحن عبرنا رهب السنايك والغبار الأطيب
ولقد أتاننا من مقال نبينا قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوى تغيير خيل الله فى أنف إمريء ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيتا ليس الشهيد بميت لا يكذب

- الجهاد.. والأقصى.. والقدس.. وفلسطين: إن الجهاد والمقاومة عمل استمرارى عند المسلم، فهو يجاهد ويقاوم رغبات النفس التى تجعل الطاعة أمامه صعبة، ويجد المسلم نفسه وماله وكل ما أعطاه الله فى كفة ونشر دين الله ونشر الإسلام فى كفة أخرى، وفى هذا الوقت لا يمكن أن يضحي بالإسلام فى سبيل بقائه فى الدنيا أو الحفاظ على ملذاتها ومتعها، فإذا تعارض وجود النفس مع وجود الدين قدم المسلم الدين على النفس.

إن الجهاد يتنوع إلى جهاد النفس وجهاد الشيطان الذى هو عدو الإنسان، وجهاد أعوان الشيطان من أهل الباطل فى كل زمان ومكان، وهذا الجهاد هو فرض على المؤمن وضريبة لا بد أن يدفعها لنصرة دينه، فإذا ما ترتب عليه مفارقة الحياة كان من الشهداء ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحديد: ١٩] - والشهيد يشم رائحة الجنة وهو فى المعركة فيتشوق إليها.

إن الطعن فى ثوابت الإسلام وفى رسول الإسلام ﷺ أصبح مرئياً ومسموعاً فى كل أنحاء العالم، والهجمة الشرسة على ثوابت الأمة مستمرة لا تتوقف فى كل وسائل الإعلام المختلفة، وهذا يحتاج إلى جهد وجهاد ومقاومة، كما أن الهجمة على المسلمين بالسلاح ودمائهم الطاهرة التى تسيل تحتاج إلى جهاد ومقاومة، وعدم الخوف مما عند أعدائنا من عتاد وأسلحة، فالإيمان يزرع فى النفس طمأنينة وثقة بالنصر مهما كان عتاد المسلمين قليلاً وعددهم ضئيلاً ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُكَلَّفُوا

اللَّهُ كَم مِّن فَتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فَتْنَةُ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وإن تحرير فلسطين وتحرير القدس من يد المحتل الغاصب من الواجبات الكفائية على الأمة كلها، وإن فلسطين ليست ملكاً للفلسطينيين وحدهم، وإنما هي ملك للأمة الإسلامية ولكل مسلم على ظهر الأرض، بمجرد أن تسلمها النبي ﷺ ليلة الإسراء والمعراج، وقدمه سيدنا جبريل لإمامة الأنبياء، فكان ذلك بشارة إلى تسلم الإسلام والمسلمين لهذه البقعة المباركة، فصارت أمانة في أعناق المسلمين إلى يوم القيامة.

إن قضية القدس هي قضية فلسطين كلها، وإن القدس وفلسطين أرض مباركة أرض مقدسة، وإن المسلمين مطالبون شرعاً بالقتال في سبيل تحرير المقدسات وأماكن العبادة وتحرير هذه الأرض هو مشروع قومي يجب أن تلتف حوله الأمة، وهو الهدف الذي يجمع الأمة حوله، تماماً مثلما فعل صلاح الدين الأيوبي من قبل حينما كانت الأمة الإسلامية شراذم فجمعهم حول تحرير القدس.

إن الإسرائيليين ينطلقون في صراعهم معنا من عقيدة دينية توراثية، في الوقت الذي يحاربهم المسلمون بمنطق العروبة والقومية العربية.. ولا مساواة بين المنطقين، فهم يتحدثون عن عقيدة، هي في جوهرها حرب دينية حقيقية، وليست حرباً على المسجد الأقصى فقط، بل هي حرب على الإسلام كله.

أين موقع الشباب، المشغول بكرة القدم وأخبار الفنانين والفنانات من قضايا الأمة عامة، وقضية القدس بصفة خاصة باعتبارها القضية المحورية؟!

إن روح الجهاد في سبيل الله تحتاج إلى جهد كبير حتى تتمكن في أذهان شبابنا، والجميع مسئول أمام الله عن عودة روح الجهاد في نفوس الشباب والمسلمين جميعاً، فما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا.

٣- مؤتمر السكان:

إن القرارات والتوصيات والمصطلحات التي جاءت عقب مؤتمر القاهرة للسكان سنة ١٩٩٤م ما زالت حتى الآن هي مطالب الأمم المتحدة.. ولقد كلف المجلس

ندوة «التبيان»

الإسلامى العالمى للدعوة والإغاثة علماء الجمعية الشرعية بالوقوف أمام هذا المؤتمر الذى طالب بالزواج المثلى والسماح بالشذوذ الجنىسى، وطالب بفتح بيوت الدعارة والبغاء، وإزالة الوصمة عن الشاذ، وطالب أيضًا بالجنس الآمن للمراهقين والمراهقات، واستخدام العازل الطبى، والثقافة الجنسية.

وللأسف الشديد، فإن هذه الأمور ما زالت تفرض فرضًا على الحكومات الإسلامية، وإن الأمم المتحدة قد رصدت ٨ مليارات دولار فى العام الماضى سنة ٢٠٠٦م من أجل شراء الضمائر فى وسائل الإعلام المختلفة لفرض هذه المطالب على الأمة الإسلامية وإشاعة الفاحشة.

ولقد عقد مؤتمر فى الأسبوع الماضى ربيع ثانى سنة ١٤٢٨هـ - فى واشنطن، بيت الحرية الأمريكى وهو صهيونى تحت عنوان «الإسلام والديمقراطية»، وذلك لبحث الضغوط الواجبة على الحكومات الإسلامية لترفع تحفظاتها على هذه القرارات وتلك المطالب.

فنحن أمام غزو ثقافى عقدى وليس أماننا إلا الجهاد المدنى، بمعنى أن كلامنا مطالب بتحسين أبنائه وتحسين نفسه ضد هذه المؤتمرات الصهيونية. إن الأمة الإسلامية تشهد أخطر غزو ثقافى يهدف إلى تدمير أخلاقها وقيمها المستمدة من الشريعة.. وإن هذا الغزو الثقافى أخطر على الأمة من الغزو العسكرى لأن الأمة إذا أصيبت فى أخلاقها فأقم عليها مآثمًا وعويلًا.

وإن من مخالفات قانون الطفل:

أ- جعل المرجعية الأصلية فى تنشئة الطفل وتعليمه للوثائق الدولية لا للشريعة الإسلامية.

ب- رفع سن الطفولة إلى ١٨ عامًا.. أى منع توثيق الزواج قبل ١٨ عامًا.. وتخفيف العقوبة - بما فيها القصاص - إذا كان القاتل دون الثامنة عشرة.

- وعن المرأة: يقول رب العزة عن الزواج: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الصَّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ

عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَأَلْقَنَ بُشْرُوهُنَّ بِأَتَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَنْكُمُوهْنَ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ [البقرة: ١٨٧] - وما دام المرء لا يستغنى عن ملابسه فهو لا يستغنى أبداً عن زوجته ولا هي تستغنى عن زوجها.. إن المرأة هي المحضن الصالح لتخريج الأبطال والعظماء والعلماء والقادة، الذين يحملون هم الدعوة والمجتمع والبشرية جمعاء، والمحضن الصالح لا يتأتى إلا إذا كان الرجل ذا خلق ودين وكانت المرأة كذلك، ولذلك يحرص الإسلام أن ينه الرجل والمرأة إلى تربية أبنائهم على الدين والخلق.

ونحن نتساءل: هل الحركات النسائية التي تشط في مجتمعاتنا الإسلامية تسير في اتجاه الحضارة الإسلامية أم في اتجاه الحضارة الغربية؟!

إن الرجل مفضل في جانب والمرأة مفضلة في جانب آخر، وكل منهما له مجال يحترم فيه الأسرة والأمة، فالحياة بين الذكر والأنثى تكاملية، وكل منهما محتاج للآخر. والقوامة ليست تسلطاً على المرأة، ولكنها رعاية وقيام بمسؤولية الرجل تجاه زوجته وأبنائه.

- وعن الشباب: إسأل أى أب: ماذا تريد أن يكون ابنك؟ فيقول: لاعب كرة.. لماذا؟ لأنه يأخذ مليون ونصف المليون. أريد أن يصبح ابني ممثلاً وابنتي فنانة، ليحصلوا على أموال كثيرة وشهرة.. فهذا هو النجاح!..
لقد اختلت القيم عند الآباء، وأيضاً عند الأبناء.

يقول: أريد أن ابني مستقبلي، فيهاجر من البلد، ويتعرض لما يتعرض له شبابنا الآن في الخارج، فأصبح الهدف والهوية والانتماء ضائعاً.. وبدلاً من أن تكون قدوتنا نماذج الصحابة، أصبح نجومنا الممثلين ونجوم الكرة.

ومع هذا يجب ألا نياس، لأن الخير موجود في شبابنا، لكنه يحتاج إلى أن يكتشف هذا الخير وينميه ويقود إلى صرف طاقاته المعطلة في عمل ينفع نفسه وينفع أمته.

إن وصيتي للشباب: اقرءوا القرآن وكأنه نزل عليكم، فقد كانت هذه وصية أم المفكر والشاعر الإسلامى محمد إقبال، حيث قالت له: «اقرأ القرآن وكأنه عليك أنزل».

إن القرآن يحتاج إلى تدبر ما فيه، خاصة فى هذه الأيام، لأنه لا شىء يحدث فى الكون إلا ونجد له آية توضح مقصده وأساسه، ولكننا عنه غافلون.

- وعن المعلم: إن التعليم هو رسالة الأنبياء، وإن الأنبياء جميعهم كانوا معلمين. ورب العزة سبحانه وتعالى كان هو أول معلم تحدث عنه القرآن الكريم حيث هو الذى علم آدم الأسماء كلها، وبعد أن تعلمها آدم عليه السلام كان عليه أن يكون معلمًا.

والمعلم هو عصب العملية التعليمية فى كل وقت ومكان وإن على المعلم أن يأخذ من صفات الأنبياء باعتبارهم معلمين، ويترجم ذلك على أرض الواقع، وذلك يحقق له الاحترام والتقدير الذى يجب أن يناله من الآخرين، كما يحقق معاملة تلاميذه بالرفق واللين.

- وعن الأقليات: إن أمريكا تحاول محاولات مستميتة كى تلعب بورقة الأقليات.. والهدف هو تفتيت مصر وتفتيت وطن الإسلام - المفتت أصلاً - وهذا ما تعد الصهيونية له عدتها، لأنه الضمان لأمن إسرائيل، وهو ما يعلنونه صراحة، فالأمر لم يعد عملية مؤامرة، كما يتوهم البعض، بل أصبح مشروعًا معلنًا.

وإذا كان هناك مشاكل لأقليات أو لأغليات تنافش بالحوار، فنحن شركاء نركب سفينة واحدة، وبمنهج رسول الله ﷺ الذى ميز فيه بين حقوق الله فى الإيمان والاعتقاد وحقوق العباد بصرف النظر عن الدين.

إننا نؤمن بأن الإسلام دين فيه من السماحة والمسالمة مع الآخرين ما لا يحتاج إلى إضافة ولا إلى تعديل، خاصة وأن المادة ٤٠ من الدستور الحالى تساوى بين المصريين جميعًا فى الحقوق والواجبات، وهذا مأخوذ من الإسلام.

إن من يستعرض تاريخ الإسلام لا يجد إطلاقًا ما يمنع أن يكون هناك وزير غير مسلم أو خبير غير مسلم.. وعلى مدى التاريخ كان هناك وزراء وعلماء غير مسلمين

أسهموا في النهضة الإسلامية في شتى المجالات وعلى مدى العصور، إن محاويع أهل الذمة جعلها فقهاء الأمة مثل محاويع المسلمين، لا بد أن تقضى من خلال فروض الكفاية وإن هذا الأمر ينفي تمامًا ما قد يدعيه البعض من العنصرية والتمييز، ويقطع الطريق على من يدعو إلى فتنة طائفية على أساس أن الإسلام قد يحرم أهل الذمة.

٤- الثورة والإصلاح:

لقد كان العدوان على أحكام الله وشريعته من أهم أسباب اندلاع الثورات العربية..

- ففي تونس: اعتدى الحكام على دين الله: فالصيام مضيعة للاقتصاد، والصلاة مفرخة للإرهاب، وتسجيل اسم كل فرد يدخل المسجد للصلاة، ومن يعتاد صلاة الفجر يعد في نظرهم إرهابيًا، بل كان المسجد بالبطاقة، ومنعت النساء المسلمات من ارتداء الحجاب، كما منع تعدد الزوجات، في الوقت الذي سمحوا فيه بالزنا واعتبروه حرية شخصية!

- وفي ليبيا: غير الحاكم تاريخ الأمة الإسلامية، وتلاعب بشرع الله ومنهجه وكتابه، وادعى لنفسه ألقابًا، كنبى الصحراء، وملك ملوك إفريقيا، وعميد القادة العرب.

- وفي سوريا: معظم رجال الحكم ينتمون إلى الباطنية العلوية.

- وفي مصر: تبنا تعليمات الأمم المتحدة لتغيير هوية الأمة المسلمة، وكانت البداية بتغيير القوانين الخاصة بالمرأة والطفل.

ولقد ظلت مصر تحكم بقوانين فرنسية تخالف شرع الله وسنة نبيه ﷺ: إن على المسلمين طاعة الحاكم ما دام متمسكًا بتطبيق شرع الله، محترمًا ضوابط الحلال والحرام، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وإن التغيير لم يحدث كاملاً، وإنما حدث جزئياً، والتغيير الكامل إنما يتم بأن نكون في معية الله وكتابه وسنة نبيه ﷺ.

وحتى تتحقق الآمال المعقودة، فيجب الحفاظ على الثورة من انقضاى رموز الفساد والظلم.. وينبغى أن نبدأ عهداً جديداً بأيدى نظيفة متوضئة تحملى هم الأمة وهم هويتها وقيمها وأخلاقها ودينها لتسلم الراية وتحقق ما أراد الله لهذه الأمة من خيرية.

إن إرادة الله وعنايته بمصر جعلت هذه الثورة [ثورة ٢٥ يناير سنة ٢٠١١م] - تقوم على أكتاف شباب لا يتمون إلى حزب أو اتجاه معين وإن الحكمة الإلهية اقتضت ذلك، لأنه لو كانت الشعارات المنبثقة من هؤلاء الشباب إسلامية لتكتل الغرب والشرق وكل أعداء الإسلام لإجهاض هذه الثورة.

إن وحدة الشباب كانت من أهم عوامل نجاح الثورة.. وإن الجمعية الشرعية سمحت لأبنائها الراغبين فى المشاركة فى الثورة بأن يشاركوا بأشخاصهم لا باعتبارهم يتمون للجمعية الشرعية.

إن الثورة المصرية لم تقم لظلم اجتماعى فقط، وإنما كانت لظلم أكبر وهو ظلم وقع على دين الله عز وجل بسبب حملات التغريب المستمرة التى كانت تواجهها الأمة الإسلامية.

إن الإسلام لا يمنع المظاهرات، وهى ليست خروجاً على الحاكم، ولا بد من نصح الحاكم الظالم، فإن لم يستجب للنصيحة فالقرآن الكريم يطالب المسلمين برفع أصواتهم بمظلمتهم: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨].

والله سبحانه وتعالى قد رتب الطاعة على العدل، وجعل التعاون بين الحاكم والمحكومين مرتباً على عدل الحاكم، وبين أن من السبعة الذين يظلمهم الله يوم لا ظل إلا ظله «إمام عادل»، كما أن حديث النبى ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» قد بين جزاء كلمة الحق والجهربها، فلو قتل من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يكون من أفضل شهداء الجنة. ومن ثم فإن المظاهرات السلمية كانت الوسيلة الشرعية لإعلاء الصوت وإنكار المنكر.

إن الحاكم فى الإسلام يسوس الدنيا بالدين، لذا ينبغى أن تكون لديه خلفية واضحة

عن المنهج الذى يريد أن يطبقه على المسلمين، وإن مهمته الأساسية هى إقامة العدل والمساواة التامة والقوة فى الحق. وبطانته وحاشيته دليل على خيريته أو شره.

ومعالم الإصلاح إنما تتمثل فى:

١- تتبع المنافقين والمفسدين الذين يقبضون من الخارج ويتسللون إلى كل موقع من مواقع الأمة لإفساد أخلاق الناس وتحقيق ما يريده اليهود من تفسخ الأخلاق فى المجتمع والتفريق بين أبنائه.

٢- تفعيل قاعدة «من أين لك هذا؟»، التى تجعل التقوى عبادة عامة، وليست مجرد عبادة خاصة.

٣- إقامة العدل والقسط بين الناس.

٤- الاستمسك بشريعة الله وأحكامه التى هى أساس من أسس الإصلاح.

٥- استشعار نعمة الأخوة التى من الله بها على عباده المؤمنين.

٦- تشجيع الدعاة والمصلحين المرشدين على القيام بمهمتهم فى نشر الدعوة إلى الخير.

٧- الصبر الإيجابى، وليس الصبر السلبي، وهو يقتضى التدرج فى أنواع الصبر الأربعة:

أولاً: الصبر على الطاعة.

ثانياً: الصبر عن المعصية، خاصة التى فيها إغراءات ومنها سلب أموال الناس بالباطل.

ثالثاً: الصبر عند المصيبة والشدة.

ورابعاً: الصبر والصمود أمام أعداء الله عز وجل.

٨- أن يكون المسلم على خبرة بالأعداء وبطبيعتهم.

٩- ضرورة تفكيك العلاقة بين اليهود والقوى الأخرى التى تساندهم ويعتمدون عليها، وتفعيل سلاح المقاطعة للدول التى تدعم إسرائيل.

١٠- تحقيق الأمن والاستقرار، وهذا يحتاج إلى علانية العقوبة فلا تنمية ولا عمل ناجحًا إلا في ظل الأمن والاستقرار.

١١- الاستغناء عن المساعدات الأمريكية وغيرها من المساعدات الغربية، فهي لا تأتي إلا مشروطة والشروط دائمًا تأتي على حساب القيم والمبادئ والعقيدة.. وأعداء الدين يستهدفون القيم والأخلاق، فإن ضاعت الأخلاق والقيم من المسلمين سهلت السيطرة عليهم.

١٢- إصلاح وسائل الإعلام، فهي لم تتغير بعد الثورة، لأن بعض الذين يتولون أمر الإعلام هم بقايا الشيوعيين والعلمانيين الذين تفزعهم الفكرة الإسلامية- وهم يعتمدون التقاط بعض الأخطاء الصغيرة فيكبرونها ليشوشوا على الإسلام.

١٣- تطبيق القانون بلا استثناء على كل فرد في المجتمع، على المسلم وغير المسلم، على المسجد والكنيسة، وأن تفتح الكنائس أبوابها كما تفتح المساجد أبوابها، وكما يعلم الجميع ما يقال للمصلين في المساجد يجب أيضًا العلم بما يقال للمصلين في الكنائس حتى نقطع دابر الفتنة والشكوك.

١٤- إحصاء عدد المسلمين وعدد المسيحيين إحصاء دقيقًا، وحصر مساحات المساجد والكنائس والأديرة ليتم بناء المساجد وبناء الكنائس على أساس هذا العدد الحقيقي الموجود في المجتمع، ووفق القانون العالمي الذي يخصص لكل عابد من أي دين مساحة نصف متر على الأقل.

١٥- جعل مهمة الجيش الأساسية هي الحفاظ على حدود مصر والتصدي للأعداء الخارجين.

١٦- وحدة الصف، والحذر من الفرقة التي تؤدي إلى التنازع والقتال - فلقد جعلها الرسول ﷺ كفرًا: «لا ترجعوا بعدى كفرًا يضرب بعضكم رقاب بعض» - والمراد بالكفر هنا كفر نعمة الأخوة - وليس الكفر المخرج من الملة.

١٧ - الحذر من الأعداء الثلاثة:

أ- الشيطان.

ب - واليهود.

ج - والمنافقين الذين يتعاونون مع أعداء الأمة.

١٨ - والحذر من التخويف غير المبرر من الإسلاميين من قبل بعض الأفراد داخل مصر، فلقد أصبح هذا التخويف الداخلي أشد من مثله الخارجي المسمى بالإسلاموفوبيا، فالذين يخشون تطبيق الشريعة هم أصحاب المصالح والمتنفعون بالحرام من الأنظمة السابقة الذين يحرصون على نشر الفوضى من أجل مصالحهم الخاصة. إننا لا يهمنا من يرفع راية الإسلام، وإنما المهم أن تُرفع الراية.

١٩ - على الأقلية أن تخضع للأكثرية، فهذا هو مبدأ الشورى في الإسلام، وهو معنى الديمقراطية التي ينادى بها البعض.. وخضوع الأقلية للأغلبية لا يسىء إليها.. فلقد خضع النبي ﷺ في شورى غزوة أحد - للأكثرية، دون أن يكون في ذلك إساءة له.

٢٠ - اعتماد منهاج التوافق، فالأقلية تقول رأيها، والأكثرية تقول رأيها، وفي النهاية يكون الجميع متكاملين في وطن واحد يسعى الجميع فيه إلى المصلحة العامة، ويتنازلون عن المصالح الشخصية والفئوية والأهواء.

٥- الجمعية الشرعية

إن الجمعية الشرعية جمعية دعوية، من شأنها وواجبها أن تقدم النصح للأئمة والعامة.. وليس لها أى مطمح فى حكم أو مشاركة سياسية فى ترشيح أحد من أبنائها. وأبناء الجمعية الذين نزلوا إلى ساحة التحرير نزلوا بأشخاصهم وليس بصفاتهم منتمين للجمعية، ومن ثم فإن الجمعية الشرعية ليست جهة سياسية، ولكنها تقدم النصح والإرشاد لما فيه صالح الأمة فقط.

ولقد رأت الجمعية أن التصويت بنعم للتعديلات الدستورية - [مارس سنة ٢٠١١م] - يمثل ضماناً للأمن والاستقرار كما يمثل أمناً للأمن القومى المصرى، خاصة فى ظل اضطرابات تعيشها المنطقة وقلق يحيط بمصر من الشرق والغرب والجنوب.

والجمعية الشرعية لا تدعى أن من يقول «نعم» للدستور دخل الجنة، ومن يقول «لا» دخل النار، ولكنها تدعو للخروج للإدلاء بالصوت، وتعتبره واجباً شرعياً، أما الاختيار فهو مسئولية كل فرد أمام الله، ودور العلماء فقط هو التوعية والتبصير والإيضاح، أما الاختيار فكل إنسان حر في اختياره.

إن المشاركة واجب شرعى على كل مسلم ومسلمة باعتبارها شهادة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنَّ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِيَّاهُمْ قُلُوبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣] - وذلك مع التقدير الكامل للآراء الأخرى، فلهم وجهة نظر محترمة.

إن الجمعية الشرعية منذ تأسيسها وهى تتخذ لنفسها منهجاً، وهو أن تقوم بمبدأ النصيحة لجميع الشرائح، عملاً بالحديث الشريف: «الدين النصيحة. قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ورسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم».

وإن النصح لا يكون فقط للعامة وإلا كان الدين أفيون الشعوب، وإنما النصيحة ينبغي أن تكون «للأئمة قبل العامة» لقد اتخذت الجمعية الشرعية هذا المسلك فى النصح، والذي اعتبره البعض جرأة غير محسوبة، خاصة عندما تصدت الجمعية وبكل حزم للقوانين التى تمس الإسلام فى عمقه وأصالته وثوابته، فكان موقفها الواضح من قانون الطفل وقانون المرأة واتفاقية «السيداو»، وكل المؤتمرات التى جاءت من الأمم المتحدة.

وفى العمل الإغاثى تقوم الجمعية الشرعية بأداء فروض الكفاية نيابة عن الأمة، وهذا هو سر نجاحها.. إنها لا تمد يدها للآخرين حتى يعطوها من مال الله، ولكنها تقوم فقط بحض أهل الخير ومن معهم أموال لسد حاجة الفقراء واليتامى والمساكين والمرضى.. إنها لا تتلقى الأموال فى أيديها، ولكنها توجه أهل الخير إلى المشروعات، وتقدم لهم دراسات الجدوى ليقوموا بإنشاء المستشفيات أو المراكز أو المعاهد بأنفسهم، ثم تنوب الجمعية عنهم فقط فى تسيير الأمور.

وفيما يتعلق بتعاون الجمعية الشرعية مع الآخرين، فلقد قمت بدعوة قادة أنصار السنة

المحمدية، وتحديثنا معاً عن أدب الاختلاف في الإسلام، واتفقنا أن كلاً من الجمعية الشرعية وأنصار السنة وجهان لعملة واحدة، كما اتفقنا على ضرورة تكوين لجنة من العلماء - من الجمعية الشرعية وأنصار السنة - لحصر مواطن الخلاف وإبداء رأى موحد فيها، وما يتفقون عليه يكون ملزماً لكلا الطرفين. غير أن الجمعية الشرعية طال انتظارها للرد على هذا العرض، مما تسبب في بلبلة كثير من الشباب وانشغالهم بالخلافات الصغيرة عن الدعوة الجادة لإنقاذ الأمة مما تعانيه.

هكذا تحدث الأستاذ الدكتور الشيخ محمد المختار المهدي في ندوات [التبيان].. وهكذا رأينا فقهه العميق للواقع الإسلامي المعيش.. وهو فقه تميز به عن كثيرين من الذين ألفوا الكتب وألقوا المواعظ والدروس والمحاضرات. ولقد اخترنا هذه القطرات من بحر هذا الفقه، لنقدم بها بين يدي هذا المحيط - محيط ندوات [التبيان] - الذي سبح فيه الشيخ المهدي مع عشرات من كبار العلماء والمفكرين والخبراء، الذين اجتهدوا كي ينيروا للأمة طريق التقدم والتحرر والنهوض. سائلين المولى - عز وجل - الرحمة للشيخ المهدي.. والسداد والتوفيق لأمة الإسلام.. إنه - سبحانه وتعالى - خير مسئول وأكرم مجيب.

الإصلاح بواسطة البيان

(١)

فى تراثنا الإسلامى، مثَّل حجة الإسلام أبو حامد الغزالى [٤٥٠ - ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨ - ١١١١م] «ظاهرة فكرية»، أظلت عصره، وظلت كذلك حتى هذا العصر الذى نعيش فيه.. وستظل كذلك إلى ما شاء الله..

ومن بين الأسباب الكثيرة التى وقفت وراء ذلك، كان «الإحياء والتجديد» أبرز الأسباب التى جعلت من مشروعه الفكرى «ظاهرة» دائمة التأثير عبر الزمان والمكان فى إطار العقل المسلم، بل وخارج عالم الإسلام.

ذلك أن «التجديد» سنة من سنن الله - سبحانه وتعالى - فى الكون.. وفى الدين.. وفى الفكر، به تتجدد رؤية الفكر للكون، وعلاقات العلوم الإنسانية بالعلوم الكونية.. وتفاعل كتاب الله المسطور مع كتابه المنظور..

- لقد مثَّل حجة الإسلام الغزالى إسهامًا متميزًا فى «تجديد الأشعرية» - مذهب الوسطية الإسلامية - فانتقلت من رد الفعل إلى الفعل..

- و«تجديد العقلانية الإسلامية»، لتجمع بين العقل والشرع، على النحو الذى يكون فيه «العقل مع الشرع نور على نور»..

- و«تجديد التصوف»، ليجمع بين فقه القلوب وفقه العقول، وليبرأ من الباطنية ومن الحرفية كليهما..

- و«تجديد الفلسفة»، لتبرأ براهينها من الطابع الوثنى الذى شاب فلسفة اليونان..

- و«تجديد أصول الفقه»، بتقعيد بواكيره التى أرساها الإمام الشافعى [١٥٠ - ٢٠٤هـ - ٧٦٧ - ٨٢٠م] فى رائحته [الرسالة]..

- و«تجديد المنطق»، ليصبح القسطاس المستقيم، المتسق مع عقيدة التوحيد ولغة القرآن الكريم..

- و«تجديد الفكر السياسى»، بجعل فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ديواناً لفقه مقاومة الاستبداد، وذلك لإنقاذ الأمة من وبال هذا الداء العضال..

نعم لقد حدث ذلك، حتى لقد جاء عنوان موسوعته الفريدة [إحياء علوم الدين] تعبيراً عن مشروعه الفكرى الذى مثل الإحياء والتجديد فى مختلف ميادين الفكر والعلوم والسلوك.. لهذه الإسهامات المتميزة - وأمثالها - كان حجة الإسلام أبو حامد الغزالى علامة بارزة وفارقة فى مسيرة الفكر الإسلامى، وظاهرة فكرية جعلت إبداعاته «زاداً» غنياً للعقل المسلم والقلب المؤمن مع توالى القرون، واختلاف الحواضر، والمدارس والجامعات، وتعدد الألسنة واللغات..

وإذا شئنا مثلاً على امتداد هذا التأثير لهذا «الزاد» فى عصرنا الحديث، فإننا واجدوه عند الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦-١٣٢٣هـ / ١٨٤٩-١٩٠٥م] وأنجب تلاميذه الشيخ محمد مصطفى المراغى [١٢٩٨-١٣٦٤هـ / ١٨٨١-١٩٤٥م]..

ففى سنة ١٩٠٤ رشح محمد عبده تلميذه المراغى ليعمل قاضياً فى السودان.. وعشية السفر ذهب التلميذ لوداع شيخه، فسأله الشيخ:

- «هل معك رفقاء السفر؟»

- فقال: نعم، بعض كتب أنس إليها، وأستديم بها اتصالى بالعلم.

- فقال الإمام: أو معك كتاب الإحياء؟

- فقال المراغى: نعم.

- فقال الإمام: هذا الكتاب لا يجوز لمسلم أن يسافر سفرًا طويلاً دون أن يكون رفيقه..

ولقد علق الشيخ المراغى على هذا الحوار، متحدثاً عن مكانة حجة الإسلام وموسوعته [إحياء علوم الدين] فقال:

«إذا ذكرت أسماء العلماء، اتجه التفكير إلى ما امتازوا به من العلم وشعب المعرفة. فإذا ذكر ابن سينا [٣٧٠ - ٤٢٨ هـ / ٩٨٠ - ١٠٣٧ م] أو الفارابي [٢٦٠ - ٣٣٩ هـ / ٨٧٤ - ٩٥٠ م] خطر بالبال فيلسوف عظيم من فلاسفة الإسلام.

وإذا ذكر ابن عربي [٥٦٠ - ٦٣٨ هـ / ١١٦٥ - ١٢٤٠ م] خطر بالبال رجل صوفي له في التصوف آراء لها خطرها.

وإذا ذكر البخاري [١٩٤ - ٢٥٦ هـ / ٨١٠ - ٨٧٠ م]، ومسلم [٢٠٦ - ٢٦٠ هـ / ٨٢٠ - ٨٧٥ م]، وأحمد [١٦٤ - ٢٤١ هـ / ٧٨٠ - ٨٥٥ م] خطر بالبال رجال لهم أقدارهم في الحفظ والصدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال.

أما إذا ذكر الغزالي، فقد تشعبت النواحي، ولم يخطر بالبال رجل واحد، بل خطر بالبال رجال متعددون، لكل واحد منهم قدره وخطره، يخطر بالبال الغزالي الأصولي الحاذق الماهر، والغزالي الاجتماعي الخبير بأحوال العلم وخفيات الضمائر ومكونات القلوب، والغزالي الفيلسوف الذي ناهض الفلسفة وكشف عما فيها من زخرف وزيف، والغزالي المربي، والغزالي الصوفي الزاهد.. وإن شئت فقل: إنه يخطر بالبال رجل هو (دائرة معارف) عصره، ورجل متعطش إلى معرفة كل شيء، نهم إلى جميع فروع المعرفة^(١).

* * *

ولقد شاء الله لرجل بسيط الحال، من مريدي حجة الإسلام الغزالي في بلدة «نكلا العنب» - مركز «إيتاي البارود» - محافظة البحيرة - سنة ١٣٣٥ هـ / ١٩١٧ م - أن يتوجه قلبه إلى مولاه متمنياً لوليدته أن يكون إحياء لصاحب الإحياء.. فسمى الوليد «محمد الغزالي»، بعد أن جاءه حجة الإسلام في الرؤيا يشير عليه بهذا الاتجاه..

ولقد أنفق الرجل على تعليم وليده كل ما ملكت يده.. ولقد استجاب الله لأمنية عبده المخلص البسيط.. فكان شيخنا الغزالي واحداً من أبرز المجددين للإسلام في القرن العشرين الذين تنطبق عليهم أوصاف الشيخ المراغي لحجة الإسلام أبو حامد الغزالي.

(١) على عبد العظيم [مشيخة الأزهر] ج ٢، ص ١٢، ١٣. طبعة القاهرة سنة ١٣٩٩ هـ - سنة ١٩٧٩ م.

- فالإسلام عند شيخنا الغزالي ليس متونًا وطقوسًا، وإنما هو «قلب تقى وعقل ذكى. قلب خاشع وفكر فاضل، وأمانات مرعية فى تقلب المرء على ظهر الأرض منذ رشده إلى أن يلقي ربه.. وهو دين ودولة، وعبادات ومعاملات. وهو وحي معصوم، أما الفكر الإسلامى والحكم الإسلامى فلا عصمة لهما».

- «وبانتهاى عصر الوحي ابتداءً عصر العقل.. فديننا قوامه العقل، والقرآن معجزة عقلية. وأولوا الأبواب هم الناس حقًا».

- «ولا يعرف الله إلا الله - «أنت كما أثبتت على نفسك».. وإن أسماء الله الحسنى هى تقريب للعظمة الإلهية من العقل الإنسانى الكليل».

- «ومنذ أربعة عشر قرنًا والشمس هى الشمس، والقمر هو القمر، والقرآن هو القرآن».

- «وإنه لا سنه بغير فقه. وإن المتواتر يحكمنى، والصحيح يلزمنى.. وإن الأبواب كلها موصدة أمام من حُرِّم التأسى بمحمد ﷺ فهو إمام الأتقياء وسيد المربين.. وليس فى تاريخ البشرية حامل سيف أعف من محمد.. ما غضب إلا الله».

- «والصلاة معراج روحى يرقى بصاحبه إلى الملاء الأعلى».

- «والصوم هو حرمان الواجد ابتغاء ما عند الله».

- «ويجب أن يكون الإنفاق والجهاد والمحيا والممات جميعًا فى سبيل الله».

- «وإن الإنسان الذى يملك شهواته قوة خطيرة، والشعب الذى يملك شهواته قوة أخطر».

- «وحيث يكون الخلل السياسى يكون الإثراء الحرام. وإن أى فرعون لا يوجد إلا حيث يوجد الأوغاد والأذئاب.. وإن الظلمة هم أجبن الناس، لا يزأرون إلا فى خلاء، ولا يمتدون إلا فى فراغ، والويل للشعوب الجبانة».

- «وإن الوثنية السياسية هى التى تحمى الوثنية الدينية.. وإن سدنة الوثنية السياسية لا يقلون شرًا عن سدنة الأصنام».

- «وإن المسلمين الساكتين على الظلم أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان، أما الأجانب الغاضبون للظلم فهم أقرب إلى الإيمان منهم إلى الكفر».
- «وإن القوانين الوضعية هي الوجه الرسمي للجاهلية الوثنية».
- «والخطأ الفقهي مأجور، أما الخطأ الخُلقي فهو إثم».
- «وإن تربية اللحية من سنن الفطرة، وتربية النفس من أركان الإيمان».
- «وإن حقوق الإنسان هي الوجه المقابل لعقيدة التوحيد. وإن حرية الفكر هي المهاد الأول والأوحد لمعرفة الله».

- «ولقد رأيت - بعد تجارب عدة - أنني لا أستطيع أن أجد بين الطبقات البائسة الجو الملائم لغرس العقائد العظيمة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة! إنه من العسير جداً أن تملأ قلب إنسان بالهدى إذا كانت معدته خالية، أو أن تكسوه بلباس التقوى إذا كان جسده عارياً!.. إنه يجب أن يؤمّن على ضروراته التي تقيم أوده كإنسان، ثم يُنتظر بعدئذ أن تستمسك في نفسه مبادئ الإيمان.. فلا بد من التمهيد الاقتصادي الواسع، والإصلاح العمراني الشامل، إذا كنا مخلصين حقاً في محاربة الرذائل والمعاصي والجرائم باسم الدين، أو راغبين حقاً في هداية الناس لرب العالمين».

- «وإن الارتداد عن الدين نقض للأسس التي يقوم عليها المجتمع والدستور.. وإن إنكار الملحد لربه أفحش من عقوق الولد لأبيه البر الرحيم.. وإذا كانت خيانة الوطن والقوم جريمة، فكيف بمن خان رب الأرض والسماء ورب البشر كلهم، ألا يعد مجرمًا؟!».

* * *

تلك إشارات - مجرد إشارات - لبعض عناوين المشروع التجديدي، الذي سلك فيه شيخنا الغزالي ذات الطريق الذي سلكه من قبل حجة الإسلام.. وسائر أعلام السلسلة الذهبية من المجددين العظام..

- وللتعبير عن مفردات هذا المشروع استخدم شيخنا الغزالي كل سبل الخطاب

التي أتاحتها ويسرتها لغة القرآن الكريم.. ومنها الخطاب الأدبي - الذى هو موضوع الدراسة الجادة والمتميزة والممتازة التى نقدم بين يديها..

ففى هذه الدراسة سنجد شيخنا الغزالى من زعماء الإصلاح الذين وظفوا بلاغة القرآن الكريم، وبيان السنة النبوية، وجمال الشعر العربى فى الدعوة إلى الإصلاح.. فالغزالى عاشق القرآن الكريم، المتشرب لنصوصه ومعانيه قد انسابت هذه النصوص وهذه المعانى إلى أسلوبه انسياباً عذباً رقيقاً، الأمر الذى أكسب أسلوبه - فى كل ميادين الإصلاح - رقة وبهاء وجلالاً مستمداً من قدسية القرآن الكريم، الأمر الذى فتح الطرق واسعة أمام كتاباته وخطبه وأحاديثه وحواراته كى تصل إلى القلوب والعقول دونما حواجز أو سدود...

- فالنظام الرأسمالى يهوى بالضعفاء والمحتاجين فى مكان سحيق.

- والمشرک بالله، البعيد عن الهدى تتخطفه الشياطين من كل جانب، فمثله كمثل الذى سقط من السماء.

- وفى الإصلاح الاقتصادى قطع لدابر الذين ظلموا، بأكلهم التراب أكلاً لما، وحبهم المال حباً جما، حتى لقد أنساهم الطمع أنفسهم فسقطوا بمجتمعاتهم فى ظلمات بعضها فوق بعض..

- والعمل النافع هو جهاد فى سبيل الله، والهجرة فى طلبه هى هجرة إلى الله..

- وحملة الدين وحماته هم العلماء العدول الذين ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

- والخشية الكبرى على الدين ليست من الأعداء.. وإنما من متحدث جاهل، أو منافق عليم اللسان، أو سياسى يتخذ إلهه هواه..

وعلى الأمة أن تجعل الإسلام أباه وفخرها وعزها وحصنها.

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

لقد كان الإعجاز القرآنى الفريد والمتحدى.. والبيان النبوى الذى أوتى جوامع الكلم.. وبلاغة الأدب العربى، الذى تميز وامتاز على سائر الآداب.. كانت جميعها الديوان الذى اصطبغ به أسلوب الشيخ الغزالى فى الدعوة إلى الإصلاح، فجاء أسلوبه، كما جاءت معانيه قبساً من هذا الثراء العظيم.. ولذلك ظلت آثاره الفكرية - وستظل - نوراً يضيء العقول والقلوب، ومعالماً يهتدى بها السائرون على طريق الإصلاح بالإسلام.. على حين دخلت المشاريع الفكرية التى حُرِّم أصحابها نعمة الانتماء للإسلام، والاهتداء بهديه، والاستعانة ببلاغته كتابه، وبيان نبیه.. دخلت هذه المشاريع الفكرية مع أصحابها إلى القبور التى دفنوا فيها!..

وصدق الله العظيم: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُۥ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثَلٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧]..

* * *

والآن إلى هذه الدراسة الممتعة، التى تمثل صفحة مشرقة فى كتاب الإحياء للفكر الذى أبدعه شيخنا محمد الغزالى.. والذى مثل إسهاماً متميزاً وممتازاً فى الإحياء للإسلام.. الذى كان ولا يزال وسيظل هو الإحياء ولا إحياء سواه ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤]..

مع دعاء إلى الله - عز وجل - أن ينفع بهذه الدراسة.. وأن يوفق صاحبها إلى المزيد والمزيد من العطاء العلمى والإبداع الفكرى إنه سبحانه وتعالى - خير مسئول وأكرم مجيب^(١).

(١) تقديم لرسالة جامعية عن [توظيف الخطاب الأدبى فى الدعوة إلى الإصلاح: الشيخ محمد الغزالى نموذجاً] للباحث محمود عشرين كلية الدعوة - جامعة الأزهر الشريف.

دور الوقف في صياغة الحضارة الإسلامية

في التطور الحضارى لآمتنا الإسلامية، هناك معادلة غير مفهومة - ومن ثم غير محلولة - لدى كثيرين. وبسبب ذلك تشيع الأحكام الظالمة لتاريخنا الحضارى من قبل هؤلاء الكثيرين..

وهذه المعادلة هي التوفيق بين:

١- الانحراف المبكر «للدولة» الإسلامية عن فلسفة الشورى، كمنهاج حكم لعلاقة الحاكم بالمحكوم.. الأمر الذى انتقل بالخلافة من طور «الرشد» و«الكمال» إلى طور «النقصان» و«الملك العضود». وكذلك انحراف «الدولة»، فى كثير من فترات التاريخ، عن نهج «العدل الاجتماعى»، كما قرره الإسلام.

٢- بناء وازدهار الحضارة الإسلامية، كأعظم حضارات التاريخ الإنسانى، فى ظل هذا الانحراف؟!.. وشيوع مستويات من العدل الاجتماعى بين طبقات الأمة، مكنت السواد الأعظم من التمتع بمقادير من اليسر لم تشهد لها كثير من الحضارات الأخرى فى تلك القرون..

تلك هي المعادلة التى يخطئ فى فهمها وحلها الكثيرون، فيظلمون تاريخنا الحضارى، عندما تستقطبهم مظاهر انحراف «الدولة» إلى الحد الذى يعجزون بسببه عن استيعاب إمكانية بناء حضارة عظمى فى ظل هذا الانحراف!..

وهذا الموقف الخاطئ حتمًا، جاءه الخطأ الذى أعجزه عن حل هذه المعادلة من إغفال حقيقتين مهمتين من حقائق هذا التاريخ الحضارى لآمتنا الإسلامية:

أولاهما: أن نطاق «الدولة» وآفاق تأثيراتها، فى ذلك التاريخ القديم، لم يكن على النحو القائم الآن فى «الدولة» الحديثة التى نعيش فى كنفها. فنطاق الدولة الحديثة قد أصبح عامًا، ونطاق تأثيرها يكاد ألا يدع فى الحياة ميدانًا ولا مجالًا إلا ومد إليه شمولية تأثيراتها وبصمات مؤسساتها، الأمر الذى يجعل من انحراف الدولة الحديثة طامة كبرى تحول بين أمتها وبين تحقيق أى نهوض. حتى لقد تحدث جمال الدين الأفغانى عن هذا التطور فى نطاق تأثيرات «الدولة» على النحو الذى جعل منها «فرعونية جديدة» لا يرى الناس إلا ما ترى! فقال: «لا يصلح فى الشرق كما تكونون يولى عليكم» ولكن: «كما يولى عليكم تكونون»؟!..

ولم يكن هكذا نطاق تأثير «الدولة» الإسلامية، التى أصابها الانحراف عن الشورى وعن العدل - منذ العصر الأموى إذ لو كانت كذلك - «كما يولى عليكم تكونون» - لما قامت فى ظلها هذه الحضارة التى تفردت برفع لعنة عموم الظلم والجهالة عن الإنسانية كلها لأكثر من عشرة قرون..

لقد حدد معاوية بن أبى سفيان [٢٠ ق. هـ - ٦٠ هـ / ٦٠٣ - ٦٨٠ م] نطاق تأثير «الدولة» فى ذلك التاريخ، عندما قال: «لن نمنع الناس ألسنتهم ما خلوا بيننا وبين أمرنا». وينفسح المجال أمام ثانية الحقائق المعينة على فهم وحل هذه المعادلة: وهى الحقيقة الثانية - إن «الأمة» ومؤسساتها الأهلية، وجهودها الطوعية، وأعمالها الخيرية، وعلماءها، ومجاهديها، ومذاهبها، ومدارسها وتياراتها الفكرية - التى ظلت خارج نطاق هيمنة «الدولة»، فلم تعطل الانحرافات طاقات الخلق والإبداع فيها - أن «الأمة» ومؤسساتها هى التى أبدعت حضارة الإسلام.

كانت «الدولة» تقود الفتوحات.. لكن نشر الإسلام، والعربية، فى البلاد المفتوحة، وإبداع العلوم، وتطبيقاتها - أى إقامة الحضارة - كانا صناعة «الأمة».. بل لقد كان «الفتح والجهاد» صناعة «الأمة»، تقوم عليهما مؤسساتها الطوعية التى ترعى الرباط فى سبيل الله، حماية للشعور، وتعقبًا لأعداد الإسلام! فـ«الأمة» هى التى صنعت الحضارة، ورعتها وطورتها.. وهى قد استطاعت ذلك، رغم انحراف «الدولة» لأن نطاق هذه «الدولة»، ومن ثم تأثيرات «انحرافها»، كان محدودًا..

دور الوقف فى صياغة الحضارة الإسلامية

ولقد أعان الإسلام على ترجيح كفة «الأمة» على كفة «الدولة»، منذ بداية تجربته فى الحكم.. وأسهمت فى ذلك كثير من مبادئه السياسية وقواعده الفكرية.

«فالأمة» هى المستخلفة عن الله، سبحانه وتعالى.. أما «الدولة» فهى الخليفة عن «الأمة» - بالاختيار - والخاضعة لرقابتها وحسابها.. فالطرف الأصيل فى نظرية الخلافة والاستخلاف هو «الأمة»..

و«الأمة»، فى الإسلام، هى التى يتوجه إليها الخطاب فى التكاليف الاجتماعية - الكفائية - وهى أشد تأكيداً من التكاليف الفردية - العينية - حتى يقع الإثم فى التخلف عن إقامتها على الأمة جمعاء، وليس على الفرد وحده؟!.

و«الأمة» - وليس «الدولة» - ولا «الطبقة» - هى حاملة أمانة رسالة التقدم، بنظر الإسلام، الذى هو «دين الجماعة»..

بهذه المبادئ والقواعد، وأمثالها، رجحت، فى الرؤية الإسلامية، كفة «الأمة» على كفة «الدولة».. وأعان على ذلك أيضاً طول التاريخ الذى لم تكن «الدولة» قد وصلت فيه إلى مرحلة «الخطبوط» الذى عدا ويعدو على حرمان «الأمة» بالهيمنة والشمولية التى أخلت بهذه الموازين!..

هاتان هما الحقيقتان اللتان تفسران وتحلان المعادلة، التى يخفق فى حلها كثيرون.. وبهما نعلم، كيف بنت أمتنا أعظم الحضارات، على الرغم من الانحراف المبكر «للدولة» عن شورى الإسلام وعدله الاجتماعى!..

الوقف.. وصناعة الحضارة.. وإشاعة العدالة

وإذا كانت صناعة الحضارة الإسلامية قد مثلت ملحمة عظمى، نهضت بها الأمة على امتداد قرون عديدة.. منذ أن خرجت هذه الأمة من بين دفتى القرآن الكريم: صانع عقيدتها وشريعته.. ومؤلف وحدتها.. وموضوع علوم شريعته.. ومصدر الصبغة الإلهية لعلوم حضارتها.. وناسج المعايير التى عرضت عليها موارث الأمم التى سبقتها وعاصرتها..

إذا كان هذا هو شأن «الأمة» فى صناعة هذه الحضارة.. فإن «الوقف» قد كان المؤسسة الأم التى مولت صناعة أمتنا لهذه الحضارة الإسلامية.. ولم تكن «الدولة» ولا «الخزائن السلطانية» هى التى صنعت أو مولت هذه الملحمة الحضارية العظمى!! وكما رجح الإسلام، «كدين للجماعة»، كفة «الأمة» على «الدولة» عندما تمايزت مناهج التوجهات لدى كل منهما.. كذلك رجح الإسلام، «بنظرية الاستخلاف» فيه نهوض «الوقف» بدور المؤسسة الأم فى تمويل صناعة الأمة لحضارتها..

فالمالك الحقيقى - مالك الرقبة - للثروات والأموال، فى الدولة الإسلامية، هو الله، سبحانه وتعالى: بخلقه لها، وإفاضته إياها فى هذا الوجود.. والإنسان - الأمة - مستخلفة عن الله فى هذه الثروات والأموال، لها فيها الحيازة، والانتفاع، والاستثمار، بواسطة الملكية المجازية - ملكية المنفعة - على النحو الذى يحقق إعمار الأرض وفق الشريعة، الممثلة لبنود عقد وعهد الاستخلاف.. ﴿ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧]. فالمالك الحقيقى للأموال والثروات هو الله.. وللإنسان فيها ملكية المنفعة - المجازية - التى تطلق حوافز إبداعه فى التنمية والاستثمار، وفق عهد الاستخلاف.

لكن.. أما وقد جاءت صناعة الحضارة الإسلامية بواسطة الأمة، فلقد اقتضى تمويل هذه الصناعة قيام مؤسسة «التمويل الاجتماعى» و «الأهلى» و «الطوعى»، التى تحرر المال من استبداد الفرد، فضلاً عن الدولة، وترده خالصاً لملكية الله ليكون وقفاً على العمل الحضارى العام.. وليمثل النموذج الحقيقى للملكية العامة - التى لم تصل إليها الاشتراكيات الغربية التى انتهت إلى «رأسمالية للدولة أو الحزب.. أو البيروقراطية» البعيدة عن المعنى الحقيقى للملكية العامة!!..

لقد نهض الوقف فى الحضارة الإسلامية بهذا الدور.. دور إعادة «الملكية المجازية»، فى الأموال والثروات، إلى «الملكية الحقيقية» فيها، وبعبارة الإمام ابن حزم الأندلسى [٣٨٤ - ٤٥٦هـ / ٩٩٤ - ١٠٤٦م] وهو يرد على القائلين بأن الوقف - الحبس - يخرج الأموال من ملك الواقف إلى غير مالك - يقول: «إن الحبس ليس إخراجاً إلى غير مالك، بل إخراج إلى أجل المالكين، وهو الله سبحانه»..

دور الوقف فى صياغة الحضارة الإسلامية

وهذا الإخراج للملكية من غطاءها «المجازى الفردى» إلى غطاءها «الحقيقى العام»، قد عنى - فى نظام الوقف الإسلامى - تخلص التصرفات المالية من عيوب الانحراف عن بنود، وضوابط عقد، وعهد الاستخلاف الإلهى للإنسان فى الأموال.. فكان تعريف الوقف فى الفقه الإسلامى له أنه: «حبس العين على حكم ملك الله تعالى، والتصدق بالمنفعة على جهة من جهات البر ابتداء وانتهاء.. أى على وجه تعود منفعته إلى العباد..» فكأن الوقف هو إيجاد ضوابط الشرع فى التصرفات الإنسانية بالأموال والثروات!..

ولأنه سبيل لتحقيق هذه المقاصد، نهض، فى تاريخنا الإسلامى، سياجا فى مقاومة الجور والظلم، وأداة لإشاعة العدل خلال عهود انحراف الدولة عن عدالة الإسلام.. فكان الوقف سبيلاً لحماية الثروات والأموال من ظلم المصادرات!..

كما كان المؤسسة الأم التى مولت صناعة الأمة لأعظم الفرائض الاجتماعية: صناعة حضارة الإسلام..

بل ولقد مثل أحياناً - فى العلاقة بين «الدولة» و«الأمة» - سبيلاً وباباً من أبواب «توبة الدولة» عن جورها وظلمها، وخطوة على طريق سعيها نحو «الأمة» ترد لها بعضاً من حقوقها المغتصبة.. فكثيرون من أمراء الجور، الذين صادروا الأموال واغتصبوا الثروات، كانت توبتهم النصوح متجسدة فى الأوقاف التى حبسوها على جهات البر والخير، والتى عادت بها هذه الثروات من «ظلم الاغتصاب الفردى» إلى «عدل الضوابط الشرعية فى الأموال»..

وعندما مكنت الأوقاف «الأمة» من صناعة الحضارة، فإنها قد مكنتها من أن تظل كفتها هى الرابحة على كفة «الدولة»، على امتداد تاريخ الإسلام، الأمر الذى ضمن لحضارتنا الإسلامية فى الازدهار عمراً لم تماثلها فيه حضارة من الحضارات الأخرى!!..

كذلك مكنت الأوقاف، علماء الأمة - على اختلاف ميادين العلوم - من الاستقلال الفكرى عن «الدولة»، الأمر الذى جعلهم «سلاطين الأمة».. تتوج من بينهم «شيوخ الإسلام» و«حججه» و«سلاطين العلماء» و«سلاطين العارفين»، ليقودوا صناعة

حضراتها، وليصدوا عنها المظالم، ولتعلو مكانتهم، وترجع كفتهم على مكانة وكفة «سلاطين الدولة» وأمرائها!..

بهذه المهام الكبرى نهض تمويل الأوقاف لصناعة الحضارة في تاريخ الإسلام.. وما كان لذلك أن يحدث لو لم تمثل الأوقاف، في تاريخنا الحضارى، المؤسسة الأم، التى ضمنت قيام واستمرار وفعالية كل المؤسسات التى جسدت فى تاريخنا معالم حضارة الإسلام.

وإذا كان الإسلام قد تميز وامتاز - فى الرسالة الخاتمة - عن الرسائل السابقة - بقيامه كياناً حياً وواقعاً متجسداً فى مجتمع يحياه المسلمون.. فإن الوقف - كمؤسسة تمويلية - قد اقترنت بهذا الإنجاز منذ صدر الإسلام..

* فرسول الله ﷺ «حمى - أى حبس - النقيع لخیل المسلمين.. وحمى الربذة»^(١) لإبل الصدقة»، فأسس بذلك نظام الوقف فى دولة الإسلام، مصدراً لتمويل العمل العام..

* وعندما استشهد مخيرق بن النضر [٣هـ - ٦٢٥م] يوم أحد وكان من قبل حبراً من أحبار اليهود - أوصى بأمواله لرسول الله ﷺ «يصنع فيها ما أراد الله».. جاء التجسيد النبوى لإرادة الله من هذه الأموال - وكانت سبعة حوائط - بساتين - فى صورة وقف جعلها إياه رسول الله ﷺ..

وعمر بن الخطاب، رضى الله عنه، الذى أضاف «الشرف»^(٢) إلى النقيع و«الربذة»، حمى محبساً على الإنفاق العام للأمة.. هو الذى يتخير أنفس ما استخلفه الله فيه من الأموال ليحبسه للإنفاق على وجوه الخير فى مجتمع المسلمين.. فلقد جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنى استفدت مالاً، هو عندى نفيس، فأردت أن أتصدق به - فأجابه الرسول «تصدق بأصله، لا يباع ولا يوهب ولا يورث، ولكن ينفق ثمره».

(١) النقيع: موضع قرب المدينة. والربذة: من قرى المدينة. بينهما ثلاثة أميال.

(٢) وهو: «كبد نجد».

دور الوقف فى صياغة الحضارة الإسلامية

فكتب عمر وثيقة - التى لعلها أقدم وثائق وحجج هذا النظام فى تاريخ الإسلام - وفيها: «هذا ما كتب عبد الله عمر فى ثمغ» (أرض بخير)، أنه لا يباع أصلها ولا يوهب ولا يورث. للفقراء والقربى والرقاب وفى سبيل الله وابن السبيل والضيف. لا جناح على من وليها، أن يأكل منها بالمعروف ويطعم صديقاً غير متمول فيه...».

وإذا كانت الحضارة نهراً خالداً ومتجدداً، على حين تمثل حياة الأفراد، القطرات المتبخرة من هذا النهر.. فلقد قامت الأوقاف لتمويل الصناعة الحضارية الدائمة والمتجددة، تلك التى لا تفى برعايتها حياة الأفراد، وتصرفاتهم فيما يمتلكون من ثروات وأموال.. وإلى هذا المعنى - معنى الخلود المتجاوز لحياة الأفراد - والمحتاج إلى رد المال إلى المالك الباقي، سبحانه وتعالى - إلى هذا المعنى يشير حديث رسول الله ﷺ الذى يتحدث عن أن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: «علمًا نشره، أو ولداً صالحاً تركه، أو مصحفاً ورثه أو مسجداً بناه، أو بيتاً لأبناء السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته تلحقه بعد موته»^(١).

وحديث: «من احتبس فرساً فى سبيل الله إيماناً واحتساباً، فإن شبعه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة حسناً»^(٢).

فبهذه المؤسسة التمويلية الإسلامية الأم، أعاد الإنسان المسلم الأموال والثروات إلى مالكيها الحقيقي، ليضمن إيجاب ضوابط الشرع فى مصارفها، وليرتقى بذلك درجات على سلم العبودية لله.

وإذا شئنا إشارات شاهدة على شمول تمويل الوقف، فى الحضارة الإسلامية، لمختلف ميادين هذه الحضارة، ومن ثم إشاعته لمقادير كبيرة من العدل الاجتماعى بين الجميع - فى عصور اثره «الدولة» وجورها - فيكفى أن نعلم أن الأوقاف قد مولت ورعت:

- المساجد: التى مثلت بيوت الله فى الأرض، ودواوين الشؤون الإسلامية العامة، وأوتاد الإسلام فى أوطان المسلمين.

(١) رواه البخارى والإمام أحمد.

(٢) رواه البخارى والإمام أحمد.

- والمدارس: التي جعلت الحضارة الإسلامية منارة العلم الفريدة على هذه الأرض لعدة قرون.
- والمكتبات: التي يسرت العلم للراغبين فيه دونما نفقات.
- ونسخ المخطوطات: فى عصور ما قبل الطباعة، إلى الحد الذى جعل إحدى مكتبات القاهرة - فى العصر الفاطمى - تضم من [تاريخ الطبرى] - ذى المجلدات العديدة - ألفاً ومائتى نسخة، إحداها بخط المؤلف...!
- ورعاية المخطوطات: وحفظها وصيانتها.
- والحفاظ على التحف والآثار والعاديات..
- وإقامة الخوانق لأقطاب التصوف ومريديه.
- وإنشاء المكاتب القائمة على تحفيظ القرآن الكريم، فى المدن والقرى والداكر والكفور والنجوع..
- وإقامة البيمارستانات: مؤسسة متكاملة للعلاج والاستشفاء من كل الأمراض العضوية والنفسية.
- ورصف الطرق وتعديلها وصيانتها.
- وتحرير الأسرى، بافتدائهم، والإنفاق عليهم وعلى عائلاتهم..
- ورعاية أبناء السبيل، حتى يعودوا إلى المنازل والديار.
- والمعاونة على أداء فريضة الحج: للذين لا يستطيعون إلى ذلك سبيلاً.
- وتجهيز الحلى الذهبية وأدوات الزينة للعرائس الفقيرات اللائى لا يستطعن شراءها عند الزواج.
- ورعاية النساء الغاضبات، اللواتى لا أسر لهن، أو من تسكن أسرهن فى بلاد بعيدة.. فتؤسس لهن دور، تقوم على رعايتهن نساء، على رأسهن مشرفة تهيئ الصلح للزوجات الغاضبات مع أزواجهن؟!
- وعمارة الرباطات، فى الثغور للمجاهدين فى سبيل الله وشحنها بعدة القتال

- ونفقات المقاتلين، والرعاية لأسر الشهداء!..
- وإعانة العميان والمقعدين وذوى العاهات والأمراض المزمنة.
- وتطبيب الحيوانات والطيور.
- وإيواء ورعاية الحيوانات الأليفة.
- ومؤسسات «نقطة الحليب»، الخاصة بإمداد الأمهات المرضعات بالحليب والسكر، إعانة لهن على تغذية أطفالهن.
- وتهيئة موائد الإفطار والسحور للفقراء والغرباء فى شهر رمضان.
- والحدائق المخصصة ثمارها وظلالها لعبرى السبيل، يأكلون منها الفاكهة على مدار العام!
- والأوانى والقدر، المخصصة للمناسبات - أفرًا وأحزانًا - لمن لا يستطيع امتلاكها.. ومنها تعوض الأوانى التى يكسرها الخدم حتى لا يؤذيهم سادتهم ومخدوموهم...
- وتجهيز موتى الفقراء والغرباء.
- وبناء مقابر الصدقة، ليدفن فيها الفقراء والغرباء.
- والإنفاق على الحرمين الشريفين، بمكة والمدينة - وعلى المسجد الأقصى - وعلى علمائها وطلاب العلم فيها، وعموم الفقراء والمحتاجين من أهلها والوافدين إليها - عابرين أو مجاورين..
- والإنفاق على الضيوف.
- وإقامة أسواق التجارة، ووكالاتها بالمدن وعلى طرق التجارة..
- ومؤسسات الصناعة، التى تحتاجها الأمة، ولا تفى بإقامتها جهود وإمكانات الأفراد.
- والخانات، التى ينزل فيها المسافرين.

- والأفران، التي يخبز فيها الخبز.
 - والحمامات العامة، التي تحفظ، وتسير نظافة الجمهور وطهارتهم.
 - والأسبلة، التي يرتوى منها المارة وطلاب المياه.
 - والعبارات، التي تنقل الناس عبر الأنهار والترع والرياحات.
 - ومؤسسات الرعاية التي يعيش فيها المعاقون وأصحاب الأمراض المزمنة.
 - ومؤسسات رعاية الأيتام.
 - ورعاية المسجونين وأسراهم.
 - وتسليف المحتاجين، بدون عوض.
 - وتزويج المحتاجين والمحتاجات.
 - وإقامة الأرحية العامة لطحن الحبوب بالمجان.
 - وإنشاء القناطر والجسور على الأنهار والترع والرياحات.. إلخ.. إلخ...
- إن مهام اليقظة الإسلامية المعاصرة فى ميادين: الدعوة.. والإمامة.. والجهاد.. والفكر.. والعلم.. والتعليم.. وإحياء التراث.. وإنشاء القواميس والمعاجم والموسوعات.. والترجمة بين اللغات الإسلامية والأجنبية.. ومنابر الفكر والثقافة والإعلام.. والآداب والفنون.. والتنمية الاقتصادية والاجتماعية الإنسانية والشعبية.. والصحة.. والاجتهاد.. والتجديد فى علوم الشريعة وعلوم التمدن المدنى.. ورعاية الأقليات الإسلامية - وكل ما يتعلق بمواجهة مهام وتحديات النهضة الإسلامية المنشودة - داخلية كانت أو خارجية هذه التحديات.. إن هذه المهام، التى يمثل النجاح فيها طوق نجاة أمتنا مما يبيتها لها أعداء كثيرون وأقوياء، هى رهن بتعظيم دور «الأمة» فى حركة اليقظة الإسلامية المعاصرة، ليعود للأمة، دورها الرائد والقائد فى صناعة حضارتها الإسلامية.. فإحياء «الإسلام» كدين للجماعة» رهن بدور «الأمة».. الجماعة» فى هذا الإحياء..

وإذا كان العقل المسلم مدعوًا إلى إحياء نظام الوقف لتمويل مشروعات تجديد

دور الوقف فى صياغة الحضارة الإسلامية

الحضارة الإسلامية.. فإنه مدعو كذلك - وخاصة «العقل القانونى» الإسلامى إلى التفكير فى إصلاح ما أفسدته «الدولة الحديثة» عندما اعتدت على الأوقاف الإسلامية، ثم أجهزت عليها..

إن هذا «العقل القانونى» مطالب ببحث مدى مشروعية وقانونية إلغاء الدولة لأوقاف كتب أصحابها - فى حجج وقفها: أن أعيانها «موقوفة محرمة محبسة مؤبدة، لا يجوز بيعها ولا هبتها ولا تمليكها، باقية على شروطها، وجارية على سبلها.. لا يوهنها تقادم السنين، ولا تغير بحدوث حدث، ولا يستثنى فيها ولا يتأول، ولا يستفتى بتجدد حبسها مدى الأوقات، وتستمر شروطها على اختلاف الحالات حتى يرث الله الأرض والسموات».

هل هناك مشروعية - بمنطق الفقه الإسلامى.. أو القانون الوضعى لإلغاء الدولة أوقافاً تلك هى شروط الذين أوقفوها؟ وهل هناك مشروعية - فى بلاد إسلامية - لنقض إرادة الذين أخرجوا أموالهم عن ملكيتهم الخاصة إلى ملكية «أجل المالكين»، سبحانه وتعالى. نقض هذه الإرادة باغتصاب «الدولة» لهذه الأموال، وإحلال ملكيتها محل ملكية «أجل المالكين».

فالمطلوب رفع المظالم وتصحيح الأخطاء التى ارتكبتها «الدولة» فى حق «الأمة»، عندما ألغت هذا النظام الذى كان سبيل «الأمة» لبناء حضارتها.. ليعود، مرة أخرى، سبيل الأمة لإشاعة العدل الاجتماعى، ولتمويل بعث الحضارة الإسلامية من جديد^{(١) .. (٢)}.

-
- (١) انظر - غير المراجع التى ذكرت [ندوة مؤسسات الأوقاف فى العالمين العربى والإسلامى]، طبعة الكويت سنة ١٤٠٣هـ سنة ١٩٨٣م
[خطط المقرئى]، طبعة دار التحرير القاهرة.
[تقويم النيل]، لأمين سامى باشا. طبعة القاهرة سنة ١٣٣٤هـ ١٩١٦م.
[تاريخ الجبرتى]، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨م.
[الموسوعة الفقهية] - الكويت - الطبعة الثانية سنة ١٤١٠هـ سنة ١٩٩٠م.
[قاموس المصطلحات الاقتصادية فى الحضارة الإسلامية]، للدكتور محمد عمارة. طبعة دار الشروق - القاهرة ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.
(٢) انظره بكتاب [ندوة الوقف]، الجمعية الخيرية الإسلامية - طبعة القاهرة سنة ١٤٢٠هـ سنة ٢٠٠٠م.

القدس بين اليهودية والإسلام

كان (جوبلز) [١٨٩٧-١٩٤٥م] وزير الدعاية والإعلام فى ألمانيا النازية.. وكان شعاره - الذى يلخص فلسفته فى الدعاية والإعلام - هو: «أكذب، ثم أكذب، ثم أكذب، فإنك لا بد واجد من يصدقك»!!

ويبدو أن الصهيونية قد تعلمت من أعدائها النازيين فلسفتها فى الدعاية والإعلام.. فالناظر فى أكاذيبها حول (حقوقها) فى القدس وفلسطين يجد أنها التطبيق الحرفى لفلسفة (جوبلز): «أكذب، ثم أكذب، ثم أكذب، فإنك لا بد واجد من يصدقك»!

وعلى سبيل المثال:

- تزعم الصهيونية أن علاقتها بالقدس تعود إلى ثلاثة آلاف عام، عندما غزا الملك داود هذه المدينة فى القرن العاشر قبل الميلاد..

ويتناسى الصهاينة حقيقة أن القدس قد بناها العرب اليبوسيون فى الألف الرابع قبل الميلاد - أى أن عمر عروبتهما يزيد الآن على ستة آلاف عام.. وأن الوجود العربى فى هذه المدينة قد ظل متصلًا عبر هذا التاريخ، بينما الوجود اليهودى بالقدس - فى عهدى داود وسليمان - لم يتعد ٤١٥ عامًا - أى نصف عمر الوجود العربى الإسلامى فى الأندلس!

- وتزعم الصهيونية أن الرب قد وعد إبراهيم - عليه السلام - وذريته بأرض الميعاد.. وأن الصهاينة هم ورثة هذا الوعد الإلهى.

ويتناسى الصهاينة أن القدس عربية قبل دخول إبراهيم إلى أرض كنعان بأكثر من عشرين قرنًا.. وأن كتابهم (العهد القديم) يقول: إن هذه الأرض كانت أرض (غربة

إبراهيم).. أى أنه قد عاش فيها غريباً، وليس مالكاً لها. كما يقول كتابهم: إن إبراهيم - فى أواخر حياته - قد اشترى من أهل هذه الأرض - العرب الكنعانيين - قبراً يدفن فيه زوجه (سارة) - (سفر التكوين ٢٣: ١-٢٠) - أى أنه حتى أواخر حياته لم يكن يملك فى هذه الأرض حتى مكان قبر!

- ويتناسى الصهاينة - كذلك - أن نصوص هذا (الوعد) - فى كتابهم - ينقض بعضها بعضاً.. فالوعد مرة بأرض كنعان (سفر التكوين ١٧: ٣، ٥، ٨) - ومرة بالمساحة التى تبصرها عيون إبراهيم - (التكوين ١٣: ١٤، ١٥) - ومرة بما بين النيل والفرات - (التكوين ٣٥: ١٢) - وهذه التناقضات تنسف هذا الادعاء من الأساس!

- ويتناسى الصهاينة - كذلك - أنه على فرض التسليم - جدلاً - بهذا الوعد لإبراهيم وذريته بهذه الأرض، أن العرب هم أغلبية ذرية إبراهيم عليه السلام.. فهم قرابة الثلاث مائة مليون نسمة، بينما كل يهود العالم لا يتجاوزون ثلاثة عشر مليوناً - غالبيتهم من نسل قبائل الخزر - الذين لا علاقة لهم بنسل إبراهيم! فهل يقبل الصهاينة توزيع (التركة) بالعدل بين كل نسل إبراهيم؟!

- وحديثاً ألقى الصهيونى (موردخاى كيدار) - وهو أستاذ للدراسات الإسلامية فى جامعة (بار إيلان) الإسرائيلية - محاضرة بالكنيست الصهيونى فى يوليو سنة ٢٠٠٩م، قال فيها: «إن القدس يهودية.. وعلى المسلمين أن يحملوا أحجار قبة مسجد الصخرة لينوها فى مكة، فالمسجد الأقصى مكانه (الجعرانة) - بين مكة والطائف - كان يصلى فيه الرسول أحياناً وأحياناً فى المسجد الأدنى القريب منه أثناء ذهابه من مكة إلى الطائف»!!

وتلك كذبة تفوق فيها (هذيان) كيدار على سلفه (جوبلز)!.. فكل الذين كتبوا تاريخ الإسلام وسيرة الرسول ﷺ، بمن فيهم المستشرقون اليهود، قد أجمعوا على أن أول مسجد بنى فى الإسلام هو مسجد (قباء) على مشارف المدينة المنورة بعد الهجرة.. وعلى أن المسجد الأقصى هو بالقدس.. وليس بـ(الجعرانة) بين مكة والطائف.. وأن مسجد قباء قد بنى بعد حادث الإسراء بسنوات.

- وفى سعى الصهاينة إلى تهويد القدس، وهدم المسجد الأقصى، يتحدثون عن

إعادة بناء المعبد (الهيكل) الذى بناه سليمان للرب - فى القرن العاشر قبل الميلاد - وهو المعبد الذى يريدون إقامته على أنقاض الحرم القدسى المبارك!

ويتناسى الصهاينة أنهم منذ احتلالهم القدس سنة ١٩٦٧م قد قلبوا باطن الأرض بالحفريات والأنفاق تحت الحرم القدسى ومن حوله فلم يجدوا حجرًا واحدًا يثبت أنه قد كان فى هذا المكان معبد يهودى فى يوم من الأيام.

ثم على فرض أنه كان لهم معبد فى القدس فى غابر الأزمان.. فهل يمكن أن يعاد رسم خرائط الدول وحدود الأوطان، وملكيات الشعوب والجماعات البشرية بناء على ما كان لأجدادها القدماء من معابد فى بعض الأماكن والبقاع؟!

- لقد بنى (قمبيز) (٥٢٩ - ٥٢٢ ق. م) الفارسى بمصر معابد عندما غزاها.. فهل يأتى الفرس اليوم لاحتلال مصر بحجة أن ملكهم (قمبيز) قد بنى فيها معابد لعبادة النار فى ذلك الزمن القديم؟

- ولقد بنى الإسكندر الأكبر [٣٥٦ - ٣٢٣ ق. م] وخلفاؤه بمصر، المعابد على امتداد احتلالهم الذى دام عشرة قرون.. فهل يأتى اليونان والرومان لاحتلال مصر والشرق الآن لاستعادة أماكن المعابد التى بناها أجدادهم فى القرن الرابع قبل الميلاد؟!

- ولقد بنى الفراعنة المعابد والأهرامات حيثما وصل نفوذهم السياسى والإدارى، وهو قد شمل المشرق بما فيه القدس وفلسطين بل ووصل إلى أمريكا الجنوبية.. فهل يذهب المصريون اليوم لاحتلال البلاد التى سبق وبنى فيها الفراعنة المعابد والأهرامات؟!

- ولقد بنى الصليبيون بالشرق العربى كنائس إبان احتلالهم الاستيطانى الذى دام قرنين من الزمان [٤٨٩ - ٦٩٠ هـ / ١٠٩٦ - ١٢٩١]، فهل يعود أحفادهم لاحتلال هذه الأرض التى بنوا فيها معابد على امتداد قرنين من الزمان؟!

- ولقد بنى العرب المسلمون بالأندلس على امتداد ثمانية قرون المساجد والآثار الباقية حتى الآن.. فهل نذهب لاحتلال إسبانيا والبرتغال لإعادة هذا التاريخ؟!

- ولقد كان لليهود بالأندلس المسلمة معابد طويت صفحتها مع خروجهم منها مع العرب فلم لا يطلبون من الإسبان استعادة هذه المعابد، والاستيلاء على أماكنها؟!!

- ثم.. إن سليمان - عليه السلام - الذى يزعم الصهاينة أنه قد بنى لله معبدًا فى القدس فى القرن العاشر قبل الميلاد هو - فى عقيدتهم - التى يتحدث عنها كتابهم (العهد القديم) كان (زير نساء) و(عابد أوثان) أقامها لزوجاته الكثيرات!!

ففى سفر الملوك الأول: «وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة.. من الأمم الذين قال عنهم الرب لبنى إسرائيل: لا تدخلون إليهم ولا يدخلون إليكم لأنهم يُميلون قلوبكم إلى آلهتهم.. فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة.. فأملت نساؤه قلبه وراء آلهة أخرى.. فغضب الرب عليه لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذى أوصاه ألا يتبع آلهة أخرى، فلم يحفظ ما أوصى به الرب.. فقال الرب لسليمان: من أجل أن ذلك عندك، ولم تحفظ عهدي وفرائضى التى أوصيتك بها، فإنى أمزق المملكة عنك تمزيقًا».. (سفر الملوك الأول ١١: ١-١١).

فهل زير النساء.. وعابد الأوثان.. وبانى النصب لعبادتها من دون الله.. والذى لم يحفظ عهد الرب وفرائضه - كما يقول كتاب اليهود - هو بانى بيت الله الذى يريد الصهاينة إقامته على أنقاض الحرم القدسى الشريف؟!

وإذا كان كتابهم يقول إن مملكة سليمان - كل المملكة - قد تمزقت بغضب من الله.. فكيف يسعى الصهاينة لإعادة وإحياء ما مزقه الله؟!.. وهل فى ذلك إيمان منهم بربهم.. أم خروج على إرادة الله؟!

تلك بعض من الأكاذيب الصهيونية، التى يروجونها عبر الإعلام، والتى يخادعون بها ضحاياهم، وذلك حتى يقع فى حبالها المخدوعون والجهلاء.

وإذا كان المنهاج الإسلامى يعلمنا مجابهة الأكاذيب بالحقائق.. فإن هذا الكتاب - الذى نقدم بين يديه - والذى تتقدم به (هيئة كبار العلماء) بالأزهر الشريف - إلى الباحثين والقراء - هو إسهام متميز فى دحض الأكاذيب الصهيونية حول القدس وفلسطين، وفى إبراز مكانة الحرم القدسى الشريف.. ومدينة القدس.. والأرض التى بارك الله فيها وحولها فى دين الإسلام.. والتاريخ الإسلامى.

والله نسأل أن ينفع به.. إنه سبحانه وتعالى - خير مسئول وأكرم مجيب.

تقديم

من القرآن الكريم نتعلم منهاج التعامل مع دعاوى الخصوم..
لا نتجاهل ما يدعون.. ولا نصادر ما يقولون.. وإنما نجادل بالتي هي أحسن..
ونحاور بالمنطق والحجة والبرهان.

وإذا كنا فى إطار المؤمنين بالله - سبحانه وتعالى - وقرآنه الكريم ورسوله ﷺ،
نستدل بآيات الكتاب وأحاديث السنة النبوية، فإن الاستدلال بهذا الحق وَقَفَّ على
من يؤمن بأنه حق، أما إذا كان الحوار مع دعاوى الذين لا يؤمنون بالله، ولا بقرآنه،
ولا برسوله، فإن المنطق العقلى والحجة البرهانية هي أدواتنا فى الحوار.
ذلك بعض ما يعلمنا إياه القرآن الكريم.

فعلى حين كان أهل الشرك والوثنية هم الذين يدعون إلى منهاج (المصادرة)
مصادرة آيات القرآن الكريم وبراهينه:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وجدنا القرآن الكريم يستحث هؤلاء المشركين على أن يأتوا بما لديهم من
(حجج)، ويبرزوا ما لديهم من (علم)، ويعلنوا ما فى حوزتهم من (براهين) ليرد
عليها بالمنطق العقلى والبراهين اليقينية:

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا
بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤].

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨، ١٤٩].

بل ويعلمنا القرآن الكريم أن هذا هو المنهاج الإلهي حتى في يوم الحساب.
﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [القصص: ٧٥].

وعندما حاول المشركون زحزحة القرآن عن مقام الإعجاز الإلهي، ونسبته إلى الشعر، والادعاء بأن الرسول ﷺ، ما هو إلا شاعر ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أِفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِزْنَا نَبَأَهُ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنبياء: ٥].

احتكم المنهاج القرآني إلى الواقع الذي عاشوه وعاشوه، فمحمد الذي ولد ونشأ بين ظهرانيهم، لم يعرفوا عنه إبداع الشعر في يوم من الأيام، ولا الاهتمام أو الامتلاك لما ينبغى للشعر من أدوات، وذلك فضلاً عن البون الشاسع بين نظم القرآن ونظم الشعر الذي هم فيه خبراء.

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: ٦٩، ٧٠].

وعندما زعم المشركون أن هذا القرآن الذي جاء به محمد إنما هو إبداعه واختراعه، وهو قول بشر، وليس وحياً إلهياً، احتكم القرآن - في مجادلتهم - إلى المنطق العقلي والبرهان اليقيني. فهم بشر كمحمد، ولهم في الفصاحة دربة فائقة، وثمرات متألفة في سماء البيان، فإذا كان هذا القرآن مما يتأتى لإبداع بشري، فليأتوا - وهم الفصحاء - بحديث مثله.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤].

وعندما ذهبوا فزعوا أنه من إملاء (جبر الرومي) يمليه على محمد، سخرت

تقديم

الحجة القرآنية من هذا الادعاء السقيم.. (فجبر الرومى) أعجمى، فكيف يملئ الأعجمى هذا الإعجاز الذى أدهش وأعجز أساطين العرب البلغاء؟! ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وعندما كان المشركون ينكرون ويستنكرون البعث والإحياء للعظام النخرة والأجساد التى طواها التحلل والفناء، لم يكن منهاج القرآن الكريم فى الحوار والجدال يكتفى بالإشارة إلى قدرة الله القادر على كل شئ، وإنما يحتكم إلى المنطق الواقعى الذى يعيشه هؤلاء المنكرون والمستنكرون، ألم ينشئ الله هذه العظام والأجساد وكل المخلوقات فى نشأتها الأولى، التى يحبونها ويعيشونها؟ أليست الإعادة - عادة ودائماً - أخف وأولى وأسهل من الابتداء؟

﴿وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفُنًا إِئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ﴾ [الإسراء: ٤٩ - ٥١].

هكذا يعلمنا القرآن الكريم منهاج التعامل مع دعاوى الخصوم، ألا نصادر ما يدعون، وألا نتجاهل الذى يزعمون، وألا نكتفى بترديد الحق الذى نؤمن به، وإنما لا بد من محاورتهم وتفنيدهم، بالمنطق البرهانى والحجج العقلانية، التى هى بمثابة (العملة الدولية) و (الآليات العامة) المعتمدة فى كل الأنساق الفكرية، ومن قبل كل أصحاب العقول.

هذا هو المنهج القرآنى، الذى نطبقه فى صفحات هذه الدراسة، حول القدس الشريف.

فكثيرة هى الدراسات التى كتبها العرب والمسلمون عن مدينة القدس الشريف، والتى زخرت بصفحاتها ببراهين الحق الفلسطينى والعربى والإسلامى فى القدس، لكنها نادرة تلك الدراسات التى اهتمت بمناقشة دعاوى اليهود والصهيانية والاستعمار الغربى حول (الحق) اليهودى فى هذه المدينة المقدسة، وأندر من ذلك تلك

الدراسات التي فندت دعاوى هؤلاء الخصوم بالمنطق العقلى، والحجج البرهانية، وليس بترديد مأثوراتنا الإسلامية حول الحق العربى والإسلامى فى القدس الشريف. ونحن فى صفحات هذه الدراسة، قد اخترنا:

وثيقة تمثل دعاوى قمة الغلو الصهيونى رابطة الدفاع اليهودية - كتبها مؤسس هذه الرابطة (دانيال ياسبس) وفيها كل الدعاوى التى يستندون إليها فى أن (القدس يهودية)، ولا علاقة لها بالإسلام، ولا مكانة لها فى حياة المسلمين، منذ حياة رسول الإسلام ﷺ وحتى الحقبة الراهنة فى الصراع حول هذه المدينة المقدسة.

ثم قمنا بمحاورة هؤلاء الخصوم، وتفنيد جميع دعاواهم، بالمنطق العقلانى، الذى يحتكم إليه ويستجد بآلياته جميع العقلاء، فى كل الديانات والحضارات والقارات والعصور، لتصل بنا هذه المحاورة إلى أن القدس إسلامية - هكذا كانت ولا تزال - وأنها لا علاقة لها لا باليهودية كدين، ولا باليهود القدماء، فضلاً عن الصهاينة المحدثين.

ثم ختمنا صفحات هذه الدراسة بحديث عن ماذا تعنيه إسلامية مدينة القدس؟

هل تعنى الاحتكار الإسلامى لقدسيتها دون الآخرين من أصحاب المقدسات؟

أم تعنى هذه الإسلامية للقدس إشاعة قدسيتها لكل أصحاب المقدسات؟

ولقد احتكمنا فى هذه الدراسة، أيضاً إلى الواقع التاريخى، الذى عاشه كل أصحاب المقدسات، ومنهم اليهود، ذلك الواقع الشاهد على أن القدس كانت دائماً تقع فى (الاحتكار) من قبل من يسيطر عليها من غير المسلمين - الرومان، فى عصر وثنيتهم وفى عصر نصرانيتهم، والصليبيون الفرنجة، والصهاينة المعاصرون - بينما كانت السيادة الإسلامية على القدس هى وحدها المؤتمنة على فتح هذه المدينة أمام الجميع، وإشاعة قدسيتها بين جميع أصحاب المقدسات؛ لأن ذلك جزء من عقيدة الإيمان الإسلامى وليس مجرد تسامح أو حق من حقوق الإنسان.

وإذا كان القدس الشريف - فى الصراع الراهن بيننا وبين الإمبريالية الغربية، وشريكها اليهودية الصهيونية - هى (رمز) هذا الصراع المركب والمعقد الحضارى،

تقديم

والدينى، والتاريخى، والسياسى... إلخ، وهى كذلك بوابة التحرير والانتصار، فإننا نسأل المولى عز وجل، أن ينفع بهذه الصفحات، وأن يجعلها سلاحاً من أسلحة الوعى الإسلامى، والاستنارة الإسلامية، فى هذه المعركة المصيرية، إنه سبحانه وتعالى، خير مسئول وأكرم مجيب^(١).

(١) انظر طبعته - هدية مجلة [الأزهر] شعبان سنة ١٤٣٧هـ مايو سنة ٢٠١٦م.

القدس: رمز الصراع.. وبوابة الانتصار

القدس.. فى الرؤية الإسلامية، ليست مجرد أرض محتلة، ومدينة مغتصبة، وإنما هى مع ذلك وفوقه وقبله وبعده - جزء من العقيدة الدينية الإسلامية، فضلاً عن الحضارة والتاريخ، ذلك لأنها حرمٌ مقدس، ربط القرآن الكريم بينها وبين الحرم المكى، عندما تحدث عن معجزة الإسراء والمعراج ﴿سُبْحَنَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِى بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِنُزِيلِهِ مِنْ عَيْنِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

فهى فى الدين العقيدة: أولى القبلتين... وثالث الحرمين... وحرمها مع الحرم المكى والحرم المدنى يُمثلوا المساجد الثلاثة التى تتفرد بشد الرحال للصلاة فيها.. ورباطها المقدس مع الحرم المكى هو الرمز المسجد لعقيدة وحدة الدين الإلهى الواحد، عندما ارتبطت القبلة الخاتمة - الحرم المكى - بقبلة النبوات السابقة - الحرم القدسى الشريف.

ولقد تجلت هذه المكانة المقدسة للحرم القدسى الشريف عندما عاملها المسلمون - عبر التاريخ - معاملة «الحرم» الذى لا يجوز فيه القتال «فالحرم المدنى فُتح بالقرآن.. والحرم المكى فُتح سلمًا، حتى لقد دخله الرسول الفاتح ﷺ يوم الفتح الأكبر، ساجدًا على راحلته شكرًا لله... والحرم القدسى حرص المسلمون على فتحه سلمًا وصلحًا، وجاء فتسلم مفاتيحه الراشد الثانى عمر بن الخطاب [٤٠ق. هـ / ٥٨٤ - ٦٤٤م].. ولقد سار على هذه السُّنة صلاح الدين الأيوبي [٥٣٢ - ٥٨٩هـ / ١١٣٧ - ١١٩٣م] عندما استردها من الصليبيين [٥٨٣هـ / ١١٨٧م].. بعد ما يقرب من تسعين عامًا احتكروها وانتهكوا حرمتها وقديستها.

ولقد كانت القدس الشريف - على مر تاريخ الصراع بين الغرب الصليبي والشرق الإسلامي - هي رمز الصراع، وهي بوابة الانتصارات، حتى لقد لخص الشاعر العماد الكاتب [٥١٩-٥٩٧هـ / ١١٢٥-١٢٠١م] هذه الحقيقة من حقائق استراتيجية هذا الصراع، عندما قال لصالح الدين الأيوبي:

وَهَيَّجَتْ لِلْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ لَوْعَةً يَطُولُ بِهَا مِنْهُ إِلَيْكَ التَّشَوُّقُ
هُوَ الْبَيْتُ، إِنْ تَفَتَّحَهُ، وَاللَّهُ فَاعِلٌ فَمَا بَعْدَهُ بَابٌ مِنَ الشَّامِ مُغْلَقٌ

ولقد حرص المسلمون - عندما حرروا القدس [١٥هـ - ٦٣٦م] من الاستعمار الروماني، الذي دام عشرة قرون، على أن يكون اسمها عنواناً على قداسيتها وقديسيتها، فسموها «القدس» و«القدس الشريف» و«الحرم القدسي الشريف»، كما حرصوا بحكم إسلامهم الذي تفرّد بالاعتراف بالآخرين، عقائدهم ومقدساتهم، على إشاعة قدسيتها بين كل أصحاب المقدسات، فجعلوها حرماً مقدساً وقديساً لكل أصحاب الديانات السماوية، حتى لقد كانت السلطة الإسلامية هي الضمان لمصلحة الجميع، فلم تحتكرها للإسلام، كما احتكرها الرومان لوثنيتهم، عندما كانوا وثنيين، ولمذهبهم النصراني، عندما تنصروا.. وكما احتكرها الصليبيون الكاثوليك، إبان الاحتلال الصليبي، وكما يحتكرها اليهود ويهودونها هذه الأيام.

وكما كانت العقيدة الإسلامية، التي تفردت وتميزت وامتازت بالاعتراف بالآخرين وبحماية مقدساتهم، انطلاقاً من تعهد رسول الله ﷺ للنصارى في عهده مع نصارى نجران [١٠هـ - سنة ٦٣١م] بحمايتهم وحماية مقدساتهم.

«وَأَنْ أَحْمِيَ جَانِبَهُمْ وَأُذَبَّ عَنْهُمْ، وَعَنْ كَنَائِسِهِمْ وَبَيْوتِ صَلَوَاتِهِمْ، وَمَوَاضِعِ الرِّهْبَانِ، وَمَوَاطِنِ السِّيَاحِ، حَيْثُ كَانُوا.. وَأَنْ أَحْرُسَ مِلَّتَهُمْ وَدِينَهُمْ، أَيْنَمَا كَانُوا.. بِمَا أَحْفَظُ بِهِ نَفْسِي وَخَاصَّتِي وَأَهْلَ الْإِسْلَامِ مِنْ مِلَّتِي»^(١).

ومن ثمَّ أشاع الإسلام والمسلمون قدسية القدس بين كل أصحاب المقدسات.

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة: ص ١٢٣، ١٢٤، تحقيق: دكتور محمد حميد الله الحيدر آبادي، طبعة القاهرة، ١٩٥٦م.

القدس: رمز الصراع.. وبوابة الانتصار

فلقد كانت الأساطير النصرانية الغربية أو اليهودية، هي المنطلق لغزو القدس، ولاحتكارها.. بالإبادة والمجازر التي تقشعر منها الأبدان.

فأساطير التعصب الصليبي هي التي دفعت البابا الذهبي «أوربان الثاني» [١٠٨٨ - ١٠٩٩م] لتغليف الأطماع الاستعمارية بالأساطير اللاهوتية، فخطب في أمراء الإقطاع الأوربيين بمدينة «كليرمونت» بجنوبي فرنسا سنة ١٠٩٥م، مفتتحاً قرنين من الحروب الصليبية [٤٨٩ - ٦٩٠هـ / ١٠٩٦ - ١٢٩١م] ضد الإسلام وأمتة وحضارته، فقال:

«يا من كنتم لصوصاً كونوا اليوم جنوداً!! لقد آن الزمان الذي فيه تُحوّلون ضد الإسلام تلك الأسلحة التي أنتم لحد الآن تستخدمونها بعضكم ضد بعض.. فالحرب المقدسة المعتمدة الآن.. هي.. في حق الله عينه، وليست هي لاكتساب مدينة واحدة.. بل هي أقاليم آسيا بجملتها، مع غناها وخيراتها العديدة الإحصاء.

فاتخذوا محجة القبر المقدس، وخلصوا الأراضى المقدسة من أيادى المختلسين، وأنتم املكوها لذواتكم، فهذه الأرض - حسب ألفاظ التوراة - تفيض لبناً وعسلاً، ومدينة أورشليم هي قطب الأرض المذكورة، والأمكنة المخصصة المشابهة فردوساً سماوياً.

اذهبوا وحاربوا البربر [يقصد المسلمين] لتخليص الأراضى المقدسة من استيلائهم، امضوا متسلحين بسيف مفاتيحى البطرسية [أى مفاتيح الجنة التى صنعها البابا!] واكتسبوا بها لذواتكم خزائن المكافآت السماوية الأبدية، فإذا أنتم انتصرتم على أعدائكم، فالملك الشرقى يكون لكم قسماً وميراثاً.

وهذا هو الحين الذى فيه أنتم تفدون عن كثرة الاغتصابات التى مارستموها عدواناً، من حيث إنكم صبغتم أيديكم بالدم ظلماً، فاغسلوها بدم غير المؤمنين!!»^(١).

وعندما اقتحمت الجيوش الصليبية - يومئذ - مدينة القدس [٤٩٢هـ - ١٠٩٩م]

(١) مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق، المدعوة حرب الصليب، ١٢ - ١٤، ترجمة/ مكسيموس مظلوم، طبعة أورشليم، ١٨٦٥م.

أبادوا جميع من بها من المسلمين، ومعهم اليهود، بالقتل والذبح والحرق، حتى الذين احتموا بمسجد عمر، مسجد قبة الصخرة، ذبحهم الصليبيون في المسجد، حتى تحول المسجد إلى بحر من الدماء!..

وبعبارة صاحب [حرب الصليب]:

«فإن الصليبيين - خيالة ومشاة - قد دخلوا الجامع المذكور، وأبادوا بحد السيف كل الموجودين هناك، حتى استوعب الجامع من الدم بحرًا متموجًا، علا إلى حد الركب، بل إلى لُجم الخيل!..

ولما حلَّ المساء، اندفع الصليبيون يكون من فرط الضحك [!!] - بعد أن أتوا على نبذ المعاصر [!!] - إلى كنيسة القيامة، ووضعوا أكفهم الغارقة في الدماء على جدرانها ورددوا الصلوات!! ثم كتبوا إلى البابا فقالوا له: يا ليتك كنت معنا لتشهد خيولنا وهي تسبح في دماء الكفار [أى المسلمين]»^(١).

وحتى كبار رجال الدين.. شاركوا في المذبحة ليتقربوا إلى ربهم بذبح المسلمين!!.. ولقد نقلت المستشرقة الألمانية الدكتورة سيجريد هونكة [١٩١٣ - ١٩٩٩م] عن المؤرخ الأوربي ميشائيل د. سيرر:

«كيف كان البطريك نفسه يعدو في أزقة بيت المقدس وسيفه يقطر دمًا، حاصدًا به كل من وجده في طريقه، ولم يتوقف حتى بلغ كنيسة القيامة وقبر المسيح، فأخذ في غسل يديه تخلصًا من الدماء اللاصقة بها، مرددًا المزمور التالي: «يفرح الأبرار حين يرون عقاب الأشرار، ويغسلون أقدامهم بدمهم، فيقول الناس: حقًا إن للصديق مكافأة، وإن في الأرض إلها يقضى (المزمور ١٠: ٥٨: ١٠ - ١١) ثم أخذ في أداء القداس قائلاً: إنه لم يتقدم في حياته للرب بأى قربان أعظم من ذلك ليرضى الرب»!!^(٢).

(١) تاريخ الحروب المقدسة في الشرق، المدعوة حرب الصليب، ترجمة: مكسيموس مظلوم، طبعة أورشليم، ١٨٦٥م، ١/ ١٧٢ - ١٧٥.

(٢) سيجريد هونكة: الله ليس كذلك، ص: ٢٥ - ٣٤، ترجمة: دكتور غريب محمد غريب، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٥.

القدس: رمز الصراع.. وبوابة الانتصار

هكذا بدأت الأساطير النصرانية الغربية حول القدس.. وهكذا وضعها الصليبيون في الممارسة والتطبيق.

وهذه الأساطير الغربية التي دفعت «كريستوفر كولمبس» [١٤٥٠ - ١٥٠٦ م] بعد هزيمة الحملات الصليبية في الشرق.. وعقب نجاح الصليبيين في إسقاط غرناطة في يناير ١٤٩٢ م، إلى أن يسعى إلى القيام بغزوة صليبية جديدة، يعيد بها اختطاف القدس من الإسلام والمسلمين.. فكتب إلى ملكى أسبانيا «فرديناند» [١٤٧٩ - ١٥١٦ م] و«إيزابيلا» [١٤٧٤ - ١٥٠٤ م] يقول:

«إن هدفه هو العثور على الذهب بكميات كبيرة، حتى يتسنى للملكين أن يفتحوا الديار المقدسة خلال ثلاث سنوات.. فقد أعلنت لسموكم أن كل المغامرات التي سيدبرها مشروعي هذا سوف تُنفق على فتح القدس، وقد ابتسمتما - يا صاحبي الجلالة - وقلتما: إن ذلك يسر كما...»^(١).

وفي رسالة ثانية تحدث «كولمبس» إلى ملكى أسبانيا عن أن هدف حياته ومشاريعه ورحلاته هو تجهيز حملة صليبية لإعادة القدس إلى الكنيسة «الكاثوليكية» فقال:

«قد مكثت في بلاطكم سبعة أعوام مناقشاً هذا الأمر مع العديد من الرجال، ولهذا فيجب علينا أن نؤمن بأن القيام بحملة صليبية لاستعادة مدينة القدس، لهو أمر سوف يتحقق بالفعل.. لقد قال به يسوع المسيح المخلص، وذكره من قبل عبر رسالة المقدسين».

لقد ذكر الكاردينال «بير» الكثير عن نهاية المسلمين، كما أن الأب «يواقيم الفيوري» قد ذكر أن الشخص الذي سيقوم بإعادة بناء الضريح المقدس للمسيح، فوق جبل صهيون بالقدس، سوف يخرج من إسبانيا، فلتكونوا واثقين من إحراز النصر في مسألة استعادة الضريح المقدس ومدينة القدس إلى أحضان الكنيسة الكاثوليكية!»^(٢).

(١) صحيفة [الأهرام] في ٢٨ - ٤ - ٢٠٠٤ م، من مقال [أول إسرائيل آخر أمريكا]، أحمد عبد المعطى حجازي.

(٢) دكتور حاتم الطحاوي: وثيقة نادرة: بعد غرناطة جاء دور القدس، مجلة العربي، الكويت، العدد ٥٣٢، مارس ٢٠٠٣، ص: ٦٢ - ٦٧.

تلك هى الأساطير النصرانية الغربية حول القدس، كما آمن بها «كرستوفر كولمبس» الذى لا نزال نُدرسه لأبنائنا فى المدارس باعتباره من عظماء المستكشفين الجغرافيين!

ولقد أدخلت البروتستانتية «البعد اليهودى» إلى هذه الأساطير، المحركة لاختطاف القدس وفلسطين، وذلك عندما أصدر «مارتن لوتر» [١٤٨٣ - ١٥٤٦م] سنة ١٥٢٣م كتابه [المسيح يهوديًا] وقال فيه:

«إن الروح المقدس أنزل كل أسفار الكتاب المقدس عن طريق اليهود وحدهم، إن اليهود هم أبناء الله، ونحن الضيوف والغرباء، ولذلك فإن علينا أن نرضى بأن نكون كالكلاب التى تأكل مما يتساقط من فتات مائدة أسيادها»^(١).

ولقد أدخلت البروتستانتية إلى صميم العقيدة المسيحية ثلاثة مبادئ، هى ثلاث أساطير، ودمجت البعد اليهودى فى البعد النصرانى إزاء قضية القدس وفلسطين.. وهذه «المبادئ - الأساطير» هى:

أولاً: إن اليهود هم أبناء الله وشعبه المختار.

ثانيًا: أن ثمة ميثاقًا إلهيًا يربط اليهود بالأرض المقدسة فى فلسطين.

ثالثًا: ربط الإيمان المسيحى بعودة المسيح بقيام دولة صهيون.

وهذه «المبادئ - الأساطير» هى التى أثمرت تيار «المسيحية - الصهيونية» فى الحضارة الغربية، ذلك التيار الذى استغلته الحركة الصهيونية فى شراكتها مع الإمبريالية الغربية.. والذى قال عنه «بنيامين نتيناهو» عندما كان سفيرًا للكيان الصهيونى بالأمم المتحدة، فى خطابه أمام الجمعية العامة فى فبراير سنة ١٩٨٥م:

«إن كتابات المسيحيين الصهيونيين، من الإنجليز والأمريكان، أثرت بصورة مباشرة على تفكير قادة تاريخيين، مثل: لويد جورج [١٨٦٣ - ١٩٤٥م] و«آرثر بلفور» [١٨٤٨ - ١٩٣٠م] و«تومسولسون» [١٨٥٦ - ١٩٢٤م] فى مطلع القرن العشرين.

(١) محمد السماك: الأصولية الإنجيلية أو الصهيونية المسيحية والموقف الأمريكى، ص: ٣٦، مركز دراسات العالم الإسلامى، مالطا، ١٩٩١م.

القدس: رمز الصراع.. وبوابة الانتصار

إن حلم اللقاء العظيم [عودة المسيح] أضاع شعلة خيال هؤلاء الرجال، الذين لعبوا دوراً رئيسياً في إرساء القواعد السياسية والدولية لإحياء الدولة اليهودية... لقد تفجّر الحلم اليهودي من خلال المسيحيين الصهيونيين»^(١).

وهكذا غدت الأساطير المسيحية الغربية تياراً «مسيحياً - صهيونياً» تحالفت معه الحركة الصهيونية الحديثة، مستغلة إياه لتحقيق أطماع الشراكة «الصلبية - الصهيونية» ضد القدس وفلسطين.

ومع مطالع الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة، التي قادها «بونابرت» [١٧٦٩م - ١٨٢١م] على مصر والشرق [١٢١٣هـ - ١٧٩٨م] رمى بونابرت حبال الشراكة للأقليات اليهودية، لتكون عوناً له على إقامة إمبراطوريته الاستعمارية في الشرق الإسلامي، مقابل زرعهم، في أرض فلسطين.

ولذلك أصدر، وهو على أسوار عكا ١٧٩٩م نداءه لهؤلاء اليهود.. والذي قال فيه: «أيها الشعب الفريد! إن فرنسا تقدم لكم يدها الآن، حاملة إرث إسرائيل.. إن الجيش الذي أرسلتني العناية الإلهية به.. قد اختار القدس مقراً لقيادته، وخلال بضعة أيام ستنقل إلى دمشق التي استهانت طويلاً بمدينة داود، وأذلتها!..

يا ورثة فلسطين الشرعيين! إن الأمة الفرنسية.. تدعوكم إلى إرثكم، بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء»^(٢).

وبعد هزيمة بونابرت.. وتبخر أحلامه الاستعمارية في لهيب الثورات المصرية وحرارة تضحياتها، تسلم الاستعمار الإنجليزي قيادة المشروع الغربي لاستعمار الشرق الإسلامي، واختطاف القدس.. مغلفاً تلك الأطماع الإمبريالية بالأساطير الدينية والأوهام اللاهوتية، التي استخدمت بمثابة «العقيدة القتالية» في الصراع التاريخي بين الغرب والإسلام...

(١) محمد السماك [الدين في القرار الأمريكي]، ص: ٧٨، بيروت، سنة ٢٠٠٣م، وجريس هالسل [النبوءة والسياسة]، ص: ١٤٠، ترجمة محمد السماك، ليبيا، سنة ١٩٨٩م.

(٢) دكتور محمد عمارة: في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام، ص: ٢١، الشروق الدولية، القاهرة، سنة ٢٠٠٣م.

١- ففي سنة ١٦٤٩م قدم لاهوتيان أنجليكانيان، هما «جوانا»، و«البركارتر ترايت» نداءً إلى الحكومة الإنجليزية؛ لإقامة شراكة مع اليهود في مشروع الاستيلاء على القدس وفلسطين.. وذلك كي يكون للبروتستانت الإنجليز والهولنديين «شرف نقل اليهود إلى الأرض التي وعد الله بها أجدادهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ومنحهم إياها إرثاً أبدياً!»^(١).

٢- وفي سنة ١٨٣٨م أنشأت إنجلترا أول قنصلية إنجليزية في القدس.. وعينت قسيساً بروتستانتيّاً نائباً لقنصلها فيها!.

٣- وفي ١٨٣٩م نشر اللورد الإنجليزي «آشلي كوبر» - «إيرل شافتسبري» [١٨٠١ - ١٨٨٥م] دراسته التي يقول فيها: «إن اليهود هم الأمل في تجدد المسيحية، وعودة المسيح ثانية ليحكم العالم ألف سنة سعيدة!».

٤- وفي سنة ١٨٣٩م أرسل سكرتير البحرية الإنجليزية إلى وزير الخارجية «بالمرستون» [١٧٨٤ - ١٨٦٥م] رسالة يقترح فيها: دعوة أوروبا للاقتداء بالملك الفارسي «قورش» [٥٥٧ - ٥٢٨ ق. م] وإعادة اليهود إلى فلسطين كما سبق وأعادهم «قورش» من السبي القديم.

٥- وفي سنة ١٨٤٠م طلب وزير الخارجية الإنجليزي «اللورد بالمرستون» من سفيره في الأستانة السعي لدى السلطان العثماني لإعادة اليهود إلى فلسطين، ليكونوا حاجزاً ضد تجديد وحدة الشرق، التي كان يعمل لها محمد علي باشا الكبير [١١٨٤ - ١٢٦٥هـ / ١٧٧٠ - ١٨٤٩م].

وجاء في مذكرة «بالمرستون»: «ويكون من مصلحة السلطان الواضحة، أن يُشجع اليهود على العودة إلى فلسطين ليكونوا حجر عثرة في سبيل أي أهداف تخطر ببال محمد علي أو من يخلفه»!^(٢).

(١) الأصولية الإنجليزية، أو الصهيونية المسيحية، ص: ٣٦، ٣٩، (م: بيت المقدس)
(٢) جورج كيرك [موجز تاريخ الشرق الأوسط] ترجمة: عمر الإسكندراني، مشروع الألف كتاب، القاهرة، ودكتور محمد عمارة: إسرائيل: هل هي سامية؟، ص: ١٤، القاهرة سنة ١٩٦٧م.

القدس: رمز الصراع.. وبوابة الانتصار

٦- وفي سنة ١٨٤٠م قَدَّم اللورد الإنجليزى «شافتسبرى» برنامجًا إلى مؤتمر لندن بشأن توطين اليهود فى فلسطين على قاعدة: «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، وهى القاعدة التى تبنتها «الصليبية - الصهيونية» لاغتصاب القدس وفلسطين».

٧- وفي سنة ١٨٤٤م أَلَف البرلمان الإنجليزى لجنة «إعادة أمة اليهود إلى فلسطين».

٨- وفي سنة ١٨٨٢م ذهب القس الإنجليزى «وليم هشر» [١٨٤٥ - ١٩٣١م] إلى السلطان «عبد الحميد الثانى» [١٢٥٨ - ١٣٣٦هـ / ١٨٤٢ - ١٩١٨م] فى القسطنطينية، محاولاً إقناعه بتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين.

٩- وفي نفس العام ١٨٨٢م، عقد فى إنجلترا المؤتمر الأول لرجال الدين المسيحيين، من أجل «إيجاد حل للمسألة اليهودية».

١٠- وفي سنة ١٨٩٤م صدر كتاب الدبلوماسى الإنجليزى، القس «وليم هشر»: [إعادة اليهود إلى فلسطين تنفيذًا النبوءات الدينية].

١١- وفي ٢ نوفمبر ١٩١٧م صدر وعد «جيمس بلفور» [١٨٤٨ - ١٩٣٠م] وزير الخارجية الإنجليزى إلى المليونير الصهيونى «لورد روتشيلد» [١٨٤٥ - ١٩٣٤م]، بإقامة الوطن القومى لليهود على أرض فلسطين.. وهو الوعد الذى وضعه الانتداب البريطانى فى الممارسة والتطبيق.. فدخل الجيش الإنجليزى إلى القدس سنة ١٩١٧م بقيادة الجنرال «النبى» [١٨٦١ - ١٩٣٦م]... ويومها قال كلمته الشهيرة: «اليوم انتهت الحروب الصليبية»!

ويومها نشرت مجلة «بنش Punch - الإنجليزية» رسمًا «كاريكاتوريًا» موحياً ظهر فيه الملك الصليبي الإنجليزى «ريتشارد قلب الأسد» وهو يقول: «أخيرًا تحقق حلمي!»، وهكذا «غلقت» الأساطير الدينية البروتستانتية و«حركت» الأطماع الإمبريالية فى اختطاف القدس وفلسطين.

ثم جاء الدور الأمريكي الوارث للإمبراطوريات الاستعمارية الغربية القديمة، فأقام «توأمة مع المشروع الصهيوني» انطلاقاً من الأساطير البروتستانتية.

١- فالمستوطنون البيض - الآباء المؤسسون - الذين استعمروا أمريكا، وأبادوا الهنود الحمر، قد اعتبروا أنفسهم بعثاً لبنى إسرائيل عند خروجهم من مصر إلى أرض كنعان.. فالملك جيمس الأول [١٥٦٦ - ١٩٢٥م] ملك إنجلترا، الذين خرجوا من بلاده، اعتبروه [فرعون].. وإنهم خرجوا إلى «كنعان الجديدة» و«القدس الجديدة»، فهم من ثمَّ شعب الله المختار، ذهبوا إلى أرض بلا شعب لتكون وطناً لشعب بلا أرض.

٢- ولقد أطلق هؤلاء المستوطنون البروتستانت على بقاع البلاد التي غزوها أسماء عبرانية - مثل «حبرون» و«كنعان»، كما أطلقوا على مواليدهم أسماء عبرانية، مثل «أبراهام» و«سارة» و«ألعازر» وفرضوا تعليم اللغة العبرية في مدارسهم وجامعاتهم، حتى أن أول دكتوراه منحتها جامعة «هارفارد» سنة ١٦٤٢م كان عنوانها «العبرية هي اللغة الأم»! وأول كتاب صدر في أمريكا هو [سفر المزامير]، وأول مجلة صدرت حملت عنوان «اليهودي»! كما أطلقوا على نهر كولورادو الاسم التوراتي القديم «باشان»!، وسمحوا ببناء المعابد اليهودية في أمريكا هذه قبل السماح ببناء كنائس الكاثوليك!

وهكذا تمت «توأمة» أمريكا مع بنى إسرائيل، وتأسست الدولة الداعمة للإحياء اليهودي والصهيوني في القدس وفلسطين.

٣- ولقد تخلقت في هذا المناخ.. وبين الأمريكان الذين سموا أنفسهم «أطفال إسرائيل» Children of Israel أساطير المسيحية الصهيونية، التي تؤمن بأن مجيء المسيح يجب أن ينتظر عودة الدولة اليهودية، ومن ثمَّ عملوا على ذلك منذ فجر تأسيسهم لهذا البلد - أمريكا.

٤- ولقد تبنى القس الأمريكي «جوزيف سميث» [١٨٠٥ - ١٨٤٤م] مؤسس الكنيسة المرمونية، نظرية البعث اليهودي في فلسطين، ولحق به كوكبة من أجمع اللاهوتيين الإنجليس، مثل «سايروس سكوفيلد» و«وليم بلاكستون»

[١٨٤١ - ١٩٣٥ م]، و«وردر جريسون»، والذين عملوا على بناء المستوطنات اليهودية في أرض فلسطين.

٥- كما أنشأ «بلاكستون» «البعثة العبرية من أجل إسرائيل» المستمرة حتى الآن باسم «الزمالة اليسوعية الأمريكية»، والتي تمثل نواة جهاز الضغط - Lobby - الصهيوني في أمريكا.

٦- وفي سنة ١٨١٨ م طالب الرئيس الأمريكي «جون آدمز» [١٧٣٥ - ١٨٢٦ م] باستعادة اليهود لفلسطين، وإقامة حكومة يهودية مستقلة فيها.

٧- وفي سنة ١٨٦٦ م أرسلت البروتستانتية الأمريكية أولى البعثات الاستيطانية إلى أرض فلسطين، يقودها القس «آدم» ومعه ١٥٠ قسيساً أمريكياً، وفي العام التالي سنة ١٨٦٧ م قامت على أرض فلسطين أولى المستوطنات الأمريكية بمشاركة ٧٠ شخصية دينية، من المسيحيين الصهاينة.

٨- وفي سنة ١٨٧٨ م قام القس الأمريكي «وليم بلاكستون» [١٨٤١ - ١٩٣٥ م] بالتنظير اللاهوتي «للمسيحية - الصهيونية» ولاغتصاب القدس وفلسطين، وذلك بكتابه [المسيح آت]، وهو الكتاب الذي تُرجم إلى أربعين لغة، وأصبح الأكثر انتشاراً في القرن التاسع عشر بعد الكتاب المقدس.

وعندما زار «بلاكستون» فلسطين سنة ١٨٨٨ م رفع شعار: «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»!

وذلك قبل عشر سنوات من انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول.. وقبل تأليف «تيودور هرتزل» [١٨٦٠ - ١٩٠٤ م] لكتاب [الدولة اليهودية] سنة ١٨٩٦ م؛ أي أن المسيحية الصهيونية البروتستانتية هي التي ابتدأت التسويق للمشروع الصهيوني على أرض فلسطين حتى قبل أن يتبناه اليهود!

٩- وانطلاقاً من الأساطير الدينية البروتستانتية أصبح المشروع الصهيوني، وكيانه إسرائيل - تجلياً إلهياً، يمهد لعودة «الرب - يسوع» وليس كيأناً سياسياً يحاسب كما تُحاسب الدول، ويخضع - مثلها - للقانون، ولقد عبّر القس الأمريكي «والتر ريجانز» عن هذه النظرية اللاهوتية بقوله:

«إن الصهيونية التوراتية، التي هي بالتأكيد أمنية كل مسيحي، تتعلق بشكل أساسي بالله وبأهدافه؛ ولذلك تفهم الصهيونية، من خلال الرؤية المسيحية، على أنها جزء من اللاهوت الديني، وليست جزءاً من السياسة، وإن دولة إسرائيل هي مجرد البداية لما يفعله الله من أجل الشعب اليهودي، ومن خلال الشعب اليهودي، إن من واجب المسيحيين دعم إسرائيل وسياساتها باعتبارها إشارة إلهية لرحمة الله، واستجابة لإرادته، على أنها تُشكل إشارة توراتية بأن الله منشغل جداً في قضايا هذا العالم!»^(١).

١٠- ولأن الأمر دين ولاهوت - وليس مجرد سياسة وإمبريالية - كان الالتزام الأمريكي نحو إسرائيل بكل السبل من المال إلى السلاح إلى النفوذ، إلى الفيتو، على النحو الذي يستغربه الذين لا يعلمون!! كما كان الضغط على صناع القرار لوضع هذا الدين المسيحي الصهيوني في الممارسة والتطبيق.

فالقس «وليم بلاكستون» في سنة ١٨٩١م يجمع توقعات ٤١٣ شخصية مسيحية ويهودية على مذكرة تطلب من الرئيس الأمريكي «بنجامين هاريسون» [١٨٣٣ - ١٩٠١م] عقد مؤتمر دولي من أجل إعادة اليهود إلى فلسطين، ومن بين الذين وقعوا على هذه المذكرة «جون روكفلر» [١٨٣٩ - ١٩٣٧م] و«وليم روكفلر» [١٨٤١ - ١٩٢٢م]^(٢).

١١- وفي سنة ١٩١٨م أعلن الرئيس الأمريكي «ويلسون» [١٨٥٦ - ١٩٢٤م] التزام أمريكا بتنفيذ وعد بلفور ثم صادقت أمريكا على هذا الوعد رسمياً سنة ١٩٢٢م، وقرّر مجلس النواب الأمريكي «منح اليهود الفرصة التي حرّموا منها لإعادة إقامة حياة يهودية وثقافية خاصة في الأرض اليهودية القديمة».

١٢- وفي إدارة الرئيس الأمريكي «روزفلت» [١٨٥٨ - ١٩١٩م] أصبح اليهود، الذين يُشكلون أقل من ٣٪ من سكان أمريكا يُسيطرون على ١٥٪ من المناصب القيادية القابضة على المواقع الحساسة في الدولة الأمريكية^(٣).

(١) محمد السماك: الدين في القرار الأمريكي، ص: ٢٦، ٢٧، بيروت، ٢٠٠٣م.

(٢) محمد السماك: الدين في القرار الأمريكي، ص: ٣٣، ٣٤.

(٣) محمد السماك: الدين في القرار الأمريكي، ص: ٨١، بيروت ٢٠٠٣م.

١٣- وأصبحت الصهيونية المسيحية، أو المسيحية الصهيونية، العقيدة المحركة للقيادات الأمريكية.

فالرئيس الأمريكي «ليندون جونسون» [١٩٠٨ - ١٩٧٣ م] يخطب سنة ١٩٦٨ م فى إحدى المنظمات اليهودية فيقول:

«إن لأكثركم، إن لم يكن لجميعكم، روابط عميقة مع أرض ومع شعب إسرائيل، كما هو الأمر بالنسبة إليّ، ذلك لأن إيماني المسيحى انطلق من إيمانكم، إن القصص التوراتية محبوكة مع ذكريات طفولتى، كما أن الكفاح الشجاع الذى قام به اليهود المعاصرون من أجل التحرر من الإبادة منغمس فى نفوسنا».

والرئيس الأمريكى «جيمى كارتر» [١٩٢٤]، الذى يعتنق عقيدة «الولادة الثانية» يعتبر بأن مشاعره المؤيدة للصهيونية كانت الموجه لسياسته الشرق أوسطية.. فيقول فى خطابه الأول من مايو سنة ١٩٧٨ م:

«إن العودة إلى أرض التوراة التى أخرج منها اليهود منذ مئات السنين، وإن إقامة الأمة الإسرائيلية فى أرضها، هو تحقق لنبوءة توراتية، وهى تُشكل جوهر هذه النبوءة».

والرئيس الأمريكى «رونالد ريغان» [١٩١١ - ٢٠٠٤ م] هو القائل سنة ١٩٨٤ م «إننى أعود إلى النبوءات القديمة المذكورة فى العهد القديم، وإلى المؤشرات حول هزم مجيدون، فأتساءل بينى وبى نفسى: ما إذا كنا الجيل الذى سىرى تحقق ذلك؟ إن هذه النبوءات تصف بالتأكيد ما نمر به الآن»^(١).

١٤- ويُقرر الكونجرس الأمريكى فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٩٥ م: اعتبار القدس عاصمة أبدية لإسرائيل؛ لأنها كما يقول: «الوطن الروحى لليهودية».

وتشرع الحكومة الأمريكية، بعد هذا القرار، فى بناء سفارتها بالقدس على أرض مملوكة للوقف الخيرى الإسلامى.

١٥- وحتى الغزو الأمريكى للعراق فى مارس سنة ٢٠٠٣ م يعتبره الرئيس

(١) محمد السماك: الدين فى القرار الأمريكى، ص: ٤١-٤٢.

الأمريكي «بوش الصغير» حربًا مقدسة عادلة بمقاييس القديس «أوغسطين» [٣٥٤ - ٤٣٠م] والقديس «توما الأكويني» [١٢٢٥م - ١٢٧٤م]^(١)، وهى للقضاء على صدام حسين - بختنصر بابل الذى يهدد إسرائيل، ويُعرقل عودة المسيح!!.

وفى هذا التنظير المسيحى الصهيونى يقول القس الأمريكى «دافيد بريكرز»: «إننا نعرف أن تدمير بابل - الذى ورد فى الإصحاح ١٨ - يعنى تدمير العراق!!». كما يقول القس «تشارلز داير» أستاذ اللاهوت فى جامعة «دالس»:

«إن إصحاح إشعيا ١٣ يُشير إلى قيام صدام حسين، وإلى غزوه للكويت، وذلك لإقامة قاعدة للهجوم على إسرائيل، فصدام هو خليفة «نبوخذ نصر» [٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م]، الذى هزم الإسرائيليين وسباهم إلى بابل ودمر الهيكل، وذلك بسبب عداة صدام لإسرائيل، وبسبب نواياه لإعادة بناء بابل»^(٢)، وهكذا نظرت الأساطير المسيحية الصهيونية لدمار العراق على يد «بوش الصغير» - هولاكو القرن الواحد والعشرين - دمارًا فاق ما صنعه هولاكو القديم «هولاكو المغول» [٦١٤ - ٦٣٣هـ/ ١٢١٧ - ١٢٦٥م].

١٦- وفى إبريل سنة ٢٠٠٤م يُعطى «بوش الصغير» لأرييل شارون، رئيس وزراء إسرائيل «رسالة الضمانات» التى تحرم اللاجئيين الفلسطينيين من حق العودة، الذى قرره الشرعية الدولية بالقرار ١٩٤، وهى «الرسالة» التى تفوقت على وعد «بلفور» سنة ١٩١٧م، إذ حرمت الفلسطينيين حتى من الحقوق المدنية والدينية التى نص عليها وعد بلفور!

١٧- وفى الذكرى الستين لقيام الكيان الصهيونى مايو ٢٠٠٨م - يخطب «بوش الصغير» بالكنيست الصهيونى خطابًا توراتيًا، يُقرر فيه أن إسرائيل ليست ٧, ٠٠٠, ٠٠٠ نسمة، وإنما هى ٢٠٧, ٠٠٠, ٠٠٠ نسمة؛ لأن أمريكا هى

(١) مجلة نيوزويك الأمريكية، الطبعة العربية، عدد ١١ / ٣ - ٢٠٠٣م.

(٢) الدين فى القرار الأمريكى، ص: ٥٢.

القدس: رمز الصراع.. وبوابة الانتصار

جزء متمم لإسرائيل!!^(١)، كما يُقرر يهودية الدولة العبرية، أى التشريع لطرده العرب الذين يعيشون فيها.

تلك هى الأساطير الدينية النصرانية الغربية «المغلقة والمحركة» للأهداف الاستعمارية الغربية من وراء استعمار الشرق ونهب ثرواته واختطاف القدس وفلسطين.

أما عن الأساطير اليهودية التى تزعم أن لليهود حقاً فى القدس وفلسطين، فيكفى لتنفيذها ودحضها، بالمنطق العقلانى، والعقلانية المنطقية أن نقول:

«إن اليهودية التى ينتسبون إليها، هى شريعة موسى عليه السلام التى جاءت بها التوراة، وموسى عليه السلام وُلد ونشأ وبُعث فى مصر ونزلت عليه التوراة - بمصر - باللغة الهيروغليفية، ثم مات ودفن بمصر، قبل غزو بنى إسرائيل لأرض كنعان - فلسطين - وقبل نشأة اللغة العبرية التى هى فى الأصل لهجة كنعانية، فموسى عليه السلام لم يدخل فلسطين، ولم تر عيناه القدس، ومن ثم فلا علاقة لليهودية، وشريعة موسى، بالقدس ولا بفلسطين».

وإذا كانوا يقولون: «إنهم يُصلون إلى القدس كما يُصلى المسلمون إلى مكة».. فإننا نقول: «إن الصلاة إلى بلد لا تستدعى ولا تتطلب ولا تُبرر الاستيلاء عليه.. فكل المسيحيين من كل الأقطار والقارات والقوميات، يُصلون إلى القدس، دون أن يكون ذلك داعياً ولا مستلزماً ولا مبرراً ليخرجوا من بلادهم ويحتلوا القدس!.. وكل المسلمين - من كل الأقطار والقارات والقوميات - يُصلون إلى مكة المكرمة، دون أن يكون ذلك داعياً ولا مستلزماً ولا مبرراً؛ لأن يحتل هؤلاء المسلمون الحرم الذى يتوجهون إليه!».

وإذا كان تفرد الإسلام بالاعتراف بكل الآخرين، وحماية عقائدهم ومقدساتهم، وإذا كان التاريخ الإسلامى فى القدس، قد طُبّق وجسد هذه الحقيقة، فإن عروبة

(١) انظر تفاصيل هذه الحقائق وأمثالها بكتابتنا «فى فقه الصراع على القدس وفلسطين»، دار الشروق، القاهرة، سنة ٢٠٠٥م.

القدس وإسلاميتها هي الضمانة لإشاعة قدسيته لكل أصحاب المقدسات، وللنأى بها عن الاحتكار من قبل أى دين من الأديان.

ولقد لخص هذه الحقيقة - حقيقة إسلامية القدس وعروبته، الضامنة لإشاعة قدسيته بين كل أصحاب المقدسات - صلاح الدين الأيوبي، الذى استرد أمانة عمر من الصليبيين، وذلك عندما كتب إلى الملك الصليبي «ريتشارد قلب الأسد» [١١٥٧ - ١١٩٩م] فقال: «القدس إرثنا كما هي إرثكم.. من القدس عرج نبينا إلى السماء.. وفى القدس تجتمع الملائكة.. لا تُفكر بأنه يمكن لنا أن نتخلى عنها كأمة مسلمة، أما بالنسبة إلى الأرض، فإن احتلالكم فيها كان شيئاً عرضياً، وحدث لأن المسلمين الذين عاشوا فى البلاد حينها كانوا ضعفاء، ولن يمكنكم الله أن تُشيدوا حجراً واحداً فى هذه الأرض طالما استمر الجهاد»!

- نعم.. هذا هو الطريق.. وهذا هو المنهاج:

- لقد بدد صلاح الدين الأيوبي بالجهاد - أساطير الكاثوليكية الصليبية فى التاريخ الوسيط للصراع.

- وبددت ثورات مصر وتضحيات شعبها أساطير بونابرت وأحلامه مع مطلع العصر الحديث.

- واليوم لا سبيل أمام أمتنا لتبديد أساطير المسيحية الصهيونية والعنصرية اليهودية إلا بالجهاد... فهو رهبانية «أمة محمد ﷺ».

وإذا كان الوعى بتاريخ هذا الصراع الطويل هو لون من الجهاد؛ لأنه سلاح من أمضى الأسلحة فى مواجهة التحديات التى قامت وتقوم على أرض القدس وفلسطين، فإننا نسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يجعل صفحات هذه الدراسة - التى نُقدم بين يديها - إسهاماً فى استرداد أمانة عمر إلى أحضان العروبة والإسلام، إن هذه الدراسة هي لون من «الجهاد الفكرى الواعى» كتبها كاتب غيور على الإسلام، ومقدسات الإسلام.

وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ

القدس: رمز الصراع.. وبوابة الانتصار

﴿٣٨﴾ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْأَنْفُسُ فَاسَادَ لَهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ [الحج: ٣٨ - ٤٠].

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء [شدة ومحنة] حتى يأتاهم أمر الله وهم كذلك».

قالوا: يا رسول الله: وأين هم؟ قال: «ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس».. رواه الإمام أحمد.

تلك هي مكانة القدس في عقيدة الإسلام وحضارته وتاريخه.. وتلك هي أساطير الصليبية والمسيحية الصهيونية حول المدينة المقدسة، التي كانت - دائماً وأبداً - رمز الصراع.. وبوابة الانتصارات.

نسأل الله أن ينفع بهذه الدراسة التي نقدمها للباحثين والقراء.. إنه سبحانه - خير مسئول وأكرم مجيب^(١).

(١) انظره بكتاب [بيت المقدس في القرآن والسنة] للشيخ حمادة فرج النجار - طبعة مكتبة وهبة القاهرة سنة ٢٠١٠م.

حقائق القضية الفلسطينية

لقد جمع الإسلام الأمة الإسلامية على خمسة جوامع، توحيدها وتؤلف بينها وهى: العقيدة.. والشريعة.. والحضارة.. والأمة.. ودار الإسلام.

وعندما كانت وحدة الأمة هى الإطار الجامع لشعوبها وقومياتها وأجناسها وأقطارها، كانت جامعتها الإسلامية جسداً واحداً، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.. وكانت صيحة «واسلاماه» تجد الاستجابة فى ديار عالم الإسلام..

وفى ظل تلك الجامعات الإسلامية فتح المسلمون، فى ثمانين عاماً، أوسع مما فتح الرومان فى ثمانية قرون - وشتان بين فتح التحرير وفتح الاستعباد.. وقهر المسلمون أشرس الغزاة وأخطر التحديات من الصليبيين الذين شنوا حرباً عالمية غربية على الإسلام والمسلمين دامت قرنين من الزمان [٤٨٩ - ٦٩٠هـ / ١٠٩٦ - ١٢٩١م] إلى التتار، الذين كسر المسلمون شوكتهم، ثم هداهم الإسلام فأصبحوا قوة ضاربة مدافعة عن ديار المسلمين.

ومع هذه الفتوحات والانتصارات - التى تحققت بوحدّة أمة الإسلام - مثل المسلمون - فى هذه الحضارة - «العالم الأول» على ظهر هذه الأرض لأكثر من عشرة قرون.. بينما كان الغرب يغط فى سبات عصور الجهالة والظلام..

فلما جاءت الغزوة الاستعمارية الأوربية الحديثة، التى بدأت بسقوط «غرناطة» [٨٩٧هـ / ١٤٩٢م] والالتفاف حول عالم الإسلام.. ثم ضرب قلبه بحملة «بونابرت» [١٢١٣هـ / ١٧٩٨م] والتهام أقاليمه إقليماً وراء إقليم، وحتى إسقاط الخلافة العامة [١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م].. وعمت بلوى هذه الغزوة الاستعمارية

الحديثة، أحلّ الغرب التشرذم الوطنى والقومى والقطرى محل رابطة جامعة الإسلام، فانشغل كل شعب وكل قطر بتحرره الوطنى عن قضايا غيره من شعوب أمة الإسلام.

ولتكريس هذا التشرذم ولتأييد هذه القطرية، ولإعاقة أية محاولة للنهضة التى تعيد الحياة والتكامل إلى أعضاء جسد الأمة الإسلامية، أقام الاستعمار الكيان الصهيونى على أرض فلسطين - سرطاناً عنصرياً غريباً، يقطع وحدة أرض الأمة، ويهدد كل مشاريع النهضة والوحدة للعرب والمسلمين.

* * *

لكن.. إذا كانت النزعات الشعوبية والقطرية قد استوعبت الشرائح التى تغرّبت من مثقفى الشعوب العربية والإسلامية، تلك التى استخدمتها الدول القطرية فى أجهزتها الإدارية والسياسية والثقافية فلقد ظلت جماهير الأمة على ولائها الفطرى لرابطة الجامعة الإسلامية.. وكانت «مركزية» القضية الفلسطينية التى تجسدت فيها وحدة دوائر الانتماء: الوطنية الفلسطينية، والقومية العربية، والعقيدة الإسلامية كانت بمثابة الرباط الإسلامى الجامع لأمة الإسلام، على امتداد عالم الإسلام.. كما كانت هذه القضية المركزية، الطاقة المفجرة للمشاعر الإسلامية تجاه التحديات «الصهيونية - الاستعمارية» المحدقة بالمسجد الأقصى، والقدس الشريف، والوطن الفلسطينى الذى ربط الله بينه وبين الحرم المكى الشريف.

لقد أحيت القضية الفلسطينية - ببعدها الإسلامى، ومركزيتها بين قضايا الأمة - الرباط الإسلامى الجامع بين أعضاء جسد الأمة الإسلامية.. وكما جعل الإسلام المسجد الأقصى واحداً من المساجد التى لا تُشدُّ الرحال إلا إليها.. فإن القضية الفلسطينية قد غدت محور القضايا الإسلامية التى تُشدُّ إليها رحال شعوب الأمة الإسلامية على امتداد أقطار وقارات عالم الإسلام، مغالبة بذلك معوقات النزعات القطرية التى تغل أيدي الأمة عن الانتصار لهذه القضية المركزية.

* * *

ولأن هذا الكتيب، الذى نقدم بين يديه، قد نجح فى استخلاص الحقائق الأساسية

حقائق القضية الفلسطينية

لهذه القضية المركزية، وفي تقديم هذه الحقائق الأساسية في إطار الوعي السياسى والفكرى والحضارى المتميز.. فلقد غدت صفحاته بمثابة «المتن» الذى يجب أن تستظهره وتعيه وتفقهه ذاكرة كل عربى وكل مسلم، بل وكل إنسان شريف ينشد الحقيقة والعدل والإنصاف.. وبمثابة «الهيكل العظمى» الحامل لكل تفاصيل هذا الصراع المحتدم على أرض فلسطين..

إن هذا الكتيب «الصغير.. والنفيس» الذى كتبه الأستاذ الدكتور/ محسن محمد صالح، هو «دفتر أحوال» قضية المسلمين الأولى.. فالخطر الصهيونى إنما يستهدف كل عالم الإسلام - من «غانة» إلى «فرغانة»، ومن حوض نهر الفولجا إلى جنوب خط الاستواء - ولذلك كانت هذه القضية رمزاً للصراع بين كل المسلمين وبين كل أعداء الإسلام.. وكان الصراع التاريخى حول القدس والأقصى - كما هو اليوم - بوابة الانتصار الإسلامى على كل الأعداء وسائر التحديات..

لقد وعى هذه «الحقيقة - الاستراتيجية» عماد الدين الكاتب [٥١٩ - ٥٩٧هـ / ١١٢٥ - ١٢٠١م] عندما خاطب صلاح الدين الأيوبي فقال:

وهِجَّتْ لِلْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ لَوْعَةٌ يَطُولُ بِهَا مِنْهُ إِلَيْكَ التَّشَوُّقُ
هُوَ الْبَيْتُ إِنْ تَفَتَّحَ، وَاللَّهُ فَاعِلٌ فَمَا بَعْدَهُ بَابٌ مِنَ الشَّامِ مَغْلُوقٌ!
وتلك هى المهمة - مهمة الوعي بمركزية واستراتيجية القضية الفلسطينية - وطنياً وعربياً وإسلامياً - وإنسانياً أيضاً - تلك هى المهمة التى تقدمها صفحات هذا الكتاب الصغير.. الذى ندعو الله سبحانه وتعالى أن يجعله نافعاً لكل قارئ.. وأن يجعله فى ميزان حسنات كل من يشيع ويذيع الحقائق الواردة فيه.. وأن يجزى كاتبه خير الجزاء.. إنه - سبحانه - أفضل مسئول وأكرم مجيب^(١).

(١) انظره بكتاب [الحقائق الأربعون فى القضية الفلسطينية] للدكتور محسن محمد صالح. طبعه كوالالامبور - ماليزيا - سنة ٢٠٠٢م.

أنا ماري شميل

يعلمنا الإسلام الأمانة العلمية في الحكم على الآخرين.. بل وفي الموازنة بين المسلمين وهؤلاء الآخرين..

فخيرية الأمة الإسلامية لا تعرف الإطلاق والتعميم، وإنما هي مشروطة بشروط، يدخل في إطارها كل من حصل هذه الشروط، وتحلى بصفاتها ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والاعتناق النظري للإسلام، دون العمل بأركانه وفرائضه ومبادئه، لا يحقق الخيرية لمعتنقيه على الآخرين ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

وحتى في داخل الأمة الواحدة للدين الواحد، يدعونا الإسلام إلى عدم التعميم والإطلاق.. فأهل الكتاب من اليهود ليسوا سواء، ولا هم كتلة واحدة صماء، فمنهم من أثنى عليه القرآن، فقال:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣ - ١١٥].

ومنهم الملاعين الملعونون ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ - ٧٩].

وكذلك الحال مع نصارى أهل الكتاب.. فهم ليسوا سواء.. فمنهم من هم أقرب الملل مودة للمسلمين.. ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُكَ ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِيَّتَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٨٢) وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فأكثبنا مع الشَّهيد ﴿ [المائدة: ٨٢، ٨٣].

ومنهم الذين بلغ بهم الغلو حد الكفر والشرك ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِيَّ إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾ (٧٢) ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٢، ٧٣].

* * *

تلك هي أخلاقيات الأمانة العلمية التي يعلمنا إياها القرآن الكريم في التقويم والحكم على الآخرين.. أن نحذر التعميم والإطلاق..

وإذا كان العرب والمسلمون يتألمون كثيراً من الاستشراق، الذي تحوّل إلى طلائع درست تراث الشرق، وخصائص العقل العربى والمسلم، لتعين موجات الغزو الاستعماري الغربى على التعامل مع أمتنا إبان الاجتياح الإمبريالى لبلادنا فى العصر الحديث.. فإن الأمانة العلمية التى يعلمنا إياها الإسلام تدعونا - رغم المرارة التى يشعر بها الكثيرون إزاء الكثير من الكتابات الاستشراقية - إلى عدم الإطلاق والتعميم فى الحكم على مجمل الاستشراق وعامة المستشرقين..

وإذا كانت الصور السلبية للاستشراق كثيرة الشيوع والانتشار فى ثقافتنا المعاصرة.. فإن الأمانة العلمية تدعونا إلى أن نقدم للقارئ العربى والمسلم نماذج من الوجه المشرق للاستشراق..

وتلك هى المهمة التى تقدمها الصفحات التى نقدم بين يديها.. ففيها سبرى

القارئ:

أنا ماري شيمل

١- دراسة عن المستشرق الألمانية «أنا ماري شيمل».. التي بلغت القمة في الإنصاف للشرق وقضاياها.. والحب المتصوف لتراث الإسلام والمسلمين..

٢- ونقد هذه الأستاذة العظيم للظلم الفكرى الذى أوقعته الثقافة الغربية بثقافتنا الإسلامية.. والذى قدمته من خلال حوار أجرى معها..

٣- ونموذجاً من كتابات هذه الأستاذة العظيمة عن التصوف الإسلامى..

وهى دراسات ترجمها عن الألمانية الباحث المصرى الذى يعيش فى «زيورخ» بسويسرا - الأستاذ ثابت عيد.. والذى لم تقف جهوده عند الترجمة، وإنما أثرى هذه الإسهامات الفكرية بالتعليقات التى أفصحت عن ثقافة واسعة وخبرة فى التعامل مع المصادر، الأمر الذى خدم هذه النصوص خدمة عظيمة..

إنها صفحات من الإنصاف الغربى للشرق.. ووجه مشرق للاستشراق.. نقدمه للقارئ العربى والمسلم؛ وفاء بالأمانة العلمية التى يعلمنا إياها إسلامنا عندما ننظر إلى الآخرين.. أو نتناولهم بالدرس والتقويم.. إنها تحية واجبة لعالمة جليلة، ذات قلب نورانى كبير!..

والله من وراء القصد.. منه نستمد العون والتوفيق^(١).

(١) انظره بكتاب [أنا ماري شيمل: نموذج مشرق للاستشراق] لثابت عيد - طبعة دار الرشاد - القاهرة سنة ١٤١٩هـ سنة ١٩٩٨م.

الإعلام والإسلام

فى هذا الكتاب - للإعلامية المرموقة كريمان حمزة - «تجارب.. ووقائع»، حدثت على امتداد ثلاثين عامًا، تنتصب شاهدة بأفصح لسان - لسان «التجارب.. والوقائع»، وليس لسان مؤلفته - على مكانة وموقع وحظ الكلمة الإسلامية من «التلفاز».. وهى بلسان «التجارب.. والوقائع» - مكانة وموقع وحظ «الأيام» على موائد «اللثام» الذين تحكموا فى أخطر أجهزة الإعلام!

وإذا كان هذا الكتاب يحكى عن «تجربة» مصرية، فإن حال الكلمة الإسلامية فى الكثير من بلاد وطن العروبة وعالم الإسلام ليست أفضل، بل ربما كانت فى بعض البلاد الأخرى أسوأ من ذلك بكثير...

وليس من مهمة هذا التقديم أن يعيد سرد الوقائع الدامغة، التى تشهد على هذه الحقيقة المأساوية.. فهى منشورة فى كل صفحات وسطور هذا الكتاب، الذى كتبه كاتبته بسلاسة مشوقة، بلغت الحد الذى جعلنى وأنا الذى تثقل الأعباء أوقاتى، حتى لقد غدت الواجبات أضعاف الأوقات - عندما فرغت من قراءته، تمنيت أن لو طال إلى أضعاف أضعاف ما به من صفحات!..

ليست مهمة هذا التقديم أن يعيد سرد هذه الوقائع.. بل لعلنى أحسن صنعاً عندما أوجز، حتى لا أباعد بين القارئ ومشاهدة «المأساة.. الملهة» التى صنعها ويصنعها أباطرة «التلفاز» مع الإعلام بكلمة الإسلام.

وإنما مهمة هذا التقديم - المحددة - هى أن يضيف إلى وقائع هذا الكتاب عددًا من البراهين، هى فى حقيقتها نتائج وخلاصات وثمرات هذا الموقف الشاذ الذى وقفته وتقفه «سياسة التلفاز» - خاصة - وكل وسائل الإعلام الحكومية - عامة - مع الكلمة الإسلامية والعلم الإسلامى..

- فعلى الرغم من أن هذه الأمة هي أمة الإسلام، وأن رسالة هذه الأمة، التي حملتها إلى العالمين، والتي هي مبرر وجودها ومبعث فخرها في الدنيا، وسبيل سعادتها في الآخرة، هي رسالة الإسلام، فإن مساحة الكلمة الإسلامية، على خارطة «التلفاز» هي أقل من ٥٪.

- وعلى الرغم من هذه الحقيقة المخجلة، فإن «نوعية» الكلمة «الإسلامية» المسموح بها في الشاشة الصغيرة هي أردأ النوعيات.. إنها الأفكار والقضايا التي عفا عليها الزمن، وتجاوزها العصر، ومل الناس سماعها وكرهوا التكرار الممل لها، حتى غدت - في أغلبها - لا ترقق قلباً، ولا توقظ عقلاً، ولا تبعث الحياة في الأمة التي تتناوشها - بل وتنهشها - أشرس المخاطر والتحديات..

فأنت لن تجد لقضايا الأمة الحقيقية - من الجهاد والتضحية والفداء والإيثار.. إلى المال العام، الذي أصبح كلاً مباحاً تنهبه عصابات الفساد والاستغلال.. إلى فريضة العدل الاجتماعي، الغائبة والمنشودة، إلى تحرير الأرض، وصيانة العرض.. إلى تأكيد ثوابت الاعتقاد، ومعالم الهوية الثقافية والحضارية.. إلى التصدي لطوفان التغريب والاستلاب الحضاري والتحلل القيمي.. إلى خيبة الحداثة وعدمية وتفكيك ما بعد الحداثة.. إلى الإلحاح على وشائج وحدة أمة الإسلام ودار الإسلام، وامتنياز وتميز شريعة الإسلام.. إلى حق تقرير المصير للأوطان الإسلامية السليبية والجريحة.. إلخ.. إلخ.. إلخ. لن تجد لهذه القضايا المصيرية وأمثالها الوعي الإسلامي والإعلام الإسلامي على شاشة «التلفاز».

- ولا نبالغ إذا قلنا إن ٩٩٪ من علماء الإسلام ومفكره، الذين يمتلكون الوعي الإسلامي الحق، والمواهب والملكات القادرة على إيقاظ العقول وإحياء القلوب وتنبيه الضمائر وتحريك جماهير الأمة، غائبون عن الشاشة الصغيرة، أو مدرجة أسماؤهم في قوائم الممنوعين من دخول مبنى «التلفاز».

- ولعل الكثيرين لا يعرفون أن «الأجهزة» التي تكتفى بالاسم الثلاثي في الاستعلام عن رواد الكثير من البرامج، لا تقنع إلا بالاسم الرباعي إذا تعلق الأمر بكلمة الإسلام!.. وأن الإذن في التعامل مع «التلفاز» تكفى فيه موافقة «جهاز» واحد،

اللهم إلا إذا تعلق الأمر بالكلمة الإسلامية، فلا بد من موافقة واتفاق ثلاثة «أجهزة»، أو «جهازين» على أقل تقدير!... بل إن الاستعلام لا يتم، غالبًا، إلا إذا كانت للمتحدث علاقة بالإسلام!..

- وإذا كان حجم المساحة الإسلامية، على الشاشة الصغيرة، بهذه الضآلة، وهذه النوعية، فإن الطوفان الهابط والمفسد، الذي تمتلئ به الشاشة، إنما يقتل أي آثار إيجابية لما يقدم من برامج إسلامية.. فالهابط المفسد يقدم في الإطار الجميل المشوق، والكلمة الإسلامية، غالبًا ما يحيط بها القبح، أو الخسونة، أو الرتابة التي تصرف عنها الذوق الرفيع..

- وغير ضآلة المساحة الزمنية.. وتعتمد اختيار المادة التي لا تنفع - إن لم تضر - وحرمان المادة الإسلامية من إمكانات الجمال والتشويق.. فهناك تعمد وضع المادة الإسلامية «في الأوقات الميتة» التي يكون جمهور الناس فيها - بمن فيهم ربات البيوت - في شغل عن مشاهدة «التلفاز».

* * *

وإذا كان هذا الكتاب قد مثل «شريطًا» من التجارب والوقائع الشاهدة على هذا «الود المفقود» - إن لم يكن التخوف، وأحيانًا العداء - للكلمة الإسلامية الحية، والباعثة على الإحياء - والإسلام في جوهره «إحياء» إلهي لكل ملكات وطاقات الإنسان، ولكل ميادين الحياة ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فإن قراءة هذا الكتاب لا شك ستضخم في عقل القارئ علامة الاستفهام:

- لماذا هذا الود المفقود بين أباطرة هذا الجهاز الخطير - «التلفاز» - وبين الكلمة الإسلامية - الجديرة بالانتساب حقًا إلى الإسلام؟..

وإذا كان المقام لا يتسع للتفصيل، فإنني أكتفي بالإشارة - مجرد الإشارة - إلى أسباب ثلاثة - من بين أسباب عديدة - لهذا الود المفقود:

أولها: هذه التبعية - الفكرية والسياسية والاقتصادية - المفروضة على بلادنا

العربية والإسلامية، والتي تجعل الكثيرين من ولاية أمورنا يحسبون «للمركز» الغربى المهيمن أكبر الحسابات.

فعداء هذا المركز الغربى للإسلام - الإسلام الموقظ للأمة.. وليس الذى يزيد من غيوبتها ودروشتها - ليس أثرًا من آثار «نظرية المؤامرة وذهنيتها» - كما يرهبنا بذلك غلاة العلمانيين المتغربين من العملاء الحضاريين للمركزية الغربية - لأن المؤامرة هى «التخطيط السرى».. أما العداء الغربى للإسلام فهو موقف معلى - فى دوائر صنع القرار.. ومراكز الدراسات الاستراتيجية.. وعلى أرض الواقع الممتد فى طول وعرض عالم الإسلام - من البلقان إلى القوقاز إلى كشمير وبورما والفلبين وأندونيسيا.. وحتى فلسطين والسودان وتركيا والعراق والصومال.. إلخ.. إلخ.

ولأن اختلال موازين القوى بين عالم الإسلام والمركزية الغربية - مركزية غطرسة القوة والقوة المتغطرسة - قد فرض الكثير من قيود التبعية على الكثير من ولاية أمورنا - دون أن يختاروا هذه القيود، أو يرضوا بها - فلقد غاب الود بينهم وبين الكلمة الإسلامية التى أعلن الغرب العداء لها..

ولأن ولاية الأمور هؤلاء مسلمون... وحتى تستريح «ضمائرهم»، فى موقفهم هذا من الكلمة الإسلامية، فلقد سموا الإسلام الذى يخافونه بذات الأسماء التى أطلقها عليه الغرب.. سموه «تطرفًا»، و«أصولية»، و«إسلامًا سياسيًا»، وذلك حتى تستريح «ضمائرهم» من عذاب المعادة للإسلام، وحتى يستمر التمويه على جمهور المؤمنين بالإسلام!!

إن واحدًا من أباطرة الإعلام، فى أحد البلاد الإسلامية، قد صرح فى الإجابة عن سؤال:

- لماذا لا تظهر مذيعة محجبة على شاشة «التلفاز»؟..

- فقال - بعد أن طلب عدم نشر هذه الإجابة -: إن المؤسسات الدولية - ومنها البنك الدولى، وصندوق النقد الدولى - تراقب وتتابع.. ولو حدث ذلك، فسيقولون إننا نسير وراء «المتطرفين»!!..

وفى بلد إسلامى آخر، حيث يحارب الحجاب فى المجتمع، وليس فقط على شاشة «التلفاز»، شاهد الناس - على الشاشة الصغيرة - طالبات إحدى الجامعات الإسلامية العريقة وهن يسبحن «بالمايوهات البكيني»!!.. ولذلك، تزدهر - فى هذا البلد الإسلامى السياحة، وتنهمر الاستثمارات الأجنبية، ويأكل الناس السحت باسم التنمية والتنوير: وكأننا لسنا أحفاد العرب - ناهيك عن المسلمين - الذين صكوا هذه الحكمة الخالدة «تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها»!!.. وكأن أحدًا لا يخجل عندما يقرأ بيت الشعر العربى:

تعال الله يا سلم بن عمرو
أذل المال أعناق الرجال!!

وكان أحدًا لا يذكر ولا يتذكر أن هذه الأمة قد امتلكت الدنيا عندما اعتزت بالإسلام، لأنها بذلك قد نصرت الله فنصرها، وجعل عزتها من عزته، سبحانه، ومن عزة رسوله ﷺ ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

وثانى أسباب هذا الود المفقود بين الإعلام وبين الكلمة الإسلامية الواعية والفاعلة: ما فتحته التبعية للغرب من أبواب أمام شرائح الغلو العلمانى فى دوائرنا الثقافية.. ففى العقود الأخيرة، لم نعد نواجه العلمانيين الوطنيين والقوميين، الذين لا تمنعهم علمانيتهم الجزئية المعتدلة من الاعتزاز بالإسلام، باعتباره عقيدة الأمة، وتراثها الثقافى، وهويتها الحضارية، ومنظومة قيمها الأخلاقية.. وإنما أصبحنا نواجه تيار الغلو العلمانى، الذى يريد «علمنة الحياة»، وليس فقط «علمنة الدولة»، ولذلك، فهو يجرح العقائد، ويسعى إلى تجاوز الثوابت - بل ويشكك فى وجود أية ثوابت! -.. ويرى فى «التغريب» البديل الحضارى النهضوى للإسلام الذى يكره ويرفض.. وعلى حين كان العلمانيون الوطنيون والقوميون - ولا يزالون - فصيلًا أصيلًا من قوى التحرر الوطنى والتنمية المستقلة والاستقلال الحضارى، نجد تيار الغلو العلمانى يمثل ثغرات الاختراق للأمن الوطنى والقومى والحضارى، فغلاة العلمانيين، هم - فى الفكر والثقافة والهوية - وأحيانًا فى السياسة - فى خندق واحد مع كل الأعداء!!..

ولقد هبّا المناخ لفتح أبواب ولادة أمورنا أمام تيار غلاة العلمانية، رغم ما بين الفريقين من فروق جوهرية إزاء الإسلام، بروز تيار الغلو الدينى والعنف السياسى المستغل بمظلة الإسلام.. فعندما اهتزت هيبة الدولة أمام هذا العنف، تقدم غلاة العلمانيين بخدماتهم للدولة، باعتبارهم الأقدر على مجابهة مقولات الغلو الدينى.. ولقد عهدت الدولة إليهم القيام بهذه المهمة القذرة التى يمنعها من القيام بها، مباشرة، التدين، واسترضاء جماهير المؤمنين..

وحتى ندرك آثار هذا التحول فى موقف الدولة، ومن ثم الإعلام، علينا أن نتذكر أن التجربة الناصرية، حتى فى ظل صدامها مع الحركة الإسلامية، لم تستبعد الإسلاميين من التدريس - على اختلاف مراحل - ولا من المؤسسات الإعلامية والثقافية، بل ولا من القوات المسلحة، بينما استبعدت الماركسيين من هذه الميادين^(١).. فلما حدث وجاءت «نكبة العنف» باسم الإسلام، وجدنا غلاة العلمانيين - وأغلبهم من الماركسيين - تفتح أمامهم كل أبواب هذه الميادين، ويطرد منها الإسلاميون.. ويطاردون!..

ولقد رأينا رمزاً من رموز الغلو العلمانى هو الراحل فرج فودة - يقف فيعلن فى حفل افتتاح معرض القاهرة الدولى للكتاب نقده للحكومة، لأنها - برأيه - تزيد على الجماعات الإسلامية، بزيادة المادة الإسلامية فى أجهزة الإعلام.. ويحذر من أن التدين - مطلق التدين - يقود إلى التطرف والعنف السياسى، لأن الوعظ يقود من المقهى إلى المسجد، ومن المسجد يتم «التجنيد» لجماعات الجهاد.. ولقد اقترح على الحكومة: تجفيف منابع التدين فى الإعلام والتعليم، وخلق البدائل التى تحتوى طاقات الشباب وملكاتهم، من مثل النوادى والمسارح ودور السينما!..

ويوم أعلن الرجل ذلك، وفى ذات الاجتماع، صدرت التوجيهات إلى أولى الأمر فى الإعلام بتكوين لجنة لبحث هذا المخطط، يكون فرج فودة عضواً فيها..

(١) أما دخول الماركسيين إلى أجهزة إعلام وثقافة الناصرية، بعد هزيمة سنة ١٩٦٧م، فراجع إلى ظروف التقرب الشديد من الاتحاد السوفيتى طلباً لمزيد من الدعم العسكرى والسياسى.. ساعد عليه تخلى الماركسيين عن تنظيماتهم المستقلة والتحاقهم، كأفراد، بالتنظيم الناصرى. فالأمر كان صفقة معهم ومع السوفييت!..

ومنذ ذلك التاريخ، غدا مخطط فرج فودة - تجفيف منابع التدين - دستورًا لموقف الإعلام والثقافة والتعليم من الإسلام!..

أما السبب الثالث لهذا الود المفقود بين كثير من حكام العرب والمسلمين وبين الإسلام، فهو حب هؤلاء الحكام لكراسى الحكم أكثر من حبهم لله، وولائهم للسلطة أكثر من ولائهم للإسلام.. ولما كان أغلبهم قد قبض على كرسى الحكم بطريق غير ديمقراطى، ولم تحمله إليه الأمة، فإنه يشعر - فى قرارة نفسه - بالافتقار إلى «الشرعية» سواء بمعاييرها السماوية أو الوضعية.. ولأن نظم الحكم هذه مفلسة جماهيريًا - لعجزها أمام الإمبريالية والصهيونية، ولفشلها فى قضية التنمية - ولأنها مفتقرة إلى التنظيمات الجماهيرية الحقيقية القادرة على منافسة الحركات الإسلامية فى ميدان تبادل السلطة، فإن أولى الأمر فى هذه النظم الحاكمة قد غدوا على يقين من أن أبواب الحرية إذا فتحت أمام الكلمة الإسلامية، فإن الجماهير ستحمل إلى كراسى الحكم قوائمًا آخرين!.. لذلك، أوجس ويوجس هؤلاء الحكام خيفة من الإسلام، حبًا فى كراسى الحكم، وعصًا عليها بالنواخز ووسائل الإعلام، وليس بسبب الكره العقدى للإسلام الدين..

إن أمتنا مسلمة - حكامها والمحكومين - وإذا كانت الهيمنة الغربية هى طليعة المناوئين للإسلام، فإن الغلو العلمانى هو الساعد الأيمن للهيمنة الغربية فى هذا العداء للإسلام... وما حكامنا - ومعهم أجهزة الإعلام - إلا ضحايا سوء الفهم وسوء الظن، النابعين من حب هؤلاء الحكام لكراسى الحكم أكثر من حبهم للإسلام... تلك بعض من أهم أسباب الود المفقود بين الإعلام فى بلادنا العربية والإسلامية، وبين كلمة الإسلام..

- التبعية للغرب، بقيودها الضاغطة إلى حد التهديد والوعيد..

- والغلو العلمانى الداخلى، الذى لا يرضى بأقل من استبعاد الإسلام، كل الإسلام..

- وعبودية الكثير من ولاة أمورنا لكراسى الحكم أكثر من عبوديتهم لله - والعياذ بالله - لذلك جعلوا القوائم الأربعة لعروش حكمهم:

١ - أجهزة الأمن السياسى..

٢ - وإمبراطورية الإعلام..

٣ - وثقافة التغريب...

٤ - ومناهج التربية والتعليم..

وفى القابضين على صياغة عقل الأمة ووجدانها، فى هذه الأجهزة، الأدلة الدامغة على صدق هذا الذى نقول!!..

* * *

إن أكثر نماذج الدعاة الذين تحدثت عنهم صفحات هذا الكتاب، من الذين غضب عليهم «التلفاز» واستبعدهم، لا علاقة لأى منهم بالمشروع الحضارى الإسلامى.. فهم مجرد دعاة يعملون فى ميادين ترقيق القلوب، وإحياء التدين الفردى، وإنعاش منظومة القيم الإيمانية، والتذكير بالدار الآخرة.. ولقد رفضهم «التلفاز» لا لأنهم ثوار، أو يتحدثون عن الشورى وسلطان الأمة والعدل الاجتماعى، وإيقاظ العقل، وتحريك الأمة.. إلخ.. إلخ.. إلخ.. وإنما لأنهم يحيون العاطفة الدينية، التى تمهد وتؤسس للإحياء الحضارى لأمة الإسلام.. فالضرب إنما تم ويتم فى القواعد والمقدمات.. والعداء إنما هو للجذور.. وتلك سمات الغلو العلمانى على وجه التحديد!!..

* * *

وإذا كان القارئ - بعد الإشارات إلى هذه الأسباب - أسباب الود المفقود بين «التلفاز» وبين الكلمة الإسلامية الواعية والفاعلة.. سيسأل:

- وما العمل؟؟..

فإنى أقول - فى كلمات:

- على علماء الأمة ومفكرىها أن يهتموا بالعمل المؤسسى، فهو الأفعال، والأدوم، أكثر من الجهود الفردية، مهما كانت عظمتها..

- وعلى علماء الأمة أن يهتموا بالقنوات الفضائية، وبشبكة المعلومات العالمية - «الإنترنت» - وذلك حتى تخترق الكلمة الإسلامية الواعية والفاعلة الحواجز الحديدية التي حالت بينها وبين شاشات «التلفاز» ووسائل الإعلام فى أغلب بلاد العروبة والإسلام.. وصولاً إلى اليوم الذى يفتح فيه الإنسان العربى والمسلم جهاز «التلفاز» على هذا البديل الإسلامى الإحيائى، ويغلقه فى وجه الغناء!..

وصدق الله العظيم:

﴿فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]..

تلك سنة الله فى التدافع بين الحق والباطل.. وهى السبيل لمواجهة هذا الواقع البائس الذى تتحدث عنه صفحات هذا الكتاب..

جزى الله كاتبته - السيدة الفاضلة والإعلامية الإسلامية المتميزة: كريمان حمزة - عن الإسلام ودعوته وأمتة خير الجزاء..

إنه سبحانه وتعالى، خير مسئول وأكرم مجيب^(١).

(١) أنظره بكتاب [لله يا زمرى] لكريمان حمزة - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩ م.

رؤية نقدية للحركات الإسلامية

بمثل هذا اللون من الكتب، فى هذا الفن من التأليف، يُحىي الإسلاميون منهاجًا إسلاميًا، حدّثنا عنه عمر رضى الله عنه، عندما قال «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا»^(١).. فخير للحركات الإسلامية أن تنمى مساحة «النقد الذاتى» فى أديباتها، وأن تبادر إلى تدارس الأمراض التى تصيبها، وذلك طلبًا للإياب إلى الحق، وللتطهير والتزكية، وحتى لا تدع لأعدائها فرص التشهير بها.. وفوق كل ذلك، حتى لا تتراكم عليها وفيها العيوب والأمراض فتنتقص من عافيتها، أو تصيبها بالإعياء..

ويزيد من أهمية هذا الكتاب أن نقده الذاتى لكثير من أطروحات وممارسات الكثير من الحركات الإسلامية، ليس من نوع النقد الذى يبعث على اليأس والقنوط والإحباط، ذلك لأن هذا النقد إنما يسوقه الكتاب فى إطار الحديث عن التحديات التى تواجه الحركات الإسلامية، والتى قامت هذه الحركات لمغالبتها والتغلب عليها.. فكأنما العيوب التى ينتقدها الكتاب هى واحدة من التحديات التى من الطبيعى أن تظل الحركات الإسلامية واعية بنقدها، والتخلص من سلبياتها، تحقيقًا للمقاصد التى نشأت لتحقيقها..

كذلك.. يتميز هذا الكتاب ويمتاز - على صغر حجمه - بأنه يشيع الوعى الإسلامى لدى قارئه بأكثر مما يحشد النصوص والمأثورات.. فإذا أورد النصوص والمأثورات والتجارب التاريخية والمعاصرة أوردتها لتزيد مساحة الوعى لدى المسلم المعاصر، وليس - كما يصنع كثيرون - لتكبت هذه المآثورات ملكات الوعى، وتضع مكانه التسليم والاستسلام!..

(١) أثر لعمر رضى الله عنه. أخرجه ابن أبى حاتم بسند صحيح. ابن كثير ج ٣.

ولذلك، فالحركات الإسلامية فقيرة في مثل هذا اللون من التأليف.. الأمر الذى يزيد من أهمية هذا الكتاب..

- ومن دلائل سعة الأفق، التى تتجلى فى صفحات هذا الكتاب، أن مفهوم «الحركات الإسلامية» فيه ليس التنظيمات والأحزاب والجماعات الحركية دون سواها.. وإنما هى «كل العاملين للإسلام» أفرادًا أو جماعات.. الذى وقفت بهم إمكاناتهم ومقاصدهم عند القطر.. أو الإقليم.. فضلًا عن الذين استوعبوا عالمية الإسلام فتوجهت مقاصدهم إلى عالمية الدعوة والحركة.. كما يضم مفهوم «الحركة»: المشتغلين بالفكر.. وبالساسة.. أو بالعمل الخيرى التطوعى.. يستوى ويتشارك فى كل ذلك الشعيون منهم والرسميون..

فحديث الكتاب عن «الحركة الإسلامية» هو حديث عن «اليقظة الإسلامية» لا يختزل هذه الظاهرة العظمى فى «وسائل التنظيمات» دون سواها..

- وفى هذا الكتاب دعوة إلى التمييز بين «التعددية».. التى تثرى وتغنى العمل الإسلامى والفكر الإسلامى.. وبين عصبية وحمية الحزب، الذى يجعل بأس الإسلاميين بينهم شديدًا، فتستنزف طاقاتهم فى صراعات داخلية، تجعلهم - حتى دون قصد منهم - أشداء على أنفسهم، ومن ثم - وبالقطع - رحماء على الأعداء!..

- وفيه دعوة إلى إطار شورى جامع، وذلك للتنسيق بين الحركات الإسلامية فى القضايا العامة التى تهتم الأمة، وفى مواجهة التحديات التى تواجهها، والتى تحاول كسر شوكة كل العاملين للإسلام.. فبهذا التنسيق يتم تعظيم قوى العاملين للإسلام، لمغالبة التحديات، ولتحقيق المقاصد.. كما تتم الاستفادة من التنوع فى الاهتمامات لدى الحركات الإسلامية - من صوفية.. وسلفية.. ودعوية.. وإحيائية.. وسياسية.. وفكرية نخوية.. وشعبية جامعة - بحيث تصبح - بهذا التنسيق - أشبه ما تكون بفصائل الجيش الواحد، يربط كل فصيل على الثغر الذى يناسب تكوينه وإمكاناته على امتداد الجبهة العريضة لثغور الإسلام..

- وفى هذا الكتاب تنبيه على حقيقة قد يغفل عنها الكثيرون.. وهى أن تزامن التشرذم والتمزق فى الحركات الإسلامية واشتداد الهجمة المعادية للإسلام.. تزامن

رؤية نقدية للحركات الإسلامية

ذلك مع تراجع وسقوط البدائل الحضارية و«الأيديولوجيات» والفلسفات غير الإسلامية.. إن هذا التزامن يوحى بوجود مؤامرة تريد تشويه البديل الوحيد الباقي في الميدان - وهو البديل الإسلامى الأمر الذى يستدعى يقظة ومراجعة من الذى ابتلعوا «طعم» هذه المؤامرة، فانزلقوا إلى ميادين الشقاق!...

- وفيه أيضًا دعوة إلى أن يسعى الإسلاميون لامتلاك وسائل العصر لتحقيق المقاصد الأصولية للإسلام، والمصالح المتجددة للأمة.. وأن يشيعوا روح الإسلام المتميزة فى الوسائل العصرية، وذلك لتحقيق النهوض الإسلامى، الذى فشل فى تحقيقه الآخرون، عندما عزلوا الوسائل العصرية عن الروح الإسلامية، فعزلتهم «معاصرتهم» عن هوية الأمة وانتمائها الإسلامى.. فتحولوا «بالتغريب» إلى «غرباء» عن الأمة التى يريدون قيادتها!

- وبقدر ما فى هذا الكتاب من التزام بالأصالة الإسلامية، بقدر ما فيه من دعوة إلى مواجهة التحديات الجديدة، التى تواجه الحركات الإسلامية فى الواقع المعاصر.. ففى السياسة، يجب أن يكون حديثنا عن سياسة إسلامية تواجه مشكلات اليوم.. ولا تقف عند حدود الإحالة على تجارب السابقين..

وفى حقوق الإنسان، يجب أن يكون هناك اهتمام نظرى وعملى لا يقف بهذه الحقوق عند «الذات»، وإنما يسعى لجعلها - كما أراد الله سبحانه وتعالى - عامة لمطلق الإنسان الذى كرمه الله.. فحقوق الإنسان عند المسلمين هى دين نتعبد الله به، وليست مجرد مصالح دنيوية، فضلاً عن أن تكون مجرد شعارات.. وغير المسلمين - فى الملل والفلسفات - قضية تحتاج إلى مزيد إيضاح وتحديد واهتمام... والتعددية السياسية.. والحزبية.. والانتخابات.. والمعارضة.. وتداول السلطة، بالاحتكام إلى الأمة، التى هى مصدر السلطات فى إطار الشريعة الإلهية.. وقضايا الحريات.. والموقف من نظم الجور والاستبداد.. وخرافة «المستبد العادل».. كل هذه القضايا - ومثلها كثير - يدعو هذا الكتاب الحركات الإسلامية إلى الاهتمام بها.. وإعادة النظر فى مواقفهم منها.. بروح النقد الذاتى الشجاع والبناء..

تلك إشارات إلى «رءوس أقلام» لبعض القضايا والأفكار التى يتميز ويمتاز بها

هذا الكتاب - الصغير الحجم - والذي أرجو أن يفتح الباب واسعاً لدراسات مماثلة ومشابهة، إن شاء الله..

وإذا كان لى - اتساقاً مع روح النقد الذاتى الشجاع والبناء.. التى تشيع فى صفحات هذا الكتاب - أن أدعو إلى مراجعة بعض الأفكار التى وردت فيه.. فإننى سأقف عند قضيتين:

القضية الأولى: استشهاد الكتاب بنص للإمام الشهيد حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨هـ / ١٩٠٦ - ١٩٤٩م] عليه رحمة الله، عن موقع الحكم والدولة والسلطة بين الأوامر الإلهية.. وهو نص يضع الحكم فى «العقائد والأصول» وليس فى «الفقهيات والفروع».. وفيه يقول: «.. والحكم معدود فى كتبنا الفقهية من العقائد والأصول، لا من الفقهيات والفروع» - [رسالة المؤتمر الخامس ص ١٣٧].

ومع إيمانى بأن الأستاذ البنا هو من أبرز مجددى القرن الرابع عشر الهجرى، وبأذر أطيب البذور التى بارك الله فيها فى حقل تجديد الإسلام وإيقاظ أمته، وصاحب القدم الراسخة فى «السهل الإسلامى الممتنع» الجامع بين الأسلوب الأدبى الجميل - الذى يفهمه الجميع - وبين الدقة فى استخدام المصطلحات، حتى لكأنه الفقيه والفيلسوف^(١).. مع إيمانى بذلك - وبأكثر منه - فإننى أدعو تلامذة الأستاذ البنا ومحبيه إلى التدقيق فى مراده من هذه العبارة كى لا تفهم خطأ.. ذلك أنه إذا كان مراد الأستاذ البنا بـ «الحكم» هنا: إقامة الشريعة، أى الحكم بما أنزل الله، فهذا مما لا خلاف فيه بين المسلمين، فالشريعة الإسلامية كالعقيدة الإسلامية من الأصول، بل إنهما - العقيدة والشريعة - جماع الإسلام..

أما إذا كان المراد «الحكم» ما نقصده فى أدبياتنا السياسية الحديثة والمعاصرة، أى نظام الحكم، الذى هو الشكل العصرى للخلافة والإمامة - أى «الدولة والسلطة» - فإن إقامتها - إقامة الدولة الإسلامية - فريضة دينية، لكنها ليست من

(١) انظر ما كتبه عنه فى كتاب [الصحة الإسلامية والتحدى الحضارى] ص ٤١ - ٨٣، طبعة دار الشروق. القاهرة سنة ١٩٩١. وكذلك فى [الثواب والمتغيرات فى اليقظة الإسلامية] طبعة القاهرة، دار نهضة مصر ١٩٩٧م.

رؤية نقدية للحركات الإسلامية

العقائد والأصول، وإنما هي من الفقهيات، والفروع.. فالفرائض الدينية ليست كلها عقائد وأركاناً وأصولاً.. والعقائد والأصول لا بد أن تكون فروضاً عينية، لا يعفى منها مكلف، بينما هناك العديد من الفروض الكفائية، التي هي فروض دينية، لكنها لا تدخل في العقائد والأصول.. فهي فرائض إذا قام بها البعض سقطت عن الباقيين، بينما فرائض العقائد والأصول لا تسقط عن المكلف طالما استوفى شروط التكليف..

ولقد كانت هذه القضية هي جوهر الخلاف بين كل فرق أهل السنة وبين الشيعة، فعلى حين انفردت الشيعة بجعل الإمامة - أي الخلافة والدولة والسلطة - من العقائد والأصول، قال أهل السنة والجماعة إنها من الفقهيات والفروع.. فالشيعة قاسوا الإمامة على النبوة فجعلوها مثلها من أصول الاعتقاد، بل وجعلوها ممتازة على النبوة لأنها استمرت بعد انتهاء دور النبوة.. فالنبوة لطف خاص، والإمامة لطف عام^(١).. وعندما عددوا «قواعد الإيمان جعلوا الإمامة إحداها.. اتفق على ذلك الأثنا عشرية والإسماعيلية^(٢).. وكذلك وضعوا مبحث الإمامة في كتب أصول الديانة - علم الكلام - وليس في كتب الفقه الذي هي علم الفروع بينما اتفقت كل تيارات الفكر السني - بل كل من عدا الشيعة، حتى الخوارج والمعتزلة - على أن الحكم والدولة والسلطة والسياسة (أي نظام الحكم) من الفقهيات والفروع، وليست من العقائد والأصول.. وفي ذلك يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ / ١٠٥٨ - ١١١١ م]: «إن نظرية الإمامة ليست من المهمات، وليست من فن المعقولات فيها، بل من الفقهيات.. والنظريات قسمان: قسم يتعلق بأصول القواعد، وقسم يتعلق بالفروع.. وأصول الإيمان ثلاثة: الإيمان بالله، وبرسوله، وباليوم الآخر، وما عداها فروع.. والخطأ في أصل الإمامة وتعيينها وشروطها وما يتعلق بها لا يوجب شيء منه التكفير..» ثم يعلل الغزالي وضع مبحث الإمامة في كتب الأصول، بأنه مجارة للمألوف الذي بدأه الشيعة، فيقول «ولكن

(١) أبو جعفر الطوسي [تلخيص الشافعي] ج٤ ص ١٣١، ١٣٢، تحقيق: السيد حسين بحر العلوم، طبعة النجف سنة ١٣٨٣ - ١٣٨٤. و [مجموع من كلام السيد المرتضى] اللوحة ٦٣ - مخطوط بدار الكتب المصرية.
(٢) [تلخيص الشافعي] ج٢ قسم / ص ٩١. وأبو حنيفة المغربي [دعائم الإسلام] ج ١ ص ٢، ١٣، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩.

إذا جرى الرسم باختتام المعتقدات به أردنا أن نسلك المنهج المعتاد، فإن القلوب عن المنهج المخالف للمألوف شديد النفار^(١).

فالحكم - بمعنى الدولة والسلطة والخلافة والإمامة (أى نظام الحكم) - من الفروع والفقهيات - والفقه هو علم الفروع - وليس من العقائد والأصول.. ولذلك، فالخطأ والاختلاف فيه «لا يوجب شىء منه التكفير» - كما يقول الغزالى - بينما الشيعة - الذين جعلوه من العقائد والأصول - قد كفروا ومخالفتهم فى الإمامة.. ذلك أن معايير الاختلاف فى العقائد والأصول هى «الكفر.. والإيمان» بينما معايير الاختلاف فى الفقهيات والفروع هى «الخطأ.. والصواب».. وإلى هذه الحقيقة أشار ابن خلدون [٧٣٢-٨٠٨هـ / ١٣٣٢ - ١٤٠٦م] فقال:

«وشبهة الشيعة الإمامية فى ذلك إنما هى كون الإمامة من أركان الدين.. وليس كذلك، إنما هى من المصالح العامة المفوضة إلى نظر الخلق»^(٢).

وعلى هذا رأى قام إجماع علماء السنة وأئمتها.. فقال إمام الحرمين الجوينى [٤١٩ - ٤٧٨هـ / ١٠٢٨ - ١٠٨٥م]: «إن الكلام فى الإمامة ليس من أصول الاعتقاد»^(٣).. وقال الشهرستانى [٤٧٩ - ٥٤٨هـ / ١٠١٦ - ١١٥٣م]: «إن الإمامة ليست من أصول الاعتقاد بحيث يفضى النظر فيها إلى قطع ويقين بالتعيين»^(٤).. وهو نفس رأى الذى أكدته كل من عضده الدين الإيجى [٧٥٦هـ - ١٣٥٥م] والشرىف الجرجانى [٧٤٠ - ٨١٦هـ / ١٣٤٠ - ١٤١٣م] - عندما قالوا فى [شرح المواقف]: «إن الإمامة ليست من أصول الديانات والعقائد، بل هى من الفروع المتعلقة بأفعال المكلفين، وإنما ذكرناهم فى علم الكلام تأسيساً بمن قبلنا، إذا قد جرت العادة من المتكلمين بذكرها فى أواخر كتبهم»^(٥). وكما أنكر ابن خلدون على الشيعة وضعهم

(١) [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص ١٣٤. طبعة صبيح - القاهرة - [يفصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] ص ١٥، طبعة القاهرة ١٩٠٧م.

(٢) [المقدمة] ص ١٦٨. طبعة القاهرة ١٣٢٢هـ.

(٣) [الإرشاد] ص ٤١٠. طبعة القاهرة ١٩٥٠م.

(٤) [نهاية الإقدام فى علم الكلام] ص ٤٧٨. طبعة «ألفريد جيوم» مصورة، بدون مكان الطبع أو تاريخه.

(٥) [شرح المواقف] ج ٣ ص ٢٦١ طبعة القاهرة ١٣١١هـ.

رؤية نقدية للحركات الإسلامية

الإمامة في أركان الدين، صنع ذلك ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨هـ / ١٢٦٣ - ١٣٢٨م] أيضًا، فأورد حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: إن الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت.. والإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره.. والإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

يورد ابن تيمية هذا الحديث وينبه إلى أن الإمامة لم تذكر في أركان «الإيمان» ولا «الإسلام» ولا «الإحسان». وهذا الحديث - كما يقول - «متفق على صحته، متلقى بالقبول، أجمع أهل العلم بالنقل على صحته».

ثم يقضى ابن تيمية في الاحتجاج على أن الإمامة ليست من أركان الدين، بأننا حتى لو لم نحتج بالحديث، فإن القرآن يشهد لنا، لأنه يتحدث عن المؤمنين فيقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].. فلم يذكر القرآن الإمامة في تعداده لصفات المؤمنين.. ثم التزم ذلك الموقف في تعداد صفات المؤمنين وأركان الإيمان دائمًا وأبدًا^(١).

هذا هو إجماع أهل السنة على أن الحكم والإمامة والخلافة والسلطة والدولة (أي نظام الحكم) من الفقهيات والفروع، وليست من العقائد والأصول.. بل إن الأستاذ البنا عندما يذكر أن علماءنا قد وضعوا هذا المبحث «في كتبنا الفقهية» - والفقه هو علم الفروع - لا بد أن يشير قوله إلى تناقض ذلك مع القول بأن هذا المبحث هو من مباحث «العقائد والأصول»!.. ومنذ الماوردي [٣٦٤ - ٤٥٠هـ / ٩٧٤ - ١٠٥٨م] أخرج علماء السنة مبحث الإمامة من كتب علم الأصول - علم الكلام - فوضعوه في مصنفات السياسة الشرعية والأحكام السلطانية، وبقي الشيعة وحدهم يضعونه في كتب العقائد والأصول.

(١) ابن تيمية [منهاج السنة النبوية] ج١ ص ٧٠ - ٧٢، تحقيق: د. محمد رشاد سالم. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢..

ولا يحسب أن تصنيف الحكم والدولة في الفروع الإسلامية يقلل من أهميتها، أو يفتح الباب لعلمانية تفصل بينها وبين الإسلام وعقائده، ذلك أن «نظام الحكم» - بل وكل «نظم العمران» - لا بد وأن تكون من الفروع، حتى يكون فيها مجال للاجتهاد، وللتطور الذي يواكب المستجدات والمصالح المتغيرة، عبر الزمان والمكان.. ف«النظم» مدنية، يجتهد الفقه الإسلامى فى إقامتها وتطويرها، وهى «إسلامية» - فى ذات الوقت - لأنها محكومة بإطار تحقيقها لمقاصد الشريعة ومبادئ الدين فى الشورى والعدل بين الناس.. فالشورى من قواعد الإسلام وثوابت مبادئ الشريعة، ونظامها من فقه الفروع، المتطور عبر الزمان والمكان.. وكذلك العدل بين الناس - فى مختلف الميادين - مبدأ إسلامى ثابت، بينما «النظام» المحقق لهذا المبدأ مدنى متطور، ولذلك فمكانه فى الفروع المتطورة بالاجتهاد، وليس فى ثوابت العقائد والأصول..

نظام الحكم: مدنى، من الفروع، ومرجعيته - الشريعة الإسلامية: من الثوابت والأصول الدينية.. وهذا هو الذى يجعل الدولة الإسلامية: «مدنية وإسلامية» فى ذات الوقت. ثم إن الحكم الإسلامى - مع أنه من الفروع والفقهيات - هو فريضة إسلامية، لا لأنه من العقائد، وإنما لأنه الشرط الضرورى لإقامة عقائد الدين وأصوله وفرائضه وثوابت شريعته الإلهية.. وما لا يقوم الواجب الدينى إلا به فهو واجب ديناً، حتى ولو لم يكن من ثوابت الأصول وأمّهات الاعتقاد..

ذلك مبحث دقيق، لكنه واضح كل الوضوح، ومحسوم كل الحسم فى عموم الفكر السننى بل لقد أفردت له بعض التأليف النفيسة فى تراثنا الفقهي^(١).. وحبذا لو اهتم الفكر الإسلامى المعاصر بمراجعة كثير من التصورات الشائعة فى الساحة الإسلامية حول هذا الموضوع.

أما القضية الثانية: التى تحتاج إلى مراجعة - من بين القضايا التى عرض لها هذا الكتاب - فهى ما نسبته - نقلاً عن المرحوم طلعت حرب باشا [١٢٩٣ - ١٣٦٠هـ/

(١) انظر للقرافى [كتاب الأحكام فى التمييز بين الفتاوى والأحكام وتصرفات القاضى والإمام]، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة . طبعة حلب ١٩٦٧م.

١٨٧٦ - ١٩٤١م] إلى صالون «نازلى فاضل»^(١) [١٣٣٢هـ، ١٩١٤] من الدعوة إلى:

- ١ - القضاء على الحجاب الإسلامى.
 - ٢ - وإباحة الاختلاط فى كل الظروف.
 - ٣ - وتقييد الطلاق.
 - ٤ - ومنع الزواج بأكثر من واحدة.
 - ٥ - وإباحة الزواج بين المسلمات والأقباط.
- فهذا الكلام - الذى يلقي هوى كثيرًا فى صفوف الحركات الإسلامية آن له أن يُراجع، وأن يعرض على الأدبيات التى مثلت - فى ذلك التاريخ - آراء الذين كانوا يرتادون صالون «نازلى فاضل».
- وإذا كانت أهم الثمار الفكرية لذلك «الصالون» - فى قضية المرأة - قد تمثلت فى كتاب قاسم أمين [١٢٧٩ - ١٣٢٦هـ / ١٨٦٣ - ١٩٠٨م] عن [تحرير المرأة].. فليس فى هذا الكتاب تهمة واحدة، بل ولا حتى شبهة من هذه الاتهامات!..
- فمعركة «الحجاب» و«السفور» التى دارت يومئذ، والتى عرض لها قاسم أمين، لم يكن لها علاقة بلباس المرأة... وإنما كان المراد «بالحجاب» عزل المرأة عن الحياة العامة، و«بالسفور» ظهورها فى الحياة العامة.. وكتاب قاسم أمين لم تعد أحلامه تعليم المرأة التعليم الابتدائى ولم يطلب «عملها»!.. وأكد على اللباس الذى لا يكشف منها سوى الوجه والكفين!..
- ومصطلح «الاختلاط» كان ولا يزال بحاجة إلى ضبط مفهومه فى الأدبيات

(١) ولعل من الضروري والمفيد مراجعة الفكر الشائع فى أوساط الإسلاميين عن هذه السيدة، التى كانت مدافعة دفاعًا شديدًا عن الدولة العثمانية، والتى منحها السلطان عبد الحميد وسام «شفقت» من الدرجة الأولى، والتى أثر عنها قولها: «إننا نحن المسلمين لا نجاح لنا إلا بالتمسك بالإسلام» لقد كانت تجيد العربية والتركية والإنجليزية والفرنسية، وتدعو للمبادئ الدستورية، استفادة من التقدم الغربى فى النظام النيابى وكانت فى ذلك مثل أبيها وكان «أحرار الترك» لكن دون الخروج على الإسلام، راجع عمر رضا كحالة [أعلام النساء] جـ ٥ ص ١٥٨، ١٥٩، طبعة بيروت، مؤسسة الرسالة.

الإسلامية.. لأن البعض لا يفرق بين «الاختلاط» وبين «الخلوة» التي تجمع المرأة بغير المحارم.. والأخيرة هي الممنوعة شرعاً، بينما المجتمع المسلم، منذ عصر النبوة، لم يكن مجتمعاً انفصالياً، وإنما كانت المرأة فيه تشارك الرجل في البيعة والحقل والسوق والمسجد والحرب والعمل العام.. فهو «مجتمع مختلط» مضبوط سلوك أفراد - رجالاً ونساءً - بآداب الإسلام..

- وتقييد الطلاق - فى كتاب قاسم أمين - لم يتعد الدعوة إلى إحياء الفريضة القرآنية الداعية إلى «التحكيم» عند خشية الشقاق بين الزوجين، وذلك منعاً للنزق من أن يهدم كيان الأسرة فى لحظات الطيش ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٣٥].. ثم رفع رأى الحكمين إلى القاضى الشرعى لتوثيق نتيجة التحكيم..

- وتعدد الزوجات.. لم تكن هناك دعوة إلى منعه بإطلاق.. وإنما كانت الدعوة إلى ربطة بالضرورات والدواعى، باعتباره الاستثناء وليس القاعدة.. وذلك علاجاً لمضاره الاجتماعية، وحفاظاً على العدل المطلوب فيه..

- أما الدعوة إلى إباحة زواج المسلمات من غير المسلمين.. فلا أعتقد أن أحداً - بمصر، فى ذلك العصر - قد أثار هذا الموضوع!..

لذلك، أتصور أن الأمانة الفكرية، والعدالة - التى هى فريضة إسلامية مع من نحب ومن نكره - مع من نوالى ومن نعادى تدعو إلى مراجعة هذه الاتهامات.. خاصة وأنها جزء من «الأخطاء الفكرية الشائعة». لدى كثير من أوساط الحركات الإسلامية المعاصرة..

إن هاتين الملاحظتين اللتين أشرت إليهما، قد استدعاهما المنهاج المتميز والممتاز الذى التزمه هذا الكتاب.. منهاج الشجاعة الفكرية، وطلب الموضوعية، النقد الذاتى، الذى يبادر إلى محاسبة النفس قبل أن يحاسبها الآخرون..

إننا إمام كتاب جيد.. فى موضوع مهم.. ندعو الله سبحانه وتعالى أن ينفع به، وأن يجعله فى ميزان حسنات كاتبه.. وأن يهبنا جميعاً الهدى والسداد والتوفيق^(١)..

٢٥ محرم ١٤١٨هـ / ١ يونيه ١٩٩٧م

(١) انظره بكتاب [تحديات سياسية تواجه الحركة الإسلامية] لمصطفى الطحان طبعة مؤسسة الفلاح للترجمة والنشر والتوزيع - القاهرة سنة ١٩٩٧م.

سيد قطب.. والعنف

لقد كان الشهيد سيد قطب - ولا يزال - صرحًا شامخًا، ومسيرة طويلة وعريضة وعميقة من «الجهاد الفكرى.. والفكر الجهادى»، التى استوى عودها على امتداد عقود عدة من القرن العشرين.

وإذا كان هناك «خيطة رابط» بين إبداعاته - على امتداد حياته الفكرية - التى امتدت قرابة أربعة عقود - فهو «خيطة المعارك» التى خاضها - بفروسية - فى ميادين الأدب - إبداعًا.. ونقدًا - والفكر السياسى.. والاجتماعى.. والإسلامى النظرى منه والحركى والذى اخترق حواجز المحلية إلى العالمية.. حتى لقد ظل حيًا بعد مغادرته هذه الحياة.

- إنه.. سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلى [١٣٢٤ - ١٣٨٦هـ / ١٩٠٦ - ١٩٦٦م].. واحد من أكثر الكُتاب والمفكرين الإسلاميين، والساسة الذين شغلوا - ويشغلون - تيارات وحركات الصحوة الإسلامية المعاصرة.. ويشيرون الجدل الكثير والشديد..

وُلد فى صعيد مصر - ببلدة موشا، التابعة لأسيوط - لأسرة مستورة الحال ماديًا، ووطنية الانتماء سياسيًا.. ذات أصول هندية..

وفى السادسة من عمره دخل المدرسة الأولية بالقرية - أربع سنوات - حفظ فيها القرآن الكريم..

وفى سنة (١٩٢١م) انتقل إلى القاهرة، ليكمل تعليمه.. وبعد حصوله على شهادة «الكفاءة» اشتغل مدرسًا بالمدارس الأولية، وواصل دراسته فى «تجهيزية دار العلوم»

ثم التحق «بمدرسة دار العلوم العليا»، وتخرج فيها سنة (١٩٣٣م) .. فانتقل إلى التدريس الابتدائي بدمياط .. فبنى سويف .. فحلوان ..

وفى سنة (١٩٤٤م) أصبح مفتشاً بالتعليم الابتدائي .. ثم انتقل إلى الإدارة العامة للثقافة فى سنة (١٩٤٥م).

وفى القاهرة أتنق سيد قطب الإنجليزية، وتأثر بأدائها .. وكانت له موهبة فنية وشعرية وأدبية وملكة نقدية فذة؛ نمت بتلمذه على الأستاذ عباس محمود العقاد [١٣٠٦ - ١٣٨٤هـ / ١٨٨٩ - ١٩٦٤م] - بعد فترة عابرة من الإعجاب بالدكتور طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣هـ / ١٨٨٩ - ١٩٧٣م]^(١) - حتى أصبح من «مريدى» العقاد، وأقرب تلاميذه إليه .. ثم استقل سيد قطب برأيه عن أستاذه، نازعاً إلى الاعتراف من المنابع لا من الأستاذ! ..

- ولقد عرفت انتماءاته السياسية مراحل متميزة .. من «حزب الوفد» إلى «الهيئة السعدية» إلى «الإخوان المسلمين» ..

وعرفت حياته الفكرية - هى الأخرى - مراحل متميزة .. ففى البداية كان شاعراً وأديباً وناقداً، خاض العديد من المعارك النقدية ضد كثير من أعلام الأدب والنقد فى عقدي الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين .. وفى هذه المرحلة لم تكن عبقريته الإسلامية قد اكتمل نضجها .. وإن كان انتماءه الحضارى الإسلامى قد تألق فى نقده لكتاب طه حسين: [مستقبل الثقافة فى مصر] الذى صدر سنة (١٩٣٨م).

ففى هذا الكتاب ادعى طه حسين أن: العقل الشرقى هو عقل يونانى - منذ القدم - وأن القرآن لم يغير من يونانية هذا العقل الشرقى .. كما لم يغير الإنجيل من يونانية العقل الغربى؛ لأن القرآن لا فارق بينه وبين الإنجيل .. وإذا كان العقل الشرقى قد قبل اليونانية قديماً .. فلم لا يقبل اليوم الحضارة الأوروبية - بخيرها وشرها .. حلوها ومرها .. ما يُحمد منها وما يُعاب؟! ..

(١) أى أن سيد قطب قد كتب نقده لـ «طه حسين» وهو مدرس بالابتدائي .. ولعل هذا الموقف أن يكون من أسباب تحوله عن الإعجاب بطه حسين إلى الإعجاب بالعقاد .. الذى كان يكتب الإسلاميات والعبقریات فى ذلك التاريخ.

ولقد ردَّ سيد قطب على هذه «النظرية» ردًّا عبقرياً - نشره بصحيفة دار العلوم سنة (١٩٣٩م)^(١).. أكد فيه على:

- ١ - أن مصر القديمة لم تكن يونانية الهوى..
- ٢ - وأن الدين هو الذى يصبغ عقلية الأمة ويصوغها.. وخاصة الإسلام الذى جمع إلى الجانب الروحى القوانين والنظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.. وهى خواص ميزت القرآن عن الإنجيل وميزت الإسلام عن المسيحية.
- ٣ - وأن الفلسفة اليونانية لم تصبغ العقلية المصرية القديمة؛ لأنها لم تُعدَّ مدينة الإسكندرية إلاَّ فى أحيان قليلة.. وظلت «منف» - [العاصمة الوطنية لمصر القديمة] - محتفظة بفرعونيتها، حتى جاء الرومان فكرهتهم وأعرضت عنهم ما وسعها الإعراض.
- ٤ - وأن الإسلام عندما جاء، اعتنقته مصر - راضية - وتأثرت به مع سائر البلاد.. وأن العقلية الإسلامية ظلت موحدة، ولم تتجزأ بالتجزؤ السياسى للبلاد الإسلامية.
- ٥ - وعلى حين وقفت المسيحية ورسولها عند «الروحانية الشفيفة»، فإن الإسلام قد مثلَّ منهاجاً شاملاً الحياة؛ ومن ثمَّ كان فاعلاً فيها وصابغاً لها.. وكذلك القرآن قد مثلَّ نُظْماً وشرائع، وحدوداً دينية واجتماعية واقتصادية وسياسية، بينما الإنجيل يكاد يخلو من هذا كله.
- ٦ - وأن الحضارة الغربية حضارة مادية وأن بينها - لذلك - وبين عقائدنا وتقاليدينا وضمايرنا تناقضات تُحدث فى نفوس الآخرين عنها وفى أرواحهم قلقاً واضطراباً.

٧ - وأن أيسر ما يحقق رغبة طه حسين - فى الأخذ بالحضارة الأوروبية، ويحقق رغبتنا فى الإبقاء على مميزاتها الذاتية - أن نحللها إلى عنصرين: الثقافة

(١) انظر نص دراسة سيد قطب.. وتحليلنا لأفكاره وأفكار طه حسين بكتابنا: الانتماء الحضارى: للغرب أم الإسلام؟ (ص ٥٣ - ١٥٩) طبعة نهضة مصر، القاهرة سنة (٢٠٠٨م).

والمدينة.. فنعتبر الثقافة شاملة لدينا وفنوننا ونظمنا الخلقية وتقاليدينا.. وهذه يجب أن نحفظ فيها بماضيها، ونحدد فيها بمقدار ما تتطلب سنة التطور الطبيعي.. ونعتبر المدينة شاملة للعلوم والفنون التطبيقية، وتلك نأخذها من أوروبا أخذًا.. فنصنع ما صنعه اليابان، عندما أخذت المدينة الأوروبية، وزادت عليها، مع بقائها - فى الثقافة - على أصولها وماضيها.

- وفى سنة (١٩٤٥م) بدأ سيد قطب أولى دراساته الفنية الإسلامية [التصوير الفنى فى القرآن الكريم].

- وفى سنة (١٩٤٨م) بدأت علاقاته الفكرية - «التنظيمية» - بفصائل التغيير والإصلاح والتجديد، ذات النزعة الإسلامية؛ فشارك فى رئاسة تحرير مجلة «الفكر الجديد» - التى كانت تصدرها جماعة الإخوان المسلمين - وكتب فيها - عدد يناير (١٩٤٨م) - مشروعًا لتقنين الفكر الاجتماعى والاقتصادى الإسلامى.. وبدأ يسهم فى تحرير صحيفة «الاشتراكية» - لسان الحزب الاشتراكى و«اللواء الجديد» - لسان اللجنة العليا للحزب الوطنى.

ولقد صحب هذا التطور الفكرى تطور فى معايير النقد الأدبى والفنى لديه؛ فانتقد - فى سنة (١٩٤٩م) - استلهم توفيق الحكيم [١٣١٦ - ١٤٠٧هـ / ١٨٩٨ - ١٩٨٧م] فى مسرحيته «أوديب» الأساطير الإغريقية وعقائدها الوثنية المنافية للإسلام، ودعاه إلى أخذ «قوالب» الغرب الفنية دون «مضامينه» العقيدية والفكرية..

* وفى نهاية سنة (١٩٤٨م) سافر فى بعثة إلى الولايات المتحدة الأمريكية - مدتها عام - للاطلاع على التربية وأصول المناهج، فشاهد الوجه المادى والتحلل الخلقى والإفلاس القيمى للحضارة الغربية - ذات الليبرالية.. الرأسمالية المتوحشة - رغم إنجازاتها المادية العملاقة.. فنما عزمه على «العمل الإسلامى» ليس الفكرى فقط؛ بل تحقيق «شئ أكبر»..!

ولقد شهد - وهو بأمريكا - فرحة الدوائر الصليبية باغتيال الشيخ حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨هـ / ١٩٠٦ - ١٩٤٩م] فى ١٢ فبراير سنة (١٩٤٩م)، فأدرك عمق

سيد قطب.. والعنف

العداء الغربى - والأمريكى - للإسلام عندما يكون منهاجاً شاملاً للحياة.. وكتب عن الإسلام الذى تريده أمريكا - «الإسلام الأمريكانى» - يقول:

«إن الإسلام الذى يريده الأمريكان، وحلفاؤهم فى الشرق، ليس هو الإسلام الذى يقاوم الاستعمار، وليس هو الإسلام الذى يقاوم الطغيان؛ ولكنه فقط الإسلام الذى يقاوم الشيوعية».

إنهم لا يريدون للإسلام أن يحكم، ولا يطبقون من الإسلام أن يحكم؛ لأن الإسلام حين يحكم سيُنشئ الشعوب نشأة أخرى، وسيُعَلِّم الشعوب أن إعداد القوة فريضة، وأن طرد المستعمر فريضة، وأن الشيوعية كالاستعمار وباء، فكلاهما عدو، وكلاهما اعتداء..

الأمريكان وحلفاؤهم - إذن - يريدون للشرق «إسلاماً أمريكانياً» يجوز أن يُستفتى فى منع الحمل، ويجوز أن يُستفتى فى دخول المرأة البرلمان، ويجوز أن يستفتى فى نواقص الوضوء، ولكنه لا يستفتى أبداً فى أوضاعنا الاجتماعية والاقتصادية أو نظامنا المالى، ولا يُستفتى أبداً فى أوضاعنا السياسية والقومية، وفيما يربطنا بالاستعمار من صلات؛ فالحكم بالإسلام، والتشريع بالإسلام، والانتصار للإسلام، لا يجوز أن يمسها قلم ولا حديث ولا استفتاء^(١) فى الإسلام الأمريكانى.

- وفى سنة (١٩٤٩م) صدر لسيد قطب أول أعماله الفكرية - الاجتماعية الإسلامية - المهمة: [العدالة الاجتماعية فى الإسلام].

- وكان عام (١٩٥١م) - بالنسبة لمرحلته الإسلامية - متميزاً، ففيه صدر له كتاب: [معركة الإسلام والرأسمالية]، وكتاب: [السلام العالمى والإسلام].. وفيه - وهذا مهم - بدأ تفسيره للقرآن الكريم - [فى ظلال القرآن] - وبدأ يكتب فى مجلة الإخوان [الدعوة].. ولقد عبر عن هذه «النقلة النوعية» بقوله: «لقد ولدت سنة (١٩٥١م)»!!

- وفى سنة (١٩٥٢م) كتب فى مجلة [الرسالة] مقالاً بعنوان: «عدونا الأول:

(١) أمريكا من الداخل، سيد قطب، والنقل عن: د. جابر قميحة - صحيفة «آفاق عربية» - القاهرة فى (٢٧/١٢/٢٠٠١م).

الرجل الأبيض» تعبيراً - فى تطوره الفكرى عن توازى الوعى بتميز الخيار الحضارى الإسلامى بالوعى بمخاطر النموذج الغربى على النهضة الإسلامية.

- وحتى قيام ثورة ٢٣ يوليو (١٩٥٢م) كان سيد قطب - بالنسبة للالتزام الحركى - لا يزال من «أصدقاء الدعوة الإسلامية».. لكنه انضم - تنظيمياً - للإخوان المسلمين عقب الثورة، وأشرف على قسم نشر الدعوة فى الجماعة.

- وفى مرحلة الوفاق بين الثورة والإخوان - ولهم فى التمهيد للثورة وفى قيامها وحمايتها الدور الأكبر - دافع سيد قطب عن الثورة، فى كتابات كثيرة، واختير مستشاراً لمجلس قيادة الثورة للشئون الثقافية والعمالية، وعين سكرتيراً مساعداً لـ «هيئة التحرير» - تنظيمها السياسى الأول - الذى تأسس فى يناير سنة (١٩٥٣م).

- وعقب الخلاف بين الإخوان والثورة - بعد توقيع اتفاقية الجلاء فى ٢٧ يوليو (١٩٥٤م) - رأس سيد قطب تحرير مجلة «الإخوان فى المعركة» - وهى مجلة الجماعة السرية، المناوئة للثورة.. ودخل السجن عقب أكتوبر (١٩٥٤م).. وحكم عليه بالأشغال الشاقة خمسة عشر عاماً.. لكن الرئيس العراقى عبد السلام عارف [١٩٢١ - ١٩٦٦م] - الذى كان معجباً بتفسير سيد قطب للقرآن [فى ظلال القرآن] - طلب الإفراج عنه؛ فصدر له «عفو صحى» فى مايو (١٩٦٤م).. بعد عشر سنوات من السجن والتعذيب، انتقلت بفكره «نقطة نوعية»؛ فحكم على المجتمعات الإسلامية كلها بالجاهلية والكفر.. بل وحكم بارتداد «الأمة» وانقطاع الإسلام منذ قرون.. وكتب - فى [معالم فى الطريق] - يقول «إن وجود الأمة المسلمة يعتبر قد انقطع منذ قرون كثيرة»، والمطلوب: جعلهم «مسلمين من جديد»^(١)!

وعن هذه المرحلة عبرت كتبه: [هذا الدين] و[المستقبل لهذا الدين] و[معالم فى الطريق] والإضافات التى أدخلها على [الظلال] و[العدالة الاجتماعية].

(١) انظر كتابنا: الصحوة الإسلامية والتحدى الحضارى (ص ١٥٣)، طبعة دار الشروق (١٩٩١م)، وكتابنا: مقالات الغلو الدينى واللا دينى (ص ٢٦)، طبعة مكتبة الشروق الدولية (٢٠٠٤م) ومعالم فى الطريق (ص ٨ - ١٧٣)، طبعة دار الشروق (١٩٨٠م).

سيد قطب.. والعنف

- وبعد خمسة عشر شهرًا من الإفراج عنه، أُدخل السجن من جديد - في أغسطس (١٩٦٥م) - متهمًا بقيادة تنظيم جديد يتبنى نظرية فكره الجديد.. فَحُكِمَ.. وأعدم - في ٢٦ أغسطس (١٩٦٦م) - تاركًا من الآثار الفكرية ٢٤ كتابًا.. وديوان شعر.. و١١٠ قصائد.. وثلاث قصص للأطفال.. وأربع صور قصصية.. وكتاب خواطر - بالاشتراك مع إخوته - وروايتين.. وسيرة ذاتية.. و٤٨٧ مقالة.. وعدداً من المقدمات التي كتبها لعدد من الكتب.. وتاركًا بابًا جديدًا لفصيل جديد من فصائل الصحوة الإسلامية المعاصرة، يرفض كل الواقع.. ويدعو لتغييره بالقوة..

- لقد سار سيد قطب على درب الاستشهاد، مؤمنًا بما قدمت يداه.. بل لقد تنبأ بذلك عندما كتب في [معالم في الطريق]:

«وتتبدل الأحوال، ويقف المسلم موقف المغلوب المجرد من القوى المادية، فلا يفارقه شعوره بأنه الأعلى، وينظر إلى غالبه من علٍ ما دام مؤمنًا، ويستيقن أنها فترة وتمضي، وأن للإيمان كَرَّة لا مفر منها..

وهبها كانت القاضية؛ فإنه لا يحنى لها رأسًا، إن الناس كلهم يموتون، أما هو فيستشهد، وهو يغادر هذه الأرض إلى الجنة، وغالبه يغادرها إلى النار، وشتان شتان، وهو يسمع نداء ربه الكريم:

﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ﴿١١٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١١٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ جَنَّتْ نَجْوَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٩٦ - ١٩٨] ^(١).

- لقد كان سيد قطب - على امتداد حياته الفكرية - نموذجًا «للجهاد الفكري» الذي جمع بين الوطنية.. والإسلامية.. والإنسانية.. لكن الظلم الطاغى، والطغيان الظالم، الذي وضعه - وهو الأديب المرفه الأحاسيس - على «المحرقة» قد أفرز في مسيرته

(١) معالم في الطريق (ص ١٧٠)، طبعة دار الشروق (١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م)، وانظر كذلك: سيد قطب: الخطاب والأيديولوجيا للدكتور محمد حافظ دياب، طبعة القاهرة (١٩٨٧م).

الفكرية «جملة معترضة».. تمثلت في «الزفرة» التي عبر عنها، عندما رأى الجماهير تصفق للظلم الذي وضعه على «المحرقة»؛ فقال:

«إن وجود الأمة الإسلامية يعتبر قد انقطع منذ قرون كثيرة.. لقد انقطع وجودها منذ انقطاع الحكم بشريعة الله.. من فوق ظهر الأرض جميعاً.. ولذلك؛ فالمسألة في حقيقتها هي مسألة كفر وإيمان، مسألة شرك وتوحيد، مسألة جاهلية وإسلام، وهذا ما ينبغي أن يكون واضحاً.

إن الناس ليسوا مسلمين - كما يدعون - إنهم يحيون حياة الجاهلية.. ليس هذا إسلاماً، وليس هؤلاء مسلمين، والدعوة اليوم إنما تقوم لردّ هؤلاء الجاهليين إلى الإسلام، ولتجعل منهم مسلمين من جديد.. فنحن اليوم في جاهلية؛ كالجاهلية التي عاصرها الإسلام أو أظلم، كل ما حولنا جاهلية.. تصورات الناس وعقائدهم، عاداتهم وتقاليدهم، موارد ثقافتهم، فنونهم وآدابهم، شرائعهم وقوانينهم، حتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية، ومراجع إسلامية، وفلسفة إسلامية، وتفكيراً إسلامياً، هو كذلك من صنع هذه الجاهلية.. والدعوة اليوم إنما تقوم لردّ هؤلاء الجاهليين إلى الإسلام، ولتجعل منهم مسلمين من جديد.. فالدعوة هي دعوة الناس إلى إنشاء هذا الدين، باعتراف العقيدة أولاً - حتى لو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين، وتشهد شهادات الميلاد بأنهم مسلمون به!^(١).

وسواء اعتبرنا هذا «الاجتهاد الخاطيء»: «زفرة مظلوم مكظوم» وضعه الظلم على «المحرقة» وسط تصفيق الجماهير!.. أو أخذنا بشهادات: إخوانه - الذين زاملوه بالسجن في أيامه الأخيرة - والذين أكدوا فيه ما فهم ويفهم من هذه العبارات - الأمر الذي يجعلنا أمام «تأويل» يدرأ هذه الأحكام التي قُطعت بانقطاع أمة الإسلام منذ قرون.. لو وضعنا هذه العبارات وأحكامها في إطار «الجملة المعترضة»؛ فسيظل سيد قطب «المفكر.. المجاهد».. الذي قُتل مظلوماً.. فانتشر فكره وضرب بجذوره في العقول والقلوب على امتداد العالم، كما لم يحدث لمفكر آخر في القرن العشرين..

(١) معالم في الطريق (ص ٥٨، ١٧٣، ٢١، ٤٠).

سيد قطب.. والعنف

أما الذين انطلقوا من عباراته هذه؛ فحملوا السلاح.. وخاضوا غمار «العنف العشوائي» الذي دمر جيلاً من الشباب الإسلامي.. وحوّل الكثير من الدول الإسلامية إلى «دول بوليسية أشد استبداداً» - أما هؤلاء الذين انطلقوا من عبارات سيد قطب - وبالأحرى من فهمهم الخاطيء هم لها - فأعلنوا: «إن الدولة تحكم بأحكام الكفر، بالرغم من أغلب أهلها مسلمون.. والأحكام التي تعلقو المسلمين اليوم هي أحكام الكفر.. وحكام المسلمين اليوم لا يحملون من الإسلام إلا الأسماء.. وهدف جماعة الجهاد هو إقامة الدولة الإسلامية، لإعادة الإسلام لهذه الأمة. وسبيل ذلك هو السيف.. والأولوية - في الجهاد والقتال - هي ضد هؤلاء الحكام الكفرة، وليست ضد الاستعمار؛ فالاستعمار هو العدو البعيد، بينما هؤلاء الحكام الكفرة هم العدو القريب.. ومن هنا تكون الانطلاقة»^(١).

أمّا هؤلاء الشباب؛ فإنهم قد سلكوا طريقاً لا علاقة لسيد قطب به.. ولا مسئولية عليه.

لقد استندوا إلى فتوى شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١-٧٢٨هـ / ١٢٦٣-١٣٢٨م] في تثار «ماردين»، وبعد عشرين عاماً من مأساة العنف العشوائي، راجعوا أفكارهم، وأعلنوا خطأهم في الاستناد إلى فتوى شيخ الإسلام في تثار «ماردين»..

فهل تكتمل المراجعات.. وتتم تبرئة الشهيد سيد قطب من المسئولية عن العنف الذي مارسه؟

على كلٍّ.. فإن الكتاب الذي نقدم بين يديه هو: «شهادة براءة» لسيد قطب من هذا الاتهام: سلوك طريق العنف لإحداث الإصلاح والتغيير المنشود^(٢)..

(١) كتاب (الفريضة الغائبة) الطبعة الأصلية (ص ٧-٩، ٣٣، ٣٧، ٢٨، ٢٥)، انظر كتابنا: (الفريضة الغائبة: جذور وحوارات.. دراسات ونصوص)، طبعة نهضة مصر سنة (٢٠٠٧م).

(٢) في هذا الكتاب إشارات إلى «ملف خطير» يتعلق بدور أمريكا - عن طريق «جمعية الفلاح» - في الوقعة بين ثورة يوليو وبين الإخوان.. والوقعة كذلك بين الثورة والشيوعيين - بإعدامات عمال المحلة الكبرى - لقد كانت الثورة ثمرة جبهة الضباط الوطنيين بالإسلاميين واليساريين فعزلتها أمريكا عن حلفائها لتسيطر عليها.. وجاءت الصهيونية فاجتذبت أمريكا بعيداً عن الثورة.. إنه ملف خطير يحتاج إلى باحث يتحلى بالوعي الاستراتيجي ليكشف تلاعب الصهيونية العالمية بالأمم والشعوب والثورات.

رحم الله سيد قطب.. وغفر لنا وله.. وتقبله في المجاهدين الصالحين.. ونفع
بآثاره الفكرية.. التي مثلت - ولا تزال - صرحاً من الجهاد الفكري الفريد^(١)..

شعبان سنة ١٤٣١هـ / يوليو سنة ٢٠١٠م

(١) انظره بكتاب [سيد قطب ضد العنف] للدكتور/ منير محمد الغضبان. طبعة دار السلام . القاهرة سنة
١٤٣١هـ - سنة ٢٠١٠م.

فرعون الخروج.. التفسير المادى للمعجزات

عنوان هذا الكتاب: [فرعون الخروج - الملف الشائك وحديث الآثار]^(١).. ومؤلفه هو الدكتور جلال نعمان.

وهو يبحث - من أوله إلى آخره - عن حقيقة الفرعون الذى شهد أحداث خروج بنى إسرائيل من مصر على عهد سيدنا موسى - عليه السلام.

- ولقد اختلف المؤرخون وعلماء الآثار والمصريات حول هذا الفرعون، فقال جمهورهم: إنه «مرنبتاح» بن «رمسيس الثانى» - الذى حكم حوالى [١٢٢٣ - ١٢١١ ق. م]^(٢).. وقال المؤرخ «يوسيبوس القيصارى» [٢٧٥ - ٣٣٩ م] بل هو رمسيس الثانى [١٣١٣ - ١٢٢٤ ق. م].

- والمؤرخون الذين استبعدوا أن يكون رمسيس الثانى هو فرعون الخروج قد استندوا إلى أن تاريخ هذا الفرعون قد دون تفصيلاً على الآثار والجداريات التى بقيت وتم اكتشافها، وأن هذا التاريخ المدون لم ترد به أية إشارة إلى الأحداث التى ذكرتها الكتب المقدسة عن بعثة موسى - عليه السلام - إلى فرعون، وما نزل بفرعون وملئه من عقاب إلهى، وما انتهت إليه حياة فرعون من الغرق.. كما استندوا إلى أن رمسيس الثانى قد حكم سبعة وستين عاماً - إذا اعتلى العرش سنة ١٢٩٠ ق. م - وأن حكمه قد امتد بعد تاريخ الغرق والخروج سنوات طوال.. كما استندوا إلى أن

(١) الناشر: دار المعارف - سلسلة «إقرأ» - العدد ٦٠٥.

(٢) [الموسوعة المصرية] المجلد الأول - الجزء الأول - إشراف: د. أحمد فخرى، د. محمد جمال الدين محرز - طبعة وزارة الثقافة والإعلام - القاهرة.

رئيس الثاني كان مؤمناً بالله الواحد - الذي يرمز له بـ«آمون» - وأنه قد ناجى ربه، وهو يحارب الحيثيين في «قادش» - فقال:

«لقد ناديتك - آمون - وأنا وسط الأعداء..

وأنا وحيد دون أن يكون معي فرد آخر.. لقد تركني جنودي..

وعندما دعوت وجدت آمون أكثر نفعا من ملايين الجنود..

لقد رأيت الله في المعركة.. كان أقرب إليّ من جنودي.. هو الذي نصرني..»

وأن إله رئيس الثاني قد أجابه قائلاً: «إلى الأمام يا حبيب آمون، يا رئيس.. فتحول رئيس - وهو وحده وسط جيوش الأعداء - إلى «مارد طائر».. حتى قال هؤلاء الأعداء: «إن الذي بيننا ليس بشراً»!..

فهذا الفرعون المؤمن لا يمكن أن يكون هو فرعون موسى، الذي أفاضت الكتب المقدسة في الحديث عن كفره وجحوده بالله.. ثم، إن مومياء رئيس الثاني هذا موجودة، اكتشفها علماء الآثار، وليس بها أثر للغرق الذي جاء ذكره في الكتب المقدسة هكذا قال المؤرخون الذين استبعدوا أن يكون رئيس الثاني هو فرعون الخروج.

* * *

لكن مؤلف هذا الكتاب يقف على الضفة الأخرى، ويتبنى وجهة النظر التي قال بها المؤرخ «يوسيبوس القيصاري» [٢٧٥ - ٣٣٩م]، والتي تقول إن فرعون الخروج هو رئيس الثاني.. ومن ثم يقف هذا الكتاب - وتلك هي المشكلة - مما جاء في الكتب المقدسة عن أحداث الخروج موقفاً يتراوح بين «التأويل»، الخالي من المنطق، وبين التجاهل لما جاء في هذه الكتب المقدسة - وخاصة القرآن الكريم - من آيات محكمات..

وتلك هي القضية التي نريد عرضها.. والحوار حولها.. في عدد محدد من النقاط:

أولها: فروع الخروج بين الكفر والإيمان:

لأن رئيس الثاني كان مؤمناً بالله.. ولأن المؤلف قد انحاز إلى الرأي القائل بأنه

فرعون الخروج.. التفسير المادى للمعجزات

هو فرعون الخروج.. فلقد ذهب المؤلف إلى الادعاء بأن القرآن الكريم لم يحكم بكفر هذا الفرعون.. فقال: «إن الآيات القرآنية فى شأن فرعون لم تصفه قط بالكفر، فقد طغى، أو عصى، أو أفسد.. إلخ.. لكنه ليس كافراً»^(١).

وفى مواجهة هذه الدعوى الخطيرة، نذكر بمعنى الكفر - كما جاء فى المصادر الإسلامية - الذى «هو جحود الوحدانية، أو الشريعة، أو النبوة»^(٢).

وإذا نحن عرضنا عقيدة فرعون الخروج على هذا المعنى للكفر، وجدناه - بنص الآيات القرآنية المحكمات - مستجمعاً لكل شرائط الكفر ومعانيه.. فهو لم يكفر بالله الواحد فحسب، بل ادعى أنه الإله الوحيد.. والإله الأعلى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ (٣٣) ﴿قَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٣]..

بل لقد خير فرعون نبي الله موسى - عليه السلام - بين أن يتخذه إلهاً وبين أن يضعه فى غياهب السجون ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]..

وإذا كان الكفر يطلق - أيضاً - على من يكذب بالآيات المعجزات التى يظهرها الله على يدى الأنبياء والمرسلين، فإن فرعون وملاؤه قد جحدوا وكذبوا بكل الآيات - العشر - التى جاء بها موسى - عليه السلام - ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (١٢) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (١٣) ﴿وَحَدَّوْا بِهَا وَاسْتَيْقَنْتَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٢ - ١٤] ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ﴾ (٤١) ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤١، ٤٢] ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ (٢٠) ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ [النازعات: ٢٠، ٢١]..

فوصف الكفر قد أطلقه القرآن الكريم على فرعون الخروج فى آيات محكمات كثيرة، اخترنا منها بعض النماذج.. ولقد سلكه القرآن فى زمرة الذين كفروا بالوحدانية

(١) [فرعون الخروج] ص ١٤٢.

(٢) الراغب الأصفهاني [المفردات فى غريب القرآن] طبعة دار التحرير - القاهرة - سنة ١٩٩١ م.

والنبوات والآيات المعجزات ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿[البروج: ١٧ - ٢٠].

وبهذا يسقط ركن ركين من الأساس الذى بنى عليه مؤلف هذا الكتاب حجته فى أن رمسيس الثانى هو فرعون الخروج.

ثانيها: موقف المؤلف من معجزة فلق البحر:

المعجزة - فى الاصطلاح الإسلامى - ليست أمراً خارقاً للعقل والمعقولة والسنن الإلهية.. وإنما هى أمر خارق للعادة والمعتاد الذى اعتاد عليه الناس، ومفارق للواقع وسننه الاجتماعية المعتادة.. وهى مقرونة بالتحدى، يظهرها الله على يد الأنبياء والمرسلين، لإثبات صدقهم فيما إليه يدعون.. وبعبارة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥م]: «فإن المعجزة ليست من النوع المستحيل عقلاً، فإن مخالفة السير الطبيعى المعروف فى الإيجاد مما لم يقم دليل على استحالة.. فإن قيل: إن ذلك لا بد أن يكون تابِعاً لناموس آخر طبيعى، قلنا: إن واضع الناموس هو موجد الكائنات، فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات، غاية ما فى الأمر أننا لا نعرفها، ولكننا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده»^(١).

وإذا كان هذا هو تعريف المعجزة، ومكانها من العقل والعقلانية، ومن السنن والقوانين الحاكمة للمعتاد وغير المعتاد.. فلقد كان غريباً - بل وعجيباً - موقف مؤلف هذا الكتاب من المعجزات..

لقد اعترف بوجود المعجزة على يد الفرعون رمسيس الثانى، عندما قاتل - وحده - أعداءه الكثيرين فى معركة «قادش» حتى أنه - بعد أن دعا ربه - جعله الله معجزة «تحول بها إلى مارد طائر» حتى قال عنه أعداؤه: «إن الذى بيننا ليس بشراً».. وأضاف المؤلف: «إنها معجزة أكثر من أن تكون أسطورة.. هذه هى المعجزة»^(٢).

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج-٣ ص ٤١٦. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة دار الشروق. القاهرة سنة ١٩٩٣م.

(٢) [فرعون الخروج] ص ١٧٧ - ١٧٩..

فرعون الخروج.. التفسير المادى للمعجزات

يعترف المؤلف بظهور المعجزة على يد الفرعون رمسيس الثانى.. ثم يتجاهل الحديث عن المعجزات التى أظهرها الله على يد موسى - عليه السلام - وهى عشر آيات معجزات - [اليده.. والعصا.. وفلق البحر.. والطوفان.. والجراد.. والقمل.. والدم.. والضفادع.. والسنين.. والطمس]^(١).

يتجاهل المؤلف أى إشارة إلى أى من هذه المعجزات.. ثم يذهب ليؤول معجزة غرق فرعون - لأن رمسيس الثانى موميأه قد اكتشفت وليس بها أثر للغرق - بل لقد عاش حاكمًا سنين عديدة بعد تاريخ الخروج -.. يذهب المؤلف ليؤول معجزة الغرق على نحو لا علاقة له بأى من مقومات التأويل وشروطه.. بل يذهب إلى جعل ما جاء فى القرآن الكريم عن فلق البحر من الأمور المعتادة والطبيعية التى لا علاقة لها بأى لون من ألوان الإعجاز!..

فالقرآن يتحدث عن فلق البحر - والبحر هو كل مكان واسع جامع فيه ماء كثير.. وهو - فى الأصل - للماء المالح دون العذب - ولا يسمى العذب بحرًا إلا إذا اقترن بالمالح ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣] - كما يقال للشمس والقمر: قمران..

لكن المؤلف يدعى أن العبور لم يكن للبحر الأحمر.. وإنما كان على أرض يابسة، هى منخفض جنوبى بحيرة المنزلة، كانت تغطية المياه أثناء المد، وتنحسر عنه أثناء الجزر.. وفوق يابسة هذا المنخفض كان العبور - الذى لا أثر فيه للإعجاز!.. وفى هذا الادعاء الخطير والتأويل الفاسد يقول المؤلف - مستندًا إلى الآثار، وضاربًا عرض الحائط بآيات القرآن المحكمات:

«من الوجهة الأثرية، فإن أمر المعجزات ليس له أى صدى، حتى أحداث انفلاق البحر.. ففى «يم سوف» - أى «بحر البوص» - كان هناك منخفض - برزخ - يقع إلى الشرق من قناة السويس. وهذا البرزخ كان ولا يزال عرضة لعمليات المد والجزر.. وهذا المنخفض كان امتدادًا جنوبيًا لبحيرة المنزلة.. وكان هناك اختناق أرضى يربط

(١) انظر: القرطبي [الجامع لأحكام القرآن] ج-١٣ ص ١٦٢، ١٦٣، طبعة دار الكتب المصرية.

هذا المنخفض بالبحيرة، وكان هذا الاختناق الأرضي يخفى ويظهر بتأثير حركات المد والجزر البحري، مما يعنى أنه يصلح كمعبر أرضي إلى سيناء في حالات تراجع المياه عن المعبر أو في حالات العواصف الشديدة والأعاصير، وهذا يفسر ظاهرة انفلاق الماء أو البحر وظهور اليابسة، وكان الماء على يمين ويسار شعب إسرائيل أثناء عبوره الاختناق الأرضي، وبمعنى أوضح فإن المنخفض كانت على يمين الشعب ومياه بحيرة المنزلة كانت على يساره، والمعبر اليابس تحت أقدامهم، وقد يحدث أن تتصافر ظاهرتا المد والجزر مع الرياح العاتية فتحيل منظر المياه إلى جبال عالية^(١).

هكذا استبدل المؤلف «البرزخ المائي» بـ«البحر».. واستبدل «الممر الأرضي» العادى بـ«قاع البحر» الذى انكشف طريقاً عند انفلاق الماء إلى جبلين كل منهما كالطود العظيم!..

لقد ذهب المؤلف إلى هذا التأويل الفاسد - الذى هو فى الحقيقة إنكار للمعجزة من أساسها، وليس تأويلاً لها بأى حال من حالات التأويل..

ثالثها: موقف المؤلف من معجزة غرق فرعون:

إذا كان المؤلف قد صور إنكاره معجزة فلق البحر فى صورة التأويل الغريب لهذه المعجزة.. فلقد كان موقفه من معجزة غرق فرعون الخروج إنكاراً لها من الأساس!.. فرميس الثانى الذى جعله المؤلف فرعون الخروج قد عاش وحكم بعد الخروج سنوات طوال.. وموميأؤه قد اكتشفت، وهى قائمة حتى الآن لا أثر فيها للغرق.. وبهذا تجاهل المؤلف آيات القرآن الكريم الشاهدة على حدوث معجزة الغرق لفرعون الخروج.. والتى تقول - ضمن ما تقول: ﴿وَجَلَّوْنَا بِنِيِّ إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ - وليس البرزخ.. والمنخفض.. والمعبر اليابس] - فَأَنْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَقًّا إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ - [أى الرسوب فى الماء] - قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿يونس: ٩٠﴾ - ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٥٠] ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء:

(١) [فرعون الخروج] ص ١٤٤، ١٤٥، ١٤٧، ١٤٩.

فرعون الخروج .. التفسير المادى للمعجزات

٦٥ - ٦٦ ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ [الأعراف: ١٣٧] - [واليم هو البحر] - ﴿ وَقُرُونٌ وَفِرْعَوْنٌ وَهَمْرٌ ﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿ ٣٩ ﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿ [العنكبوت: ٣٩، ٤٠].

فرعون الخروج - بنص القرآن - قد [أدركه الغرق] - والدرك: هو أقصى قاع البحر - والإدراك: هو بلوغ أقصى الشئ... ولقد نجاه الله ببدنه - والبدن هو الجسد - فلا يمكن أن يكون قد نجا حيًا، وعاش يحكم مصر بعد حادثة الخروج - كما يدعى المؤلف..

* * *

مكمن الخلل:

وإذا كانت هذه هي المآخذ الأساسية على دعاوى هذا الكتاب.. فإن مكمن الخلل الذى أدى إلى هذه الأخطاء هو اعتماد المؤلف على المعلومات الأثرية دون ما جاء فى الكتب المقدسة..

- صحيح أن الاكتشافات الأثرية هى مصدر معتبر من مصادر كتابة التاريخ.. لكن معلوماتها ليست حقائق مطلقة، كما هو الحال فى محكم آيات القرآن الكريم.. فهناك آثار قد بادت، ولو أنها بقيت واكتشفت لغيرت - أو حتى عدلت - من المعلومات التى تم اكتشاف آثارها.. وهناك آثار لم تكتشف بعد، ولربما - عند اكتشافها - تتم المراجعة للمعلومات التى أصبحت فى حوزتنا.. كما أن هناك عبثًا قد حدث من قبل بعض الفراعين وبعض الأسر الحاكمة بتواريخ من سبقهم من الملوك.. الأمر الذى يدعو إلى التحفظ على المعلومات التى تم اكتشافها، وعدم اعتمادها وحدها مصدرًا موثوقًا لكتابة التاريخ.. وخاصة فى الأمور الخلافية - ومنها الموضوع الذى يدور حوله هذا الكتاب... وخاصة عندما يكون هناك مصدر معصوم قد عرض لهذا الموضوع.

بل إن هذه المآخذ على المدونات الأثرية لا تزال تلاحق التواريخ التى تكتب لحكام عاشوا فى عصرنا الحديث وواقعنا المعاصر..

لقد استجلب الملك فؤاد الأول [١٢٨٥ - ١٣٥٥ هـ / ١٨٦٨ - ١٩٣٦ م] مؤرخاً أوربياً صنع له تاريخه على عينه، وعلى النحو الذى يريد!..

وكذلك صنع الدكتاتور حافظ الأسد [١٣٤٩ - ١٤٢١ هـ / ١٩٣٠ - ٢٠٠٠ م] فى سوريا - الذى استأجر عدة كتاب أجانب لكتابة تاريخه - منهم «لوسيان بترلان» و«أجناتس كرسيتسكى»..

ومعمر القذافى [١٣٦١ - ١٤٢٢ هـ / ١٩٤٢ - ٢٠١١ م] الذى استجلب المؤرخ الأوربى «ميريليانكو» الذى كتب عنه كتاباً عنوانه [رسول الصحراء]!..

ولقد غيرت الثورة البلشفية أسماء عدد من المدن الروسية.. ثم عادت هذه الأسماء الروسية إلى ذات المدن بعد سقوط الشيوعية!.. وكذلك حدث ويحدث كثيراً لأسماء الميادين والشوارع والمؤسسات التى تدخل فى عداد الآثار!

- أما الوحى الإلهى - ويغنيا هنا القرآن الكريم - فإنه وإن لم يكن كتاب تاريخ، إلا أنه قد عرض - فى سوره وآياته المحكمات - للكثير من وقائع وحقائق التاريخ.. عرض الأماكن تاريخية.. وأعلام تاريخية.. وحضارات تاريخية.. وأقوام عاشوا فى التاريخ القديم.. بل عاشوا فى التاريخ القديم.. بل إن سيرة رسول الله ﷺ - وهى تاريخ.. وكذلك سير النبوات والرسالات وتواريخها - سنجد أوثق مصادرها فى القرآن الكريم..

لذلك، كان غريباً تنحية المؤلف المصدر القرآنى فى كتابته عن فرعون الخروج، واعتماده - فقط - المعلومات المكتشفة من آثار الفراعين..

- إن مؤلف هذا الكتاب - وهو خير آثار - يتحلى بروح وطنية عالية.. وبكراهية محمودة لبنى إسرائيل.. لكن وطنيته قد تجاوزت حدود الموضوعية فجعلته ينحاز للفرعون ضد موسى عليه السلام!.. حتى أنه جعل النجاة - فى حدث الخروج -

فرعون الخروج.. التفسير المادى للمعجزات

لرئيس الثاني نجاته - على أرض فلسطين - فى قادش - من أعدائه - وليست نجاة نبي الله موسى والذين آمنوا معه من فرعون وجنوده!..

وهذا تأويل فاسد وعجيب يتجاهل أن حديث القرآن الكريم عن النجاة إنما كان لموسى ومن معه عند مجاوزة البحر.. وليس حديثاً عن نجاة رئيس الثاني من حصار أعدائه له فى قادش على أرض فلسطين!.. كما يتجاهل أن رئيس الثاني يوم نجاته فى قادش - لم يكن مؤمناً بالإله الذى آمنت به بنو إسرائيل.. بينما فرعون الخروج - الذى أغرقه الله فى البحر، ونزل به قاع البحر، هو الذى أعلن - وهو على حافة الهلاك: ﴿ءَاْمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاْمَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ * - وهى توبة وإياب جاء بعد فوات الأوان.

* * *

ولعل من المفيد - فى ختام هذه الدراسة النقدية - لما جاء بهذا الكتاب من تأويلات بالغة الفساد، أن نذكر رأى الإمام محمد عبده فى مثل هذه التأويلات.. فلقد قال:

«.. وزعم الذين لا يحبون المعجزات من المتهورين أن عبور بنى إسرائيل البحر كان إبان الجزر، فإن فى البحر الأحمر زقاقاً إذا كان الجزر الذى عهد هناك شديداً تيسر للإنسان أن يعبر ماشياً. ولما اتبعهم فرعون بجنوده، ورآهم قد عبروا تأثرهم، وكان المد تفيض ثوابه - وهى المياه التى تجرى عقيب الجزر - فلما نجا بنو إسرائيل كان المد قد غطى وعلا حتى أغرق المصريين.. كذا قال المتهورون المنكرون للمعجزات.

ولكن، يدل على كونه - [فلق البحر] - آية لموسى وصف كل فرق بأنه كالطود العظيم. وإذا تيسر تأويل كل آيات القصة من القرآن، فإنه يتعسر تأويل قوله تعالى - فى سورة الشعراء: ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣].. وهو الموافق لما فى التوراة»^(١).

(١) [الأعمال الكاملة، للإمام محمد عبده] ج٤ ص ١٨٣، ١٨٤.

- ولقد جاء هذا «التهور» المنكر للمعجزات إلى بلادنا في صورة الفلسفات المادية والوضعية، التي تفسر كل الظواهر تفسيراً مادياً.. ولقد كان خريجو مدارس الإرساليات الكاثوليكية - في لبنان - الطلائع الذين عملوا على إشاعة هذا المنهج وإحلاله محل العقلانية الإسلامية المؤمنة.. وتم ذلك تحت رعاية النفوذ الاستعماري لبلادنا.

ولقد كانت مجلة [المقتطف] - [١٨٧٦ - ١٩٥٢م] الميدان الفكري للتبشير بمثل هذه الفلسفات والنزعات والنظريات.. ولقد تحدث عبد الله النديم [١٢٦١ - ١٣١٣هـ/ ١٨٤٥ - ١٨٩٦م] عن أصحاب هذه النزعة من كتاب هذه المجلة، فوصفهم بأنهم «أعداء الله وأنبيائه، والأجراء الذين أنشئوا لهم جريدة جعلوها خزانة لترجمة كلام من لا يدينون بدين، ممن ينسبون معجزات الأنبياء إلى الظواهر الطبيعية والتراكيب الكيماوية، ويرجعون بالمكونات إلى المادة والطبيعة، منكرين وجود الإله الحق، وقد ستروا هذه الأباطيل تحت اسم فصول علمية، وما هي إلا معاول يهدمون بها عموم الأديان»^(١).

- لقد وصف الأستاذ الإمام هذا التأويل «بالتهور».. ووصف أصحابه «بالمتهورين الذين لا يحبون المعجزات».. أما عبد الله النديم فلقد وصف هذا المنهج «بالتفسير الطبيعي والكيماوي للمعجزات».. وهي أوصاف تنطبق على بعض ما جاء في هذا الكتاب..

* * *

ولأن ناشر هذا الكتاب قد أحسن - في التقديم له - عندما أهاب «بكتابات أخرى قد تسير في صف البحث أو تقف ضده، عملاً بالروح الجديدة التي نريد أن نتعلق مع ثورة يناير، ألا وهو العقل في مقابل العقل»^(٢).

فلقد أثرنا تقديم هذه الدراسة النقدية لبعض ما جاء في هذا الكتاب، والتي استندت

(١) مجلة [الأستاذ] العدد التاسع والثلاثون - ص ٩٢٣، ٩٢٤ في ٧ ذي القعدة سنة ١٣١٠هـ - ٢٣ مايو سنة ١٨٩٣م.

(٢) [فرعون الخروج] ص ١١.

فرعون الخروج.. التفسير المادى للمعجزات

إلى العقل والنقل العقلانى جميعاً.. ذلك أن النقل القرآنى هو معجزة عقلية احتكمت إلى العقل والمنطق والسنن الحاكمة للكون والاجتماع..

ذلك أن هذا الكتاب قد جاء متجاوزاً للمقومات الموضوعية اللازمة لكتابة هذا الفصل من فصول التاريخ.. فتاريخ فرعون الخروج - فرعون موسى - بصرف النظر عن اسمه - هو صفحة فى كتاب النبوات والرسالات، لا يمكن أن تكتب بمعزل عن نبأ السماء العظيم.. فضلاً عن أن تكتب فى تناقض مع محكمات آيات الذكر الحكيم^(١)..

(١) بالطبع ليس هذا الكتاب - [فرعون الخروج] - من روائع الكتب الإسلامية.. لكنه نموذج للكتب التى تفندها روائع الكتب الإسلامية. لذلك آثرنا أن نصرب به المثل على هذا النموذج من الكتب.

فى نقد المنهجية الاجتماعية الغربية

على امتداد التاريخ الحضارى لأمتنا الإسلامية تزاملت وتزامنت فى علاقة الإسلام بالحضارات الأخرى، ظاهرة ذات وجهين..

- الوجه الإيجابى لعلاقة الإسلام بتلك الحضارات.. والذى تمثل فى فتح نوافذ العقل المسلم على علوم الأمم الأخرى، وعلى تجاربها الحضارية، المعاصرة منها والماضية.. ليدرس ويقارن وليميز الغث من السمين.. باحثاً عن الحكمة التى عرفها الحديث النبوى الشريف بأنها «الإصابة فى غير النبوة» ليلتقطها ويحتضنها ويتنفع لها، مطوراً إياها، وباذلاً لها كى يتنفع بها الآخرون.. فالحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق خلق الله بالانتفاع بها!..

وعلى هذه الجبهة كان التفاعل الحضارى الخصب والغنى والعميق، والمتعدد الميادين بين حضارتنا الإسلامية وغيرها من الحضارات.

أما الوجه السلبى لعلاقة حضارتنا بغيرها من الحضارات فهو ذلك الذى تمثل فى تسرب «الزيف» فى ركاب «الصحيح».. و«الضلالة» فى ثياب «الهدى» و«الخطأ» فى صورة «الصواب» وخاصة فى فترات الضعف الحضارى، تلك التى يفتتن فيها المغلوبون بالغالبين، حتى يبهتهم كل ما لدى هؤلاء الغالبين دونما تمييز بين ما هو «حكمة» و«مشارك إنسانى عام» وبين ما هو «ضلال» و«خصوصيات للآخرين» غير قابلة ولا صالحة للتقليد والتعميم!

وبقدر ما كان العقل المسلم يلتقط «الحكمة» ويحتضن «المشارك الإنسانى العام» كان رفض قطاعاته العريضة لضلالات الحضارات الأخرى، وللخصوصيات التى لا مكان لها فى عقل يلتزم بمعايير الإسلام، حتى لقد عرفت حضارتنا - فيما

عرفت من فنون التصنيف والتأليف - فى الكتابة فى «مقالات الإسلاميين» ذلك الذى واجهته به «مقالات غير الإسلاميين»! حدث ذلك على امتداد التاريخ الحضارى لأمتنا الإسلامية.

فلما كانت الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة، التى أغار بها الغرب على أمتنا منذ قرنين من الزمان.. وجد العقل المسلم نفسه أمام جيوش لا تحمل المدفع وحده.. ولا يبتغى الأرض والثروة وحدهما. وإنما هى تصحب معها المطبعة والصحيفة والكتاب والبعثات العلمية.. وتبتغى احتلال العقل أيضًا لتتأبد وتتأكد - بالتبعية الحضارية - الهيمنة على الأرض والإنسان والثروة جميعًا!

فكان على العقل المسلم إن يكتشف أهمية «الجهة الفكرية» فى الصراع مع هؤلاء الغزاة الذين لم يكونوا كأسلافهم الصليبيين على حد تعبير أسامة بن منقذ [٤٨٨ - ٥٨٤هـ / ١٠٩ - ١١٨٨م] - «إلا بهائم لا فضيلة لهم سوى القتال»؟! وإنما كانوا حملة لفكر النهضة الغربية الحديثة إلى عالمنا الذى كان مثقلًا بالجمود والركود والسمات العميق! وكان على هذا العقل أن يميز فى فكر هذه الحضارة الغازية بين الحكمة والمشارك الإنسانى العام التى هى مصادر قوة لنا فى المواجهة مع الغزاة، والتى لهذا السبب يحجبها عنا هؤلاء الغزاة؟! وبين «ضلالات الغرب» وخصوصياته الحضارية تلك التى أغرقنا بطوفانها حتى لقد أعاد صياغة واقعنا ليلائم هذه الخصوصيات فيتقبلها وصولاً إلى إحكام قبضة التبعية وقودها على الواقع والفكر جميعًا!

وفى جهاد العقل المسلم على هذه الجهة - جهة الفكر - كان لا بد من «المملكة النقدية» التى يتميز فى ثمرات الفكر الغربى، بين النافع - الملائم وبين الضار - النافى لخصوصيتنا الحضارية.

وفى بحث هذا العقل المسلم عن «البديل الإسلامى»، كان لا بد له أيضًا من إعمال المملكة النقدية فى موروثنا الحضارى، تمييزًا لثوابته عن تغيراته، ولأصوله عن فروعه ولابداعات عصر ازدهاره عن ركافة عهود التراجع والجمود!

على هذا النحو تبلورت معالم ومهام الجهاد الفكرى، إلى جانب معالم ومهام الجهاد فى الميادين التحريرية الأخرى.

فى نقد المنهجية الاجتماعية الغربية

وإذا كان الإمام محمد عبده [١٢٦٦-١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] قد أدرك - قبل نحو من مائة وعشرين عامًا - أهمية أن ينفر فريق من أبناء الأمة للرباط والجهاد على هذه الثغرة الفكرية، عندما اقترح على أستاذه جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ / ١٨٣٨ - ١٨٩٧م]، إقامة مؤسسة فكرية، فى مكان بعيدة عن استبداد المستبدين تصاغ فيها عقول المجاهدين على جبهة الفكر.. فإن قيام «المعهد العالمى للفكر الإسلامى» بعد قرن من اقتراح الأستاذ الإمام الذى لم يحقق أن قيام هذا المعهد، الذى نذر نفسه لمهمة إصلاح مناهج الفكر الإسلامى لهو التعبير عن هذه الضرورة التى تلح على العقل المسلم.. ضرورة أن يكون إصلاح الفكر الإسلامى وتجديده هو السبيل المأمون إلى إصلاح وتحديد واقع المسلمين.. وضرورة صياغة دليل العمل الفكرى كطوق نجاة لكل تيارات اليقظة والنهضة الإسلامية من التيه والإحباط!

إذا كان هذا هو خطر الرباط والجهاد الفكرى فى مواجهة أمتنا للتحديات الشرسة التى تكبل انطلاقها وتحول دون نهضتها، سواء منها تحديات التخلف الموروث والاستلاب الحضارى الوافد.. وإذا كان هذا هو مكان المعهد العالى للفكر الإسلامى على جبهة الجهاد الفكرى، فإن فى ذلك التفسير لاختيار المعهد واهتماماته بتقديم ونشر هذا الكتاب!

- فصياغة المنهجية الإسلامية فى العلوم الاجتماعية والانسانية..

- ونقد الوضعية الغربية بمدارسها المختلفة تلك التى مثلت فى مذاهب المعرفة، نقضًا للدين والتدين، فى علاقتهما بالمعرفة عندما اعتمدت الواقع المحسوس مصدرًا وحيدًا للمعرفة.. نقد هذه الوضعية الغربية وكشف زيفها العلمى، والإبانة عن حقيقة خلفياتها العقائدية.

- ونقد الامتدادات السرطانية لهذه الوضعية الغربية فيما ساد لدينا من علوم اجتماعية وإنسانية.

- وفقد مشروعات الاستقلال والتميز الزائف أو المنقوص والمغلوط فى منهجية علم الاجتماع العربى القومى.. تلك التى تجاهلت الإسلام الذى تمثل

عقيدته وشريعته منطلق الاستقلال الحقيقى والتميز الصادق لعلوم أمتنا الاجتماعية والإنسانية.

- ونقد الجهود التى رفعت شعار إسلامية العلوم الاجتماعية دون أن تتلخص فى حقيقة الأمر وواقعه، من التأثيرات الوضعية الغربية عن معايير الإسلام.

إن نقد هذه المناهج.. والتوجهات والمقولات هو مهمة من مهام رسالة «المعهد العالمى للفكر الإسلامى» وهو جانب من جوانب الإنجاز الفكرى المتميز الذى يقدمه هذا الكتاب!

ويزيد من أهمية هذه الدراسة العلمية الرصينة والجادة أن صاحبها الأستاذ محمد أمزيان قد أقام نقده الموضوعى للوضعية الغربية من خلال مصادرها الأصلية وبعمق وبإحاطة تخدم القضية وتستوجب التنويه.

ثم.. أن الباحث الفاضل لم يقف عند النقد وحده.. بل اجتهد بلورة العديد من نسمات وقسمات البديل الإسلامى لهذه الوضعية الغربية.. فعرض لقضايا كثيرة من مثل:

- ضرورة التمييز فى مناهج العلوم وموضوعيتها وحيادها بين العلوم الطبيعية البحتة وبين العلوم الاجتماعية والإنسانية لتمايز موضوعاتها ومن ثم مناهجها وثمرات البحث فيها.

- وضرورة اعتبار الوحي كتاب الله المقروء ضمن مصادر المعرفة وإقامة الحجة على وثوق مصدريته وعلميته فبذلك تتميز المنهجية الإسلامية عن الوضعية الغربية عندما تقيم المعرفة على مصدرى التوازن (الوحي) و(الوجود) كتاب الله المنظور فيتحقق التوازن للمعرفة ومن ثم يتحقق التوازن للإنسان العارف بها ذلك الذى افتقد هذا التوازن فى ظل الوضعية الغربية.. التى وقفت بمعارفه عند الحواس والمحسوس!

- وضرورة إبراز دور معارف الوحي فى صياغة القوانين الاجتماعية، ولفت الأنظار إلى مكانة ما جاء فى الوحي عن سنن الله الكونية السنن الجارية لفت

فى نقد المنهجية الاجتماعية الغربية

الأنظار إلى مكانة هذه السنن فى اكتشاف وصياغة قوانين ومعارف الاجتماع الإنسانى.

- والوصول عبر هذه المنهجية إلى مذهبية إسلامية فى العلوم الاجتماعية والإنسانية قائمة على عقيدة التوحيد.

مذهبية بديلة للوضعىة الغربية ولثمرتها فى العلوم الاجتماعية الغربية.. بديلة فى الرؤية والتصور الاعتقادى وبديلة على مستوى التأسيس النهجى وبديلة على مستوى البناء والتغير الحضارى.. وبديلة أيضًا لأنها تصوغ إنسانًا متميزًا فى عقائده وفى تصوراتهِ للكون.. وفى نظرتهِ لمكانة هذا الإنسان فى هذا الوجود.. وأيضًا فى تصوراتهِ لقصة البدء والمسيرة والمصير والحكمة والغاية فى هذه الحياة! ولعلاقة هذا الإنسان بالأغيار فى هذه الحياة.

لقد اجتهد المؤلف فى بلورة وصياغة البديل الإسلامى لمنهجية العلوم الاجتماعية بقدر ما اجتهد فى نقد ونقص المنهجية الوضعىة الغربية فى هذه العلوم.. فكان هذا الكتاب الذى يعتز «المعهد العالمى للفكر الإسلامى» عندما يقدمه لجمهور العلماء والباحثين والقراء إسهامًا متميزًا فى هذا الجهاد الفكرى الإصلاح مناهج الفكر الإسلامى ابتغاء تجديد الواقع الإسلامى بتجديد فكر المسلمين.

والله من وراء القصد منه نستمد العون والسداد والتوفيق^(١)..

القاهرة ربيع الأول ١٤١٢هـ/ سبتمبر ١٩٩١م

(١) انظره بكتاب [منهج البحث الاجتماعى بين الوضعىة والمعيارية] تأليف محمد محمد أمزيان. طبعة المعهد العالمى للفكر الإسلامى سنة ١٩٩١م.

أهى حرب على الإرهاب.. أم على الإسلام؟!

إذا كان غريباً بل وعجيباً أن تشن أمريكا منذ قارعة ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م حرباً عالمية على ما تسميه «الإرهاب» دون الاتفاق على معنى هذا الإرهاب! بل وفى ظل الإصرار على رفض عقد مؤتمر دولى تتفق فيه الحضارات العالمية وثقافتها على تعريفه لهذا «الإرهاب»!..

إذا كان ذلك غريباً وعجيباً بل ومريباً فإن السر فى هذا الموقف الغريب والعجيب والمريب هو أن هذه الحرب العالمية الجديدة قد أرادها البعض حرباً على «الإسلام» تحت عنوان «الإرهاب»!.. ويشهد على هذه الحقيقة التى لم يعد بالإمكان إخفاءها:

١- أن الرئيس الأمريكى «جورج بوش الصغير» قد وصف هذه الحرب فى ١٦ سبتمبر سنة ٢٠٠١م، أى قبل بدء التحقيق فى قارعة سبتمبر بأنها «حملة صليبية». أى حرب دينية مقدسة!

٢- ولم تفلح محاولات الاعتذار عن هذا الوصف بالقول إنه مجرد «زلة لسان» حتى أن مدير إذاعة الفاتيكان «الكاردينال باسكوالى بورجوميو» قد أكد دقة هذا الوصف وطبيعة هذه الحرب الأمريكية، فقال: «فى الوقت الذى يدعو الفاتيكان إلى التعقل ويشجع العمل الدبلوماسى ويدافع عن الحق الدولى أى الشرعية الدولية نرى فى الجانب الآخر قوة عظمى (أمريكا) تقودها إدارة حولت لنفسها مهمة إنقاذية مقدسة واتخذت لهجة ومواقف صليبية»!..

٣- كما عبر الفاتيكان «يوحنا بولس الثانى» ١٩٢٢ - ٢٠٠٥م عن «خشيتيه من أن تثير الحرب الأمريكية على العراق صراعاً دينياً. بين المسيحيين والمسلمين»..

٤- وقال الكاردينال «بيولاجي» مندوب البابا في المساعي الدبلوماسية لتجنب الحرب على العراق أوائل سنة ٢٠٠٣م «إنها حرب ستقودنا إلى مستقبل مظلم سيقوض فرص الحوار بين المسيحية والإسلام».

٥- وقال الأنبا «يوحنا قلته» نائب البطريرك الكاثوليكي في مصر: «أن بوش يستخدم المسيح درعاً، والصليبية ثوباً للدفاع عن مصالح أمريكا المادية، وإنه كان يقصد تماماً معنى عبارة «الحملة الصليبية». ولم تكن أبداً زلة لسان»..

٦- ووصف الرئيس الأمريكي الأسبق «جيمي كارتر» أيدلوجية الإدارة الأمريكية الحالية التي شنت هذه الحرب بأنها أيدلوجية «المؤتمر المعمداني للجنوب الأمريكي ساوثيرن بابتيسكو نفنشن»، المعروف بالالتزام اتجاه إسرائيل من منطلقات ثيولوجية ضيقة تستند إلى فكرة آخر مرحلة حياتية قبل حلول يوم الدينونة».

٧- وأعلن السناتور الأمريكي «أدوارد كيندي» والسناتور «بابريك ليهي» «إن الإدارة الأمريكية مدفوعة إلى هذه الحرب» بحماسة مسيحية»!!..

٨- ووصفت «النيوزويك» الأمريكية الرئيس بوش قائد هذه الحرب بأنه «حامل البشارة الذي يؤمن بأن حربه على العراق عادلة وفق المفهوم المسيحي للقديس أوغسطين [٣٥٢ - ٤٣٠م] والذي فصله القديس توما الأكويني [١٢٢٥ - ١٢٧٤م] ومارث لوثر [١٤٨٧ - ١٥٤٦م] وآخرون.

وأنه - بوش - عندما استخدم مصطلحات تستند إلى الإيمان.. يفكر في حرب باسم الحرية المدنية بما في ذلك الحرية الدينية في القلب القديم للإسلام العربي.. ويحظى بدعم من قاعدته في الجناح السياسي للمؤتمر المعمداني الجنوبي، من أمثال القساوسة: «ريتشارد لاند»، و«فرانكلين جراهام» الأب الروحي لبوش والذي سب رسول الإسلام، ويندد بالإسلام باعتباره إيماناً فاسداً!!.. ولا يخفى مع المبشرين - رغبتهم تحويل المسلمين إلى المسيحية، لا سيما في بغداد..!!

في الوقت الذي شهد فيه هؤلاء الشهود - ومعهم كثيرون من أهلها - على طبيعة هذه الحرب العالمية، التي شنت على الإسلام، عقب «قارعة» ١١ سبتمبر (٢٠٠١م)..

أهل حرب على الإرهاب.. أم على الإسلام؟!

شهد كذلك كثيرون من المفكرين الاستراتيجيين الذين يخططون لصناعة القرار الأمريكي على ذات الحقيقة.. حقيقة أن هذه الحرب ليست على الإرهاب، إنما هي حرب داخل الإسلام، ليتخلى عن طبيعته ومنهجه الشامل للدين والدولة، والسياسة القانونية، والقيم الأخلاقية، والدنيا والآخرة.. وذلك حتى يقبل الإسلام، بدلاً من ذلك - بالقيم العربية، والحدثة الغربية، والعلمانية.. والمبدأ المسيحي الذي يدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

ومن بين عشرات الشهادات الأمريكية والغربية على هذه الحقيقة - حقيقة أنها حرب على الإسلام - تحت دعاوى الإرهاب الذي حرصوا على عدم تعريفه من بين عشرات الشهادات نختار - مراعاة للمقام - شهادة المفكر الاستراتيجي الأمريكي فرانسيس فوكوياما التي يقول فيها بصريح العبارة «إن الصراع الحالي ليس ببساطة ضد الإرهاب.. ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية التي تقف ضد الحدثة الغربية.. وضد الدولة العلمانية.. وهذه الأيديولوجية الأصولية تمثل خطراً أكبر أساسية - في بعض جوانبه - من الخطر الذي شكلته الشيوعية.. والمطلوب هو حرب داخل الإسلام.. حتى يقبل الحدثة الغربية.. والعلمانية الغربية.. والمبدأ المسيحي: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله...».

لهذه الحقيقة - حقيقة أنها حرب على الإسلام الراض للحدثة الغربية، والقيم الغربية والعلمانية الغربية... وليست حرباً على الإرهاب - الذي اتخذ - في هذه الحرب - وظيفة الستار الإخفاء الحقيقة والتمويه عليها - كان الحرص - طوال تلك السنوات - على رفض الاقتراحات العربية والإسلامية التي تلح على ضرورة عقد مؤتمر دولي لتحديد معنى الإرهاب وللتمييز بينه وبين الجهاد الإسلامي والقتال المشروع لتحرير الأوطان من الاستعمار.. الأمر الذي يزيد من أهمية وضرورة التحديد والتحرير للمعنى المضمون والمفهوم الإسلامي للإرهاب.

إن المفهوم الغربي لمصطلح الإرهاب - Terro والذي يعنى استخدام العنف غير المشروع لترويع الأمنين، وإكراههم على قبول ما لا يريدون، وخصوصاً عندما يكون هذا الإرهاب تمارسه السلطة الحاكمة ضد المحكومين، أى: إرهاب الدولة الذي يث

الرعب فى نفوس المحكومين (مجمع اللغة العربية - معجم العلوم الاجتماعية - ط. ١٩٧٥).

إن هذا المفهوم الغربى للإرهاب هو أبعد ما يكون عن مفهوم هذا المصطلح فى لغتنا العربية.. وفى القرآن الكريم - الذى هو كتاب العربية الأول.. وديوان شريعة الإسلام..

بل إن الإسلام يرى سائر الديانات السماوية من أن يكون الإرهاب والعنف والإكراه والترويع للآمنين سبيل أى منها فى الدعوة إلى شريعة أى دين من تلك الديانات.

فمنهاج الدعوة إلى اليهودية شريعة موسى عليه السلام هو «القول اللين»، وليس العنف والحرب، والقتال والإرهاب: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (٤٣) فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لِّينًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿ [طه: ٤٣، ٤٤].

ولأن موسى عليه السلام لم يقم دولة، ولم يقد جيشًا، ولم يخض حربًا ولا قتالًا... وإنما ولد ونشأ وبعث ومات ودفن فى مصر.. فلقد ظلت شريعته الحقيقية بريئة من أى إكراه أو عنف أو إرهاب.

وكذلك الحال مع النصرانية التى جاء بها عيسى ابن مريم - عليه السلام - فهى تعاليم الصوفية المسالمة، والسلام الصوفى، والتى بلغت فى السلام والمسالمة حدودًا ومثلاً ربما عزت على التطبيق فى نطاق هذا العالم.

ولذلك قال المسيح: إن مملكته ليست فى هذا العالم!... فبراءة النصرانية - ومنهجها فى الدعوة - من العنف والإكراه والإرهاب الذى يروع الآمنين، براءة لا تحتاج إلى كثير حديث..

وكذلك الحال مع منهاج الدعوة الإسلامية - فى الدعوة إلى الله - فلقد جاءت مؤكدة على المنهاج الإلهى فى الدعوة إلى الإيمان الدينى... منهاج المحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتى هى أحسن؛ لأن هذا المنهاج هو الوحيد الذى يثمر إيمانًا وتصديقًا قلبيًا يبلغ مرتبة اليقين.. بينما الإرهاب بمعنى ترويع الآمنين

أهـى هـرب عـلى الإرهـاب .. أم عـلى الإسلام ؟!

وإكراههم على ما لا يريدون - هو سبيل النفاق - الذى هو أشد سوءاً من الشرك الصراح، والكفر البواح وليس سبيل الإيمان بأى حال من الأحوال.

أما أولئك الذين يستندون إلى ورود الإشارة فى القرآن الكريم بسورة الأنفال إلى الإرهاب، فإن خطأهم القاتل - هذا إذا حسنت النوايا... وساء الفهم - هو فى وقوفهم عند المصطلح مغفلين تميز مفهوم هذا المصطلح فى القرآن الكريم واللغة العربية عن مضمونه الغربى الذى شاع ويشيع الآن فى دوائر الفكر والثقافة والسياسة والإعلام.. ولو أنهم فهموا سياق الآيات القرآنية التى ورد فيها هذا المصطلح بسورة الأنفال ثم جمعوا إلى الآيات التى ورد فيها هذا المصطلح - ومشتقاته - بالقرآن الكريم، ثم فسروا هذه الآيات وفقهوا هذا المصطلح وفق مضمونه العربى وسياقه القرآنى، لما تطرق إلى ذهن أحد أن هناك أدنى علاقة بين الإسلام وبين الإرهاب - بمعنى ترويع الأمنين بالعنف والعدوان والإكراه...

إن آيات سورة الأنفال تتحدث عن المشركين الذين يقاتلون المسلمين، بفتنتهم فى دينهم، وإخراجهم من ديارهم، وتخص بالحديث قومًا من هؤلاء المشركين المقاتلين احترفوا الخيانة للعهد، وأخذ المسلمين على غرة، رغم ما بينهم من عهد للسلم والأمان.. فتطلب هذه الآيات القرآنية من المسلمين أن يعدوا من العدة، ويتخذوا من القوة ما يرهب ويخيف - أى: يردع - هؤلاء الذين مردوا على الخيانة، ونقض العهد، والغدر والعدوان... ما يردعهم عن هذه الخيانة وهذا العدوان..

﴿ وَإِمَّا تَخَافُكُم مِّن قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ (٥٨) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِّن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ [الأنفال: ٥٨ - ٦٢].

فمعنى الإرهاب هنا هو التخويف لردع الخونة والمخادعين والغادرين؛ كى لا يغدروا بالمسلمين المعاهدين.. وهو تخويف يثمره إعداد القوة الرادعة... وليس

تخويف العدوان والإكراه، أى إنه التخويف الذى ينفى العنف والإكراه والقتال... فهو كالعقوبة الرادعة، إعلانها يمنع ويردع عن الجريمة، ون ثم يمنع تطبيقها.. ولا علاقة لهذا الإرهاب بهذا المعنى بترويع الآمنين وإكراههم بالعنف والقتال والإكراه الذى هو معنى مصطلح الإرهاب Terror فى الفكر الغربى.

إن امتلاك الاتحاد السوفيتى إبان الحرب الباردة فى منتصف القرن العشرين للسلاح الرادع النووى والهيدروجينى، هو الذى أربى وردع أمريكا وأخافها من العدوان الذرى على السوفييت فتحقق الأمن والأمان للعالم من هذه الكارثة النووية، وكذلك الحال مع امتلاك باكستان للردع النووى، وهو الذى جعل استخدام الهند لسلاحها النووى ضد باكستان أمراً مستحيلاً.. بل لقد فتح توازن الردع النووى نوافذ السلاح بين البلدين، ولو كانت اليابان سنة ١٩٤٥م تمتلك الردع النووى لأرهبت وأخافت أمريكا، ولنجت هيروشيما ونجازاكي من الكارثة النووية التى حاقت بهما فى ذلك التاريخ...

وهنا يكون الإرهاب - بمعنى التخويف الرادع للأعداء - هو الضمان لتحقيق الأمن والسلام للجميع.

ويشهد على هذه الحقيقة مع السياق الذى ورد به آيات سورة الأنفال - معنى مصطلح الإرهاب فى العربية لغة القرآن الكريم.

ونحن عندما نعود إلى الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ / ١١٠٩م) فى كتابه (المفردات فى غريب القرآن) نجد أن معنى الإرهاب - فى القرآن ولغته العربية - هو على الضد من العنف الذى يروع الآمنين ويرعبهم... فهو من الرهبة بمعنى المخافة مع تحرز واضطراب.

وليس هناك عاقل يمكن أن يفسر المخافة والرهبة والخشية بالعنف الذى يروع الآمنين ويرعبهم! وتشهد على ذلك كل الآيات القرآنية التى وردت فيها إشارات إلى هذا المصطلح - وتصريفاته اللغوية: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].. أى للذين يخافون ربهم ويخشونه.

أهـى هرب على الإرهاب.. أم على الإسلام؟!

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْهَبُونِ﴾
[البقرة: ٤٠].. أى خافونى وأخسونى ولا تخشوا أحداً سواى.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا نَتَّخِذُ أَلِهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَأَرْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١] أى:
أفردوا الله بالمراقبة والخشية.

وقال تعالى حاكياً حال سحرة فرعون مع شعب مصر: ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا
سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦].. أى:
أخافوهم خوفاً شديداً.

﴿أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ
فَذَنَّاكَ بَرَهَانًا مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ...﴾ [القصص: ٣٢].. أى: من
الخوف.

﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾
[الحشر: ١٣].. أى: أشد تخويفاً.

وقال تعالى عن زكريا وزوجه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ وَكَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا
رَعْبًا وَرَهْبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].. والمراد رجاء رحمتنا وخوف عذابنا.

وقال عن عباد بنى إسرائيل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

فالرهبان: هم الذين يبالغون فى الخوف من الله وفى خشيته.. والرهبانية: هى
المبالغة فى الخشية من الله، وليس فى أى من مضامين هذه المصطلحات القرآنية
(يرهبون فارهبون ترهبون استرهبوهم الرهب الرهبان الرهبانية) ما يشى من قريب أو
بعيد للمعنى الغربى للإرهاب معنى: العنف الذى يروع الأبرياء والأمينين ويرعبهم.

وإذا كان بعض المرجفين المفترين يذهبون - رغم هذه الحقائق التى قدمناها - إلى
اتهام الإسلام بالتأسيس للإرهاب.

- فيقول الزعيم الدينى السياسى القس الأمريكى «بات روبرتسون» مؤسس جماعة
(التحالف السياسى المسيحى) التى تسيطر على الكونجرس الأمريكى، والحزب

الجمهورى والإدارة الأمريكية، وهو مرشح أسبق للرئاسة الأمريكية والأب الروحى للرئيس بوش - الصغير الذى ولد - بوش - على يديه ولادته المسيحية الجديدة.. يقول هذا القس:

«إن الدين الإسلامى دعا إلى العنف، وأنه بالنظر إلى المعنى الحقيقى لآيات قرآنية فإن أسامة بن لادن أكثر وفاء لدينه الإسلامى من آخرين».

- ويقول المستشرق الصهيونى الأمريكى برنارد لويس:

«إن الإرهاب اليوم هو جزء من كفاح طويل بين الإسلام والغرب فالنظام الأخلاقى الذى يستند إليه الإسلام مختلف عما هو فى الحضارة اليهودية المسيحية الغربية، وآيات القرآن تصدق على ممارسة العنف ضد غير المسلمين.. وهذه هى الحرب هى حرب بين الأديان».

- وتقول مارجرى تاتشر رئيسة وزراء إنجلترا الأسبق:

«إن تحدى الإرهاب الإسلامى الفريد لا يقف عند أسامة بن لادن، وإنما يشمل الذين أدانوا هجمات الحادى عشر من سبتمبر على أمريكا، والذين انتقدوا أسامة بن لادن وطالبان لكنهم يرفضون القيم الغربية وتتعارض مصالحهم مع مصالح الغرب»^(١).

- ويعلن رئيس وزراء إيطاليا «سيلفيو بيرلسكونى»: «أن الحضارة الغربية أرقى من الحضارة الإسلامية، ولا بد من انتصار الحضارة الغربية على الإسلام، الذى يجب أن يهزم.. إن الغرب سيواصل تعميم حضارته، وفرض نفسه على الشعوب»^(٢).

- أما السيناريو الديمقراطى الأمريكى «جوزيف سبرمان» - وهو مرشح سابق لمنصب نائب الرئيس - فلقد أعلن «أنه لا حل مع الدول العربية والإسلامية إلا أن تفرض عليها أمريكا القيم والنظم والسياسات التى نراها ضرورية، فالشعارات التى

(١) صحيفة الشرق الأوسط - لندن - فى ١٤ / ٢ / ٢٠٠٢ م.

(٢) صحيفة الحياة - لندن - فى ٣٠ / ٩ / ٢٠٠١ م.

أهى حرب على الإرهاب.. أم على الإسلام؟!

أعلنتها أمريكا عند استقلالها لا تنتهى عند الحدود الأمريكية، بل تتعداها إلى الدول الأخرى»^(١).

- وحتى الذين قالوا: لا نريدها حرباً على الإسلام.. أعلنوا: «أننا نريدها حرباً داخل الإسلام»!!.. ودعوا إلى تغيير مناهج الدراسات الإسلامية، وعدم الاكتفاء بالحرب المسلحة فى ميادين القتال.. وباسم هؤلاء كتب الصحفى الصهيونى الأمريكى «توماس فريدمان» يقول: «إن الحرب الحقيقية فى المنطقة الإسلامية هى فى المدارس.. ويجب أن نكون مسلحين بالكتب الحديثة لا الديانات وفقط.. وذلك لتكوين جيل جديد يقبل سياساتنا كما يحب شطائرننا»^(٢).

- أما وزير الداخلية فى ألمانيا «أتوشيلي».. فلقد وصف «عقيدة الإسلام بأنها هرطقة وضلال»^(٣)!!..

- أما أكبر وأشهر مفكرى الاستراتيجية فى أمريكا «صموئيل هنتبختون [١٩٢٧ - ٢٠٠٨م] - فيعلن: «أن الصحوة الإسلامية هى رد فعل تجاه الحداثة والتحديث والعولمة الغربية.. وأن أسباب حروب المسلمين وصدامهم مع الغرب إما تكمن فى العقيدة الإسلامية والقناعات الإيمانية فى الإسلام.. الأمر الذى يوجب قيام حرب داخل الإسلام حتى يقبل الحداثة الغربية، والعلمانية الغربية، والمبدأ المسيحى: فصل الدين عن الدولة»^(٤)!

وكما لم يفلح اللعب بالمصطلحات فى إخفاء المقاصد - فالحرب داخل الإسلام هى عين الحرب على الإسلام.. كذلك لم يفلح - فى إخفاء المقاصد - استخدام مصطلح «الأصولية الإسلامية والأصوليين الإسلاميين» فى إخفاء أن المراد هو الإسلام وشريعته وحضارته.. ولقد وضع النقاط على الحروف الرئيس الأمريكى الأسبق «ريتشارد نيكسون» [١٩١٣ - ١٩٩٤م] - وهو مفكر استراتيجى وذلك عندما

(١) صحيفة وطنى القاهرة - فى ٩/١٢/٢٠٠١م.

(٢) نيويورك تايمز - والنقل عن صحيفة وطنى القاهرة - فى ٢٥/١١/٢٠٠١م.

(٣) صحيفة الأهرام - القاهرة - فى ٢/٣/٢٠٠٢م.

(٤) النيوزويك - العدد السنوى ديسمبر ٢٠٠١م - فبراير ٢٠٠٢م.

أعلن - فى كتابه الفرصة السانحة : «أن هؤلاء الأصوليون الإسلاميين هم المصممون على:

١ - استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة، عن طريق بعث الماضى.

٢ - وتطبيق الشريعة الإسلامية.

٣ - والمناداة بأن الإسلام دين ودولة.. وعلى الرغم من أنهم ينظرون إلى الماضى، فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل، فهم ليسوا محافظين، ولكنهم ثوار^(١)!

هكذا شهد شهود من أهلها على أن الحرب التى بدأها «بوش» تحت شعار «الإرهاب» إنما هى «حرب على الإسلام»، وإذا كان بعض المفترين قد اتهموا الإسلام بالتأسيس للإرهاب - بمعنى قتل الأبرياء وترويع الآمنين - ثم فضحتهم أعلامهم وألستهم عندما اعتبروا «رفض القيم الغربية ومعارضة الأطماع الغربية» إرهاباً وعنفاً دموياً فإننا نلفت أنظارهم إلى النفاق الفكرى الذى جعلهم يتهمون الضحية ويبرئون الجناة!! ونقول لهم: ألم تروا الممارسات التى تتعرض لها شعوب إسلامية كثيرة قد غدت ضحايا وفرائس للعنف الغربى الصهيونى فى فلسطين والعراق والشيشان وتايلاند وبورما والفلبين وغيرها من بلاد الشام؟!!

إن إخراج الناس من ديارهم وأوطانهم وتحويلهم إلى لاجئين هو عنف وإرهاب، وترويع للأبرياء والآمنين وأغلب اللاجئين على النطاق العالمى هم من المسلمين.

وإن نظرة على تاريخ العلاقات بين الغرب والشرق لتضع أيدينا وأبصارنا وبصائرنا على قرون الغزو والعنف والقهر الثقافى والسياسى والدينى والحضارى الذى مارسه الغرب ضد الشرق أغلب قرون ذلك التاريخ:

- عشرة قرون من الغزو والقهر الإغراقى الرومانى البيزنطى من الإسكندر الأكبر

[٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م] فى القرن الرابع قبل الميلاد وحتى هرقل [٦١٠ - ٦٤١ م]

فى القرن السابع للميلاد.

(١) نيكسون [الفرصة السانحة] ص ١٤٠، ترجمة دكتور أحمد صدقى مراد - طبعة دار الهلال - القاهرة ١٩٩٢ م.

أهى حرب على الإرهاب.. أم على الإسلام؟!

- وقرنان من الحروب الصليبية [٤٨٩ - ٩٦٠هـ / ١٠٩٦ - ١١٩١م].

- وخمسة قرون هى عمر الغزوة الغربية الحديثة التى بدأت منذ إسقاط غرناطة ٩٨٧هـ - ١٤٩٢م بالالتفاف حول العالم الإسلامى، ثم استعمرت سائر أقطار الإسلام، وهى الغزوة التى نعالج هيمنتها حتى هذه اللحظات.

وإن نظرة على خريطة الشرق وعلى خريطة الغرب ستضع أيدينا وأبصارنا وبصائرنا على الحقيقة التى تقول: أين هو الغزو والاحتلال والاستغلال الذى يروع الأمنين ويرهب الأبرياء؟!

- إن القواعد العسكرية الغربية تملأ ديار الإسلام.

- ومئات الآلاف من الجنود الغربيين يحتلون الكثير من أوطان عالم الإسلام.

- ومئات الشركات الغربية العابرة للقارات والجنسيات تنهب ثروات عالم الإسلام.

بينما تخلو خريطة العرب من أى وجود للإسلام أو نفوذ للمسلمين، وحتى الأفراد المسلمون الذين يعيشون فى المجتمعات الغربية قد غدوا - وخاصة بعد قارعة سبتمبر ٢٠٠١م - ضحايا لألوان من التمييز والترويع والسجن والاعتقال بأدلة سرية لا تعلن ولا يعرفها حتى المحامون، واعتقالات مؤبدة مدى الحياة دونما إعلان لسبب الاعتقال.. فقط للاشتباه أو لأنهم مسلمون! الأمر الذى يذكرنا بكلمات المستشرق الفرنسى جاك بيرك [١٩١٠ - ١٩٩٥م]، التى قال فيها عن تاريخ علاقة الغرب بالإسلام:

إن الإسلام الذى هو آخر الديانات السماوية الثلاثة والذى يدين به أزيد من مليار نسمة فى العالم والذى هو قريب من الغرب جغرافياً وتاريخياً، وحتى من ناحية القيم والمفاهيم قد ظل، ويظل حتى هذه الساعة بالنسبة للغرب:

ابن العم المجهول..

والأخ المرفوض..

والمنكور الأبدى..

والمبعد الأبدى..

والمتهم الأبدى..

والمشتبه به الأبدى^(١)..

فأين نحن من الإرهاب الذى يروع الأبرياء والآمنين؟!

وإذا كان التراث اليهودى وليست شريعة موسى عليه السلام - قد غدت مكونا من مكونات الحضارة الغربية التى تمارس مؤسساتها الإمبريالية - وليس إنسانها - هذه الممارسات مع الشرق الإسلامى.. ومع المسلمين.. فإننا نقرأ فى هذا التراث اليهودى القديم دعوة إلى إبادة جميع الشعوب الذين على وجه الأرض، وأكل كل الشعوب أكلا.. دون أن تقطع لهم عهدا... ولا تشفق عينك عليهم.. بل تمحو ذاكهم من تحت السماء - مثل العماليق - (انظر: سفر التثنية إصحاح ١٧/١ - ٦، ١٤ - ١٦) إصحاح (٢٠/١٠ - ١٦) إصحاح (٢٥/١٩).

كما نقرأ بهذا الفكر فى عصرنا الراهن الفتاوى الحاخامية التى تضع هذا التراث الدموى فى الممارسة والتطبيق على أرض فلسطين وذلك من مثل فتوى الحاخام الصهيونى القعيد أ. فيدان زيمبل التى يقول فيها للجنود الصهاينة المحتلين للضفة الغربية:

إن الهالاكاه - الشريعة - تحض على قتل حتى المدنيين الطيبين^(٢).

فأين نحن وأين العالم من هذا الإرهاب الذى يروع الآمنين، ويقتل حتى الأبرياء الطيبين؟.

وأين نحن وأين العالم من هذا الفكر الذى ينظر ويبرر لهذا اللون من الإرهاب؟ إن المسلمين لم يكونوا هم الذين أبادوا شعوب الهندو والحمرو ودمروا حضارتهم.

(١) من حديث لجاك بيرك فى ٢٧ - ٦ - ١٩٩٥م، انظر حسونة المصيلحى فى العرب والإسلام فى نظر المستشرق الفرنسى جاك بيرك صحيفة الشرق الأوسط فى ١ - ١١ - ٢٠٠٠م.

(٢) إسرائيل شاحك، الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود، ص ١٣٤ - ١٣٥ ترجمة حسن خضر. ط. دار سيناء. القاهرة ١٩٩٤.

أهى حرب على الإرهاب.. أم على الإسلام؟!

وليسوا هم الذين استخدموا أسلحة الدمار الشامل الذرية فى إبادة المدنيين الأبرياء فى هيروشيما ونجازاكي باليابان سنة ١٩٤٥ م.

وليسوا هم الذين سمموا تربة الأرض وأحرقوا الغابات وأبادوا ثلاثة ملايين من البشر فى فيتنام.

ولا هم الذين استخدموا اليورانيوم المنضب، والقنابل العنقودية وسمموا البيئة وقتلوا عشرات الآلاف، بل ودمروا حتى كنوز الآثار الحضارية النادرة والنفيسة فى العراق وفى غزة ولبنان.

ولا هم الذى أبادوا سبعين مليوناً من البشر فى حربين استعماريتين عالميتين شهدهما القرن العشرون!

ولا هم الذى حولوا الكثير من بلاد الجنوب إلى مقابر للنفايات الذرية المدمرة والمهلكة للحياة، وجعلوا من حياة الأبرياء فى الجنوب ومن زراعاتهم حقول تجارب، ومصادر مكاسب للمبيدات الضارة والأسمدة الفاسدة والأدوية المنتهية الصلاحيات.

لم يكن المسلمون فى تاريخهم القديم والوسيط والحديث والمعاصر هم الذين فعلوا ذلك ولا شيئاً من ذلك.

ولو أن المسلمين قد أعدوا القوة التى أمرهم بها ربهم عز وجل فى سورة الأنفال ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠].

واتخذوا أسباب القوة والمنعة والعزة، فأخفوا الطامعين فى ديارهم وثرواتهم - لما حدث هذا الإرهاب الذى غدوا أولى ضحاياه فى هذا العالم الذى نعيش فيه.

تلك هى حقيقة الإرهاب فى مصطلح العربية والقرآن والإسلام وصدق الله العظيم:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَتَلْذُذُوا إِنِّي أُرْسِلُ هُزُومًا﴾ [الكهف: ١٠٣: ١٠٦]..

بهذه الصفحات نقدم بين يدي كتاب - حرب على الإرهاب أم على الإسلام؟! -
لكاتبه الشيخ خالد عبد المعطى خليف، وفيه جهد كبير ومخلص فى دراسة هذه
الظاهرة - ظاهرة خلط الإرهاب بالإسلام..

والله نسأل أن ينفع به إنه سبحانه وتعالى خير مسئول وأكرم مجيب^(١).

(١) انظره بكتاب [الحرب على الإسلام] تأليف خالد عبد المعطى خليف. طبعة المركز العالمى لمكافحة الإرهاب سنة ٢٠١٧ م.

مَرَكَسَةُ الْإِسْلَام

فى حياتنا الفكرية كثير من السلبيات - بل والأمراض - التى تبعث على القلق، وتستوجب تداعى الغيورين للحوار حولها؛ لمعالجتها..

فهناك تقلص «حجم» هذه الحياة الفكرية، إذا ما قيسَت بأمة إسلامية يزيد تعدادها على مليار وثلث المليار.. بل وبحجم الأمة العربية، التى يقارب تعدادها ثلث المليار.. وخاصة إذا قسنا ذلك بالعطاء الفكرى لهذه الأمة فى تاريخ الإسلام.. وذلك فضلاً عن «ضعف المستوى» فى هذه الحياة الفكرية المحدودة «الحجم»..

وتتزايد مخاطر هذه السلبية - تقلص حجم الحياة الفكرية وضعف مستواها - عندما نرى تعاظم وشراسة التحديات الفكرية التى تواجه الأمة، سواء من الاجتياح الفكرى والثقافى والإعلامى الغربى.. أو من التخلف الذاتى الموروث والذى يهيم الفراغ الذى يتمدد فيه المتغربون - وكلاء وعملاء وسماسرة هذا الاجتياح..

فنحن - إزاء هذه السلبية - أمام خطر حقيقى يهدد هوية الأمة وذاتيتها الوطنية والقومية والحضارية..

- وهناك غيبة الحوار الفكرى الجاد.. والموضوعى.. والمسئول.. والذى يتغيا الحقيقة - عن حياتنا الفكرية.. الأمر الذى فتح الأبواب «للعنف الفكرى» - عنفاً «الإقصاء» و«التكفير الدينى.. والسياسى» - بل وفتح الأبواب «للعنف المادى.. العشوائى».. الأمر الذى جعل ويجعل بأس الأمة فيما بين أبنائها شديداً، ويجبرها - شاءت أو لم تشأ - على أن تكون رحيمة - رحمة الضعف - بالأعداء!

- وهناك استقطاب «الثقافة العوراء».. تلك التى ينظر أصحابها بعين واحدة، لا

ترى إلا «الذات».. فلدينا إسلاميون لا يعرفون عن «الآخر الفكرى» شيئاً، الأمر الذى يعجزهم عن محاورته، رغم أنهم يمثلون «البديل» له.. فيكتفون بالرفض له، دون إقامة الحجة عليه، وإزالة ما لديه من شبهات..

ولدينا علمانيون وزنادقة هم ضحايا الجهل بالإسلام، ونموذجه الحضارى، وحقيقة ما لديه من عطاء فى تكريم الإنسان، بميادين السياسة والاجتماع والاقتصاد والقيم والتقدم والانعتاق..

ولقد بلغ هذا الجهل - جهل «الثقافة العوراء» - إلى الحد الذى رأينا فيه ماركسيين، لم يكن لهم وزن حقيقى فى الظاهرة الماركسية، يتحولون إلى الاحتراف فى الكتابة عن الإسلام والظاهرة الإسلامية.. ويزعمون أن ما لديهم هو صحيح الدين، وكأنهم - فى الإسلام - من هيئة كبار العلماء، فى حين أنهم لا يعرفون حتى قواعد الاستنجااء!..

ووجدنا «ماركسيين».. كذّبة، لم تعرفهم الميادين الحقيقية للماركسية - ميادين الكفاح فى سبيل العدالة الاجتماعية.. والفروسية فى التصدى للرأسمالية المتوحشة - فلم يصبهم من الماركسية سوى بلاء المادية والزندقة والإلحاد.. فانتهزوا - لفرط انتهازيتهم - فرصة التناقض بين الدولة وبين ظاهرة «الغلو الدينى» وفصيل «العنف العشوائى»، وراحوا يجرحون عقائد الأمة وثوابت الإسلام.. وهى مهمة قدرة، لا ترضاهم الدولة - لأنها مسلمة - وتأنف أن تمارسها.. وذلك فضلاً عن أنها تذكى وتستفر «الغلو الدينى»، وتجلب على الدولة «تهمة» الغلو اللادينى وهى منها براء..

ولأن هذه الظاهرة - ظاهرة الغلو اللادينى التى تجرح عقائد الأمة وثوابت الإسلام - من القرآن.. إلى الرسالة إلى الرسول.. إلى الشريعة.. إلى الفقه.. والحضارة.. والتاريخ.. لأن هذه الظاهرة قد أضافت إلى جهل «الثقافة العوراء»، سوء النية وفساد الطوية وخبث المقاصد.. ولأنها - أيضاً - قد تسلحت بترسانة المذاهب الغربية المادية والوضعية والعلمانية، تلك التى واجهت بها فلسفة الأنوار الغربية اللاهوت النصرانى.. لكل ذلك، فإن محاوره رموز هذا الغلو اللادينى مستحيلة دون فقه مرجعيته الفكرية، ومناهجه البحثية.. ودون امتلاك الرؤية الإسلامية والقدرة على

التعامل مع المصادر التي يتعامل معها هؤلاء الزنادقة بمنهاج (ويل للمصلين) و(لا تقربوا الصلاة)!!

ولأن الإسلاميين الجامعين - في ثقافتهم - بين المرجعية الإسلامية وبين الخبرة بمرجعيات الغلو اللاديني، والذين وهبهم الله القدرة على كسر شوكة الكذبة على الله ورسوله ﷺ ودينه وأمته.. لأن هؤلاء هم في حياتنا الفكرية أندر من الكبريت الأحمر - كما يقولون - كانت سعادتي البالغة عندما تعرفت على هذا الشاب - منصور أبو شافعي - بعد أن قرأت دراسته هذه - التي أقدمها للقراء - عن «مركسة الإسلام»..

لقد اتصل بي هاتفياً - دون سابق معرفة - وحدثني عن دراسته هذه.. ولأن كثيرين يصنعون ذلك.. ولأن الواجبات أكبر من الأوقات، فلقد طلبت منه أن يترك لي دراسته في صندوق البريد.. ولقد ألقيت نظرة على سطورها الأولى - بنية أن أدعها لدورها في ترتيب الأولويات - لكنها شدتني، فلم أتركها حتى أتممتها، وأنا في لهفة للقاء كاتبها..

لقد عثرت في هذا الكاتب الشاب - من خلال دراسته هذه - على واحد من العُملة النادرة التي نفتش عنها في واقعنا الفكري.. الذين خبروا المرجعية الماركسية.. واحتفظوا بولائهم للإسلام، وغيرتهم على مقدساته وانتمائهم لنموذجه الحضاري، وامتلكوا القدرة على التعامل مع المصادر التي يموه كذبة الغلو العلماني بذكرها على القراء!..

لذلك، أنا سعيد باكتشاف ومعرفة هذا الشاب الواعد - منصور أبو شافعي الذي أدعو الله - سبحانه وتعالى - أن يهيئ له من أمره رشداً، وأن يعينه على صعود درجات سلم الحياة الفكرية، فيعطى.. ويعطى.. ويعطى.. ويتخذ فيها الموقع المناسب لما يقدم من عطاء..

لقد تذكرت - وأنا أقرأ هذه الدراسة - التي فضحت أكاذيب سيد القمني، التي حاول بها مركسة الإسلام - تذكرت كلمات السيد المسيح عيسى بن مريم - عليه وعلى رسولنا أفضل الصلوات والتسليمات - وهو الذي كان خبيراً بالعفن الفكري والفساد الخلقى اللذين يعيش فيهما اليهود - كلماته - التي لا ينبئ بها إلا خبير:

«يا أولاد الأفاعي! كيف تقدرُون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار؟!»^(١).

وكلماته - التي جسدت ثوابت الشخصية اليهودية الضالة - عندما دخل عليهم الهيكل، «فقلب موائد الصيارفة، وطردها من الحمام.. وقال لهم: «مكتوب: بيتي بيت الصلاة يُدعى. وأنتم جعلتموه مغارة لصوص»^(٢)!..

وصدق الله العظيم: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]..

فنحن - في هذه الدراسة، التي نقدمها إلى القراء - أمام خبير ببضاعة الغلو اللاديني، حفظ الله عليه إيمانه بالإسلام، وولاءه له، وغيرته على أمته وحضارته.. وهياً له إمكانات الذود عن حياضه..

والله نسأل أن يتقبل منه هذا الجهد خالصاً لوجهه الكريم.. وأن يعينه على أن يبني مع البنائين لبنات المشروع الحضاري الإسلامي.. وعلى أن يحاور أصحاب الشبهات.. وعلى أن يكسر شوكة غلاة الكذبة والمزيفين..

والله من وراء القصد.. منه نستمد العون والتوفيق^(٣)..

(١) إنجيل متى - إصحاح ١٢ - آية ٣٤.

(٢) المصدر السابق. إصحاح ٢١ - آية ١٢، ١٣.

(٣) انظره في كتاب [مركسة الإسلام] لمنصور أبو شافعي طبعة نهضة مصر سنة ١٩٩٩ م.

العلمانيون والحرام العلمى

بينى وبين الدكتور رفعت السعيد - فى الفكر - خلاف طويل .. وعريض .. وعميق ..
وشديد .. وبينى وبين كل سطر من سطور هذا الكتاب وفاق .. واتفاق .. وتأيد ..
وإعجاب شديد ..

ومع ذلك، فلقد ترددت كثيرًا وتخرجت من التقديم لهذا الكتاب! ..
ذلك أن بينى وبين الدكتور رفعت - على المستوى الإنسانى - معرفة قديمة ..
ولقد تعلمت من خُلق الفلاح المصرى الذى أعتز به، وما زلت أخلق به .. وقبل
ذلك من وفاء رسول الله ﷺ لصدقاته وعلاقاته مع الذين زاملهم وعاملهم فى
رحلاته التجارية قبل البعثة .. تعلمت خُلق الوفاء، الذى يجعلنى أخرج من توجيه
سهام النقد - حتى وإن كان موضوعيًا - إلى من جمعتنى بهم صداقة، أو حتى علاقة
- كالدكتور رفعت - فى يوم من الأيام .. خصوصًا وأن هذا التخرج لن يحول بينى وبين
أداء الواجب الفكرى فى المنافحة عن دينى وما أعتقده الصواب، فالساحة الفكرية
واسعة، ومن الميسور الرد على «س» من الناس، أثناء الرد على غيره من الذين يتبنون
ذات الأفكار! ..

لكننى - وللمرة الأولى - قد غالبت فغلبت هذا التخرج، وأقدمت على التقديم
لهذا الكتاب لسببين أساسيين:

أولهما: العلاقة الفكرية الخاصة التى تربطنى بصاحب هذا الكتاب.
وثانيهما: تلك السعادة الغامرة التى تملكتنى عندما قرأت وتأملت صفحاته،
فدفعتنى هذه السعادة دفعًا إلى كتابة هذا التقديم ..

- فقبل خمس سنوات كنت أنا الذى اكتشفت والتقطت مؤلف هذا الكتاب -

الباحث والواعد والكفاء والجاد والصبور، الشاب منصور أبو شافعى - فقدمت ونشرت دراسته عن (مركسة الإسلام) و(مركسة التاريخ النبوى).. وهى الدراسة التى اكتشف فيها (الحرام العلمى) الذى اقترفه واحد من «سواقط الماركسية» الذين لم يصبهم منها سوى معاداة الدين، والدين الإسلامى دون غيره من الأديان رغم أنه الدين الأكثر انتصاراً للعدل الاجتماعى الذى دعت إليه الماركسية! والأشد انتصاراً للعقلانية التى تدعو إليها جميع الفلسفات بما فيها المادية الجدلية!

التقطت - يومئذ - دراسة الباحث الشاب منصور أبو شافعى - الفقير فى عرض الدنيا.. والذى يسكن الأرياف - فنشرت له دراسته - مقالات بجريدة «الشعب» ثم قدمتها إلى القراء بسلسلة «فى التنوير الإسلامى»^(١).

ولقد مر على نشر هذه الدراسة - الآن - خمس سنوات، لم يستطع فيها ذلك «المتمركس» أن ينطق بكلمة واحدة، ليحاول تبرئة نفسه من جرائم «الحرام العلمى» التى ضبطه متلبساً بها أبو شافعى..

ولقد كتبت - يومئذ - فى التقديم لدراسة (مركسة الإسلام)، هذه السطور:

لقد عثرت فى هذا الكاتب الشاب - من خلال دراسته هذه - على واحدة من العملة النادرة التى نفتش عنها فى واقعنا الفكرى.. الذين خبروا المرجعية الماركسية.. واحتفظوا بولائهم للإسلام، وغيرتهم على مقدساته، وانتمائهم لنموذجه الحضارى، وامتلكوا القدرة على التعامل مع المصادر التى يموه كذبة الغلو العلمانى بذكرها على القراء!

ولقد تذكرت - وأنا أقرأ هذه الدراسة - (مركسة الإسلام) - كلمات المسيح عيسى بن مريم (عليه وعلى رسولنا أفضل الصلوات والتسليمات)، وهو الذى كان خبيراً بالعفن الفكرى والفساد الخلقى الذين يعيش فيها اليهود - التى لا ينبىء بها إلا خبير:

«يا أولاد الأفاعي! كيف تقدرُونَ أن تتكلموا بالصالحات، وأنتم أشرار؟!» - (إنجيل متى. إصحاح ١٢ : ٣٤).

(١) انظر «مركسة الإسلام» طبعة القاهرة، دار نهضة مصر سنة ١٩٩٩م، و«مركسة التاريخ النبوى»، طبعة القاهرة، دار نهضة مصر سنة ٢٠٠٠م.

ولقد دعوت الله سبحانه وتعالى - فى ذلك التقديم - للباحث الواعد منصور أبو شافعى: «أن يعينه على أن يحاور أصحاب الشبهات، وعلى أن يكسر شوكة غلاة الكذبة والمزيفين».. كان ذلك قبل خمس سنوات..

- ولقد شاء الله، سبحانه وتعالى، قبول هذا الدعاء.. فوفق هذا الباحث الشاب لأن يُثنى فى مشروعه البحثى هذا - باكتشاف «الحرام العلمى» الذى اجترحه الدكتور رفعت السعيد، فيما كتب عن الإمام الشهيد حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ / ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م]، فكانت هذه الدراسة التى أقدمها اليوم إلى الباحثين والقراء.. والتى أود أن ألقت النظر - فى التقديم لها - إلى بعض الحقائق والملاحظات:

١ - عندما كان الدكتور طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ / ١٨٨٩ - ١٩٧٣ م] فى مرحلة انبهاره بالغرب، واجتهاداته الخاطئة، التى كتب فيها طعنه فى بعض أخبار القرآن الكريم - بكتابه (فى الشعر الجاهلى) ١٩٢٦ م.. كان طه حسين واحداً من بلغاء العصر.. ولذلك لم يمنعه ما كتب من ضلال - تراجع عنه بعد ذلك وحذفه - أن يشهد للقرآن شهادة العالم الخبير فى العربية وآدابها وعلومها، فيقول: «إن أساليب العربية ثلاثة: نثر، وشعر وقرآن».. فتميز القرآن بالإعجاز قد جعله فريداً، لا نظير له، حتى بنظر طه حسين - عندما كان مغترباً - لأنه مع ذلك وقبل ذلك - كان أحد كبار البلغاء فى القرن العشرين.

٢ - لكن الانحطاط الذى أصاب العلمانية، والتهافت الذى أصاب غلاة العلمانيين والمتغربين فى بلادنا، قد انحدر بمستواهم إلى الحد الذى أصبح فيه الذين يتصدون للإسلام وخياره الحضارى لا يعرف أحدهم الفارق بين «الفطرة» - التى فطر الله الناس عليها - وبين «الفطيرة» - التى يصنعها الخباز ويأكلها الناس!!.. ولا يعرف الآخر منهم الفارق بين «الاسم» و«الفعل» فى مفردات العربية! ومع ذلك، يزعم هؤلاء أن القرآن - الذى تحدى البلغاء، ولا يزال - به «أخطاء لغوية ونحوية»! وأنهم هم الذين يمتلكون «صحيح الإسلام» فيكتبون فيه وكأنهم «العلماء» بينما الواحد منهم لا يعرف حتى قواعد «الاستنجا»!!.. ولأن هذا هو المستوى «العلمى» لهؤلاء الذين يتصدون للإسلام وخياره

الحضارى.. فلقد كشف منصور أبو شافعى فى هذا الكتاب - أننا تجاه هذا الغلو اللادينى، لسنا بإزاء «وجهات نظر» تمثل خيارات فكرية مناقضة ومناهضة للإسلام وخياره الحضارى، وإنما بإزاء «ارتكاب كل أنواع الحرام العلمى» الذى اجترح فيه مقترفوه - كما تقول هذه الدراسة - «خيانة الأمانة العلمية.. والتعاليم.. والعبث التاريخى.. والميكافيلية الفكرية.. والفهلوة والشطارة فى القدرة على إخفاء الحقائق والخداع.. وتعمد الكذب.... والاختلاق.. والاحتيال.. والتحويل.. والتحريف.. والحذف والإضافة.. والتعديل.. واقتطاع النصوص.. والتقول على الخصوم».

كل هذا «الحرام العلمى» الذى كشفت عنه صفحات هذا الكتاب، سيجده القارئ «مأساة - ملهامة» تفوق فيها مرتكبوا هذا «الحرام العلمى» حتى على «الحواة» الذين احترفوا إخفاء الحقائق للتخيل - بالكذب - على القراء البسطاء.. فأصبح الكذب صناعتهم التى يرتزقون.. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

والأكثر إثارة للمتعة والإعجاب - فى هذا الكتاب وكتابه - هو القدرة الصبورة على تتبع المصادر والمراجع التى قال الدكتور رفعت السعيد إنه قد رجع إليها فيما كتب عن حسن البناء.. واستقصاء واستقراء طبعاتها المتعددة.. والتحليل والمقارنة بين النصوص.. للكشف عن أصناف هذا «الحرام العلمى» المرتكبة فى هذا الادعاء!!.. الأمر الذى يمثل - دون مبالغة - نموذجاً فى هذا الميدان..

ولما كنت حريصاً على عدم الإطالة - فى هذا التقديم - لأترك للباحثين والقراء فرصة الاستمتاع بثمرات هذا البحث الدءوب، والتتبع الصبور، والحصار الذى وضع الدكتور رفعت فى مأزق يوشك أن يحكم على مصداقيته - ككتاب - بالإعدام.. فيكفى فى هذا التقديم - أن أشير إلى «عينات» لهذا الذى صنعه منصور أبو شافعى بالدكتور رفعت فى هذا الكتاب.

١ - فعندما يقول كارل ماركس [١٨١٧ - ١٨٨٣ م] والماركسية عن الدين:

إن الدين - أى دين - ما هو إلا إنعكاس خيالى فى أذهان الناس لتلك القوى الخارجية المسيطرة عليهم فى حياتهم اليومية.. وإن الإنسان هو الذى يصنع الدين

العلمانيون والحرام العلمى

وليس العكس.. وإن الدولة والمجتمع هما اللذان يصنعان الدين، فالدين هو وعى العالم مقلوباً.. ولهذا، فإن النضال ضد الدين هو نضال، بطريقة غير مباشر، ضد هذا العالم المقلوب.. وإن إدراك الطبيعة يؤدى إلى إدراك مادية العالم.

وعندما يقول ماركس والماركسية عن الله - سبحانه عما به يهرفون:

«إنه فى عالم تشكل المادة سببه الأول وأساسه الأول ليس ثمة مكان للخلق الخارق.. وليس ثمة مكان لقوى أخرى فوق الطبيعة.. ولم يبق ثمة مكان اليوم لخالق.. وإن إدراك الطبيعة يؤدى إلى إدراك مادية العالم، فالمادة مستكفية بنفسها، مستغنية عن خالق يوجدها.. ولقد كان ظهور الأشكال الملكية فى الحكم هو بداية تكون التصورات الدينية حول وجود إله واحد كلى الجبروت، فعلى غرار أباطرة الأرض كان الإنسان المتدين يتصور الإله.. وأن أى دفاع أو تبرير لفكرة الله - مهما كان جيداً ومهما حسنت نواياه - هو تبرير للرجعية».

عندما تقول الماركسية هذا الذى يعرفه القاصى والدانى عن الدين والإله.. يقول الدكتور رفعت: إن الماركسية لا تعادى الدين، وإنما فقط، تعادى «الفكر المتطرف والمتأسلم»!!

٢ - وعندما يقول «رجل» اسمه محمد سعيد العشماوى عن رسول الله ﷺ:

«إنه كان يحكم الناس بوثيقة شبه جاهلية!.. وإنه كان يفرض الإتاوات والرشاوى التى يتملص منها الناس ويسوءهم أداؤها ويذلهم دفعها.. وإن حكومته كانت حكومة احتكام شأن حكومات الجاهلية..»!!

ويقول عن صحابة رسول الله الذين أقاموا الدين وأسسوا الدولة:

«إنهم قد ارتدوا إلى عناصر الشخصية الجاهلية: السلب والصعلكة.. والجمود والتقليد.. واستبدال السلطة والغرض والورث والصدقة بالعقيدة والشرعة»!!

ويقول عن الخلافة الراشدة والراشد الأول أبو بكر الصديق:

«إنها نظام جاهلى غشوم، مناف لروح الدين، مجاف لمعنى الشريعة.. ولقد كانت خلافة أبى بكر: فاسدة.. ومستبدة.. خلطت بين حقوق النبى وحقوق الحكام..

فاغتصبت حقوق النبي.. ونشرت الجشع والفساد.. وأظهرت القبلية والطائفية.. وحولت الإسلام إلى صيغة حربية واتجاه عسكري.. وأن أبا بكر قد أنشأ، في الواقع، ديناً جديداً غير دين النبي..

عندما يصدر هذا «العشماوى» هذه الأحكام على الإسلام ورسوله وصحابته وخلافته.. يقول الدكتور رفعت السعيد عن هذا الرجل:

«إنه يواصل كتاباته الشجاعة والعلمية فى آن واحد»!.. ويحييه قائلاً: «تقبل تحيتى على موقف شجاع يليق بك كباحث وعالم وقاض».

ثم يقول إنه هو الذى يمتلك «صحيح الإسلام».. وأن حسن البنا كان «متأسلاً» - أى مدعيًا للإسلام!!..

٣- وعندما ينطلق حسن البنا من مدرسة الإحياء والاجتهاد والتجديد، ويتحدث عن أن أعلامها قد وضعوا قواعد منهاج النهضة للأمة، فيقول:

«يجب أن تكون دعامة النهضة فى التربية، فتربى الأمة أولاً، وتفهم حقوقها تماماً، وتتعلم الوسائل التى تنال بها هذه الحقوق، وتربى على الإيمان بها، ويبث فيها هذا الإيمان بقوة.. فتدرس منهاج نهضتها نظرياً وعملياً وروحياً.. على هذه القواعد بنى مصطفى كامل، ومحمد فريد، ومن قبلهما جمال الدين الأفغانى، والشيخ محمد عبده نهضة مصر، ولو سارت فى طريقها هذا ولم تنحرف عنه لوصلت إلى بغيتها».

عندما يعلن حسن البنا أن مدرسة الأفغانى ومحمد عبده هى التى وضعت منهاج النهضة للأمة.. يأتى د. رفعت السعيد ليجعل حسن البنا «سيد عصر الردة والارتداد» عن فكر هذه المدرسة.. مدرسة الإحياء والتجديد!

٤- وعندما يعلن حسن البنا إيمانه بالعقلانية الإسلامية فيقول:

«إن الإسلام لم يحجر على الأفكار، ولم يحبس العقول.. بل جاء يحرر العقل ويحث على النظر فى الكون، ويرفع قدر العلم والعلماء، ويرحب بالصالح النافع من كل شىء.. والحكومة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها.. وإن النظر الشرعى والنظر العقلى لن يختلفا فى القطعى، فلن تصطدم حقيقة علمية بقاعدة

شرعية ثابتة، ويؤول الظن منهما ليتفق مع القطعى.. وإن المجتمع الإنسانى لن يصلحه إلا اعتقاد روحى يبعث فى النفوس مراقبة الله.. فى الوقت الذى يجب على الناس فيه أن يطلقوا لعقولهم العنان لتعلم وتعرف وتخترع وتكتشف وتسخر هذه المادة الصماء، وتتفع بما فى الوجود من خيرات وميزات).

فى الوقت الذى يتألق فيه إيمان حسن البنا بهذه العقلانية الإسلامية.. يأتى د. رفعت السعيد ليجعله «سيد عصر الردة والارتداد - عن عقلانية محمد عبده - إلى سلفية الجمود والتقليد».

تلك مجرد إشارات «لعينات» من «الحرام العلمى»، الذى ضبط الباحث منصور أبو شافعى د. رفعت السعيد متلبساً باقترافه فى حق حسن البنا.. بل وفى حق ذات الإسلام..

لقد وضع هذا الكتاب د. رفعت السعيد فى حالة لا يُحسد عليها.. حال لا يتمناها إنسان لعدو ولا حبيب!.. حتى لكأنه قد عراه ثم قام «بتجريبه».. ليس على الطريقة «العثمانية».. وإنما بالعلم والوثائق والمنطق والحجج والبراهين!..

كان الله فى عون الدكتور رفعت، بعد صدور هذا الكتاب..

وكان الله فى عون الباحث المنصور أبو شافعى، ليوصل مسيرته المظفرة - إن شاء الله - فى تعرية الزيف العلمانى، والغلو اللادىنى، الذى يمثل - فى واقعنا الفكرى - الامتداد السرطانى للحرب «الصلبية - الصهيونية» المعلننة ضد الإسلام والمسلمين..

بقى أن أقول فى ختام هذا التقديم:

إن مما يزيد فى «حيدة وموضوعية ومصداقية» هذا الكتاب، أن كاتبه ليست له أى انحيازات سياسية ولا انتماءات أيديولوجية.. وليس عضواً فى أى جمعية - حتى ولو كانت لدفن الموتى! - بل وليس منحازاً لمجمل المشروع الفكرى والسياسى الذى قدمه وجاهد فى سبيله الإمام الشهيد حسن البنا.. ولعله واحد من نقاد بعض جوانب هذا المشروع.. حتى إنه ختم كتابه هذا بعبارات ذات دلالة مهمة فى هذا المقال، قال فيها:

«إن فكر وتاريخ جماعة الإخوان يحتوى على أخطاء تحتاج من قيادات هذه الجماعة إلى مراجعات عميقة، خصوصاً لبعض أفكار حسن البنا، وبالأخص لفكر سيد قطب. وتحتاج من أهل الفكر وأهل التاريخ إلى القيام بدراسات نقدية جادة لهذا الفكر ولهذا التاريخ.. وهذا ما سنحاوله فى دراسات لاحقة إن شاء الله».

فهو باحث «محايد.. وموضوعى».. وناقد لجوانب من «فكر وتاريخ الإخوان».. فقط هو كاشف عن عوار «الحرام العلمى» الذى اقترفه الدكتور رفعت السعيد.. وعن «خيانة الأمانة» التى يمارسها غلاة العلمانيين..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.. وصلى الله وسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين^(١).

القاهرة فى (رمضان ١٤٢٤هـ / نوفمبر ٢٠٠٣م)

(١) انظره فى كتاب [العلمانيون والحرام العلمى.. مراجعة نقدية لعلمية كتابات د. رفعت السعيد عن حسن البنا]، طبعة مؤسسة الفلاح، القاهرة ٢٠٠٤م.

المسلمون الأوائل؟ .. أم القتلة الأوائل؟!

فطرة فطر الله الناس عليها - أفرادًا وأمما - عبر التاريخ.. وفي كل الديانات والحضارات - الاعتزاز بلحظات الميلاد ووقائع التأسيس.. لقد اتخذ الناس - ولا يزالون - من هذه اللحظات وتلك الوقائع أعيادًا يحيونها ويحتفلون بها، لإنعاش الذاكرة، وتجديد الانتماء..

ولهذه الحكمة، وتجسيدًا لهذه الفطرة جعل الإسلام للمسلمين عيدين:

أولهما: عيد الفطر، احتفالًا بأداء فريضة الصوم - صوم رمضان - التي هي احتفال بتأسيس الدين، عندما نزل الروح الأمين على قلب الصادق الأمين ﷺ - في ليلة القدر - بأولى آيات القرآن الكريم، الذي من بين دفتيه وُلدت أمة الإسلام، بعقيدتها وشريعتها ومنظومة قيمها وأخلاقها وثقافتها وحضارتها.. وبهذا الكتاب المؤسس أقام الجيل القرآني الفريد الدين والدولة والحضارة وغير معنى ومجرى التاريخ..

أما العيد الثاني عيد الأضحى - فهو احتفال باكتمال الدين: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وباكتمال الدين، الذي وضعت لبنات تأسيسه في ليلة القدر.. وبعد حجة الوداع التي أعلن الرسول ﷺ فيها ميثاق الحقوق الدينية والمدنية للعالمين.. شرع الجيل القرآني الفريد في تعميم تحرير الضمائر وتحرير الأوطان.. يخرجون من شاء من جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.. فأزالوا قوى الاستكبار والاستبداد والطغيان.. وتركوا الناس وما يدينون.. حتى دخل الناس - بإرادتهم الحرة - في دين الله أفواجًا.

- وكما فطر الله الناس على الاحتفال بلحظات الميلاد والتأسيس، فلقد فطرهم كذلك، على الاعتزاز بالرموز الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في وقائع الميلاد والتأسيس، ذلك أن أمة من الأمم لا تستغنى عن «الرموز» التي تضيف عليها «الحرمة»، وتتخذ منها «الحوافز» التي تعينها على مواجهة التحديات.. فأرض الوطن.. والعلم الذي يرمز إليه.. والأبطال الذين فنوا في سبيله.. والموروث الذي يمثل هويته وصبغة حضارته.. وكذلك الدين الذي تتدين به الأمة، والذي يمثل الإيمان به جماع مقومات الاجتماع البشرى للأمة.. وما لهذا الدين من عقيدة وشريعة وقيم وتاريخ ومعارك وبطولات ومقدسات ورموز..

إن أمة من الأمم لا تستطيع أن تحيا حياة حققة، ولا أن تجابه التحديات الداخلية والخارجية - وخاصة إذا كانت أمة مستهدفة تاريخياً وحضارياً، كأمتنا العربية والإسلامية - إلا إذا هي أحلت «رموزها» المحل اللائق بها في الاحترام والتوقير.. ليظل لها رصيد الأسوة والقدوة حافزاً يستنهض الهمم ويشحذ العزائم لمواجهة التحديات، ومواصلة السير على طريق التقدم والنهوض..

- ولهذه الحقائق - التي بلغت مبلغ الفطرة التي فطر الله الناس عليها - توجهت سهام الأعداء - من كتبه الغلو العلماني بالأكاذيب والافتراءات لتشويه الرموز الذي أشرفت بأنوارهم حقبة صدر الإسلام - حقبة الميلاد والتأسيس - وكان الهدف العلماني هو إفقاد الأمة الثقة في الجيل المؤسس.. لتفقد الثقة في البعث الحضاري الذي يتطلع لمواصلة السير على منهاج التأسيس والمؤسسين..

- ولقد وصف القرآن الكريم - في آياته المحكمات - جيل الصحابة والتابعين - الجيل القرآني الفريد - بأعظم الأوصاف وأكملها، حتى قال فيهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ السَّابِقِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي حُسْنِهِمْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١٠٠].

- وإذا كان بعض هذا الجيل وهؤلاء الرموز قد اجتهدوا باختلافوا - بل واقتتلوا - فيما سمي «بالفتنة الكبرى» - أواخر عهد عثمان بن عفان [٤٧ق. هـ - ٣٥هـ / ٥٧٧

المسلمون الأوائل؟ .. أم القتلة الأوائل؟!

- ٦٥٦م [رضى الله عنه - وعلى بن أبي طالب [٢٣ق.هـ - ٤٠هـ / ٦٠٠ - ٦٦١م] - كرم الله وجهه - وحتى عام الجماعة [٤١هـ - ٦٦١م] الذى عادت فيه وحدة الأمة، عندما تمت البيعة لمعاوية بن أبى سفيان [٢٠ق.هـ - ٦٠هـ / ٦٠٣ - ٦٨٠م] - رضى الله عنه - إذا كان ذلك قد حدث، فإن هذا الاختلاف، وذلك الاقتتال إنما حدث فى السياسة، التى هى من الفروع والفقهيات.. ولم يحدث - فى يوم من الأيام - أن اختلف الصحابة - أو المسلمون - فى عقائد الدين ولا أركان الإسلام أو الإيمان أو الإحسان.. ولقد كان اختلافهم - فى السياسة والفروع - وما ترتب عليه من اقتتال - هو من الاجتهاد، الذى قد يكون صواباً - لصاحبه أجران - وقد يكون خطأ - لصاحبه أجر واحد..

ولأن هذا الاجتهاد - هو فى الفروع والسياسات والفقهيات - وليس فى العقائد والأركان والأصول وثوابت الدين - فإنه لم يكن - ولن يكون - مخرجاً لأى من فرقائه من الملة والدين والإيمان..

ولقد حسم القرآن الكريمة هذه القضية حسماً لا لبس فيه ولا تأويل، وذلك عندما حكم بأن الاقتتال فى الفروع والفقهيات والسياسات لا يخرج أحداً من أطرافه - بمن فيهم «البغاة» - من إطار الإيمان بالدين الجامع لهؤلاء الفرقاء: ﴿وَلَنْ طَافِقَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٩٠، ١٠). [الحجرات: ٩، ١٠].

ولقد فقه الإمام على بن أبى طالب - وهو قائد أحد فرقاء هذا الاختلاف والاقتتال - فى «الفتنة الكبرى».. فقه هذه الحقيقة التى عبر عنها القرآن الكريم.. وأعلن عنها إعلاناً صريحاً فى ذروة الصراع بينه - ومعه أهل العراق - وبين معاوية بن أبى سفيان - ومعه أهل الشام.. وذلك عندما أعلن أثناء موقعة «صفين» [٣٧هـ - ٦٥٧م] عن الطبيعة السياسية - وليست العقدية الدينية - لهذا الصراع، فقال: فى مواجهة «الغلو الخوارجى» - الذى حكم بالكفر على أطراف هذا الصراع.. قال الإمام عليّ:

«والله لقد التقينا، وربنا واحد، ونبينا واحد، ودعوتنا فى الإسلام واحدة، ولا

نستزيدهم في الإيمان بالله والتصديق برسوله ولا يستزد بدوننا، والأمر واحد - [أمر السياسة] - إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان، ونحن منه براء^(١) ..

إننا، والله، ما قاتلنا أهل الشام على ما توهم هؤلاء - [الخوارج] - من التكفير والافتراق في الدين، وما قاتلناهم إلا لنردهم إلى الجماعة، وإنهم لإخواننا في الدين، تلبتوا واحدة، ورأينا أننا على الحق دونهم^(٢) .. لقد أصبحنا لقاتل إخواننا في الإسلام على ما دخل فيه من الزيف والاعوجاج والشبهة والتأويل فإذا طمعنا في خصلة يلم الله بها شعثننا، وتنادى بها إلى البقية فيما بيننا رغبتنا فيها، وأمسكنا عما سواها^(٣) .

وعندما سئل الإمام علي عن «آخرة» قتلى الفريقين - في «صفين» - قال: «إني أرجو ألا يقتل أحد نقى قلبه، منا ومنهم، إلا أدخله الله الجنة»^(٤) .

أى أنه دعا لمن قتلوا وهم يقاتلونه بالجنة، إذا كان قتالهم له عن اجتهاد - حتى ولو كان اجتهادًا خاطئًا ..

وعندما سئل - رضى الله عنه - عن الذين قاتلوه - من الصحابة - في موقعة «الجمل» [٣٦هـ - ٦٥٦م]:

- أمشركون هم؟

- قال: من الشرك فروا.

- فسئل: أمنافقون هم؟

- فقال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً.

- فسئل: فما هم؟

- فقال: إخواننا بغوا علينا.

(١) ابن أبي حديد [شرح نهج البلاغة] ج ١٧ ص ١٤١ . تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩م .

(٢) الباقلاني [التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة] ص ٢٣٧، ٢٣٨ . تحقيق: محمد الخضير، محمد عبد الهادي أبو ريدة . طبعة القاهرة سنة ١٩٤٧م .

(٣) الإمام علي [نهج البلاغة] ص ١٤٧، ١٤٨ . طبعة دار الشعب . القاهرة .

(٤) الباقلاني [التمهيد] ص ٢٣٧ .

المسلمون الأوائل؟ .. أم القتلة الأوائل؟!

وعندما سمع - كرم الله وجهه - بعض أصحابه - فى وقعة «صفين» - يسبون أهل الشام - معاوية وأصحابه - قال: «إنى أكره أن تكونوا سبابين»^(١).

هكذا أعلن الإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه - الموقف الإسلامى من الصحابة - حتى الذين خالفوه، وحاربوه - فالدين واحد.. والرب واحد.. والرسول واحد.. والدعوة واحدة.. وإنما الخلاف فى أمر السياسة - وهى من الفروع والفقهيات - وعلى وجه التحديد فى الموقف من قتلة عثمان - رضى الله عنه - أيتم القصاص منهم فوراً؟.. أم الانتظار حتى تهدأ أحداث الفتنة التى آثارها هؤلاء القتلة؟..

فبهذا المنهاج تم الإجماع الإسلامى على صيانة رموز الجيل المؤسس - الجيل القرآنى الفريد - بمن فيهم الذين شاركوا فى «الفتنة الكبرى»..

- وانطلاقاً من هذا المنهاج وهذا الفقه، شهد التاريخ على بقاء الجوامع الخمسة التى جمع الإسلام الأمة عليها قائمة وفاعلة، جوامع:

١ - وحدة العقيدة الدينية.

٢ - والشريعة الإسلامية.

٣ - ووحدة الأمة.

٤ - ووحدة الحضارة..

٥ - وتكامل دار الإسلام.. التى امتدت شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً - رغم هذا الاختلاف الذى حدث فى السياسات والفروع.. فكان أن فتح المسلمون فى ثمانين عاماً - فتح تحرير - أوسع مما فتح الرومان فى ثمانية قرون!..

لكن الخبث العلمانى - الذى مثل الامتداد السرطانى للخبث الاستشراقى - أبى ويأبى إلا أن يشوه الجيل المؤسس - على أمل أن يلحق التشويه بالأساس، فلا يتخذ الحاضر الإسلامى من الأساس والمؤسسين القدوة والأسوة والمنهاج فى البعث الحضارى المنشود..

(١) د. محمد عمارة [أضواء على الموقف الشيعى من أصحاب الرسول ﷺ]، ص ٤٨، طبعة مكتبة الإمام البخارى القاهرة سنة ٢٠٠٩م. ود. أحمد الكاتب [السنة والشيعية]، ص ١٢٤، طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٦م. و[نهج البلاغة] ص ٢٠٦.

وإذا كان المقام لا يحتمل الإطالة في الحديث عن هذا الخبث العلماني، فإننا نضرب بعض الأمثلة لبعض النماذج التي سعت على هذا الطريق الخبيث:

١ - فالكاتب حسين أحمد أمين، كتب تحت عنوان: [حقيقة أمر السلف الصالح] يقول: «إن ماضينا هو - إلى حد كبير - من نسج خيالنا نحن وخيال مؤرخينا».

وذهب إلى تشويه صورة السلف الصالح، متهمًا الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص - الذي هو خامس من آمن بالإسلام، وأول من رُمى بسهم في الإسلام، وأحد العشرة المهاجرين الأولين - مؤسسة الأمراء - وقائد ملحمة «القادسية» التي حررت المشرق وأزالت الكسروية الفارسية، والذي شارك في فتح مصر - الذي أزال القيصرية البيزنطية.. قال حسين أحمد أمين عن هذا الرمز العظيم من رموز الجيل القرآني الفريد - الجيل المؤسس:

«إنه لم يكن يعدل إذا قضى.. ولا إذا قسم بين الناس.. بل لم يكن يحسن الصلاة!!.. ولمزيد من التضليل للقراء، كى يتلعوا هذا الطعم الخبيث، ساق هذا الكاتب ذلك الذى افتراه فى شكل «حديث» رواه «جابر بن سمره»!!..

ولقد سألته - يومها - عن المصدر الذى نقل منه هذا «الحديث»؟.. فحاول تضليلي، وقال: إنه نقل عن [الطبقات الكبرى] لابن سعد..

ولما لم أجد لهذا الحديث ذكرًا فى [طبقات ابن سعد]، لجأت إلى مصادر [مفتاح كنوز السنة] و [المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف] فوجدت الحديث فى [البخارى] و [مسلم] و [الموطأ] و [مسند الإمام أحمد].. ووجدت الجريمة الكبرى التى اقترفها الكاتب عندما تعامل مع متن الحديث على طريقة [لا تقربوا الصلاة] و [ويل للمصلين]!!..

فأصل الحديث هو شكوى بعض أعراب الكوفة سعد بن أبى وقاص إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، التى قالوا فيها: «إن سعدا لا يحسن يصلى»!!..

أما بقية الحديث - التى حذفها حسين أحمد أمين - فتقول: إن عمر بن الخطاب أرسل إلى سعد بن أبى وقاص وقال له:

المسلمون الأوائل؟ .. أم القتل الأوائل؟!

- «يا أبا إسحاق، إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تُصلي»..

فقال سعد بن أبي وقاص - أبو إسحاق:

- «تعلمنى الأعراب الصلاة؟! أما أنا، والله، فإنى كنت أصلى بهم صلاة رسول الله ﷺ ما أحرَمَ عنها، أصلى صلاة العشاء، فأركد - [أطبل وأديم وأمد] - فى الأولين، وأخف - [أقطر] - فى الآخرين».

فقال عمر بن الخطاب: ذاك الظن بك يا أبا إسحاق».

هكذا حذف حسين أحمد أمين حوار عمر بن الخطاب مع سعد بن أبي وقاص، الذى تم فيه تفنيد شكوى بعض أعراب الكوفة ضد سعد.. وقدم - فقط - دعوى أنه لم يكن فى القضية، ولا يقسم بين الناس بالسوية، ولا يحسن الصلاة.. ثم أغلق الأقواس موهماً قارئه بتمام «الحديث»^(١).. وليوحى إلى القارئ - بهذا الغش: أن رسول الإسلام ﷺ لم يحسن تربية أصحابه، حتى فيما يتعلق بإقامة الصلاة!!..

ولقد نشر حسين أحمد أمين هذا الذى كتبه تحت عنوان «التنوير»!!.. ويومها نشرت - فى الرد عليه - الدراسة التى جعلت عنوانها: [حسين أحمد أمين: هل هو أمين؟!].

٢ - ومثال ثان على خبث الغلو العلمانى فى تشويه صورة صدر الإسلام ورموز الجيل القرآنى الفريد، هو وصف المستشار محمد سعيد العشماوى [١٩٣٢ - ٢٠١٣م] صحابة رسول الله ﷺ بأنهم قتل!! «كانوا يتسابقون فى الاغتيالات إرضاء للرسول.. ولم يميزوا بين النبوة والمُلْك، فحجبوا عن مفهوم النبوة، وعُزلوا عن صميم الرسالة.. ولقد ارتد كثير منهم إلى خُلُق الجاهلية وطباعها فى فترة وجيزة بعد وفاة عمر بن الخطاب»^(٢)!!

وحتى صاحب الأول والخليفة الأول أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - فإن العشماوى قد اتهمه بأنه «قد أحدث زُيوعاً فى الخلافة، واشتداداً فى نزعة الغزو»..

(١) حسين أحمد أمين [حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية] ص ١١٢ طبعة بيروت سنة ١٩٨٥م و[الاجتهاد فى الإسلام] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

(٢) محمد سعيد العشماوى [أصول الشريعة] ص ١٣٨، ١٤٩ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩م.

وانتشاراً للجشع والفساد.. وظهوراً للقبلية والطائفية.. وأنه قد اغتصب حقوق النبي.. وأتى بدين جديد غير دين محمد^(١)!!

٣- ومثال ثالث على هذا الخبث العلماني، الذي سعى أصحابه إلى تشويه صورة صدر الإسلام ورموز الجيل القرآني الفريد، الذين أقاموا الدين وأسسوا الدولة ووضعوا قواعد الحضارة وغيروا مجرى التاريخ.. ما كتبه د. محمد عابد الجابري [١٩٣٦ - ٢٠١٠م]، الذي وصف عصر التأسيس ورموزه بقوله:

«إن العقد الاجتماعي الذي تأسست عليه الدولة والكيان الإسلامي بالمدينة كان عقدًا حرييًا.. وإن الهجرة إنما كانت من أجل تنظيم الحرب ضد قريش.. وإن الرسول ﷺ والصحابه المهاجرين قد بدأوا حياتهم - في المدينة - بقطع الطرق على قريش والقبائل الأخرى.. وإن الغنيمة قد صارت حاضرة في الغزوات والسرايا، وجزءًا أساسيًا في الكيان المادي لجماعة المسلمين منذ تأسيس هذا الكيان بالمدينة^(٢)!!

هكذا تبلور في ثقافتنا المعاصرة تيار للغلو العلماني، تفوق عدد من كتابه على أساتذتهم من غلاة المستشرقين، الذين مثلوا كتيبة من كتائب الغزو الاستعماري الأمبريالي الغربي، والذين سعوا إلى تشويه صورة صدر الإسلام، كي لا يستلهم المسلمون مثلها ورموزها في معركة التحرر والتقدم والنهوض..

وعلى هذا الدرب الخبيث الذي أراد أصحابه تشويه الأساس والمؤسسين.. لقطع الطريق على الساعين للبعث الإسلامي، الداعين لإصلاح آخر هذه الأمة بما صلح به أولها.. على هذا الدرب الخبيث سار الكاتب الصحفي إبراهيم عيسى في روايته (القتلة الأوائل) - لقد أراد بها تقديم المؤسسين الأوائل في صورة القتلة الأوائل.

فالذين رضى الله عنهم ورضوا عنه هم عند حسين أحمد أمين - لم يكونوا يعدلون في القضية، ولا يقسمون بالسوية، ولا يحسنون الصلاة! وهم - عند سعيد العشماوى

(١) محمد سعيد العشماوى [الخلافة الإسلامية] ص ٨٦، ١٠٢ - ١٠٥، ٢٣٨، ٥٠. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م.

(٢) د. محمد عابد الجابري [فهم القرآن - القسم الثالث] ص ١٤، ٢١، ٢٤، ٣٨٢. طبعة بيروت سنة ٢٠٠٨م.

المسلمون الأوائل؟ .. أم القتلة الأوائل؟!

القتلة، الذين كانوا يتسابقون فى الاغتيالات إرضاء للرسول ﷺ .. وهم - عند محمد عابد الجابرى - قُطاع الطرق فى سبيل الغنائم التى قام عليها الكيان الذى أسسوه فى المدينة المنورة!! .. وهم (القتلة الأوائل) - عند إبراهيم عيسى - فى روايته التى زعم أنها ملتزمة بوقائع التاريخ.

ولم يسأل هؤلاء الكذبة أنفسهم:

- كيف للقتلة.. الذين ارتدوا إلى طباع الجاهلية.. أن يقيموا الدين الذى أضاء ويضىء العالمين.. والذين أسسوا الحضارة التى مثلت المنارة التى اهتدت بها الأمم والشعوب^(١)؟!

(١) انظره بكتاب (المسلمون الأوائل .. أم القتلة الأوائل؟!)، طبعة هدية مجلة (الأزهر).

امتيّاز الإناث على الذكور في الميراث والنفقة

(١)

عندما كتبت كتابي: (هل الإسلام هو الحل.. لماذا.. وكيف؟) عقدت فيه فصلاً عنوانه: «التحرير الإسلامي للمرأة».. وعرضت فيه لمشكلات المرأة في عالم الإسلام، والحاجات الماسة إلى تحريرها من القيود والأغلال التي حملت منها أكثر مما حمل الرجال.. ثم أبرزت الفلسفة الإسلامية المتميزة في هذا التحرير، والنموذج المتميز الذي قدم الإسلام - منذ عصر الإسلام - لعلاقة النساء بالرجال، وتساويهما - كشقين متكاملين.. وليس كنديين متماثلين - ودور كل منهما في بناء العمران الإنساني..

وفي صفحات ذلك الفصل، ناقشت العديد من الشبهات المثارة في هذا الميدان، سواء منها تلك التي يثيرها - ضد الإسلام - نفر من المتغربين والعلمانيين - من أنصار النموذج الغربي لتحرير المرأة - أو تلك التي يثيرها - باسم الإسلام - نفر من أهل الجمود والتقليد - الذين يتعبدون بألوان من العادات والتقاليد والأعراف، التي أضفوا عليها - زوراً وبهتاناً - قدسية الدين!..

ومن الشبهات التي عالجتها - في ذلك الفصل - شبهة التمايز بين الرجال والنساء في الميراث، والتي يزعم مثيروها أنها دليل على انتقاص الإسلام من مكانة المرأة على انتقاص الإسلام من مكانة المرأة وكرامتها، وانتفاء المساواة بين النساء والرجال.. ولقد أثبتُ - في الرد على مثيري هذه الشبهة - أن التمايز في الميراث لا تحكمه الذكورة والأنوثة، وأنه محكوم بمعايير ثلاثة:

أولها: درجة القرابة بين الوارث - ذكراً أو أنثى - وبين المورث - المتوفى - فكلما اقتربت الصلة زاد النصيب في الميراث..

وثانيها: موقع الجيل الوارث من التتابع الزمني للأجيال.. فالأجيال التي تستقبل الحياة عادة يكون نصيبها في الميراث أكبر من نصيب الأجيال التي تستدبر الحياة، وذلك بصرف النظر عن الذكورة والأنوثة للوارثين.. فالبنت ترث أكثر من الأم - وكلتاها أنثى - بل وترث أكثر من الأب! والابن يرث أكثر من الأب - وكلاهما من الذكور!..

وثالثها: العبء المالي الذي يوجب الشرع على الوارث القيام به حيال الآخرين.. وهذا هو المعيار الذي يثمر تفاوتاً بين الذكر والأنثى ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١].

لأن الذكر الوارث هنا - في حالة تساوى درجة القرابة والجيل - مكلف بإعالة زوجة أنثى.. بينما الأنثى - الوراثة - إعالتها فريضة على الذكر المقترن بها - وحالات هذا التمييز محدودة جداً إذا ما قيست بعدد حالات المواريث .

وبهذا المنطق الإسلامى يكون الإسلام قد ميّز الأنثى على الذكر في الميراث، لا ظلماً للذكر، وإنما لتكون للأنثى ذمة مالية تحميها من طوارئ الأزمان والأحداث وعاديات الاستضعاف!..

* * *

وإبان الإعداد والاستعداد لانعقاد مؤتمر المرأة - فى «بكين» [٢٠ - ٢٥ سبتمبر ١٩٩٥م] زارتنى مجموعة من السيدات الفضليات العاملات فى الحقل النسائى، وكن يرتبن أوراقهن وأفكارهن للاشتراك فى المؤتمر... ودار التساؤل والحوار حول حقيقة الرؤية الإسلامية والموقف الشرعى الذى يجب تقديمه لهذا المنتدى العالمى فى مشكلات المرأة وقضايا تحريرها..

وعندما طرحت عليهن الرؤية التى كتبته فى كتابى (هل الإسلام هو الحل) بدت الدهشة على وجوههن جميعاً، لأنها كانت المرة الأولى التى يسمعن فيها هذا «المنطق الإسلامى» الذى لا يقف من هذه الشبهة المثارة والشائعة موقف الدفاع أو الاعتذار!.. أو يقف من هذه الشبهة المثارة والشائعة موقف الدفاع أو الاعتذار!.. أو الترديد لمقولة: إن الإسلام قد أنصف المرأة، فجعلها ترث نصف نصيب الذكر بعد أن كانت لا ترث مطلقاً!

امتيان الإناث على الذكور فى الميراث والنفقة

ويومئذ أدركت أن هذه القضية - ومثلها من «القضايا - المشكلة» - فى حاجة إلى المزيد من الدراسة غير التقليدية، بمنطق غير تقليدى، وب عقل إبداعى، غير اتباعى، وبأسلوب لا يكتفى بترديد المتعارف عليه فى الساحة الفكرية.. ثم إذاعة وإشاعة هذا المنطق الإسلامى الجديد بين كل المتهمين بقضية المرأة وأوضاعها ومشكلات حريتها وتحريضها، الإسلاميين منهم والعلمانيين على حد سواء.. وذلك حتى يثوب الجميع إلى الحقيقة الإسلامية، ويقترب الفرقاء المختصمون من الكلمة السواء التى جاء بها الإسلام.

* * *

وعقب انتهاء مؤتمر المرأة - فى بكين - شاركت فى ندوة حول أعماله - عقدت بنادى أعضاء هيئة التدريس بجامعة القاهرة - وفى الحديث الذى أسهمت به فى تلك الندوة، أشرت إلى هذا الاجتهاد الذى قدمته عن فلسفة الميراث ومعاييره فى الإسلام.. وكما كانت سعادتى بالغة عندما سمعت من الأستاذ الدكتور أبو اليزيد العجمى - أستاذ الفلسفة بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة - عن أن هناك دراسات فقهية، قد أنجزها أستاذ بدار العلوم، تبرهن - بالأرقام والحالات التطبيقية - على فساد القول بظلم الإسلام للمرأة فى الميراث.. وتقدم - بالجدول الإحصائية - الحالات التى ترث فيها النساء مثل الرجال.. وتلك التى تتميز فيها وتزيد موارث النساء على موارث الرجال.. وتلك التى ترث فيها النساء دون الرجال.. وأيضًا الحالات القليلة التى ترث فيها النساء أقل من الرجال.

ويومئذ تمنيت أن أرى هذه الدراسة، وأن أجدها مطبوعة شائعة.. ذائعة فى حياتنا الفكرية والثقافية، لنقول للجميع - إسلاميين وعلمانيين - من الرجال والنساء: هذه هى حقيقة الإسلام!.. ولنضع حقائق العلم مكان الأكاذيب والشبهات.

ولقد شاء الله - سبحانه وتعالى - أن يحقق لى هذا الأمل، عندما أهدانى صاحب هذه الدراسة - الأستاذ الدكتور صلاح سلطان نسخة من بحثه هذا.. وأذن لى فى تقديمه إلى قراء هذه السلسلة (فى التنوير الإسلامى) - وذلك تعميمًا لفائدته، وأداءً لحق العلم على العلماء: أن يبينوه للناس ولا يكتُمونه..

فالحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات.. والذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله^(١).

(٢)

فى دراسته - غير المسبوقه - عن ميراث المرأة وقضية المساواة - قدم الأستاذ صلاح سلطان، الأدلة المادية - بالاستقراء والأرقام.. والجداول الإحصائية.. على امتياز المرأة على الرجل فى الميراث.. وليس فقط على «الإنصاف» أو «المساواة»!

فمن بين حالات الميراث، هناك أكثر من ثلاثين حالة ترث فيها المرأة أكثر من الرجل أو مثله، أو ترث هى ولا يرث هو.. بينما ميراثها نصف ما يرث الرجل لا يتعدى أربع حالات.. الأمر الذى سيلقم الذين يعرفون بما لا يعرفون، من الذين يتحدثون عن ظلم الإسلام للمرأة فى الميراث، أحجاء بعدد هذه الحالات!..

ولا يحسبن أحد أن فى امتياز المرأة فى الميراث ظلماً للرجل.. فالشارع الحكيم، الذى هو الأعلم بم خلق، قد راعت شريعته الحكيمة السمحاء عطاء المرأة اللامحدود للأسرة والأمة.. وقدرت شيوع الاستضعاف بين النساء أكثر مما هو بين الرجال، فأرادت هذه الشريعة السمحاء تكريم النساء فى هذا الميدان المادى، بعد أن كرمتهن بكامل المساواة فى التكليف والجزاء والحساب، والمشاركة فى العمل العام ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿[التوبة: ٧١، ٧٢].

ثم، إن تكريم المرأة وامتيازها، وتأمينها من مخاطر الاستضعاف، ومكافأتها على عطائها اللامحدود واللامحسوب، هو فى النهاية تكريم للرجل، لأنها أمه وزوجه

(١) انظره بكتاب (ميراث المرأة وقضية المساواة)، الدكتور صلاح سلطان، نهضة مصر ١٩٩٩م.

امتياز الإناث على الذكور في الميراث والنفقة

وأخته وابنته ورحمة وسكنه وسكنته.. فالنساء - في فلسفة الإسلام - شقائق الرجال،
ولسن الأعداء للرجال.

* * *

والآن.. يستكمل الدكتور صلاح سلطان هذه الدراسة المتميزة فيقدم لنا امتيازاً
إسلامياً جديداً للمرأة، في ميدان النفقة، يجسد هو الآخر هذا الموقف الإسلامى
الذى أنصف النساء على النحو الذى لم يحدث فى أى حضارة من الحضارات أو
فلسفة من الفلسفات.. أو ثقافة من الثقافات.

ونحن على يقين من أن هذه الدراسة الجادة والجديدة والتميزة، إنما تمثل
بالنسبة لكل تياراتنا الفكرية - إسلامية وعلمانية - دعوة لإعمال العقل كي نكتشف
الجديد والجديد من مميزات وامتيازات شريعة الإسلام..

وصدق الله العظيم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]..

والله نسأل أن ينفع بهذه الدراسة.. وبسابقته.. إنه سبحانه وتعالى أفضل مسئول
وأكرم مجيب^(١)..

(١) انظره بكتاب (نفقة المرأة وقضية المساواة)، الدكتور صلاح سلطان.

العلامة الدكتور موريس بوكاي

[١٣٣٨ - ١٤١٨ هـ - ١٩٢٠ - ١٩٩٨ م]

* ولد «موريس بوكاي» [١٣٣٨ - ١٤١٨ هـ - ١٩٢٠ - ١٩٩٨ م] لعائلة فرنسية كاثوليكية، بمدينة «بون ليفيك»، الواقعة في قلب ما يعرف ببلاد الأوج، بإقليم نورماندى، في شمال غرب فرنسا، في التاسع عشر من يولية سنة ١٩٢٠ م - الثالث من ذى القعدة سنة ١٣٣٨ هـ.

* وتلقى تعليمه حتى حصل على الشهادة الثانوية في مدرسة كاثوليكية، بالمدينة التي ولد فيها.

* وفي سنة ١٩٣٥ م - وهو في الخامسة عشرة من عمره - وأثناء دراسته بالمدرسة الكاثوليكية الثانوية - أعلن الأب «بيرونيه» - أحد علماء الأحافير الجيولوجية - عن اكتشاف رسوم بشرية بكهف في جنوب إسبانيا، يرجع تاريخها إلى ١٥,٠٠٠ (خمسة عشر ألف عام).

وكان كتاب الدين، الذى يدرسه موريس بوكاي بالمدرسة، يقول: إن تاريخ ظهور الإنسان الأول على الأرض يرجع إلى ٤,٠٠٠ (أربعة آلاف عام قبل المسيح!).. فأصابت الحيرة التلميذ موريس بوكاي.. وسأل الأب - [القس] - مدرس الدين:

- أى التاريخين أصدق؟!

فأجابه:

- من فضلك لا تخلط بين شيئين مختلفين. هناك العلم من جانب والدين من جانب آخر، وعندما يقع تعارض بينهما، فإن مايقوله الدين هو الحقيقة!

فقال الطالب للأستاذ:

- لا يمكن! هذا مستحيل. هذه حقيقة علمية تمت البرهنة عليها، كيف يمكن إرجاع ظهور الإنسان على الأرض إلى ما يقوله كتاب الدين؟!

* ولقد حكى موريس بوكاي هذه الواقعة سنة ١٩٨٧م، فى لقاء مع علماء وأطباء أمريكيين - بمدينة شيكاغو - كحادثة كان لها أبلغ الأثر فى حياته فيما بعد.. وأضاف: «إن إنجيل لوقا ينص على أن ما بين عيسى وآدم هو ٧٦ جيلاً فقط.. وهذا مستحيل علمياً، لأنه لا يزيد على ٢,٠٠٠ عام، بينما عمر الإنسان على الأرض أكثر من ذلك بكثير».

* ويحكى موريس بوكاي عن مناهج التعليم الفرنسية التى درسها، فيقول: «لقد علمونى منذ صغرى أن محمداً هو مؤلف القرآن.. وإن معظم الغربيين قد غُذُوا بأفكار غير صحيحة عن الإسلام، كما حدث لى».

* وفى مطلع الخمسينيات - وبعد تعمقه فى دراسة الكتب المقدسة اليهودية - والمسيحية - التحق موريس بوكاي بالجمعية الفرنسية للمصريات - التى تأسست بباريس سنة ١٩٢٣م - فدرس اللغة الهيروغليفية - لغة الحضارة المصرية القديمة -..

* وفى عقد الستينيات - وإبان مزاولته مهنة الطب بباريس - كان يعالج بعض المرضى المسلمين.. وكما يقول: لقد أتيت لى فرصة التحدث إليهم عن الدين. وكنت أصارحهم بأن القرآن من تأليف إنسان.. وليس وحياً من الله.. ولكن ردودهم واجهتنى.. وجعلتنى أتساءل عما إذا كنت مخطئاً؟.. ووجدت نفسى مضطراً إلى دراسة اللغة العربية - وأنا فى الخمسين من عمرى - فالتحقت فى خريف سنة ١٩٦٩م. بجامعة السوربون - بمعهد اللغات الشرقية - كى أدرس اللغة العربية دراسة نظامية، وتخرجت، بعد أربع سنوات سنة ١٩٧٢م.. وقرأت الأدب العربى، وقرأت [الأيام] لطلح حسين [١٣٠٧ - ١٣٩٣ هـ - ١٨٩٩ - ١٩٧٣م].. وقارنت بين الفصحى وبين اللغة الحديثة، فوجدت لغة القرآن تعلقو على أى مقارنة.. وعندما أنهيت دراستى بمعهد اللغات الشرقية أصبحت قادراً على أن أقرأ القرآن بلغته العربية، ودون أفكار مسبقة، ولم أكن - فى البداية - أعتقد مطلقاً أن القرآن يمكن أن يكون حقيقة كلمة الله ووحيه.

* وهكذا اجتمعت في تكوينه الثقافى المعارف الفرعونية، والثقافة العربية، مع ثقافته الدينية - المسيحية واليهودية - والفكر الأوروبى الحديث.. وأسهم كل ذلك فى تحديد اهتماماته البحثية والعلمية. ولقد قرأ ترجمة المستشرق الفرنسى «جاستون بلاشير» [١٩٠٠ - ١٩٧٣ م] للقرآن - طبعة سنة ١٩٤٩ م - ففتحت له آفاقاً لم تكن فى حسبانته آنذاك عن القرآن والإسلام.

* ولقد زار مصر - للمرة الأولى - فى صيف سنة ١٩٧٤ م.. واقترح على حكومتها القيام بمشروع بحثى لتحديد من هو فرعون الخروج، الذى طارد سيدنا موسى - عليه السلام - وبنى إسرائيل، والذى لقي حتفه غرقاً فى البحر.. والذى جاء الحديث عنه فى التوراة والقرآن..

ولقد أتاحت له فرصة التعرف على السيدة جيهان السادات - وكان قد عالج قريباً لها بباريس قبل سنوات - فساعدته على إقناع الرئيس محمد أنور السادات [١٣٣٧ - ١٤٠١ هـ - ١٩١٨ - ١٩٨١ م] بفحص مومياءات الملوك الفرعنة: رمسيس الثانى [١٢٠٩ - ١٢٢٣ ق.م] وابنه الملك منفتاح [١٢٢٣ - ١٢١١ ق.م] وفى فحصه لمومياء منفتاح اكتشف أن عليها الكثير من حبيبات ملح البحر، وأنها محفوظة بشكل سليم، الأمر الذى قاده إلى الاعتقاد بأن هذا الفرعون قد مات غرقاً فى البحر.. وأن جثته قد أنقذت فور غرقه، وقبل أن تتحلل.. وأنها حُفظت..

ولقد أصابه الذهول عندما قرأ فى القرآن: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ﴾ [يونس: ٩٢].. فتأكد أن غرق فرعون الخروج - منفتاح - مذكور بالقرآن، مع نجاة جثمانه وهو ما انفرد به القرآن، ولم يتعرض له الكتاب المقدس.

وهكذا انفتحت الأبواب أمام موريس بوكاي لدراسة الكتب المقدسة الثلاثة - التوراة والإنجيل والقرآن - فى علاقاتها بالعلم الحديث.

* ولقد رشحه الرئيس السادات ليكون ضمن الفريق الطبى المعالج للملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود [١٣٢٤ - ١٣٩٥ هـ - ١٩٠٦ - ١٩٧٥ م] - عاهل السعودية - فاستمع إلى أحاديث الملك فيصل عن الإسلام..

* ولقد نشر كتابه عن [التوراة والإنجيل والقرآن والعلم] سنة ١٩٧٦ م..

* وفي العام الذي نشر فيه هذا الكتاب - سنة ١٩٧٦ م - ألقى محاضرة بأكاديمية الطب الوطنية الفرنسية بعنوان: «معطيات فسيولوجية وجينية في القرآن».. طرح فيها حقائق علمية قرآنية، أصابت أعضاء الأكاديمية الطبية بالذهول..
ولقد سأله أحد الأطباء:

- هل أنت واثق من أن النص الحالي من القرآن هو النص الأصلي؟!
فأجابه:

- عليك زيارة المكتبة الوطنية الفرنسية، لتجد فيها نصًا قرآنيًا يعود إلى القرن الثامن الميلادي، وقم بمقارنته مع النص الحالي المنتشر للقرآن..

* وفي سنة ١٩٧٩ م - عندما غزا الاتحاد السوفيتي أفغانستان.. شارك موريس بوكاي بالمؤتمر الإسلامي الذي عقد - بلندن - لإدانة هذا الغزو.

* وفي مطلع الثمانينيات، قرر موريس بوكاي التفرغ لأبحاثه العلمية ومقارنته بين الديانات، فأغلق عيادته - بباريس - سنة ١٩٨٢ م.

* ولقد أحدثت أبحاثه - التي انتصرت لمصدقية القرآن وإعجازه العلمي - في الرواية والدراية - وتفردته بمطابقة إشاراته العلمية لحقائق العلم الحديث - أحدثت ثورة فكرية في الغرب والشرق..

* ولقد التقاه الشيخ محمد الغزالي [١٣٣٥ - ١٤١٦ هـ - ١٩١٨ - ١٩٩٦ م] بالجزائر - بملتقى الفكر الإسلامي - وقال عنه - بكتابه [مائة سؤال عن الإسلام]: «لقد سمعته يتحدث بإعجاب واحترام شديدين عن أسلوب القرآن في تناوله للحقائق العلمية والتاريخية، وكيف عُصم من الأخطاء التي تورطت فيها كتب مقدسة أخرى..

وقد سأله أحد حضور ملتقى الفكر الإسلامي:

- لِمَ لم يعلن إسلامه؟!

فأجاب:

- قلما أسير إلا متوضئًا!..

* وقال عنه صديقه التونسي الدكتور محمد الطالبى [١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م] - أستاذ التاريخ الإسلامى وعميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجامعة التونسية: «إنه لم يعلن يوماً عن إسلامه، ولكن حديثى معه لم يشعرنى بأى فارق بينى وبينه فى الدين.. ولقد كان يحب الإسلام، ويدافع عنه.. ولقد أخبرتنى زوجته أنه أوصاها بأن تحضر له شيخاً ليقرأ القرآن فى جنازته - ولقد فعلت كما أوصاها».

* ولقد ترجم كتاب [التوراة والإنجيل والقرآن والعلم] إلى سبع عشرة لغة - منها العربية والإنجليزية والأندونيسية والفارسية والصربكرواتية والتركية والأوردية والكجوراتية والألمانية.. إلخ.. إلخ.. ونفدت طبعته الأولى فى ستة أشهر، وصار يطبع بانتظام كل خمسة عشر شهراً.. وصدرت له حتى سنة ٢٠١٧م ٢٤ طبعة.. ووزع منه ١٥ مليون نسخة.. وأصبح أداة رئيسية فى الحوار الدينى الذى يهتدى به كثير من الغربيين للدخول فى الإسلام.

* ولمورييس بوكاي - غير هذا الكتاب الفذ والفريد - آثار فكرية أخرى، منها:

١ - [من أين أتى الإنسان؟.. إجابات العلم والكتب المقدسة] سنة ١٩٨١م.. والذى ترجم إلى خمس لغات.. ولقد نال به جائزة الكتاب الذهبى الفرنسية سنة ١٩٨٦م.

٢ - [مياوات الفراعة. فحوص طبية معاصرة].. والذى نشرت ترجمته الإنجليزية سنة ١٩٩٠م.

٣ - [إعادة قراءة القرآن]..

٤ - [محاضرة عن «القرآن والعلم الحديث»] بمعهد الكومنولث البريطانى - بلندن.

٥ - [تأملات فى القرآن] سنة ١٩٨٩م - بالاشتراك مع صديقه الدكتور محمد الطالبى.

* ولقد منحته أكاديمية الطب الفرنسية جائزة عن مجموع أعماله العلمية سنة ١٩٩١م.

* ولقد بلورت أبحاثه معالم مدرسة فكرية - فى الغرب - عُرفت بـ «البوكايية»،
تنتصر للتدين الذى يربط الدين - وخاصة الإسلام - بالعلم الحديث..

كما أثارت - أبحاثه هذه - معارضة بعض الملاحدة - منهم التركى «تاجر إديس»،
والباكستانى «برويز هودباى»، والدكتور «وليم كامبل» صاحب كتاب: [القرآن
والكتاب المقدس فى نور التاريخ والعلم].. الذين رأوا فى «البوكايية» دعمًا للتدين
فى عصر العلم، وفتحًا أمام تمدد الإسلام فى المجتمعات الغربية التى قادها العلم
المادى إلى اللاإرادية والإلحاد..

* وبعد هذا الجهد العلمى والبلاء الحسن فى الفكر الدينى والقراءة العلمية
لتاريخ الأديان.. صعدت روح موريس بوكاى إلى بارئها فى ١٨ فبراير سنة ١٩٩٨ م
- شوال سنة ١٤١٨ هـ -.. عليه رحمة الله.

* * *

ومن كلماته عن القرآن والإسلام:

* «لقد جعل نبي الإسلام مداد أقلام العلماء أفضل عند الله من دماء الشهداء».
* «إن العلم والدين فى الإسلام توأمان، ولا تزال هذه التوأمة قائمة حتى الآن،
وكلما فتح العلم بابًا فتح لنا أبوابًا إلى فهم آيات القرآن».

* «ولقد اخترت من آيات القرآن ما بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ آية محملة بإشارات
علمية، وقمت بتبويبها وفقًا لعلوم متعددة، وتملكتنى الدهشة العظيمة، وقلت لنفسى
حينها: إنه بالنظر إلى تاريخ العلوم يبدو لى أنه من المستحيل أن يكون إنسان قد كتب
هذا منذ أربعة عشر قرنًا».

* «إن القرآن فوق المستوى العلمى للعرب، وفوق المستوى العلمى للعالم،
وفوق المستوى العلمى للعلماء فى العصور اللاحقة، وفوق مستوانا العلمى المتقدم
فى عصر العلم والمعرفة فى القرن العشرين، ولا يمكن أن يصدر هذا عن أمى، وهذا
يدل على ثبوت نبوة محمد، وأنه نبي يوحى إليه».

* «إن القرآن هو الكتاب الوحيد الذى من نوعه بين أيدينا الذى جاء بمعارف تسبق تدوينه بقرون.. ولقد انبهرت بما جاء بالقرآن من إشارات إلى معارف ومفاهيم لم يكتشفها العلم إلا فى العصر الحديث».

* «لم يصطدم الإسلام أبداً مع العلم، بل على العكس ألقت المعارف الحديثة أضواء جَلَّتْ لنا معانى القرآن وما فيه من روعة».

* «لقد حاولت خلال دراستى هذه - وأظننى قد نجحت - التزام الأسلوب الموضوعى المجرد الذى يتبعه الطبيب عند فحص مريض جديد.. إذ يمحس كل أعراض المرض بعناية حتى يصل إلى التشخيص السليم.

وأصارحكم القول، أننى عندما بدأت الدراسة لم يكن لدى أى اقتناع بالإسلام.. وكلما مضيت فى الدراسة ازداد اقتناعى حتى أتانى اليقين فى النهاية: «أن هذا القرآن إن هو إلا وحي أو حاه الله إلى نبيه».

* «لقد ظهر بجلاء مدى تطابق النص القرآنى مع المعارف الحديثة، على عكس مقولات الكتاب المقدس... إن التناقضات بين الكتاب المقدس - بعهديه القديم والجديد - فى جانب.. وبين القرآن والعلم الحديث فى جانب آخر.. إنما ترجع إلى التباين فى المصدر.. وملابسات التدوين لكلا الكتابين.. فبينما يضم العهد القديم مجموعات من تراث الأدب الشعبى والدينى والتاريخى لبنى إسرائيل.. وضعه وعدَّ له البشر طوال تسعة قرون.. كما يضم العهد الجديد الأناجيل الأربعة التى وضعها متى ولوقا ومرقس ويوحنا إلى جانب رسائل بولس وغيرها..

فإن القرآن قد سلم - منذ نزوله - من تدخلات البشر.. فمن بداية نزول الوحي كان النبي والمسلمون معه يحفظون ما ينزل منه آية آية - قبل جمعه وترتيبه فى حياة محمد - حتى وصل إلينا اليوم كيوم نزل بلا تحريف ولا تعديل».

* «إن مقارنة القرآن بمستوى المعارف السائدة فى القرن السابع الميلادى - عصر نزول القرآن - ليدفع أى عالم منصف إلى القطع باستحالة أن يكون القرآن من وضع محمد، ويؤكد المكانة الفريدة للقرآن بين سائر النصوص ككتاب تلقته البشرية نصًّا يفوق مستوى معارف عصره، لم يأت بشر فيه بحرف أو كلمة أو عبارة من صنعه».

* «إن مفكرًا مرموقًا مثل ديكارت [١٥٩٠ - ١٦٥٠م] فى القرن السابع عشر، وغيره من المفكرين - حتى القرن التاسع عشر - ما فتئ يردد نظرية أرسطو [٣٨٤ - ٣٢٢ق.م] التى تفترض أن المياه تتكثف فى مغارات باردة داخل الجبال ثم تتجمع فى بحيرات جوفية تنطلق منها العيون.

وقد أثبت علم الهيدرولوجيا أن دورة المياه الجوفية إنما تتم خلال عمليات تشرب التربة المسامية بالمياه، ثم تتسرب منها إلى باطن الأرض، وهو ما ينطبق تمامًا على التعبير القرآنى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١].

* * *

* هكذا تحدث العالم العلامة الدكتور موريس بوكاى عن القرآن والعلم.. وعن تفرد النص القرآنى بالمصادقية - رواية ودراية - دون الكتب الدينية الأخرى..

كتاب [القرآن والتوراة والإنجيل والعلم]

فى هذا الكتاب - [القرآن والتوراة والإنجيل والعلم] - الذى ربما كان الأول فى بابہ - والذى عرض فيه العلامة الدكتور موريس بوكای [١٣٣٨ - ١٤١٨ هـ - ١٩٢٠ - ١٩٩٨ م] الكتب المقدسة الثلاثة على حقائق العلم الحديث، مقارنةً بينها فى مصداقية «الرواية» و«الدراية».. يتحدث هذا العالم الفرنسى عن المناخ والخلفية التى كانت للإسلام فى الغرب عندما بدأ البحث فى موضوع هذا الكتاب.. فيقول:

«فى بلادنا الغربية.. نجد الأحكام غير الصحيحة، المؤسسة على مفاهيم مغلوطة، والتى صدرت ضد الإسلام، هى من الكثرة بحيث يصعب جدًّا على المرء أن يكون فكرة سليمة عما عليه الإسلام فى الواقع.. وهذه الأحكام المغلوطة تمامًا، والتى تصدر عن الإسلام فى الغرب هى ناتجة عن الجهل حينًا وعن التسفيه العامد حينًا آخر..»

بل إننا لنصاب بالذهول عندما نقرأ فى أكثر المؤلفات جدية أكاذيب صارخة، برغم أن مؤلفى هذه المؤلفات هم بالمبدأ مؤلفون أكفاء..

- إن الله عند المسلم ليس إلهاً آخر سوى رب موسى والمسيح..

- وليس الجهاد مطلقاً ما يعرف بالـ kherem فى التوراة، فالجهاد لا يسعى إلى الإبادة، بل يسعى لأن يمد إلى مناطق جديدة حقوق الله والإنسان..

لقد كان الإسلام فى بلادنا، ومنذ عهد طويل، موضوع ما يسمى بالتشهير الأذى. إن أى غريب قد امتلك معرفة عميقة للإسلام يعرف إلى أى حد شوه تاريخ الإسلام وعقيدته وأهدافه.

إن هناك أجزاء من القرآن، وخاصة ما كانت لها ارتباطات بمعطيات العلم، قد ترجم بشكل سيئ، الأمر الذى يجعلنا نطرح مشكلة ضرورة مراجعة الترجمات والتعليقات التى لم يكونوا قادرين على إنجازها بشكل ملائم فى عصرها، على حين نملك الآن العناصر التى تستطيع أن تعطى المعانى الحقيقية..

إن المعطيات الخاصة بالإسلام.. مجهولة عمومًا فى بلادنا الغربية.. لقد فُرض عليهم الجهل فى كل ما يمس الإسلام..

* كما يتحدث موريس بوكاي عن علاقته بالإسلام عندما بدأ أبحاثه فى هذا الكتاب.. وعن بداية اكتشافاته الإعجاز العلمى للقرآن فيقول:

«فى البداية لم يكن لى أى إيمان بالإسلام. ولقد طرقت دراسة هذه النصوص - نصوص الكتب المقدسة - بروح متحررة من كل حكم مسبق، وبموضوعية تامة.

وأعترف إذن بأننى كنت جاهلاً قبل أن تُعطى لى عن الإسلام صورة تختلف عن تلك التى تلقيناها فى الغرب..

وسأظل مدينًا بالعرفان، وبشكل لا حد له للمغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود [٣٢٤ - ١٣٩٥ هـ - ١٩٠٦ - ١٩٧٥ م] الذى أحى ذكره باحترام عميق، سيظل محفورًا فى ذاكرتى دائماً أن كان لى الشرف الأثير أن أستمع إليه يتحدث عن الإسلام، وأن أذكر فى حضرته بعض مشاكل تفسير القرآن فى ارتباطها بالعلم الحديث. إن كونى قد تلقيت معلومات قيمة من جلالته نفسه ومن حاشيته ليشكل بالنسبة لى امتيازًا خاصًا..

وعندما استطعت قياس المسافة التى تفصل واقع الإسلام عن الصورة التى اختلقناها عنه فى بلادنا الغربية شعرت بالحاجة الملحة لتعلم اللغة العربية التى لم أكن أعرفها، وذلك حتى أكون قادرًا على التقدم فى دراسة هذا الدين الذى يجبهه الكثيرون.

كان هدفى الأول هو قراءة القرآن ودراسة نصه جملة جملة مستعينًا بمختلف التعليقات اللازمة للدراسة النقدية. وتناولت القرآن متنبهاً بشكل خاص إلى الوصف

كتاب القرآن والتوراة والإنجيل والعلم

الذى يعطيه عن حشد كبير من الظاهرات الطبيعية. لقد أذهلتنى دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظاهرات، وهى تفاصيل لا يمكن أن تُدرك إلا فى النص الأصلي، أذهلتنى مطابقتها للمفاهيم التى نملكها اليوم عن نفس هذه الظاهرات، والتى لم يكن ممكناً لأى إنسان فى عصر محمد - ﷺ - أن يكون عنها أدنى فكرة.. وعلى حين نجد فى التوراة أخطاء علمية ضخمة، لا نكتشف فى القرآن أى خطأ. وقد دفعنى ذلك لأن أتساءل: لو كان كاتب القرآن إنساناً، كيف استطاع فى القرن السابع من العصر المسيحى أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع المعارف العلمية الحديثة؟

ليس هناك أى مجال للشك، فنص القرآن الذى نملك اليوم فعلاً هو نفس النص الأول.

إذن ليس هناك سبب خاص يدعو إلى الاعتقاد بأن أحد سكان شبه الجزيرة العربية فى العصر الذى كانت تخضع فيه فرنسا للملك داجوبير Dagobert استطاع أن يملك ثقافة علمية تسبق بحوالى عشرة قرون ثقافتنا العلمية فيما يخص بعض الموضوعات.

إن مفسرى القرآن (بما فى ذلك مفسرو عصر الحضارة الإسلامية العظيم) قد أخطأوا حتماً، وطيلة قرون، فى تفسير بعض الآيات التى لم يكن باستطاعتهم أن يفتنوا إلى معناها الدقيق. إن ترجمة هذه الآيات وتفسيرها بشكل صحيح لم يكن ممكناً إلا بعد ذلك العصر بكثير، أى فى عصر قريب منا..

ومع ذلك، فليس القرآن كتاباً يهدف إلى عرض بعض القوانين التى تتحكم فى الكون، إن له هدفاً دينياً جوهرياً.

* وعن المقاصد من وراء هذا الكتاب - موقف الكتب المقدسة من العلم - وعلاقتها بالحقائق العلمية الحديثة - يقول موريس بوكاي:

«إن إقامة المقابلات بين مختلف جوانب الكتب المقدسة، موضوعه هو دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعطيات العلمية والمعلومات المتعلقة بصحة النصوص. ويجب أن تقام هذه الدراسة على القرآن مثلما تم ذلك بالنسبة للتوراة والإنجيل..»

وعلينا أن نعترف بأن العلماء قد لاقوا مصاعب جمة من السلطات الدينية لبعض الأديان، ففي الوسط المسيحي وعبر قرون كثيرة بادرت سلطات مسئولة، ودون الاعتماد على أى نصوص حقيقية للكتب المقدسة، بمعارضة تطور العلوم، واتخذت هذه السلطات ضد العلماء الذين كانوا يحاولون تطوير العلوم الإجراءات التى نعرفها، تلك التى دفعت بعض العلماء إلى المنفى تلافياً للموت حرقاً، أو إلى طلب المغفرة بتعديل مواقفهم، وبالتماس العفو.. وفي هذا الشأن تذكر دائماً قضية جاليليو [١٥٦٤ - ١٦٤٢م] الذى حوكم لأنه استأنف مكتشفات قوبرنيك [١٤٧٣ - ١٥٤٣م] الخاصة بدوران الأرض. ولقد أدين جاليليو بسبب تفسير خاطئ للتوراة، لأنه ليس هناك أى نص مقدس يمكن الاستشهاد به بشكل له قيمة ضد جاليليو.

على حين كانت تفرض القيود على التطور العلمى فى بلداننا المسيحية، أنجزت كمية عظيمة من الأبحاث والمكتشفات بالجامعات الإسلامية.. وبعد عصر النهضة فى أوروبا، كان رد الفعل الطبيعى أن يأخذ العلماء بثأرهم من منافس الأمس، وهذا الثأر مستمر حتى اليوم.

لقد اتخذ العلم، لأول مرة، صفة عالمية فى جامعات العصر الوسيط الإسلامية، فى ذلك العصر كان الناس أكثر تأثراً بالروح الدينية مما هم عليه فى عصرنا.. ولكن ذلك لم يمنعهم من أن يكونوا فى آن واحد مؤمنين وعلماء كان العلم الأخ التوأم للدين.

لقد كان موقف الإسلام إزاء العلم مختلفاً، وليس هناك أوضح من الحديث الشهير للنبي - ﷺ - الذى يقول: «اطلب العلم ولو فى الصين». أو ذلك الحديث الآخر الذى يقول إن طلب العلم فرض على كل مسلم وكل مسلمة.

هناك أمر رئيسى: القرآن إلى جانب أنه يدعو إلى المواظبة على الاشتغال بالعلم، فإنه يحتوى أيضاً على تأملات عديدة خاصة بالظواهر الطبيعية، وبتفاصيل توضيحية تتفق تماماً مع معطيات العلم الحديث. وليس هناك ما يعادل ذلك فى التوراة والإنجيل.

كتاب القرآن والتوراة والإنجيل والعلم

إن معالجة الكتب المقدسة من خلال علم الدراسة النقدية للنصوص شىء قريب العهد فى بلادنا.. وحتى تكون هذه المقابلة.. [بين العلم والكتاب المقدس] - ذات قيمة، يجب أن تكون الحجة العلمية المعتمد عليها ثابتة تمامًا، وألا تكون محل جدال.. ولذلك يجب التفريق بين النظرية العلمية وبين الفعل موضوع الملاحظة والذى يمكن رصده بالشكل المطلوب، فغاية النظرية أن تشرح ظاهرة أو مجموعة من الظواهر عسيرة الفهم، والنظرية تتغير فى كثير من الأحوال، وهى قابلة للتعديل أو لأن تحل نظرية أخرى محلها عندما يسمح التقدم العلمى بتحليل أحسن للأمور وبتصور شرح آخر أكثر قيمة، أما الفعل موضوع الملاحظة فهو على عكس ذلك، إذ أنه غير قابل للتعديل، قد يمكن تعريف سماته بشكل أحسن، ولكنه يظل على ما كان من قبل، فإثبات أن الأرض تدور حول الشمس والقمر حول الأرض، فهذا ما لن يُرجع فيه أبدًا، وقد يمكن فى المستقبل تحديد المدارات بشكل أحسن.

والإيمان بمعجزة إلهية والإيمان بالعلم أمران يتفقان تمامًا، فالأولى إلهية المستوى والثانية إنسانية المستوى.. وكلما تقدمنا فى امتلاك العلم، وخاصة فيما يتعلق بكل ما هو متناه فى الصغر ازدادت الحجج القائلة بوجود الخالق بلاغة..

وأمام هذه الموجة المادية وغزو الإلحاد للغرب يظهر عجز المسيحية واليهودية عن الصمود، كل منهما غارق فى الحيرة.. فكتب هذين الدينين تحتوى على كثرة من الأمور التى لا تتفق مع المعطيات العلمية الحديثة، ومن المتناقضات والأمور غير المعقولة..

* ولأن مصداقية أى نص من النصوص الدينية لا بد من اعتمادها على «صدق الرواية» و«صدق الدراية» كان البحث - فى هذا الكتاب - عن مدى توفر هذين المعيارين - صدق الرواية.. وصدق الدراية - فى كل كتاب من الكتب المقدسة الثلاثة..

وعن معيار صدق الرواية - فى القرآن - يقول موريس بوكاى:

إن صحة القرآن التي لا تقبل الجدل تعطى النص مكانة خاصة بين كتب التنزيل، ولا يشترك مع نص القرآن في هذه الصحة لا العهد القديم ولا العهد الجديد.. فالنص القرآني لم يتعرض لأي تحريف من يوم أن أنزل على الرسول - ﷺ - حتى يومنا هذا.. وفور تنزيل القرآن ، أولاً بأول، كان النبي - ﷺ - والمؤمنون من حوله يتلونه عن ظهر قلب، وكان الكتبة من صحبه يدونونه، فهو يتمتع، من البداية، بعنصرى الصحة هذين اللذين لا تتمتع بهما الأناجيل..

وهناك نصوص تثبت صراحة أن ما قد أنزل على محمد - ﷺ - من القرآن قبل مغادرة مكة إلى المدينة (أى قبل عام الهجرة) كان مشبوثاً بالكتابة. ومن المعلوم أنه كان حول محمد - ﷺ - كتبة عديدون..

ولقد أوصى محمد - ﷺ - المؤمنين فى الوقت ذاته بحفظ القرآن عن ظهر قلب، وهكذا ظهر الحافظون الذين كانوا يعرفون كل القرآن حفظاً وينشرونه. ولقد اتضحت القيمة الثمينة لذلك المنهج المزدوج - الحفظ والكتابة - فى حفظ النص بالكتابة وبالذاكرة.

وبعد موت النبي - ﷺ - بقليل (سنة ٦٣٢ م) طلب خليفته أبو بكر، أول خليفة للمسلمين، إلى زيد بن ثابت، أول كاتب للنبي، أن يعد نسخة من القرآن ففعل، ثم قام زيد بن ثابت، اتباعاً لمشورة عمر (ولم يكن خليفة بعد) باستشارة كل ما استطاع أن يجمع من وثائق بالمدينة: من شهادات الحافظين إلى نسخ الكُتَّاب المكتوبة على أشياء مختلفة وفى حوزة بعض الخاصة، كل ذلك لتلافي أى خطأ ممكن فى التسجيل. وهكذا أمكن الحصول على نسخة أمينة للكتاب..

إن القرآن، وهو الكتاب الأساسى، قد ظل المرجع الذى لا يمكن أن يكون محلاً للجدل فى صحة نصوصه، وذلك لأنه قد نُقل عن النبي - ﷺ - بصورة جماعية متواترة، وسُجل عنه فى أيام حياته بأقلام كُتَّاب كانوا كلهم من شهود العيان لما قد سجلوا.

كتاب القرآن والتوراة والإنجيل والعلم

إنه الوحي الذي أنزل على محمد عن طريق جبريل، وقد كُتب فور نزوله، ويحفظه ويستظهره المؤمنون عند الصلاة، وخاصة في شهر رمضان، وقد رُتب في سور بأمر من محمد نفسه، وُجمعت هذه السور فور موت النبي، وفي خلافة عثمان أصبح هناك النص الذي نعرفه اليوم.

إن القرآن لا يطرح مشاكل تتعلق بالصحة.. لقد استأنف القرآن التنزيلين اللذين سبقاه، وهو لا يخلو فقط من متناقضات الرواية - وهي السمة البارزة في مختلف صياغات الأناجيل - وإنما يظهر أيضًا لكل من يشرع في دراسته بموضوعية وعلى ضوء العلوم - طابعه الخاص، وهو التوافق التام مع المعطيات العلمية الحديثة، بل أكثر من ذلك، يكشف القارئ فيه مقولات ذات طابع علمي من المستحيل أن إنساناً في عصر محمد - ﷺ - قد استطاع أن يؤلفها، وعلى هذا فالمعارف العلمية الحديثة تسمح بفهم بعض الآيات القرآنية التي كانت بلا تفسير حتى الآن.

إن مقارنة عديد من روايات التوراة مع روايات نفس الموضوعات في القرآن تبرز الفروق الأساسية بين دعاوى التوراة غير المقبولة علمياً وبين مقولات القرآن التي تتوافق تماماً مع المعطيات الحديثة. وهذه الفروق ذات الأهمية الشديدة تدحض كل ما قيل ادعاء - دون أدنى دليل - عن نقل محمد - ﷺ - للتوراة.. ولذلك فمن المشروع تماماً أن ينظر إلى القرآن على أنه تعبير الوحي من الله، وأن تُعطى له مكانة خاصة جداً، حيث إن صحته أمر لا يمكن الشك فيها، وحيث إن احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة في عصرنا تبدو كأنها تتحدى أي تفسير وضعي.

إنها عقيمة حقاً تلك المحاولات التي تسعى لإيجاد تفسير للقرآن بالاعتماد فقط على الاعتبارات المادية.

كيف أمكن لمحمد - عليه السلام - أن يتناول قبل أربعة عشر قرناً حقائق علمية في القرآن لم يكتشفها إلا التقدم العلمي في القرون الحديثة، لو لم يكن القرآن وحياً منزلاً لا شك فيه ولا ارتياب في نصوصه؟.

إن حقائق القرآن العلمية.. تدل جميعها على أن نصوص القرآن نصوص لا دخل ليد بشر فيها، وأنها وحى لا شك فيه.. إن القرآن هو الوحي المكتوب الذى لا شك فيه، ولذلك كان معصومًا من كل خطأ علمي..

هذا عن معيار «الرواية» فى القرآن.. ومعيار «الدراية» فيه - على وجه الإجمال..

* أما فيما يخص العهد القديم، فإن تعدد كُتاب نفس الرواية، بالإضافة إلى تعدد المراجعات لبعض الكتب على عدة فترات قبل العصر المسيحي، هو من أسباب الخطأ والتناقض فى التوراة..

ففى القرن الثالث قبل الميلاد - تقريبًا - كان هناك على الأقل ثلاث مدونات للنص العبرى للتوراة.. ولكن تدوين نص الكتاب المقدس لم يتم إلا فى القرن الأول بعد الميلاد - [أى بعد ثلاثة عشر قرنًا من عصر موسى عليه السلام] -..

إن أقدم نص عبرى للتوراة يرجع عهده إلى القرن التاسع بعد الميلاد.. وبهذا تتضح ضخامة ما أضافه الإنسان إلى العهد القديم..

لقد كان الكتاب المقدس، قبل أن يكون مجموعة أسفار، تراثًا شعبيًا لا سند له إلا الذاكرة.. وكما يقول آدموند جاكوب: «فمن المحتمل أن ما يرويه العهد القديم عن موسى والآباء الأولين لا يتفق إلا بشكل تقريبي مع المجرى التاريخي للأحداث.. إن مساهمات البشر فى تدوين التراث الشفهى الأصيل كبيرة جدًا.. إن هذه الأسفار قد كُتبت على مدى يربو على تسعة قرون، وبلغات مختلفة، واعتمادًا على التراث المنقول شفويًا.

إن كتب العهد القديم لم تتخذ هيئتها الأولى إلا قبل قرون من ميلاد المسيح، ولم تكتسب شكلها النهائى إلا فى القرن الأول بعد المسيح..

ومن المستحيل أن يكون موسى قد كتب بنفسه كيف مات [سفر التثنية. إصحاح ٢٤ الآيات من ٥ إلى ١٢].

ولقد نشر جالك استروك فى سنة ١٧٥٧م بعنوان «قرائن عن المذكرات الأصلية التى يبدو أن موسى قد استخدمها لتحرير سفر التكوين، جاء فيها إثبات وجود نصين

كتاب القرآن والتوراة والإنجيل والعلم

جنبًا إلى جنب فى سفر التكوين يحتوى كل منهما على خاصية مختلفة فى تسمية الرب، إذ يسميه أحدهما بيهوة ويسميه الثانى بألوهيم.. ثم قام إيخهون Eichhorn [١٧٨٠ - ١٧٨٣ م] بنفس الاكتشاف للكتب الأربعة الأخرى.. ثم جاء إيلجن Ilgen [سنة ١٧٩٨ م] ولاحظ أن أحد النصين اللذين ميزهما «استروك»، وهو النص الذى يسمى فيه الرب بألوهيم، ينقسم هو أيضًا إلى قسمين.. وبهذا تفتت تمامًا كتاب أسفار موسى الخمسة..

إذن فتحرير نص أسفار موسى الخمسة يمتد على ثلاثة قرون بأقل تقدير.. وكما يقول الأب ديفو «فإن كثيرًا من نواميس أو قوانين أسفار موسى الخمسة كان لها ما يوازيها خارج التوراة، فى فترة تسبق بكثير التاريخ المنسوب إلى هذه الوثائق» وإن «عددًا من روايات أسفار موسى الخمسة يُفترض وجود مصدر آخر أكثر قدمًا من ذلك الذى يُفترض أن هذه الوثائق قد خرجت منه».

وبهذا يتضح تكوّن كتاب أسفار موسى الخمسة من أقوال موروثه مختلفة جمعها، بشكل يقل أو يزيد حدقًا، محررون وضعوا تارة ما جمعوا جنبًا إلى جنب، فطوروا غيروا من شكل هذه الروايات بهدف إيجاد وحدة مركبة، تاركين للعين أمورًا غير معقولة وأخرى متنافرة كان من شأنها أن قادت المحدثين إلى البحث الموضوعى عن المصادر.

وفيما يخص سفر التكوين وحده، فإن انقسام الكتاب إلى ثلاثة مصادر ثابت فعلاً، وما جاء بهذه الكتب عن تاريخ الشعب اليهودى لا يحفل بالدقة التاريخية.. ويشير الأستاذ أ. جاكوب إلى ما فيه من تناقض صريح بين النصوص وبين الآثار.. ولقد تعدل سفر القضاة مرات عدة.. أما كتاب صمويل وكتب الملوك فهى أساس مجموعات من السير تخص صمويل وطالوت وسليمان، وقيمتها التاريخية مشكوك فيها، ومن وجهة النظر هذه يجد أ. جاكوب فى هذه الكتب أخطاء متعددة، فالحدث الواحد له روايات مزدوجة وحتى ثلاثية، وبهذا تختلط الخطوط التاريخية بالأساطير..

وبالنسبة للإصحاحين الأول والثاني من أخبار الأيام وكتب عزرا ونحميا، فلقد كتبها كاتب واحد هو اسمه القصاص الذي عاش في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، وهو ينسخها آلياً دون أن يهتم بالمتناقضات الناجمة عن النسخ..

والسؤال الآن هو: كيف استطاع هذا المجموع المتنافر بمضمونه الذي يتكون من أسفار كتبت على مدى سبعة قرون على الأقل، وأتت من مصادر شديدة التنوع، ثم تجمعت بعد ذلك داخل مؤلف واحد، كيف استطاع هذا المجموع عبر القرون أن يكون كلاً لا ينفصم، وأن يصبح - مع بعض الاختلافات بين الجماعات الدينية - كتاب الوحي اليهودي - المسيحي؟. كيف أصبح «القانون» Canon - وهي كلمة يونانية يرتبط بها معنى عدم المساس؟!

هل هناك من يجرؤ على الاعتراض على هذا المجموع المتنافر حتى القرون الوسطى، وفي الغرب على الأقل؟.. لا أحد، أو تقريباً لا أحد!

لكن إذا كان المتخصصون في نقد النصوص قد كرسوا قرائحهم لدراسة حشد كبير من النقاط التفصيلية، فإنهم قد حكموا بأفضلية عدم الذهاب إلى أبعد مما يسمونه تلميحاً «صعوبات»، ولا يبدو أن بهم ميلاً لدراسة هذه الصعوبات على ضوء المعارف الحديثة.

لا أحد حتى الآن من هؤلاء المتخصصين قد حط الخطى على طريق مقارنة صريحة وعميقة مع المعلومات العلمية التي ندرك أنها ستقود إلى الاعتراض على فكرة صحة الكتابات اليهودية - المسيحية التي لا يجادلها أحد منهم حتى يومنا هذا.

إن معرفة تاريخ النصوص تسمح، في الواقع، بتكوين فكرة عن الظروف التي قادت إلى التعديلات النصية عبر القرون، وإلى التكوين البطيء لمجموعها كما نملكه اليوم بأجزاء متعددة محذوفة وأخرى مضافة.

إن هذه المعلومات تجعل، معقولاً تماماً، الوجود في العهد القديم روايات مختلفة عن موضوع واحد، وأخطاء تاريخية، وأمور متناقضة، وأخرى غير معقولة، أو يستحيل أن تتفق مع المعطيات العلمية الثابتة.

كتاب القرآن والتوراة والإنجيل والعلم

ثم إن التوراة تختلف عن «العهد القديم المسيحي»، لأن هذا الأخير قد أضاف عدة أسفار لم تكن موجودة بالعبرية..

هذا عن مصداقية «الرواية» في العهد القديم..

* أما عن مصداقية «الرواية» في الأناجيل.. فيلاحظ الأب روجي R.P. Roguet في كتابه [مقدمة إلى الإنجيل] مدى الاضطراب الذي يشعر به قراء الأناجيل، لوجود نصوص يراها القراء مبهمة غير مفهومة، بل حتى متناقضة، وعبثية، أو فاضحة.. تشير اضطراباً عميقاً لدى المسيحيين..

- فمن كتاب الأناجيل مجاهيل لم نتأكد من هويتهم.

- وإن المسؤولين - [الكنسيين] - يقللون بشكل مبالغ فيه الفترة الزمنية الواقعة بين نهاية رسالة المسيح وبين ظهور النصوص، يريدون إيهام الناس بوجود صيغة واحدة اعتمدت على تراث شفهي. على حين أثبت المتخصصون أن هذه النصوص قد أصابها تعديلات كثيرة.. إنهم يغضون الطرف عن المتناقضات البينة التي تقفز إلى عيني من يتأمل.. وإن الأمور غير المعقولة أو المتناقضات أو الأخطاء الصارخة كثيراً تُتجنب أو تُخفق بحجج مديحية بارعة.

- إن متى ويوحنا لا يتحدثان عن صعود المسيح، أما لوقا فإنه يحدده بيوم القيامة في إنجيله، وبعد أربعين يوماً في «أعمال الرسل»، التي يقال إنه كاتبها. أما فيما يخص مرقس فإنه يشير إليه (دون تحديد تاريخه)، وذلك في خاتمة تعتبر حالياً غير صحيحة.

وعلى ذلك فليس للصعود أى قاعدة كتابية متينة.

وبرغم ذلك فإن المعلقين يتعرضون لهذه المسألة المهمة باستخفاف لا يصدق.

إن توضيح التعديلات التي وقعت على الصيغ الأولى التي تمت بالاعتماد على التراث الشفهي، وتوضيح التحريفات التي حدثت للنصوص إلى أن وصلت إلينا.. هي عبارات مبهمة غير مفهومة ومتناقضة لا يدركها العقل، بل قد تذهب في بعض الأحيان إلى حد العبث واستحالة أن تتفق مع الوقائع التي أثبتتها اليوم التقدم العلمي..

الأمر الذى يدل على مساهمة الإنسان فى عملية تحرير النصوص، وعلى التعديل الذى أصابها بعد ذلك.

إن هناك استحالة أن يعطى أى كاتب من كتاب الأناجيل لنفسه صفة الشاهد العيان. إن الشهادات المتعلقة بوجود مجموعة من الكتابات الإنجيلية تظهر فقط فى منتصف القرن الثانى. وبالتحديد بعد عام ١٤٠ م.

وفى التعليقات على الترجمة المسكونية للعهد الجديد - المنشورة سنة ١٩٧٢ م - يقرأ القارئ: «إنه لا توجد، على أى حال، أى شهادة تقول بوجود مجموعة من الكتابات الإنجيلية قبل عام ١٤٠ م».

والترجمة المسكونية تُرجع إلى عام ١٧٠ م تقريباً التاريخ الذى اكتسبت فيه الأناجيل الأربعة صفة الأدب الكنسى.

وفى التعليقات على الترجمة المسكونية نجد - أيضاً: إن النصوص تتكيف مع مختلف الأوساط، وتستجيب لاحتياجات الكنائس، وتعبر عن فكر ما عن الكتاب المقدس، وتعديل من الأخطاء، بل ترد بهذا على حجج الخصوم، وبهذا جمع المبشرون وحرروا، كل حسب وجهة نظره الخاصة، ما أعطاهم إياه التراث الشفهى.

- ولا يمكن التوفيق بين تصريح الفاتيكان الثانى الذى يقول: إننا نجد فى الأناجيل نقلاً أميناً لأفعال وأقوال المسيح، وبين وجود متناقضات فى هذه النصوص، وأمور غير معقولة، واستحالات مادية، ودعاوى معاكسة لأموال تم التحقق من صحتها.

ويقول الأب كانينجسر R.P. Kannengiesser: «فإنه لا يجب الأخذ بحرفية الأناجيل، فهى كتابات ظرفية خصامية، حدد محرروها كتابة تراث جماعاتهم عن المسيح».

- ما هى شخصية متى؟.. لنقل صراحة إنه لم يعد مقبولاً اليوم القول أنه أحد حوارى المسيح.. فقد استخدم متى بشكل واسع إنجيل مرقس الذى لم يكن أحد حوارى المسيح (أ. كولمان).

كتاب القرآن والتوراة والإنجيل والعلم

ويتصرف متى بحرية خطيرة مع النصوص. ويلاحظ ذلك بالنسبة للعهد القديم فيما يتعلق بنسب المسيح التي يضعها في بداية إنجيله. وقد ألحق بكتابه روايات يستحيل بالدقة تصديقها.

يقول متى: إنه عند موت المسيح تزلزلت الأرض، وتشققت الصخور، وتفتحت القبور، وقام كثيرون من أجساد القديسين الراقدين وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين (أى قبل يوم السبت كما تقول الأناجيل) وألا تخرج من قبورها إلا بعد قيامة عيسى (أى غداة السبت حسب نفس المصادر).

وربما كان إنجيل متى هو الذى يحتوى على هذا القول الذى يتميز بعدم معقولية لا جدال فيها من كل الأقوال التى وضعها كتابها على لسان المسيح نفسه.

- ومدة مكوث المسيح فى بطن الأرض - حسب متى - هى «ثلاثة أيام وثلاث ليال»، وفى النص اليونانى Treis emeras لا يمكن إلا أن تكون ليلتين فقط.

- وإنجيل مرقس على أكثر تقدير قد حرره تلميذ لأحد الحواريين، وليس أحد الحواريين.. وهو يتناقض مع إنجيل متى ولوقا فيما يخص بعض الأحداث، وهناك مفارقة بين قول مرقس بأنه «لن يكون لهذا الجيل آية» وبين المعجزات التى يقدمها المسيح نفسه كآيات.

والكتاب المحدثون يعدون خاتمة إنجيل مرقس (الإصحاح ١٦ الآيات من ٩ إلى ٢٠) مؤلف مضاف. وتشير الترجمة المسكونية إلى هذا بشكل صريح.

وهذه الخاتمة غير موجودة فى أقدم مخطوطتين كاملتين للأناجيل. ويقول الأب كانينجسر: إنه قد تم توليف خاتمة محترمة لمرقس، وذلك بالاستعانة بعناصر من هنا ومن هناك لدى المبشرين الآخرين.

- وإنجيل لوقا.. تحتوى شتى الروايات فيه على اختلافات مهمة مع روايات سابقه.

ويعطى كل من متى ولوقا المسيح أنساباً مختلفة. والتناقض بينهما مهم، وعدم المعقولية كبيرة من وجهة النظر العلمية. وهما يتناقضان ابتداءً من داود.

ورسالة المسيح مسرودة بشكل مختلف، وفي نقاط كثيرة لدى كل من لوقا ومتى ومرقس.

ولوقا يحدد، في إنجيله، صعود المسيح بيوم الفصح، ويحدده في «أعمال الرسل» بعد ذلك بأربعين يومًا.

- وإنجيل يوحنا.. حررت الصيغة النهائية له في نحو نهاية القرن الأول.

وهو يختلف في الترتيب وفي اختيار الموضوعات والروايات والخطب، وبه اختلافات أسلوبية وجغرافية وأخرى خاصة بالتعاقب الزمني للأحداث، بل إنه يحتوى على اختلاف في الآفاق اللاهوتية (أ. كولمان).

إن أقوال المسيح تساق بشكل مختلف لدى كل من يوحنا والمبشرين الآخرين.

إن كل شيء يدفع إلى الاعتقاد بأن النص المنشور حاليًا ينتمي إلى أكثر من كاتب واحد «فيحتمل أن الإنجيل بشكله الذي نملكه اليوم، قد نشر بواسطة تلامذة المؤلف الذين أضافوا الإصحاح ٢١، كما أضافوا ولا شك بعض الحواشي (مثل ٤، ٢ وربما أيضًا ٤، ١، ٤، ٤٤، ٧، ٣٧ ب، ١١، ٢، ١٩، ٣٥). أما فيما يختص بالمرأة الزانية (الإصحاح ٧، ٥٣ إلى ١١، ٨) فالكل يتفق على الاعتراف بأن هذا النص مجهول الأصل، وألحق فيما بعد. إن الفقرة من ١٩، ٣٥ تبدو كأنها «إمضاء لشاهد معاين» (أ. كولمان). وهو الإمضاء الوحيد الصريح في كل إنجيل يوحنا، ولكن المعلقين يعتقدون أنها فقرة مضافة ولا شك.

ويعتقد (أ. كولمان) أن الإضافات اللاحقة واضحة في هذا الإنجيل، مثل الإصحاح ٢١، ويعتقد أنه من عمل «أحد التلاميذ، وقد أضاف أيضًا بعض اللمسات إلى متن الإنجيل».

لقد كانت القيمة التاريخية لروايات يوحنا موضع نزاع كثير، فالأمور التي تتنافر مع الأناجيل الثلاثة الأخرى صارخة.

وكيف يمكن تصور أن يوحنا، وهو المبشر المفكر المتأمل بكل معنى الكلمة، لا يتحدث عن الحدث الرئيسى فى المسيحية، والذي يصبح ركناً من أهم أركان الطقوس الكنسية، أى القداس؟!.

وهناك اختلاف خاص بالفترة الزمنية لبعثة المسيح، إذ يحددها مرقس ومتى ولوقا بعام واحد، أما بالنسبة ليوحنا فهى تمتد على أكثر من عامين.

- إن تناقضات الأناجيل غير قابلة للحل.

وإن متى ولوقا قد استلهما مرقس من ناحية، ووثيقة مفقودة اليوم من ناحية أخرى. يضاف إلى هذا أن كلا من المبشرين الأولين - متى ولوقا - كان يملك تحت حوزته مصدرًا خاصًا.

ولقد حدث تطور للنصوص على مراحل متعددة بالتوازي مع تطور التراث.

وقبل سنة ١٧٠ م لم تكتسب الأناجيل صفة الأدب المعترف به كنسيًا.

وغير الأناجيل الأربعة هناك رسالة برنابا، وأناجيل الناصريين، وأناجيل العبرانيين، وأناجيل المصريين.. وربما كان ما حذف مائة إنجيل.

ويلاحظ الأب بومار أن هذه الأناجيل - المحذوفة - كانت موجودة بالمكتبات حتى نهاية القرن الرابع.

وكما تقول الترجمة المسكونية «إن كل نسخ العهد الجديد التى وصلت إلينا ليست متطابقة. بل على العكس، فيمكن للقارئ أن يميز فيما بينها فروقاً قد تختلف فى الأهمية، ولكن عددها على أى حال كبير. وبعض هذه الاختلافات لا تخص إلا تفاصيل فى النحو أو المفردات أو ترتيب الكلمات، ولكن فى مؤلفات أخرى يلاحظ بين المخطوطات اختلافات تمس معانى فقرات بأكملها».. وإنه لا مجال للأمل مطلقاً فى الوصول إلى النص الأصيل..».

إن كلمة واحدة فى إنجيل يوحنا خاصة بالـ paraclet تغير جذرياً معنى الفقرة، وتغير رأساً على عقب دلالتها من وجهة النظر اللاهوتية.

وفى بعض الأحيان يكتب الناسخ تعليقاً على هامش النص لشرح عبارة مبهمة، ويأتى الناسخ التالى ويظن أن العبارة المكتوبة على هامش النص قد سقطت عند ناسخ آخر، ويرى ضرورياً إدخال التعليق الهامشى على النص، وبهذا، أحياناً، يصبح النص الجديد المنقول أكثر غموضاً.

وفيما يخص الأناجيل، فلا يستطيع أحد أن يجزم بأنها تحتوى دائماً على رواية أمينة لرسالة المسيح، أو على رواية لأعماله تتفق بدقة تامة مع الواقع. إن عمليات التحرير المتوالية تبين افتقار هذه النصوص إلى الصحة. وزيادة على ذلك فليس كتاب هذه النصوص شهود عيان.

* لقد أعلنت الكنيسة رسمية أربعة أناجيل فقط، وذلك برغم التناقضات العديدة فيما بين هذه الأناجيل فى كثير من النقاط، وأصدرت الأوامر بإخفاء الأناجيل الأخرى، ومن هنا جاء اسم «الأناجيل المزورة».

وإننا لنأسف حقاً لذلك الموقف الذى يهدف إلى تبرير الاحتفاظ فى نصوص التوراة والإنجيل ببعض المقاطع الباطلة خلافاً لكل منطق.

إن الغالبية من المسيحيين لم تدرك حتى الآن وجود هذا الضعف، وظلت فى جهالة تامة من أمر ذلك التناقض مع المعارف الدنيوية المشهورة التى تعتبر غالباً من المعارف الأساسية جداً.

إن مؤلفى الأناجيل الأربعة المعترف بها كنسياً لم يشهدوا الوقائع التى أخبروا بها. فالإنجيل يعتمد على شهادات بشرية متعددة وغير مباشرة، وإننا لا نملك مثلاً أى شهادة لشاهد عيان لحياة عيسى.

* لقد كانت الظروف التى سادت ميلاد التنزيلات الثلاثة - [القرآن والتوراة والإنجيل] - مختلفة اختلافاً شاسعاً، الأمر الذى نجمت عنه نتائج بالغة الأهمية فيما يتعلق بصحة النصوص وبعض جوانب مضامينها.

إن العهد القديم يتكون من مجموعة من المؤلفات الأدبية، أنتجت على مدى تسعة قرون تقريباً، وهو يشكل مجموعة متنافرة جداً من النصوص، عدل البشر من

كتاب القرآن والتوراة والإنجيل والعلم

عناصرها عبر السنين، وقد أضيفت أجزاء أخرى كانت موجودة من قبل، بحيث إن التعرف على مصادر هذه النصوص اليوم عسير جداً في بعض الأحيان.

وإن الأناجيل لم تكتب بأقلام شهود معانين للأمور التي أخبروا بها، إنها ببساطة تعبير المتحدثين باسم الطوائف اليهودية المسيحية المختلفة عما احتفظت به هذه الطوائف من معلومات عن حياة المسيح العامة، وذلك في شكل أقوال متوارثة شفوية أو مكتوبة اختفت اليوم بعد أن احتلت دوراً وسطاً بين التراث الشفهي والنصوص النهائية.. ولذلك تبدو صحة الأمور المخبر بها في عديد من الحالات مشكوكاً فيها بشكل شديد..

ولقد كان الجهد عميقاً ومستمرًا ذلك الذي قام به كثير من المعلقين الرسميين حتى ذلك الوقت لإخفاء ما يتضح للعين المجردة بفضل الدراسات الحديثة، ذلك الذي أخفاه هؤلاء المعلقون تحت بهلوانيات جدلية حاذقة غارقة في الرومانسية المديحية.. من مثل ما يتعلق بنسبى المسيح في إنجيلي متى ولوقا المتناقضين والمرفوضين علمياً.

هذا عن معيار «الرواية» في الكتب المقدسة الثلاثة.

* * *

أما المعيار الثانى من معيارى المصادقية في الكتب المقدسة - معيار «الدراية» - فلقد أفاض فيه هذا الكتاب.. فقدم دراسة غير مسبوقة في هذا الميدان..

* ولقد جاء فيه عن هذا المعيار بالقرآن - ضمن ما جاء:

- إن القرآن يحتوى على إشارات بوجود كواكب في الكون تشبه الأرض، وينبغى ألا ننسى أن كثيراً من العلماء يرون هذا الأمر معقولاً تماماً دون وجود معطيات حديثة قادرة على إعطاء أقل تأكيد بهذا.

- وفي ذلك الوقت كان معروفاً أن هناك آية قرآنية تنبأ بأن الإنسان ذات يوم سيحقق هذا النصر - [غزو الفضاء] - وقد تم الآن التأكد من هذا.

- وفيما يتعلق بملاحظة تطور الجنين البشري، فيمكن مقابلة مختلف المراحل الموصوفة - في القرآن مع معطيات علم الأجنة الحديث لنكتشف اتفاق الآيات القرآنية مع العلم الحديث.

- وفيما يتعلق بمسألتى الخلق والطوفان، فلقد اتضح، بالنسبة لكل منهما، عدم اتفاق العلم مع أقوال التوراة، والاتفاق الكامل بين أقوال القرآن الخاصة بنفس المسائل وبين العلم الحديث.

- كيف يمكن لإنسان - كان في بداية أمره أمياً - ثم أصبح فضلاً عن ذلك سيد الأدب العربى على الإطلاق، أن يصرح بحقائق ذات طابع علمى لم يكن فى مقدور أى إنسان فى ذلك العصر أن يكونها، وذلك دون أن يكشف تصريحه عن أقل خطأ من هذه الوجهة؟

إن الدراسة من وجهة النظر العلمية ستقود إلى الحكم بعدم معقولية أن إنساناً يعيش فى القرن السابع من العصر المسيحى قد استطاع أن يصدر عبر القرآن فيما يتعلق بموضوعات متعددة أفكاراً لا تنتمى إلى أفكار عصره، وتتفق مع ما أمكن إثباته بعد ذلك بقرون عديدة..

إنه ليس هناك تفسير وضعى للقرآن.

- إننا نسجل هنا التطابق الكامل بين المعطية القرآنية والمعطية العلمية.. إن المطابقة واضحة بين مفهوم السديم الأولى فى العلم الحديث والدخان على حسب القرآن للدلالة على الحالة الغازية الغالبة للمادة التى كونت الكون فى هذه المرحلة الأولى.

- وإن تعدد السموات، الذى عبر عنه القرآن بالرقم الرمزي «٧» يتلقى من العلم الحديث تأكيداً له..

- ولا يوجد أقل تعارض بين المعطيات القرآنية الخاصة بالخلق وبين المعارف الحديثة عن تكوّن الكون.

كتاب القرآن والتوراة والإنجيل والعلم

كيف كان يمكن لإنسان، منذ أربعة عشر قرناً، أن يصحح إلى هذا الحد الرواية الشائعة في ذلك العصر، وذلك باستبعاد أخطاء علمية، وبالتصريح بمبادرته وحده بمعطيات أثبت العلم أخيراً صحتها في عصرنا؟

إن القرآن يعطى عن الخلق رواية تختلف تماماً عن رواية التوراة.

ولكى نؤكد على الاختلاف العميق لتصريحات القرآن في هذا الموضوع، فهى خالية من التفاصيل الوهمية المصاحبة لهذه المعتقدات. إن تصريحات القرآن، على العكس، مطبوعة بالإيجاز في القول وبالاتفاق مع المعطيات الحديثة للعلم.

وإذا كانت هذه هى صفات مقولات القرآن، التى صرح بها من أربعة عشر قرناً، فلا يبدو أن بالإمكان إعطاء هذه المقولات تفسيراً وضعياً.. أن إشارات القرآن لمعطيات الخلق ومراحله هى حدث جديد جداً فى التنزيل الإلهى، فلا الإنجيل ولا العهد القديم قد عالجا ترتيب الكون. إن حديث القرآن عن السماوات السبع إنما يعنى سماوات متعددة، وليس سماوات محدودة بعدد..

- وعلى حين وصفت التوراة الشمس والقمر بمنيرين، مضيئة صفة الكبر إلى الشمس والصغر إلى القمر، فإن القرآن يخص كلا منهما بفروق غير تلك التى تتعلق بالحجم: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

فلا شئ اليوم إذن فى القرآن يناقض كل ما نعرف اليوم عن هذين الجرمين السماويين.

كما يذكر القرآن بوضوح أمراً جوهرياً ألا وهو وجود مدار لكل من الشمس والقمر، كما يشير إلى تنقل هذين الجرمين فى الفضاء كل بحركة خاصة: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

- ولقد كان المفهوم السائد منذ بطليموس [٩٠ - ١٦٨ م] - فى القرن الثانى قبل الميلاد - وحتى قوبرنيق - فى القرن السادس عشر - هو مفهوم مركزية الأرض.. وهذا

المفهوم السائد - فى عصر محمد - ﷺ - لا يظهر فى أى موضع من القرآن، لا فى الآيات الكونية ولا فى مواضع أخرى.

- لقد قدم القرآن فى ذلك العصر مفهوماً جديداً لمدارات القمر والشمس لم يتضح علمياً إلا بعد قرون عدة.

لقد صرح القرآن منذ أربعة عشر قرناً بالحركة المدارية للشمس، وهى الآن من مكتشفات علم الفلك الحديث.

ويظهر إذن أن هناك فرقاً كلامياً دقيقاً يشير فيه القرآن إلى الحركات الخاصة لكل من الشمس والقمر.

ولقد أكد العلم الحديث حركات هذين الحرمين السماويين، ولا يمكن تصور أن رجلاً فى القرن السابع من عصرنا استطاع تخيل هذا مهما يكن عالماً فى عصره، وليس ذلك حال محمد - ﷺ -.

- إننا نجد فى القرآن العديد من الموضوعات المتعلقة بالمعارف الحديثة، دون أن تكون به أى دعوى مناقضة كما أثبتته العلم فى عصرنا.

- كذلك يصف القرآن بشكل كامل دورة تعاقب الليل والنهار: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَيَالٍ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ اللَّيْلَ﴾ [لقمان: ٢٩].

- وكذلك حديث القرآن عن تعدد المشارق والمغارب: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ - [المعارج: ٤٠].

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧]. فهذا الوصف القرآنى لهذه الظاهرة الفلكية هو وصف متطابق مع المفاهيم العلمية الحديثة.

- وكذلك ظاهرة توسع الكون التى تحدث عنها القرآن: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا يَافًى وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]. والتى أثبتتها المعارف العلمية الحديثة.

- وغزو الفضاء الذى تحدث القرآن عن إمكانيته: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَفْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ - [الرحمن: ٣٣]

فالقرآن يتحدث عن إمكانية مادية لإنجاز ملموس.. إمكانية البشر ذات يوم أن يحققوا ما نسميه في عصرنا بالغزو الفضاء.

- ويجب ملاحظة أن النص القرآني لا يتنبأ فقط بالنفاذ عبر مناطق السموات، وإنما يتحدث أيضاً عن النفاذ عبر مناطق الأرض، أى استكشاف الأعماق.

ونحن عندما نقابل نص القرآن بالمعطيات الحديثة لا بد أن نبهر بتلك التحديدات الدقيقة التي لا يمكن افتراض أنها صدرت عن فكر إنسان عاش منذ أربعة عشر قرناً.

- وحديث القرآن عن دور الماء فى نشأة الحياة وعمارة الأرض: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَّعَا لَكُمْ وَلَآتِعِمَكُمُ ﴿٣٣﴾﴾ (النازعات: ٣٠ - ٣٣). ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠]. فتبرز ميزة ثراء الكوكب بالماء، وهى ميزة فريدة للأرض فى النظام الشمسى على حسب أحسن معطيات المعارف الحديثة ثبوتاً، فلولا الماء لكانت الأرض كوكباً ميتاً مثل القمر.. إن كل شىء مصدره الماء كمادة جوهرية، أو أن أصل كل شىء حى هو الماء، ويتفق هذان المعنيان تماماً مع العلمية: فالثابت بالتحديد أن أصل الحياة مائى، أو أن الماء هو العنصر الأول المكون لكل خلية حية، فلا حياة ممكنة بلا ماء. فسواء كان المقصود هو أصل الحياة عموماً أو العنصر الذى يجعل النباتات تولد فى التربة، أو كان المقصود هو بذرة الحيوان، فإن كل عبارات القرآن تتفق تماماً مع المعطيات العلمية الحديثة، ولا مكان مطلقاً فى نص القرآن لأى خرافة من الخرافات التى كانت منتشرة فى عصر تنزيل القرآن.

وهكذا يعطى القرآن الماء الأهمية الأولى فى ذكر الظواهر الطبيعية على الأرض. ودورة المياه موصوفة فيه بدقة محكمة.

إننا ندرك أن المعطيات القرآنية لا تحتوى على عناصر نابعة من المفاهيم الأسطورية التى كانت سائدة فى ذلك العصر، والتى كان للتفكير النظرى فيها دور أكبر من معطيات الملاحظة.

إن المفاهيم غير الصحيحة فى عصر محمد - ﷺ - لا نجد لها أى صدى فى عبارات القرآن.

- ونحن عندما نقارن معطيات علم الهيدرولوجيا الحديث بكثير من الآيات القرآنية التي تتحدث عن الماء المنزل من السماء، والذي سلكه الله فى الأرض، ثم أخرج به ينابيع، ليزدهر به الزرع، سنلاحظ وجود توافق رائع بين علم الهيدرولوجيا الحديث وبين آيات القرآن.

- وفى البحار.. فإننا لا نجد فى القرآن أية جملة عن البحار تحتوى على مرجع لمعتقدات أو أساطير أو خرافات كانت سائدة فى عصره.

- وعن الجبال كرواسى للأرض: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١]. فالطريقة التى خلقت بها الجبال موائمة للثبات، وذلك يتفق تمامًا مع معطيات علم الجيولوجيا.

- وعن الجو الأرضى.. يحتوى القرآن على بعض عبارات متعلقة بالظواهرات التى تحدث فى الجو والتى إذا قابلناها بمعطيات العلم الحديث فسنلاحظ أنه لا يوجد تناقض بينها وبين المعارف الحديثة التى نملكها اليوم عن الظواهرات المذكورة.

- وحديث القرآن عن الظل، لا نجد فيه تعارضًا مع ما نعرف عن هذه الظاهرة فى العلم الحديث.

- وحديث القرآن عن ثلاثية النحل والعناكب والطيور يستجيب تمامًا للطابع المهم بشكل فريد من وجهة النظر العلمية لكل حيوان من تلك الحيوانات.

- وحديث القرآن عن التعريف بلبن الحيوان: ﴿وَلِأَنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنذِرُوا﴾ [النحل: ٦٦]. يتفق هذا التعريف القرآنى بمكونات لبن الحيوان مع معطيات المعرفة الحديثة اتفاقًا تامًا.

وإنى أعتقد أن وجود الآية القرآنية التى تشير إلى تلك المعلومات لا يمكن تفسيره وضعيًا، وذلك بالنظر إلى بعد العصر الذى صيغت فيه هذه المعلومات.

- وفى التناسل الإنسانى.. يصف القرآن مراحلہ بالدقة والتحديد، دون أن يكون فى قراءتها أى مقولة مشوبة بالخطأ، وتتفق تمامًا مع ما سيكتشف بعد ذلك بكثير. فالنطفة - الكمية الضئيلة جدًا اللازمة للإخصاب: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾

[المؤمنون: ١٣] تتفق تمامًا مع ما نعرفه اليوم. وتطور الجنين في الرحم كما يصفه القرآن يستجيب تمامًا لما نعرفه اليوم عن بعض مراحل تطور الجنين، ولا يحتوى هذا الوصف على أى مقولة يستطيع العلم الحديث أن ينقدها.

ومع اتفاق المقولات القرآنية مع العلم الحديث، فمن المهم أيضًا مقابلتها بالمعتقدات العامة التى كانت سائدة عن هذا الموضوع فى عصر تنزيل القرآن، وذلك حتى ندرك إلى أى حد كان معاصرو هذه الفترة بعيدين عن حيازة معلومات تشبه تلك التى يعرضها القرآن فى هذه المسائل.

إن مقولات القرآن عن التناسل البشرى تعبر فى ألفاظ بسيطة عن حقائق أولى أنفقت مئات السنين لمعرفةا.

- ولم يستبعد القرآن الحياة الجنسية والتربية الجنسية: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْرِضُوا إِلَيْهَا فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهَا حَتَّى يَطْهَرَ فَإِذَا ظَهَرَ فَأْتَوْهَا مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (٢٢٢) ﴿فَسَأَلُوكُمْ حَرْثُكُمْ فَأَتَوْا حَرْثَكُمْ أَنِّي شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لَأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٢، ٢٢٣].

- وتحريم الإجهاض، احترامًا للحياة الإنسانية منذ مرحلة العلقه أمر يؤكده القرآن كثيرًا، وفيه إدانة جذرية للإجهاض.

وبناء على كل هذه المقولات النظرية الخاصة بالتناسل، والتوجيهات العملية التى يصوغها القرآن فيما يختص بحياة الأزواج الجنسية، نلاحظ أنه ليس هناك أى مقولة تتعارض مع معطيات المعارف الحديثة، ولا مع ما يمكن أن يخرج منطقياً عنها.

- وفى مراحل الخلق للكون.. فإن كلمة «يوم» كما يفهم من التوراة تعرف المسافة الزمنية بين إشراقين متواليين وذلك بالنسبة لسكان الأرض.

أما القرآن فإن كلمة أيام، فى الواقع، يجب أن تفهم على أنها تعنى «مراحل» بل تعنى أيضًا دهرًا طويلاً أو فترة من الزمن غير محدودة وإن طالت: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]. ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

ولا شك أن العلم الحديث قد أثبت بشكل قاطع أنها فترات زمنية طويلة جدًا، تتضاءل إلى جانبها الأيام كما نفهمها وتصبح شيئًا تافهًا.

إن الإسلام قد اعتبر دائمًا أن الدين والعلم توأمان متلازمان، فمنذ البدء كانت العناية بالعلم جزءًا لا يتجزأ من الواجبات التي أمر بها الإسلام. وإن تطبيق هذا الأمر هو الذى أدى إلى ذلك الازدهار العظيم للعلوم فى عصر الحضارة الإسلامية، تلك التى اقتات منها الغرب نفسه.

هكذا كان مقام «معيار الدراية العلمية» فى التنزيل القرآنى.

* * *

* فإذا جئنا إلى «معيار الدراية» فى التوراة.. وموقف هذا الكتاب من المعارف العلمية.. وجدنا:

- أن التوراة تحتوى على أخطاء ذات طابع تاريخى.. ومن زاوية المنطق يمكن أن نتيين عددًا كبيرًا من المتناقضات والأمور غير المعقولة فى التوراة.. وإن الفكرة العامة التى نستطيع الخروج بها من هذه الأخطاء هو أنه لا يجب أن نأخذ النص مأخذًا حرفيًا..

وفى سفر التكوين توجد أكثر المتناقضات وضوحًا مع العلم الحديث..

- فى ترتيب الخلق.. إن القول بوجود الماء فى تلك المرحلة - [الأولى] - غلط.

- ومن غير المنطقى أن يذكر النور فى اليوم الأول، بينما وجود مصدر النور «المنيرة» لم يأت إلا فى اليوم الرابع.

- ووضع الليل والنهار فى اليوم الأول هو أمر مجازى صرف، فالليل والنهار باعتبارهما عنصرين ليوم غير معقولين إلا بعد وجود الأرض ودورانها تحت ضوء نجمها الخاص بها، أى الشمس.

- وأن يكون هناك فى تلك الفترة عالم نباتى ينتظم جيداً بالتناسل بالبذرة قبل ظهور الشمس (التي تظهر كما يقول سفر التكوين فى اليوم الرابع) وأن ينتظم تعاقب النهار والليل، فذلك ما لا يمكن مطلقاً القول به.

- ووضع الشمس والقمر بعد خلق الأرض يناقض المعلومات الأساسية عن تشكل عناصر النظام الشمسى.

- وهناك خطأ فى وضع ظهور الحيوانات الأرضية بعد ظهور الطيور.

- إن تعاقب الأحداث - فى النصف الكهنوتى لسفر التكوين - يناقض المعلومات العلمية الأصلية.. وهذه الرواية الكهنوتية للخلق تبدو كبناء خيالى مبتكر كان يهدف إلى شىء آخر غير التعريف بالحقيقة..

- وفى النص اليهودى - لسفر التكوين - ظهر عالم النبات فى وقت ظهور الإنسان على الأرض، وهذا خطأ علمى، فقد ظهر الإنسان على الأرض حين كانت الأرض منذ زمن حاملة للنباتات.

- والتقدير العبرى لعمر العالم هو سبعة وثلاثون قرناً - تقريباً - قبل الميلاد، بينما يحدد العلم الزمن الذى يفصلنا عن تكوّن النظام الشمسى بأربعة مليارات ونصف من السنوات..

- والإشارة إلى راحة الله - فى اليوم السابع - الذى تعب من عملة طيلة الأسبوع.. يتناقض مع المعروف تماماً فى أيامنا أن تشكل الكون والأرض قد تم على مراحل تمتد على فترات زمنية شديدة الطول، لا تسمح المعطيات الحديثة بتحديد مدتها حتى تقريباً.

إذن هناك استحالة اتفاق واضحة بين ما يمكن استنتاجه من المعطيات الحسابية لسفر التكوين الخاصة بظهور الإنسان على الأرض وبين أكثر المعارف تأسيساً فى عصرنا. ولم يعد مقبولاً فى القرن العشرين حساب الزمن بالاعتماد على مثل هذا الوهم.

وكيف لا ندهش لذلك، خاصة إذا علمنا أن النص الأكثر تفصيلية عن رواية الخلق في التوراة قد كُتب بأقلام كهنة عصر النفى إلى بابل [٥٩٧ - ٥٣٨ ق.م] وقد كان لهؤلاء الكهنة أهداف تشريعية اصطنعوا لها رواية تتفق ونظراتهم اللاهوتية.

- وعن حادث الطوفان - [فى عهد نوح عليه السلام] - فليس فى التوراة رواية واحدة فقط عنه، بل هناك روايتان، ولكنهما حررتا فى عصور مختلفة..

هناك الرواية اليهودية، التى ترجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد.. وهناك الرواية الكهنوتية التى ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد، والتى أخذت هذا الاسم لأنها مؤلف لكهنة ذلك العصر..

وبين النصين توجد تناقضات صارخة.. ويقول الأب ديفو: «إنهما حكايتان للطوفان تختلف فيهما العوامل التى أدت إلى الطوفان، كما يختلف زمن وقوعه، ويختلف عدد الحيوانات التى شحنها نوح بالسفينة».

إن رواية الطوفان بالعهد القديم غير مقبولة فى إطارها العام، وذلك لسببين يتضحان على ضوء المعارف الحديثة:

(أ) يعطى العهد القديم للطوفان طابعاً عالمياً.

(ب) وعلى حين لا تعطى فقرات المصدر اليهودى للطوفان تاريخاً، تحدد الرواية الكهنوتية زمن الطوفان فى عصر لم يكن من الممكن أن تقع به كارثة من هذا النوع.

.. كيف يمكن اليوم تصور أن كارثة عالمية قد دمرت الحياة على كل سطح الأرض (باستثناء ركاب السفينة) فى القرن ٢١ أو ٢٢ ق.م؟ ففى ذلك العصر كانت هناك على نطاق عدة من الأرض حضارات قد ازدهرت، وانتقلت أطلالها إلى الأجيال التالية.

وبالنسبة لمصر، على سبيل المثال، كان ذلك فى الفترة الوسطى التى تلت نهاية الدولة القديمة وبداية الدولة الوسطى، وبالنظر إلى ما نعرف من تاريخ هذا العصر فإنه يكون مضحكاً القول بأن الطوفان قد دمر فى ذلك العصر كل الحضارات.

وعلى ذلك، ومن وجهة النظر التاريخية، فيمكن تأكيد أن رواية الطوفان، مثلما تقدمها التوراة، متناقضة بشكل واضح مع المعارف الحديثة، وإن وجود روايتين هو دليل حاسم على تعديل البشر للكتب المقدسة.

إن في الإصحاحات ٦، ٧، ٨ من سفر التكوين - الخاصة بالطوفان - تناقضات صارخة.. ففيها تنتقل من مصدر إلى آخر في الرواية سبع عشرة مرة وذلك خلال مائة سطر تقريباً من النص.

- وهناك مقطع من الرواية (وهو كهنوتي الأصل) يشير إلى أن نوحاً قد أخذ زوجاً من كل نوع، ثم يحدد المقطع التالي (وهو من الأصل اليهودي) أن الله قد أمر بأخذ سبعة سبعة من كل نوع ذكر وأنثى من الحيوانات المسماة بالطاهرة، وزوجاً واحداً من الحيوانات المسماة بغير الطاهرة. ولكن بعد ذلك يتحدد أن نوحاً لن يدخل إلى السفينة فعلاً إلا زوجاً من كل نوع من الحيوانات.

- وهناك فقرة (وهي من الأصل اليهودي) تشير أن عامل الطوفان هو ماء المطر، ولكن هناك فقرة (وهي كهنوتية الأصل) تقدم سبب الطوفان على أنه مزدوج، أي ماء المطر والينابيع الأرضية.

- وحسب هذه النصوص، فإن للطوفان مدتين مختلفتين: إذ تقول الرواية اليهودية: أربعون يوماً طوفاناً. على حين يقول النص الكهنوتي: مائة وخمسون يوماً.

- ويقول سفر التكوين إن الطوفان قد خص وعم كل الجنس البشري، وكل الكائنات الحية التي خلقها الله قد أعدمته على الأرض.

وإذا كان نوح - حسب التوراة - قد ولد بعد ١٦٥٦ عاماً من خلق آدم.. وما بين الطوفان وميلاد إبراهيم هو ٢٩٢ سنة - حسب قائمة الأنساب التوراتية - فإن من المستحيل أن تعيد البشرية بناء حضاراتها من جديد في هذه المدة القصيرة.. فالمعطيات التاريخية تثبت استحالة هذه الرواية مع المعارف الحديثة، وتنزع عن النص أية معقولة.

فحسب سفر التكوين يكون الطوفان قد وقع فى القرن ٢١ أو ٢٢ ق.م، وعصر إبراهيم يحدد بسنوات ١٨٠٠ - ١٨٥٠ ق.م. وفى عصر إبراهيم كانت الحضارة المصرية مزدهرة.. وكذلك فى بابل. ومن المعروف أنه لم يحدث انقطاع فى هذه الحضارات، وبالتالي لم يحدث إعدام يخص البشرية برمتها كما تقول التوراة.

إن سفر التكوين قد عدل على الأقل مرتين، وهذا على مدى ثلاثة قرون، فكيف ندهش حين نجد فيه أموراً غير معقولة أو روايات يستحيل أن تتفق مع واقع الأشياء؟!.

ولا يحتاج المرء فى عصرنا لأن يكون حبراً عظيمًا ليعرف أن العالم لم يخلق وأن الإنسان لم يظهر على الأرض منذ ٣٧ أو ٣٨ قرنًا، وأن هذا التقدير المستنبط من الأنساب فى التوراة يمكن التأكيد بغلظه دون المخاطرة بالوقوع فى الخطأ.

إن المعلق على التوراة - [من رجال الكهنوت] - يرفض أى فحص قد تقوم به علوم الجيولوجيا والإجاثة والمعطيات الخاصة بما قبل التاريخ على روايات التوراة. إن هذه الكتب تحتوى على شوائب وشىء من البطلان، ومع ذلك ففيها شهادة عن تعليم إلهى.

- وإذا كان هذا هو اللامعقول الذى جاء عن الطوفان بالتوراة، فإن القرآن يقدم للطوفان رواية شاملة مختلفة، لا تثير أى نقد من وجهة النظر التاريخية.. إنه يقدم كارثة الطوفان باعتبارها عقابًا نزل بشكل خاص على شعب نوح، وهذا يشكل الفرق الأساسى الأول بين الروايتين.

أما الفرق الجوهرى الثانى، فهو أن القرآن، على عكس التوراة، لا يحدد زمن الطوفان، ولا يعطى أية إشارة عن مدة الكارثة نفسها.

وبذلك يصبح واضحًا تمام الوضوح عدم إمكانية اتفاق رواية التوراة - فى تقديمها للطوفان بزمنه ومدته - مع مكتسبات المعرفة الحديثة، وعلى العكس من ذلك، فإن رواية القرآن تتضح خالية من أى عنصر مثير للنقد الموضوعى.

* وعن واقعة خروج بنى إسرائيل من مصر - مع موسى عليه السلام - يقص القرآن الخروج دون التحديدات الجغرافية التى تعطيها رواية التوراة، ودون التحديدات

كتاب القرآن والتوراة والإنجيل والعلم

العديدية الواردة فى هذه الرواية، والتي يصعب تصديقها.. إذ لا نرى جيداً كيف استطاع ٦٠٠,٠٠٠ رجل بأسرهم أن يمشوا طويلاً فى الصحراء حسب قول التوراة.. ف ٦٠٠,٠٠٠ رجل بأسرهم يكوّنون احتمال جماعة من أكثر من مليونين من السكان.. وبالنسبة لبدن فرعون الخروج.. فأى بيان رائع لآيات القرآن ذلك الذى يخص بدن فرعون، والذى تهبه قاعة الموميات الملكية بدار الآثار بالقاهرة لكل من يبحث فى معطيات المكتشفات الحديثة عن أدلة على صحة الكتب المقدسة.

إنها شهادة مادية فى جسد محنط على من عرف موسى وعارض طلباته وطارده فى هروبه ومات فى أثناء هذه المطاردة. وأنقذ الله جسده من الهلاك التام ليصبح آية للناس كما هو مكتوب فى القرآن: [اليوم ننجيك بدنك لتكون لمن خلفك آية].. - [وفى موميا هذا الفرعون - منفتح - بالمتحف المصرى - حبات ملح البحر الذى أغرق فيه.. شهادة على الصدق القرآنى فى الرواية والدراية جميعاً]..

* * *

* أما عن غيبة معيار «الدراية» فى الأناجيل..

- فإن لوقا (٣، ٢٣ - ٢٨) يعطى المسيح نسباً يختلف عن ذلك الذى فى إنجيل متى.

- ولقد زال نسب المسيح من نص مخطوطة إنجيل متى Codex Bezae Cantabrigiensis المهمة جداً والتي ترجع إلى القرن السادس.

- وقبل إبراهيم يذكر لوقا عشرين اسماً، أما العهد القديم فلا يذكر إلا تسعة عشر اسماً فقط..

- ومن إبراهيم إلى داود: نجد عددًا يتراوح بين ١٤ و ١٦ اسماً، وذلك حسب المخطوطات.

- ومن داود إلى المسيح - فى النسخة المعروفة Canlabrigiensis Codex Bezae - أضاف الناسخ إليها خمسة أسماء.

ومما يؤسف له أن الجزء الخاص بنسب المسيح من هذه المخطوطات قد اختفى، وبهذا لم تعد المقارنة ممكنة.

- وفى نسب إبراهيم: إن لوقا فقط هو الذى يعطى معلومات عن أسلاف إبراهيم حتى آدم، وهو يعطى عشرين اسمًا، يوجد منها، كما قلنا، تسعة عشر اسمًا بسفر التكوين (الإصحاحات ٤ و ٥ و ١١).

فهل يمكن تصور أنه لم يكن هناك إلا ١٩ أو ٢٠ جيلًا من الكائنات البشرية قبل إبراهيم؟!!

إننى لا أستطيع أن أقبل بأن يقال بصحة وإلهام الله لنص أقرأ فيه أن عشرين فقط من الأجيال قد عاشت بين أول إنسان وإبراهيم، يقول ذلك لوقا فى إنجيله (٣، ٢٣، ٢٨).. إن نص لوقا، كالنص الخاص بنفس الموضوع فى العهد القديم، قد صدر عن الخيال البشرى.

وإذا رجع القارئ إلى جدول أنسال آدم حسب سفر التكوين.. فسيجد أنه قد مر حوالى ١٩ قرنًا بين ظهور الإنسان على الأرض وميلاد إبراهيم.. وعلى هذا فإن الجزء السابق على إبراهيم من نسب المسيح حسب إنجيل لوقا يصبح غير مقبول فى ضوء المعارف الحديثة.

- وتحتوى شجرة نسب المسيح عند لوقا على ٤٢ اسمًا بعد داود.. أما إنجيل متى فيشير إلى ٢٧ اسمًا بعد داود.. إذن فعدد أسلاف المسيح (الاعتباريين) بعد داود مختلف فى الإنجيلين، ويضاف إلى ذلك أن الأسماء نفسها مختلفة، وبهذا يثبت أن متى قد عدّل فى تسلسل نسب المسيح فى العهد القديم لكى يقدم مجموعة مصطنعة من ١٤ اسمًا بين داود والنفى إلى بابل.

وفى العديد من النقاط المختلفة عند لوقا يسقط الأسماء ويضيف أسماء أخرى بحيث أن أية قائمة تتكون عنده من ٧٧ اسمًا هى قائمة مصطنعة، حتى وإن تمتعت بقابلية الدخول فى مثل هذه الألعاب الحسابية.

لا شك أن نسب المسيح فى الأنجيل موضوع، الأمر الذى دفع المعلقين المسيحيين إلى بهلوانيات جدلية متميزة صارخة تكافئ الوهم والهوى عند كل من لوقا ومتى.

- ويلاحظ الأب روجى R.P.Roguet أن عيد الفصح معين بشكل مختلف زمنياً بالنسبة إلى عشاء المسيح الأخير مع الحواريين.

فيوحنا يقول بوقوع هذا العشاء قبل عيد الفصح، أما الأنجيل الأخرى فتقول إنه حدث أثناء عيد الفصح نفسه..

وعندما ندرك أهمية عيد الفصح فى الطقوس اليهودية، والأهمية التى اكتسبها هذا العشاء الذى ودع فيه المسيح حواريه، فكيف يمكن تصور أن التراث الذى نقله المبشرون فيما بعد قد نسى زمن هذا العشاء بالنسبة إلى عيد الفصح؟.. إن العشاء الأخير للمسيح والآلام يحتلان فى إنجيل يوحنا مساحة كبيرة تبلغ ضعف المساحة عند كل من مرقس ولوقا. ويزيد نص يوحنا بمقدار مرة ونصف مرة عن نص متى. ويسرد يوحنا خطبة طويلة للمسيح نحو تلامذته، ويحتل سرد هذه الخطبة أربع صفحات (من ١٤ إلى ١٧) فى إنجيله. وعبر هذا الحديث الأعظم يعطى المسيح آخر إرشاداته إلى تلامذته الذين سيتركهم كما يسلمهم وصيته الروحية، وليس هناك أى أثر من هذا فى الأنجيل الأخرى.

- وأهم ما يلفت قارئ الآلام فى إنجيل يوحنا هو أنه لا يشير أية إشارة إلى تأسيس القربان المقدس فى أثناء عشاء المسيح الأخير مع الحواريين.

- وإنجيل يوحنا وحده هو الذى يسرد غسل المسيح لأقدام تلامذته فى بداية العشاء.

- ويوحنا هو الوحيد الذى يذكر ما يخص «خبز الحياة».. المن الذى وهبه الله فى الصحراء لعصر خروج اليهود الذين قادهم موسى.

وهكذا يمكن أن ندهش لصمت يوحنا على ما يسرده المبشرون الثلاثة الآخرون، ولصمت هؤلاء الثلاثة على ما أعلن المسيح عنه فى قول يوحنا.

- ويوحنا وحده هو الذى يذكر ما حدث بقانا من تحويل الماء إلى خمر.. وهى أول معجزة للمسيح.

- ولوقا لا يشير إلا إلى ظهور المسيح ثلاث مرات بعد قيامته.. أما يوحنا فيقول إنه ظهر مرتين على ثمانية أيام بمجمع بيت المقدس، ثم فى المرة الثالثة يظهر بالقرب من البحيرة.. إذن بالجليل.. أما متى فإنه يتحدث عن مرة واحدة لظهور المسيح بالجليل. وكل هذه الأمور تتناقض مع الإشارة إلى ظهور المسيح المحتواة فى رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس (١٥، ٥-٧) إذ يقول إنه قد ظهر لأكثر من خمسمائة شخص فى وقت واحد ولجأك ولكل الحواريين، دون أن ينسى نفسه.

- يضاف إلى ذلك أن هناك تناقضاً بين رواية «أعمال الرسل» - وهى من تأليف لوقا المبشر - عن ظهور المسيح لبولس وبين ما يقوله لنا بولس عن ذلك بشكل موجز.. إن التناقض جلى بين بولس، وهو الشاهد المعاین الوحيد، ولكنه مشكوك فيه، وبين الأناجيل.

- ويلاحظ أ. كولمان - فى كتابه [العهد الجديد] - التناقضات بين لوقا ومتى: فالأول يقول بظهور المسيح فى الناصرة Jadee، أما الثانى فيقول إنه ظهر بالجليل.

- وفيما يخص التناقض بين لوقا ويوحنا عن ظهور المسيح للصيادين بعد قيامته على شاطئ بحيرة طبرية وحصولهم بعد ذلك على سمك كثير حتى أنهم لا يستطيعون حمله (يوحنا - الإصحاح ٢١ الآيات من ١ إلى ١٤) فليس إلا رواية معادة لنفس حدث معجزة الصيد بنفس المكان فى حياة المسيح (لوقا الإصحاح الخامس - الآيات من ١ إلى ١١).

- وبالنسبة إلى صعود المسيح، فإن مرقس ولوقا فقط يتحدثان عن هذا، بينما لا يشير يوحنا ولا متى إلى ذلك.

- ويوحنا هو المبشر الوحيد الذى سرد ما حدث فى نهاية العشاء الأخير للمسيح وقبل القبض عليه (فيفرد لها أربع صفحات من ١٤ إلى ١٧) بينما لا نجد لتلك الرواية

أثراً في الأناجيل الأخرى. فكيف يمكن أن نشرح الغياب التام في أناجيل متى ومرقس ولوقا لرواية الوداع المؤثر الذي يحتوى على الوصية الروحية للمسيح؟!

- وفي توصية المسيح بالفارقليط - المرشد - فإن يوحنا وحده يسميه بشكل صريح بالاسم اليوناني parakletos الذي أصبح في الفرنسية paraclet.

وها هي ذى الفقرة الجوهرية من هذه الخطبة حسب الترجمة المسكونية للعهد الجديد: «إذا كنتم تحبوننى فستعملون على اتباع أوامرى، وسأصلى للأب الذى سيرسل لكم paraclet آخر (١٤، ١٥ - ١٦)».

وإن النص الذى نملك حالياً لإنجيل يوحنا يشرح معنى الكلمة بالألفاظ التالية: «paraclet الروح القدس، الذى سيرسله الأب باسمى سيبلغكم كل شىء وسيجعلكم تتذكرون كل ما قلت لكم (١٤، ٢٦)» «هو نفسه سيشهد بى (٢٦٩٥)» «رحلى فائدة لكم، لأننى إذا لم أرحل فالك paraclet لن يأتى إليكم، وعلى العكس، فإذا رحلت فسأبعث به إليكم، وهو بمجيئه سيذهل العالم فيما يخص الخطيئة والعدل والحكم (١٦، ٧، ٨)» «عندما سيأتى روح الحقيقة، فسيجعلكم ترقون إلى الحقيقة بكاملها، لأنه لن يتكلم بإرادته، وإنما سيقول ما يسمع وسيعرفكم بكل ما سيأتى، وسيمجدنى» (١٦، ١٣ - ١٤).

وعندما يقول المسيح، حسب إنجيل يوحنا (١٦، ١٤): «سأصلى لله وسيرسل لكم paraclet آخر»، كما كان هو وسيطاً لدى الله وفى صالح البشر فى أثناء حياته على الأرض.

وذلك يقودنا بمنتهى المنطق إلى أن نرى فى الـ paraclet عند يوحنا كائناً بشرياً مثل المسيح يتمتع بحاستى السمع والكلام، وهما الحاستان اللتان يتضمنهما نص يوحنا بشكل قاطع.

إذن فالمسيح يصرح بأن الله سيرسل فيما بعد كائناً بشرياً على هذه الأرض، ليؤدى الدور الذى عرفه يوحنا. ولنقل باختصار: إنه دور نبي يسمع صوت الله، ويكرر على مسامع البشر رسالته. ذلك هو التفسير المنطقي لنص يوحنا إذا أعطينا الكلمات معناها الفعلية.

إن وجود كلمة «الروح القدس» فى النص الذى نملك اليوم قد يكون نابغاً من إضافة لاحقة إرادية تماماً تهدف إلى تعديل المعنى الأول لفقرة تتناقض، بإعلانها مجيء نبي بعد المسيح، مع تعاليم الكنائس المسيحية التى أرادت أن يكون المسيح هو خاتم الأنبياء.

- إن العبارات المذكورة فى الأناجيل تثبت هى نفسها التناقضات الجلية فى هذه الأناجيل.

- وكثير من المسيحيين يجهلون هذه التناقضات والأمور غير المعقولة أو التى لا تتفق مع العلم الحديث، وهم يصابون بالذهول عندما يكتشفون كل هذا.

- ولقد أوضحت دراسات نقد النصوص الحديثة المعطيات التى قد تكون، فى رأى الأب كاتينجر: «ثورة فى مناهج التفسير» والتى تؤدى إلى «عدم الأخذ بحرفية الأمور الواردة بشأن المسيح فى الأناجيل، فهذه الأخيرة «كتابات ظرفية» أو «خصامية». إن المعارف الحديثة، وقد ألفت النور على تاريخ اليهودية - المسيحية»، والتنافس بين الطوائف، توضح وجود أمور تحير قراء عصرنا.

لم يعد مفهوم المبشرين كشهود معانين قابلاً للدفاع، وإن ظل حتى يومنا هذا مفهوم كثير من المسيحيين.

إن مؤلفات مدرسة الكتاب المقدس - بالقدس - (الأب بينوا والأب يوامار) تثبت جيداً أن الأناجيل قد كتبت ونقحت وصححت أكثر من مرة. ولهذا ينذر هذان الكاتبان قارئ الإنجيل بأن عليه أن يتخلى فى أكثر من حالة عن سماع صوت المسيح المباشر. وهذا يؤدى بنا إلى مقارنة الإنجيل بالشعر الملحمى فى أدب القرون الوسطى.

فخيالات متى..

والتناقضات الصارخة بين الأناجيل..

والأمور غير المعقولة..

وعدم التوافق مع معطيات العلم الحديث..

كتاب القرآن والتوراة والإنجيل والعلم

والتحريفات المتتالية للنصوص، كل هذا يجعل الأناجيل تحتوى على إصحاحات وفقرات تنبع من الخيال الإنسانى وحده.

ولكن هذه العيوب لا تضع فى موضع الشك وجود رسالة المسيح، فالشكوك تخيم فقط على الكيفية التى حررت بها.

* وبنظرة مقارنة.. فلقد ذكر القرآن نسب المسيح من جهة أمه - فهو دائماً ابن مريم - وذلك أمر منطقي تماماً، إذ ليس للمسيح أب بيولوجي.. بينما إنجيلي متى ولوقا يعطيان للمسيح نسبين مختلفين من جهة الذكور.

ولا يجد القارئ للقرآن أخطاء فى أسماء كتلك التى يجدها فى الأناجيل، ونعنى الأخطاء الخاصة بأسلاف المسيح واستحالات الأنساب فى العهد القديم.

وفى هذا رد على الذين يزعمون أن محمداً هو مؤلف القرآن، وأنه قد نقل من التوراة إذ لو كان ذلك حقاً لتساءلنا: من الذى دفعه، أو ما الحجة التى أقنعت بالعدول عن نقل التوراة فيما يتعلق بأسلاف المسيح؟ وبإدخال تصحيح فى القرآن يضع نصه بعيداً عن أى مرمى نقدى تثيره المعارف الحديثة، على حين أن نصوص الأناجيل والعهد القديم غير مقبولة بالمرّة من وجهة النظر هذه؟؟.

* إننا عندما نتحدث عن حقائق العلم فإننا نعنى بها كل ما قد ثبت منها بشكل نهائى.

وليس هناك أى وجه للمقارنة بين القليل جداً لما أثارته التوراة من الأمور ذات الصفة العلمية وبين تعدد وكثرة الموضوعات ذات السمة العلمية فى القرآن، وأنه لا يتناقض موضوع ما من مواضيع القرآن العلمية مع وجهة النظر العلمية.

وبفضل الدراسة الواعية للنص العربى للقرآن استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوى على مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم فى العصر الحديث.

أما التوراة، فإن المعطيات الخاصة بقدّم الإنسان فيها غير صحيحة. وفي سفر التكوين وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخاً في عصرنا.

وبالنسبة للأناجيل، فما نكاد نفتح الصفحة الأولى منها حتى نجد أنفسنا دفعة واحدة في مواجهة مشكلة خطيرة، ونعنى بها شجرة نسب المسيح، وذلك أن نص إنجيل متى يناقض بشكل جلي إنجيل لوقا، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمراً لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدّم - [عمر] - الإنسان على الأرض..

وإن كثيراً من المسيحيين ظلوا يجهلون نقاط الضعف الخطيرة في كثير من المقاطع في العهد القديم والأناجيل.

* * *

* هكذا تحدث العلامة الدكتور موريس بوكاي - في كتابه الفذ [القرآن والتوراة والإنجيل والعلم] - فعرض هذه الكتب المقدسة الثلاثة على معايير المصادقية للنصوص - معايير «الرواية» و«الدراية» - وخلص إلى ما خلاص إليه من أن:

- القرآن هو كلمة الله ووحيه المباشر، الذي تواتر نصه - المحفوظ في الصدور والمكتوب في السطور - والذي اتفقت حقائقه مع معطيات العلم الحديث.. بل وسبقت اكتشافات العلم الحديث.

- بينما افتقر الكتابان الآخران - التوراة والإنجيل - إلى صدق «الرواية» و«الدراية» جميعاً في الأغلب من الأحوال..

* وأمام هذا الإنجاز العلمي المتفرد - الذي أسس مدرسة جديدة في النقد العلمي للكتب المقدسة - يرد السؤال:

- هل هناك شهادات أخرى شهد بها شهود من أهلها على هذا الذي شهد به العلامة الدكتور موريس بوكاي؟

كتاب القرآن والتوراة والإنجيل والعلم

وفى الإجابة عن هذا السؤال - ومراعاة للمقام الذى يقتضى الإيجاز - فإننا نورد ثلاث شهادات لمصادر يهودية ونصرانية تدعم الحقائق التى قدمها موريس بوكاي - وخاصة فى معيار «الرواية» لهذه الكتب المقدسة الثلاثة..

١ - وأولى هذه الشهادات هى شهادة علماء اليهود أنفسهم أولئك الذين تخصصوا فى علم نقد النصوص الدينية، وعرضوا عليه نصوص أسفار العهد القديم.. ومن هؤلاء العلماء العديد من الحاخامات.. ولقد جمع دراساتهم العالم اليهودى «زلمان شازار» فى كتاب عنوانه [تاريخ نقد العهد القديم من أقدم العصور حتى العصر الحديث].. وهو الكتاب الذى امتلأت فصوله وصفحاته بالشهادات اليهودية القاطعة بأن أسفار العهد القديم إنما هى ثمرة لتراكم تراث شفهي، تكوّن عبر قرون طويلة، وعصور مختلفة، وبيئات متباينة، وثقافات متميزة، ومصادر متعددة، ومؤلفين مختلفين.. ومن ثم فإن أغلب هذه الأسفار لا علاقة لها بموسى - عليه السلام - ولا بالبيئة الصحراوية - سيناء - التى نزلت فيها توراة موسى.

نعم.. يشهد علماء اليهود أنفسهم - شهادة شهود من أهلها - على أن أسفار العهد القديم هذه هى «ركام من الاختلافات.. والتحريفات» فيقولون - على سبيل المثال: «إن هذه الأسفار المقدسة هى من طبقات مختلفة، وعصور متباينة، ومؤلفين مختلفين، حيث تستوعب هذه الأسفار ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة من الزمن.. فلا ارتباط بينها، سواء فى أسلوب اللغة أم فى طريقة التأليف.

إن القسم الأكبر من توراتنا، لم يكتب فى الصحراء - (سيناء)، وموسى لم يكتب التوراة كلها.. وأقوال التوراة ليست إلا لفائف من أماكن وعصور مختلفة لرجال وحكام وعشائر وأسباط مختلفة.. ففيها ثمانى مجموعات تعود إلى عصور مختلفة، وهى:

١ - لفائف قديمة تعود إلى عصر الصحراء - (فى سيناء) - تم تحريرها من قبل أحد أبناء أفرام - (أى فى أرض كنعان) -.

٢ - ولفائف من تعاليم الكهنة، تمت إضافتها إليها حتى عصر يوشع بن صادق.

- ٣ - ولفائف أعداد الأسباط.
 - ٤ - ولفائف باعترافات الأنبياء.
 - ٥ - ومجموعات من روايات بيت داود.
 - ٦ - وأقوال الأنبياء ومجموعاتهم في بابل.
 - ٧ - وأقوال الكهنة والأنبياء العائدين من السبي.
 - ٨ - وتكميلات مختارة من عصر الحشمونيين - (أى القرن الثامن قبل الميلاد).
- إن سفر التكوين قد أُلّف بعد مئات السنين من استيطان اليهود في فلسطين، وبعد أن تحصّن الأسباط في إرث استيطانهم بزم من طويل، وإن مؤلف السفر لم يكن موجوداً على كل حال قبل عصر إشعيا - (أى حوالى ٧٣٤ - ٦٨٠ ق.م).
- أما بالنسبة لسفرى الخروج والعدد، فإنهما معالجة لأساطير وأشعار قديمة.
- وإن الإصحاحات الثمانية والثمانين الموجودة فى التوراة بين أنشودة موسى - الموجودة فى سفر الخروج - وحتى الإصحاح الأخير من سفر العدد - هى فى مجموعها كتاب أحكام مركب من أجزاء شعرية وتاريخية، وأحكام وقواعد الكهنة، وطبيعة الأحداث فيها تستلزم أن تتزايد التغيرات والازدواجيات والتعديلات، حيث إن العلاقة بين الأحداث ضعيفة، ومن الصعب علينا فهمها. وفى الأسفار كانت أقوال موسى قليلة إلى حد ما. كما أن أقوال داود قليلة فى سفر آخر منسوب إليه..^(١).
- كما أن القداسة التى أضفيت على أسفار هذا الكتاب هى طارئة.. حدثت بعد عصر موسى - عليه السلام - بأكثر من عشرة قرون.. وبعد تدوين «عزرا» [القرن الخامس ق.م] لما دون من هذه الأسفار بأربعة قرون.. فلم يكن هناك من يقدس هذه الأسفار قبل عصر المكابيين (١٦٨ - ٣٧ ق.م).. وبعبارة الفيلسوف اليهودى «سينوزا» [١٦٣٢ - ١٦٧٧ م] - وهو من الخبراء فى نقد نصوص العهد القديم:

(١) زلمان شازار - محرر - [تاريخ نقد العهد القديم من أقدم العصور حتى العصر الحديث] ص ١٩٦، ٢٠٦، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٠. ترجمة: د. أحمد محمد هويدى. مراجعة: د. محمد خليفة حسن. طبعة المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة سنة ٢٠٠٠ م.

كتاب القرآن والتوراة والإنجيل والعلم

«فإنه حتى عصر المكابيين لم تكن الأسفار المقدسة قد أُقرت، وإن حكماء التلمود (الفريسيين) قد اختاروا هذه الأسفار من بين بقية الأسفار، وذلك زمن الهيكل الثانى، ثم رتبوها، ورفعوها لمرتبة الكتابات المقدسة»^(١).

أى أن الصورة التى بين أيدينا لأسفار العهد القديم، وتاريخ تقديسها إنما هو القرن الأول قبل الميلاد - أى بعد موسى - عليه السلام - وتوراته بأكثر من عشرة قرون! تلك هى الشهادة الأولى - لعلماء اليهود - التى تدعم شهادة العلامة الدكتور موريس بوكاى.

٢ - وثانى هذه الشهادات - الداعمة لشهادة موريس بوكاى على مصداقية الرواية فى الأنجيل - هى شهادة [دائرة المعارف البريطانية] - وهى أوثق وأشهر دوائر المعارف فى العالم المسيحى - وفى بلد ترأس الملكة فيه الكنيسة.. ولقد جاء فى دائرة المعارف هذه عن الأنجيل الأربعة:

أ - إنجيل متى: «إن كون متى هو مؤلف هذا الإنجيل أمر مشكوك فيه جداً»^(٢).. ومن المسلم به أن متى قد اعتمد فى كتابة إنجيله على إنجيل مرقس، أول الأنجيل تأليفاً، حيث حوى ٦٠٠ عدد من أعداد إنجيل مرقس البالغة ٦٢١ عدداً، أى ٩٠٪ من محتويات إنجيل مرقس.

الأمر الذى يقطع بأن متى ليس من الحواريين، وإنما هو من التابعين، اعتمد فى إنجيله على إنجيل الحوارى مرقس.

ب - إنجيل مرقس: تقول عنه الموسوعة البريطانية: «فى أفضل المخطوطات، فإن الأعداد من ٩ إلى ٢٠ تعتبر عمومًا إضافات متأخرة.. والأعداد الأخيرة - ١٦: ٩ - ٢٠ - غير موجودة فى بعض المخطوطات، ويوجد عوضاً عنها مقاطع أقصر فى مخطوطات أخرى، وهناك خلاف حول تأليف مرقس لهذا الجزء»^(٣).

(١) المصدر السابق. ص ١٠٠. ولقد كتب «سينوزا» ذلك فى [رسالة فى اللاهوت والسياسة] الفصل الحادى عشر.

(٢) المجد ٦ ص ٦٩٧.

(٣) المصدر السابق. المجلد الثانى ص ٩٥١، ٩٥٣.

ج - إنجيل لوقا: تقول عنه الموسوعة البريطانية: «إن مؤلف هذا الإنجيل يظل مجهولاً»^(١).

د - إنجيل يوحنا: - وهو الإنجيل الوحيد الذى نص بكل صراحة على ألوهية عيسى، حيث نقل عن عيسى أنه قال: «أنا والآب واحد» - يوحنا ١٠: ٣٠ - «الذى رأتى فقد رأى الآب» - يوحنا ١٤: ٩ - «أنا فى الآب والآب فى» يوحنا ١٤: ١٠ -

فإن هذا الإنجيل يتعارض مع الأناجيل الأخرى فى أمور مهمة جداً وحاسمة، فهو يذكر أن المسيح قد صلب يوم ١٤ نيسان (إبريل) بينما يفهم من بقية الأناجيل أن الصلب كان يوم ١٥ نيسان. ولا يذكر يوحنا فى إنجيله تفاصيل رواية القربان المقدس - أو العشاء الأخير - التى أصبحت فيما بعد شعيرة من شعائر المسيحية، ولا يذكر أن المسيح تعمّد بواسطة يوحنا العمدان. وفى حين يفهم من إنجيل يوحنا أن رسالة المسيح استغرقت ثلاثة أعوام فإنه يفهم من الأناجيل الأخرى أنها استغرقت عامًا واحدًا.

ويوحنا هو الوحيد الذى ذكر أن عيسى أخبر تلاميذه، قبل صلبه، أنه سيرسل «الفارقليط».

وهذه الاختلافات المهمة - وغيرها كثير - جعل الموسوعة البريطانية تورد قول الأسقف «بايلاس» - المتوفى سنة ١٣٠ م - أى المعاصر لكتابة الأناجيل - عن وجود أكثر من يوحنا - يوحنا بن زبدي، الحوارى.. ويوحنا آخر، وهو الكاهن فى أفسس.

وفى داخل الإنجيل، يفهم أنه كتب بواسطة حوارى محبوب مجهول الاسم.

وبما أن الشواهد الداخلية والخارجية مشكوك فيها، فإن الفرضية المطروحة لهذا العمل هى: أن إنجيل يوحنا ورسائله حررت فى مكان ما فى الشرق، ربما فى أفسس، كإنتاج لمدرسة أو دائرة متأثرة بيوحنا فى نهاية القرن الأول الميلادى^(٢).

(١) المصدر السابق. المجلد الثانى. ص ٩٥٤.

(٢) المصدر السابق. المجلد الثانى. ص ٩٥٥.

كتاب القرآن والتوراة والإنجيل والعلم

* كما تشهد دائرة المعارف البريطانية على «أن جميع النسخ الأصلية للعهد الجديد، التي كتبت بأيدي مؤلفيها الأصليين، قد اختفت، وأن هناك فاصلاً زمنياً لا يقل عن مائتين أو ثلاثمائة سنة بين أحداث العهد الجديد وتاريخ كتابته مخطوطاته الموجودة حالياً»^(١).

* وفوق كل ذلك «فإن جميع نسخ الكتاب المقدس، قبل عصر الطباعة تظهر اختلافات في النصوص.. وإن مقتبسات آباء الكنيسة من كتب العهد الجديد، والتي تغطيه تقريباً، تظهر أكثر من مائة وخمسين ألفاً (أكثر من ١٥٠,٠٠٠) من الاختلافات بين النصوص - في الأناجيل المختلفة.. وفي الإنجيل الواحد»^(٢)!!

٣ - أما الشهادة الثالثة - التي نضيفها لشهادات العلامة الدكتور موريس بوكاي - فهي خاصة بمصادقية الرواية لنص القرآن الكريم.. كتبها قسيس انجليكاني - ابن قسيس - خدم في كنائس لندن وأدنبرة والقدس.. وأنفق من عمره أكثر من ثلث قرن في دراسة القرآن والإسلام - وأنجز في ذلك دراساته العيا، مع العديد من الكتب عن الإسلام وعصر النبوة ودولتها.. ثم توج دراساته هذه بالكتاب الذي أصدره سنة ١٩٦٩م عن [الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر].. ذلكم هو المستشرق الحجة د. مونتهجرى وات [١٩٠٩ - ٢٠٠٦م] الذي كتب عن مصداقية وموثوقية النص القرآني فقال:

«لقد شهدت بدايات القرن العشرين صرعة [مودعة] تقديم القرآن للقارئ الأوروبي باعتباره مختارات من الأفكار اليهودية والمسيحية، بالإضافة لقليل من الزيادات المحددة. ومعنى هذا انتفاء الجدة والأصالة.

والواقع أن هذه النظرة تعد بقية من بقايا الدعاية المسيحية التي سادت فترة الحروب الصليبية، عندما كان على أوروبا الغربية - التي كانت ترتعد فرائضها من جيوش الإسلام - أن تقوى دفاعاتها برسم صورة زائفة عن الإسلام.

(١) المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ٩٤١.

(٢) المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ٩٤١.

إن القرآن لم يكن مجرد ترديد لأفكار يهودية ومسيحية، فلقد أكد الإسلام نفسه بالفعل كدين مستقل عن اليهودية والمسيحية.. وثمة ما يؤكد أن الإسلام كان بمثابة مستودع لدين إبراهيم في حالة نقائه الأولى..

إن الوحي الإسلامي لا بد من تناوله بجدية.. إن القرآن صادر عن الله، وبالتالي فهو وحى، وليس كلام محمد بأى حال من الأحوال، ولا هو نتاج تفكيره، وإنما هو كلام الله وحده، قصد به مخاطبة محمد ومعاصريه، ومن هنا فإن محمدًا ليس أكثر من رسول اختاره الله لحمل الرسالة إلى أهل مكة أولاً، ثم لكل العرب، ومن هنا فهو قرآن عربى مبين.

وهناك إشارات فى القرآن إلى أنه موجه للجنس البشرى قاطبة، وقد تأكد ذلك عملياً بانتشار الإسلام فى العالم كله، وقبله بشر من كل الأجناس تقريباً.. إن القرآن يحظى بقبول واسع بصرف النظر عن لغته، لأنه يتناول القضايا الإنسانية..

إننا نؤمن بصدق محمد وإخلاصه عندما يقول: إن كلمات القرآن ليست نتيجة أى تفكير واع منه.. إن القرآن لا ينبغى النظر إليه باعتباره نتاج عبقرية بشرية.. وإن التجربة النبوية مع الوحي يمكن إيجاز ملامحها الرئيسية فيما يلى:

١ - محمد يشعر، وهو فى حالة وعى، أن هناك كلمات بعينها تُلقى فى روعه، أو تحضر فى قلبه أو عقله الواعى.

٢ - وأن هذه الكلمات والأفكار لم تكن أبداً نتيجة أى تفكير واع من جانبه.

٣ - أنه يعتقد أن هذه الكلمات التى أُلقيت فى روعه من قبل «مندوب» أو «مبعوث» خارجى يتحدث إليه كملك.

٤ - أنه يعتقد أن هذه الرسالة قادمة من الله تعالى.

وعندما تحدى محمد أعداءه بأن يأتوا بسورة من مثل السور التى أُوحيت إليه، كان من المفترض أنهم لن يستطيعوا مواجهة التحدى، لأن السور التى تلاها محمد

هى من عند الله، وما كان لبشر أن يتحدى الله، وليس من شك فى أنه ليس من قبيل الصدفة أيضًا أن كلمة (آية) تعنى علامة على القدرة وتعنى أيضًا فقرة من الوحي.

وعندما تمت كتابة هذا الوحي شكّل النص القرآنى الذى بين أيدينا.. وفى الحديث عن جمع القرآن نجد أن كلمة (جمع) قد استخدمت فى آيات قرآنية مهمة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأَهُ فَأُنْصِتْ لَهُ إِنَّهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿ [القيامة: ١٦ - ١٩].

ومن الممكن أن يكون التفسير الطبيعى لهذه الآيات: أن محمدًا مادام يتبع تلاوة من يتلو (جبريل) فإن الله تكفل بجمع الآيات المتفرقة، أو التى أوحى بها فى أوقات مختلفة، ليجعلها فى سياق واحد.

وإذا لم يكن محمد هو الذى رتب القرآن بناء على وحي نزل عليه، فمن الصعب أن نتصور أن زيد بن ثابت [١١ ق.هـ - ٤٥ هـ - ٦٠٠ - ٦٦٥ م] أو أى مسلم آخر يقوم بهذا العمل، ومن هنا فإن كثيرًا من السور قد اتخذت شكلها الذى هى عليه منذ أيام محمد نفسه.

إن القرآن كان يُسجل فور نزوله.. ولقد تبوأ القرآن دائمًا - فى حياة المجتمع الإسلامى - مكان المركز، أو القطب، أو المحور، وصنع نسيج الحياة الإسلامية، والنظرة العقلية للعالم والكون...

ولو احتفظ يهود العصر ومسيحيوه بيهوديتهم ومسيحياتهم فى حالة نقاء لا عترفوا بالرسالة التى ألقاها الله إليهم عن طريق محمد، تمامًا كما فعل ورقة بن نوفل [١٢ ق.هـ - ٦١١ م] الذى أفادت الروايات أن استجابته كانت إيجابية لمحمد..

ومن هنا يمكن أن نقول إن إشارات القرآن إلى تحريف لحق اليهودية والمسيحية بصورتها الموجودة فى أيام محمد قول صحيح..^(١)

(١) مونتجمرى وات [الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر] ص ٢٢ - ٢٢٦. ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ. طبعة القاهرة - مكتبة الأسرة - سنة ٢٠٠١ م.

* تلك شهادات ثلاث - لشهود من أهلها تدعم الشهادات الفريدة والتميزة للعلامة الدكتور موريس بوكاي.. التي تضمنها كتابه الفذ: [القرآن والتوراة والإنجيل والعلم] الذي مثل فتحًا جدًّا في ميدان نقد الكتب المقدسة، يعرضها على معايير «الرواية» و«الدراية» التي اصطلح عليها العلماء..

العلامة الشيخ محمد بخيت المطيعي

[١٢٧١ - ١٣٥٤ هـ - ١٨٥٤ - ١٩٣٥ م]

* هو الإمام العلامة الشيخ محمد بخيت بن حسين المطيعي [١٢٧١ - ١٣٥٤ هـ - ١٨٥٤ - ١٩٣٥ م].

* ولد في بلدة «القطيعة» - بالقاف - من أعمال أسيوط - بصعيد مصر - .. ولقد سعى إلى تغيير اسمها إلى «المطيعية» فاشتهرت بذلك، ونسب إليها.

* نشأ في أسرة علم، درست الفقه على المذهب المالكي - كجمهور سكان صعيد مصر - أما هو فكان أول من درس الفقه على المذهب الحنفي.

* حفظ القرآن الكريم وجوده، والتحق بالأزهر الشريف في سن مبكرة. وكان متميزاً بالفهم والحفظ، فتفوق على أقرانه، وبرع في تحصيل العلوم النقلية والعقلية - علوم السلف والأوائل، وعلوم الخلف والمحدثين.

* أخذ العلم عن كوكبة من علماء عصره.. منهم مفتي المالكية الشيخ محمد عlish [١٢١٧ - ١٢٩٩ هـ - ١٨٠٢ - ١٨٨٢ م]، والشيخ عبد الرحمن الشربيني [١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م]، والشيخ أحمد الرفاعي [١٣٠٢ هـ - ١٨٩٤ م]، والشيخ أحمد منة الله [١٢١٣ - ١٢٩٢ هـ - ١٧٩٨ - ١٨٧٥ م]، والشيخ السقا - إبراهيم بن علي - [١٢١٢ - ١٢٩٨ هـ - ١٧٩٧ - ١٨٨١ م]، والشيخ محمد الخضري [١٢٨٩ - ١٣٤٥ هـ - ١٨٧٢ - ١٩٢٧ م]، والشيخ حسن الطويل [١٢٥٠ - ١٣١٧ هـ - ١٨٣٤ - ١٨٩٩ م]، والشيخ محمد البهوتي، والشيخ عبد الرحمن البجراوى [١٢٣٥ - ١٣٢٢ هـ - ١٨١٩ - ١٩٠٤ م]، والشيخ محمد الفضالى الجروانى [١٣٣٦ هـ - ١٩١٧ م] وغيرهم..

* واتصل بالسيد جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ - ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] وكان له تقدير كبير لأبرز أعلام مدرسته الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م].

* نال شهادة العالمية من الدرجة الأولى سنة ١٢٩٤ هـ سنة ١٨٧٧ م. وأنعم عليه الخديوى إسماعيل [١٢٤٥ - ١٣١٢ هـ - ١٨٣٠ - ١٨٩٥ م] بكسوة التشريفة - من الدرجة الثالثة - مكافأة له على نبوغه وفضله.

* اشتغل بالتدريس - بالأزهر - عقب تخرجه فيه.

* انتقل للعمل بالقضاء الشرعى سنة ١٢٩٧ هـ سنة ١٨٨٠ م.. فمارس القضاء بالمحكمة الشرعية - بالقاهرة - ثم بمحكمة الاستئناف بالإسكندرية.

* عين مفتياً للديار المصرية فى سنة ١٣٣٣ هـ سنة ١٩١٤ م وحتى سنة ١٣٣٩ هـ سنة ١٩٢١ م عندما أحيل إلى التقاعد.

* ومع الإفتاء والقضاء ظل مواظباً على التدريس بالأزهر، حتى أنه كان يسافر من الإسكندرية إلى القاهرة لإلقاء الدروس بالأزهر ثم يعود إلى الإسكندرية قاضياً بمحكمة الاستئناف.

* نال عضوية هيئة كبار العلماء منذ تأسيسها سنة ١٣٢٩ هـ سنة ١٩١١ م.

* مثل هيئة كبار العلماء بلجنة وضع دستور سنة ١٣٤١ هـ سنة ١٩٢٣ م - لجنة الثلاثين.. ولقد اعتمدت اللجنة اقتراحه النص فى الدستور على أن مصر دينها الإسلام ولغتها العربية.

* التقى بديع الزمان سعيد النورسى [١٢٩٣ - ١٣٧٩ هـ - ١٨٧٣ - ١٩٦٠ م] إبان حكم جماعة الاتحاد والترقى - الطورانية العلمانية - للدولة العثمانية - ودار بينهما حوار - بحضرة كوكبة من العلماء - وفيه سأل الشيخ بخيت النورسى:

- ما تقول فى حق هذه الحرية العثمانية والمدنية الأوروبية؟

فأجابه النورسى - وكأنه ينظر بنور الله:

- إن الدولة العثمانية حاملة - [حُبلى] - بدولة أوروبائية، وستلد يومًا ما. وإن أوروبا حاملة - [حُبلى] - بالإسلامية، وستلد يومًا ما.

فعلق الشيخ بخيت:

- وأنا أصدق ما يقوله.

ثم قال لمن حوله من العلماء:

- لا أناقش هذا، ولا أتمكن أن أغلبه!

* لقد كان الشيخ بخيت - رحمه الله - نابغة عصره وإمام دهره، واشتهر بأنه حلال المشكلات ورجل المعضلات. وكان مبرزًا في علم الأصول والمنطق واستنباط الأحكام الشرعية. وكان شديد التمسك بالحق، ينسى مصالحه الخاصة في سبيل نصرة الحق.

* وكان دائم التدريس للعلوم الشرعية - النقلية والعقلية - لطلبة العلم الشريف في أى مكان حل فيه، وقد درّس الكتب المطولة في علوم التفسير والحديث والفقه وأصول الفقه والتوحيد والفلسفة والمنطق وغيرها.

* وكان ذا خلق حسن، سهلًا في التدريس، واسع الصدر، يتحمل من الطلبة كثرة الأسئلة، وطول الجدل، وربما بقى الطالب يجادله ساعة حتى يذهب الدرس كله في الجدل، والأخذ والرد، وهو لا يتكدر ولا يتألم.. فلقد كان متواضعًا مع طلابه، يمازحهم في الدرس، وكان حلو النادرة مقبول الفكاهة، لا تمر به طرفة فيسكت عنها، حتى اشتهرت طرائفه بين الناس. وكان محبًا للطلبة الغرباء، ميالًا إليهم، حتى كانوا يفضلونه على غيره من الشيوخ.. وفي أواخر أيامه كان الطلبة الأغراب هم جمهور درسه - من الأتراك والهنود والعراقيين والأكراد وغيرهم.

* وكان يواسى الفقراء، والطلبة الأغراب، يمدّهم بالمال ويساعدهم، وكانوا يترددوا إلى بيته، فيجالسهم في مجلسه، ويحسن إليهم.

* وقد تخرج على فضيلته كثير من أفاضل العلماء، حتى وصلت طبقات الذين تخرجوا على يديه إلى الطبقة الرابعة أو الخامسة.. ومن مشاهيرهم: السيد عبد الله

بن الصديق الغمارى، والشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف - الأستاذ بكلية الشريعة - وغيرهم.

ولقد قال يوماً - فى الدرس - لطلبته: عليكم بثلاثة أمور، وأنا أضمن لكم النجاح فى العلم، وأضمن لكم الغنى، قالوا: وما هى؟ فقال: اطلبوا العلم لله، ولا تتركوا الصلاة، واعتقدوا الأولياء والصوفية.

* وكان يكثر من مطالعة الكتب الأجنبية المترجمة، وكتب المعاصرين، ويقرأ الصحف المحلية والأجنبية كما كان مولعاً باقتناء الكتب الكثيرة، يدفع فيها الأموال الطائلة، حتى جمع مكتبة ضخمة.. وهبها إلى مكتبة الأزهر، وجعلها وقفاً عليها.

* ومع كثرة الاطلاع.. كانت غزارة التأليف.. ولقد قال أحد تلاميذه - أحمد بن الصديق: دخلت عليه يوماً فوجدته يكتب فى حاشيته على شرح الإسنوى على منهاج البيضاوى فى الأصول، فقال لى: أنا مريض، والطبيب منعنى من الكتابة، ولكن ماذا أصنع؟ إن العلماء يقرؤون الآن فى الأزهر حاشيتى، وكلما طبعت ملزمة دفعتها إليهم، فإذا تأخرت توقفوا عن التدريس.

ولقد كتب حاشيته هذه - وهى أربعة مجلدات - فى وقت قليل جداً، وذلك لاستيعابه المصادر، وجلده فى البحث والتأليف.

* وكانت شجاعته فى الحق السبب فى صدور قانون تقاعد مفتى الديار المصرية عند سن الستين - ولقد كان أول من طبق عليه هذا القانون - وذلك أن بعض الأغنياء قد بنى مسجداً وأوقفه لله، فاحتاجت الحكومة لموضع هذا المسجد، فاستفتت الشيخ بخيت فى هدم المسجد، فقال لهم:

- إذا وافقكم ربه فلا مانع.

فاستأذنت الحكومة الباشا الذى بنى المسجد، فوافق على هدمه.. فرجعوا إلى الشيخ ليصدر فتواه، وقالوا له:

- إن ربه قد وافق.

- فقال: ومن ربه؟

- فقالوا: فلان باشا.

- فقال: ليس هو صاحبه الآن، فإنه قد أوقفه لله، وصار لله تعالى، فهو ربه الذي قلت لكم إن وافقكم فاهدموه.

ولقد غضبت الحكومة من موقف المفتي هذا.. وتحدث رئيسها محمد توفيق نسيم باشا [١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م] بما يدل على عدم الرضى.. فلما بلغ المفتي كلام رئيس الوزراء.. قال:

- نحن لا نعبأ بكلام العيال.

فأسرها رئيس الوزراء في نفسه، وقال:

- سوف يعلم من العيال؟.

واجتمع مجلس الوزراء، وقرر أن المفتي باعتباره موظفًا عامًا يجب أن يحال إلى المعاش عندما يبلغ السن القانونية.. فأحيل الشيخ بخيت إلى المعاش.. وجرى تطبيق هذا القرار على من يتولى منصب مفتي الديار المصرية منذ ذلك التاريخ - سنة ١٣٣٩هـ - سنة ١٩٢١م.

* ولقد خلف الشيخ بخيت ثروة من الأعمال العلمية والفكرية، التي عكست تضلعه في فقه الأصول وفي فقه الواقع المعيش.. ومنها:

١ - جمع الجوامع - في أصول الفقه -.

٢ - القول الجامع في الطلاق البدعي والمتتابع.

٣ - إرشاد الأمة في إحكام الحكم بين أهل الذمة.

٤ - حاشية على شرح الدردير على الخريدة في علم الكلام.

٥ - الكلمات الحسان في الأحرف السبعة وجمع القرآن.

٦ - أحسن الكلام فيما يتعلق بالسنة والبدعة من الأحكام. طبعت بمطبعة الشعب بالقاهرة سنة ١٣٢٠هـ - سنة ١٩٠٢م. ثم في مطبعة كردستان العلمية بالقاهرة سنة ١٣٢٩هـ - سنة ١٩١١م.

- ٧ - الفتاوى الفقهية - فى أربعة مجلدات.
- ٨ - الأجوبة المصرية على الأسئلة التونسية - أجاب فيها عن أسئلة وردت إليه من الشيخ محمد العروسى السهلى الشريف المتطوع بالجامع الأعظم بتونس. طبعت بمطبعة النيل بالقاهرة سنة ١٣٢٤هـ سنة ١٩٠٦م.
- ٩ - القول المفيد على وسيلة العبيد فى علم التوحيد. طبع بالمطبعة الخيرية بالقاهرة سنة ١٣٥٤هـ سنة ١٩٢٥م.
- ١٠ - رسالتا الفونوغراف والسوكرتاه.
- ١١ - الجواب الشافى فى إباحة التصوير الفوتوغرافى. طبع بالمطبعة الخيرية بالقاهرة.
- ١٢ - حسن البيان فى دفع ما ورد من الشبه على القرآن.
- ١٣ - تطهير الفؤاد من دنس الاعتقاد. وهو كالمقدمة على كتاب شفاء الأسقام لتقى الدين السبكى. طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣١٨هـ سنة ١٩٠٠م.
- ١٤ - أحسن القرا فى صلاة الجمعة فى القرى. طبعت بالمطبعة الشرقية بالقاهرة سنة ١٣٢٧هـ سنة ١٩٠٩م.
- ١٥ - إرشاد أهل الملة إلى إثبات الأهله. فرغ من تأليفه سنة ١٣٢٩هـ سنة ١٩١١م. وطبع بمطبعة كردستان العلمية بالقاهرة سنة ١٣٢٩هـ سنة ١٩١١م.
- ١٦ - إرشاد العباد إلى الوقف على الأولاد. طبع مطبعة الرغائب بالقاهرة سنة ١٣٣٤هـ سنة ١٩١٦م.
- ١٧ - حل الرمز على معنى اللغز.
- ١٨ - الدرر البهية فى الصلاة الكمالية.
- ١٩ - رسالة فى الآيات الكونية والعمرانية.
- ٢٠ - إزاحة الوهم وإزالة الاشتباه عن رسالتى الفوتوغراف والسوكرتاه. طبع مطبعة النيل بالقاهرة سنة ١٣٢٤هـ سنة ١٩٠٦م.

- ٢١ - البدر الساطع على جمع الجوامع، في أصول الفقه.
- ٢٢ - الكلمات الطيبات في المأثور عن الإسراء والمعراج.
- ٢٣ - إرشاد القارئ والسامع إلى أن الطلاق إذا لم يُضف إلى المرأة غير واقع. طبع المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٧ هـ سنة ١٩٢٨ م.
- ٢٤ - الخمسة الفردية في مدح خير البرية.
- ٢٥ - تناول سبيل الله في مصارف الزكاة - فرغ من تأليفه سنة ١٣٤٨ هـ سنة ١٩٢٩ م. وطبع بمطبعة الترقى بدمشق الشام سنة ١٣٤٨ م سنة ١٩٢٩ م.
- ٢٦ - الدراري البهية في جواز الصلاة على خير البرية. طبع مطبعة الآداب البهية بالقاهرة سنة ١٣٠٧ هـ سنة ١٨٩٠ م.
- ٢٧ - رفع الإغلاق عن مشروع الزواج والطلاق. فرغ من تأليفه سنة ١٣٤٥ هـ سنة ١٩٢٧ م. طبع بالمطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٦ هـ سنة ١٩٢٨ م.
- ٢٨ - محاضرة في نظام الوقف. طبع المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٥ هـ سنة ١٩٢٧ م.
- ٢٩ - المرفقات اليمانية في عنق من قال ببطلان الوقف على الذرية. طبع المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٤ هـ سنة ١٩٢٦ م.
- ٣٠ - حقيقة الإسلام وأصول الحكم. طبع المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٤ هـ سنة ١٩٢٥ م.

* وهي ثروة فكرية، وصرح علمي يكشف عن قامة علمية لجبل من جبال العلم الإسلامي في عصرنا الحديث.. رحمه الله رحمة واسعة.. ويسر لتراثه هذا من طلاب العلم من يدرسه، ويجمع شتاته في أعمال كاملة تعيد له الفاعلية في واقعنا الفكري المعيش.

كتاب حقيقة الإسلام وأصول الحكم

فى هذا الكتاب [حقيقة الإسلام وأصول الحكم] للعلامة الشيخ محمد بخيت المطيعى [١٢٧١ - ١٣٥٤ هـ - ١٨٥٤ - ١٩٣٥ م].

* يتجلى الشيخ المطيعى جبلاً شاهقاً من جبال العلم الإسلامى، وعالمًا موسوعيًا مستوعبًا لعلوم الأصول والفقه والمنطق والتاريخ والتفسير والحديث - رواية ودراية - والفكر السياسى فى تراث الإسلام وحضارته.

* وداعية إلى مراجعة المواقف الخاطئة.

* والكتاب يعلم قارئه المنطق الإسلامى.. ويعيده إلى أجواء علم علماء الإسلام.. فهو بحر محيط من العلم الأصولى يسبح فيه القارئ، ويتعلم منه آداب البحث والمناظرة التى استوت على عودها فى حضارتنا الإسلامية.

* وهو يورد آراء الخصم - على عبد الرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ - ١٨٨٧ - ١٩٦٦ م] - بنصها، ويفندها فقرة فقرة - حتى فى حال تكرارها - فقارئه كأنما يقرأ ما قاله الخصم مع الرد عليه، فهو كتابان - بل عدة كتب - فى كتاب.

* وفى الكتاب تفصيلات تفصح عن سعة علم صاحبه، وتقدم لقارئه علمًا إسلاميًا غزيرًا فى الفقه السياسى الإسلامى، أصبح - مع الأسف الشديد - غائبًا عن ساحات الدرس الإسلامى والثقافة الإسلامية.

* وفيه تنبيه على حقيقة أن مصدر السلطة فى الإمامة والخلافة هم أهل الحل والعقد - أهل الذكر - الممثلون للأمة - التى هى مصدر السلطات... وهذا مذهب

إسلامى متميز عن الديمقراطية الغربية - ديمقراطية العامة الذين توجههم مراكز القوى..

* وفيه تأكيد على أن الإسلام هو أول من سن سنة: «الأمة مصدر السلطات»، ولا مذهب آخر لجميع المسلمين فى مصدر السلطة ..

* أما الحاكم المتغلب، المستجمع لشروط الإمامة، فهو حاكم ضرورة، اغتصب السلطة بالقوة، دون الشورى والاختيار والبيعة، فلا شرعية له، لكنه - للضرورة - يطاع فى غير المعصية.. وسبب آفة التغلب هو ضعف الأمة، ولا علاقة له بنظام الإمامة والخلافة، القائم على الشورى والاختيار والبيعة الحرة..

* وإذا كان كثير من العلماء قد ردوا على كتاب [الإسلام وأصول الحكم] فإن الشيخ محمد بخيت المطيعى هو أكثر أصحاب هذه الردود غزارة فى علوم الأصول والفروع.. ورده أكثر هذه الردود استشهاداً بكتب الأصول والسياسة الشرعية.. فهو بحر محيط يتعلم قارئه منه ما لا يتعلم من الردود التى تميزت بالإيجاز.

* وفى الرد على إنكار على عبد الرازق وجود نظام حكم ودولة فى العهد النبوى، أعاد الشيخ المطيعى - فى كتابه - إحياء تراث الإسلام فى معالم الدولة الإسلامية الأولى - بالمدينة المنورة -..

* ولقد جاء هذا الكتاب نموذجاً للتحقيق العلمى وللتوثيق الدقيق للشواهد التى يستشهد بها على الآراء التى يقدمها..

* إنه ديوان فى أصول الحكم الإسلامى.. وليس مجرد تفنيد لدعاوى كتاب [الإسلام وأصول الحكم].. وهو الوحيد الذى أعاد نشر معالم دولة النبوة، ليرد، بحقائق السنة والسيرة والتاريخ، على دعاوى أن الإسلام: دين لا دولة، ورسالة لا حكم..

* وفى الكتاب نقد علمى متميز لاستشهاد على عبد الرازق بما سماها «الكلمة البالغة» - كلمة الإنجيل: أعطوا ما لقيصر قيصر.. فضلاً عن تمييزه شريعة الإسلام عن الشرائع الأخرى..

كتاب حقيقة الإسلام وأصول الحكم

* وفيه كشف لجهل على عبد الرازق بالكثير من حقائق التراث.. من مثل خلطه بين العلماء الذين تشابهت أسماؤهم - حاتم الأصم البلخي - الحنفى - [٢٣٧هـ] والأصم - المتكلم المعتزلى [٢٧٩هـ - ٨٩٢م].. والفرق بين منظومة عبد السلام اللقانى [١٠٤١هـ] [جوهرة التوحيد] وبين [اتحاف المريد شرح جوهرة التوحيد] لعبد السلام اللقانى [٩٧١ - ١٠٧٨م].. وسخرية من هذا الجهل بالتراث.

* وفيه كشف لتزييف على عبد الرازق معنى كلام رفاة الطهطاوى [١٢١٦ - ١٢٩٠هـ - ١٨٠١ - ١٨٧٣م] عن عمالات ومعالم دولة النبوة فى كتابه [نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز].

* وفيه كشف لخطر القول بأن الإسلام دين لا دولة ورسالة لا حكم على النهوض الوطنى، الذى يحرر أوطان الإسلام من الاستعمار والاستغلال الغربيين، إذن تجريد الجهاد من علاقته بالدين يسهم فى تكريس الهزيمة أمام تحديات الأعداء..

* كما يكشف الكتاب زيف استدلال على عبد الرازق بالآيات القرآنية على أن الرسول - ﷺ - نبى لا حاكم، وذلك بالكشف عن الدلالات الحقيقية لسياق هذه الآيات.. وهو ما غفل عنه - أو تغافل - صاحب [الإسلام وأصول الحكم]..

* كما يكشف الكتاب العديد من الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية - فضلاً عن التاريخية - التى وقعت بكتاب على عبد الرازق.. والتى يحتاج الرد عليها والتصحيح لها إلى كتاب مستقل!! ولقد طالت هذه الأخطاء كتابة بعض الآيات القرآنية!..

* كما يفضح الكتاب محاولات على عبد الرازق - وصحيفة [السياسة] خلط ما جاء بكتابه بآراء الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٥م].. فيبرى الأستاذ الإمام من ذلك، كاشفاً حقيقة آرائه.. ويصنع ذلك مع محاولات تزييف مقاصد أمير الشعراء أحمد شوقى [١٢٨٥ - ١٣٥١هـ - ١٨٦٥ - ١٩٣٢م] أيضاً.

* وغير ما يكشفه هذا الكتاب من علو مقام العلامة الشيخ محمد بخيت المطيعى فى العلوم الشرعية، فإنه يكشف عن تبحره فى العلوم الكونية.. فما حكاه من علوم

الفلك عند العرب والمسلمين وعند الأمم الأخرى دليل على سعة أفقه العلمى والثقافى..

* وإذا كان هذا الكتاب قد مثل ديواناً لتاريخ الدين والدولة والسياسة فى صدر الإسلام، والتاريخ الإسلامى.. فإنه قد تميز عن غيره من الذين ردوا على كتاب [الإسلام وأصول الحكم] بوضعه مؤلفه على السَّقُود، وذلك تعبيراً عن الصدمة التى أحدثها الكتاب للعقل المسلم، الذى لم يسبق له أن شهد دعوى علمنة الإسلام.. وممن؟.. من شيخ أزهرى.. وقاض من قضاة المحاكم الشرعية!!..

* تلك إشارات إلى مكانة هذا الكتاب الذى نقدم بين يديه.. والذى كتبه ونشره الشيخ محمد بخيت المطيعى بذات العام الذى صدر فيه كتاب [الإسلام وأصول الحكم]!! فكان إعلاناً عن حضور ذلك العلم الغزير.. وعن الإخلاص لله ورسوله - ﷺ - ودينه وأمته، ولتاريخ الإسلام.

* * *

أما إذا نحن شئنا - فى هذا التقديم - إشارات إلى أبرز القضايا التى أثارها كتاب [الإسلام وأصول الحكم].. والتى رد عليها وفندها كتاب الشيخ المطيعى [حقيقة الإسلام وأصول الحكم].. فإننا نقدم للقارئ هذه الإشارات حول هذه القضايا.. وذلك على سبيل المثال:

١ - لقد استند على عبد الرازق فى دعواه نفى علاقة الإسلام بالخلافة إلى زعمه خلو القرآن الكريم من الحديث عن الخلافة.. وفى الرد على ذلك قال الشيخ المطيعى:

«إنه لا يلزم أن يذكر القرآن لفظ الخلافة ولا لفظ الإمامة، ولكن القرآن يدل على أنه لا بد للمسلمين من حكومة تقوم بضبط أمورهم الدينية والدنيوية، ولا بد للحكومة من رئيس.. ومتى علمت أن الخلافة هى مُلك سياسى يرجع إلى قوانين سياسية فرضها الله لعباده بشارع قررهما، فهى قوانين سياسية دينية نافعة فى الحياة الدنيا والآخرة، فكيف لا يتوقف عليها إقامة الشعائر الدينية وإصلاح الرعية ونظام الأحكام فى أمور الدنيا والآخرة؟»

إنه مما لا يشك فيه عاقل أن الأمة الإسلامية أمة منتظمة، ولا بد لها من حكومة تبشر شئونها الدينية والدنيوية، وهذه الحكومة هي أرقى وأكمل أنواع الحكومات، وأن الأمة التي اختارت تلك الحكومة هي خير أمة أخرجت للناس، وأنها أول أمة قالت إن الأمة هي مصدر السلطات، وأن حاكمها الذي هو الإمام والخليفة إنما يستمد سلطته منها، وأنها هي أول أمة علمت الأمم غيرها أنه لا بد لحاكمها من التفرغ لشئونها، وأنه لا بد من مرتب يتقاضاه من ماله، وأن الأمة هي التي تقدر ذلك المرتب.

* فالله تعالى كما أنزل على رسوله الكتاب أنزل عليه أنه مأمور بأن يحكم بما أنزل الله إليه.. فالقرآن قانون إلهي فرضه الله على لسان شارعه وشرعه، فهو قانون سياسى شرعى يسلمه جميع المسلمين وينقادون لأحكامه، وقد اشتمل على كل أحكام جميع الحوادث التي حدثت وقت نزوله والتي تحدث وتتجدد إلى أن تنقضى دار التكليف سواء كانت تلك الحوادث متعلقة بأمور الدين أو بأمور الدنيا.. دل على ذلك بعبارة أو بإشارته أو بدلالته أو باقتضائه، بعموم لفظه أو بعموم علة حكمه، وهو المعنى الذى من أجله شرع الحكم، فكان شرعنا قواعد عامة تطبق عليها أحكام الجزئيات من الحوادث بأكملها، فهو يخاطب كل جيل مضى وجيل خالى.. وقد قام الفقهاء بتفصيل ذلك تفصيلاً وافياً كاملاً شافياً.

٢ - وإن الإجماع على وجوب نصب الإمام قد انعقد صريحاً من أصحاب رسول الله - ﷺ - قبل ظهور المخالفين، واستمر كذلك فى التابعين، وتواتر نقله، فالإجماع فى الحقيقة تابع لتواتر المجمع عليه، والمجمع عليه كان يعرفه الكافة، فكان الإجماع على الحقيقة ليس إلا عملاً بما هو ثابت مقطوع به.

* ودعوى أنه لا حاجة بالدين والدنيا إلى الخلافة دعوى غير صحيح، لأنها حكومة كسائر الحكومات التي لا بد للناس منها، بل هي أكمل نوع من أنواع الحكومات، لأن السلطة فيها مستمدة من الأمة، وترجع إلى قوانين سياسية دينية وضعها الله، نافعة فى الحياة الدنيا والآخرة. فكان للمسلمين حاجة ضرورية بهذه الحكومة فى الدين والدنيا، ليعملوا على أن تكون الدنيا مطية الآخرة: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ

الْآخِرَةُ وَلَا تَنْسِكْ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ [القصص: ٧٧].

وقد جرت سنة الشارع على عدم ذكر الوسائل وتركها للناس يتخذ كل واحد منهم الوسيلة التي توصله إلى ما هو المقصود.

حتى جاء في أخريات هذا الزمن هذا المؤلف - [على عبد الرازق] - وخرق الإجماع بلا دليل يعول عليه أو شبه دليل يستند إليه.

ولا شك أن الطعن فيما يُنقل متواتراً لا يقبل، لأنه تشكيك في الضروريات، فلا يُعتمد به.

إن كل ما قاله المؤلف إنما هو متعلق بشخص الخليفة وتصرفاته، لا بنفس الخلافة والإمامة ومقتضياتها.

* إن الدين الذي هو الشريعة لم يخرج عن كونه قوانين سياسية، وما لم تكن لها قوة تحرسها وتحافظ على بيضتها ويكون بها نفاذها تكون كالعدم، ولا بقاء لها - [وهذه القوة هي الخلافة] - فالخلافة، وضمناها الملك السياسي، لا تتم إلا بالدعوة الدينية، والدعوة الدينية - الشريعة والقانون الإسلامي - لا تتم إلا بالخلافة، فكان كل منهما لازماً للآخر.

* وإن وجوب نصب الإمام مسألة فقهية عملية، قام عليها الإجماع من عصر الصحابة، وهو إجماع عام يعرفه العلماء والعوام. وحكم مثل هذا الإجماع أن يكون المجمع عليه عقيدة، ويكون منكراً كافراً، وأما الإجماع الخاص، وهو ما يعرفه العلماء المجتهدون حيث اتفقوا وأجمعوا، ولا يعرفه الخاصة فالصحيح أن منكراً ومخالفه يُضلل ويُبدع ولا يُكفر، وقال فريق بكفره أيضاً.

٣- وخطأ - [على عبد الرازق] - في دعواه خلو كتب الفكر الإسلامي من الحديث عن معالم دولة النبوة، سببه جهله بمصادر هذه المعالم، وهي كتب الحديث والسير، وهي التي جمع منها الخزاعي التلمساني - أبو الحسن على بن محمد - [٧٨٩هـ -

[١٣٨٧م] [كتاب تخريج الدلالات السمعية] الذى لخصه رفاة الطهطاوى [١٢١٦ - ١٢٩٠هـ - ١٨٠١ - ١٨٧٣م] فى كتاب [نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز].
ذلك أن أهل الحديث وأهل السير قد شرحوا بالتفصيل الدقيق نظام حكمته - ﷺ -، ولم يدعوا كبيرة ولا صغيرة إلا ذكروها.

وليست هناك - [كما زعم مؤلف [الإسلام وأصول الحكم] - حيرة ولا اضطراب ولا نقص فى أمر النظام الحكومى فى عهده - ﷺ - ... ولكن المؤلف قد قصد أن يعيب رسول الله - ﷺ - ويتنقصه بما هو براء منه بعيد عنه، فتقول عليه وعلى شرعه وحكمه، وافترى هذه الأقاويل.. ولو أنه أنصف ولم يضل فى النقل لكان ما ذكره رفاة الطهطاوى فى كتابه [نهاية الإيجاز] ملخصاً من [كتاب تخريج الدلالات السمعية] كافياً فى بيان نظام الحكومة النبوية، وأنها كافية كافلة بالحاجة التى يكمل بها فى عصر النبوة معنى الدولة من العمالات التى تتصل بالأموال ومصارفها وغير ذلك مما لا يكمل معنى الدولة إلا به.

لقد قامت فى دولة النبوة العمالات التى تتطلبها الدولة، فاتخذ - ﷺ - الوزراء، وولى القضاة، والأمراء، واتخذ الكتاب والحجاب، وغير ذلك..

* وأما إهمال عامة المؤرخين فى البحث فى نظام الحكم النبوى - إن سلمنا ذلك الذى يدعيه المؤلف - فلأن البحث فى ذلك تكفل به المحدثون فى الكتب الحديثية وأصحاب السير فى كتبهم، وها هى كتب السير وكتب الحديث ناطقة يعرفها العام والخاص، إلا من ختم الله على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۖ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣].

إن علماء الحديث والسير قد اعتنوا بذكر عماله - ﷺ - من ولاية وقواد وقضاة وأمراء وحرس وغير ذلك، مما يدل على أن نظام الحكومة النبوية كان تاماً كافلاً بحاجة الحكومة حينذاك، وأن ما فتح الله لنبيه من البلاد كان دولة وملكاً سياسياً شرعياً فرض الله له قانوناً سياسياً، وأن حكومته كانت خلافة وإمامة من قبل الله تعالى بمقتضى نبوته.

* وبعد أن جهل المؤلف - أو تجاهل - المصادر الإسلامية التي فصلت معالم الخلافة.. ذهب يبحث عنها عند سير توماس أرنولد [١٨٦٤ - ١٩٣٠م]!!... وذلك رغم إجماع المسلمين على أن غير المسلم لا يقبل قوله فيما يتعلق بدين الإسلام، خصوصاً فيما يتعلق بالخلافة، فإن الخلافة الإسلامية هي الشبح المخيف الذي لو رآه أشجع رجل في أوروبا، ولو كان في منامه، لقام فرعاً مذعوراً يرتجف قلبه وتعلوه رعدة، كما ارتعد العصفور بلله القطر، أو كما ارتعد المحموم خالطته البرودة.

وكيف يمكن لمثل السير توماس، أستاذ المؤلف، أن يقول في الخلافة وأهل الخلافة والقائلين بالخلافة كلمة حق وهو خصمهم الألد؟! وأياً ما كان فما بال هذا المؤلف يعدل عن قول أئمة المسلمين ولا يكتفى بإجماع الصحابة وإجماع جميع المجتهدين من عصر الصحابة إلى يومنا هذا بدعوى أن إجماعهم ليس له مستند، ثم يأخذ بقول توماس، وهو خبر آحاد من غير مستند أيضاً من الكتاب والسنة؟! ولو فرضنا وكان هذا القول الذي صدر من توماس وقع من مسلم في مقابلة إجماع، فكيف بذلك القول وهو صادر من رجل غير مسلم، وليس يعدل عند المسلمين، وقد وقع في مقابلة ذلك الإجماع؟!.

٤ - ثم إن هذا المؤلف - عامله الله بعدله - بعد أن نفى عن النبي - ﷺ - المُلْك السياسي، أراد أن يثبت له المُلْك الطبيعي الذي لا يقوم إلا على السيف بحكم القهر والغلبة!! فلا يكون الجهاد جهاداً دينياً مأموراً به من قبل الله تعالى لإعلاء كلمته سبحانه، ولحمل الكافة على الاعتراف بدين الإسلام، وهذا مخالف لصريح القرآن والأحاديث النبوية وما انعقد عليه إجماع الأمة من أن القتال فرض كفاية.

إن القتال لتثبيت السلطان وتوسيع الملك ليس جهاداً مشروعاً في شريعة الإسلام، بل هو محظور وغير مشروع، فمن المحال أن يقع جهاد النبي - ﷺ - لتثبيت السلطان وتوسيع الملك، والواجب عقلاً وشرعاً أن لا يكون إلا لإعلاء كلمة الله والدعوة إلى دين الله الذي هو دين الإسلام ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٩] وذلك لأن القتال لغير إعلاء كلمة الله والدعوة إلى دينه من الكبائر التي عُصِمَ منها جميع الرسل بإجماع الأمة، لأنه قتل أنفُس وتخریب دیار وإتلاف أموال، فهو قبیح

فى ذاته، غير أنه إنما حسن ووجب فى شريعتنا لغيره، وهو ما إذا كان لإزالة ما هو شر منه وهو الكفر، والدعوة إلى ما هو خير محض.

لقد اعترف المؤلف بأن الجهاد وجباية الأموال هو عمل ملكى، بل هو أهم مقومات الحكومات، وهذا اعتراف منه بوجود حكومة للنبي - ﷺ - مشتملة على أهم مقومات الحكومات، وهذا يناقض ما قدمه من أنه لا يوجد للنبي حكومة أصلاً مشتملة على أركان الحكم، غاية الأمر أنه جعل هذا المظهر السياسى وهذه المقومات خارجة عن الرسالة. ولكن هذا لا يخرجها عن أنها كانت موجودة، وكانت حكومة له - ﷺ - فلم يكن هناك شك فى وجودها، فهو حينئذ لا ينكر إلا أن الجهاد وهذه الأعمال المالية من الأعمال الدينية، ويقول إنها من الأعمال الدنيوية. فهى - عنده - ملك طيعى يرجع إلى العسف وسفك الدماء فى سبيل الغرض والشهوة وسعة الملك.

ولا شك أن جعل الجهاد والزكاة - التى هى ركن من أركان الإسلام - وكل ما كان متعلقاً بالشئون المالية عملاً دنيوياً ومنفصلاً عن حدود الرسالة، ولو على سبيل الاحتمال، إنكار لفرضية الجهاد والزكاة ومشروعية الغنائم والخراج وسائر ما يتعلق بالشئون المالية فى عصره - ﷺ - وبالأولى فى عصر أصحابه، وإنكار كل ذلك أو بعضه إنكار لما جاء به - ﷺ - وعلم مجيئه عنه بالضرورة بالأدلة القرآنية القاطعة التى تواتر نقلها وانعقد عليها إجماع المسلمين، وذلك كفر صريح وإلحاد قبيح.

* لقد جعل المؤلف ملة الإسلام قاصرة على أحكام الأمور الدينية، وألغى الأحكام المتعلقة بالأمور الدنيوية، كما أنه ألغى تنفيذ الأحكام، وجعل رسالة الرسول - ﷺ - قاصرة على مجرد التبليغ، وجعل الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة جاءت لتنظيم العلاقة بين الإنسان وربّه، أما ما بين نوع الإنسان من المعاملات الدنيوية وتدبير الأمور العامة فلا شأن للشريعة به، وليس من مقاصدها، ولا بُعث له النبي - ﷺ - وأحى بشيء منه إليه.

* إن الإسلام شرع تبليغى وتطبيقى وتنفيذى، وإن السلطة الدينية والدنيوية اجتمعتا فيه بلا ريب، وإن هذا هو الذى انعقد عليه إجماع الأمة الإسلامية، ودلت عليه نصوص الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وليس هذا هو رأى ابن خلدون

[٧٣٢ - ٨٠٨ هـ - ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م] وحده - كما ادعى المؤلف -.. والرسول - ﷺ -
- كما كان حاكمًا كان مشرعًا، فكل ما صدر عنه قولًا أو فعلًا اعتبر شرعًا وقانونًا
شرعيًا يعمل به من بعده من أمته.

* إن دولة النبوة دولة سياسية شرعية، وهي جزء من رسالته - ﷺ -، وهي أكمل
دولة وأنظم دولة، وهي التي ساست العالم زمنًا طويلًا في أكثر أنحاء المعمورة،
وخضعت لها رقاب الجبابرة في أقاصى البلدان وأدانيها، والتاريخ شاهد عدل لا
ينكر شهادته بذلك إلا كل مكابر يكابر نفسه وينكر حسه.

والرسالة يندرج تحتها الملك السياسى، وهو الذى يرجع إلى تلك القوانين
السياسية الشرعية، ومتى كانت تلك القوانين إنما نزلت من قبل الله على رسوله
ليبلغها ويحكم بها بينهم، كان من ضروريات ذلك أن يكون مأمورًا بالتنفيذ.

وقد اشتهر على لسان جميع العقلاء أن كل قانون لا نفاذ له فهو معطل لا معنى له،
ويكون وضعه والحكم به عبثًا، فهل يمكن أن يؤمر - ﷺ - بتبليغ تلك القوانين ويؤمر
بالحكم بها، ولا يؤمر بتنفيذها؟! سبحانك هذا بهتان عظيم.

ومن ذلك تعلم أن ما قاله ابن خلدون من أن الإسلام شرع تبليغى تنفيذى هو
الحق الذى يقول به جميع المسلمين سلفًا وخلفًا، وهو معلوم من الدين بالضرورة
لانعقاد الإجماع القولى والعملى عليه من زمنه - ﷺ - إلى يومنا هذا، فالقول بخلاف
ذلك كفر صريح، لا يختلف فى ذلك اثنان ممن يؤمنون بالله وكتبه ورسله واليوم
الآخر. وتعلم أن الاعتراض على ذلك الرأى اعتراض ساقط لأنه إنكار للضروريات
فلا يقبل.

إن الإسلام شرع تبليغى وتطبيقى، وإن السلطة الدينية والسلطة السياسية اجتمعتا
فيه دون سائر الأديان.

وإذا رجعنا إلى شريعة نبينا - ﷺ - سنجدنا راجعة إلى كتاب الله تعالى وسنة
رسوله - ﷺ، وكلاهما يشتمل على الحكم التنفيذى التطبيقى فى أمور الدين
والدنيا، وعلى أمر النبى - ﷺ - وأمر أمته بالجهاد وحمل الناس على اتباع شريعته
التي جاء بها واعتناق دينه الذى جاء به.

أما شريعة موسى فهي ترجع إلى التوراة.. وشريعة عيسى ترجع إلى التوراة وإلى الإنجيل، ولا نجد فيهما أمر بجهاد الناس ولا حمل الناس على ما جاء به موسى وعيسى عليهما السلام.

إن ما عدا شريعة محمد - ﷺ - لم يُؤمر بالجهاد إلا دفاعاً.. والديانة المسيحية وعظمت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بها، وترك أمور السلاطين للسلاطين، والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية بل والدينية، ومن وصايا الإنجيل: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر.

وأما الديانة الإسلامية فقد وُضع أساسها على طلب الغلب والشوكة والقوة والعزة ورفض كل قانون يخالف شريعتها وقانونها الإلهي، ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها.

والناظر في الشريعة الإسلامية يحكم حكماً لا ريب فيه بأن المتدينين بها المعتقدين لها لا بد أن يكونوا أول ملة حربية في العالم.

والذي يرجع إلى آيات الأحكام لا يشك ولا يرتاب في أن شرع الإسلام هو شرع السلطة التشريعية والتنفيذية والقوة والبأس.

ولكن المؤلف بادعائه أن الجهاد الذي جاء به القرآن ليس بفرض، ولا هو من الدين في شيء، لأن جهاد النبي كان لأمر الدنيا لا لإعلاء كلمة الله تعالى وإعزاز دين الإسلام، إنما يريد، وهو يزعم أنه من المسلمين، أن يجعل الملة الإسلامية كسائر الملل المسيحية، مع أن هذه الملل قد خرجت من مقتضى شرائعها ودياناتها، وتسابقوا في المفاخرة بزينة هذه الحياة ورغد العيش بها، ولم يقفوا عند حد استيفاء الشهوات والتسارع إلى اقتسام الممالك والتغلب على الأقطار الشاسعة.

ولقد كان الأجدر بالمؤلف، وهو يدعى أنه مسلم، أن ينبه أمته إلى العمل بدينها وشريعتها، ويوقظها من النوم الطويل العميق حتى تخرج من تحت ردم الغفلة الذي تراكم على رجالها وأبنائها فصاروا صما لا يسمعون ما يدبره لهم أعداؤهم، بكما لا ينطقون ببنت شفه دفاعاً عما يقال فيهم من المثالب والمعائب، عمياً لا يبصرون

ما يعد لمهاجمتهم فى عقر ديارهم من الآلات الجهنمية، من طيارات وغواصات وغازات وغير ذلك مما نسمع باختراعه كل يوم.

فهل بعد هذا الذى قلناه يمكن أن يقول عاقل عنده ذرة من العقل وعنده أدنى حب لأُمته ودينه وملته: «رسالة لا حكم. ودين لا دولة»؟!.

إن طبيعة الإسلام تأبى أن ينزل مسلم على حكم غيره، وقد أمروا أن يقاتلوا الناس حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

وإن الغرض الذى يرمى إليه المؤلف هو أن يشطر الملة الإسلامية والشرعية المحمدية قسمين، ويجعل رسالة النبى - ﷺ - قاصرة على ما يتعلق بالأحكام الدينية المحضة، فالشرعية الإسلامية فى زعمه شريعة روحية محضة، جاءت لتنظيم العلائق بين الإنسان وربّه فقط، وأما الأحكام المتعلقة بالمعاملات الدنيوية بين الناس وتدبير الشئون العامة فلا شأن للشرعية الإسلامية بها. فقد ألغى المؤلف من الشريعة الإسلامية كل ما يتعلق بأمور الدنيا، وضرب بآيات القرآن التى جاءت نصّاً فى بيان تلك الأحكام وسنة رسول - ﷺ - التى جاءت فى ذلك كله وبما جاء فيها من تدبير الشئون العامة عرض الحائط.

ولو كانت الشريعة المحمدية قاصرة على الأمور الدينية الروحية لكان معه - ﷺ - فى عصره ملك غيره يسوس الناس فى أمورهم الدنيوية، ويدفع الله به أهل الشرور عن الشرور وأهل الفساد عن الفساد وأهل الظلم عن الظلم، ومن المعلوم بالضرورة أنه لم يكن فى عصره - ﷺ - غيره يسوس أمور الناس، ويدفع كل شر وفساد وظلم.

إن الجهاد وجباية الأموال التى أوجب الله أخذها من الأمة الإسلامية مأمور بها من قبل الله، وهى جزء من الرسالة، وهى أعمال دينية، وإن منكر شىء من ذلك كافر ضال مضل.

ألا ترى إلى أنه - ﷺ - أبطل كل ما كان عليه العرب من العقود الفاسدة، من بيع وغيره، وشرع العقود على وجه محكم منظم؟ يعلم ذلك من رجع إلى كتب الحديث والفقه.

كتاب حقيقة الإسلام وأصول الحكم

* ونحن نوافق المؤلف فى قوله: «لقد كان سلطان النبى - ﷺ - بمقتضى رسالته سلطاناً عاماً، وأمره فى المسلمين مطاعاً، وحكمه شاملاً، فلا شىء مما تمتد إليه يد الحكم إلا وقد شمله سلطان النبى - ﷺ - ولا نوع مما يتصور من الرياسة والسلطان إلا وهو داخل تحت ولاية النبى - ﷺ - على المؤمنين».

لكن المؤلف يعود فيناقض قوله هذا عندما يقول: «تلك زعامة الدعوة الصادقة إلى الله وإبلاغ رسالته، لا زعامة الملك، ولاية الرسول على قومه ولاية روحية منشؤها إيمان القلب وخضوعه خضوعاً صادقاً تاماً يتبعه خضوع الجسم، وولاية الحاكم ولاية مادية تعتمد إخضاع الجسم. تلك ولاية هداية إلى الله وإرشاد إليه، وهذه ولاية تدبير لمصالح الحياة وعمار الأرض، تلك للدين وهذه للدنيا، تلك لله وهذه للناس، تلك زعامة دينية وهذه زعامة سياسية، ويباعد ما بين السياسة والدين» ١.هـ.

فالمؤلف يناقض نفسه، وينقض قوله، ويشطر ملة الإسلام والشرعية المحمدية شطرين، ويلغى منها الشرط المتعلق بالأحكام الدنيوية، ويفرق بين زعامة الرسالة وزعامة الملك، وينفى زعامة الملك السياسى عن النبى - ﷺ .

وإن مثله كمثلى الربوع يتخذ لنفسه وجحره بابين لكى إذا قصده الصياد من أحدهما هرب من الآخر. ولكن الربوع خير من المؤلف، لأنه حين ما اتخذ مثل هذا القول تكأة يعتذر بها عند المؤخذاة لم يحتط لنفسه، بل ناقضه نفسه.

* كذلك استعمل المؤلف المغالطة عندما قال: إن الدنيا أهون عند الله من أن يبعث لها رسولاً.

وجعل هذه المغالطة دليلاً على ما يقول من أن النبى - ﷺ - لم يبعث لأحكام الدنيا، ولا لينفذ فيها حكماً، فقلب الموضوع، وجعل ما يقتضى بعثة الرسول مقتضياً لعدمه، ولم يفرق بين أغراض الدنيا وبين الأحكام التى تتعلق بأغراض الدنيا، وهذا غريب فى التضييل والتغريب بالبسطاء من الناس ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٢].

* ثم إن قول المؤلف ببساطة الدين الإسلامى هو خداع ومكر يريد به إلقاء التشكيك فى الدين، وأنه بسيط لا شىء فيه من العلم ولا من الحكم والحكم، وإن

القول: إن البحث في الدين ليس بحثاً في باب العلم، وهو اصطلاح جديد اصطلاح عليه الملحدون في الشرق والغرب ليخرجوا مباحث الدين من مباحث العلم ليحطوا من قدر الدين. كبرت كلمة تخرج من فيك وفي أمثالك إن تقولون إلا كذباً ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ (١١) في لَوْجٍ مَحْفُوظٍ ﴿[البروج: ٢١ - ٢٢].

* ولقد أساء المؤلف فهم معنى نفى القرآن عن الرسول - ﷺ - سلطة الحفيظ والمهيمن والوكيل والمحاسب.. ومعنى ما على الرسول إلا البلاغ..

لقد نفى القرآن كونه - ﷺ - حفيظاً أى مبالغاً في الحفظ، دون كونه حافظاً.. وشتان بين نفى كون رسالته ليكون مهيماً ومحاسباً على الأعمال في الآخرة، وبين كونه حاكماً بشريعته منفذاً أحكامه في الدنيا!.. إن معنى وكيل وحفيظ، ونحو ذلك رقيب ومهيمن: تحاسبهم على أعمالهم وتجازيهم بها، وهذا لله وحده.

ولقد استدل المؤلف أيضاً بقوله تعالى في سورة النور: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.. والاستدلال بهذه الآية غريب، ودليل على أن المؤلف سيئ القصد فيما يدعيه.. لقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤٦) وَيَقُولُونَ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ مِنْهُمْ لُحٌّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُدْعَيْنَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ أُخْرِجَنَّكَ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿[النور: ٤٦ - ٥٤].

فأنت ترى أن معنى هذه الآيات أنه تعالى يقسم أنه قد أنزل آيات مبينات لكل ما يليق بيانه من الأحكام الشرعية والأسرار الكونية.. وفيها دليل على أنه - ﷺ - كان يحكم، وأن الخصوم كانوا يأتون إليه طائعين بدون حاجة إلى إعلان.

وقوله: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ إنما هو للتهديد والتخويف.

وعلى فرض أنه لبيان قصر وظيفته على التبليغ فهو يشمل تبليغ كل ما يوحى إليه ومنه الأمر بالجهاد وأخذ الناس بما جاءهم به وحملهم عليه.

وفى هذا كله رد على المؤلف فى كل ما يزعمه فى هذا الكتاب. وأنه - ﷺ - كان يأخذ الناس بما جاءهم به ويحملهم عليه، وأنه كان يحكم وينفذ حكمه، وأنه كما كان له زعامة الرسالة كان له زعامة المُلْك، وإن لم يسم ملكاً لأن العبرة بالمعاني لا بالألفاظ، وكل زعامة له - ﷺ - وكل نوع من أنواع السلطان مستمد من قبل الله تعالى، وكل أنواع الولايات مندرج فى ولاية الرسالة المستمدة من الله.

ولقد كان من ضروريات كون الرسول بشيراً ونذيراً أن يأخذ الناس بما جاءهم به ويحملهم عليه بطريق الرغبة والتشويق للشواب والرهبة والتهديد والتخويف من العقاب والعذاب إما فى الدنيا والآخرة أو فى إحداهما.

* وإن مدح المؤلف لعبارة الإنجيل: «أَنْ يُعْطَى ما لقيصر لقيصر». هو جهل لا يغتفر بالفرق بين دين المسيحية ودين الإسلام.

ففى الإسلام الجهاد مشروع لعموم الدعوة، ولذلك اتخذت فيها الخلافة والمُلْك لتوجه الشوكة من القائمين بها.

أماما سوى الملة الإسلامية فلم تكن دعوتهم عامة ولا الجهاد عندهم مشروعاً إلا فى المدافعة فقط، فصار القائم بأمر الدين لا يعنيه شىء من سياسة الملك.

ولهذا الفرق بين الملة الإسلامية وبين غيرها من الملل، لا يصح أن تقاس الملة الإسلامية بالملة المسيحية لاختلاف الشريعتين، فالفرق بين الملتين مثل الصبح الظاهر.

ولكن المؤلف يرمى فى كلامه إلى عدم الفرق بين الملة الإسلامية وبين الملة المسيحية، فيجعل الملة الإسلامية لا علاقة لها بالحكم السياسى كالملة المسيحية، وأن الجهاد إنما كان للمُلْك دون دعوة الدين، مع أن الفرق لا يخفى إلا على من أعمى الله بصيرته.

إنى وأيم الحق ما كنت أعتقد أن البَلَّه يصل بهذا المؤلف إلى أن يقول هذه المقالة التى لا يقول بها من عنده مسكة من العقل. إن هذه المقالة سفسطة فى الحق لا يرتكبها إلا من أضله الله على علم.

ولقد حرف المؤلف الكلم عن مواضعه، فنقل عبارة إنجيل متى محرفة مشوهة، وزعم أن المسيح كان يدعو إلى الإذعان لقيصر، ويؤمن بسلطانه، وهو الذى أرسل بين أتباعه الكلمة البالغة، إلخ.. مع أن عيسى عليه السلام كان فى زمن القيصر أغسطس [٦٢ ق.م - ١٤ م] أول ملوك القيصرية، وفى مدة هيرودس [٢٠ ق.م - ٣٩ م] ملك اليهود، فحسده اليهود وكذبوه، وكاتب هيرودس ملك اليهود ملك القيصرية أغسطس يغريه به، فأذن لهم فى قتله، ووقع ما تلاه القرآن من أمره، فكيف، مع هذا، يمكن لعيسى عليه السلام أن يدعو إلى الإذعان لقيصر ويؤمن بسلطانه؟

فمقالة عيسى عليه السلام هذه من قبيل أسلوب الحكيم الذى لا يعرفه المؤلف، قالها عيسى سياسة ليتخلص من مكرهم وخبثهم.. وهذا لا يقتضى أنه دعا إلى الإذعان لقيصر، ولا أنه آمن بسلطان قيصر، ولا أنه أرسل هذه الكلمة بين أتباعه.

* إنه لا يتأتى لمن هو مأمور من قبل الله أن يحكم بين الناس بالعدل أن يحكم كذلك إلا وهو أكبر سؤاس العالم وقدوة الناس أجمع فى السياسة والدين، على أن الدين والشرعية لفظان مترادفان، وكلاهما مستمد من القرآن، والقرآن إنما نزل ليتنظم أمر الناس فى معاشهم ومعادهم.

نعم، إن تدبير مصالح الحياة وعمارة الأرض التى ربطها الله بأسباب عادية وجعلها مسببة عنها ليست من وظيفة الرسالة فى شىء، كمعرفة طرق الزرع وغرس الأشجار وتأبير النخل، وغير ذلك مما أجرى الله به سنته فى خلقه من ربط المسببات بأسبابها، وقطرحهم على معرفتها بعقولهم. وأما ما عدا ذلك مما يتعلق بالأحكام والفصل بين الناس بالعدل فى كل ما يتعلق بأمور الدين والدنيا، وتشريع الشرائع التى ترجع إليها فى هذه الأحكام، فكل ذلك وظيفة الرسول، خصوصاً شريعة نبينا - ﷺ - التى جمعت بين الجهاد وبين العبادات والمعاملات ونظام القضاء وفصل الخصومات

والشهادات والحدود وعقوبات الجنايات وجميع العقود من بيع وغيرها، والكفالات والضمانات والمواثيق وغير ذلك مما يتعلق بأمر العباد في دنياهم ودينهم.

وهل يستطيع أحد أن ينكر أن القرآن كما اشتمل على ما يتعلق بأحكام الدين اشتمل في كثير من آياته على جميع أحكام أمور الدنيا؟.

لقد قال الرسول - ﷺ -: «أنتم أعلم بشئون دنياكم» ليحدث الناس أنه لم يبعث ليين للناس كيف يزرعون؟ وفي أى وقت يزرعون؟ وفي أى وقت يحصدون؟ أو هم يؤبسون النخل أولاً يؤبسون؟ إلى غير ذلك من الأمور الدنيوية التي جرت سنة الله في خلقه أن يكون لها نوااميس خاصة وأسباب خاصة، وهكذا سائر أمور الدنيا العادية التي يعرفها الناس بالتجربة وفطروا عليها، سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

ولم يكن ذلك فيما يتعلق بالأحكام.

ولذلك لا يشترط في حق أصحاب النبوة العصمة عن الخطأ في الأمور الدنيوية التي لا تعلق لها بالأحكام الدينية والأحوال الأخروية لتعلق همهم العليا بعلوم العقبى، بينما غيرهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا.

لقد جاء بالكتاب والسنة كل ما يتعلق بأحكام القتل خطأ أو عمدًا، وأحكام الجناية على الأطراف من يد ورجل وعين وغير ذلك، خطأ أو عمدًا، وبين في السنة مقدار دية كل عضو وجراحة، وأحكام المعاملات من بيع وإجارة ورهن ووقف وهبة، وسائر الأحكام المدنية والتجارية، وغير ذلك مما يلزم لنظام الدولة والمملكة الكاملة.

ومن رجع إلى أبواب الفقه المأخوذ من الكتاب والسنة لم يجد كبيرة ولا صغيرة من دقائق الحكومة إلا موجودة ومأخوذة إما من الكتاب أو من السنة أو منهما، فنظام الحكومة النبوية معلوم معروف لعلماء الشريعة الإسلامية، ولا يجهله أو يحتمل أن يجهله إلا من ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة وله عذاب عظيم.

ولكن ما تقول لهذا المؤلف الذي لا يكاد يبصر الشمس في وضوح النهار؟ نقول له: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

* وليس من الحكمة الاستغناء بالعقل عن الشرع - كما هو حال النظم الطبيعية أو السياسية اللادينية - ذلك أنه كما أن للسمع والبصر حدًا يقفان عنده ولا يتجاوزانه، كذلك للعقول والنفوس حد تقف عنده ولا تدرك ما وراءه، وإن كانت تعلم وجوده بالضرورة من علمها بآثاره التي تدل على ذلك، ألا ترى أن كل إنسان يعلم بعقله أنه عاقل، ويعلم بنفسه، بل إن علمه بنفسه علم حضوري لا يغيب عنه بحال، ومع ذلك لا يدرك كنه نفسه ولا كنه عقله، وإنما يعرف كلاً منهما بالرسم والخواص المأخوذة من الآثار الدالة على كل منهما.

إن العقول والبصائر لا تدرك كل شيء، وإنما تدرك ما كان في دائرة العقول البشرية وما كان داخلاً في الأمر الطبيعي محسوساً كان أو معقولاً، وأما ما يتعلق بالالهيّات فلا يمكن للعقل أن يدرك إلا الآثار، ولا يدرك كنه ذات الله تعالى وكنه صفاته، فلذلك لم يجز التفكير ولا البحث فيما يتعلق بكنه الذات أو بكنه الصفات.

إن الأبصار لا تدرك الأعيان إلا إذا أشرق عليها نور الشمس أو ضوء القمر أو ضوء مصباح آخر، كذلك البصائر لا تدرك الحقائق الكونية والعمرانية الحقيقية والاعتبارية الصادقة على جميع المعقولات إلا إذا أشرق عليها نور الشرائع التي جاء بها الرسل عليهم الصلاة والسلام.

٥ - وقد زعم المؤلف أن الرسول - ﷺ - قد حقق للأمة وحدة دينية.. لا سياسية. والحق أن الذين يرتبطون بهذا الدين الحنيف أمة واحدة لها وحدة دينية ووحدة سياسية.

أما الوحدة الدينية فهي رابطة دين الإسلام الذي يرتبطون به ويؤمنون به، وكانوا بذلك إخوة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠) وهو دين واحد لا تعدد فيه ولا اختلاف، وقانون واحد هو كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ -.

أما الوحدة السياسية، فلأن رسالة رسولنا الإلهية ولاية عامة تنظم جميع أنواع الولايات ومنها ولاية المُلْك المستمد من الله تعالى، وهي تحمل الجميع على مقتضى النظر الشرعي في جلب المصالح الدنيوية والدينية ودفع المضار الدنيوية والدينية، فإن الحق أن جميع أحكام الله تعالى التي هي عبارة عن الشريعة الإسلامية

مبناها مصالح العباد في جلب المنافع ودفع المضار في الحياة الدنيا والآخرة، ومبناها على التوسط بين جانبي التفریط والإفراط، فهي الصراط المستقيم، ومن قواعده الأساسية: أن كل ما خالف الدليل العقلي القطعي لا يقبل ولا يعمل به، فإن كان قطعياً وجب تأويله بما يرده إلى الدليل العقلي القطعي، وإن لم يكن قطعياً فلا يقبل أصلاً.

وكيف لا يكون للأمة الإسلامية وحدة سياسية والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨] ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّا أَوْ نَعَرَضُوا فَلِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥] فهل الأمة التي يكون في شريعتها هذه العدالة التي قضت بها تلك الآيات وأمثالها لا يكون لها وحدة سياسية؟!.

إن اعتصام الأمة بالحق يتطلب أن يكون لها رئيس يسوسها ويحملها على هذا الحق، وإن أخذ الأمة إلى الكمال، دينياً ودنياً، يتطلب الرئيس الذي يستعمل اللين في موضعه والشدّة في موضعها، فيجازى المحسن على إحسانه ويجازى المسيء على إساءته، ويعطى كل ذي حق حقه، وبغير ذلك لا يمكن أن يتحقق كمال أصلاً، لا ديني ولا دنيوي، فالكمال الديني يرتبط تمام الارتباط بالكمال الدنيوي، وبالعكس، فإن صلاح الأبدان والأموال على الوجه الشرعي من لوازمه صلاح الأديان، إذ بذلك يصرف كل شيء فيما خلق لأجله، وبفساد الأموال والأبدان تفسد الدنيا والدين أيضاً. ولهذا قيل: الدين والمُلْك توأمان، ففي ارتفاع أحدهما ارتفاع الآخر، لأن الدين أُس والملك حارس، وما لا أُس له فمهذوم، وما لا حارس له فضائع.

إن الذين يجب عليهم أن يؤخذوا بحكومة واحدة وأن يجتمعوا تحت سياسة مشتركة بينهم هي سياسة شريعهم هم الأمة التي ارتبطت برابطة دين الإسلام وشريعته، والتزمت العمل بها والجري على أحكامها في أمور الدين والدنيا، وأما من لم يرتبط بهذه الرابطة فشريعتنا جعلت هؤلاء على قسمين:

١ - قسمًا عاهدونا ودخلوا في ذمة الإسلام والمسلمين، وهؤلاء تجرى عليهم أحكامنا في المعاملات الدنيوية، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، ويجب علينا المحافظة على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم كما يجب علينا أن نحافظ على أنفسنا وأموالنا وأعراضنا على حد سواء، ولا نتعرض لهم في كل ما يتعلق بشعائهم الدينية، بل نتركهم وما يدينون، وذلك عملاً بعهد الذمة الذي بيننا وبينهم.

٢ - وقسمًا لا عهد بيننا وبينهم، وهؤلاء أحكامنا منقطعة بالكلية في ديارهم، فلا يجرى فيها حكم من أحكام الإسلام، كما أن أحكامهم منقطعة في دارنا فلا يجرى في دارنا حكم من أحكامهم.

وبذلك تعلم أن المسلمين لا يقولون بأخذ العالم كله بحكومة واحدة، وجمعه تحت راية وحدة سياسة واحدة مشتركة.

وكذلك استحالة ارتباط العالم كله بدين الإسلام، والمشاهد على خلاف ذلك، وفي الحديث ما معناه: «مثلكم مع الأمم كشجرة بيضاء في ثور أسود».

إن جميع العرب في الحجاز وفي اليمن وفي سائر البلاد حينذاك لم يبقوا أمماً شتية - كما زعم المؤلف - بل صاروا أمة واحدة تجمعهم رابطة واحدة على تباعد بلدانهم، فهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، هم كالجسد الواحد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

وهل كان يتسنى للعرب - وهم أمم شتية - أن يزيلوا إمبراطوريات الفرس والروم؟ وهل كانت جيوش الفتوحات مكونة من أمم شتية؟.. أم من أمة واحدة، ذات شريعة واحدة، ودولة واحدة؟

إن الثابت في الأحاديث الصحيحة والسير الصحيحة أنه مامن قبيلة دخلت في الإسلام إلا كان - ﷺ - يجعل عليهم أميراً منهم أو من غيرهم، ويأخذون عنه ما يلزم لهم من الأحكام في أمورهم الدينية والدنيوية، ويرجعون إليه في كل ما أشكل عليهم حكمه.

كتاب حقيقة الإسلام وأصول الحكم

ثم، ماذا يقول المؤلف فيما اشتمل عليه القرآن والأحاديث من الأساليب السياسية وأنظمة الدول المدنية، كأحكام القصاص في العمد نفساً كان أو طرفاً، وفي الديات في الخطأ نفساً كان أو طرفاً، وفي البيوع والإجارات والهبات والإعارات والمزارعة والمساقاة، والتجارات بأنواعها، والشركات وضروبها، والحدود والتعزيزات، ونظام القضاء وآدابه من مرافعات وحاكم ومحكوم له ومحكوم عليه ومحكوم به، وطرق وشروط كل واحد مما ذكر، وما يتعلق بها من أحكام الدفع والشهادات وأنواعها، وبيان من تقبل شهادته ومن لا تقبل، وأسباب عدم القبول، وغير ذلك من كل ما يتعلق بالعباد في أمورهم الدنيوية.

والسير والتواريخ الثابتة بالأسانيد الصحيحة كلها تشهد بأن العرب جمعتهم شريعة الإسلام لم تدع بينهم تبايناً في السياسة ولا في غيرها من مظاهر الحياة المدنية والاجتماعية والاقتصادية، وأنهم ما كانوا دولاً شتى -، بل كانوا دولة واحدة يحكمهم حاكم واحد هو النبي - ﷺ - وحكمه فيهم يرجع إلى قانون سياسى واحد يعرفه الجميع منهم ويسلمونه وينقادون إلى حكمه، قد فرضه الله لعباده على لسان رسوله - ﷺ - وهو نافع لعباده في أمورهم الدينية والدنيوية بحيث لا ينتظم معاشهم ومعادهم إلا باتباعه والعمل به والانقياد له.

وإن وجود خلاف بين الأمم في أشياء، وتنازعهم على أشياء، وتباينهم في أشياء، لا يقتضى أنهم دول شتى، ولا يمنع من أن يكونوا أمة واحدة ذات دولة واحدة.

ومع وجود الرابطة الدينية لا بد من وازع آخر هو الحاكم الذى يرجع حكمه إلى قانون سياسى عادل مفروض يسلمه الجميع وينقادون إلى حكمه.

٦ - ولقد ادعى المؤلف أن خلافة أبى بكر كانت مبنية على القهر والغلب، فهى ليست إلا مُلكاً طبيعياً، فكان أبو بكر أول ملك أخذ الملك بالقهر والغلب، وأن حكومته لا دينية ولا سياسية، فهى لا ترجع إلى قوانين سياسية، لا شرعية ولا عقلية!!.

والحق أن القرآن أنكر على هؤلاء الذين اعتقدوا انقضاء دين الرسول - ﷺ - بموته أو قتله، فالقرآن لا يبلى جديده، وهو يخاطب كل مكلف في عصر النبي - ﷺ - كما يخاطب من قبله منهم ومن بعده مما سيوجد.

إن الوحي وإن انقطع بوفاته - ﷺ - لكن شريعته ودينه لم ينتهيا، بل هما باقيان ببقاء كتاب الله المحفوظ بحفظ الله وسنة رسوله - ﷺ.

ورسالة النبي إن انتهت، وانتهت زعامته، بمعنى أنه لا نبي ولا رسول بعده، لكن رسالته وزعامته باقيتان ببقاء شريعته ودينه، ولم ينتهيا بموته، فالذي انتهى بموته - ﷺ - هو زعامته الشخصية، وأما زعامته الدينية التي هي زعامة الدين والشريعة على الحقيقة فهي باقية إلى أن تنقضى دار التكليف، لأن المعروف شرعاً وعقلاً أن الحاكم الحقيقي هو القانون، وأما الأشخاص الذين يحكمون به فإنهم منفذون لهذا القانون، واتحاد الحكومة إنما هو باتحاد قانونها، والكتاب والسنة باقيان إلى أن يأتي أمر الله بقيام الساعة. ومن ذلك تعلم أن الزعامة التي بين أتباع النبي - ﷺ - بعد وفاته ليست زعامة جديدة إلا من حيث أن الشخص الذي كان يقوم بتنفيذ القانون قد تغير وقام مكانه غيره بعد وفاته - ﷺ - بأمره وإذنه في حياته، وهكذا كان كل خليفة إسلامي أو ملك إسلامي يحكم في رعيته بشريعته - ﷺ - هو قائم مقامه - ﷺ -.

* ولم يكتف المؤلف بذلك الذي يخالف ما علم من الدين بالضرورة، حتى جاء - في هذا الباب - ببدعة هي شر من سابقتها، وأفطع منها وأشنع، فجعل حكومة الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من خلفاء الإسلام وملوكهم إلى يومنا هذا وإلى ما بعده إلى أن تنهى الدار الدنيا حكومة لا دينية. وهذا اعتراف منه بعدم وجود شريعة المصطفى بعده - ﷺ - بشطريها.

وهذا الرأي أشنع وأفبح وأفطع من كل ما رآه المؤلف أولاً.

* ولو كانت مبايعة أبي بكر تمت على أساس القوة والسيف لتمت المبايعة لسعد ابن عباد، الذي كان تحت أمره بالمدينة ألفا فارس مدججون بالسلاح. أو لعلى بن

كتاب حقيقة الإسلام وأصول الحكم

أبى طالب، ومعه جميع بنى هاشم، أو لأحد رؤوس بنى أمية الذين بيدهم عليّة قريش، ولكن تمت لأبى بكر، وهو لا عصية له ولا جيش معه كهؤلاء.

* إن الحكومة الإسلامية على مر تاريخها هي حكومة القانون.. والقانون هو القانون، والحكومة هي الحكومة، والذي يتغير هو فقط الشخص الذي يرأس هذه الحكومة وهذه الدولة ويكون حاكمًا فيما بين المسلمين.

إن من يزعم أن حكومة أبى بكر وسائر الخلفاء والملوك - فى التاريخ الإسلامى - حكومة لا دينية، ويتفوه بهذا، ويجاهر الناس به، لا يمكن أن يكون مسلمًا، فضلًا عن أن يكون عالمًا وقاضيًا بين المسلمين. حاشا وكلا ثم حاشا وكلا.

* إن كلاً من على بن أبى طالب وسعد بن عباد لم يخرج على أبى بكر، ولم يبيع واحد منهم عليه، وبقي عليّ قاعدًا فى بيته لا يُمنع من مقابلة أحد من الناس ولا يُمنع أحد من مقابلته حتى بايع واعتذر من تأخير المبايعة. وأما سعد بن عباد فبقى كذلك لا يُمنع من مقابلة الناس ولا يُمنع الناس من مقابلته إلى أن هاجر إلى الشام فى خلافة عمر.

ثم إن البيعة تنعقد بجمهور أهل الحل والعقد، فلا يضير انعقادها خلاف آحاد من الناس. وليس صحيحًا زعم المؤلف أن كثيرًا من جُلّة الصحابة رفضوا إمامة أبى بكر. وهو يورد شعر الذين أعلنوا أن طاعتهم إنما كانت وفقًا على الرسول - ﷺ - وأنهم لن يمنحوها لمن بعده - أبو بكر:

أطعنا رسول الله ما كان بيننا فى لِعِباد الله ما لأبى بكر

وذلك دون أن يذكر أن قائل هذا الشعر هو أحد المرتدين - [الخطيل بن أوس].

فانظر إلى المؤلف كيف لم يبين أن قائل الشعر - الذى نقله - مرتد، ولم يكن مسلمًا، وأن رده بسبب اعتقاده أن النبى - ﷺ - قد انتهت نبوته ورسالته وزعامته الدينية، فلا نطيع أحدًا بعده.

فليبك المؤلف على نفسه، فإن مثله مثل الخطيل - [الأحمق فاسد الكلام]!

إن من الفرق الذين قاتلهم أبو بكر فرقة قالوا: انقضت النبوة بموت الرسول - ﷺ - ... والمؤلف يقول بأن رسالة النبي - ﷺ - ونبوته وزعامته انتهت بموته، وأن كل ما أحدثه الصحابة والتابعون وسائر المسلمين دولة جديدة وحكومة لا دينية جديدة، فماذا يكون حكم المؤلف عند المنصف في قوله بانقضاء نبوة النبي ورسالته وزعامته الدينية بموته؟. أليس هو نظير تلك الفرق - التي حكم الصحابة عليها بالردة، وأسلم منهم من أسلم وقتل منهم من قُتل. فلعن الله يمن عليه بتوبة نصوح. نسألك يا الله أن تعامل هذا المؤلف بما يستحق، فإنه قد افترى عليك وعلى رسولك وعلى أصحاب رسولك وعلى المسلمين أجمعين.

* ولقد ذكر المؤلف اعتراض عمر على أبي بكر في قتال المرتدين.. دون أن يذكر تراجع عمر عن اعتراضه، ونهوضه وريادته في قتالهم!!.. وبذلك يتحقق تدليس المؤلف وتلبسه في أكاذيبه.

إن المؤلف يحب من صميم فؤاده الطعن على الخلفاء الراشدين وسائر أصحاب رسول الله أجمعين وعلى سائر المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، كأنه ليس واحداً منهم، وربما كان كذلك، والله أعلم بالسرائر.

إن جميع الصحابة - كما جاء في [نهاية الإيجاز] لرفاعة الطهطاوى - معصومون عصمة جائزة، ومنزهون عن المعاصي جوازاً، وليسوا معصومين وجوباً من الهفوات والزلات. ويجب الإمساك عما وقع بينهم من التشاجر والتخاصم والتنازع الصادر منهم، والإضراب عن أخبار المؤرخين وجهلة الرواة وضلالة الشيعة والمبتدعين القادحة في أحد منهم. وليس المراد كل تشاجر نقل إلينا ولم نعلم صحته، بل التشاجر الذى صح نقله بالسند المتصل أنه ورد عنهم، متواتراً كان أو آحاداً أو مشهوراً، وأما ما لم يصح عنهم فمردود لذاته لا يحتاج إلى التأويل، وأن يلتبس لهم أحسن المخرج، إذ هم أهل لذلك.

٧ - وحتى بعد تحوّل الخلافة إلى ملك، بقيت معانى الخلافة، من تحرى الدين ومذاهبه، والجرى على مناهج الحق.. فالتغير لم يكن إلا في الوازع الذى كان ديناً فانقلب عصبية وسيفاً، وهذا لا يقتضى تغيراً في حقيقة الخلافة نفسها ولا في معانيها

من حيث هي، وإنما التغير في من يلي الخلافة، فتارة يكون وازعه الدين فيحمل الجميع على مقتضى النظر الشرعي، وتكون خلافته خلافة كاملة يندرج تحتها الملك السياسي الذي يُرجع فيه إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الجميع وينقادون إلى أحكامها إلا أن الذي فرضها هو الله تعالى.. فكانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا والآخرة.. هذا شيء وكون من يتولى الملك لم يعمل بما ذكر شيء آخر.

* وهناك فرق بين الخلافة وبين المُلْك الطبيعي، لكنه لا فرق بين الخلافة وبين المُلْك السياسي إلا من وجهة العموم والخصوص، وأن المُلْك السياسي مندرج تحت الخلافة، وأن الفرق بينهما أن الملك السياسي يغير الخلافة من جهة أنه قد يكون حمل الناس على القانون الوضعي الذي وضعه عقلاء الدولة وبصراؤها، وأما الخلافة فهي حمل الناس على مقتضى القانون الشرعي الذي يتضمن جلب مصالحهم في الدين والدنيا، ودفع المضار عنهم في ذلك.

فالخلافة أخص من الملك السياسي، الذي يشمل العقلي والسياسي والشرعي، فالخلافة قسم منه.

إن الملك، وإن كان مقتضاه التغلب والقهر، ولكنه ينقسم إلى:

١ - مُلْك لا يرجع إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الجميع وينقادون إلى أحكامها، وهذا تكون أحكام صاحبه في الغالب جائزة.

٢ - مُلْك يرجع إلى القوانين السياسية المفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها، وهذا هو الملك السياسي، الذي تراعى قوانينه مصالح الدنيا فقط.

٣ - مُلْك يرجع إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الجميع وينقادون لأحكامها، لكن هذه القوانين مفروضة من الله تعالى بشارع يقررها ويشرعها، وهذا المُلْك هو الذي يسمى بالخلافة والإمامة الكبرى. وقوانين هذا المُلْك قوانين سياسية دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

إن الخلافة الحقيقية لا استبداد فيها ولا ظلم، لأنها حكومة تقيمها الأمة بواسطة من تعطيه السلطة العامة، ويمثلها نائباً ووكيلاً عنها فى القيام بأمرها الدينية والدينية على مقتضى كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ.

* وليس صحيحاً ما ادعاه المؤلف من ثورة المسلمين على الخلافة.. فإن ما وقع من المسلمين إنما هو ثورة على من يعين للخلافة، لا فى الخلافة نفسها. فالنزاع إنما كان بين الأشخاص، وهذا شىء ووجوب نصب الإمام شىء آخر، ولا يلزم من النزاع فى أحدهما النزاع فى الآخر.

ثم إن هذا الخلاف والخروج ربما كان فى المسلمين أقل، والتاريخ شاهد عدل، والحروب كانت قبل الإسلام وبعد الإسلام فى الأمم غير المسلمين أشد منها بين المسلمين أنفسهم، فأين ملك الرومان؟ وأين ملك الإسكندر اليونانى؟ وما هدأت العواصف إلا بعد أن سلك الملوك غير المسلمين مسلك المسلمين فى العهد بالملك لمن يعهدون إليه، وهذه الطريقة سنّها الشرع للمسلمين فى أنه إنما يجب طاعة الإمام فى غير معصية، ولذلك يخرجون على الإمام وينكرون عليه ليقوموا غيره، لا لأن يتركوا الأمة بلا إمام أو ملك.

وغاية الخلاف الذى حدث بين الصحابة والتابعين أنه خلاف اجتهادى فى مسائل دينية ظنية.. فلا تأثيم على كل من الفريقين، كما هو شأن المجتهدين.

ولقد سئل الإمام على - رضى الله عنه - عن قتلى الجمل وصفين، فقال: والذى نفسى بيده، لا يموتن أحد من هؤلاء وقلبه نقى إلا دخل الجنة. يشير إلى الفريقين.

فلا يقعن عندك ريب فى عدالة أحد منهم، ولا قدح فى شىء من ذلك، فهم من علمت، وأقوالهم وأفعالهم إنما هى عن المستندات، وعدالتهم مفروغ منها عند أهل السنة، إلا قولاً للمعتزلة فيمن قاتل علياً، ولم يلتفت إليه أحد من أهل الحق.

فهذا هو الذى ينبغى أن تُحمل عليه أفعال السلف من الصحابة والتابعين، فهم خيار الأمة، وإذا جعلناهم عرضة للقدح فمن الذى يختص بالعدالة؟.

والذى عليه جمهور العلماء والفقهاء أن التنازع فى الخلافة - لا يكون قدحاً مانعاً، وليس طلب الإمامة مكروهاً.

وأما قول المؤلف: إن الخليفة لم يكن له ما يحوط مقامه إلا الرماح والسيوف.. فهذا ضرورى لكل حكومة تريد أن تحكم وتقوم بالعدل وتحفظ الأنفس والأموال والأعراض وتحمل الجميع على العمل بقوانينها، ومنع الأشرار عن أن يفسدوا فى الأرض.

فليست تلك القوة التى جعل المؤلف الخلافة تركز عليها خاصة بالخلافة، بل هى عامة ضرورية لكل حكومة قامت فى العالم كله من عهد آدم إلى يومنا هذا، أو تقوم إلى يوم القيامة.

لقد خلط المؤلف بين موضوع الإمامة ووجوب نصب الإمام وبين نزاع على طلب الإمامة، التى هى رياسة عامة يجوز لكل من يرى نفسه باجتهاد صحيح أنه أحق بها من غيره أن يطالب بها وأن يقاتل دونها، فإن لم يكن كذلك كان متغلباً عاصياً لله ورسوله لا يحمله على ذلك إلا حب الرياسة.

إن الذى يتغلب على الإمامة بالقهر والغلب هو خارج على القانون الشرعي، وعاص إن لم يكن مستجمعاً لشروط الإمامة، فإن كان مستجمعاً لشروطها فقط أخذ حقه بالقوة، ولا شىء عليه، وهو إمام ضرورة، وإذا خرجت أفعاله عن حكم الدين ومقتضى العدل لم يجز إقراره عليها، ولزم قبض يده وإزالة تغلبه. وسبب التغلب على السلطة هو ضعف الأمة، لأسباب ترجع إليها، ولا مدخل لشرعية الإسلام فى ذلك، وضعف الأمة راجع إلى مخالفتها أوامر الله ونواهيه، وارتكاب المنكرات واتباع الشهوات والظلم والعسف.

* وليست صحيحة تلك الصورة السوداء التى رسمها المؤلف لتاريخ الخلافة الإسلامية.. فالكثير من الخلفاء لم يستبدوا بالمسلمين، بل كان أمرهم شورى بينهم، يحكمون فيهم بالكتاب والسنة وما استمد منهما عن اجتهاد صحيح. وما اضلوهم عن الهدى، بل سلكوا بهم طريق السداد والهدى والرشاد، ولا عموا عليهم وجوه

الحق، بل فتحوا لهم أبواب الحق على مصاريعها، وأطلقوا لهم حرية الفكر والبحث فى العلوم الشرعية والفلسفة العقلية. وما حجبوا عنهم مسالك النور باسم الدين، بل باسم الدين أضاءوا مسالك النور حتى وجد فيهم من العلماء المجتهدين عدد لا يكاد يحصى، ولا تزال آثار علومهم وتأليفهم موجودة ومن رجع إلى [كتاب الخراج] الذى كتبه أبو يوسف [١١٣ - ١٨٢ هـ - ٧٣١ - ٧٩٨ م] إلى هارون الرشيد [١٤٩ - ١٩٣ هـ - ٧٦٦ - ٨٠٩ م] علم مقدار ما كان للعلماء من حرية القول فى مخاطبة الخلفاء، وكذلك يعلم ذلك من رجع إلى مناظرات المأمون [١٧٠ - ٢١٨ هـ - ٧٨٦ - ٨٣٣ م] مع العلماء فى مختلف العلوم، فهم ما استبدوا بهم ولا أذلّوهم باسم الدين، وما حرموا عليهم النظر فى علوم السياسة ولا غيرها، وقد جلب المأمون كتب علوم اليونان الفلسفية وفيها كل ما يتعلق بعلوم السياسة وغيرها من علوم المنطق والطبيعات والرياضيات والفلكيات وغيرها من العلوم التى تعتبر كالمقدمات لعلم ما وراء الطبيعة، وكذلك بحثوا علوم ما وراء الطبيعة، وما هى كتبهم ومباحثهم تدل على ذلك. وما خدعهم وما ضيقوا على عقولهم باسم الدين، بل باسم الدين أفسحوا لهم المجال، وحلوا عن عقولهم كل عقال، ورأوا أن كل ما علموه من العلوم العقلية، منطقية أو فلسفية كونية أو عمرانية أو غير ذلك من أنواع العلوم قد حواه كتاب الله بعباراته وإشاراته أو دلالاته أو اقتضائه.

وأما موت قوى البحث ونشاط الفكر بين المسلمين - بعد ذلك - فلم يجيء من ناحية ملوك الإسلام من حيث إنهم ملوك، وإنما جاء من ضعف الأمم الإسلامية بوجود مثل هذا المؤلف الذى يثبط همم العاملين، ولا يعتنون إلا بالطعن على الدين، فهم يهدمون فى الدين وأهل الدين من داخله، وأعداء الدين يهدمون الدين وأهل الدين من خارج، حتى أصبح الدين كما هو غريب عند غير أهله، غريباً أيضاً عند أهله.

والحق أنه إذا استقامت الأمة استقام الخلفاء.

٨ - ولقد ادعى المؤلف أن هناك ضموراً فى الفكر السياسى بتراث الحضارة الإسلامية.. وذلك ليضل الناس ويوهم العامة أن علماء الإسلام أهملوا مباحث

كتاب حقيقة الإسلام وأصول الحكم

الخلافة، وذلك ليتسنى له أن يقول ما يشاء، ويغرر بالناس كما يريد ليقولوا: إنه المحقق، وإنه المجتهد، وإنه وإنه.

ولله در من قال: إن أحق الناس وأجهل الناس من يرضى أن يقول فيه الناس ما ليس فيه، وأن يصفوه بما ليس له.

ويا ليته يدري أنه لغاية الآن لم يخرج عن كونه طفلاً في علوم لم يبلغ فيها حد المراهقة فضلاً عن حد البلوغ.

إن عناية المسلمين بعلوم اليونان، التي من أهم علومها العلوم السياسية، شاهد عدل على ذلك، وكتبهم التي ملأت الشرق والغرب، فضلاً عما ضاع منها في الحروب المشهورة والوقائع، كوقائع جنكيز خان [٥٦٢-٦٢٤هـ-١١٦٧-١٢٢٧م] ووقائع الأندلس والشام.

على أن دعوى المؤلف ذلك باطلة، لأن هذا النفي العام الذي يدعيه لا يمكن الإحاطة به إلا لمن يسبر جميع ما ألفه المسلمون من الكتب، سواء كان موجود الآن أو معدوماً، سلفاً وخلفاً، وهذا مما يحيل العقل تحققه لواحد من البشر إلا إذا كان رسولاً ينزل عليه الوحي بذلك. وكون المؤلف لم ير لهم كتاباً مؤلفاً أو مترجماً لا يدل على ذلك، لأن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود، فضلاً عن أن كتبهم الموجودة لا تزال وفيها من العلوم السياسية ما لم يعلمه المؤلف لن يعلمه ما دامت هذه عقيدته.

ثم إن الضغط الملوكي يزيد النهضة العلمية السياسية قوة في الخلق ليتقوا ظلم الظالم.

فدعوى المؤلف أنه لم يجد للمسلمين مؤلفاً ولا يعرف لهم بحثاً في شيء من نظم الحكم، دعوى تدل على قصور باعه وعدم اطلاعه على الكتاب والسنة وما بحث فيه العلماء من أنظمة الحكم وأصول السياسة.

نعم، إن السياسة التي يعرفها المؤلف، التي هي الخداع والكذب، وطرق التفريق بين الأمم لإضعافها والاستيلاء عليها بهذه الطرق، كما جاء في ذلك: [فرّق تحكّم]، فهذا لا يعرفه المسلمون فيما بينهم إلا في الحروب مع أعدائهم.

ولقد بين العلماء ما تكون عليه الخلافة إلى آخر ما تتكون منه علوم السياسة، فبينوا في فروع الفقه وأصوله، فقسموا الأحكام إلى:

- أحكام سياسية، وبينوا مستنداتها ومآخذها من الكتاب والسنة، وشروط العمل بها، والشروط التي يجب أن تتوفر فيمن يعمل بها.

- وإلى أحكام غير سياسية، وبينوا مآخذها كذلك من الكتاب والسنة، وأن الذي يعمل بها هم القضاة، بخلاف الأحكام السياسية فإن الذين يعملون بها إنما هم الأئمة وولادة الأمور.

ومن هذا تعلم أن علماء المسلمين أول من قام بالبحث الدقيق في علوم السياسة، وأول من والى البحث في هذا العلم، وكانوا كذلك حينما كان أهل أوروبا كلهم أوجلهم همجاً وفوضى في الأحكام والعلوم، واقفين حيارى أمام العلوم السياسية وغيرها من سائر العلوم، والتاريخ شاهد عدل، ولولا أن الله تعالى قيض للمسلمين ووفق المأمون إلى أن جلب كل الكتب المتعلقة بالفلسفة والعلم، واعتنى بها علماء الإسلام ودرسوها درساً دقيقاً وقتلوها بحثاً لما كان لعلوم الفلسفة، سياسية كانت أو غير سياسية، أثر في بلاد الشرق ولا في بلاد الغرب، لأن كل من في أوروبا في ذلك الوقت لم يكن منهم من له أدنى عناية في بحثه وتفصيله، ولو كان فيهم من هو كذلك لما أمكن للمأمون أن يجلب كتب اليونان إلى بلاد الشرق، وكان الأحق والأجدر بها وبعلموها اليونان أو غيرهم من آل أوروبا.

ولكن المؤلف أراد أن يصم المسلمين بهذه الوصمة، وهو يعلم أن ما قاله جنابة على التاريخ الذي يشهد بعدم صدقه.

* ولقد اتفق المسلمون على أن السياسة علم من علوم الإسلام.. وجاء في [معين الأحكام فيما يتردد بين الخصمين من الأحكام] - للطرابلسي [٨٤٤هـ - ١٤٤٠م] -

كتاب حقيقة الإسلام وأصول الحكم

ما معناه: السياسة قسمان: ظالمة، وعادلة، فالسياسة الظالمة تحرّمها الشريعة، وأما السياسة العادلة التي تخرج الحق من الظالم، وتدفع كثيرًا من المظالم، وتردع أهل الفساد، وتروع أهل العناد، وتوصل إلى المقاصد الشرعية فالشريعة توجب المصير إليها والاعتماد عليها في إظهار الحق، وهي باب واسع، تضل فيه الأفهام، وتزل فيه الأقدام، وإهماله يضيع حقوق العباد، ويجري أهل الفساد والعناد، والتوسع فيه يفتح أبواب الظلم، وقد يفضى إلى سفك الدماء وأخذ الأموال بغير حق، ومن ثم كان الناس على ثلاث طوائف:

- فطائفة سلكت مسلكًا مذمومًا فأنكرت السياسة الشرعية بالكلية، مع أن نصوص رد هذا الإنكار كثيرة حيث تعاطاها الخلفاء الراشدون.

- وطائفة سلكت في السياسة الشرعية مسلك الإفراط فتعدت حدود الله، وخرجوا عن قانون الشرع إلى أنواع من الظلم والقبائح.

- وطائفة سلكت مسلكًا وسطًا بين جانب التفريط الذي سلكته الطائفة الأولى وجانب الإفراط الذي سلكته الطائفة الثانية، فسلكت مسلك الحق حين علمت أن السياسة الشرعية كمال التكفل بصلاح الأمة.

* إن جميع ما ترتبه عقول البشر من سياستهم العقلية في قوانينهم الوضعية على خلاف قواعد الشرع، فنحن في غنى عنه بما أنزل الله علينا في كتابه المبين وسنة نبينا الصادق الأمين الذي ما ينطق عن الهوى. وأما العقول البشرية التي ما أيدتها العصمة الربانية ولا صاحبها التوفيق الإلهي فهي، وإن بلغت ما بلغت من الكمال، لا تخلو من شوب هوى ودواع نفسانية، لأن قصارى أمرهم ما قال الله تعالى في شأنهم: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧] فكيف بعقول أضلها الله تعالى وأعمى بصائرهما عن درك ظاهر العرفان وأسرار السنة النبوية وآيات القرآن؟.

وبعد البحث والتمحيص تبين للعلماء المتأخرين - كالصدر الشيرازي [١٠٥٠هـ - ١٦٤٠م] وغيره - أن ما جاءت به الفلسفة الصحيحة من العلوم العقلية والسياسية، عمرانية كانت أو كونية، لا يخالف ما جاء به الكتاب والسنة.

* إن الدساتير الوضعية لا يمكن في الأمة الإسلامية أن تنسخ القوانين الإلهية، وحرية الرأي إنما تكون في حدود القانون، بدون أن يعتدى أحد على أحد بجرح إحساسه في نفسه أو ماله أو دينه أو عرضه، وإلا كانت حرية إباحية بلشفية لا تتقيد بنظام ولا تراعى ملكًا لمالك ولا عرضًا لذى عرض ولا دينًا لذى دين، وهذه حرية ممقوتة في الشرائع كلها وعند العقلاء أجمع^(١).

٩ - أما دعوى المؤلف أن المسلمين قد رفعوا الخليفة إلى مقام العزة الإلهية.. فلقد دلت هذه المقالة على جهل المؤلف بما هو مدون في الكتب المتداولة بين أيدي العلماء كبارهم وصغارهم من أن الإمامة العامة الموضوعية للخلافة عن النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا هي عقد مبايعة بين من يقوم بها من أهلها وبين أهل الحل والعقد من الأمة الإسلامية على أن يقوم فيهم بحراسة دينهم وسياسة دنياهم على وفق ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله أو ما استمد منهما من إجماع أو قياس صحيح.. ومن هذا تعلم أن مصدر تلك القوة التي أعطيت للإمام العام هي الأمة الإسلامية ممثلة في أهل الحل والعقد منها، فكل ما ذكر من سلطات الإمام إنما جاء من قبل الأمة.

والمسلمون، بعد وفاة الرسول - ﷺ - ومبايعتهم لأبي بكر كانوا أول من سن أن الأمة مصدر جميع السلطات، وأنها هي التي تختار من يحكمها، فدين الإسلام وشريعة الإسلام هي القانون الإلهي الذي وضع ذلك وجعله متبعًا في كل إمام وخليفة.

وما استدلل به المؤلف على أن الله هو مصدر السلطة في الخلافة هو شعر شعراء وخطب خطباء، وكلها أدلة شعرية أعذبها أكذبها، راجعة إلى الخيال والغلو المذموم في المقال، فلا يعول عليها من يطلب إحقاق الحق، وإنما يستدل بها من يريد التمويه على العوام.

(١) في كتاب [الإسلام وأصول الحكم] يمكن للمسلمين أن تكون حكومتهم بلشفية، لأن للبلشفية شريعة.. لكنها لا يمكن أن تكون إسلامية، لأن الإسلام - برأيه - ليس دينًا تشريعيًا!!!

كتاب حقيقة الإسلام وأصول الحكم

* لقد اغتر المؤلف بما جاء فى الأخبار: «السلطان ظل الله فى أرضه، يأوى إليه المظلوم والضعيف وذو الحاجة» - أو ما هو فى معنى ذلك.

ولكن هذا وأمثاله لا يدل على أن المسلمين أو واحدًا منهم يقول بهذا المذهب، فإذا وجد فى كلام بعض منهم ما يشفع بذلك فهذا لأن كل الأفعال والأعمال الصادرة من الخلق إنما هى من الله خلقًا ومن غيره عملاً وكسبًا.

إن الإمام إنما هو وكيل الأمة، وأهل الحل والعقد هم الذين يولونه، وهم يملكون خلعه وعزله. والمسلمون هم أول أمة قالت بأن الأمة هى مصدر السلطات كلها، قبل أن يقول بذلك غيرها من الأمم، وإن الحكومة الإسلامية التى يرأسها الخليفة والإمام العام حكومة ديمقراطية حرة شورية دستورها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

إنها أفضل أنواع الحكومات وأكملها، لأن الله جعل فيها السلطة كلها للأمة، وأوجب عليها أن تقيم حاكمًا ينوب عنها فى القيام بأمر دينها وأمر دنياها.

فالإمامة أو الخلافة هى الملك السياسى الذى فرض الله قوانينه السياسية، فكانت سياسة دينية نافعة فى الحياة الدنيا وفى الآخرة.. ولا بد للمسلمين من ملك سياسى يسوسهم بقوانين شريعتهم، ويكون إمامًا وخليفة فيهم.

ومعنى قولنا معاشر المسلمين: نيابة الخليفة عن الرسول، أنه يقوم مقامه فى حفظ بيضة الإسلام وتنفيذ الأحكام وسياسة الأمة على مقتضى شريعة النبى ﷺ.

وحقوق الخليفة - عندنا معاشر المسلمين - ليست إلا ما أوجبه الله علينا من وجوب طاعته فى غير معصية، وما عدا ذلك لا يعرفه المسلمون. والخليفة عندنا مقيد بالقوانين السياسية التى فرضها الله بشارع قررها وشرعها، نافعة فى الحياة الدنيا وفى الآخرة.

وأما تسمية الإمام بخليفة الله، فهذا لم يجزه أحد، بل لم يرتضه أبو بكر، ووافقه الأصحاب.

* وإن من أقبح ما يوصف به الرجال، ملوكًا كانوا أو سوقة، الاستبداد بالرأي، وترك المشاورة.. ألا ترى أن إبراهيم - عليه السلام - أمر بذبح ابنه عزمة لا مشورة، فحمله حسن الأدب، وعلمه بموقعه في النفوس، على الاستشارة فيه، فقال لابنه: ﴿يَبْنَئِي إِنِّي آرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ [الصافات: ١٠٢] وهذا من أحسن ما يرسم في هذا الباب.

إن الخلافة عقد مراضاة واختيار لا يدخله إكراه ولا إجبار.

وإن للمسلمين حاجة شديدة - لدينهم وديارهم - إلى الخلافة التي تحمل الأمة على العمل بقوانينها السياسية التي فرضها الله لها.

١٠ - وإن كل ما نقله المؤلف من [رسالة التوحيد] للمغفور له الأستاذ الشيخ محمد عبده - رحمه الله - من النثر والنظم قد ساقه للتمويه والمغالطة على غير الغرض الذي ساق له المغفور له الأستاذ الجليل، وحوّله إلى غرض آخر ليوهم الناس أن له سلفًا صالحًا فيما يقوله، ألا وهو الشيخ الجليل والأستاذ الكامل الحجة الشيخ محمد عبده.

وما لهؤلاء والشيخ محمد عبده؟ هؤلاء ما عاصروه ولا خالطوه تمام المخالطة، ولا اجتمعوا معه في درس، ولا أخذوا عنه شيئًا من العلم، وإنما هؤلاء يتشبثون بكل من اشتهر بالفضل والعلم، وهو برىء منهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب.

لقد تحدث المغفور له الشيخ محمد عبده عن الجهاد، وأنه لإعلاء كلمة الله تعالى لا للملك الدنيوى وتوسيعه، ولا هو وسيلة لمجرد الدعوة الدينية المحضة التي ليس معها شرع من أحكام الأمور الدنيوية، فمراد الأستاذ الإمام أن يدفع الاعتراض بأن النبى ﷺ كان هو وأصحابه ينهزمون فى الحرب، وأن ذلك لا يضر فى علو مقام النبى وأصحابه، وأنه مؤيد من الله بالمؤمنين والملائكة، وأن الحرب سجال، وأن هذه سنة الله فى خلقه، ولم يخرق الله عادته لرسوله فى الجهاد ليكون جهاده على هذا الوجه

سنة لأمته من بعده، فلا يفزعون إذا هزموا. فكان فى كلام المغفور له قرائن دالة على مراده^(١).

١١ - وبعد هذا التفصيل فى الرد على مقولات كتاب [الإسلام وأصول الحكم] خلص العلامة الشيخ محمد بخيت المطيعى إلى إيجاز الرأى فى الكتاب وصاحبه.. فقال:

وأما النتيجة التى يقصدها المؤلف من كل ما أطال به فى كتابه فهى نتيجة فاسدة لا يرضاها مسلم مؤمن بالله ورسوله.. لقد ادعى:

* أن النبى - ﷺ - لم يكن له إلا الدعوة الدينية الروحية فقط.

* وأن الجهاد إنما كان للملك، فالنبى كان رسولاً باعتبار رسالته يدعو إلى الدين الروحى فقط، بدون أن يأخذ الناس بما جاءهم به أو يحملهم عليه.

وكان ﷺ ملكاً بالملك الطبيعى الذى لا يرجع إلى قانون سياسى، بل يقوم على القهر والتغلب، وكان جهاده ﷺ لذلك.

* وأنه - ﷺ - لم يكن له ملك سياسى، ولا أسس دولة سياسية.

(١) ويشهد للشيخ محمد بخيت المطيعى، أن رأى الإمام محمد عبده فى علاقة الدين بالدولة هو على النقيض مما جاء بكتاب [الإسلام وأصول الحكم] فلقد قال الإمام محمد عبده: «إن الإسلام دين وشرع، فهو قد وضع حدوداً، ورسم حقوقاً، ولا تكتمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود وتنفيذ الأحكام بالحق وصون نظام الجماعة.. والإسلام لم يدع ما لقيصر لقيصر، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله، ويأخذ على يده فى عمله، فكان الإسلام كما لا للشخص، وألفة فى البيت، ونظاماً للملك، امتازت به الأمم التى دخلت فيه عن سواها ممن لم تدخل فيه» [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] حـ ٣ ص ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٨٧ - دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م.

ولقد حاولت صحيفة [السياسة] - عدد ٦ يوليو سنة ١٩٢٥ م - إيجاد صلات بين آراء على عبد الرازق وآراء الأستاذ محمد عبده. وهو ما تصدى لنفيه الشيخ المطيعى.

* لقد ادعى أن ولاية الرسول - ﷺ - على المؤمنين كانت ولاية الرسالة، غير مشوبة بشيء من الحكم، هيئات لم يكن ثمة حكومة، ولا ولاية، ولا شيء من نزعات السياسة ولا أغراض الملوك والأمراء.

* وأن الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة كسائر الشرائع التي قبلها.

* وأن العصر النبوي قد خلا من مظاهر الحكم وأغراض الدولة، فلم يكن هناك ترتيب حكومي، ولم يكن ثمة ولاية ولا قضاة ولا ديوان.. إلخ..

* وأن الرسول - ﷺ - لم ينجز وحدة سياسية للمسلمين، وإنما أنجز فقط وحدة دينية روحية.

* والمؤلف لا يسأم من تكرار الموضوع الواحد في كتابه عدة مرات، وكل كتابه يرجع إلى إنكار وجوب الخلافة، وإنكار كون شريعة النبي - ﷺ - تشمل أحكام أمور الدنيا كما تشمل أحكام أمور الدين، وإنكار أن النبي - ﷺ - كان حاكمًا، وإنكارًا أن له حكومة ذات قواعد وأركان.

* وإنكار أن حكومة أبي بكر حكومة دينية قانونها الكتاب والسنة.. فكل الحكومات في التاريخ الإسلامي - عنده - هي حكومات لا دينية.

* وكل ذلك - على الحقيقة - يتفرع على إنكار كون شريعة الإسلام عامة، وأن الجهاد مشروع فيها لتنفيذ الأحكام الشرعية وحمل الناس على قبولها والاعتراف بها، بل هي دين رוחي فقط، لا شأن لها إلا بما يتعلق بعلاقة الإنسان مع ربه فقط، وحينئذ لا حاجة للخلافة.

* وقد سئمتنا تكراره، وتكرارنا الرد على تكراره.

* ولا يخفى شناعة هذه النتيجة التي يرمى إليها المؤلف فيما قاله، وإنها نتيجة لم يقل ولن يقول بها مسلم يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر.

كتاب حقيقة الإسلام وأصول الحكم

* وإن حاول المؤلف إنكار ذلك فلا يمكنه الإنكار، لأن كتابه ينطق بذلك عليه، ويلزمه القول بهذه النتيجة لأنه صرح بها غير مرة في كتابه، وهذا في الحقيقة إنكار للقرآن والسنة النبوية.

* ولقد ادعى المؤلف أنه مكث في تأليف كتابه هذا عشر سنين، مع أنه عبارة عن مائة صفحة وثلاث صحائف.

ومع ذلك ترى كتابه يضرب بعضه بعضًا، ويناقض بعضه بعضًا، فضلًا عن الأخطاء الصرفية والنحوية واللغوية والغلطات التاريخية التي يحتاج تصحيحها إلى كتاب مستقل.

* إن كل ما قاله مؤلف [الإسلام وأصول الحكم] قضايا سلبية، وإنكار محض لما أجمع عليه المسلمون أو نُص عليه صريحًا في الكتاب العزيز أو السنة النبوية. ولقد استند في إنكاره إلى السفسطة العقلية والآراء الظنية والأدلة الشعرية، مع أن تلك المسائل التي أنكرها وأنكر أدلتها مسائل فقهية شرعية لا يجوز الخوض فيها بمجرد العقل، بل لا بد من الاستناد فيها إلى النص من الكتاب والسنة أو الإجماع أو القياس. ويا ليت أنه أنكر ما أنكره من المسائل بعد أن راجع الأدلة التي أقامها الفقهاء على تلك المسائل وناقشها مناقشة المناظر الذي يبحث لغرض الوصول إلى الحق.

* ومن العجب أن المؤلف، مع ما ذكره صريحًا في كتابه بالخط العربي، وهو عربي، ينكر - في مذكرته التي قدمها في دفاعه أمام هيئة كبار العلماء - أنه لم يقل ذلك مطلقًا، لا في الكتاب ولا في غير الكتاب، ولا قال قولاً يشبهه أو يدانيه. اهـ.

غير أن الشيخ عليًا ربما كان صادقًا فيما يقول، لأننا علمنا من كثيرين ممن يترددون على المؤلف أن الكتاب ليس له فيه إلا وضع اسمه عليه فقط، فهو منسوب إليه فقط، ليجعله واضعوه من غير المسلمين ضحية هذا الكتاب، وألبسوه ثوب الخزي والعار إلى يوم القيامة، وشهروا باسمه عند العقلاء تشهيرًا لا يرضاه لنفسه من عنده أدنى مسكة من عقل.

* لقد جرى - صاحب هذا الكتاب - على إنكار ما علم من الدين بالضرورة، ولم يدع رأياً إيجابياً، بل سلك مسلك التشكيك، فدل ذلك على سوء قصده وعدم حسن نيته.

لقد سلك طريق التدليس والتضليل للأفهام.

فهو كما افترى على القرآن، وادعى أنه لا يوجد فيه ما يدل على الإمامة العامة أو الخلافة، افترى أيضاً على السنة والأحاديث.

لقد أحب ذم المسلمين، وملاً قلبه بالتعصب الذي جعله لا يبصر الحقائق التي كادت تخطف بصره بشعاعها.

وسلك الطريق المبهم في كل مباحث كتابه، وذلك لهوى في نفسه وعمى في بصيرته، قاصد الطعن والتشكيك.

ومن ذلك تعلم كذبه في كل ما قال، وعدم وقوفه وإطلاعه على علم دراية الحديث. إنه لم يعط شيئاً من العلم.. إلا ما تصيده من أفواه الملحدين.

ولقد جرى على عادة الملحدين في أقوالهم حتى لا يصادموا العقيدة صداماً صريحاً، فهم يموهون على عقول العامة، ليكون ذلك لهم مخلصاً إذا ضاق المجال، فهم كاليربوع الذي يتخذ بحجره ونفقه بايين، إذا قصده الصياد من أحدهما هرب من الآخر.

فانظر إلى هذا المؤلف الذي أصبح بين بنى نوحه وعشيرته سامرى زمانه، يقول له موسى الحق ﴿ فَأَذْهَبَ فَإِنَّكَ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مَسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ، وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ، ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ [طه: ٩٧] - فأصبح المؤلف بعد هذا يقول بملء شذقيه: ﴿ نَلَيْتَنِي مِنْ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًا مَنْسِيًا ﴾ [مريم: ٢٣].

كتاب حقيقة الإسلام وأصول الحكم

إن كل كتابه وما اشتمل عليه محاربة لدين الله ولرسوله ولكتابه وسنة رسول الله - ﷺ - والله هو الذى يغار على دينه ورسوله وكتابه، وهو على كل شىء قدير ﴿وَسِعَ عِلْمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلَبُ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]. ومن يعيش يره. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨] وقد جاء فى الخبر الصحيح: «من آذى لى ولياً فقد آذنته بالحرب»، فكيف بمن يؤذى رسول الله - ﷺ - ودينه ويتقصه؟ وهو ﷺ أفضل رسله وأوليائه؟

والذى نفسى بيده إن هذه لجرأة عظيمة لا يقبلها على نفسه إلا أحمق لا يبالى أن يكذبه الناس، وهو يعلم أن الناس على اختلاف طبقاتهم يعلمون أنه كاذب، خصوصاً وأنه كاذب على الله ورسوله فى حمله أقوالهما على ما لا يريدان من المعنى.

إن المؤلف ما كتب كتابه هذا إلا رياء وسمعة، ليقال قد كتب فلان وخالف جميع علماء الإسلام سلفاً وخلفاً، لينال الشهرة، وإن كانت شهرة بالإفلاس فى العلم وفى الدين، نعوذ بالله تعالى ممن جهل كل شىء حتى نفسه.

إن المؤلف حاطب ليل، تارة يحمل مع حطبه حية تطوقه فى عنقه فتخنقه حتى يموت، وتارة يحمل عقرباً تلدغه حتى تملأ جسمه سمّاً، فيصرخ كالمجنون ويستغيث فلا يغاث إلا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب. وتارة يحمل الطربان^(١) فتدخل فى جوفه فلا تخرج من فيه إلا الأقدار التنتة التى تزكم بعفونتها أهل الأرض وأهل السماء. نعوذ بالله من سوء المصير.

إن المؤلف بلغ من قصور الباع وعدم الاطلاع إلى حضيض ينحط عن حضيض الطلبة المبتدئين أو العوام الأमीين، وقد جعله أعوانه الملحدون مجتهداً محققاً مدققاً. سبحانه هذا بهتان عظيم.

إنه بعيد عن العلوم الشرعية ودقائق الشريعة وأسرارها وحكمها بعد الذى ولد وتربى فى شاهق جبل لم يعلم برسالة رسول ولا نبوة نبي. ولله فى خلقه شؤون.

(١) حيوان كالقط، أغبر اللون، مائل إلى السواد، رائحته كريهة منتنة.

إن المؤلف يكذب على الله وعلى رسوله وعلى كتاب الله وسنة نبيه، ولا يستحى ولا يخجل من أن الملايين الذين يحفظون القرآن ويدرسون السنة يكذبونه فى ذلك. يستطيع أن ينكر كل شىء، ولا يستحى أن يواجه بالتكذيب من هذا الجرم الغفير.

لقد أبعد المؤلف ونأى بجانبه عن الحق إلى الباطل، وأنكر الشمس فى وضح النهار، ودل كلامه على أن منابع الدين الصافية لم يكن شىء منها فى متناول يده، ولا هو ومن على شاكلته على كذب منها، ولو كان كذلك لرأى فى الكتاب والسنة ما يفحمه ويلقمه حجراً، أو يقذفه بالحق على باطله فيدمغه.

وإنك لو سبرت العالم كله، أحمره وأسوده، وجنه وإنسه لم تجد أحداً مثل هذا المؤلف، كابر حسه، وأنكر نفسه، وافترى على الله وكتابه وعلى رسوله وسنته، ولم يبال أن تكذبه الملايين من المسلمين فى سائر البلاد القريبة والبعيدة.

إننا آسفون على أن ضاع منه كل عقل وفهم ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

هيهات هيهات أن ينخدع المسلمون بترهاتك أيها المفتون، ولو أعانك جميع شياطينك الملحدين.

إن هذا المؤلف كذاب مكابر ومفتري.. لم يذق للعلم طعمًا، ولم يرزق فى كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - فهماً، وليس معه عقل ولا نقل ولا دين.

إن الفطرة التى فطر عليها المؤلف هى حب المغالطة والتمويه ليتوصل بذلك إلى الطعن على الإسلام والمسلمين. لقد اختار الضلالة على الهدى ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

إن الحيرة السوداء القاتمة هى التى غشيت هذا المؤلف ومن معه من الملحدين، وكادوا فى غسقتها يتناحرون غيظاً مما أصابهم فى محتهم من الخيبة والفشل.

إن المؤلف بلغ الغاية القصوى فى الجنون وعدم المبالاة بما يقول، كأنه يعتقد أن كل المسلمين فى هذا العصر يأخذون كل ما يقول قضية مسلمة، لا اعتقاده أنهم لا

كتاب حقيقة الإسلام وأصول الحكم

عقول لهم، ولكن الحقيقة أنه هو وحده الذى لم يؤت ذرة واحدة من الفهم ولا ذرة من العقل والأدب، ويخالف صريحاً ما هو موجود فى الكتاب والسنة والتاريخ.

إن المؤلف الذى لم يميز بين أبى بكر الأصم [٢٢٥هـ - ٨٤٠م] وحاتم الأصم [٢٢٧هـ - ٨٥١م] وبين كون ما كتبه عبد السلام اللقاني [٩٧١ - ١٠٧٨هـ] على [الجوهرة] لإبراهيم اللقاني [١٠٤١هـ] شرحاً أو حاشية عليها.. كيف يجعل نفسه مجتهداً، وله رأي، ويرجح على آراء غيره من كبار العلماء؟!.

لا شك أنه لو تعلق بأشعة الشمس وحبال القمر وصعد إلى السماوات العلى واسترق منها السمع كما يسترقه الشياطين ما أمكنه أن يجد ما يساعده على ما يقول، فقد ركب بهذا القول متناً عمياء، وخطب خطبة العشواء.

لقد بلغ فيما قاله غاية الفحّة والمكابرة.

لقد تحدث المؤلف عن المسلمين بضمير الغائب.. كأنه ليس منهم.. فقال:

مرة: والخلافة على لسان المسلمين.

ومرة: وبيان ذلك أن الخليفة عندهم.

ومرة: وعندهم أن الله جل شأنه.

ومرة: فالخليفة عندهم ينزل من أمته.

ومرة: نعم هم يعتبرون الخليفة مقيداً.

ومرة: وقد فرقوا من أجل ذلك.

ومرة: وكان واجباً عليهم، لكنهم أهملوا ذلك.

ومرة: على أن الذى يستقرئ عبارة القوم.

إلى آخر ما بكتابه مما يدل بظاهره أنه ليس بمسلم ولا من جماعة المسلمين.

لقد اعتمد المؤلف على أن كثيرًا من أعوانه الملحنين يهوشون له في القول، ويسفسطون ويغالطون، ويكتفون في إثبات دعواه بأن يصفوه بالمجتهد أو المحقق المدقق المجدد، وما أشبه ذلك من الألقاب الضخمة التي لها دوى كدوى الطبل الفارغ.

ولقد كنا نود أن المؤلف، وهو من أسرة من أشرف الأسر حسبًا ونسبًا، وأكرمهم أخلاقًا، وأطهرهم أعرافًا، أن لا يخرج عن حظيرة أسلافه وعشيرته الطيبين الطاهرين، وأن لا يظهر بمظهر الإلحاد والمكابرة والعناد، وأن يسلك سبيل الهدى والرشاد، ولا يخوض فيما خاض فيه فألحق بنفسه عيبًا لا يمحي، وعارًا لا ينسى، ودنسًا لا يطهر إلا بدموع التوبة والاستغفار والندم على ما وقع فيه، والرجوع عما حواه كتابه من الخطأ والباطل إلى الحق والصواب، وإلا أصبح قائلًا كما قال الشاعر:

طريد عشيرة ورهين ذنب بما جرمت يدى وجنا لساني

* * *

يا عليا كن عليا وتجنب كل حتف
وامحون ما فى كتاب فكتاب الله يكفى
فاتخذ منه طبيبًا فلعل الله يشفى

* هكذا رد العلامة الشيخ محمد بخيت المطيعي - بكتابه [حقيقة الإسلام وأصول الحكم] - على كل ما جاء بكتاب الشيخ على عبد الرازق [الإسلام وأصول الحكم]..

وكما تميز رد الشيخ المطيعي عن غيره من الردود التي كتبت على [الإسلام وأصول الحكم].. فلقد تميز - كذلك - بالقسوة التي لا نظير لها إزاء صاحب [الإسلام وأصول الحكم].. والتي بلغت حد الحكم عليه بالكفر والإلحاد..

وإذا كنا قد قدمنا - فى هذه الدراسة التي نقدم بها لكتاب الشيخ المطيعي هذه الصورة الدقيقة والشاملة لهذه المعركة الفكرية التي دارت ببلادنا سنة ١٩٢٥م.. فإننا نود - فى ختام هذه الدراسة - أن نشير إلى أمرين:

كتاب حقيقة الإسلام وأصول الحكم

الأول: ما اتفق عليه علماء أهل السنة من أن الخلاف حول الإمامة والخلافة ما يتعلق بها هو من الفروع، وليس من أمهات الاعتقاد.. ومن ثم فإن معايير الحكم على هذا الخلاف هي الصواب والخطأ، وليس الإيمان والكفر.. فليس في هذا الخلاف ما يوجب التكفير.

والثاني: أن الشيخ على عبد الرازق قد تراجع تراجعاً صريحاً وكاملاً عن ما جاء بكتابه، حتى أنه قد قال إن عبارة: الشريعة الإسلامية روحية فقط، وليس تشريعاً وتنفيذاً، عبارة قد ألقاها الشيطان على لسانه^(١)..

ولذلك فإن القدح والذم والإهانات التي وجهها الشيخ المطيعي في كتابه إلى على عبد الرازق، لم يعد منها شيء موجه إليه.. وإنما هي موجهة إلى الذين لا يزالون يتمسحون ويتمسكون بما جاء في كتاب [الإسلام وأصول الحكم] حتى بعد براءة مؤلفه مما جاء فيه!!

رحم الله الجميع.. وهدى أسرى العلمنة والتغريب إلى سواء السبيل.

غرة رمضان سنة ١٤٣٩ هـ

١٧ مايو سنة ٢٠١٨ م

دكتور محمد عمارة

(١) انظر كتابنا [معركة الإسلام وأصول الحكم] طبعة دار الشروق القاهرة. وكتابنا [الإسلام والسياسة.. الرد على شبهات العلمانيين] طبعة دار السلام - القاهرة.

كتاب الإلحاد للمبتدئين

للدكتور هشام عزمى

مؤلف هذا الكتاب طيب شاب.. تفضل بإهداء كتابه هذا إليّ.. فلما قرأته تأكدت لديّ الحقيقة التى تقول: إن أمتنا هذه أمة ولودة، وأن الغيرة على الإيمان والإسلام ستظل طاقة جبارة تصنع العقول والقلوب التى تتقدم الصفوف لتواجه التحديات الشرسة التى تتربص بإيماننا الدينى وهويتنا الحضارية وعوامل المنعة التى تزكى نهوضنا الحضارى لتعود أمتنا إلى موقعها الرائد والقائد بين الأمم والحضارات.

لقد تصدى هذا الكتاب - ويتصدى - لخطر الإلحاد، الذى أصاب الحضارة الغربية فى مقتل، والذى دخل بها إلى مرحلة الغروب.. فعندما صاح فلاسفة الإلحاد فى الغرب - صيحتهم المنكرة: «لقد مات الله»!!.. كان ذلك إيذاناً بزحف الموت على هذه الحضارة، لأن الإلحاد إنما ينزع الإيمان الذى هو روح الإنسان والأمم والحضارات..

وإذا شئنا - فى هذا التقديم - أن نقدم للإنسان العربى والمسلم طرفاً من «الحقائق» - التى هى «كوارث» - صنعها الإلحاد بالإنسان الغربى والحضارة الغربية، ليعتبر إنساناً بما صنع الإلحاد بالآخر.. وليستيقظ ويفتح عقله وقلبه للحقائق الإيمانية والعقلية التى ترد شبهات الإلحاد والملحدين.. فإننا نوجز ذلك فى عدد من الحقائق الهادية فى هذا المقام:

١ - إن الإلحاد إنما يعنى: إنكار وجود الله، واجب الوجود، وموجد الوجود، والراعى المدبر لهذا الوجود..

وهذا الإلحاد ضربان:

(أ) إلحاد إلى الشرك بالله.. وهو ينافى الإيمان ويبطله..

(ب) وإلحاد إلى الشرك بالأسباب.. وهو يوهن عرى الإيمان، ولا يبطله. ومنه: ﴿الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠] أى يصفونه بما لا يصح وصفه به.. أو يتأولون أوصافه على ما لا يليق به من الكمال والجلال والجمال.

٢ - ولقد خلا تاريخنا الحضارى من وجود الإلحاد كظاهرة فكرية، وذلك بسبب الطابع العقلانى للنص الدينى القرآنى، ومطابقة الآيات القرآنية للآيات الكونية.. وبسبب الوسطية الإسلامية التى جمعت - فى مصادر المعرفة - بين كتاب الله المسطور وكتاب الكون المنظور.. والتى جمعت - فى سبل المعرفة - الهدايات الأربع: العقل.. والنقل.. والتجربة.. والوجدان.. فاحتضنت النزعات العقلية فى إطار الإيمان العقلانى، حتى لقد تفلسف الدين فى تراثنا كما تدينت الفلسفة فى هذا التراث.

وذلك على عكس التراث الحضارى الأوروبى الذى شهد ظاهرة الإلحاد منذ مادية «ديموقريطس» [٤٦٠ - ٣٧٠ ق.م] الإغريقى اليونانى، وحتى الإلحاد الوضعى المادى العلمانى الأوروبى فى العصر الحديث..

* ولقد وفد إلينا هذا الإلحاد الغربى، كجزء من الغزو الفكرى الذى جاءنا فى ركاب الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة.. التى صنعت - فى بلادنا - نموذج «المثقف - المتغرب - خالى الشغل»!! - الذى يجلس فى انتظار «الخواجة» الذى يأتى إليه «بالبضاعة» الغربية الجاهزة، كى يقوم بتسويقها.. بضاعة العلمانية.. أو الحداثة.. أو التنوير.. أو الرأسمالية.. أو الشيوعية.. أو الوجودية.. أو الدولة القطرية.. وحتى ما بعد الحداثة.. وأخيراً الإلحاد..

٣ - وللكشف عن زيف بضاعة الإلحاد هذه.. وللتنبية على خطرهما المدمر لروح الإنسان ومقومات الحضارة، فإننا نورد - فى هذا التقديم - إشارات إلى ما صنعه هذا الإلحاد ببلاد «المنع.. والتصدير» - البلاد الغربية - ليرى إنساننا الذى يتعرض فكره وعقله وقلبه لهذه البضاعة المسمومة والمغشوشة العواقب الكارثية التى يدبرها

له «الخواجات» الذين يصدرون هذه البضاعة، و«السماسرة» الذين يسوّقونها فى الفضاء الإسلامى، الذى ظل محصناً ضد هذا الوباء عبر تاريخ الإسلام..

* إن غالبية سكان أوروبا قد أصبحوا ملاحدة أو لا أدرين.. ولم يعد فى أوروبا من يؤمن بوجود الإله - حتى ولو لم يعبد - سوى ١٤٪ من الأوروبيين!!

* وإن جمهور السكان فى الدول الإسكندنافية - السويد، والنرويج، وفنلندا، والدنمارك - قد أصبحوا ملاحدة ولا أدرين.. ومع ما تتمتع به شعوب هذه البلاد من المستوى الأعلى للرخاء الاقتصادى والرفاهية المادية، فإن الإلحاد والخواء الروحى جعل نسبة القلق والانتحار - فى هذه البلاد - هى الأعلى بين سكان العالم؛.. لقد تحققت لهم «الرفاهية»، لكنهم افتقدوا «السعادة»، التى هى «الطمأنينة» فى هذه الحياة ولما بعد هذه الحياة.. ومحال أن تتحقق هذه «الطمأنينة» دون أن يتحقق للإنسان الانتماء إلى هذا الوجود وراعى هذا الوجود، فبدون هذا الانتماء الإيمانى يتحول الإنسان إلى «لقيط» فى غابة مليئة بتحديات اليأس والقنوط.. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

ولهذا شاع القلق والانتحار فى بلاد هذه «الرفاهية» المادية بينما كاد أن ينعدم فى أشد المجتمعات فقراً، حيث يؤمن فقراؤها وبؤساؤها بالله، فيعصمهم الإيمان من اليأس والقنوط والانتحار!.

* وفى ألمانيا - حيث الاقتصاد الأقوى على النطاق الأوروبى - نجد ٣٠٪ من السكان ملاحدة.. ولقد توقف قداس الأحد فى ثلث الكنائس الألمانية.. وهناك أكثر من ١٠,٠٠٠ كنيسة مرشحة للإغلاق وللبيع لأغراض أخرى - مثل الملاهى والمطاعم وعلب الليل والحانات!! وفى كل عام تفقد الكنائس الألمانية أكثر ١٠٠,٠٠٠ من أتباعها الذين تبتلعهم دوامة الإلحاد.. وبسبب انهيار الأسرة والشذوذ الجنسى تزيد نسبة الوفيات على نسبة المواليد، وتتجه ألمانيا - ودول أوروبية كثيرة - إلى أن تكون «دار مسنين»! وتلجأ الرأسمالية إلى المهاجرين واللاجئين لإدارة عجلة الصناعات كي تستمر أرباح الرأسمالية المتوحشة!

يحدث هذا فى ألمانيا.. بينما نسبة المسلمين هناك وهى ٣٪ من السكان، يمثل مواليدهم ١٠٪ من السكان!

* وفى فرنسا - بنت الكاثوليكية.. وأكبر بلادها.. وبسبب وباء الإلحاد، فإن الذين يذهبون إلى قداس الأحد هم أقل من ٥٪ من السكان.. بينما المسلمون الفرنسيون الذين يؤدون صلاة الجمعة هم ضعف المسيحيين الفرنسيين الذين يؤدون القداس الأسبوعى!! مع أن عدد المسلمين الفرنسيين هو ثمانية ملايين - فى أعلى التقديرات! والكنائس الفرنسية تغلق.. بينما زادت المساجد والزوايا هناك عن الألف.. ويعتق الإسلام - سنوياً - من الفرنسيين ما يقارب ٤,٠٠٠.

لقد حلمت فرنسا - قبل نحو قرن من الزمان - بتشجيع جنازة الإسلام فى الجزائر.. لكن الإلحاد - يشيّع جنازة الكاثوليكية فيها.. ويجعلها تصيح - فى المظاهرات - ضد «أسلمة أوروبا»!!

وليست المسيحية وحدها هى التى يشيّع الإلحاد جنازتها.. وإنما يهدد وجود الإنسان الأبيض، الذى تدنت خصوبته إلى ٨, ١ بينما هذه الخصوبة بين المسلمين الفرنسيين هى ١, ٨؟!.. ولقد كانت نسبة الرجل الأبيض إلى سكان العالم سنة ١٩١٥م ٢٨٪ فأصبحت فى سنة ٢٠١٥م ١٨٪ من السكان!.

* وفى إنجلترا - وبالرغم من أن الملكة هى رئيسة الكنيسة - فلقد زاد عدد الملحدين من ٧,٠٠٠,٠٠٠ سنة ٢٠٠١م إلى ١٤,٠٠٠,٠٠٠ سنة ٢٠١١م - أى إلى الضعف فى عشر سنوات.. و٤٨٪ من سكان لندن هم من الملحدين.. ونسبتهم فى عموم إنجلترا ٢٥٪ من السكان.. ومن المنتظر أن يصلوا إلى ٧٧,٠٠٠,٠٠٠ فى سنة ٢٠٤١م.

ومع تراجع المسيحية - بسبب الإلحاد - تراجعت نسبة الرجل الأبيض - بسبب الشذوذ وانهايار الأسرة.. ففى لندن - التى استعمر رجلها الأبيض إمبراطورية لم تكن تغيب عنها الشمس - تدنت نسبة الرجل الأبيض فيها إلى ٤٥٪ حتى لقد انتخبت عمدة مسلماً سنة ٢٠١٦م.. واختارت الدولة وزير داخلية مسلماً فى سنة ٢٠١٨!.

كتاب الإلحاد للمبتدئين

وعلى حين يتوقعون ألا تسمع أجراس الكنائس بلندن بعد ثلاثين عامًا، فإن عدد المسلمين في إنجلترا قد بلغ ٢,٧٠٠,٠٠٠ سنة ٢٠١١م.. وهو مرشح لأن يصل إلى ٤,٠٠٠,٠٠٠ في سنة ٢٠٢١م وإلى ٨,٠٠٠,٠٠٠ سنة ٢٠٣١م.. ويتوقعون زيادة أعداد المسلمين الإنجليز الملتزمين عن أعداد الإنجليكانيين الملتزمين في وقت غير بعيد!

* وفي بلجيكا - عاصمة الاتحاد الأوروبي ٢٥٪ من سكانها مسلمون.. ومواليدهم ٥٠٪ من المواليد!.. وسيشكل المسلمون غالبية سكان العاصمة بروكسل بعد أقل من عشرين عامًا!..

* وفي هولندا - بلد الرسوم المسيئة إلى رسول الإسلام ﷺ والأفلام المعادية للقرآن الكريم.. ونزعات الإسلاموفوبيا، تُغلق كنيسة كل أسبوع بسبب شيوع الإلحاد!

* وفي روسيا الاتحادية - أكبر بلاد الأرثوذكسية - والتي تفرض تعليم دينها على الطلاب المسلمين في مدارسها.. تتراجع الأرثوذكسية.. وتزيد نسبة الوفيات عن نسبة المواليد.. وذلك باستثناء المسلمين الروس، الذين يبلغ عددهم الآن ٢٣,٠٠٠,٠٠٠ ومن المتوقع أن يصبحوا الأغلبية في روسيا الاتحادية سنة ٢٠٥٠م.. ولقد زادت المساجد فيها عن ثمانية آلاف، على حين كان عددها عند سقوط الشيوعية سنة ١٩٩١م ٩٨ مسجدًا فقط لا غير!

* وفي روما وعمومًا إيطاليا - حيث الفاتيكان - يوافق ٧٠٪ من الكاثوليك على ممارسة الجنس قبل الزواج.. ويتصرف ٧٤٪ من الكاثوليك في المسائل الأخلاقية بناء على ضمائرهم، بالمخالفة لتعاليم الكنيسة.. ولا يلتزم بالتعاليم الأخلاقية للكنيسة سوى ٢٠٪..

وتتحول كنائس كثيرة - ومنها كنائس تاريخية - إلى مطاعم وملاهي.. ويعلن الباب السابق بنديكتوس السادس عشر مخاوفه من أن يؤدي الإلحاد إلى انقراض الأسر المسيحية - في عموم أوروبا - حيث سيحل محلهم الوافدون المسلمون من

العرب والأفارقة.. الأمر الذى سيجعل أوروبا جزءاً من دار الإسلام فى القرن الواحد والعشرين!!

* وفى جمهورية التشيك، يتفشى الإلحاد، فلا يذهب إلى القداى الأسبوعى إلا أقل من ٣٪ من السكان!.

* وفى أمريكا - ورغم ارتفاع نسبة التدين فيها عنها فى أوروبا - فلقد انخفض حضور قداى الأحد بنسبة ٤٠٪ عن خمسينيات القرن العشرين.. وثلت هذه النسبة هم الذين يحافظون على حضوره أسبوعياً.. وكانوا ضعفى هذا العدد قبل جيل من الزمان.

وعند الإنجليىن الأمريكان - الذين يفرزون اليمين الدينى المسيطر على السلطة - انخفض حضور القداى الأسبوعى ٣٠٪ عن ستينيات القرن العشرين..

و ٧٠٪ من كاثوليك أمريكا يطلبون السماح باستخدام موانع الحمل - على خلاف موقف الكنيسة - ولقد غرقت الكثير من الإبراشيات فى الفضائح الجنسية بين الكرادلة والأطفال، حتى لقد أفلست كثير من هذه الإبراشيات بسبب التعويضات التى تدفع للأسر هؤلاء الأطفال!..

يحدث هذا على الجانب المسيحى، بينما يقفز عدد المسلمين الأمريكان من ١٠٠,٠٠٠ سنة ١٩٧٠م إلى ٩,٠٠٠,٠٠٠ سنة ٢٠٠٨م.. وذلك رغم العنصرية وظاهرة الإسلاموفوبيا.

تلك إشارات إلى بعض «الحقائق - الكارثية» التى سببها - ويسببها - الإلحاد فى بلاد «المصنع - والتصدير».. التى يلفت إليها هذا الكتاب أنظار الباحثين والقراء.

* * *

٤ - كذلك سيجد القارئ - فى هذا الكتاب - نتائج الدراسة التى نشرتها مجلة الطب النفسى الأمريكية [The American of psychiatry] سنة ٢٠٠٤م والتى تثبت وجود علاقة بين الإلحاد والسعى إلى الانتحار - والتى نشرت تحت عنوان: [الانتماء الدينى ومحاولة الانتحار] والتى توصلت إلى العديد من النتائج المهمة.. من مثل:

- ١ - أن نسبة الانتحار لدى الملحدين هي أعلى ما يمكن.
- ٢ - وأن نسبة الانتحار كانت أعلى لدى غير المتزوجين.
- ٣ - أن نسبة الانتحار كانت قليلة بين من لديهم أطفال أكثر.
- ٤ - أن الملحدين أكثر عدوانية من غيرهم.
- ٥ - أن الإنسان المؤمن أقل غضبًا وعدوانية واندفاعًا.
- ٦ - أن الدين يساعد على تحمل أعباء الحياة والاجتهادات ويقلل فرص الإصابة بالاضطرابات النفسية المختلفة.
- ٧ - أن الملحدين كانوا أكثر الناس تفككًا اجتماعيًا، وليس لديهم ارتباط اجتماعي، ولذلك كان الإقدام على الانتحار سهلًا بالنسبة لهم.
- ٨ - وختمت الدراسة بتوصية: أن الثقافة الدينية هي علاج مناسب لظاهرة الانتحار.
- ٥ - وسيجد القارئ التلازم بين فلسفة الإلحاد وبين الانحلال الجنسي والأخلاقى وانهيار الأسرة..

ففى الدنمارك - التى توجد بها أغلبية ملحدة - نجد أستاذ القانون الدنماركى البروفسور «فاجن جريف» يطالب بعدم تحريم زنا المحارم، بدعوى أنه طالما أن العلاقة الجنسية بين بالغين بمحض إرادتهما الحرة فلا يحق للدولة التدخل والعقاب!.. ويتفق معه فى ذلك أحزاب سياسية فى الدنمارك.. ولقد كتب فيلسوف الإلحاد «ريتشارد دوكينز» معبرًا عن احتقاره لمن يستنكرون زنا المحارم أصلاً!..

أما الفيلسوف الإسترالى الملحد «بيتر سينجر» فلقد دعا إلى تشجيع ممارسة الجنس مع الحيوانات!!..

ودعت أستاذة علم النفس والاجتماع «آن هيندرشوت» إلى مراجعة مفهوم الممارسة الجنسية مع الأطفال، وعدم الخجل منه، بل والاحتفاء به!..

ويرى «ريتشارد دويكنز» أنه لا غضاضة في الإجهاض، مبرراً هذا بأن الجنين أدنى منزلة من الخنزير!... ويقيس باحثون في الأخلاق الطبية الأطفال على الأجنة، فيجيزون قتلهم، بدعوى أنه لا فرق أخلاقى بين الإجهاض وقتل الأطفال!..

وهكذا غدت فلسفة الإلحاد منظومة من القيم الحيوانية الشيطانية، التى تجاوزت احتقار الدين إلى احتقار الحياة!.. فى مقابل تقديس الإيمان الإسلامى للحياة، باعتبارها منحة إلهية، لا يجوز لأحد من البشر سلبها إلا بتشريع إلهي، كما فى حالة القصاص.. الذى هو فى جوهره حفاظ على الحياة [ولكم فى القصاص حياة].

٦ - وفى مقابل هذا «الانحطاط الفكرى» الذى تمثله «فلسفة الإلحاد»، هناك الاستعانة - على مقاومتها بتراث الفطرة الإنسانية السابقة على الديانات السماوية الكبرى، التى ربطت الإيمان بسلامة المجتمع وحفظه من التردى والفشل.. فأفلاطون [٤٢٧-٣٤٧ ق.م] وسقراط [٤٧٠-٣٩٩ ق.م] قد ربطوا بين الإيمان وبين فعل الخير الذى يجعل الناس أكثر حرصاً على المجتمع والدولة على بعضهم البعض..

وكذلك صنع أبو الليبرالية الغربية - الفيلسوف الإنجليزى «جون لوك» [١٦٣٢ - ١٧٠٤ م] الذى قاوم الإلحاد، وقال إنه لا يمكن التسامح على الإطلاق مع الذين ينكرون وجود الله، فالوعد والعهد والقسم، من حيث هى روابط المجتمع البشرى ليس لها قيمة بالنسبة للملحد، فإنكار الله، حتى ولو كان بالفكر فقط، يفكك جميع الأشياء..

وهكذا يبدو الإلحاد - حتى فى إطار الفلسفة الغربية - شذوذاً عن مجراها العام.

٧ - كما يتصدى الكتاب - بالمنطق العلمى والعقلانى - لتفنيد الشبهات التى جعلها فلاسفة الإلحاد مصايد يصيدون بها الشباب الذين لا دراية لهم بحقائق الإيمان..

* فزعمهم أن الإيمان ليس فطرة فُطر عليها الإنسان، وأنه ثمرة «لجين الألوهية» الذى يولد به الإنسان.. يفنده أن هذا الزعم مناقض لحرية الإنسان وقدرته على الاختيار بين الكفر والإيمان.

كتاب الإلحاد للمبتدئين

* وزعمهم أن الإلحاد هو التطور الطبيعي للأديان - من تعدد الآلهة إلى التوحيد إلى الإلحاد - ينقضه أن التوحيد متقدم على كل صور الشرك، التي ظهرت لاحقاً كانحرافات عن التوحيد.

* وزعمهم أن الإيمان «فيروس عقلي» يصيب العقول السليمة.. ينقضه أن الفيروسات ليست فرضية، بل يمكن رؤيتها وملاحظتها..

* ولقد جاءت الأبحاث العلمية لتزكي حقيقة أن الإيمان فطرة فطر الله الناس عليها.. ففي بحث كبير تحت إشراف جامعة أكسفورد - البريطانية العريقة - عمل فيه ٧٥ باحثاً، في عشرين دولة، على مدار ثلاث سنوات، وتكلف ١٠٩ ملايين جنيه إسترليني، وتم نشر نتائجه سنة ٢٠١١م، ثبت أن الأطفال الصغار يولدون ولديهم فطرة الإيمان بوجود الله والحياة بعد الموت.

* ولقد قال الفيلسوف الفرنسي «رينيه ديكارت» [١٥٩٠ - ١٦٥٠م]: «إن إدراك الفطرة للنقص يعنى وجود الكمال، مثلما أن إدراك العطش يعنى وجود الماء. وبما أننا ندرك من واقع النقص المحيط بنا والواقع فينا أن هناك كمّالاً لا يلحقه نقص، ومن أهم صفات الكمال أن يكون واجب الوجود، فبالتالى هو موجود وجوداً واجباً ضرورياً لا يلحقه نقص ولا عدم».

«ووقع الظلم والفساد فى هذا العالم يدفعنا إلى إدراك ضرورة وجود عالم آخر فيه العدالة المطلقة، بناء على أن إدراك النقص يؤدى للتطلع إلى الكمال.. وقاضى هذا العالم الآخر لا بد أن تكون عدالته مطلقة وقدرته مطلقة وكما له مطلق».

ولجوء المرء - بالفطرة - عند الأزمات والابتلاءات لطلب العون من الرب الخالق يؤكد فطرة الإيمان بوجود الإله المتصف بالكمال.

* كذلك فإن وجود المخلوقات دليل على وجود الخالق لها.. فمجرد وجودها يدل على افتقارها لمن يوجدها طالما أنها لا يمكن أن توجد نفسها من غير موجد لها.

وكل ما فى العالم عبارة عن حوادث ومتغيرات وأشياء كانت بعد أن لم تكن، وهذه حقيقة حسية مباشرة، وكل حادث لا بد له من محدث، وكل فعل لا بد له من فاعل، وكل أثر لا بد له من مؤثر، وهذه قاعدة عقلية فطرية بديهية، تنتج أن لهذا العالم خالق وبارئ أوجده وأحدثه بعد أن لم يكن موجودًا..

* وبدليل التقسيم والسبر^(١)، فإن احتمالات إيجاد العالم لا تخرج عن ثلاثة:

١ - موجود بلا خالق.

٢ - خلق نفسه بنفسه.

٣ - خلقه خالق.

والأول باطل، نظرًا لافتقار العالم إلى موجد يوجده.

والثاني باطل، لأنه يستلزم أن يكون العالم موجودًا قبل أن يوجد نفسه، وهذا محال عقلاً.

فلا يبقى إلا الاحتمال الأخير، وهو ضرورة وجود خالق لهذا العالم.. ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

* كما أنه يجوز عقلاً أن يكون كل جزء من العالم على خلاف صورته وصفته وحاله التى هو عليها الآن.. فكونه على هذه الصورة التى هو عليها الآن يحتاج إلى مخصص يخصصها بالوجود دون غيرها من الصفات والأحوال الممكنة.. ﴿وَقَدْ أَنْفَسِكُمْ أَفَلَا تَبْصُرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

* أما نظرية «الصدفة» التى زعم أصحابها أن اصطفاً حروف المطبعة - بالصدفة - يمكن أن ينتج كتاباً أو رواية - بناء على متوالية هندسية معينة - فهى خرافة، لأن هذه الحروف لا يمكنها أن تصنع لنا رواية رومانسية أخذ فيها البطل بمشاعر القراء، وفعل كيت وكيت، ولا يمكن أن تصنع - بنفس الطريقة - برنامجاً للكمبيوتر لتسيير سفن

(١) السبر والتقسيم: هو حصر الأوصاف فى الأصل - أى المقيس عليه - وإلغاء بعض ليتعين الباقي للعلية.

الفضاء وتوجيهها، كذلك لا يمكن أن تخلق لنا شفرات معقدة تقوم بتسيير مهام ووظائف الخلية بهذه الدقة والعمق والتعقيد.

٨ - وهناك شبهات إلهادية شهيرة.. يلقيها الملاحدة في صورة أسئلة يحسبونها متحدية.. من مثل:

- إذا كان هناك إله خالق.. فمن خلق هذا الإله؟!

والمنطق العلمى العقلانى يقول - فى الرد على هذا السؤال: إنه إذا كانت هناك سلسلة معلقة فى الفراغ، وكل حلقة من هذه السلسلة معلقة من الحلقة التى تعلوها وهكذا إلى أعلى، فإن هذا التعلق - فى الحقيقة - لا يمكن أن يكون لا نهائياً، بل لا بد من وجود سقف ثابت تنتهى إليه هذه السلسلة، وإلا لو كانت السلسلة عبارة عن حلقات فقط لسقطت على الأرض، ولن تمتد إلى أعلى، لأن وجود شىء حقيقى تتعلق منه السلسلة دون أن يعتمد على غيره هو السبب الوحيد لاستمرار تعلق كل هذه الحلقات.

وكذلك الأصفار المتتالية، فمهما تراصت الأصفار إلى بعضها البعض فلن تضيف أية قيمة، بل وجود أى رقم آخر هو الأمر الوحيد الذى يجعل للأصفار عن يمينه قيمة ومقدار، فتعدد الأصفار ولو كان إلى ما لا نهاية لا يعنى أى شىء، لكن وجود رقم واحد - من واحد إلى تسعة - يجعل لهذه الأصفار قيمة ومعنى ومقداراً.

وإذا افترضنا أن هناك شيئاً يحتاج فى وجوده إلى غيره ليمنحه الوجود، فإن هذا الغير لا بد أن يكون قادراً على منح الوجود، ولا يمكن أن يكون معتمداً فى وجوده على غيره، لأن فاقده الشىء لا يعطيه.

وخالق هذا العالم لا يمكن أن يكون ممكناً من الممكنات المفترقة فى وجودها إلى غيرها، بل هو متصف بوجوب الوجود، أى أن وجوده واجب وضرورى لا يفتقر إلى سواه..

ومع علمنا بافتقار المخلوقات إلى خالق، فنحن نعلم أن هذا الافتقار لا يمتد إلى خالقها، بل هو غنى عن سواه، غير مفتقر في وجوده إلى غيره، وأن صفاته جل وعلا من هذا الوجه تختلف عن صفات مخلوقاته.

وبناء على بطلان الدور والتسلسل^(١).. فإننا نرتقى في سلسلة المعلولات والعلل إلى علة هي واجب الوجود في ذاته.

وسؤال: هل قدرة الله مطلقة؟.. وهل يقدر أن يخلق مثله؟.. وهل يقدر أن يقتل نفسه؟!.

وفي الرد عن هذا السؤال، ترد حقيقة أن الله القدير لا يعجز عن أى شيء ممكن عقلاً، أما المستحيلات العقلية أو الأمور ممتنعة الوجود فليست من مقدرات الله عز وجل، مثل أن يقتل نفسه أو أن يخلق حياً أو ميتاً في نفس الوقت وبنفس الاعتبار، فهذه الأمور وأمثالها مستحيلة الوجود لاشتغالها على تناقض يمنع إمكانية تصورهما، فضلاً عن وجودها.. وطالما هي مستحيلة في ذاتها فلا تتعلق قدرة الله تعالى بها، ولا يقال: هل يقدر عليها أم لا؟ لأن وجودها في نفسه مستحيل وغير ممكن.. ومن أمثلتها:

هل يستطيع الله أن يمنح زيلاً نعمة البصر ويحرمه منها في نفس الوقت - فيكون أعمى ومبصراً معاً؟

وهل يستطيع الله أن يمنح الإنسان القدرة على الطيران في الجو ويحرمه منها في نفس الوقت فيكون قادراً وعاجزاً معاً؟

ونحن نعلم أن الله على كل شيء قدير، لكن القدرة لا تتعلق بالمستحيل - والاستحالة المقصودة في مثالنا هي الجمع بين الضدين في الوقت نفسه والجهة نفسها - فإن الله قادر على كل شيء، والمستحيلات الممتنعات ليست بشيء، ولهذا فالله قادر على كل ممكن، وأما ما هو مستحيل فلا يصح أن تتعلق به قدرة الله تعالى، لأنه ليس بشيء حتى تتعلق به قدرة الله تعالى.

(١) الدور: هو توقف الشيء على ما يتوقف عليه. والتسلسل: هو ترتيب أمور غير متناهية.

ولا يقال عن المستحيل إنه شيء إلا بمعنى أنه شيء في الذهن لا في خارج الذهن، وكلامنا هنا عن الإمكان الخارجى لا الذهنى.

فتبين بهذا بطلان السؤال عن تعلق قدرة الله تعالى بالمستحيل، وهذا البطلان لكون المستحيل ليس بشيء أصلاً، لأنه مستحيل، ولو تعلقت به القدرة لما كان مستحيلاً، ولكان شيئاً ممكناً تتعلق به القدرة.

وسؤال: هل وقوع الشر في العالم يناقض رحمة الله، ويعارض اتصافه بصفات الخير؟

وفى الإجابة عن هذا السؤال - الذائع عند الملاحدة - تأتى الحقيقة التى تقول: إن الشر فى هذا العالم هو السبيل إلى خير أكبر وأعظم.

* فارتكاب الذنب سبيل إلى التوبة.

* والبلاء سبيل إلى الصبر والصمود والتحمل.

* والقتل والشهادة فى سبيل الله سبيل إلى أعلى الدرجات فى الجنة.

ولا يتصور عقلاً كيفية وجود صفات الصبر والصمود وتحدى الصعاب - وهى من معانى الخير - دون وقوع البلاء. وكذلك لا يتصور حدوث التوبة دون ذنب، ولا نيل الدرجات العلى دون استحقاقها بالشهادة فى سبيل الله.

والخير قد يرتكب فعلاً مركباً من خير وشر شريطة أن يكون الخير أكبر وأعظم، أو أن توجد علاقة سببية بين الخير والشر فيكون الشر سبباً إلى خير أكبر وأعظم.

والطبيب الخير قد يرى أن بتر عضو ما شر، لكنه يقدم عليه حتى يحصل خير أكبر وأعظم وهو إنقاذ حياة مريضه، فارتكاب الخير لبعض الشرور بغرض تحصيل الخير الأكبر لا يقدر فى خيريته، بل يؤكدها، لكن بشرط أن تكون محصلة الخير أكبر من الشر.

إن الخير الناتج عن الشر القليل أو الحاصل معه أكبر وأعظم من الخير المحض، وإن فى عدم وقوع هذا الشر القليل تفويت لكثير من الخير الذى لا يمكن تحصيله

إلا بهذا السبيل، وإنه إن كان لا يمكن الفصل بين الخير والشر في هذه العملية، إما لوجود علاقة سببية أو تلازمية بينهما فلا إشكال في وقوع الشر لحكمة أكبر وهي تحصيل خير أكبر.

إن الله يسمح بالشر في هذا العالم لأجل تحصيل الخير الناتج عنه أو المترتب عليه، شريطة أن تكون المحصلة العامة هي زيادة الخير على الشر بقدر أكبر من القدر الذي يمكن تحصيله من الخير البحت، وإن في وجود الشر من المصالح والمنافع والخيرات ما يبرر وقوعه.

وإن دخول الشر في الأمور الوجودية إنما هو نسبي إضافي وليس ذاتيًا، أى بالنسبة والإضافة، وليس من جهة ذات الشيء نفسه، فالسجود - على سبيل المثال - في ذاته ليس شرًا، لكنه إن أضيف لغير الله كان شرًا بهذه النسبة والإضافة.

ومن تأمل هذا الوجود علم أن الخير فيه غالب، وأن الأمراض - وإن كثرت - فإن الصحة أكثر منها، واللذات أكثر من الآلام، والعافية أكثر من البلاء، والغرق والحرق والهدم ونحوها - وإن كثرت - فالسلامة أكثر.. ولو لم يوجد هذا القسم الذي خيره غالب لأجل ما يعرض فيه من الشر لفات الخير الغالب، وفوات الخير الغالب شر غالب.

ومثال ذلك النار، فإن في وجودها منافع كثيرة، وفيها مفسد، لكن إذا قابلنا بين مصالحها ومفاسدها لم تكن لمفاسدها نسبة إلى مصالحها.

وكذلك المطر والرياح والحر والبرد. وبالجمله، فعناصر هذا العالم خيرها ممتزج بشرها، ولكن خيرها غالب.

ولقد سأل الملحد الشهير «ريتشارد دوكينز» هذا السؤال:

هل يمكن لله العليم أن يجد في نفسه القدرة على تغيير علمه بالمستقبل؟!*

* وهذا السؤال خاطئ.. ذلك أن صفة العلم هي في جوهرها صفة كاشفة، وليست مؤثرة، بمعنى أن علم الله بالمستقبل لا يؤثر على المستقبل، بل هو مجرد كاشف، وإطلاع عليه لا أكثر.. إنه لا يؤثر في سير الأمور بالمستقبل ولا يحدد وجهتها، لأن

كتاب الإلحاد للمبتدئين

التأثير والفعل من مقتضيات الصفات الفعلية المرتبطة بالإرادة، حقيقة أن الله يعلم المستقبل لا تعنى أنه مجبر على فعل المستقبل حسب علمه، بل هذا هو مجرد انكشاف للمستقبل لا أكثر. وعلم الله بالمستقبل لا يؤثر كذلك على أفعال العباد الإرادية في المستقبل، ولا يمثل إجباراً لهم على التصرف بشكل معين، بل صفة العلم هي صفة - كاشفة لا أكثر.. ومصدر التأثير ليس هو صفة العلم بل صفة الإرادة..

* * *

تلك إشارات - مجرد إشارات - إلى معالم الطريق الذى سلكه صاحب هذا الكتاب - د. هشام عزمى - فى عوالم الإيمان والإلحاد.. والذى قدم فيه العديد والعديد من البراهين العقلية والعلمية، والمنطقية التى شهدت وتشهد لفطرة الإيمان الديني.. والتى تنقض دعاوى الإلحاد وتكسر شوكة الملحدين.. وتقدم للشباب الذين غررت بهم بضاعة الإلحاد المغشوشة سبل الإنقاذ من هذا المستنقع للدين والدنيا والآخرة جميعاً.. والذى يدفع ضحاياه إلى اليأس والقنوط والانتحار المعنوى والمادى..

إنه دعوة للعقل.. وللهدى.. كى لا يدخل إنساننا المسلم جُحر الضب الذى دخلته الحضارة الغربية، التى صاح فلاسفة الإلحاد فيها صيحتهم المنكرة: «لقد مات الله» ففتحوا على أقوامهم - بالإلحاد - أبواب الموات الحضارى الذى يأخذ منهم بالخناق.

بارك الله لصاحب هذا الكتاب فى العلم الذى قدمه فيه.. وأعانه على المزيد من العلم النافع الذى نتظره منه إن شاء الله.

٨ رمضان سنة ١٤٣٩ هـ.

٢٤ مايو سنة ٢٠١٨ م.

دكتور محمد عمارة

إسلاميات الدكتور نظمي لوقا

فور صدور كتابه: [محمد الرسالة والرسول] سنة ١٩٥٩م، انهالت على المؤلف:
د. نظمي لوقا [١٣٣٨ - ١٤٠٧ هـ - ١٩٢٠ - ١٩٨٧ م] الأسئلة الاستنكارية:

- لماذا يكتب مفكر مسيحي عن تراث الإسلام وأقطابه؟!.

- ولماذا تكتب عن الإسلام أكثر مما كتبت عن المسيح؟!.

ولم يقف الأمر عند مجرد الأسئلة الاستنكارية، وإنما أحيط الرجل بطوفان من الشكوك والريب - صنعتها توجهات دينية وفكرية مختلفة - بل ومتناقضة! - أدخلته في محنة تعدت آثارها ذاته إلى الأبرياء من خاصته وذويه!.

ولقد تحدث الرجل - في «إسلامياته» التالية - عن هذه «المحنة العاطفية والاجتماعية التي بلغت أقصى مداها حتى قطعت الكثير والكثير من صلات الرحم، وبالغت في إيذاء أهل بيتي الأقربين ممن لا ذنب لهم، ومنهم صبية لا إدراك لهم لمعنى ما حدث، لولا لطف الله!». .

* لكن الرجل لم يستسلم، ولم ينكص على عقبيه، وإنما استعان «براحة ضميره» على هذه المحنة.. وواصل المضي في طريقه، فأبدع - في [الإسلاميات] - «موسوعة كبرى»، كتب فيها الكتب عن:

[محمد في حياته الخاصة «وامحمداه» - تمحيص وإنصاف]..

و[أبو بكر حوارى محمد]..

و[عمر البطل والمثل والرجل]..

و[عمرو بن العاص]..

كما طرح القضية برمتها في كتابه الفذ [أنا والإسلام].. وذلك فضلاً عن بحثه:
[الحقيقة عن فلاسفة المسلمين]..

وفي هذه الكتب - وخاصة في كتابه [أنا والإسلام] - اجتهد في الإجابة عن
التساؤلات الاستنكارية التي انهالت عليه، والتي لاحقته حتى مماته!.. وأفاض في
تبيان الدواعي والمنطلقات التي تفرض عليه - وهو المسيحي الديانة - والقبطى
الصلبية - كما كان يحلو له أن يصف نفسه - الكتابة عن رسول الإسلام - ﷺ -
وأقطاب الإسلام.. وعن منهاجه في هذه الكتابات.. لعل الله أن يهدي الأقسام الذين
لا يعلمون!.. ومنهم متعلمون كثيرون، لاحظ لهم من استنارة المستنيرين!

لقد تحدث عن أن مسيحيته هي التي تفرض عليه التعرف والتعريف الموضوعى
بالإسلام، فهو مؤمن «بما نادى به السيد المسيح: قبل أن تُخرج القذى من عين أخيك،
أخرج أولاً الخشبة التي في عينك».

- ومسيحيته هي التي «تأمره بالمحبة للعدو والصدى على السواء، وأول مراتب
المحبة هي «التطوع» بالإنصاف وإيفاء العقيدة المخالفة حقها غير منقوص من
التقدير والتقييم».

- ثم إن هناك - بالإضافة إلى هذا الوازع المسيحى - العامل الوطنى والقومى..
«فإذا كان هذا المفكر المسيحى عربياً، فالداعى لهذه البحوث فى الإسلام بترائه
وأقطابه أوجب، لأنه عندئذ يعرف عشراء ومواطنيه وقومه المعرفة التى ترضى
العقل، وترضى سماحة المسيحية، وترضى الواجب القومى والوطنى على السواء».

- ثم إن هذا الكاتب المسيحى، حرصاً منه على تجنب الفتن الطائفية التى تتفجر
بين الحين والآخر، لا بد أن يجتهد لتعريف الفرقاء المختلفين دينياً بحقيقة ما لدى
كل منهم، وذلك حتى يزيل الحاجز النفسى الذى يهيم الأرض لهذه الفتن الطائفية..
«فأمتنا المصرية أمة واحدة بأصلها العرقى، أى أننا جميعاً من سلالة واحدة أصيلة
فى هذا الوطن.. ولست أفهم كيف تستطيع أمة كالأمة العربية أن تعيش كما ينبغى لها
أن تعيش ما لم تعرف كل طوائفها - سواء من الأغلبية أو من الأقليات - حقيقة تراثها

القومى الذى هو ملك للبشرية كافة، وهو من باب أولى قسط مشترك بين كافة طوائف الأمة العربية أولاً».

- ثم إن هذا الكاتب المسيحى هو - قبل كل شىء - إنسان، «وغير خاف أن تراث الإسلام حافل بما يعنى الإنسان، فليس من الخير للبشرية أن تُحجب عنها هذه الكنوز من «الخبرات» و«التجارب» و«القيم» و«السلوكيات»، وما أحرى هذا أن يشغل اهتمام كاتب تعنيه هذه الجوانب، ويعنيه كل شعاع مضىء ينبثق منها لينير للبشر - بما هم بشر - أيًا كانت عقائدهم وقومياتهم».

* * *

* كذلك اجتهد الرجل فى تبيان منهجه فى الكتابة عن الإسلاميات.. فهو ليس كاتبًا دينيًا يكتب ليزكى عقيدة دينية على عقيدة دينية أخرى.. وإنما هو يكتب من منطلق إنساني، ليقدم الفكر الإنسانى فى الإسلاميات، حتى وإن اقتضى ذلك التعريف بمعالم الإسلام وسماته.. «فلقد أكتب فى أمور تتصل بالدين عن قرب أو عن بعد، ولكنى لست كاتبًا دينيًا، ولا أمارس الكتابة بمنهج ديني، بل بمنهج فكرى ومن منطلق إنساني، ومن المستوى الذى يعنى الناس كافة، ويشترك فيه كافة العقلاء».

إننى مسيحى أجل، ولكنى لا أكتب بالنظرة العقائدية المسيحية، وأكتب عن الإسلام، ولكن ليس بالنظرة العقائدية الإسلامية، بل بالنظرة الإنسانية العامة، أكتب عن الإنسان للإنسان بما هو إنسان..

إن للديانة مفهومًا آخر - إلى جانب مفهوم العقيدة الإيمانية - وهو أنها «موضوع» يصلح للدراسة المعرفية، وليس هناك ما يوجب إطلاقاً أن يكون الدارس لهذه العقيدة منتمياً إليها مؤمناً بها، لأن الدراسة غير الانتماء الإيمانى.

والإسلام بكل ثرائه مصدر له وزنه للحضارة الإنسانية، وموضوع للدرس والاعتبار، لا يخص المسلمين دون سواهم، بل إنه بما هو موضوع للمعرفة العقلية الفاحصة الآمنة - فهو مبذول لكل ذى عقل وبصيرة، ولا يشترط فى هذا العاقل البصير طالب المعرفة أن يكون مسلماً، فالإسلام عقيدة إيمانية لها خصوصيتها، أما العقل فلا خصوصية له إلا معاييرهِ النزيهة التى لا تعرف المجاملة، ولا التحامل.

والباحث المعرفى عليه قطعاً أن يحرم على نفسه كل مشاعر الميل أو التحامل وهو فى مرحلة البحث المعرفى.. لكن هذا «التحريم» المرحلى، أو «المنهجى» للرضا والسخط، يزول تماماً متى وصل الباحث الموضوعى إلى المعرفة الصحيحة التى هى ثمرة شرعية للبحث العقلى الذى لم تدخل على عملياته الأمانة «خيانة» من فعل الأهواء.. فعند تمام المعرفة الصحيحة النزينة يسترد الباحث حقه كاملاً فى الرضا والسخط بناء على ما تحقق له من المعرفة النزينة، فيرضى أو يسخط لا عن هوى اعمى، بل عن معرفة وتبصر.. فالرضا والسخط عن هوى اعمى، أى قبل المعرفة - يتسلطان على العقل ويزيفان ثمرته الطبيعية، أما الرضا والسخط بعد معرفة وتبصر فالعقل هو الذى يتسلط عليهما ويمدهما بالشرعية الكاملة.

وما من ادعاء للتدين يسوغ لصاحبه أن يحكم حكماً معرفياً مبنياً من أساسه على الرضا أو السخط على أى عقيدة أو تراث يخالف عقيدته أو ثرائه الذى وجد نفسه ينتمى إليه.. لأن التدين يعلم أول ما يعلمه الأمانة والصدق.. والهوى المفسد للمعرفة الصحيحة نقىض الأمانة والصدق.

فخليق بالمتدين أن يعرف أن انسياقه مع الهوى فى أحكامه على العقائد الأخرى ليس إخلاصاً لديانته، بل هو خيانة لروحها، ولباب تعاليمها.

وأنا لم أكتب من منظور دينى أو إيمانى بتاتا، بل من منظور عقلى موضوعى إنسانى تماماً. وكتابى [محمد الرسالة والرسول] كتاب «تنوير معرفى وخلقى» وليس كتاب دين..

وليس محمد، أو المسيح، هو الهدف النهائى لكتاباتى إذن، بل هما «وسيلتى للتبشير بالموضوعية»، فلست مبشراً بدين، ولكنى مبشر بالعدل والنزاهة بين المؤمنين بكل دين، بل بين يدي جميع البشر.

ولا تتبدى الموضوعية فى أوجها إلا حيثما تكون إنصافاً نزيتها لعقيدة مخالفة. إذن هنا ميدان المعرفة الحقيقية ضد الذاتية والجور والعدوان. لهذا يكون «البيان العملى» للانتصار للموضوعية والدعوة إليها، أن يكتب الداعى الموضوعى المسيحى العقيدة،

عن الإسلام، وعن محمد، بدافع الرابطة الإنسانية، ومن الوحدة القومية، وعن تكوينه النفسى أيضا».

«كم من متعلم رسمى هو خبير فى مهنته أو مادته، ولكنه غير مستنير الفكر مهذب النفس، بحيث يتحكم عقله فى مشاعره، ومثله خليق أن يكون فريسة للحاجز النفسى الذى يشحنه بالرؤى الظالمة للفريق الآخر..

لقد وعيت أن الداء وبيل ومزمن منذ قرون.. ووجدت أن ذلك يفرض عليّ، وقد ندبت نفسى لمقاومته، بعد أن وعيت أبعاده وأهواله، أن أوصل الكفاح..

إن مناشطى الأخرى - بين الفلسفة وعلم النفس والقصة والشعر - فرض كفاية. أما موقفى من الإصلاح النفسى والعقلى لإزالة الحاجز النفسى وإضاءة جميع الأنوار، وقيام الوحدة الإنسانية والقومية بين شقى الأمة، فذلك فرض عين. وتلك مهمة قمت بها منفردًا، وما زلت منفردًا بها.. فإذا نفضت يديّ منها لم يحمل غيرى شعلتها.. فكيف أتفرغ للفلسفة أو الشعر أو الرواية أو الترجمة، حيث لا خطر ولا وباء، وأترك ذلك الحاجز النفسى الصلد؟!.

أضيئوا جميع الأنوار كي يرى كل طرف ما لدى الطرف الآخر على حقيقته بغير خفاء فتطمئن نفسه، ولا يبقى ثم أساس يذكر للحاجز النفسى، فالكل يعبدون الإله الواحد، وإن اختلفت الأساليب، إلا أن المعنى واحد، والمقصود واحد».

* * *

* وبعد هذا الحديث عن المحنة التى مر بها الكاتب - عقب صدور كتابه: [محمد الرسالة والرسول] - وبيان منهاجه فى كتاباته الإسلامية.. لفت الأنظار إلى أهمية التعريف بإنسانيات الإسلام ورسول الإسلام وعقائد الإسلام ودولة الإسلام وتراثه وحضارته.. ففى هذا التعريف الموضوعى خدمة للإنسانية قبل أن تكون خدمة للمسلمين.

* فهذا النبى الأمي.. الذى افترى عليه المفترون فساووا بين «أميته» وبين «الجهل»!.. قد اقترفوا بذلك حماقة كبرى.. «فلأحمق - ولا شك - هو من يظن أن

الأمية تعنى الجهل فى رجل دانت له الرجال - ومنهم الأمى وغير الأمى .. لقد أقنعهم بدعوته، وأفحمهم بحجته، وتبعوه فازدادوا به إيماناً حتى لقد فدوه ودعوته بأرواحهم راضين ..

إن محمداً المعنى، وكل ما عاش له محمد، وما كان يمثله محمد، هو معيار الثبات والبقاء أولاً وأخيراً، وكل ما خالف هذا المبدأ فهو وهم ولو تصدى لإثباته الإنس والجن بعضهم لبعض ظهيراً!!

ما يمثله محمد كان فى حياة محمد أساس الحق الأوحد. وما يمثله محمد صار بعد وفاته أساس الوجود الأوحد.

محمد ليس كمثل أحد - وإن كان بشراً - لأن الله اصطفاه على العالمين من دون معاصريه جميعاً، وخصه وحده «بالعصمة من الآفات».

وبهذا الاعتبار كان الأخلق أن يعجب المتعجب من منتسب للمسيح يفتات - [كفئة من المستشرقين] - على صاحب رسالة اهتدى بها الملايين من ضلالة الكفر إلى عبادة رب العالمين .. لا أن يعجب المتعجب من مسيحي دفعته عقيدته الصادقة المستنيرة إلى الدفاع عن صاحب تلك الرسالة المظلومة، وإلى إنصافه وإيلائه ما هو حقيق به من الحب والتعظيم.

وإنى لأربأ بنفسى أن أكون ذلك الذى يفتات أو يتواطأ على مثل ذلك الافتئات اللئيم .. إن الذى لا يعنيه إلا ما يصيب ذاته خائن وضع فى مقياس الأسرة، والذى لا يعنيه إلا ما يصيب أسرته خائن وضع فى مقياس الحى أو العشيرة، والذى لا يعنيه إلا ما يصيب العشيرة أو المدينة خائن وضع فى مقياس الوطن، والذى لا يعنيه إلا ما يصيب الوطن خائن وضع فى مقياس الإنسانية الشاملة.

إن الحقيقة هى الوطن الأعظم لكل صاحب عقل وضمير .. والأخلاق تجعل الصديق والعدل وطناً أكبر لجميع البشر ..

ولئن قيل في الوطن المعمور أن من قتل نفسًا واحدة فكأنما قتل الناس جميعًا، فإن من افترى على نفس واحدة كذبًا - في الوطن الروحي والأخلاقي - فكأنما افتأت على شرف الناس جميعهم وعرضهم وسمعتهم..

إن الحق هو الذي نبتغي وجهه، والإنصاف هو الذي نبقي عليه.. ومتى تكون الغيرة في موضعها الصحيح، إن لم تكن على سمعة هاد من هداة البشرية طالما نال منه المفتاتون بلا تورع ولا حياء؟!.

فأى الناس أولى بنفى الكيد عن سيرته من «أبي القاسم» الذي حوّل الملايين من عبادة الأصنام الموبقة إلى عبادة الله رب العالمين، ومن الضياع والانحلال إلى السمو والإيمان، ولم يفد من جهاده لشخصه أو آله شيئًا مما يقتتل عليه طلاب الدنيا من زخارف الحطام؟.

حفاظًا على معنى الشرف وصيانة لحق المروءة أوجبتُ على نفسى ذلك الإنصاف لشخص أبي القاسم، وللرسالة التي حملها إلى الناس في أمانة وصدق وتخرج لا يبارى.

أوجبت ذلك على نفسى منذ عرفت قدره وأدركت خطره.. ضنًا بنفسى عن الخزى الموبق تصديتُ لتلك الغاية، ولا جناح على من اتخذ إلى ربه سبيلًا».

✽ «ولقد أثار سخطى الشديد، وزاد من «شحنة» انفعالي، ما أولع به فريق من أهل العلم، لا من العوام (أى غير المثقفين)، أعنى فريقًا من المستشرقين، من الإيغال فى تشويه صورة الإسلام وصورة محمد، فهو الجور المتعمد إذن، وليس الخرافة والجهل، إنه «سوء النية»، وليس «سوء المعرفة» إنهم غير جاهلين لأنهم لم يعرفوا، أو لم يتح لهم أن يعرفوا، بل لأنهم «لا يريدون» أن يعرفوا، أو يريدون ألا يعرفوا:.

إن الركाम الضخم من الأكاذيب الذى تخرص بها نفر من المستشرقين على الرسول العربى، وتبعهم فيها أمم من الغوغاء، هو إرث قديم موروث منذ ظهور دعوة الإسلام.

ولقد جعلت هذا الكتاب - [محمد فى حياته الخاصة - وامحمداه] - مخصصاً للافتراءات على أخلاق أبى القاسم وصفاته الشخصية التى أرادوا بها تجريح شخصه، لأن النظر فى هذا مقدم على الافتراءات التى وجهت إلى مقومات جدارته بالرسالة وصدقه فيها..

لقد عشقت نبى ديانة أخرى غير ديانتي، هدى قومه عبدة الأصنام إلى عبادة الله الواحد، وقاوم كل محاولة لرفع قدره فوق مستوى بشريته، وامتشق السيف ليقيم دولة مؤمنة بالله على أنقاض فوضى قبائل كافرة لا خلاق لها.

ومثلما كتبت أبصر الناس بسمات الإسلام وسجايا محمد الموضوعية - فى كتابين هما [محمد الرسالة والرسول] - الذى أساء الكثرة من أبناء الديانتين فهم مراميه - و[محمد فى حياته الخاصة] - كتبت عن أبى بكر وعن عمر فى موضوعية من يرى فى كل بارقة خير وقدوة سمو، منارة تصلح أن يستضيء بها البشر الموضوعيون كافة، أيا كانت عقائدهم.

كذلك كتبت فيما بعد [على مائدة المسيح] بنفس الموضوعية المحايدة التى ينبغى أن ينظر بها إليه كل إنسان أيا كانت عقيدته. أى أننى شرعت هذه الموضوعية وفرضتها طريقاً لنفسى قبل غيري، فيما يتصل بعقيدتى وما يخالفها على السواء.

وبهذه الخطه، وهذا المنهج، سأمضى فى الكتابة عن السمات الموضوعية للإسلام، بعد أن بينت الأسباب التى دعتنى للكتابة عنه منذ ربع قرن، بدافع من الوحدة الوطنية، وبدافع من تكوينى النفسى، فبقدر القيمة والفضل على البشرية يكون التقدير، ويكون الغضب على جحود هذه القيمة وهذا الفضل، والانبراء لرفع هذا الجور على القيم الإنسانية الرفيعة أو التناول عليها.

أمضى فى هذا، موقناً أن إنصاف العقيدة المخالفة إنصافاً عقلياً هو مقياس الموضوعية الصحيحة، لأن التصدى للذاتية فى ذروتها عند كل إنسان، والتغلب عليها هو عنوان العدل وآيته. والنضال ضد الذاتية هو جهادى الذى هبأتى وسخرنى له تكوينى النفسى.

إسلاميات الدكتور نظمي لوقا

إن ما أكتبه عن الإسلام إنما هو من منطلق «معرفي» محض، أتمنى أن أكون قد وفقت فيه إلى ما تستلزمه «المعرفة» الوصفية من موضوعية وإلمام بجوانب الموضوع الرئيسية.

إن الموضوعية الصادقة لا تتسنى لطالبيها إلا إذا خلا قلبه من الغل والنفور أو الكراهية للموضوع الذي يتناوله بالمعرفة والتعريف، مثلما يخلو أيضاً من الهوى والمحاباة المغرضة.

ولقد كانت هذه الموضوعية سمة أهل العلم من قديم الزمن، فالأشعري [٢٦٠ - ٣٢٤هـ - ٨٧٤ - ١٩٣٦م] على عدائه في كتبه المشهورة للمعتزلة - أساتذته السابقين - كان أدق الناس وأشدّهم أمانة وهو يروى نصوص أقوالهم، ثم بعد ذلك انبرى للرد عليها. وكذلك كان أبو حامد الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥هـ - ١٠٥٨ - ١١١١م] مع الفلاسفة.

وأما أنا، فليس موقفي موقف المناجز أو المعادى لما رويته من سمات الإسلام، وإن لم أكن من معتنقيه، فما أحرانى إذن أن أكون على مستوى الدقة والأمانة الموضوعية.

ثم إنني بهذا لا أخدم الإسلام بقدر ما أحسن إلى عقلي وخلقي. وأنا القائل منذ ربع قرن:

«من يغلق عينيه دون النور، يضير عينيه ولا يضير النور!». ومن يرتضى لعقله وخلقه غير الصدق والإنصاف وكلمة الحق، يضير عقله وخلقه ولا يضير الحق!».

* * *

وفي التقديم لحديثه عن «سمات الإسلام»، أشار الدكتور نظمي لوقا إلى وحدة الدين الإلهي.. ومن ثم وحدة الأخوة في الله.. مع التعدد في الشعائر والعبادات.. «فكل من يتبصر في لباب أديان التوحيد - والمسيحية والإسلام كل منهما دين توحيد - يدرك أن الله الواحد هو المعبود هنا وهناك، وإن اختلفت شعائر التعبد «وأسلوب»

التوحيد. فأجدر إذن بالمتبصر أن يرى - كما أرى - فى كل مؤمن بالله الواحد أخاه فى الله، وإن لم يكن أخاه فى الديانة!.

إننى شديد الإيمان بروح ديانتى المسيحية ومبادئها ومثالياتها، والمحبة التى تعم العدو والصديق هى لباب هذه الديانة، وبدونها تنحط الديانة إلى شعائر جوفاء، فلئن وجبت عليّ إذن محاربة التعصب الذميم ومصدره - وهو التفكير الذاتى - فالمسيح يدعونى صراحة قبل أن أفكر فى إخراج القذى من عين سواى، أن أجتهد أولاً فى إخراج «الخشبة» التى فى عيني أنا!.

إن الانتساب للديانة ليس كافياً، بل المهم هو تأثر النفس وتغيرها، فالدين كالغذاء الجيد، والغذاء الجيد تختلف حصيلته بين البقرة والحمار والثعبان والنحلة! والمعول فى التدين على «الصحة النفسية». أما النفس العليقة، فكل ما تأتبه عليل. وقديماً قال المسيح: إنه كما تكون الشجرة تكون ثمرتها.. والشوك لا يثمر عنباً!.

وبعد هذا التمهيد عرض الدكتور نظمى لوقا لسمات الإسلام ومميزاته.. فقال:

✽ لقد أعطى الإسلام البشرية «عقيدة توافقية» تجمع بين الدين والدنيا، يتكامل فيها الروح والبدن فى مناشط البشر، فهى ليست عقيدة استقطابية تضع هذين العنصرين على طرفى النقيض، فلا يكون المرء روحياً إلا بإنكار جسده جهد الإنكار.

ونحن نرى اليوم أمماً بلغ عندها الفهم العقلى والتنظيم الاجتماعى المادى غاية مداه، ورفرف اليسر على أعضاء الجماعة، ولكنهم لا يحسون سعادة نفسية بذلك الرخاء، بل يحسون الخواء النفسى، وربما ارتفعت بينهم نسبة الانتحار.

لماذا؟

لأن هذا هو الفيصل الحاسم بين الروح والمادة، بين العقيدة والعقل، بين العاطفة والمصلحة، بين الله والإنسان!

إن التقدم المادى تحسين لظروف الآدمى، وليس تحسناً يتناول «ذات» الآدمى، أو نفسه، وتقدم لأحوال الكائن البشرى، وليس تقدماً يصيب وجدانه. إنه رقى فى

«الكمية» وليس رقيًا في «كيفية» ذلك الإنسان أو قيمته من حيث هو ذات واعية شاعرة ناطقة.

إن الإنسان المتقدم بماديّاته وأحوال معاشه فحسب يعجزه أن يجد لذلك طعمًا وجدانيًا عميقًا، أو ورقيًا في قيمته ونهوضًا بمعنى إنسانيته، إنه كالبعول المدلل المزركش ولا زيادة.

وهذا هو الفاصل الأكبر بين «سعادة» المؤمن و«رفاهية» المادي.

إن المصدر السماوي للأخلاق في العقيدة الدينية هو الحافز الدائم للمرء على الارتفاع بنفسه وسلوكه وعواطفه فوق طبيعته الأرضية ورغائبه الحسية وأنانيته الحيوانية.

«وابتغاء وجه الله»

والإسلام لا يلغى العقل ولا يجحد المادة، ولكنه يضعهما في حدودهما ولا يعدو بهما قدرهما الحق. فهما بغير القيمة الروحية لا يجديان الإنسان فتيلاً، فيكون كمن ختم على سمعه وبصره.

إن التقدم المادي بغير السمو الروحي عمى مطبق، وقعود عن التحليق، وارتباط وخيم بتراب الأرض، ولو جعلته تبرًا إبريزًا.

أما بعد هذا السمو الروحي -[في الإسلام]- فمصالح الناس المرسلّة أهل للرعاية، وهم أعلم بشئون دنياهم.

* ولقد كفل الإسلام للإنسان حرية الفكر.. حتى أنه «يحض على التفكير، ويجادل المنكرين بالمنطق والحجة العقلية، فليس فيه إذن ما يناهض قيام حركة عقلية ابتداء، وإن كان النظام العام يبيح الخروج عن حدود الشرع فيما رسم للناس من عقيدة وسُنّة».

* كذلك أقام الإسلام أمة - بالمعنى السياسي والاجتماعي «فعلى أسسه قامت بين المسلمين «أمة» ذات منظور جديد، وغايات جديدة، وعلاقات اجتماعية وقواعد سلوكية جديدة، ليس للعرب في الجاهلية عهد بها من قبل.

هذه الأمة الجديدة، أمة الإله الواحد بعد تفتت القبائل وآلهتها وأعرافها، لها دستور واحد هو القرآن، وتجمعها رابطة واحدة أقوى من رابطة الرحم والنسب هي رابطة التوحيد، ولها قدوة واحدة هو هذا الرسول البشر، الذى كان لسان السماء، وكان بشريته حجة الله على بشريتهم فيما تطبق، وما تلتزم به. فالمؤمنون وهذه الأمة الإسلامية ليست «رعايا» وملكاً موروثاً، فهم إخوة، وليس عليهم جبار، والحكم فيهم حكم الله. وتطبيقه فيهم عن طريق الشورى بينهم على أساس من دستور العقيدة، وليس حكم الله فيهم لأحد بعد النبي يتحدث باسمه أو يحتكر السلطان على الناس، أو لجماعة منهم دون سائر الأمة».

* وبعد هذه الإشارات إلى معالم الأمة التى أقامها الإسلام.. ذهب الدكتور نظمي لوقا فألقى الأضواء على بعض هذه المعالم..

فدستور هذه الأمة - القرآن - قد نص على الصلاة والصوم والزكاة إلخ.. وحدد الحدود الشرعية أى القصاص على الآثام وارتكاب ما حرم الله. ولقد وضع الدور الرئيسى لهذا الدستور منذ نشأ أول مجتمع إسلامى مستقل بكيانه فى «يثرب»، فقيام أول دولة إسلامية صار لا بد لها من «التشريع» الذى ينظم كل العلاقات الدنيوية، مثلما نظم من قبل العلاقات الأخروية والإيمانية التعبدية، وأرسى قواعد العقيدة.

وكما هو الحال فى أى دولة لها كيان متميز مستقل، نشأت إلى جانب «الأحوال المدنية» و«العلاقات الداخلية» فيما بين المسلمين بعضهم وبعض «علاقات خارجية» فيما بين المسلمين ومن خالفهم فى العقيدة أيًا كانت مواضعهم فى داخل «يثرب» وما حولها، وفى أى بقعة أخرى للمسلمين بأهلها صلة».

* ومع «الأمة» و«الدستور» أقام الإسلام حكومة تدبر الاجتماع «إذ لا تقوم أمة بغير حكومة تقوم على تصريف مصالحها وتطبيق دستورها وقوانينها.

وللحكومة فى أمة الإسلام دستور واحد، ومصدر هذا الدستور، فى يقين كل مسلم، هو الله الواحد الأحد، والحكومة هي «المنظم» للسلوك العام، والرقيب على «القانون» الإلهي.. وهى أيضًا الأمين على المال العام، مال «أمة المسلمين» بموارده

المعروفة في هذا الدستور، وعلى رأسها الزكاة، وبمصارفه الواجبة للمصلحة العامة، من إعالة المعوزين، وسد الثغور، وإنشاء المرافق وصيانتها.

وحكومة هذا شأنها، ووضعها، لا بد أن تكون حكومة «الأمة»، لا حكومة الحاكم الفرد أو جماعة الحاكمين.

ولئن كان الحاكمون من حول هذه الأمة الإسلامية، من روم وعجم وغيرهم طغاة و«قيصرة» و«أكاسرة» فلا ينبغي أن يكون طاغية بعد اليوم في قوم يؤمنون بأنه لا إله إلا الله، وإنه [لله الأمر من قبل ومن بعد] [وأمرهم شورى بينهم].

بل إن نبي الإسلام، وهو الحاكم الأول، زماناً ومقاماً، وبه القدوة على امتداد العصور لكل المسلمين، كان عليه بأمر ربه أن يشاور المؤمنين فيما يعرض من الأمور، وكذلك كان يفعل، فقد جاء في القرآن: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] - وأيما خلاف شجر بين المؤمنين فمرده إلى أحكام القرآن: ﴿وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

فلا يجوز إذن أن يكون على المؤمنين بالإسلام جبار. فالحاكم إذن لا يقوم فيهم إلا باسم الأمة.. فلا طبقات ولا استعلاء بالنسب ولا شعوبية.

وهكذا تكون حكومة الناس في الإسلام صورة من عقيدتهم، يحكم الحاكم بما أمر الله، وليس له أن يكون جباراً، وليس له أيضاً أن ينفرد بالأمر من دونهم.

ولكن «صيغة» أو «أسلوب» البيعة قابلة للتغير بما يوافق كل زمان ومكان، وليس التنظيم الإسلامي لأمر الدنيا بنظام مقفل جامد، بل هو التنظيم الجوهرى الذى لبابه قول نبي الإسلام: «لا ضرر ولا ضرار» و«أنتم أعلم بشئون دنياكم».

إن دولة الإسلام هي دولة الإيمان التى لا تقوم إلا على الإخلاص للعقيدة، بحيث يكون «الحق» هو مناط السلطة، ويكون الحكم كله لله».

* والحكم فى دولة الإسلام قائم على الشورى.. وهذه الشورى الإسلامية هي ترشيد للديمقراطية، بحيث يمكن أن نسميها «الديمقراطية الرشيدة».. ففيها لا بد أن يكون «الناخب» على درجة عالية من الفهم والاستنارة واليقظة والتمييز بين الخبيث

والطيب، والاختيار بين الشرين أيهما أهون وأسلم عقبى، كى يكون هذا «الناخب» من «أهل الذكر» الذين يشير إليهم القرآن. وإذا كانت المسألة عويصة تحتاج إلى معرفة الخبير، لم تترد الأمة فى سؤال «أهل الذكر» فى هذا المقام من الخبراء، بشرط مقدم على كل شىء، حتى على العلم، ألا وهو التقوى التى تضمن النزاهة والتجرد من الأهواء.

إن النزاهة والصدق بمعنى الإخلاص والتجرد للحق والعدل من الأهواء الخاصة، شرط جوهرى فى سلامة الشورى..».

* وإذا كانت تفاصيل التشريعات متطورة لمواكبة مقتضيات الزمان والمكان، فإن مقاصد الشريعة الإسلامية هى الإطار الحاكم لهذه التشريعات.. «وإذا كانت الجاهلية قد احتكمت إلى القوة والجبروت، ولذا شاع فيها العدوان.. فإن الإسلام قد بدأت شريعته بحماية النفس والعرض والمال حماية مطلقة، ورتب القصاص على كل جناية ضد النفس أو العرض أو المال..

بل حتى العبادات والشعائر فى الإسلام كانت لها مقاصد اجتماعية تترك آثارها فى الاجتماع العام، ولذلك «فقلما نجد ذكر الصلاة فى القرآن من غير ذكر لآثارها العملية، من اتقاء الله فى الضعفاء، والإحسان إلى ذوى القربى واليتامى والمساكين، وإيتاء الزكاة، والتعفف عن الفسوق.

فليس البر فى البطالة اكتفاء بالسجود، أو حبس الأموال مع الصيام والتهجد».

* وإذا كانت «القوة» هى الروح السارية فى النظم الجاهلية، فإن الإسلام قد جعل «العدل» الروح السارية فى نظامه وفى حضارته.. بل لقد ارتفع الإسلام بالعدل من مستوى «مكارم الأخلاق» إلى مستوى «محاسن الأخلاق»..

«إن مبدأ العدل فى الإسلام هو المبدأ الجوهري، وهو التالى للتوحيد وتوابعه.. ففى الحرب لا يجوز للمسلم العدوان ابتداء ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٩٠].

والعدل مطلوب حتى مع من يكرههم المسلم لأسباب شخصية ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ۭٓٓٓ لَا تَجِزُ الْعُدُوٰن ﴾ [المائدة: ٨] بل والأسباب العامة أيضًا لا تجيز العدوان ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ ۭٓٓٓ صَدُّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۭٓٓٓ أَنْ نَعْتَدُوْكُمْ ﴾ [المائدة: ٢].

والتغلب على النفور والكراهية إثارًا للعدل، ضرب من الإيثار يتجاوز مجرد العدل إلى «إنكار الذات» الذي هو مستوى يفوق «محاسن الأخلاق»، لأنه مستوى «مكارم الأخلاق»، فمكارم الأخلاق سمتها المميزة التطوع بالنزول عن حق شخصي - بغير ضغط ولا طمع - إثارًا للآخرين.

* ولأن الإسلام دين الجماعة، فلقد جعل تحرير الفرد لبنة في تحرير الجماعة - الأمة.. ولأن الأمة قائمة على ساقى المرأة والرجل.. فلقد أولى الإسلام أهمية خاصة لتحرير المرأة، بعد أن كانت في الجاهلية - بعضا من سقط المتاع.. «فالمرأة في الإسلام إنسان له كل حقوق الإنسان وكل تكاليفه العقلية والروحية. فهي في هذا صنو الرجل، تقع عليها أعباء الأمانة التي تقع عليه، أمانة العقيدة وتركية النفس.

وليس في الإسلام - على حقيقته - عقيدة رجعية تفرق بين الجنسين في القيمة بل المرأة موازية تقف مع الرجل على قدم المساواة، لا يفضلها إلا بفضل، ولا يحبس عنها التفضيل متى حصل لها هذا الفضل بعينه في غير مطل أو مرء.

وذلك - بمقياس العقل - حَسْبُ عقيدة لتكون على سُنَّة العدل التي لم يجد لها عصرنا اسمًا أوفق من «تكافؤ الفرصة» الذي يلغى كل تفريق تعسفي، ويسقط كل حجة، ويقضى على كل تمييز إلا بامتياز ثابت صحيح.

لقد كفل القرآن للمرأة حقوقها في الأحوال الشخصية، والاستقلال بالذمة المالية، وألا تزوج إلا برضاها، وما إلى ذلك من الحقوق..».

* ولقد جعل الإسلام «الأسرة» اللبنة الأولى في بناء «الأمة»، ولذلك أولت شريعته الزواج عناية خاصة.. «فالزواج ليس علاقة حيوانية بين ذكر وأنثى ﴿ وَمِنْ

﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ الَّتِي سَلَكَتُ فِيهَا وَمَا كُنْتُ بِمُتَّبِعِهَا أَهْلًا﴾ [الروم: ١٦].

وإنى لأرى فى قوله: [من أنفسكم] لمسة تمس شغاف القلب، وتذكر بما فى الزواج من قربي تجعل الزوجة قطعة من النفس. ثم أردف ذلك بالسكن، وما أقرب السكن من سكينه النفس فى هذا الباب لا مساكنة الأجساد، بدليل ما أردف بذلك من «المودة والرحمة».

وما من شك فى أن نظام الزوجة الواحدة الدائمة «مثالي».. إلا أن النظر إلى «واقع» الحياة البشرية فى تاريخ مجتمعاتها الغابرة والحاضرة يطلعنا على تعدد النساء فى حياة الرجل الواحد فى كثير من الأحيان، سواء جهراً أو سراً، وسواء برخصة من القانون أو الدين، أو حتف القانون والعقيدة.

ثم إن حياة البداوة والريف غير حياة الحضرة، وفى الريف بسبب كثرة الحروب، فلا يصان عرض المرأة ولا تستقر معيشتها مادياً ونفسياً إلا إذا صارت فى كنف رجل، ولا حيلة عندئذ إلا فى التعدد، لأنه الحل السليم الوحيد، أو لنقل: إنه أسلم أساس لجماعات هذه حقيقة ظروفها، والضرورات تبيح المحظورات.

وعندئذ يكون التعدد رخصة تُستخدم بحققها، وعند حصول مسوغاتها الطبيعية من أحوال البيئة، أو من أحوال الأفراد.

وكما رخص الإسلام فى التعدد - للضرورة - كذلك رخص فى الطلاق، كدواء مر المذاق، أو جراحة موجهة.

ومن الذى يلغى التداوى كراهة للمرارة؟ أو يحرم الجراحات كراهة للآلام والمصائب؟..

* وفى سياق الحديث عن سمات الإسلام، عرض الدكتور نظمي لوقا لبعض الشبهات التى تتعلق بها خصوم الإسلام، فأبان حقيقة الموقف الإسلامى منها.. ومن هذه الشبهات حصر «الجهاد الإسلامى» فى القتال دون سواه.. وفى ذلك قال: «أنا لا أعتقد، عقلاً، أن الجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس يكون بالحرب والضرب

إسلاميات الدكتور نظمي لوقا

فحسب، بل إن كل عمل صالح لخير عباد الله هو جهاد.. فنشر العلم، أو اكتشاف الأدوية، أو البحث العلمي، أو علاج المرضى، أو هداية الناس إلى ما تصح به نفوسهم ويُسّرّون به للخير ومرضاة ربهم من أمور دينهم ودنياهم.. كلها وأمثالها ميادين للجهاد الذي فرضه الإسلام».

كذلك، الموقف الإسلامي من غير المسلمين.. «فلم يتخذ المسلمون من الآخر موقف المقاطعة ولا التعصب الأعمى، ولا المبادأة بالعداء. فمن لم يدر منه عدوان، ولم يظهر على العدوان ويسهم فيه، فليس أهلاً - وفي نظر العقيدة الإسلامية - للمقاطعة وقطع العلاقات.

* * *

* وكما عرض الدكتور نظمي لوقا في هذه الإسلاميات لسمات الإسلام - التي ضربنا لها الأمثال - كذلك كتب عن رموز الإسلام .. كتب عن أبي بكر الصديق - حواري محمد.. وعن عمر بن الخطاب - البطل والمثل والرجل.. وعن عمرو بن العاص..

ولقد تحدث الرجل عن منهجه المتميز في التأريخ للأبطال والبطولات - كما تحدث عن تميز منهجه في الكتابة عن الإسلام.

وفي حديثه عن منهجه في الكتابة عن البطولة والأبطال، قارن بين مذهبه ومذهب كل من الدكتور محمد حسنين هيكل [١٣٠٥ - ١٣٧٥ هـ - ١٨٨٨ - ١٩٥٦ م] ومذهب الأستاذ العقاد [١٣٠٦ - ١٣٨٤ هـ - ١٨٨٩ - ١٩٦٤ م] فقال: «لقد كان ما يكتبه هيكل أقرب شيء إلى السيرة التي تتعقب الأحداث والأعمال بالرصد والتسجيل والتحليل، وتنتهي إلى تقييم شامل متوازن.

أما العقاد، فلم يفارقه حس الشاعر، وحماسة العاشق، وهو يعمل فكره في تصوير الشخصية وتفسيرها.. فأنت - [في كتابة العقاد عن عمر بن الخطاب] - أمام موكب ملكي رائع، أقامه العقاد لحبيبه عمر، وحشد له طاقته المذهلة في المنطق والبلاغة وسحر البيان، فجاءت عباراته أشبه بعربة مذهبية تجرها الجياد المطهمة، ويحف بها الفرسان الدارعون الصناديد!.

أما أنا - [نظمى لوقا] - فرؤيتى لعمر رؤية خاصة.. رؤية إنسانية محض، مدنية محض، تتناول عمر من حيث هو بشر يتمثل فيه مستوى رفيع من الصفات الإنسانية تجعل منه مثلاً رفيعاً لكل من يتطلع إلى المثل الرفيعة فى السلوك والنهوض بالأعباء الجسام. رؤية تنحصر فى تبين عمر الإنسان الذى تعم فائدة التعرف إليه البشر جميعاً. فليس لأحد أن يتوقع متى سيرة لعمر، ولا قصيدة انبهار بعمر، بل دراسة لسمات البطولة عموماً من خلال صورة عمر ومواقفه.

فنحن لا نؤمن بجذوى الكتابة عن الأعلام والأفذاذ بقصد التنزيه أو التأليه، وإنما نؤمن بالكتابة بقصد الفحص الذى يؤله الحق ولا يؤله الأشخاص..».

* وإذا كان كتاب تنظيم لوقا عن أبى بكر الصديق - حوارى محمد - قد ملك عليّ مشاعرى وأنا أعيش معه، إلى الحد الذى فاضت فيه دموعى مرات عديدة.. فلقد جاء كتابه عن عمرو بن العاص شهادة قبطى مصرى لفتح مصر، تطلب من خصوم هذا الفتح - من أسرى التعصب الطائفى الأعمى - أن يراجعوا مواقفهم، لإنصاف التاريخ وصناع هذا التاريخ.. وإنصاف روح عقيدتهم الدينية؟!.

فهو يتحدث عن موقف أجدادنا القبط من الفتح الإسلامى لمصر، فيقول: «لقد كان فى مصر فريقان: أهلها القبط. والرومان.

أما أهلها القبط فكانوا يتوسمون فى العرب الخير لما سمعوه عن فتوحهم فى الشام، وأنهم حافظوا على الكنائس والديور، وتركوا للأهالى الحرية الدينية كاملة، ولم يقسروا أحداً على شىء يتصل بعقيدته أو ملته، وأنهم يجلبون القسوس والرهبان، ويحمون الصوامع والهياكل والصلبان، وهذا نقيض ما أُرهِق القبط من «قيرس» والى «هرقل» [٦١٠ - ٦٤١م] الذى سام القبط العذاب ليحملهم على ملة من المسيحية تخالف ملتهم، وأشاع فيهم السيف والقتل.

ورأى القبط من سيرة العرب فى شهور حرب الفتح كيف فعلوا مثل ذلك بالأقاليم التى وقعت فى مصر تحت حكمهم، فلم يقتضوا من أحد غير الجزية المعقولة، وتلك فى نظرهم حالة ما كانوا ليحلموا بخير منها، فلا ضير عليهم أن يخلف الحاكم الجديد

إسلاميات الدكتور نظمي لوقا

الحاكم القديم، فهم فى الحالين محكومون، ولكنهم عسيون الآن أن يجدوا الأمن والدعة والراحة وحرية العبادة بعد العسف والخوف والاستبداد ومصادرة العقيدة.

ولقد كانت الحرية الدينية فى مصر - بعد الفتح - مكفولة للجميع على السواء، حتى أنه لم يحدث اضطهاد لمذهب الرومان وأتباعه، بل كانت لهم الحرية فى عباداتهم وشعائرهم وكنائسهم مثل الأقباط».

* كذلك تحدث نظمي لوقا عن العدل الإسلامى الذى طبقه الحكم الإسلامى بمصر.. فبعد أن كان المصرى يدفع للدولة الرومانية أكثر من ثلاثين ضريبة - إحداها على استنشاق الهواء! - «تم إلغاء الامتيازات الضريبية.. وتوحد الخراج على الأرض بصرف النظر عن ديانة الزارع لها.. كما تم تغيير مقادير الخراج تبعاً لعلو الفيضان ووفرة الغلة، تُقرر ذلك لجنة فى كل قرية تنظر فى المحصول وتقدر الخراج بما يناسبه. كل ذلك على عكس ما كان من المظالم زمن حكم الرومان».

* أما الجزية - ضريبة الرأس - التى لا يزال يلغى حولها أسرى التعصب الطائفى - فلقد أوضح نظمي لوقا حقيقتها.. «فما كانت الجزية إلا ما نسميه اليوم «بدل التجنيد»، أى مقابل قيام المسلمين بالدفاع عن الدمين عسكرياً، لأنه لا ينخرط فى سلك الجندية بالدولة الإسلامية - والدولة يومئذ دينية لا قومية - أحد من غير المسلمين. إنها ضريبة الدفاع وضريبة الأمن. ومقطوع بأن الدمين فى ذلك العهد كانوا يدركون أيضاً أن الدولة دينية لأن القومية لم تكن قد برز مفهومها بروزه فى العصور الحديثة، ولذلك كانوا يقبلون تلك الجزية فرحين».

* * *

هكذا تحدث نظمي لوقا - هذا الابن البار للوطنية المصرية.. والقومية العربية.. والحضارة الإسلامية.. والإنسانية المستنيرة - عن سمات الإسلام - العقيدة.. والشرعة.. والقيم.. والأمة.. والدولة.. والحضارة.. تحدث عن ذلك كله فى هذه الإسلاميات - التى نقدم بين يديها - مجموعة محققة - للمرة الأولى..

وفى هذا الحديث أجاب عن الأسئلة الاستنكارية التى انهالت عليه بعد صدور كتابه الأول - الفذ - عن [محمد الرسالة والرسول]:

- لماذا يكتب - وهو المسيحي - عن الإسلام ورموز الإسلام؟.

بل لقد أجاب الرجل عن سؤال آخر يقول:

- لماذا تفرد نظمي لوقا - دون كل الكتاب الأقباط - بهذا الذي كتبه عن الإسلام، والهوية الإسلامية لحضارتنا العربية الإسلامية؟!.

وفى الإجابة عن هذا السؤال، الذي لا يزال عالقاً في سماء حياتنا الفكرية! - قال نظمي لوقا: «لقد انهدم أمامي - أنا القبطي - حتى زال تماماً سور ظل قائماً أكثر من ثلاثة عشر قرناً بين أمثالي وبين معالم الإسلام وسماته..»

ولم يزعزع ذلك إيماني بديانتي، إلا أنه أطلعني - بصورة فذة لم تتح لأمثالي - على أسرار حقيقة ديانة غالبية أبناء أمتي..

واستقر في نفسي أن «الاستنارة» الفكرية، ومعرفة سمات الديانات المخالفة على حقيقتها لا تضير الإيمان الذاتي، بل تجعله صافياً صفاء النور، لا معتماً بدخان الجهل الداكن الذي ينقذ منه الشرر، وقد تنشب منه الحرائق!

لقد نذرت نفسي لمحاربة «التفكير الذاتي» الذي يثمر التعصب الأعمى.

لتكن دياتك ما تكون، فهذا شأنك وحدك، ولكنني أدعوك ألا تتخذ منها ذريعة للتعصب ضد الديانات الأخرى، بل اجعل من جميع أتباعها إخوة لك، واجعل من كل تلك الديانات أخوات لديانتك في التوجه إلى الله، في تنزهه عن الأنانية والتعصب، وفي حب شامل للبشرية كافة!.

يجب أن تدرك العقائد على نحو ما تُدرك موضوعات علم النبات والكيمياء والفيزياء وما إليها، وهو نوع من الإدراك لا يجوز أن يختلف باختلاف الانتماء الإيماني لمن يدركونه بأمانة».

* * *

وإذا كان نظمي لوقا قد تفرد من بين جميع الكتاب الأقباط بهذا الموقف من الهوية الإسلامية للوطن والقومية والأمة.. فلقد كافأته الأمة «بالإحياء» الذي ضمنته

له، والذي ضنت به عن سواء من الذين تنكروا لهذه الهوية الإسلامية.. وعلى سبيل المثال:

- فلقد كان سلامة موسى [١٨٨٨ - ١٩٥٨ م] إبان حياته ملء السمع والبصر.. لكنه عندما هلك هلك معه كل أفكاره التي أودعها كتبه ومقالاته ومحاضراته وأحاديثه.. دخلت معه القبر الذي قُبر فيه، حتى انقطع ذكره، فلم يعد أحد يذكر اسمه ولا فكره..
لماذا؟

لأنه قد انسلخ من الهوية الإسلامية للوطن الذي عاش فيه.. وعبر عن ذلك الانسلاخ بصراحة بلغت حد الوقاحة عندما قال:

«أنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب.. ولقد قاد نابليون [١٧٦٩ - ١٨٢١ م] الحملة الفرنسية ليزيل عنا كابوس الشرق، وليغرس فينا الحضارة الأوروبية.. وإذا كانت الرابطة الشرقية سخافة، فإن الرابطة الدينية وقاحة!.. ونحن نريد العامة، لغة الهكسوس، لا العربية الفصحى، لغة التقاليد العربية والقرآن»^(١)!

- وبعد سلامة موسى، كان د. لويس عوض [١٩١٥ - ١٩٨٩ م] - الذي عاصر نظمي لوقا - والذي سار على طريق سلامة موسى، فوصف اللغة العربية بأنها لغة ميتة.. ولغة دخيلة وأنها الأغلال التي يجب تحطيمها»^(٢)!..

فلقد عاش لويس عوض «مقرراً» على الشعب المصري - في الصحافة والإذاعة والتلفاز والكتب - وعندما هلك أقيم له مهرجان، وأعيدت طباعة كل مؤلفاته - التي دخلت مخازن وزارة الثقافة - مع دخوله إلى قبره - فلا أحد يذكره ولا أحد يقرأ له الآن!..

(١) سلامة موسى [اليوم والغد] ص ٢٠٠، ٢٠١ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م.

(٢) د. لويس عوض [تاريخ الفكر المصري الحديث] ج ١ ص ٢٠٩. طبعة دار الهلال - القاهرة سنة ١٩٦٩ م.

لكن نظمى لوقا، الذى تفرد من بين الكتاب الأقباط بهذا الانتماء العميق للهوية الإسلامية لوطنه وقوميته وحضارته، وبهذه العلاقة الحميمة مع الأبعاد الإنسانية للإسلام.. منحتة الأمة هذا الحضور الدائم والمكانة المتألقة فى واقعنا الفكرى، وإلى ما شاء الله..

لقد عاش بعيداً - بل مستبعداً - من دوائر السلطة والإعلام.. لكنه - بانتمائه الحضارى - كان ولا يزال وسيظل فى ضمير الأمة.. وفى المقدمة من المفكرين الحضاريين الذين تركوا بصماتهم اللامعة على صفحات فكرنا العربى الحديث..

وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

وسلام على الصادقين. والحمد لله رب العالمين..

٢٧ رجب سنة ١٤٣٩هـ.

١٤ إبريل سنة ٢٠١٨م.

دكتور محمد عمارة

ابن تيمية والسنن الربانية

فى التاريخ الفكرى للحضارة الإسلامية، تألق عدد من أعلام علماء الإسلام فى سماء الفكر حتى أصبحوا منارات هادية، لا لعصورهم فقط، ولا لمحيطهم فحسب، وإنما لكل العصور وعلى امتداد أوطان عالم الإسلام.. بل وامتدت تأثيراتهم إلى ما وراء عالم الإسلام.. لقد مثل كل واحد منهم «ظاهرة فكرية» دائمة العطاء.. وضمنوا الخلود، لأنهم ارتبطوا بمصادر الخلود: البلاغ الإلهى الخالد - القرآن الكريم - والبيان النبوى لهذا البلاغ - سنة رسول الله، ﷺ.. مع جمعهم بين الاجتهاد الفكرى وبين الجهاد العملى فى سبيل إعزاز دين الله وأمة رسوله ودار الإسلام.

ولقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ - ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م] واحدًا من صفوة هذه الصفوة من أعلام علماء الإسلام.

وإذا كان المقام لا يسمح بتفصيل الحديث عن حيثيات هذه الحقيقة - حقيقة تحول ابن تيمية إلى «ظاهرة فكرية» متعددة للعصور والآفاق - فإن إشارات إلى بعض إجاباته على عدد من «مشكلات عصرنا وواقعنا المعيش» هى دليل على حضور هذا العقل الذى رحل صاحبه عن عالمنا قبل سبعة قرون.

* إن عالمنا - فى شرقه وغربه وشماله وجنوبه - لا يزال حائرًا حول علاقة العقل

بالنقل..

فهناك من يطوون صفحة النقل عندما يطبقون على الكتب السماوية نظرية «موت المؤلف» ويحلون تأويلات القراء محل المقاصد الإلهية فى الوحي الإلهي.. وهناك التأويلات الباطنية الغنوصية التى عمت التأويل العبثى، المنفلت من قواعد اللغة وثوابت العقيدة، فحولت كل الحقائق إلى مجازات وخيالات.. وهناك رد الفعل الذى وقف بأصحابه عند الجمود على ظواهر النصوص - محكمات كانت هذه النصوص أو متشابهات..

وأمام هذا «المشكل - المعضل» لا تزال إجابات شيخ الإسلام ابن تيمية حاضرة ووافية وشفافية.. فعنده: «أن ما عُرف بصريح العقل لا يُتصور أن يعارضه منقول صحيح قط.. ولقد تأملتُ ذلك فى عامة ما تنازع الناس فيه فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة شبهات فاسدة يُعلم بالعقل بطلانها، بل يُعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع. وهذا تأملته فى مسائل الأصول الكبار، كمسائل التوحيد والصفات ومسائل القدر والنبوات والمعاد وغير ذلك.

ووجدتُ ما يُعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط، بل السمع الذى يُقال إنه يخالفه إما حديث موضوع أو دلالة ضعيفة فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارضة العقل الصريح، فكيف إذا خالفه صريح المعقول؟

ونحن نعلم أن الرسل لا يخبرون بمحالات العقول، بل يخبرون بمجازات العقول، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته^(١).

والقول كلما كان فاسداً فى الشرع كان أفسد فى العقل، فالحق لا يتناقض، والرسل إنما أخبرت بحق، والله فطر عباده على معرفة الحق، والرسل بُعثت بتكميل الفطرة لا بتغيير الفطرة.

قال الله تعالى: ﴿سَرُّهُمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] فأخبر أنه سيرهم الآيات الأفقية والنفسية المبينة لأن القرآن الذى

(١) ابن تيمية: [بيان موافقة صريح المعقول الصحيح المنقول] ج١ ص ٨٣، طبعة القاهرة الأولى سنة ١٣٢١هـ.

أخبر به عباده حق، فتتطابق الأدلة البرهانية القرآنية والبرهانية العيانية، ويتصادق موجب الشرع المنقول والنظر المعقول..»^(١).

* وفي قدرة العقل على التحسين والتقييح، وإدراك الحُسن والقُبْح في الأشياء - لا يزال الجدل قائمًا - ولحسم هذا الجدل العقيم نجد الإجابة الشافية في تراث شيخ الإسلام، الذي يقول: «إن أكثر الطوائف على إثبات الحُسن والقُبْح العقليين.. وهذا قول الحنفية.. وهو قول كثير من المالكية، والشافعية، والحنبلية.. وكذلك أهل الحديث.. بل لقد ذكر هؤلاء أن نفى ذلك هو من البدع التي حدثت في الإسلام.. وقالوا: إن نفى الحُسن والقُبْح العقليين مطلقًا لم يقله أحد من سلف الأمة ولا أئمتها، بل ما يؤخذ من كلام الأئمة والسلف في تعليل الأحكام وبيان حكمة الله في خلقه وأمره، وبيان ما فيما أمر الله به من الحُسن الذي يُعلم بالعقل وما في مناهيه من القُبْح المعلوم بالعقل، ينافي قول الثُّفاة..

والحُسن والقُبْح من أفعال العباد يرجع إلى كون الأفعال نافعة لهم وضارة لهم، وهذا مما لا ريب أنه يُعرف بالعقل..

وأخص صفات العقل عند الإنسان أن يعلم ما ينفعه ويفعله، ويعلم ما يضره ويتركه. والمراد بالحسن هو النافع، والمراد بالقبيح هو الضار. فكيف يُقال: إن عقل الإنسان لا يميز بين الحسن والقبيح؟ وهل أعظم تفاضل العقلاء إلا بمعرفة هذا من هذا؟ بل وجنس الناس يميل إلى من يتصف بالصفات الجميلة، وينفر عن من يتصف بالقبايح، فذاك يميل جنس الإنسان إلى سمع كلامه ورؤيته، وهذا ينفر عن رؤيته وسمع كلامه..

إن العقل يحب الحق ويلتذ به، ويحب الجميل ويلتذ به، وإن محبة الحمد والشكر والكرم هي من العقلية.. وإن للإنسان قوتين: قوة علمية فهي تحب الحق، وقوة عملية فهي تحب الجميل، والجميل هو الحسن، والقبيح ضده..»^(٢).

(١) ابن تيمية: [منهاج السنة النبوية] جـ ١ ص ٨٢، طبعة القاهرة الأولى سنة ١٣٢١هـ.

(٢) ابن تيمية: [كتاب الرد على المنطقيين] ص ٤٢٠ - ٤٢٢، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣٣. طبعة دار المعرفة - بيروت.

هكذا تألق شيخ الإسلام ابن تيمية فيلسوفاً في العقلانية المؤمنة.. وفي الحسن والجمال.. يقدم الإجابات الشافية والوافية على المشكلات التي لا تزال مثارة في واقعنا المعيش.

* وفي الموقف من الغلو الديني، الذي أشاع أصحابه «ظاهرة التكفير» في واقعنا المعيش، نجد ابن تيمية حاضراً بكلماته النفيسة التي يقول فيها:

«والذي نختاره أن لا نكفر أحداً من أهل القبلة. والدليل عليه أن نقول: المسائل التي اختلف أهل القبلة فيها مثل:

أن الله تعالى هو عالم بالعلم أو بالذات؟

وأنه تعالى هل هو موجد لأفعال العباد أم لا؟

وأنه هو متحيز؟ وهل هو في مكان وجهة؟ وهل هو مرئى أم لا؟

لا تخلو - [هذه المسائل] - إما أن تتوقف صحة الدين على معرفة الحق فيها أو لا تتوقف؟ والأول باطل، إذ لو كانت معرفة هذه الأصول من الدين لكان الواجب على النبي - ﷺ - أن يطالبهم بهذه المسائل ويبحث عن كيفية اعتقادهم فيها، فلما لم يطالبهم بهذه المسائل، بل ما جرى حديث من هذه المسائل في زمانه عليه السلام ولا في زمان الصحابة والتابعين رضى الله عنهم، علمنا أنه لا يتوقف صحة الإسلام على معرفة هذه الأصول، وإذا كان كذلك، لم يكن الخطأ في هذه المسائل قادحاً في حقيقة الإسلام، وذلك يقتضى الامتناع عن تكفير أهل القبلة..

إن الكفر إنما يكون بتكذيب الرسول فيما أخبر به أو الامتناع عن متابعتة مع العلم بصدقه..»^(١).

هكذا نزع ابن تيمية فتيل التكفير من حقل الاختلاف حول هذه «المسائل الأصولية» فأصبح الاختلاف فيها كالاختلاف في الفقهيات والسياسات لا تكفير

(١) ابن تيمية: [بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول] ج١ ص ٥٠، ١٤٤، ١٤٥.

ابن تيمية والسنن الربانية

فيه.. ووقفت معايير الاختلاف عند الخطأ والصواب، دونما تكفير.. لأن التكفير هو فقط - تكذيب الرسول - ﷺ - فيما أخبر به أو الامتناع عن متابعتة مع العلم بصدقه.. ولقد أشار ابن تيمية - في دعم اجتهاده هذا - إلى أن هذا هو موقف العديد من أئمة مذاهب أهل السنة والجماعة..

* * *

ولأن هذه هي حقيقة مكانة شيخ الإسلام - مكانة «الظاهرة الفكرية» المتعدية للقرون والآفاق.. فقد استلهم أعلام اليقظة الإسلامية الحديثة - رواد مدرسة الإحياء والتجديد - الفكر التجديدي لشيخ الإسلام، ليكون زادًا للبعث الإسلامي الحديث، في مواجهة التغريب.. وفي مواجهة الجمود والتقليد..

* فرأينا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] - الذي لفت الأنظار إلى تراثنا في علم مقاصد الشريعة... وسعى لتجديد مناهج الفكر - يلفت الأنظار إلى تراث شيخ الإسلام ابن تيمية، فيشير بطبع كتابيه النفيسين: [بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول] و[منهاج السنة النبوية].. ويتصدى للدفاع عن صاحبهما - ضد ظالميه وجاهليه - فيقول عنه: «إنه أعلم الناس بالسنة، وأشدّهم غيرة على الدين.. ولقد قال فيه قوم يعدون أنفسهم مسلمين: إنه ضال مضل، وجاء على أثر هؤلاء مقلدون يملئون أفواههم بهذه الشتائم. وعليهم إثمها وإثم من يقفوه بها إلى يوم القيامة»^(١).

* وعلى هذا الدرب سار أعلام اليقظة الإسلامية على امتداد عالم الإسلام.. ففي الجناح الغربي لهذه اليقظة يقول الإمام محمد البشير الإبراهيمي [١٣٠٦ - ١٣٨٥ هـ - ١٨٨٩ - ١٩٦٥ م] عن موقع شيخ الإسلام في مواجهة الفكر الخرافي المتحالف مع الاستعمار والاستلاب الحضاري:

(١) محمد عبده: [الأعمال الكاملة] ج٣ ص ٣٥٩. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٩٣ م.

«ما زلنا نلمح وراء كل داجية فى تاريخ الإسلام نجمًا يشرق، ونسمع بعد كل خفته فيه صوتًا يخرق، من عالم يعيش شاهداً ويموت شهيداً، ويترك بعده ما تتركه الشمس من شفق يهدى السارين المدلجين إلى حين.. ولم يكن من الذين قرأنا أخبارهم، وتقفينا آثارهم من علماء الإسلام من كان مثلاً شروداً فى شجاعة الرأى العام أكمل من الإمام أحمد بن تيمية.. الذى كانت كتبه عاملاً له أثره فى التمهيد للدعوة الإصلاحية»^(١).

* ومع البشير الإبراهيمي - فى الجناح الغربى لليقظة الإسلامية الحديثة - يقول الإمام عبد الحميد بن باديس [١٣٠٨ - ١٣٥٩ هـ - ١٨٨٩ - ١٩٤٠ م]: «إن كتب ابن تيمية وآراءه هى لباب الشريعة الإسلامية»^(٢).

* وفى الشام، يتحدث الأستاذ محمد كرد على [١٢٩٢ - ١٣٧٢ هـ - ١٨٧٦ - ١٩٥٣ م] الذى شبه تجديد ابن تيمية للإسلام بتجديد مارتن لوتر [١٤٨٣ - ١٥٤٦ م] للمسيحية.. يتحدث عن جهود الشيخ طاهر الجزائري [١٢٦٨ - ١٣٣٨ هـ - ١٨٥٢ - ١٩٢٠ م] فى إحياء تراث ابن تيمية، لينهض بدوره فى تزكية تيار اليقظة الإسلامية ببلاد الشام^(٣).

* وفى مشرق العالم الإسلامى، يتحدث العلامة أبو الأعلى المودودى [١٣٢١ - ١٣٩٩ هـ - ١٩٠٣ - ١٩٧٩ م] عن مكانة المشروع التجديدى لابن تيمية فى تاريخ التجديد والمجددين للإسلام.. فينوه بنقده للمنطق اليونانى والفلسفة اليونانية.. وإقامته الأدلة والبراهين على استقامة عقائد الإسلام وأحكامه وقوانينه.. ورفع النكير على التقليد والجمود.. ومزاولة الاجتهاد على طريقة المجتهدين فى القرون الإسلامية الأولى.. والجهاد القوى والعنيف ضد البدع وتقاليد الشرك وضلال العقائد

(١) محمد البشير الإبراهيمي: [آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي] ج٤ ص ١١٣، ج١ ص ١٨١. جمعها وقدم لها: د. أحمد طالب الإبراهيمي. طبعة بيروت سنة ١٩٩٧ م.

(٢) [ابن باديس.. حياته وآثاره] ج٤ ص ١٥٧. جمعها وقدم لها: د. عمار الطالبي. طبعة الجزائر سنة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م.

(٣) المصدر السابق. ج٤ ص ١٥٦.

والأخلاق.. وما لاقاه فى سبيل ذلك من المصائب العظمى.. مع الجهاد بالسيف ضد همجية التتار ووحشيتهم..

وينبه المودودى على أن المشروع التجديدى لابن تيمية، لو قدر له امتلاك الدولة التى تتبناه، لتغير مجرى الحضارة الإسلامية، ولما دخلت طور التراجع الذى مكن منها الاستعمار الغربى فى العصر الحديث^(١).

* وفى مصر - قلب العالم الإسلامى.. وفى الأزهر الشريف - القبة العلمية للأمة الإسلامية يقول شيخه الأكبر الإمام مصطفى عبد الرزاق [١٣٠٢ - ١٣٦٦ هـ - ١٨٨٥ - ١٩٤٦ م] عن ابن تيمية:

«إنه شيخ المجددين فى تاريخ الإسلام.. لقد دافع عن القياس، إذ ليس فى الشريعة شىء يخالف القياس، ولا فى المنقول عن الصحابة الذين لا يعلم لهم فيه مخالف، إذ القياس الصحيح دائر مع أوامر الشريعة ونواهيها وجوداً وعدمًا.. كما أن المعقول الصريح دائر مع أخبارها وجوداً وعدمًا، فلم يخبر الله ولا رسوله بما يناقض صريح العقل، ولم يشرع ما يناقض الميزان والعدل.. والأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - إنما يخبرون بمجازات العقول لا بمحالات العقول.

ولقد كان نظر ابن تيمية فى الكلام والتصوف والفلسفة نظرًا عميقًا، فكتبه تدل على سعة الاطلاع على المذاهب الفلسفية وتاريخها، وحسن تصويره لما يعرض للرد عليه من مذاهب الفلسفة ينبىء عن علم وفهم، وطريقته فى جودة الترتيب والتقسيم والتبيين لا تخلو من أثر الفلسفة.. كما كان نقده لما انتقد من المذاهب الفلسفية مستندًا إلى مخالفتها صريح المعقول، وليس لمخالفتها الدين فحسب..

ويضيف الشيخ الفيلسوف مصطفى عبد الرزاق: «ولو أن دراساتنا المنطقية سارت منذ عهد ابن تيمية على مناهجه فى النقد، بدل الشرح والتفريع والتعميق، لبلغنا بهذه الدراسات من التجديد والرقى مبلغًا عظيمًا».

(١) المودودى: [موجز تاريخ إحياء الدين وتجديده] ص ٧٣، ٧٦ - ٧٩. ترجمة: محمد كاظم سباق. طبعة بيروت سنة ١٣٩٥ هـ - سنة ١٩٧٥ م.

كما أشار شيخ الأزهر إلى تميز ابن تيمية وامتياز به بالجهاد - بالسيف - ضد أعداء الإسلام - التتار.. والنصيرية - الذين انحازوا إلى التتار والصليبيين..

مع لفت الأنظار إلى رده على الصوفية القائلين بوحدة الوجود..^(١).

هكذا شهد أعلام اليقظة الإسلامية الحديثة لشيخ الإسلام ابن تيمية، ولمنواجهه في التجديد الأصولي، والأصالة المجددة.. وهكذا استلهموا تراثه في البعث الإسلامي الحديث.

* ولقد دفع ابن تيمية الأثمان الغالية من راحته وحرته في سبيل اجتهاداته وشجاعته الفكرية.. فسجن مرات عدة - بالقاهرة.. والإسكندرية.. ودمشق - حتى لقد سعدت روحه إلى بارئها وهو سجين!..

ولقد أمضى بالسجن - سنة ٧٢١هـ - سنة ١٣٢١م - خمسة أشهر وثمانية عشر يومًا بسبب فتواه بأن الطلاق الثلاث إنما يقع طلبة واحدة.. وهي الفتوى التي اعتمدها الأمة الإسلامية الآن في سائر بلاد الإسلام!..

* * *

تلك لمحة - مجرد لمحة - إلى «الظاهرة الفكرية» التي تمثلت في الاجتهاد الفكري وفي الجهاد العملي لشيخ الإسلام ابن تيمية.. الذي تألق - في تاريخنا الفكري - منارة هادية، عبرت عنها كلمة الإمام محمد عبده: «إنه أعلم الناس بالسنة وأشدهم غيرة على الدين».

* ولأن هذه هي حقيقة مكانة ابن تيمية في التراث المتجدد لحضارة الإسلام، كان مشروعه الفكري - وسيظل - ميدانًا للدراسات العلمية الجديدة والجادة.. ومنها هذه الدراسة المتميزة والممتازة التي ارتادت صاحبها - الأستاذة وفاء عبد العظيم عبد الوهاب محمد - ميدانًا جديدًا من ميادين فكر شيخ الإسلام ابن تيمية.. ميدان علم السنن الربانية كما تجلت في تفسيره للقرآن الكريم.. وهي شاهد جديد على

(١) مصطفى عبد الرازق: [الأعمال الكاملة] ج٣ ص ٥٦٩ - ٥٨٢. دراسة وتحقيق: د. عصمت نصار. طبعة القاهرة سنة ١٤٣٤هـ - سنة ٢٠١٣م.

ابن تيمية والسنة الربانية

أن العطاء الفكرى لابن تيمية كان وسيظل «ظاهرة فكرية» ملهمة، ومتعدية للزمان والمكان، وذلك لارتباطها بالمعجز المحفوظ رباناً - القرآن الكريم -.. والبيان النبوى لهذا النبأ العظيم..

رحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية.. ووفق صاحبة هذه الدراسة الممتازة - التى نقدم بين يديها - للمزيد من العطاء الفكرى، الذى هو ميدان عظيم من ميادين الجهاد فى واقعنا الإسلامى المعيش.

١٥ رمضان سنة ١٤٣٩هـ

٣١ مايو سنة ٢٠١٨م

دكتور محمد عمارة

السيرة الذاتية للأستاذ الدكتور/ محمد عمارة

أولاً: السيرة الذاتية

مفكر إسلامي .. ومؤلف .. ومحقق .. وعضو «هيئة كبار العلماء» و«مجمع البحوث الإسلامية» بالأزهر الشريف.

ولد بريف مصر - ببلدة «صروة»، مركز «قلين»، محافظة «كفر الشيخ» - في ٢٧ من رجب ١٣٥٠ هـ، ٨ من ديسمبر ١٩٣١ م، في أسرة ميسورة الحال - مادياً - تحترف الزراعة .. وملتزمة دينياً.

قبل مولده، كان والده قد نذر لله: إذا جاء المولود ذكراً، أن يسميه محمداً، وأن يهبه للعلم الديني، أى يطلب العلم فى الأزهر الشريف.

حفظ القرآن وجوّده بـ«كتاب» القرية .. مع تلقى العلوم المدنية الأولية بمدرسة القرية - مرحلة التعليم الإلزامي.

فى ١٣٦٤ هـ، ١٩٤٥ م التحق «بمعهد دسوق الدينى الابتدائى» - التابع للجامع الأزهر الشريف - ومنه حصل على شهادة الابتدائية، ١٣٦٨ هـ، ١٩٤٩ م.

وفى المرحلة الابتدائية - النصف الثانى فى أربعينيات القرن العشرين - بدأت تتفتح وتنمو اهتماماته الوطنية والعربية والإسلامية، والأدبية والثقافية .. فشارك فى العمل الوطنى - قضية استقلال مصر والقضية الفلسطينية - بالخطابة فى المساجد .. والكتابة - نثراً وشعراً - وكان أول مقال نشرته له صحيفة «مصر الفتاة» بعنوان «جهاد» - عن فلسطين - فى أبريل، ١٩٤٨ . وتطوع للتدريب على حمل السلاح ضمن حركة مناصرة القضية الفلسطينية .. لكن لم يكن له شرف الذهاب إلى فلسطين.

فى ١٩٤٩، التحق «بمعهد طنطا الأحمدي الديني الثانوى» - التابع للجامع الأزهر الشريف - ومنه حصل على الثانوية الأزهرية، ١٣٧٣هـ، ١٩٥٤م.

وواصل - فى مرحلة الدراسة الثانوية - اهتماماته السياسية والأدبية والثقافية.. ونشر شعرا. ونشرا فى صحف ومجلات «مصر الفتاة»، و«منبر الشرق»، و«المصري»، و«الكاتب».. وتطوع للتدريب على السلاح بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦ فى ١٩٥١م.

فى ١٣٧٤هـ، ١٩٥٤م التحق «بكلية دار العلوم» جامعة القاهرة.. وفيها تخرج، ونال درجة «الليسانس» فى اللغة العربية والعلوم الإسلامية. ولقد تأخر تخرجه - بسبب نشاطه السياسى - إلى ١٩٦٥م بدلا من ١٩٥٨م.

تواصل - فى مرحلة الدراسة الجامعية - نشاطه الوطنى والأدبى والثقافى.. فشارك فى «المقاومة الشعبية»، بمنطقة قناة السويس، إبان مقاومة الغزو الثلاثى لمصر، ١٣٧٥هـ، ١٩٥٦م..

ونشر المقالات فى صحيفة «المساء» - المصرية - ومجلة «الآداب» - البيروتية - وألف ونشر أول كتبه عن «القومية العربية»، ١٩٥٨.

وبعد التخرج من الجامعة، أعطى كل وقته - تقريبا - وجميع جهده لمشروعه الفكرى، فجمع وحقق ودرس الأعمال الكاملة لأبرز أعلام اليقظة الإسلامية الحديثة، رفاة رافع الطهطاوى.. وجمال الدين الأفغانى.. ومحمد عبده.. وعبد الرحمن الكواكبى.. وعلى مبارك.. وقاسم أمين.. وكتب الكتب والدراسات عن أعلام التجديد الإسلامى.. مثل: الدكتور عبد الرزاق السنهورى باشا.. والشيخ محمد الغزالى.. وعمر مكرم.. ومصطفى كامل.. وخير الدين التونسي.. ورشيد رضا.. وعبد الحميد باديس.. ومحمد الخضر حسين.. وأبى الأعلى المودودى.. وحسن البنا.. وسيد قطب.. والشيخ محمود شلتوت... إلخ.

ومن أعلام الصحابة الذين كتب عنهم: عمر بن الخطاب.. وعلى بن أبى طالب.. وأبو ذر الغفارى.. وأسماء بنت أبى بكر.. كما كتب عن تيارات الفكر الإسلامى - القديمة والحديثة - وعن أعلام التراث الإسلامى، مثل: غيلان الدمشقى.. والحسن

البصرى.. وعمرو بن عبید.. والنفس الزكية (محمد بن الحسن).. وعلى بن محمد..
والماوردي.. وابن رشد (الحفيد).. والعز بن عبد السلام.. إلخ.
وتناولت كتبه - التي تجاوزت ثلاثمة كتاب - السمات المميزة للحضارة الإسلامية.
والمشروع الحضاري الإسلامي.. والمواجهة مع الحضارات الغازية والمعادية..
وتيارات العلمنة والتغريب.. وصفحات العدل الاجتماعي الإسلامي.. والعقلانية
الإسلامية.

وحاور وناظر العديد من أصحاب المشاريع الفكرية الوافدة.

وحقق عددا من نصوص التراث الإسلامي (القديم منه والحديث).

وكجزء من عمله العلمي ومشروعه الفكري، حصل - من كلية دار العلوم -
فى العلوم الإسلامية - تخصص الفلسفة الإسلامية - على الماجستير، ١٣٩٠هـ،
١٩٧٠م. بأطروحة عن «المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية».. وعلى الدكتوراه،
١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م، بأطروحة عن «الإسلام وفلسفة الحكم».

أسهم فى تحرير العديد من الدوريات الفكرية المتخصصة.. وشارك فى العديد
من الندوات والمؤتمرات العلمية فى وطن العروبة وعالم الإسلام وخارجهما.. كما
أسهم فى تحرير العديد من الموسوعات السياسية والحضارية والعامة، مثل: «موسوعة
السياسة»، و«موسوعة الحضارة العربية»، و«موسوعة الشروق»، و«موسوعة المفاهيم
الإسلامية»، و«الموسوعة الإسلامية العامة»، و«موسوعة الإعلام»... إلخ.

نال عضوية عدد من المؤسسات العلمية والفكرية والبحثية، منها: «المجلس
الأعلى للشئون الإسلامية» بمصر، و«المعهد العالمى للفكر الإسلامى» بواشنطن،
و«مركز الدراسات الحضارية» بمصر، و«المجمع الملكى لبحوث الحضارة
الإسلامية» مؤسسة آل البيت بالأردن، و«مجمع البحوث الإسلامية» بالأزهر الشريف
وهيئة كبار العلماء - بالأزهر الشريف.

رأس تحرير مجلة «الأزهر» أربع سنوات - ١٤٣٣ - ١٤٣٦هـ.

حصل على عدد من الحوافز والأوسمة.. والشهادات التقديرية.. والدروع، منها

«جائزة جمعية أصدقاء الكتاب» بلبنان، ١٩٧٢.. وجائزة الدولة التشجيعية بمصر، ١٩٧٦.. ووسام العلوم والفنون.. من الطبقة الأولى بمصر، ١٩٧٦.. وجائزة على عثمان حافظ - لمفكر العام، ١٩٩٣.. وجائزة المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، ١٩٩٧.. ووسام التيار القومي الإسلامي - القائد المؤسس، ١٩٩٨، وجائزة مؤسسة أحمد كانو - للدراسات الإسلامية - بالبحرين، ٢٠٠٥، وجائزة وسام جمال الدين الأفغانى من جمهورية أفغانستان الإسلامية فى فبراير، ٢٠١٧.

جاوزت أعماله الفكرية - تأليفاً وتحقيقاً - ثلاثمائة كتاب، وذلك غير ما نشر له فى الصحف والمجلات.

ترجم العديد من كتبه إلى العديد من اللغات الشرقية والغربية.. مثل التركية، والمالايوية، والفارسية، والأوردية، والإنجليزية، والفرنسية، والروسية، والإسبانية، والألمانية، والألبانية، والبوسنية.

الاسم - رباعياً: محمد عمارة مصطفى عمارة..

العنوان: جمهورية مصر العربية - القاهرة - هاتف ٢٢٠٥٥٦٦١ - فاكس ٢٢٠٥٥٦٦٢.

ثانياً: ثبت بأعماله الفكرية

فى دار الشروق:

- ١ - الإسلام والمستقبل.
- ٢ - الإسلام وفلسفه الحكم.
- ٣ - معركة الإسلام وأصول الحكم - دراسة وتحقيق.
- ٤ - الإسلام والفنون الجميلة.
- ٥ - الإسلام والثورة.
- ٦ - الإسلام والعروبة.

- ٧ - الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية.
- ٨ - هل الإسلام هو الحل؟؟ لماذا... وكيف؟؟
- ٩ - سقوط الغلو العلماني.
- ١٠ - الغزو الفكري وهم أم حقيقة.
- ١١ - تيارات الفكر الإسلامي.
- ١٢ - الصحوة الإسلامية والتحدى الحضارى.
- ١٣ - المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية.
- ١٤ - عندما أصبحت مصر عربية إسلامية.
- ١٥ - العرب والتحدى.
- ١٦ - مسلمون ثوار.
- ١٧ - التفسير الماركسى للإسلام.
- ١٨ - الإسلام بين التنوير والتزوير.
- ١٩ - التيار القومى الإسلامى.
- ٢٠ - الإسلام والأمن الاجتماعى.
- ٢١ - الأصولية بين الغرب ولإسلام.
- ٢٢ - الجامعة الإسلامية والفكرة القومية.
- ٢٣ - جمال الدين الأفغانى: موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام.
- ٢٤ - محمد عبده: تجديد الدنيا بتجديد الدين.
- ٢٥ - عبد الرحمن الكواكبي: شهيد الحرية ومجدد الإسلام.
- ٢٦ - رفاعة الطهطاوى: رائد التنوير فى العصر الحديث.

- ٢٧ - على مبارك: مؤرخ ومهندس العمران.
- ٢٨ - قاسم أمين: تحرير المرأة والتمدن الإسلامى.
- ٢٩ - التحرير الإسلامى للمرأة: الرد على شبهات الغلاة.
- ٣٠ - الإسلام فى عيون غريبه بين افتراء الجهلاء وانصاف العلماء.
- ٣١ - الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية.
- ٣٢ - فى فقه الصراع على القدس وفلسطين.
- ٣٣ - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - دراسة وتحقيق.
- ٣٤ - الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي - دراسة وتحقيق.
- ٣٥ - الأعمال الكاملة لقاسم امين - دراسة وتحقيق.
- ٣٦ - الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى - دراسة وتحقيق.
- ٣٧ - رسالة التوحيد - دراسة وتحقيق.
- ٣٨ - طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد - دراسة وتحقيق.
- ٣٩ - رسائل العدل والتوحيد - دراسة وتحقيق.
- ٤٠ - الإسلام وحقوق الإنسان.
- ٤١ - معالم المنهج الإسلامى.
- فى نهضة مصر:
- ٤٢ - معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام.
- ٤٣ - الوسيط فى المذاهب والمصطلحات.
- ٤٤ - القدس الشريف: رمز الصراع وبوابه الانتصار.
- ٤٥ - الإصلاح بالإسلام.

- ٤٦ - الإسلام والتحديات المعاصرة.
- ٤٧ - الإسلام فى مواجهة التحديات.
- ٤٨ - الاستقلال الحضارى.
- ٤٩ - الغارة الجديدة على الإسلام.
- ٥٠ - مقام العقل فى الإسلام.
- ٥١ - الفريضة الغائبة: حوار مع ثقافة العنف.
- ٥٢ - الانتماء الحضارى: للغرب أم للإسلام؟
- سلسلة: (فى التنوير الإسلامى)
- ٥٣ - الصحوة الإسلامية فى عيون غربية.
- ٥٤ - الغرب والإسلام.
- ٥٥ - أبو حيان التوحيدى.
- ٥٦ - ابن رشد بين الغرب والإسلام.
- ٥٧ - الانتماء الثقافى.
- ٥٨ - التعددية: الرؤية الإسلامية والتحديات الغربية.
- ٥٩ - صراع القيم بين الغرب والإسلام.
- ٦٠ - د/ يوسف القرضاوى: المدرسة الفكرية والمشروع الفكرى.
- ٦١ - عندما دخلت مصر فى دين الله.
- ٦٢ - الحركات الإسلامية رؤية نقدية.
- ٦٣ - المنهاج العقلى فى الدراسات العربية.
- ٦٤ - النموذج الثقافى.

- ٦٥ - تجديد الدنيا بتجديد الدين.
- ٦٦ - الثواب والمتغيرات فى اليقظة الإسلامية الحديثة.
- ٦٧ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم.
- ٦٨ - التقدم والإصلاح بالتنوير الغربى أم بالتجديد الإسلامى؟
- ٦٩ - إسلامية الصراع حول القدس وفلسطين.
- ٧٠ - الحضارات العالمية تدافع أم صراع؟
- ٧١ - الحملة الفرنسية فى الميزان.
- ٧٢ - الأقليات الدينية والقومية تنوع ووحده أم تفتت واختراق؟
- ٧٣ - مخاطر العولمة على الهوية الثقافية.
- ٧٤ - الغناء والموسيقى حلال أم حرام؟
- ٧٥ - هل المسلمون أمة واحدة؟
- ٧٦ - السنة والبدعة للشيخ الخضر حسين - دراسة وتقديم.
- ٧٧ - الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان للشيخ الخضر حسين - دراسة وتقديم.
- ٧٨ - تحليل الواقع بمنهاج العاهات المزمنة.
- ٧٩ - مأزق المسيحية والعلمانية فى أوروبا (شهادة ألمانية).
- ٨٠ - السنة النبوية ومعرفة الإنسانية.
- ٨١ - الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين.
- ٨٢ - مستقبلنا بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية.
- ٨٣ - السنة التشريعية وغير التشريعية - مجموعة دراسات.
- ٨٤ - شبهات حول الإسلام.

- ٨٥ - المستقبل الاجتماعى للأمة الإسلامية.
- ٨٦ - شبهات حول القرآن الكريم.
- ٨٧ - أزمة العقل العربي.
- ٨٨ - فى التحرير الإسلامى للمرأة.
- ٨٩ - روح الحضارة الإسلامية للشيخ ابن عاشور - دراسة وتقديم.
- ٩٠ - الغرب والإسلام: افتراءات لها تاريخ.
- ٩١ - السماحة الإسلامية.
- ٩٢ - الشيخ عبد الرحمن الكواكبي: هل كان علمانيا؟
- ٩٣ - أزمة الفكر الإسلامى المعاصر.
- ٩٤ - إسلامية المعرفة: ماذا تعنى؟
- ٩٥ - الإسلام وضرورة التغيير؟
- ٩٦ - النص الإسلامى بين التاريخية والاجتهاد والجمود.
- ٩٧ - الإبداع الفكرى والخصوصية الحضارية.
- ٩٨ - صلة الإسلام بإصلاح المسيحية للشيخ أمين الخولى - دراسة وتقديم.
- ٩٩ - عن القرآن الكريم؟ للشيخ أمين الخولى - دراسة وتقديم.
- ١٠٠ - الإسلام والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده - دراسة وتحقيق.
- ١٠١ - الإصلاح الدينى فى القرن العشرين: الشيخ المراغى نموذجاً.
- ١٠٢ - فكر التنوير بين العلمانيين والإسلاميين.
- ١٠٣ - اجتهاد الرسول وقضاؤه وفتواه للشيخ جاد الحق على جاد الحق - دراسة وتقديم.
- ١٠٤ - شبهات واجابات حول مكانة المرأة فى الإسلام.

- ١٠٥ - سلامة موسى: اجتهد خاطئ أم عمالة حضارية؟
- ١٠٦ - العالم الإسلامى والمتغيرات الدولية.
- ١٠٧ - عالمنا: حضارة أم حضارات؟؟
- ١٠٨ - الجديد فى المخطط الغربى تجاه المسلمين.
- ١٠٩ - السلفية: واحدة... أم سلفيات؟
- فى مكتبة الامام البخارى سلسلة (ان أريد الا الإصلاح ما استطعت):
- ١١٠ - رفع الملام عن شيخ الإسلام ابن تيمية.
- ١١١ - الفارق بين الدعوة والتنصير.
- ١١٢ - علمانية المدفع والإنجيل.
- ١١٣ - صيحة نذير من فتنة التكفير.
- ١١٤ - مقومات الأمن الاجتماعى فى الإسلام.
- ١١٥ - فى النظام السياسى الإسلامى: الخلافة والدولة المدنية.
- ١١٦ - أضواء على الموقف الشيعى من الصحابة.
- ١١٧ - بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية.
- ١١٨ - القدس: أمانة عمر فى انتظار صلاح الدين.
- ١١٩ - القرآن يتحدى.
- ١٢٠ - تحرير المرأة بين الغرب والإسلام.
- ١٢١ - فى فقه المصطلحات.
- ١٢٢ - طريق جارودى إلى الإسلام.
- ١٢٣ - صورة الإسلام فى الخطاب الغربى.

- ١٢٤ - الديانات السماوية والحروب الدينية.
- ١٢٥ - سلامة موسى: اجتهد خاطئ أم عمالة حضارية؟
- ١٢٦ - الجديد فى المخطط الغربى تجاه المسلمين.
- ١٢٧ - الحضارات العالمية: واحدة أم حضارات؟؟
- فى المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية:
- ١٢٨ - شبهات وإجابات حول القرآن الكريم.
- ١٢٩ - شبهات وإجابات حول مكانة المرأة فى الإسلام (ج ١ ٣٢).
- ١٣٠ - دليل الامام الى تجديد الخطاب الدينى - وزارة الاوقاف - بالاشتراك مع الآخرين.
- ١٣١ - الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت.
- ١٣٢ - حقائق الإسلام فى مواجهة شبهات المشككين.
- ١٣٣ - السلف والسلفية.
- فى مجمع البحوث الإسلامية:
- ١٣٤ - ملاحظات علمية على كتاب المسيح فى الإسلام - ملحق مجلة الأزهر - شهر صفر سنة (١٤٢٧هـ).
- ١٣٥ - رد الأزهر على كتاب ما هى حتمية كفارة المسيح - ملحق مجلة الأزهر - شهر ربيع الأول (١٤٢٦هـ).
- ١٣٦ - الرد على كتاب فصل الخطاب فى تاريخ قتل ابن الخطاب.
- ١٣٧ - تقرير علمى فى الرد على المنصرين.
- بالاشتراك مع آخرين:
- ١٣٨ - قارعة سبتمبر - مكتبة الشروق الدولية سنة ٢٠٠٢م.

- ١٣٩ - الحركة الإسلامية: رؤية مستقبلية - الكويت سنة ١٩٨٩ م.
- ١٤٠ - القرآن - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة ١٩٧٢ م.
- ١٤١ - محمد - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة ١٩٧٢ م.
- ١٤٢ - عمر بن الخطاب - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة ١٩٧٣ م.
- ١٤٣ - على بن أبي طالب - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة ١٩٧٤ م.
- ١٤٤ - السنة والشيعة وحدة الدين وخلاف السياسة والتاريخ - مكتبة النافذة سنة ٢٠٠٨ م.

كتب نفذت وأدمج بعضها في كتب أخرى:

- ١٤٥ - فجر اليقظة القومية - دار الوحدة بيروت سنة ١٩٨٤ م.
- ١٤٦ - العروبة في العصر الحديث - دار الوحدة بيروت سنة ١٩٨٤ م.
- ١٤٧ - الأمة العربية وقضية الوحدة - دار الوحدة بيروت سنة ١٩٨٤ م.
- ١٤٨ - ثورة الزنج - دار الوحدة بيروت سنة ١٩٨٠ م.
- ١٤٩ - دراسات في الوعي بالتاريخ - دار الوحدة بيروت سنة ١٩٨٠ م.
- ١٥٠ - الإسلام وقضايا العصر - دار الوحدة بيروت سنة ١٩٨٤ م.
- ١٥١ - التراث في ضوء العقل - دار الوحدة بيروت سنة ١٩٨٤ م.
- ١٥٢ - الفريضة الغائبة: عرض وحوار وتقييم - دار الوحدة بيروت سنة ١٩٨٣ م.
- ١٥٣ - الإسلام والسلطة الدينية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة ١٩٨٠ م.
- ١٥٤ - الإسلام والوحدة القومية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة ١٩٧٩ م.

السيرة الذاتية للأستاذ الدكتور/ محمد عمارة

- ١٥٥ - الإسلام بين العلمانية والسلطة الدينية - دار ثابت القاهرة سنة ١٩٨٢ م.
- ١٥٦ - فى المشروع الحضارى الإسلامى - مركز الراية جدة سنة ٢٠٠٤ م.
- ١٥٧ - الإمام محمد عبده: مشروع حضارى للإصلاح بالإسلام - مكتبة الإسكندرية سنة ٢٠٠٤ م.
- ١٥٨ - محمد عبده: سيرته وأعماله - دار القدس بيروت سنة ١٩٧٨ م.
- ١٥٩ - نظرة جديدة الى التراث - دار قتيبة دمشق سنة ١٩٨٨ م.
- ١٦٠ - القومية العربية ومؤمرات أمريكا ضد وحدة العرب - دار الفكر القاهرة سنة ١٩٥٨ م.
- ١٦١ - ظاهرة القومية فى الحضارة العربية - الكويت سنة ١٩٨٣ م.
- ١٦٢ - رحلة فى عالم الدكتور محمد عمارة - حوار دار الكتاب الحديث - بيروت سنة ١٩٨٩ م.
- ١٦٣ - نظرية الخلافة الإسلامية - دار الثقافة الجديدة سنة ١٩٨٠ م.
- ١٦٤ - العدل الاجتماعى لعمر بن الخطاب - دار الثقافة الجديدة سنة ١٩٧٨ م.
- ١٦٥ - الفكر الاجتماعى لعلی بن أبى طالب - دار الثقافة الجديدة سنة ١٩٧٨ م.
- ١٦٦ - إسرائيل هل هى سامية؟؟ - دار الكاتب العربى سنة ١٩٦٧ م.
- ١٦٧ - الإسلام وأصول الحكم دراسات ووثائق - المؤسسة العربية بيروت سنة ١٩٧٢ م.
- ١٦٨ - الدين والدولة - الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٩٧ م.
- ١٦٩ - المواجهة بين الإسلام والعلمانية مناظرة - دار الآفاق الجديدة القاهرة سنة ١٤١٣ هـ.
- ١٧٠ - تهافت العلمانية مناظرة - دار الآفاق الجديدة القاهرة سنة ١٤١٣ هـ.

- ١٧١ - الشيخ الشهيد أحمد ياسين وفقه الجهاد على أرض فلسطين - مركز الاعلام العربى ٢٠٠٤ م.
- ١٧٢ - القدس: أمانة عمر فى انتظار صلاح الدين - مركز الاعلام العربى.
- ١٧٣ - إسلامية الصراع على القدس وفلسطين - مركز الاعلام العربى.
- ١٧٤ - المادية والمثالية فى فلسفة ابن رشد - دار المعارف سنة ١٩٨٣ م.
- ١٧٥ - الفكر القائد للثورة الإيرانية - دار ثابت سنة ١٩٨٢ م.
- فى دار السلام:
- ١٧٦ - معالم المنهج الإسلامى.
- ١٧٧ - المشروع الحضارى الإسلامى.
- ١٧٨ - شخصيات لها ترايخ.
- ١٧٩ - الإسلام وحقوق الإنسان - ضرورات لا حقوق.
- ١٨٠ - قاموس المصطلحات الاقتصادية فى الحضارة الإسلامية.
- ١٨١ - كتاب الاموال لابی عبید القاسم بن سلام - دراسة وتحقيق.
- ١٨٢ - الشيخ محمد الغزالي: الموقع الفكرى والمعارك الفكرية.
- ١٨٣ - إزالة الشبهات عن معانى المصطلحات.
- ١٨٤ - الدكتور عبد الرازق السنهورى: إسلامية الدولة والمدنية والقانون.
- ١٨٥ - أكذوبة الاضطهاد الدينى فى مصر.
- ١٨٦ - فتنة التكفير بين الشيعة والوهابية والصوفية.
- ١٨٧ - إسلاميات السنهورى باشا.
- ١٨٨ - الوعى بالتاريخ وصناعة التاريخ.
- ١٨٩ - جمال الدين الأفغانى بين حقائق التاريخ وأكاذيب لويس عوض.

- ١٩٠ - المنهج الإصلاحى للإمام محمد عبده.
- ١٩١ - معالم المشروع الحضارى فى فكر الإمام الشهيد حسن البنا.
- ١٩٢ - محمد المصطفى المعصوم بشر يوحى اليه.
- ١٩٣ - رد افتراءات الجابرى على القرآن الكريم.
- ١٩٤ - حقائق وشبهات حول القرآن الكريم.
- ١٩٥ - حقائق وشبهات حول السنة النبوية.
- ١٩٦ - حقائق وشبهات حول السماحة الإسلامية وحقوق الإنسان.
- ١٩٧ - حقائق وشبهات حول مكانة المرأة فى الإسلام.
- ١٩٨ - حقائق وشبهات حول معنى النسخ فى القرآن الكريم.
- ١٩٩ - حقائق وشبهات حول الحرب الدينية والجهاد والقتال والإرهاب.
- ٢٠٠ - حقائق وشبهات حول السنة والشيعة.
- ٢٠١ - أبو الأعلى المودودى والصحوّة الإسلامية.
- ٢٠٢ - الإسلام والتعددية: الاختلاف والتنوع فى إطار الوحدة.
- ٢٠٣ - الغرب والإسلام أين الخطأ وأين الصواب.
- ٢٠٤ - فى فقه المواجهة بين الغرب والإسلام.
- ٢٠٥ - فى فقه الحضارة الإسلامية.
- ٢٠٦ - الإسلام والسياسة: الرد على شبهات العلمانيين.
- ٢٠٧ - الطريق الى اليقظة الإسلامية.
- ٢٠٨ - عمر بن عبد العزيز: ضمير الأمة وخامس الخلفاء الراشدين.
- ٢٠٩ - الإسلام والآخر: من يعترف بمن ومن ينكر من؟؟

- ٢١٠ - العطاء الحضارى للإسلام.
- ٢١١ - قراءة النص الدينى بين التأويل الغربى والتأويل الإسلامى.
- ٢١٢ - مفهوم الحرية فى مذاهب الإسلاميين.
- ٢١٣ - مقالات الغلو الدينى واللادينى.
- ٢١٤ - التراث والمستقبل.
- ٢١٥ - معارك العرب ضد الغزاة.
- ٢١٦ - فصل المقال فيما بين الحكمة والشرعية من الاتصال لابن رشد - دراسة وتحقيق.
- ٢١٧ - ابن رشد (فقيه الفلاسفة وفيلسوف الفقهاء).
- ٢١٨ - مقال فى السنن الالهية - الكونية والاجتماعية (رسائل الإصلاح ١).
- ٢١٩ - الحل الإسلامى لأزمة الرأسمالية العالمية (رسائل الإصلاح ٢).
- ٢٢٠ - المؤسسية والمؤسسات فى الحضارة الإسلامية (رسائل الإصلاح ٣).
- ٢٢١ - التأويل العبثى للوحى والنبوة والدين (رسائل الإصلاح ٤).
- ٢٢٢ - افتراءات شيعية على البخارى ومسلم (رسائل الإصلاح ٥).
- ٢٢٣ - افتراءات شيعية على عمر بن الخطاب (رسائل الإصلاح ٦).
- ٢٢٤ - القدس الشريف فى الدين والتاريخ والأساطير (رسائل الإصلاح ٧).
- ٢٢٥ - ثورة ٢٥ يناير وكسر حاجز الخوف (رسائل الإصلاح ٨).
- ٢٢٦ - أضواء على محاورات الشيخ الغزالى (رسائل الإصلاح ٩).
- ٢٢٧ - مستقبلنا بين التجديد الإسلامى والحدائث الغريبة (رسائل الإصلاح ١٠).
- ٢٢٨ - إحياء الخلافة الإسلامية حقيقية أم خيال؟! (رسائل الإصلاح ١١).
- ٢٢٩ - الدراما التاريخية وتحديات الواقع المعاصر (رسائل الإصلاح ١٢).

- ٢٣٠ - الشيخ رشيد رضا والعلمانية والصهيونية والطائفية (رسائل الإصلاح ١٣).
- ٢٣١ - الشيخ البشير الإبراهيمي إمام في مدرسة الأئمة (رسائل الإصلاح ١٤).
- ٢٣٢ - الشيخ شلتوت إمام في الاجتهاد والتجديد (رسائل الإصلاح ١٥).
- ٢٣٣ - الشيخ المراغي والإصلاح الديني في القرن العشرين (رسائل الإصلاح ١٦).
- ٢٣٤ - الدين والدولة في الإسلام لفقيه الشريعة والقانون الدكتور عبد الرازق السنهوري (رسائل الإصلاح ١٧).
- ٢٣٥ - الإسلام والأقليات: الماضي والحاضر والمستقبل (رسائل الإصلاح ١٨).
- ٢٣٦ - الدين والدولة شهادات غربية (رسائل الإصلاح ١٩).
- ٢٣٧ - الإسلام والديانات الأخرى (رسائل الإصلاح ٢٠).
- ٢٣٨ - احترام المقدسات بين الإسلام والآخر (رسائل الإصلاح ٢١).
- ٢٣٩ - خيرية الأمة الإسلامية: شروط مكتسبة لا عنصرية موروث (رسائل الإصلاح ٢٢).
- ٢٤٠ - الإسلام والحضارة (رسائل الإصلاح ٢٣).
- ٢٤١ - أسباب انتشار الإسلام شهادة غربية (رسائل الإصلاح ٢٤).
- ٢٤٢ - عوامل امتياز الإسلام شهادة غربية (رسائل الإصلاح ٢٥).
- ٢٤٣ - عوامل تفوق الإسلام شهادة غربية (رسائل الإصلاح ٢٦).
- ٢٤٤ - الإسلام والحضارات الأخرى (رسائل الإصلاح ٢٧).
- ٢٤٥ - حوار الإسلام والعلمانية (رسائل الإصلاح ٢٨).
- ٢٤٦ - السياسة الشرعية أو نظام الدولة الإسلامية للعلامة الشيخ عبد الوهاب خلاف - دراسة وتحقيق (رسائل الإصلاح ٢٩).

- ٢٤٧ - محمد الرسول السياسى (رسائل الإصلاح ٣٠).
- ٢٤٨ - السلفية (رسائل الإصلاح ٣١).
- ٢٤٩ - أمريكا..... هل هى شعب الله المختار (رسائل الإصلاح ٣٢).
- ٢٥٠ - أثر القرآن فى تحرير الفكر البشرى (رسائل الإصلاح ٣٣).
- ٢٥١ - الأزهر والشيعة.
- ٢٥٢ - مدخل الى السياسة الشرعية (دراسة وتحقيق).
- ٢٥٣ - ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين (دراسة وتحقيق).
- ٢٥٤ - الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى (دراسة وتحقيق).
- ٢٥٥ - السياسة الشرعية والفقہ الإسلامى - للشيخ عبد الرحمن تاج - تقديم وتعليق.
- ٢٥٦ - حقائق وشبهات حول الوطنية والقومية والجامعة الإسلامية.
- فى مكتبة وهبة:
- ٢٥٧ - من يحمى المسيحيين العرب: الغرب أم الإسلام؟
- ٢٥٨ - الغرب والإسلام: تاريخ من الغزو والتزييف وغواية الأقليات.
- ٢٥٩ - الاستغلال الأمريكى للأقليات.
- ٢٦٠ - مقام العقل عند الصوفية.
- ٢٦١ - مقام العقل عند شيخ الإسلام ابن تيمية.
- ٢٦٢ - الفارق بين الدعوة والتنصير.
- ٢٦٣ - العلمانية بين الغرب والإسلام.
- ٢٦٤ - خطر النزعة التاريخية.
- ٢٦٥ - السلف والسلفية.

- ٢٦٦ - أشهر مناظرات القرن العشرين جـ ١، ٢.
- ٢٦٧ - الأنبياء في القرآن والكتاب المقدس.
- ٢٦٨ - الخطاب الديني بين التجديد الإسلامي والتبديد الأمريكي.
- ٢٦٩ - هل في القرآن تناقضات؟؟
- ٢٧٠ - التعارف بين الحضارات والمراجعات العلمانية.
- ٢٧١ - الفتنة الطائفية: متى وكيف ولماذا؟
- ٢٧٢ - مقال في التحذير من التكفير.
- ٢٧٣ - الفاتيكان والإسلام: أهى حماقة أم عداء له تاريخ؟
- ٢٧٤ - فى المسألة القبطية حقائق وأوهام.
- فى دار المعارف:
- ٢٧٥ - القرآن يتحدى.
- ٢٧٦ - تحرير المرأة بين الغرب والإسلام.
- ٢٧٧ - صورة الإسلام فى الخطاب الغربى.
- ٢٧٨ - مقومات الأمن الاجتماعى فى الإسلام.
- ٢٧٩ - فى النظام السياسى الإسلامى.
- ٢٨٠ - أضواء على الموقف الشيعى من الصحابة.
- ٢٨١ - سلامة موسى: اجتهد خاطئ أم عمالة حضارية.
- ٢٨٢ - علمانية المدفع والإنجيل.
- ٢٨٣ - فى فقه المصطلحات.
- ٢٨٤ - الجديد فى المخطط الغربى تجاه المسلمين.

- ٢٨٥ - طريق جارودي إلى الإسلام.
- ٢٨٦ - عالمنا حضارة أم حضارات.
- ٢٨٧ - صورتان متضادتان عند السنة والشيعة.
- ٢٨٨ - الخطوط العريضة لدين الشيعة.
- ٢٨٩ - في الرد على الماديين.
- ٢٩٠ - الجهاد دفاعاً عن الإسلام.
- ٢٩١ - ضلالة فصل الدين عن السياسة.
- ٢٩٢ - بنى الإسلام في مرآة الفكر الغربى.
- ٢٩٣ - التشيع الفارسى المعاصر - مركز الاعلام العربى سنة ٢٠١٥ م.
- دار الفكر العربى:
- ٢٩٤ - طه حسين - من الانبهار بالغرب الى الانتصار للإسلام (سلسلة هذا هو الإسلام).
- ٢٩٥ - الأدلة المادية على وجود الله الشيخ الشعراوى - دراسة وتقديم.
- ٢٩٦ - حوار الإيمان والإلحاد - دراسة وتحقيق.
- ٢٩٧ - لماذا أنا مسلم، الشيخ عبد المتعال الصعيدى - دراسة وتحقيق.
- نيوبوك للنشر والتوزيع:
- ٢٩٨ - روائع ابن تيمية.
- ٢٩٩ - دراسات عن القرآن الكريم.
- ٣٠٠ - دفاع عن القرآن ضد منتقديه.
- ٣٠١ - دفاع عن محمد ضد المنتقسين من قدره.
- ٣٠٢ - روائع الشيخ الشعراوى.

دار البشير:

- ٣٠٣ - الفتوحات الإسلامية: تحرير.. أم تدبير؟
- ٣٠٤ - ظاهرة الإسلاموفوبيا: الجذور التاريخية والنهايات المنتظرة.
- ٣٠٥ - وسطية الإسلام.
- ٣٠٦ - بماذا تقدم الأوروبيون وتأخرنا؟
- ٣٠٧ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى.
- ٣٠٨ - حقيقة الإسلام وأصول الحكم.
- مفكرون للنشر والتوزيع:
- ٣٠٩ - معالم المشروع الحضارى فى فكر الشيخ الغزالى - مع سيرته الذاتية.
- ٣١٠ - الوشيعه فى نقص عقائد الشيعة.
- ٣١١ - التشيع الفارسى المعاصر - خفايا المؤامرة.
- ٣١٢ - نظرات فى الإسلام - دراسة وتقديم.
- ٣١٣ - العلمانية فى ميزان الإسلام.
- ٣١٤ - بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى - دراسة وتقديم.
- ٣١٥ - الدين - بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان - دراسة وتقديم.
- ٣١٦ - حاجة الإنسان إلى الدين - دراسة وتقديم.
- ٣١٧ - محمد الرسالة والرسول - دراسة وتقديم.
- ٣١٨ - امتياز المرأة على الرجل فى الميراث النفقة - دراسة وتقديم.
- ٣١٩ - القدس بين اليهودية والإسلام.
- ٣٢٠ - فى التعامل مع القرآن الكريم - منهج وتطبيقه - دراسة وتقديم.

٣٢١ - التشريع الإسلامى وأثر فى الفقه الغربى - دراسة وتقديم.

٣٢٢ - الاجتهاد - للشيخ المراغى - دراسة وتقديم.

٣٢٣ - إسلاميات الدكتور نظمى لوقا - دراسة وتقديم.

روابط:

٣٢٤ - موسوعة روائع الكتب الإسلامية، جـ ١، ٢، ٣، ٤.

٣٢٥ - موسوعة الإسلام وقضايا العصر - جـ ١، ٢، ٣.